
alexandra.ahlamontada.com
منتدى مكتبة الاسكندرية
قسطنطين سيمونوف
الاحياء والاموات

قسطنطين سيمونوف

الاحياء والاموات

ثلاثية

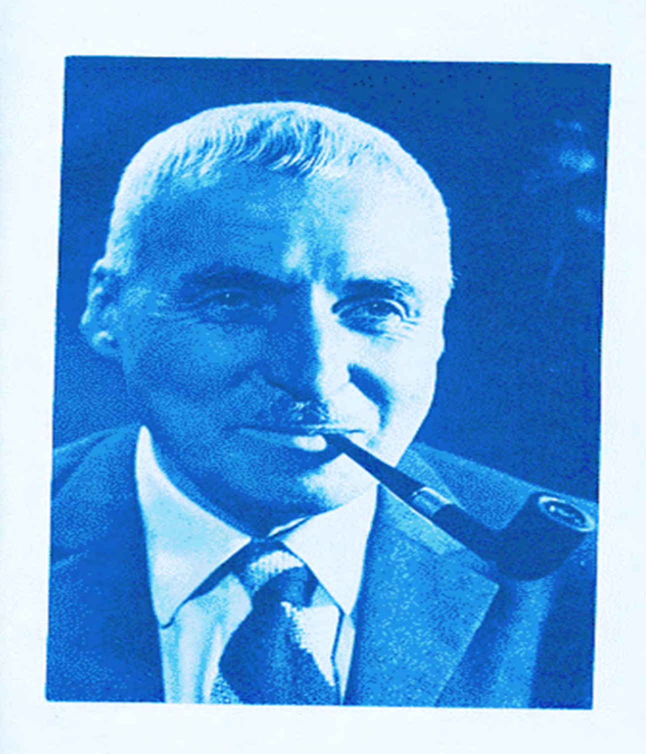
الكتاب الاول

الاحياء والاموات

ترجمة خيرى الضامن



دار «رادوغا»
موسكو



К. Симонов

ЖИВЫЕ И МЕРТВЫЕ

Трилогия

Книга первая

Живые и мертвые

На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

C $\frac{4702010200-498}{031\ (05)-85}$ 415—82

ISBN 5-05-000565-5

كلمة المؤلف

هذا الكتاب يتحدث عن عام لعله اقسى وافجع الاعوام فى تاريخ بلادى. انه عام ١٩٤١ الذى تقرر فيه مصير البشرية جمعاء، فضلا عن مصير وطنى. ففى ذلك العام تقررت مسألة ما اذا كانت الفاشية التى غزت كل اوربا تقريبا ستواصل السير على طريقها نحو السيطرة العالمية ام اننا سنأخذ بخناقها ونوقفها. نوقفها فى البداية، ثم نحطمها... تقررت هذه المسألة صيف وخريف وشتاء عام ١٩٤١ فى ارض وطنى الذى عانى الأمرين، فى غابات بيلوروسيا، فى حقول سمولينسك، فى ضواحى موسكو الملفعة بالثلوج. وشهد عام ١٩٤١ اياما وساعات كانت موسكو تسمع فيها هدير المدافع الالمانية. ان عشرات الآلاف من سكان موسكو الذين يتوجهون الآن فى الآحاد للنزهة والجولات فى جادة لينينغرادسكويه بضواحى موسكو تمر قرب المكان الذى وصلت اليه اولى دبابات المقدمة الالمانية فى زحفها نحو العاصمة. وذلك موضع قريب جدا من موسكو، انه قاب قوسين او ادنى. ولا يستغرق الطريق منه حتى مركز المدينة بالسيارة اكثر من نصف ساعة.

من سوء حظنا ان هذه الحرب داهمتنا على حين غرة. وفى شهورها الاولى تكبدنا خسائر جسيمة وقتل ملايين المواطنين. وكانت عواصم كثيرة فى العالم قد اعتبرتنا آنذاك من الهالكين. وكانوا فى تلك العواصم يتصورون ان ساعات بلد الاشتراكية معدودة. بيد ان شعبنا كان مؤمنا بالنصر، والامر الأهم انه لم يؤمن بذلك النصر فحسب، بل بذل قصارى الجهود وحقق المستحيل من اجل وقف الفاشيين ومن اجل اقامة عوائق لا تذلل على طريقهم، ومن اجل استجماع القوى وارغامهم فى آخر المطاف على العودة على اعقابهم بعيدا عن موسكو. وبعد ستة شهور من بداية الحرب طردناهم بعيدا عن موسكو، وكان ذلك اول نصر كبير لنا فى الحرب تحقق بمعركة موسكو فى كانون الاول ١٩٤١...

يستند هذا الكتاب الى ذاكرتي، ذاكرة انسان شاهد هذه الحرب من بدايتها حتى نهايتها. وانا انوي الكتابة عن كل ما رأيته حتى سقوط برلين، ولكن يجب ان ابدأ من البداية، وان كان تذكر تلك البداية يثير الشجون والاحزان. عنونت كتابي «بالاحياء والاموات» لان النصر في هذه الحرب ضد الفاشية حققه ليس فقط اولئك الذين وصلوا احياء الى برلين، بل واولئك الذين ضحوا بحياتهم في هذه الحرب العظيمة، اولئك الذين حالوا، ببسالتهم وصمودهم، دون ان تتحول هزائمنا في عام ١٩٤١ الى كارثة ماحقة.

انني اتذكر هؤلاء الناس ولن انساهم ابدا. وكل املي، ككاتب، ان يشعر القارئ، وهو يتم مطالعة هذا الكتاب، بنفس الشعور الذي اكنه انا لهم.

كان في تلك الحرب جبناء ايضا، وهم موجودون في كتابي كذلك. ويقول المثل الروسي: لا تكتمل الاغنية اذا حذفت منها كلمة. ولكنه لئن كان الناس الذين يتحلون بالشرف والكرامة والواجب يظلون في ذاكرتي ووعيي احياء حتى بعد موتهم، فان السفلة والجبناء اموات بالنسبة لي حتى وان ظلوا على قيد الحياة. هذه النظرة الى الأشياء ذات صلة ايضا بعنوان كتابي.

وآخر ما اريد ذكره هو انني الفت كتابي هذا بشعور من الأحترام العميق لبسالة الناس في الحرب وبشعور من الاستهجان الشديد للحرب نفسها. واعتقد باننا، نحن البشر، لا يحق لنا ان نسمح باندلاع حرب جديدة، واننا، نحن البشر، قادرون على الحيلولة دون اندلاعها.

قسطنطين سيمونوف

١٩٦٢/٥/١٧

الفصل الاول

كان اليوم الاول من الحرب مفاجأة تامة لعائلة سينتسوف كما لملايين العوائل الاخرى. فقد بدا وكأن الجميع يتوقعون الحرب من زمان، ولكنها مع ذلك باغتتهم في اللحظة الاخيرة كما ينهال الثلج على الرؤوس. ولعل الانسان عاجز عموما عن الاستعداد مسبقا لمثل هذه المصيبة الهائلة.

عرف سينتسوف وماشا بنبأ اندلاع الحرب وهما في الساحة الصغيرة الساخنة قرب محطة القطار في سيمفيروبول. كانا قد غادرا القطار توا ووقفا في الساحة قرب سيارة مكشوفة قديمة من طراز «لينكولن» في انتظار ركاب آخرين يستقلون السيارة معا الى المصح العسكري في غورزوف.

كانا يتحدثان مع السائق ويسألانه عما اذا كانت توجد في السوق فاكهة وطماطم، وعند ذلك قطع حديثهما الراديو الذي اعلن بصوت ابح اجتاح الساحة كلها بان الحرب بدأت، وعند ذاك انقسمت الحياة في الحال الى قسمين لا رابط بينهما: ما كان قبل لحظة، قبل الحرب، وما هو الآن.

حمل سينتسوف وماشا حقيبتيهما الى اقرب مصطبة. وجلست ماشا فتدلى رأسها وغاص بين راحتيها، وظلت جامدة على تلك الحال دون حراك. اما سينتسوف فلم يسألها عن شيء، بل توجه الى القومندان العسكري ليحجز مكانين في اول قطار عائد. وتعين عليهما الآن ان يقطعا طريق العودة كله من سيمفيروبول الى غرودنو حيث يعمل المرشد السياسي سينتسوف منذ سنة ونصف سكرتيرا لهيئة تحرير الجريدة العسكرية.

كانت الحرب بالطبع مصيبة للجميع. واضيفت اليها مصيبة عائلية اخرى. فان سينتسوف وزوجته ماشا كانا هنا في سيمفيروبول على بعد الف كيلومتر عن الحرب، بينما ظلت ابنتهما البالغة من العمر عاما واحدا هناك، في غرودنو، على مقربة من الحرب. انها هناك، وهما هنا، وما من قوة بقادرة على ايصالهما اليها قبل اربعة ايام بلياليها.

حاول سينتسوف وهو في طابور مراجعي القومندان العسكري ان يتصور ما يجري الآن في غرودنو. «المدينة قريبة جدا، جدا، من الحدود. وسلاح الجو، سلاح الجو هو الاخطر... صحيح انهم ينقلون الاطفال فورا من امثال هذه الاماكن...». وتشبث ذهنه بهذه الفكرة. وخيل اليه انها يمكن ان تهدئ من روع ماشا.

عاد الى زوجته ليقول لها ان كل شيء على ما يرام، وان القطار سيتحرك عائدا في الثانية عشرة ليلا. رفعت رأسها وتطلعت اليه بنظرة زائغة وكأنه غريب عليها.

– ماذا على ما يرام؟

– اعني ان مسألة البطاقتين على ما يرام.

– طيب – قالت ماشا بلا مبالاة، وهبط رأسها من جديد على راحتيها.

لم يكن بوسعها ان تعذر نفسها لانها سافرت وتركت ابنتها هناك. فعلت ذلك بعد محاولات عديدة بذلتها امها لاقناعها بالسفر. فقد وصلت الام الى غرودنو خصيصا لكي تتمكن ماشا وسينتسوف من السفر معا الى المصح. وحاول سينتسوف نفسه ان يقنع ماشا بالسفر، حتى انه زعل عندما رفعت بصرها اليه متسائلة في يوم الرحيل: «هل من الضروري ان اسافر معك؟». ولو لم تنزل عند رغبتهما انذاك لكانت الآن في غرودنو. لم تكن فكرة وجودها هناك ترعبها، فان ما يرعبها هو عدم وجودها هناك. استولى عليها شعور بالذنب ازاء الطفلة التي تركتها في غرودنو، حتى انها لم تعد تفكر بزوجها.

وقالت له ذلك بنفسها وبالصراحة المعهودة عنها. فقال لها سينتسوف:

– ما الداعي للتفكير بما سيحدث لي؟ كل شيء، على العموم، سيكون على ما يرام.

كانت ماشا تغضب كل مرة عندما يتكلم سينتسوف بهذا الشكل، فهو يقول بدون اي سبب كلمات مهدئة لا معنى لها. فليس بالامكان تهدئتها الآن، وقالت له:

– كفاك هذرا! ما الذي سيكون على ما يرام؟ وماذا تعرف انت؟ – ارتعشت شفتاها من الغيظ. – لم يكن لي حق بالسفر! هل انت فاهم؟ لم يكن لي حق! – كررت قولها وضربت على ركبتها بشدة بقبضتها المضمومة.

عندما استقلا القطار لاذت بالصمت ولم تعد تؤنب نفسها، وراحت تجيب على جميع اسئلة سينتسوف بـ«نعم» و«لا». وعلى طول الطريق الى موسكو ظلت ماشا سادرة شاردة البال: احتست الشاي بصورة لاارادية وتطلعت بصمت الى النافذة، ثم رقدت على سريرها العلوي وظلت راقدة ساعات طويلة ووجهها الى الجدار.

كان الجميع يتحدثون عن الحرب وحدها. اما ماشا فكأنها لم تكن تسمع ما يقولون. لقد ثار في دخيلتها غليان باطني شديد ليس بوسعها ان تسمح لاحد، حتى لسينتسوف، بالمشاركة فيه.

وحالما توقف القطار في سيربوخوف بضواحي موسكو نطقت بكلماتها الاولى خلال الطريق الطويل فقالت لسينتسوف:

– فلنخرج لنتمشى قليلا...

هبطا من العربة فامسكت بكوعه.

– اسمع، لقد فهمت الآن لماذا لم افكر بك تقريبا منذ البداية: سوف نعثر على تانيا وسنبعثها مع امي، وساظل انا معك في الجيش.

– هل انت مصممة؟

– نعم.

– ماذا لو دعت الحاجة الى تغيير هذا الرأي؟

هزت رأسها بالنفي صامتة.

فقال لها سينتسوف وهو يحاول ضبط اعصابه بان من اللازم التفريق بين المسألتين: مسالة العثور على تانيا ومسألة الالتحاق او عدم الالتحاق بالجيش...

– لن افرق بينهما! – قاطعته ماشا.

ولكنه واصل توضيحاته باصرار واكد بان من الحكمة ان يتوجه هو الى مكان خدمته في غرودنو وان تظل هي في موسكو. فاذا كانت عائلتهم قد نزحت من غرودنو (وهذا هو الاحتمال الاكبر) فان ام ماشا ستحاول مع تانيا بالطبع الوصول الى موسكو، الى شقتها هناك. ومن المنطقي ان تنتظرهما ماشا في موسكو على الاقل كيلا يفترق كل في طريق. وقال سينتسوف:

– ربما وصلتا الى موسكو من غرودنو في فترة سفرنا من سيمفيروبول!

تطلعت ماشا بارتياب الى سينتسوف ولاذت بالصمت من جديد حتى وصل القطار الى موسكو.

توجها الى شقة ارتيمييف القديمة على شارع اوساتشوفكا حيث صرفا مؤخرا يومين بلا هموم وهما في طريقهما الى سيمفيروبول.

لم يصل احد من غرودنو. وكان امل سينتسوف معلقا على برقية تصل الى موسكو، ولكن ما من برقية. فقال:

– ساذهب الى المحطة. ربما ساحصل على تذكرة في قطار المساء. اما انت فحاولي ان تتلفني الى غرودنو، فلربما تتمكنين من معرفة شيء.

اخرج من جيب قمصلته مفكرة وانتزع منها وريقة سجل عليها تلفون هيئة التحرير فى غرودنو وسلمها الى ماشا، فقالت له:

– تمهل، اجلس لحظة. انا اعرف انك ضد سفرى. ولكن كيف القيام به؟

راح سينتسوف يقنعها بان لا داعى للقيام بذلك. واضاف الى حججه السابقة حجة جديدة: اذا تمكنت من الوصول الى غرودنو والالتحاق بالجيش – وهذا شىء يشك به – افلا تفهم بان الامر سيكون اصعب عليه مرتين؟

استمعت اليه ماشا وغدا وجهها اكثر شحوبا. ثم صاحت به فجأة:

– لماذا لا تفهم انت، لماذا لا تفهم بانى انسانة ايضا؟! وبانى اريد ان اكون هناك معك؟ لماذا تفكر بنفسك فقط؟

– كيف؟ انا افكر «بنفسى فقط»؟ – سأل سينتسوف متحيرا.

ولكنها لم تجبه، بل راحت تنتحب بمرارة. وعندما كفكفت دموعها طلبت منه بلهجة جادة ان يذهب الى المحطة لاقتناء تذكرة والا فسوف يتأخر واضافت:

– خذ تذكرة لى ايضا. هل تعدنى؟

اشتاط غضبا لعنادها فلم يعد يرأف بها وافاد بلهجة قاطعة ان القطار المتجه الى غرودنو لن يقل الآن اى مدنيين ناهيك عن النساء، وان بلاغات امس اشارت الى ان خط غرودنو صار ضمن الجبهة، وان الوقت حان اخيرا لالقاء نظرة واقعية على الامور. فقالت ماشا:

– طيب. اذا لم يسمحوا لى بركوب القطار لن اعترض. ولكن ابذل جهدك انت. وانا اثق بك. اليس كذلك؟

– بلى – وافقها متجهما.

وكانت هذه «البلى» تعنى الكثير. لم يكذب عليها فى السابق مطلقا. واذا كانوا سيسمحون لها بركوب القطار فسيأخذها معه.

وبعد ساعة تنفس الصعداء وتلفن اليها من المحطة واخبرها بانه حصل على تذكرة فى القطار الذى سيتوجه الى مينسك فى الحادية عشرة – وليس هناك قطار الى غرودنو مباشرة – وان القومندان اخبره بان الاوامر صدرت بعدم السماح لاى شخص من غير العسكريين بركوب القطار فى هذا الاتجاه.

لم تجب ماشا بشىء، فصاح بالسماعة:

– لماذا انت صامتة؟

– لا بأس. حاولت ان اتلفن الى غرودنو فقالوا ان الخط لا يزال مقطوعا.

– ضعى كل حاجياتى فى احدى الحقيبتين.

– حسنا، سافعل.

– ساحاول الاتصال بالادارة السياسية. فربما انتقلت هيئة التحرير الى مكان آخر. ساحاول معرفة ذلك. ساجىء بعد ساعة او ساعتين. فلا تضجرى.

– لست ضجرة – اجابت ماشا بنفس الصوت الباهت ووضعت السماعة.

اخذت ماشا تضع حاجيات سينتسوف فى حقيبته وتفكر طوال الوقت بالشىء ذاته: كيف استطاعت ان تغادر غرودنو وتترك ابنتها هناك؟ لم تكذب على سينتسوف. فهى بالفعل لا تستطيع ان تفصل بين تفكيرها فى ابنتها وتفكيرها فى نفسها: يجب العثور على الطفلة وارسالها الى هنا، الى موسكو، ويجب على ماشا ان تبقى معه هناك، فى الجبهة.

فكيف تسافر الى هناك؟ وما الذى يتطلبه ذلك؟ تذكرت فجأة فى آخر لحظة، وهى تغلق حقيبة سينتسوف، ان لديها وريقة عليها تلفون دائرة احد رفاق اخيها الذى خدم معه فى منطقة خالخين – غول، العقيد بولينين. كان بولينين هذا قد تلفن لهما بالصدفة عندما توقفا هنا، وهما فى طريقهما الى سيمفيروبول، وافاد بانه وصل بالطائرة من تشيتا ورأى اخاها بافل هناك ووعده بان يكلم امه تاتيانا ستيبانوفنا شخصيا ويخبرها عن احواله.

وقالت ماشا لبولينين آنذاك ان امها فى غرودنو وسجلت تلفون عمله فى المفتشية الجوية الرئيسية لكى تتلفن له تاتيانا ستيبانوفنا عندما تعود. ولكن اين رقم التلفون؟ بحثت عنه طويلا بحماس محموم حتى عثرت عليه وتلفنت، فاجاب صوت غاضب:

– العقيد بولينين يتكلم!

– مرحبا! انا اخت بافل ارتيمييف. اننى بحاجة لمقابلتك.

بيد ان بولينين لم يفهم فى الحال من هى وما الذى تريده واخيرا فهم، وقال على مضض بعد فترة صمت طويلة، ان بوسعها ان تجىء بعد ساعة اذا كان اللقاء لن يستغرق وقتا طويلا. ووعد بانه سيخرج لاستقبالها عند مدخل المبنى.

لم تكن ماشا تعرف ما الذى بوسع بولينين هذا ان يساعدها به، ولكنها وصلت بعد ساعة بالضبط الى مدخل المبنى العسكرى الكبير. وخيل اليها انها تتذكر ملامح بولينين، ولكنها لم تجده بين الاشخاص المتواجدين هناك. وعلى حين غرة فتح الباب واقترب منها عريف شاب وسألها:

— تريدين مقابلة الرفيق العقيد بولينين؟

ثم اوضح لها بلهجة اعتذار ان الرفيق العقيد استدعى الى المفوضية وذهب اليها قبل عشر دقائق ويرجو ان تنتظره . ومن الافضل ان تنتظر هناك، فى الجنينة التى خلف سكة الترام . وعندما يعود العقيد سيبحث فى طلبها .

— متى سيعود؟ — سألت ماشا وقد تذكرت ان سيتسوف سيصل الى المنزل قريبا .

هز العريف كتفيه وكأنه يقول «الله اعلم» .

انتظرت ماشا ساعتين كاملتين، وعندما صممت على عدم الانتظار فترة اكثر وعبرت خط الترام لكى تصعد العربة على عجل، فى تلك اللحظة بالذات وصلت سيارة جيب هبط منها بولينين . عرفته ماشا مع ان محياه الوسيم قد تغير كثيرا وبدا شاحبا مهموما .

كان واضحا انه يحسب الحساب لكل ثانية من الوقت .

— معذرة . فلنقف هنا ونتحدث مباشرة . فهناك ينتظروننى ... ما الذى حدث؟

اوضحت ماشا باكبر قدر من الايجاز ما حدث وما الذى تريده . وقفا جنبا الى جنب فى موقف الترام، وكان المارة يتدافعون ويمسونهما باكتافهم وقال بولينين بعد ان استمع اليها:

— ماذا يمكننى ان اقول؟ اعتقد ان زوجك على حق: فالعوائل يجرى تنزيحها من تلك الاماكن على قدر المستطاع . ومنها عوائل طيارينا . واذا تسنى لى ان اعرف شيئا عن طريقهم فساتلفن لك . اما سفرك الى هناك الآن فهو غير مناسب .

— ومع ذلك ارجوك كل الرجاء ان تساعدنى — قالت ماشا باصرار .

فقال بولينين بغضب وقد صلب يديه على صدره :

— ماذا تريدين؟ ما الذى تطلبينه؟ الى اين تدسين بنفسك؟ معذرة . فى غرودنو الآن معركة تفوق التصور . فهل انت فاهمة؟

— كلا .

— اذا كنت لا تفهمين فاسمعى نصيحة الذين يفهمون!

وادرك بانه زاد فى الطين بلة، وهو يحاول اقناعها بالعدول عن ارتكاب حماقة السفر، فقد افلت لسانه بشأن المعركة الحامية الآن فى غرودنو : فان ابنتها وامها هناك . وحاول ان يصحح خطأه الاخرق فقال:

— على العموم الموقف هناك يتجلى بالطبع . وسوف ينظم بالطبع تهجير العوائل . وساتلفن لك حالما اعرف اصغر التفاصيل . حسنا؟

كان فى عجلة من امره، وكان عاجزا كليا عن اخفاء استعجاله .

... تحير سيتسوف عندما عاد الى المنزل ولم يجد ماشا . ليتها تركت له وريقة على الاقل . خيل اليه ان صوت ماشا بدا غريبا بالتلفون، ولكن هل بوسعها ان تزعل عليه اليوم بالذات وهو يستعد للرحيل؟!

لم يخبروه فى الادارة السياسية باى جديد، فهو يعلم ان المعارك جارية فى منطقة غرودنو، ولن يخبروه بنبأ انتقال او بقاء هيئة تحرير جريدته العسكرية الا غدا، فى مينسك .

لم يترك قلق سيتسوف على ابنته وانشغال باله بها والحيرة المطلقة التى اجتاحت ماشا مجالا له حتى الآن كى يفكر بنفسه . ولكنه ارتعب عندما فكر فى نفسه وتصور ماهية الحرب وادرك بانه هو بالذات، وليس غيره، يتوجه اليوم الى هناك حيث يمكن ان يقتل .

حالما فكر بذلك رن جرس التلفون المتقطع من مدينة اخرى . اجتاز سيتسوف الغرفة راكضا وانتشل السماعة من مسندها بلمح البصر، ولكن النداء التلفونى كان من مدينة تشيتا وليس من غرودنو . وبلغ مسامعه صوت ارتيمييف البعيد جدا وسط طنين خفيف لاصوات كثيرة مختلطة .

— من يتكلم؟ ماما؟

— كلا . سيتسوف .

— ظننت انك تقاتل فى الجبهة .

— ساسافر الى هناك اليوم .

— اين الباقون؟ اين امى؟

اخبره سيتسوف بحقيقة الامر . فقال ارتيمييف بصوت ابح يكاد لا يسمع على الطرف الآخر من السلك على بعد ستة آلاف كيلومتر :

— احوالكم سيئة ويا للاسف . على الاقل لا تسمح لماشا بالسفر الى هناك . يا للشيطان، ما الذى جعلنى اجيء الى هنا، الى ما وراء البايكال . اننى عاجز تماما عن مساعدتكم .

— انتهى وقت المكالمة! — رن صوت عاملة التلفون كنقار الخشب، واحتوى الفراغ السماعة فى الحال: انقطع الصوت، وانقطع الطنين، ولم يبق الا الصمت .

دخلت ماشا مطأطأة الرأس دون ان تنبس ببنت شفة . ولم يسألها سيتسوف اين كانت، فقد انتظر ان تخبره بنفسها، واكتفى بان تطلع الى ساعة الحائط: فلم يبق له الا ساعة واحدة لكى يغادر المنزل .

فهمت نظرته واحست بتأنيب الضمير وتطلعت اليه مباشرة:
– لا تزعل . ذهبت لاستفسر عن امكانية السفر معك .
– وماذا قالوا لك؟
– قالوا ان ذلك غير ممكن الآن .
– ما اشد عنادك يا ماشا! – قال سيتسوف ولاذ بالصمت .

لم تجبه بشيء وحاولت ان تتمالك نفسها وتسيطر على الرعشة في صوتها . ونجحت في ذلك اخيرا، وبدت هادئة تقريبا في الساعة الاخيرة قبيل الفراق .

بيد ان وجه زوجها في ضوء مصابيح التعتيم الزرقاء الشبيهة بالمصابيح العلاجية بدا لها سقيما كئيبا . وتذكرت كلمات بولينين: «في غرودنو الآن معركة تفوق التصور» وارتعشت لهذه الكلمات والتصقت بمعطف سيتسوف في سورة من الانفعال .

– ماذا؟ هل انت تبكين؟ – سألها سيتسوف . ولكنها لم تكن تبكي . كلا، لقد فقدت التحكم باعصابها، فالتصقت بزوجها كما تلتصق المرأة عندما تبكي .

ساد المحطة الزحام والهرج والمرج في الليل لان احدا لم يتعود على الحرب بعد، ولا على التعتيم .

لم يتمكن سيتسوف طويلا من ان يعرف متى سيأتي القطار الذي يتعين عليه ان يركبه الى مينسك . قيل له في البداية ان القطار غادر المحطة . ثم قيل له ان القطار سيتحرك عند الفجر، وعلى اثر ذلك صاح احدهم ان القطار المتجه الى مينسك سينطلق بعد خمس دقائق .

لم يسمح للمودعين بدخول رصيف المحطة لسبب ما، ولذا تزاحم الناس في الباب، فلم تتمكن ماشا وسيتسوف المحاصران من جميع الجهات حتى ان يتعانقا للوداع في تلك الجلبة . احتوى سيتسوف ماشا باحدى يديه – فالاخرى تحمل الحقيبة – وضم وجهها بألم في آخر لحظة الى حلقات السيور المتصالبة على صدره، ثم انفصل عنها على عجل وابتلعه باب المحطة .

وعندها استدارت ماشا حول المحطة راكضة فبلغت سياجا مشبكا مرتفعا بعلو شخصين، وهو السياج الذي يفصل باحة المحطة عن رصيف القطار . لم تعد تأمل في رؤية سيتسوف، ولكنها كانت تريد ان ترى على الاقل كيف سيبتعد قطاره عن المحطة . ظلت واقفة قرب السياج نصف ساعة، ولكن القطار لم يتحرك . وفجأة لمحت سيتسوف في الظلمة: هبط من عربة واتجه الى عربة اخرى .

– فانيا! – صاحت باعلى صوتها، ولكنه لم يسمعها ولم يلتفت .
– فانيا! – صاحت بصوت اعلى وهي تتشبث بالسياج .

سمعها، وتلفت مندهشا، وتطلع بضع ثوان على غير هدى الى مختلف الجهات، وعندما صاحت للمرة الثالثة، هرع سيتسوف الى السياج .

– الم تسافر بعد؟ متى سيتحرك القطار؟ ربما لن يتحرك قريبا؟
– لا ادري . الجميع يقولون انه على اهبة التحرك .

وضع الحقيبة على الأرض ومد يديه، ومدت ماشا يديها اليه عبر السياج، قبلهما، ثم احتواهما براحتيه وظل ممسكا بهما طوال الوقت .

مر نصف ساعة آخر، والقطار واقف . فقالت ماشا متنبهة:
– أليس من الافضل ان تعثر لك على مكان وتضع الحقيبة ثم تعود؟
– ا .. لا بأس – هز سيتسوف رأسه بلامبالاة واضاف دون ان يفلت يديها: – ساجلس على قاعدة باب العربة!

كانا منهمكين بالفراق الذي داهمهما فحاولا، دون الالتفات الى الآخرين، ان يخففا من الم هذا الفراق بالكلمات المعتادة المقتبسة من عهد السلام الذي ولى منذ ثلاثة ايام .

– انا واثق ان طفلتنا وامنا بخير .
– يا ليت!
– يحتمل ان التقي بهما في احدى المحطات: انا متجه الى هناك وهما الى هنا!
– يا ليت!
– حالما اصل ساكتب لك .
– ان يبقى لديك وقت الكتابة . ابعث برقية، وكفى .
– كلا، ساكتب لك من كل بد . انتظري رسائلي ...
– كيف لا انتظرها؟!
– ولكن اكتبي لي انت ايضا، اتفقنا؟
– بالطبع!

لم يكونا كلاهما يدركان تماما الآن، في اليوم الرابع، حقيقة تلك الحرب التي يتوجه اليها سيتسوف ولم يكونا يتصوران بعد انه ما من شيء، بل لا شيء اطلاقا مما يتحدثان عنه الآن سيتحقق قريبا، وربما لن يتحقق اطلاقا في حياتهما: فلن تكون هناك رسائل ولا برقيات ولا لقاءات ...

وصاح احدهم من وراء ظهر سيتسوف:

– القطار يتحرك . عجلوا!

عصر سيتسوف يدي ماشا للمرة الاخيرة والتقط حقيبته ولف على قبضة يده سير محفظته الميدانية وصعد راكضا بموازاة القطار على قاعدة العربة، فالقطار كان يزحف امامه ببطء .

وعلى اثره قفز الى قاعدة باب العربة آخرون الواحد تلو الآخر، فحجبوا سيتسوف عن انظار ماشا ومن بعيد خيل اليها انه هو بالذات يلوح لها بطاقيته، ثم خيل اليها ان تلك اليد ليست يده، وبعد ذلك لم تعد ترى شيئا . مرت امامها عربات اخرى، وصاح اناس آخرون بكلمات موجهة لاناس آخرين، بينما ظلت هي واقفة وحيدة وقد الصقت وجهها بالسياج وراحت تشد على عجل ازرار المشمع على صدرها، فقد شعرت بالبرد فجأة .

القطار مكون من عربات جلوس فقط . وهو يسير بوقفات لفترات طويلة مملة في ضواحي موسكو ومنطقة سمولينسك . وكانت اغلبية المسافرين في عربة سيتسوف وفي العربات الاخرى ايضا من القادة العسكريين والمسؤولين السياسيين العاملين في الدائرة العسكرية الغربية المختصة والعائدين الى وحداتهم من اجازاتهم على عجل . وراحوا الآن يتطلعون الى بعضهم البعض بدهشة بعد ان اجتمعوا في عربات هذا القطار المتجه الى مينسك .

كان كل منهم قد ارتحل لقضاء اجازته على انفراد ولم يكن يتصور الامور على هذا النحو، لم يكن يتصور كيف ان هذا الحشد من الناس اصبحوا منفصلين منذ اليوم الاول للحرب عن وحداتهم التي انخرطت في القتال الآن في اغلب الظن، بينما كان يتعين عليهم ان يقودوا السرايا والكتائب والافواج في المعركة .

كيف حدث ذلك في وقت كان فيه التوجس من الحرب القادمة يخيم على الجو منذ شهرين؟ لم يفهم ذلك لا سيتسوف ولا الضباط الآخرون العائدون من الاجازة . وبين الحين والآخر يتعالى الحديث عن ذلك في العربة، ثم يخفت ليتعالى من جديد . فهؤلاء الاشخاص الذين لا جريرة لهم كانوا يشعرون بالذنب وينفعلون في كل فترة طويلة يتوقف فيها القطار .

لم يكن القطار يسير حسب جدول معين رغم ان صفارات الانذار الجوي لم تسمع ولا مرة خلال اليوم الاول من الطريق . وفي الليل فقط، عندما توقف القطار في اورشا زأرت القاطرات في كل مكان وطقطق الزجاج : فقد قصف الالمان احدى محطاتها .

وحتى هنا، عندما سمع سيتسوف اصوات القصف لاول مرة، لم يكن يدرك بعد مدى اقتراب قطارهم من الحرب . وفكر في نفسه : «لا عجب ان يقصف الالمان في الليل القطارات المتوجهة الى الجبهة» . وتصور سيتسوف، مع كابتن المدفعية الجالس قبالته والمتوجه الى وحدته في دوماتشيفو على الحدود، بان الطائرات الالمانية تقلع، في اغلب الظن، من وارشو او كينيغسبيرغ . ولو قيل لهما ان الطائرات الالمانية تقلع الليلة الثانية وتقصف اورشا من مطارنا العسكري في غرودنو، من نفس غرودنو التي يتوجه اليها سيتسوف للالتحاق بهيئة تحرير جريدته العسكرية لما صدقا بذلك!

وانقضى الليل، وتعين عليهم ان يصدقوا باخبار اسوأ من ذلك بكثير . في الصباح، بلغ القطار بمنتهى الصعوبة محطة بوريسوف حيث اعلن قومندانها، وهو يتضور الما كالمصاب بوجع الاسنان، ان القطار لن يتقدم اكثر . فالطائرات الالمانية قصفت السكة الحديدية بين بوريسوف ومينسك والدبابات الالمانية قطعتها .

كان الجو في بوريسوف مغبرا خانقا، وكانت الطائرات الالمانية تحوم فوق المدينة . وعلى الطريق حركة مكثفة للقوات والسيارات : بعضها الى جهة والبعض الآخر الى الجهة الاخرى . وعلى قارعة الطريق المبلطة بالآجر قرب المستشفى صفت النقالات وعليها القتلى .

وامام مبنى القومندانية وقف ملازم اول وراح ينادي بصوت يصم الاسماع : «اطمروا المدافع!» . وكان ذلك هو قومندان المدينة . طلب منه سيتسوف مسدسا فهو لم يأخذ معه سلاحه في الاجازة . بيد ان القومندان لم يجد مسدسا ليسلمه له، فقبل ساعة وزع كل محتويات المشاجب عن آخرها .

اوقف سيتسوف وكابتن المدفعية اول سيارة شحن تصادفهما . كان سائقها يجوب المدينة بعناد بحثا عن مدير المستودع الذي ضاعت آثاره . واستقل سيتسوف والكابتن الشاحنة وتوجها للبحث عن آمر الحامية . كان الكابتن قد فقد كل امل في الوصول الى فوجه على الحدود، فرغب في الحصول على تعيين في وحدة مدفعية ما هنا مباشرة . اما سيتسوف فكان يأمل في معرفة مكان الادارة السياسية للجبهة . واذا لم يعد الوصول الى غرودنو ممكنا فليبعثوه الى جريدة اي جيش او فرقة . كانا كلاهما مستعدين للذهاب الى ايما مكان والقيام باي عمل كيلا يبقيا هائمين بين السماء والارض في هذه الاجازة المشؤومة . وعلما بان آمر الحامية موجود في مخيم عسكري بضواحي بوريسوف .

في اطراف بوريسوف مرقت فوق السيارة مقاتلة المانية واطلقت نيران

الرشاشات. لم يصب احد، بيد ان خشبات متن السيارة تطايرت. افاق سينتسوف من الرعب الذى جعله ينبطح ووجهه الى قاع السيارة المشبع برائحة البنزين وانتزع مندهشا شظية خشبية كبيرة انغرزت فى زنده عبر القمصلة.

ثم اتضح ان البنزين فى سيارة الشحن يكاد ينفد فتوجهوا، قبل ان يواصلوا البحث عن آمر الحامية، الى مستودع البترول على الطريق العام باتجاه مينسك.

وهناك رأوا مشهدا غريبا: اشهر الملازم مدير مستودع البترول مع عريف آخر مسدسيهما على ميجر فى بزة الهندسة. وكان الملازم يصرخ بانه على استعداد لاطلاق النار على الميجر دون ان يسمح له بنسف المستودع. وكان الميجر الكبير السن، بوسام على الصدر، قد رفع يديه مستسلما وهو يرتعش من الاسف ويوضح بانه جاء الى هنا ليس من اجل نسف مستودع البترول بل من اجل التأكد من امكانية نسفه. وعندما هبط المسدسان فى الاخير صرخ الميجر، ودموع الهياج تترقرق فى عينيه، ان من العار تصويب المسدس نحو قائد اقدم. ولم يعرف سينتسوف خاتمة ذلك المشهد. فقد دمدم الملازم، وهو يستمع متجهما الى تأنيب الميجر، بان آمر الحامية موجود فى ثكنات مدرسة الدبابات فى غابة ليست بعيدة من هنا. وتوجه سينتسوف الى تلك الغابة.

كانت جميع ابواب مدرسة الدبابات مشرعة على مصاريعها، ولا احد هناك، سوى دبابتين خفيفتين بطاقميهما تركتا فى الميدان انتظارا لاوامر لاحقة. بيد ان الاوامر ما عادت تصل الى هنا منذ يوم وليلة. ولا احد يعرف شيئا. يقول البعض ان المدرسة تم تهجيرها، ويقول البعض الآخر ان تلاميذها توجهوا الى المعركة. ويقال ان آمر حامية بوريسوف موجود فى مكان ما على طريق مينسك، ولكن فى الجهة الثانية لمدينة بوريسوف.

عاد سينتسوف والكابتن الى بوريسوف. وكان يجرى شحن موجودات القومندانية. وهمس القومندان بصوت ابح ان المارشال تيموشينكو اصدر امرا بترك بوريسوف والأنسحاب الى ماوراء بيريزينا والدفاع هناك حتى الرمق الأخير للحيلولة دون تقدم الألمان.

وقال كابتن المدفعية مرتابا ان القومندان يتكلم من عندياته. بيد ان موجودات القومندانية تشحن، ومن المستبعد ان يشحنوها بدون امر من جهة ما. وتوجها من جديد فى سيارة الشحن الى خارج المدينة. كانت جموع الناس تسير على الطريق وكانت السيارات تجوبه مثيرة سحب الغبار. بيد ان الجميع يتحركون هذه المرة ليس فى جهات متعددة، بل فى جهة واحدة: شرقى بوريسوف.

عند مدخل الجسر وقف وسط الزحام شخص ضخم بدون طاقية وبيده مسدس. كان مهتاجا يصيح بالناس والسيارات التى يعيقها عن السير ويجأر بصوت ممزق بانه هو، المرشد السياسى زوتوف، يريد ان يوقف الجيش هنا وسيوقفه من كل بد وسيطلق النار على كل من يحاول الانسحاب!

بيد ان الناس كانوا يتحركون ويسيرون ازاء المرشد السياسى، كانوا ماشين وراكبين، وكان هو يسمح لبعضهم بالمرور كى يتمكن من ايقاف الآخرين بعدهم. دس مسدسه فى نطاقه وامسك بتلابيب احدهم، ثم افرج عنه، وانتشل مسدسه من جديد واستدار وامسك مهتاجا من جديد بتلابيب شخص آخر، ولكن دون جدوى...

اوقف سينتسوف والكابتن السيارة فى غابة غير كثيفة على مقربة من النهر. الغابة غاصة بالناس. وقيل لسينتسوف انه يوجد فى مكان غير بعيد قادة يعملون على تشكيل وحدات حربية. وبالفعل استقر فى طرف الغابة عدد من العقداء وراحوا يسجلون قوائم بالأشخاص على ثلاث شاحنات مكشوفة لكى يشكلوا منهم سرايا تتوجه بامرة قادة يعينون فى الحال الى شمال وجنوب نهر بيريزينا. وكانت هناك شاحنات اخرى محملة باكوام البنادق التى توزع على الذين يسجلون اسماءهم ولا يمتلكون سلاحا. سجل سينتسوف اسمه، وكان من نصيبه بندقية مزودة بحربة وبدون سير. فتعين عليه حملها بيده طوال الوقت.

احد العقداء الآمرين، وهو من سلاح الدبابات، اصلع يحمل وسام لينين، وقد وصل من موسكو بنفس العربة مع سينتسوف. تطلع العقيد فى بطاقة الأجازة والهوية الشخصية لسينتسوف ولوح بيده ساخرا ولسان حاله يقول: ما جدوى الجريدة الآن؟ ولكنه امر سينتسوف مع ذلك بان لا ينصرف بعيدا: فلا بد من وجود عمل له كانسان مثقف. بهذه اللهجة الغريبة بالذات عبر العقيد عن فكرته «كانسان مثقف». راوح سينتسوف فى مكانه ثم ابتعد وجلس قرب سيارته على بعد مائة خطوة من العقيد. ولم يعرف معنى هذه المبارة الا فى اليوم التالى.

بعد ساعة جاء راكضا الى سيارة الشحن كابتن المدفعية وانتشل كيس حاجياته من قمرتها ونادى سينتسوف سعيدا وافاد بانه استلم، كبداية، مدفعين لقيادة مفرزتيهما، وانصرف راكضا. ولم يره سينتسوف بعد ذلك ابدا.

ظلت الغابة غاصة بالناس. ومهما ارسل منهم تحت قيادة عسكرية الى مختلف الجهات فان عددهم، كما يبدو، لا يتناقص ابدا.

بعد ساعة ظهرت فوق غابة الصنوبر غير الكثيفة اولى المقاتلات الالمانية.

كان سيتسوف ينبطح على الارض كل نصف ساعة ويلصق رأسه بجذع صنوبرة نحيفة تتمايل قمتها المشعثة عاليا فى السماء. واثناء كل غارة تبدأ الغابة باطلاق النار نحو الجو. كانوا يطلقون النار من البنادق والرشاشات والمسدسات بوضعيات الوقوف والقعود والانبطاح.

اما الطائرات فكانت تحلق وتحلق. وكلها طائرات المانية.

«واين طائراتنا؟» – تساءل سيتسوف بمرارة، كما تساءل الجميع حواليه بصمت او بصوت.

وقبيل المساء مرت فوق الغابة ثلاث من مقاتلاتنا بنجومها الحمراء على الجناحين. هبت مئات من الناس تصيح فرحة وتلوح بالايدى. وبعد دقيقة عادت «النسور» الثلاثة وهى تطلق نيران الرشاشات.

خر قتيلا ضابط تموين كهل كان قد وقف قرب سيتسوف وخلع طاقيته وحمى بها عينيه من الشمس كى يرى طائراتنا جيدا. والى جانبه جرح احد جنود الجيش الاحمر فجثا على الارض يتضور ألما وقد امسك ببطنه. بيد ان الناس ظلوا يعتقدون بان ذلك خطأ وصدفة لا اكثر. ولم يطلقوا النار الا عندما مرقت نفس الطائرات للمرة الثالثة فوق قمم الاشجار. كانت الطائرات تحلق على ارتفاع واطىء بحيث امكن اسقاط احدها بالرشاش. ارتطمت الطائرة بالاشجار وهوت على الارض وتحطمت شذر مذر على بعد مائة متر عن سيتسوف. وفى حطام قمرة الطائرة ظلت جثة طيار يرتدى البزة الالمانية. ومع ان الغابة كلها هللت فرحا فى اللحظات الاولى: «اسقطناها اخيرا!»، فقد ارتعب الجميع بعد ذلك لفكرة ان الالمان تمكنوا فى مكان ما من الاستيلاء على طائراتنا.

واخيرا حل الظلام الذى طال انتظاره. اقتسم سائق الشاحنة مع سيتسوف رغيفه المجفف كما يتقاسم الاخوة واخرج من تحت المقعد قنينة من العصير الحلو الدافىء كان قد اشتراها فى بوريسوف. النهر يبعد عنهما اقل من نصف كيلومتر، ولكن سيتسوف والسائق خانتهما قواهما ليصلا اليه بعد كل ما عانياه خلال النهار. شربا القنينة، ورقد السائق فى القمرة مادا رجليه خارجها، اما سيتسوف فقد هوى على الارض ووضع محفظته الميدانية عند عجلة السيارة ووضع رأسه عليها وفكر بعناد رغم الرعب والحيرة: كلا، ذلك مستحيل. ان ما رآه هنا لا يمكن ان يحدث فى كل مكان!

وغفى تهدهده هذه الفكرة، ولكنه استيقظ بسبب طلقة مرت فوق رأسه. كان شخص ما جالسا على الارض على بعد خطوتين عنه وراح يطلق النار فى

الجو من مسدسه. تفجرت قنابل فى الغابة ولاح اللهيب من بعيد. وفى كافة ارجاء الغابة كانت السيارات فى الظلمة تصطدم ببعضها البعض وترتطم بالاشجار فتزأر محركاتها وتسير.

وهم السائق بالتحرك ايضا، بيد ان سيتسوف قام باول تصرف عسكرى خلال اليوم، حيث امر السائق بالانتظار حتى يهدأ الاضطراب. وبعد ساعة فقط، عندما هدأ كل شىء – اختفت السيارات واختفى الناس – جلس مع السائق فى القمرة وراحا يبحثان عن مخرج من الغابة.

لاحظ سيتسوف عند الخروج من الغابة على طرفها جماعة من الناس تبدو قائمة فى الامام على خلفية اللهيب، فاوقف السيارة وتوجه نحوهم حاملا بندقيته بيديه. كان اثنان من العسكريين واقفين على حافة الطريق يتحدثان مع مدنى احتجزاه وراحا يطالبانه بالهوية الشخصية:

– ليس عندى هوية!

– لماذا؟ – اصر احد العسكريين – اعطنا هويتك!

– كيف اعطيكما هويتى؟ – صاح المدنى بصوت غاضب مرتجف – ما حاجتكما الى هويتى؟ فهل انا هتلر؟ تبحثون عن هتلر طوال الوقت! ولن تقبضوا عليه!

انتشل العسكرى مسدسه وهو يطالب بالهوية، فصرخ المدنى بيأس وقنوط:

– اطلق النار اذا كنت معدوم الضمير!

من المستبعد ان يكون ذلك الشخص من المخربين. لعله مجند ارهقه البحث عن مركز التجنيد حتى طفح كأس الغيظ المرير لديه. بيد ان ما صرخ به بخصوص هتلر لا يجوز التصريح به امام اناس هائجين متوترى الاعصاب بسبب متاعبهم وآلامهم...

فكر سيتسوف بذلك فيما بعد، ففى تلك اللحظة لم يتسن له الوقت للتفكير بشىء: اندلع فوق رؤوسهم صاروخ ابيض يغشى الابصار. هوى سيتسوف، منبطحا، وسمع هدير الانفجار. انتظر لحظة ثم نهض، وعندها رأى على بعد عشرين خطوة ثلاث جثث مشوهة. ظل الصاروخ متوهجا عدة ثوان اخرى وكأنه يأمره بان يتذكر هذا المشهد الى الابد، ثم انطفأ بسرعة فى السماء وسقط فى مكان ما دون ان يبقى له اثر.

عاد سيتسوف الى السيارة فرأى رجلى السائق من تحتها اذ كان قد دس رأسه تحت المحرك. صعدا الى القمرة من جديد وقطعا بضعة كيلومترات نحو الشرق على طريق السيارات فى البداية، ثم فى طريق غابى. صادف سيتسوف

قائدين عسكريين فعرف منهما بان امرا صدر البارحة للانسحاب من الغابة التي توقفوا فيها بالامس الى خط خلفي جديد يبعد سبعة كيلومترات .

ترك سينتسوف القمرة وسار امام الشاحنة كيلا ترتطم بالاشجار في سيرها بدون انارة . ولو سئل عن الغرض من هذه السيارة وعن اهتمامه بها لما اجاب بشيء معقول . فالحال ان السائق الذي ضيع وحدته لم يكن يريد ترك المرشد السياسي وان هذا المرشد السياسي الذي لم يبلغ وحدته كان مسرورا ايضا لان شخصا حيا ارتبط به طوال الوقت بفضل هذه السيارة .

وعند الفجر فقط ، بعد ان اوقفا السيارة في غابة اخرى ، حيث تقف شاحنة تحت كل شجرة تقريبا وحيث انهمك الناس في حفر الخنادق والأخاديد ، تمكن سينتسوف اخيرا من الوصول الى الرئاسة . كان الصباح باردا مدلهما . وقف امام سينتسوف على ممشى في الغابة شخص لا يزال في ريعان الشباب نسبيا بذقن لم تحلق منذ ثلاثة ايام وسدارة تغطي الجبين وقمصلة بشارات معينية الشكل على الياقة ومعطف افراد الجيش الأحمر على كتفيه وبيده ، لسبب ما ، معول . وقيل لسينتسوف ان هذا الشخص ، على ما يبدو ، هو آمر حامية بوريسوف .

اقترب سينتسوف من الرفيق مفوض اللواء هذا ، وادى التحية وسأله عما اذا كان يستطيع ، هو المرشد السياسي سينتسوف ، ان يحصل على عمل حسب اختصاصه في الصحافة العسكرية ، وفي حالة العكس فاية اوامر يتعين عليه تنفيذها . ألقى مفوض اللواء نظرة زائغة على هويته الشخصية في البداية ثم عليه شخصيا وقال بكآبة لامبالية :

— الا ترى ماذا يجري؟ عن اي عمل صحافي تتحدث؟ اية جريدة يمكن ان تصدر هنا الآن؟

قال ذلك بلهجة جعلت سينتسوف يشعر بتأنيب الضمير . وبعد فترة صمت قصيرة قال مفوض اللواء :

— ينبغي لك مراجعة الاركان ، والاصح مراجعة الادارة السياسية للجبهة ، وسيقولون لك هناك الى اين تذهب .

— واين الاركان والادارة السياسية؟ — سأل سينتسوف بشيء من الامل .

بيد ان مفوض اللواء هز كتفيه دلالة على جهله بمكانهما وراح يتكلم مع الآخرين .

ابتعد سينتسوف ، وما كاد يفكر بما يتعين عليه فعله حتى صادف عقيدا من سلاح الدبابات له معرفة به .

— انا ابحث عنك . اين كنت تتسكع ؟ — ناداه العقيد بلهجة صارمة . — الا ترى ما هناك؟ — واشار الى جماعة من الناس جالسين على جذعي صنوبرتين مطروحتين . — شكلنا مجلسا ثلاثيا مؤقتا . وبما انك كنت سكرتيرا في الجريدة فيوسعك ان تساعدهم في تسجيل المحاضر .

جلس على جذعي الصنوبرتين حقوقي عسكري برتبة ميجر فاحم الشعر ، ومرشد سياسي اشقر بقمصلة سلاح الجو وميجر من قوات الامن بياقة ارجوانية واربعة من جنود الجيش الاحمر الذين كانوا تحت امرتهم . كان السبعة يأخذون قسطا من الراحة . وازاءهم رفوش ، وعلى مقربة منهم يتثاءب اخدودان مضادان للجو ومحفوران حتى النصف . قدم سينتسوف نفسه فسأله الحقوقي :

— هل عندك مفكرة؟

— نعم .

— حسنا . سنكمل حفر الاخدودين الآن ، ثم نبدأ العمل .

انجزوا الحفر بعد ساعة . جلس سينتسوف على الارض وتدلت رجلاه في الاخدود . ألم به النعاس بسبب التعب والجوع ، فلم يلاحظ كيف غفا .

رأى في المنام بادىء ذي بدء حديقة تسير فيها ماشا ببزة عسكرية عليها شارات الحقوقي العسكري ، ثم رأى شقتهم الواقعة على شارع اوساتشوفكا في موسكو ، دخلها شخص بملامح هتلر وبصوت المدني الذي قتلته القتبلة امس ، وسأل عما اذا كان لديهم طعام . وراح سينتسوف يبحث عن المسدس في جنبه لكي يطلق النار عليه ، ولكنه لم يعثر على المسدس ...

استيقظ لان شخصا دفعه الى الاخدود وهوى عليه من فوق . ثم حفر الاخدودين في الوقت المناسب : فعلى ارتفاع كبير فوق اشجار الصنوبر حلقت طائرات وراحت تقصف الغابة بالقنابل .

قضى سينتسوف نهارين في غشاوة ضبابية بسبب التعب والجوع ولانه لم يذق طعم النوم ثلاثة ايام تقريبا . كان ينزل تارة الى الاخدود منتظرا انتهاء القصف ، فيغفو قليلا ، وتارة يخرج منه ليتدفأ في الشمس حيث تتدلى رجلاه في الاخدود ويغفو قليلا ايضا ، وتارة ثالثة يسجل المحاضر عندما يقتادون المحتجزين ويبدأ الحقوقي والمرشد السياسي الاقدم والميجر باستجوابهم . فيضع سينتسوف المفكرة على ركبته ويسجل الكلمات بمنتهى الصعوبة . وكان الحقوقي يقول له كل مرة :

— سجل باختصار ، سجل ما هو رئيسي فقط !

والامر الرئيسي هو ان جميع المحتجزين لم يكونوا مخربين ولا جواسيس

ولا فارين. كانوا مجرد اناس يتنقلون من مكان الى آخر، او يبحثون عن احد ما او عن شيء ما ولا يعثرون عليه لان الامور تشوشت واختلط الحابل بالنابل. كان البعض منهم قد تعرضوا للقصف الجوى وللنيران وارتعبوا من الاشاعات بشأن جنود الانزال الالمان والدبابات الالمانية فدفنوا هوياتهم او مزقوها خوفا من الاسر.

وبعد الاستجواب كان يطلق سراحهم عادة، ويقال لبعضهم الى اية جهة يجب ان يتجهوا بصورة تقريبية، ولا يقال لبعضهم الآخر اى شيء، لان المستجوبين لا يدرون ماذا يقولون للمحتجزين. وكان كثير من الذين يطلق سراحهم لا يرغبون فى الانصراف لانهم يخشون من ان يحتجزوا من جديد فى مكان ما وتوجه اليهم تهمة التخريب.

وكان اثنان من المحتجزين المشكوك فيهما جدا، وهما ببزتين عسكريتين ولكن بدون هويتين، قد حكم عليهما بالاعدام رميا بالرصاص كمخربين، لانهما لم يقدما اجوبة توحى بالثقة بشخصيتهما والجهة التى جاءا منها والجهة التى يقصدانها وفيما بعد تحدث الحراس الذين رافقوهما الى طرف الغابة كى يطلقوا النار عليهما ان احدهما بكى وطلب الانتظار مؤكدا بانه سيوضح كل شيء، وان الثانى طلب الانتظار فى البداية، ولكنه هتف فى اللحظة الاخيرة، امام فوهات البنادق: «يحيا هتلر!».

وكان بين المحتجزين خلال يوم واحد جندى مجنون، وهو شاب فارع القامة جدا بيدين ورجلين كما لدى العمالقة ورأس طفولى صغير وحليق على رقبة طفولية طويلة. لم يتحمل القصف الجوى فخيل اليه انه وقع فى الاسر عند فاشيين ارتدوا بزة الجيش الاحمر، فهرع الى الطريق وراح يلوح بيديه ويصيح بالطائرات الالمانية المحلقة:

– اقصفوا، اقصفوا!

اختلط كل شيء فى دماغه بعد ان فقد رشده: خيل اليه إن من حواليه المان، وان الطائرات الالمانية هى طائراتنا. ووجد رفاقنا صعوبة كبيرة فى ربط يديه.

وقف شاحب اللون مرتعشا، وراح يحدق تارة بالحقوقى وتارة بسينتسوف ويصرخ بهما:

– يا فاشيان، لماذا ارتديتما بزتنا؟ اننى اعرفكما، فلماذا ارتديتما بزتنا؟

اخفقت كل المحاولات لتهدئته واقناعه انه موجود بين ذويه. وكلما واصلوا اقناعه كلما اتقد فى نظراته لهيب الجنون.

وعلى حين غرة تلفت الى الجانبين بسرعة وانفلت وقفز الى جهة وانتشل بندقية سينتسوف الموضوعة عند جذع شجرة وركض الى الطريق بثلاث قفزات هائلة وصاح بصوت جنونى رقيق يشبه الصرير:

– اهربوا! تخلصوا! الفاشيون يطوقوننا! انقذوا انفسكم!

جأر بصوت غير بشرى سمعه الجميع، وراح يتقافز على الدرب ملوحا بالبندقية، وهو ينحنى تارة ويعدل قامته تارة اخرى.

شاهد احدهم هذا الشخص الذى يرقص على الطريق ويصرخ مذعورا فاطلق النار عليه من مسدسه عدة مرات دون تفكير ولكنه اخطأ فى اصابته. ثم اطلق النار شخص آخر واخطأ ايضا.

وادرك سينتسوف بان هذا الانسان سيقتل فى الحال، لا بد وان يقتلوه طالما هو يصرخ بهذه الكلمات الفظيعة التى تثير الذعر. صمم على انقاذه فهرع اليه ولم يفكر باى شيء آخر فى تلك اللحظة. ولكن الجندى المجنون، عندما رأى سينتسوف راكضا نحوه، استدار شاهرا بندقيته واسرع لملاقاته. ورأى سينتسوف عن كثب عينيه النافرتين من محجريهما والمفعمتين بحقد جنونى، فقفز الى جانب بحيث اتجهت ضربة الحربة الى الفراغ، وامسك بالبندقية بكلتا يديه: اليمنى بعقبها واليسرى بماسورتها. ولم يطلق احد النار فى هذه اللحظة خوفا من ان يصيب سينتسوف. اما هو والجندى المجنون فراحا يتنازعان على البندقية لبضع ثوان بشكل مسعور. وفى هذا الصراع تشبث سينتسوف بعقب البندقية تدريجيا بكلتا يديه، اما الجندى فصار يمسك بالماسورة فقط. استجمع سينتسوف كل قواه وسحب البندقية نحوه ولم يفهم ما حدث فى الحال: فقد افلت الجندى البندقية ولوح بيديه وكأنه يريد ان يمسك برأسه، ولكن اليدين لم تبلغا الوجه فهوى الجندى على الدرب وجبهته على الارض.

وعندما سقط الجندى ادرك سينتسوف ان الاطلاقة التى سمعها قبل ثانية من ذلك ليست اطلاقة غريبة بل صادرة عن سينتسوف نفسه. فعندما سحب البندقية بشدة لمس الزناد صدفة، وها هو راقد على الدرب الشخص الذى قتله.

فكر سينتسوف بان الجندى قتيل وليس جريحا قبل ان يلقى بالبندقية ويجلس القرفصاء قرب القتيل. سقط الجندى ووجهه الى الارض، وقد استدار رأسه الطفولى الحليق ورقد بشكل غير مريح ومثير الشفقة. وسال الدم على رقبته الى الارض المتربة: فقد اخترقت الطلقة حنجرته فى نتوء البلعوم مباشرة.

– كاد هذا السافل يثير الذعر بين الناس! – قال كابتن فارع القامة

بدقن غير حليق وقد وقف ازاء القتيل . وبيده مسدس . فهو اول من اطلق النار . وكرر الكابتن : — سافل يثير الذعر ! فليمت ميتة الكلاب !

ورغم انه كان يتكلم بثقة وخشونة فان عينيه لمعتا كسيرتين كعيون الكلاب . ويبدو انه يريد بكلماته الخشنة ان يقنع نفسه والآخرين بانه كان على حق عندما اطلق النار على هذا الانسان .

كان سيتسوف حائرا مضيما . فاول عمل قام به فى الحرب هو انه قتل واحدا من افراد قواته . اراد ان ينقذه فقتله ! .. فما افظع تلك الفعلة الحمقاء؟ !

ظل حتى آخر النهار دون ان يعرف بالضبط ما يجرى حواليه . فالبعض يقولون ان مينسك لا تزال كالسابق تحت سيطرتنا، ثم قال البعض الآخر، على العكس، بان الالمان احتلوا بوريسوف . وقبيل المساء قيل انه امكن على بعد سبعة كيلومترات من هنا وقف الدبابات الالمانية . وبالفعل كان القصف المدفعى المكثف مسموعا فى الامام دون ان يقترب او يبتعد ... بلغت جميع هذه الانباء المبتورة مسامع سيتسوف على نحو ضبابى غامض : وسط القصف الجوى، وعبر الافكار المرهقة عن الشخص الذى ارداه قتيلا وعبر التحقيقات والاستجوابات الجديدة .

وعند المغيب جاء الى سيتسوف جندى افاد بان العقيد يدعوه .

كان عقيد سلاح الدبابات، وهو يتمتع بحق قيادة الآخرين جميعا لانه اشطرهم، واقفا عند طرف الغابة قرب خيمة مموهة بالاغصان . وفى ذلك الوقت راح اثنان من جنود الاتصال يمدان الى الخيمة سلك التلفون الميدانى . والى جانب العقيد وقف مفوض الكتيبة فى بزة قوات الحدود .

وقال العقيد لسيتسوف بدون مقدمات :

— كنت تسأل عن الادارة السياسية للجبهة . فهذا الرفيق يعرف بمكانها — واشار الى مفوض قوات الحدود — انها قرب موغيليف، وهو متوجه الى هناك وبوسعه ان يأخذك معه .

هز المفوض رأسه بالايجاب صامتا .

— سآخذ حاجياتى فى الحال . هل ستنتظر ثلاث دقائق؟

هز المفوض رأسه بالايجاب مجددا وتطلع الى ساعته .

— بكل سرعة ! — ركض سيتسوف الى الشاحنة ليأخذ حقيبته منها .

بيد ان الشاحنة لم تكن موجودة فى مكانها السابق . جاب سيتسوف المكان لحظة وكأنه يتصور ان الشاحنة التى اختفت ستظهر من باطن الارض، ثم تذكر ان المفوض ينتظره فلوح بيده يائسا وركض عائدا .

كان المفوض واقفا قرب الخيمة يراوح بنفاد صبر . وسأله :

— اين حاجياتك؟

— فى السيارة، والسيارة لا ادرى الى اين ذهبت ... — اجاب سيتسوف واضاف : — سأسافر بدونها .

وشعر بالسرور لانه اخرج من الحقيبة قبل ساعة معطفه العسكرى وارتداه عندما اقترب المساء .

— اجل — قال مفوض الحدود وطبطب على محفظته الميدانية الخاوية تقريبا — حاجياتى ايضا كلها هنا، حتى اننى لا امتلك معطفا، فقد احترق فى السيارة .

وكان بوسعه ان يقول لسيتسوف ان كل شىء لديه قد ضاع الى الابد : احترق منزله وهلكت عائلته، ولكنه لم يذكر الا المعطف المحترق واضاف :

— هيا !

اجتازا سيرا على الاقدام كيلومترين فى درب غابى حتى التقى هذا الدرب بطريق مينسك للسيارات . وكان سيتسوف يتوقع بانهما سيتوقفان عند احدى السيارات المختبئة تحت الاشجار ويستخدمانها . كان قد فوت ما قاله المفوض بشأن المعطف الذى احترق فى السيارة ولم يعره اهتماما . وعندما بلغا طريق مينسك الذى كانت تجوبه سيارات الشحن بين الحين والآخر وقال المفوض وسنطلب من احداها ايصالنا الى اورشا، ادرك سيتسوف ان المفوض لا يمتلك سيارة وانهما سيصلان الى ما يبغيان بالسيارات المتجهة الى هناك صدفة . وقال المفوض :

— تقدم مائتى خطوة الى الامام وسابقى انا هنا . فاذا لم اوقف انا احدى السيارات حاول انت .

ابتعد سيتسوف مائتى خطوة ورأى جيدا كيف حاول المفوض عدة مرات ايقاف سيارة . ورفع سيتسوف يده ايضا ولكن السيارات ما كانت لتتوقف . واخيرا رأى سيتسوف ان المفوض اوقف سيارة شحن وفتح باب قمرتها واخذ يتحدث مع الجالسين فى الداخل .

اندفع سيتسوف راكضا نحو السيارة . وفى تلك اللحظة هدر زئير طائرة محلقة على ارتفاع منخفض . انبطح سيتسوف على الارض كعادته، واحس بالرائحة الخانقة للاسفلت الساخن . وبعد عدة ثوان التفت، فلم ير على الطريق لا الشاحنة ولا المفوض الذى كان قربها . فقد وقعت القنبلة مباشرة على السيارة وتصاعد الدخان من حفرة على الاسفلت وتطايرت حواليها قطع

الحديد الملتوية، وعلى الطريق تدحرجت باتجاه سيتسوف عجلة كانت قد انفصلت عن السيارة. استمرت العجلة في تدحرجها بضع خطوات اخرى وكأنها ارادت ان تصل الى قدمي سيتسوف بالذات، ثم ترنحت للحظة وسقطت فصر حديدها على الاسفلت.

وقف سيتسوف وحيدا على طريق مينسك. وكانت السيارات تنهب الطريق وتمر به، واكتنف فؤاده اسى كاد يدفعه الى الصراخ او النحيب لولا التعب الذي تجاوز كل الحدود.

قطع سيتسوف بضعة كيلومترات اخرى قبل حلول الظلام وبات ليلته تلك، شأنه شأن الآلاف غيره، في اخدود على جانب الطريق، حيث وضع سدارته تحت رأسه وغطى وجهه بياقة معطفه. غط في نوم عميق عدة ساعات دون ان يسمع زئير السيارات التي تنهب الطريق، ودون ان يصل مسامعه هدير القصف الليلي. واستيقظ لان شخصا لوى ياقة المعطف ولمس وجهه بيده. وقال صوت:

– كلا، هذا الرجل حي.

فتح سيتسوف عينيه وجلس. فرأى صبيين في حوالي السادسة عشرة من تلاميذ مدرسة المدفعية الخاصة يرتديان معطفين نظيفين بشارة من مدفعين ذهبيين متصالبين على طرفي الياقة السوداء. ولعلهما، مثل سيتسوف، لم يتناولا طعاما منذ زمان. فقد نحل وجهاهما الطفوليان ولاحت نظرة اليأس والقنوط في اعينهما. كانا شبيهين بصغار الزيغان التي القى بها من الاعشاش على قارعة الطريق.

نهض سيتسوف وسألهما:

– ماذا يا شباب؟ الى اين انتما ذاهبان؟

اجاب الصبيان بانهما كانا في سمولينسك حيث ساهما في التدريب للاستعراض الرياضي الصيفي، وهما الآن عائدان الى مدرستهما الخاصة في بوريسوف.

وسألهما سيتسوف:

– اين تقع المدرسة؟ داخل بوريسوف؟

فاجابا بالنفي وقالا انها تقع ابعد من ذلك بستة عشر كيلومترا باتجاه مينسك. فقال سيتسوف:

– اعتقد ان الالمان وصلوا الى تلك المنطقة. كنت هناك بالامس.

تطلع اليه الصبيان بارتياب، ثم اشاح احدهما ببصره. تابع سيتسوف نظرة الصبي فرأى على بعد مائتي متر على جانب الطريق عدة جثث هامدة، وفي وسط الطريق هوة راحت سيارة الآن تتجاوزها وهي مسرعة نحو الشرق. عندما رقد سيتسوف بالامس لم تكن هناك اية جثث. وذلك يعني ان قنبلة سقطت في الليل على مقربة منه فقتلت الناس ومع ذلك فلم يستيقظ. وقال احد الصبيين:

– ظننا انك قتيل ايضا. فالى اين يتعين علينا ان نذهب؟

وقال الثاني:

– سنذهب مع ذلك الى المدرسة. لا يعقل ان يكون هناك المان.

لم يتمكن سيتسوف من اقناعهما. لم يصدقا به. ولكنهما فرحا جدا عندما عثر في جيب معطفه على العلبة التي اعطاها اياه الحقوقي العسكري بالامس، وعرض عليهما ان يأكلا شيئا قبيل السفر. كانت العلبة تحتوي على سميكات صغيرة مملحة اكلوها ثلاثتهم بدون خبز ولا ماء.

وانصرف الصبيان. وظل سيتسوف يتابعهما طويلا بقلق.

ثم نفض معطفه ونظف سدارته وسار على طريق مينسك باتجاه الشرق، الى اورشا.

كان الجميع في تلك الايام يسيرون على هذا الطريق ويهرجون على الغابة وينتظرون اثناء القصف الجوي راقدين في السواقي على حافتي الطريق، ثم ينهضون ويقيسونه من جديد بخطاهم المتعبة. وكان كبيرا على الخصوص عدد اليهود النازحين من ستولبتسي وبارانوفيتشي ومولوديتشنو وغيرها من بلدات وقرى بيلوروسيا الغربية. والآن، في اليوم الثامن للحرب، تجاوزوا بوريسوف، وذلك يعني انهم شدوا الرحال من زمان، منذ اليوم الاول... آلاف من الناس استقلوا مختلف انواع العربات. ففيها الشيوخ بلحاهم وافوادهم الشيباء وبقلنسوات القرن التاسع عشر. وبدت اليهوديات المرهقات وقد شخن قبل الاوان. وكان هناك الكثير من الاطفال: في كل عربة ستة او ثمانية او عشرة اطفال سمر تسلط عيونهم على ما حواليهم نظرات سريعة مرتعبة. غير ان عددا اكبر من الناس كان يسير ازاء العربات.

وبين العجائز والشيوخ والاطفال بالاسمال الرثة كان غريبا على هذا الطريق منظر النساء الشابات في معاطف انيقة متربة تثير الشفقة وبتسريحات جميلة مغبرة ومائلة الى احد جانبي الرأس. وفي ايدي الجميع صرر من مختلف الاحجام والاشكال. والاصابع متشنجة مرتجفة من التعب والجوع.

تحرك ذلك الحشد نحو الشرق، ومن جهة الشرق سار للقائه على حافتي الطريق شبان بالبسة مدنية يحملون صناديق صغيرة من الخشب المعاكس وحقائب من الجلد الاصطناعي واكياسا على الاكتاف – انهم المجندون يسرعون في الوصول الى مراكز التجنيد المخصصة لهم مسبقا كيلا يعتبرهم احد هاربين. كانوا يسيرون لملاقاة الموت، لملاقاة الالمان. ويستحثهم للسير قدما الايمان والواجب. لم يكونوا يعرفون اين يتواجد الالمان بالفعل، ولم يصدقوا بان الالمان يمكن ان يصلوا الى هذه الانحاء قبل ان يتسنى لهم هم ان يرتدوا البزة العسكرية ويتسلموا السلاح ... كانت تلك واحدة من احلك مآسي تلك الايام – مأساة اناس تجرعوا الموت تحت قصف القنابل على الطرق ووقعوا في الاسر قبل ان يصلوا الى اماكن التجنيد.

وعلى الجانبين امتدت الغابات والاجمات الوادعة الساكنة. علق في ذاكرة سينتسوف في ذلك اليوم مشهد بسيط. قبيل المساء رأى قرية صغيرة منبسطة على رابية واطئة. البساتين الخضراء القاتمة مغمورة بضوء الغروب الاحمر. وفوق سطوح المنازل يتعالى الدخان، وعلى قمة الرابية، في خلفية الغروب، اقتاد الصبيان الخيول الى المراعي. مقبرة القرية قريبة جدا من طريق السيارات. القرية صغيرة والمقبرة كبيرة. فان هضبة كاملة مغطاة بالصلبان، الصلبان المتاوية والمائلة والعتيقة والمغسولة بالامطار والثلوج. اهتزت مشاعر سينتسوف لذلك كله لتلك القرية الصغيرة وتلك المقبرة الكبيرة ولعدم التناسب بينهما. وحز في فؤاده شعور مؤلم واحساس حاد بالارض – الام التي داست جزمات الالمان جزءا منها هناك، وراءه، والتي قد تضيع غدا اجزاءا اخرى هنا. ان ما رآه سينتسوف خلال اليومين الاخيرين اقنعه بان الالمان يمكن ان يصلوا الى هنا ايضا. بيد انه لم يستطع ان يتصور هذه الارض محتلة. فما اكثر الاسلاف المجهولين – من اجداد وآباء اجداد واجداد اجداد – الرابضين تحت هذه الصلبان الواحد فوق الآخر من مئات السنين! هذه الأرض ارضنا في الاعماق لالف متر، ولا يمكن بل ولا يحق لها ان تكون ارضا للغير.

فيما بعد لم يشعر سينتسوف مطلقا بمثل هذا الرعب الممض: ما الذي سيحدث؟! واذا كانت البداية كهذه فما الذي سيحدث لكل ما احبه وترعرع في احضانه وعاش من اجله؟ ما الذي سيحدث للوطن، للشعب، الجيش الذي تعود هو على اعتباره جيشا لا يقهر؟ ما الذي سيحدث للشيوعية التي اقسم على ابادتها هؤلاء الفاشيون الذين وصلوا في اليوم السابع من الحرب الى مواقع بين مينسك وبوريسوف؟

لم يكن جبانا، ولكنه، شأنه شأن الملايين من المواطنين الآخرين، لم يكن مستعدا لما حدث. قضى القسم الاكبر من حياته، مثل هؤلاء الآخرين، في الحرمان والمحن والنضال. ولذا لم يستطع الثقل الرهيب للايام الاولى من الحرب، كما اتضح فيما بعد، ان يسحق معنوياتهم. بيد ان الكثيرين منهم تصوروا في الايام الاولى ان هذا الثقل فوق طاقة الانسان، مع انهم بالذات تحملوه فيما بعد.

قبل سنة ونصف لم يفرح سينتسوف عندما عرضوا عليه البقاء في كوادر الجيش بدلا من التسريح ولكنه وافق على هذا العرض. فالفرقة التي خدم فيها كانت مرابطة في منطقة نهر بوغ، وكان فاشيون موجودين فيما وراء بوغ. كان الجو مشبعا برائحة الحرب. وكان هو يعتقد بان الشيوعيين في مثل هذه الحالة لا يرفضون الخدمة في الجيش.

وعندما حدث ما ظل يخدم في الجيش من اجله، عندما بدأت الحرب ضد الفاشية، لم يقيض له منذ البداية ان يتواجد في وحدته وفي مكانه، فصار انسانا مضيعا يقدم وثائقه لاي كان دون جدوى ويبحث عن هيئة التحرير التي لا يعلم احد بموقعها. وهو الآن، في بحثه عنها، يبتعد عن الجبهة كالهارب من الخدمة.

كان، حتى بعد مقتل مفوض الحدود، قد شد العزم على الوصول الى موغيليف طالما قيل له ان الأدارة السياسية للجبهة موجودة هناك. ولكنه صمم، في حالة عدم صحة هذا الكلام، على ان يكف عن البحث عنها ويطلب تعيينه مرشدا سياسيا في اول وحدة يصادفها.

منذ الصباح اخذ يرفع يده لايقاف سيارة ما كما فعل في مساء امس، ولكن لم تتوقف اية سيارة من اجله. فلم يعبأ بذلك وسار بعناد على الطريق طوال ما تبقى من النهار دون ان يلتفت الى السيارات. كان تارة ينساق وراء افكاره المرهقة، وتارة لا يفكر بشيء سوى تحريك قدميه الثقيلتين كالرصاص.

ولعله كان سيصل ماشيا في آخر المطاف الى اورشا، بيد ان شاحنة توقفت قربه عند المساء. وسأله عقيد كان جالسا في قمرتها:

– ما هي وجهتك ايها المرشد السياسي؟

– اورشا – أجاب سينتسوف متجهما.

– لماذا تسير ماشيا؟

– مللت من رفع يدي لايقاف سيارة. – اجاب سينتسوف بنفس اللهجة المتجهمة – سفلة، لا يريدون مساعدتي.

— نعم، ليس السفلة قليلين . — قال العقيد — ولكنهم اقل مما يتوقع المرء فى مثل هذا الموقف الحرج . ارنى هويتك!

قدم سينتسوف هويته الى العقيد بلامبالاة . فالقى العقيد عليها نظرة سريعة واعادها له قائلا : — اصعد .

يعد ساعة من السير المسعور وصلت السيارة الى اورشا . لم تكن هذه السيارة تابعة للعقيد . فقد طلبها بكلمة شرف لتوصله الى اورشا فقط . وهو، مثل سينتسوف، يقصد مدينة موغيليف ويأمل فى الوصول اليها من اورشا بالقطار . دخل سينتسوف مع العقيد على قومندان المدينة . وكان مقر القومندانية فى قبو احدى المدارس . وجلس عند الطاولات قرب اجهزة التلفون ثلاثة اشخاص داخت رؤوسهم من الصياح وهم الميجر قومندان المدينة وميجران آخران من العاملين فى السكك الحديدية . وسأل العقيد:

— هل سيتوجه قطار الى موغيليف؟

فى تلك اللحظة القى القومندان الذى وجه اليه سؤاله سماعة احد التلفونات والتقط سماعة اخرى على عجل . بيد ان العقيد امسك كتف القومندان بيده القوية وادار وجهه نحوه قسرا .

— اجبنى، انا اسألك: هل سيتوجه قطار الى موغيليف؟ ومتى؟

— تمهل، ايها الرفيق العقيد! — قال الميجر بصوت ابح — لا بد ان يتوجه قطار ... — والتقط سماعة التلفون الذى ناداه فراح يستمع ويغدو وجهه اكثر قساوة كلما اطال الاستماع، واخيرا اطلق شتيمة كثيبة والقى بالسماعة . — لن يتوجه قطار، ايها الرفيق العقيد! وبوسعك ان تحكم على ذلك بنفسك: اخبرونا الآن ان الطائرات قصفت قطارا يحمل ذخيرة، وتحطم كلا خطى السكة . ولن يتوجه اى قطار الى موغيليف!

— لا بأس، فليذهب الى الشيطان — قال العقيد بهدوء لسينتسوف — امثال هذا الميجر لا يعرفون شيئا غير انباء التفجير والتدمير . ولربما بالامكان ان يمر القطار بهدوء . فلنذهب الى المحطة وسنعرف الحقيقة هناك .

لم تكن معرفة الحقيقة فى المحطة بالامر اليسير: الانوار مطفأة . وافاد القومندان العسكرى ومدير المحطة بهمس غريب انهما لا يعرفان شيئا عن ذلك بعد . واخيرا تمكن العقيد من العثور على احد العاملين فى السكك فقال له هذا بهمس ايضا وكأنه يبوح سرا لا يجوز البوح به ان قطارا بضاعيا

يجرى تشكيله على السكة وراء المضخة وان هذا القطار سيتوجه الى موغيليف . فقال العقيد:

— فلنسرع!

يبدو ان هذا الانسان الكهل المحنك الذى رأى الكثير فى الحياة كان، مثل سينتسوف، يشعر بالوحدة ويتعطش الى المشاطرة البشرية . فقد حدث سينتسوف بانه وصل بالطائرة الى موسكو من دائرة الفولغا العسكرية وعين رئيس لاركان فيلق ووصل الى بوريسوف بحثا عن فيلقه، وكاد يقع فى الاسر، وقضى يوم امس كله يقود فى المعركة سرية ظلت بدون قائد، وعرف اليوم بان فيلقه غير موجود هنا، فقد وصل الى منطقة اوسيبوفيتشى — بوبرويسك ولذلك فهو ذاهب الى هناك عن طريق موغيليف . واضاف بغيظ :

— كان من الممكن بالطبع الاستمرار فى قيادة السرية . ولكن يجب احلال النظام مع ذلك! اننا نقاتل اليوم الثامن، والحمد لله . حان الوقت لأن نفيق من الغيبوبة! طالما عينونى رئيسا لاركان فيلق فيجب ان اصل الى مكانى وليس كافيا ان احمل البندقية وانبطح مع المنبطحين . عندما احلت قيادة السرية الى ملازم اول اتهمنى احد المغفلين بالجبن .

— وبم اجبته؟ — سأل سينتسوف

— بم اجيبه؟ سددت لكمة الى بوزه الكريه لكى يكون اكثر ذكاءا فى المستقبل، وانصرفت .

احتقن وجه العقيد عندما تذكر ذلك، واشتاط غضبا ذلك الوجه المتعب المتجهم اصلا .

صرفا وقتا طويلا بين السكك بحثا عن القطار وكما يحدث دائما تقريبا للشخص الواثق من نفسه والذى يعرف ما يريد، التف حواليهما بالتدريج زهاء عشرة رجال يرغبون فى السفر الى موغيليف لمختلف الاسباب .

وفى اثناء بحثهم عن القطار اغارت القاذفات الألمانية على المحطة . وزأرت القاطرات البخارية الواحدة تلو الاخرى فى سكك المحطة المزدحمة .

كانت هناك بضع عشرات من القاطرات فى محطة اورشا . زأرت تلك القاطرات تكرر احداها صفير الاخرى نافثة سحبا من البخار الابيض . وكان صفيرها مرعبا وكئيبا بشكل فظيع . كان اكثر ارعابا من هدير القصف الجوى الذى تعود عليه سينتسوف خلال هذه الايام . وخيل اليه ان القاطرات

تشكي باعلى صوتها ولا احد يعرف لمن تشكي: للسماء ام للبشر؟ انها تشكي وتنشد النجدة، بينما تنهال السماء بوابل من القنابل على الارض السوداء فتنفجر تلك القنابل بين المساكن وعلى قضبان السكك الحديدية وفوق الناس المنبطحين على السكك – فوق الناس التعساء المنصعقين الغاضبين الذين استشاطوا غيظا على كل ما يجري حواليهم.

بعد انتهاء الغارة وصلوا الى المضخة فلم يجدوا هناك اي قطار. جلسوا جميعا للاستجمام على اكوام الخبث قرب القضبان. ولم يكن اي منهم راغبا في الكلام. ولكن الصمت كان مستحيلا كذلك: فقد طفح كأس الصبر لدى كل منهم. فقال احدهم بنبرة كئيبة وسط الظلمة التي لم تمكن سينتسوف من رؤية وجهه في تلك الليلة:

– فوجئنا ولم نكن على علم او تصور.

– لو لم نكن على علم فالمصيبة اهون – رد العقيد بعد فترة صمت – ولكننا كنا على علم وكنا نتوقع ذلك. وعند الامتحان لا شيء غير الفوضى.

– تشويش كثير الى حد مدهش! – قال احدهم في الظلمة بصوت رفيع مستغرب – انه امر يثير الدهشة.

– كتيبة الهندسة التي اخدم فيها كانت مرابطة في بيلوستوك – قال صوت جهوري رخيم – فالى اين انسحبت الآن؟..

– ابحث عنها، ومن جد وجد! – اجاب صوت غاضب بشدة وبرود.

ولازم الجميع الصمت بضع دقائق.

– درسنا كارثة آب ١٩١٤ في الاكاديميات وسخرنا من سامسونوف، وها نحن نكرر الشيء ذاته... – قال بلهجة خشنة نفس الصوت الحديدي البارد الذي رد على جندي الهندسة، وواصل كلامه: – على العموم سننتصر بسهولة، في اراضي الغير، وباقل الخسائر... يعيش! يحيا!.. وهلمجرا.

– سنصل الى اراضي الغير، كن واثقا من ذلك ايها ال... معذرة انني لا اراك هناك في الظلمة ولا اعرف رتبتك! – رد العقيد غاضبا – ولكن الحق معك: فالفوضى واسعة، واسعة جدا... والامر الاهم هو ان علينا نحن ان نصفي الموقف وليس غيرنا!

اثار ذلك جوقة من الردود والملاحظات. وقال احدهم اننا الروس نطيل تسريج الحصان ولكننا نستحثه سريعا فيما بعد. بيد ان احدا لم يؤيد ما قال.

– لسنا في معركة ١٨١٢. فيجب الآن تسريج الحصان بسرعة، والا

فسوف نتراجع حتى سمولينسك.

وقال العقيد ان حكاية الحصان بدعة من الالمان.

كانوا يتجادلون، ولكن اصواتهم ترتعش بنفس الغضب والاسى. كانوا منسحقين ليس فقط للاضطراب الواضح تماما، بل والاكثر من ذلك لان المعارك تسير في مكان ما ولان وحداتهم تقاتل، بينما لم يصلوا اليها هم حتى الآن ولا احد يعلم متى سيصلون اليها. وقال احدهم:

– كادوا يعدمونني يوم امس رميا بالرصاص كمخرب! كادوا يدسون المسدس في فمي وكأنني حصان. لقد ساهمت في تحرير بيريكوب، اما هؤلاء الغلمان السفلة فقد شهروا المسدس في وجهي!

وفجأة سأل العقيد وكأنه تذكر شيئا، سأل من الشخص الذي لم يعجبه صوته البارد:

– انت، يا صاحب كارثة آب، هل انت مسافر معنا الى موغيليف؟ اتبحث عن وحدتك؟

بيد ان احدا لم يرد على هذا السؤال. ولعل الذي وجه اليه السؤال لم يكن راغبا في الجواب، او لعله انصرف... وكان واضحا رغم الظلام ان الحاضرين التفتوا الى بعضهم البعض بحثا عنه. واخيرا رن صوت جندي الهندسة الرخيم:

– اعتقد انه ذهب. فقد كان جالسا قربي.

– بالطبع، يصادف ان نرى المذعورين ايضا – قال العقيد بعد فترة صمت، ولعله يرد على كلمات جندي الهندسة، او لعله يرد على افكاره هو – يوجد من يستحق ان يشهر المسدس في وجهه، ولكن يصادف انهم يشهرونه ليس في وجه من يستحق ذلك... فلننهض! – ونهض قبل الاخرين – الشيطان اعرف بهم. ربما لديهم مضخة اخرى في مكان ما. فلنذهب لنبحث عنها.

لم يعثروا على مضخة اخرى. ولكنهم وصلوا بعد ساعة الى عامل تحويل القضبان الذي اشار الى عربات تقف سوداء بعيدة بدون قاطرة وقال بثقة ان تلك العربات ستضاف الى قطار يتوجه الى موغيليف.

ذهب الجميع الى العربات بعد ان تعبوا من البحث سدى. وعلى عربتين مكشوفتين بين العربات البضاعية انتصب باصان جديدان من سيارات الاركان. فقال العقيد:

– فلنصعد الى الباصين – وتسلق احدى العربتين وحاول فتح باب الباص فانفتح. – اذا تحرك القطار سنسافر على هذا النحو، والا فسنبيت الليل على الاقل.

وصعد سينتسوف الى الباص ايضا. وجلس على مقعد جديد مغلف بالمشمع وتلمسه بيده وكأنه فقد ثقته خلال هذه الأيام بوجود شيء ما جديد ونظيف، ثم مال برأسه الى زجاج النافذة البارد وغفا.

استيقظ في الصباح ولم يتمكن من معرفة مكان وجوده. كان مسافرا داخل الباص، والى جانبه، على المقاعد الاخرى، يغط عسكريون غرباء في النوم، ووراء النوافذ من كلا الجانبين تنطلق غابات خضراء مشمسة دافئة. فكر بانه يسير على طريق السيارات، وبعد ذلك تذكر ما مر به ليلا وادرك بان الباص واقف على عربة القطار المكشوفة والقطار هو الذي يسير. لم يخدعهم عامل التحويل. فالقطار كان يقترب من موغيليف.

اخذ قومندان موغيليف هوية سينتسوف وقرأها مرارا بعينيه الحمراوين المتورمتين. لعله كان متعبا جدا حتى انه في المرة الاولى ينظر الى الورقة دون ان يرى شيئا، وفي المرة الثانية يتلقف منها الكلمات التي تقع عليها نظرته، وفي المرة الثالثة فقط يبدأ يفهم ما هو مكتوب عليها. وقال لسينتسوف ان الادارة السياسية للجبهة موجودة على بعد ثلاثة عشر كيلومترا عن موغيليف.

– عبر هذا الجسر المرئي هناك من النافذة، ثم الى اليسار على طريق السيارات باتجاه اورشا. عند الكيلومتر الثالث عشر. سترى في الغابة...

حالف الحظ سينتسوف. فقد تمكن من ايقاف سيارة بيكاب على الجسر. في قمرتها جلس مع السائق ملازم اتصال، اما داخلها فمملوء بالقنابل اليدوية. وجد سينتسوف لنفسه مكانا على القنابل ونقلته السيارة الى غابة كثيفة تمتد الى اعماقها عدة طرق جديدة غير معبدة، ونزل سينتسوف في احد تلك الطرق.

توجه الى اعماق الغابة. ساء الطقس وتساقط المطر رذاذا. وعلى سفوح هضاب مكسوة بالاشجار كان يجري في كل مكان حفر الاخاديد وانشاء المخابيء المطمورة. وفي بعض الاماكن انتصبت رشاشات مضادة للجو اربعة اربعة. ويبدو ان هيئة الاركان والادارة السياسية للجبهة استقرتا هنا توا.

وقابل سينتسوف مفوض فرقة نحيفا في معطف جلدي اصفر غدا قاتما بسبب المطر وبمحيا وسيم طيب وشاربين اصفرين. كان واقفا عند الطريق وكان يشبه بطل الحرب الاهلية تشاباييف.

توجه اليه سينتسوف. فاخذ المفوض بطاقة اجازة سينتسوف وامسك بها بضع ثوان تحت الرذاذ فوقعت عليها قطرة تحولت الى بقعة بنفسجية على ختم المسؤولين في موسكو. وقال المفوض، وهو يطوي البطاقة نصفا على نصف:

– للاسف انى لا اعرف اين هيئة التحرير الآن. واعترف بانى لا اعرف حتى الآن اين يقع القسم السياسي لجيشكم الثالث. وعلى العموم... – اراد، على ما يبدو، ان يقول بانه لا يعرف عموما اين الجيش الثالث نفسه، ولكنه لم يقل ذلك، بل اكتفى بابتسامة كالحة – يتعين عليك ان تخدم هنا، عندنا... – وقدم وثائق سينتسوف ليس الى سينتسوف نفسه بل الى مفوض الكتيبة السمين المتورد الوجنتين الذي كان واقفا ازاءه وخيل لسينتسوف انه يعرفه – فليعمل الرفيق المرشد السياسي عندكم. فان تورماتشيف سيغيب لامد طويل، اليس كذلك؟

ايده مفوض الكتيبة بان تورماتشيف سيغيب لامد طويل، وطلب السماح له بالانصراف واخذ سينتسوف معه.

– ستبقى عندنا اذن – قال لسينتسوف بعد نصف ساعة وقد جلس معه في سيارة جيب مخبأة تحت اشجار الشوح.

على ارضية «الجيب» ترموس راحا يحتسيان الشاى منه حسب الدور، وعلى ركبتى مفوض الكتيبة جريدة عليها كومة من البقسماط الفواح. وقال المفوض:

– غلفته زوجتى في موسكو. وزعلت منها آنذاك: «لماذا تزودينني بالطعام؟ سأعيش على ارزاق الجيش!». اما الآن فانا مسرور...

البقسماط من موسكو، ومفوض الكتيبة، وهو رئيس تحرير جريدة جبهوية، من موسكو ايضا. في العام الماضي وصل سينتسوف الى موسكو للاشتراك في دورة صحفية قصيرة، وكان هذا المفوض يلقى محاضرات في الدورة عن الحياة الحزبية. وكان هو اول انسان يقابله سينتسوف خلال الايام الخمسة الاخيرة وله معرفة، ولو قليلة، به. والامر الاهم هو انه لم يعد بحاجة الى التجوال والتسكع وتقديم وثائقه الى اى كان وسماع اجوبة من قبيل «لا ادرى» و«غير معروف». لقد وصل اخيرا الى وحدة بوسعه ان لا يبحث بعدها عن شيء، وبامكانه البقاء هنا وتلقى الاوامر والقيام بما جاء الى الجبهة من اجله.

وتنهد سينتسوف عميقا لكل هذه المشاعر التى انهالت عليه دفعة واحدة.

– ماذا بك؟

– تعبت من التسكع.

– الامور عصيبة عموما – قال مفوض الكتيبة. – اصاب المخربون تورماتشيف بجراح امس. هل تعرفه؟

– كلا.

– في السابق كان يعمل في جريدتكم «راية الكفاح». كان قادما الى هنا، الى الادارة السياسية، في سيارة هيئة التحرير ليلا فاوقفه احدهم وبيده مصباح. طلبوا منه هويته وعندما هم باخراجها اطلقوا النار عليه من المسدس في جنبه. واختفوا. فمن فعل ذلك؟ ولماذا؟ اصدرنا عدد اليوم من الجريدة – ظل المفوض حسب الظاهر ينتقل من موضوع الى آخر، ولكنه في الواقع يتحدث عن الوضع العصيب – ولكن لا ندري الى اين نبعث بها. البريد الميداني لا يعمل بعد. ولا ندري اين مواقع الوحدات. هذا الصباح وزعت جميع العاملين على السيارات وبعثتهم الى مختلف الطرق لكي يقدموا رزمة من نسخ الجريدة الى اية وحدة يعثرون عليها. الامور عصيبة للغاية – قال المفوض في الختام وامر سينتسوف بالسفر الى موغيليف للالتحاق بالمطبعة والمساهمة في اصدار الجريدة. واضاف قائلا: – هناك الآن ثلاثة اشخاص فقط: السكرتير وعامل على الآلة الكاتبة والمشرف على الاصدار.

– هل المادة كافية؟ – سأله سينتسوف.

– اصدرها مما هو متوفر. وساصل اليكم فيما بعد. اي مادة تقصد؟ – هز المفوض كتفيه – ربما سيحضرون مادة في المساء. سيوزعون الجريدة ويحضرون شيئا. فهل لديك انت مادة ما؟ – تساءل المفوض والقى بنظرة على سينتسوف.

بيد ان سينتسوف تطلع اليه صامتا. وفكر في نفسه: «اية مادة يمكن ان تكون لدي؟ اجل، عندي مادة. لقد رأيت خلال هذه الايام اكثر ما رأيت طوال حياتي. ولكن هل يمكن طبع ذلك كله الى جانب نشرة البلاغات الاذاعية التي اقتبسها رئيس التحرير ويحتفظ بها الآن على ركبتيه مع البقسماط؟! البلاغات تتحدث عن المعارك الكبرى في مناطق الحدود، اما انا فلم اتمكن من الوصول من بوريسوف الى مينسك البعيدة عن الحدود حتى قبل ثلاثة ايام. فما الذي ينبغي تصديقه: هذه البلاغات ام الذي رأيته بعيني؟ او لعل الحقيقة هي هذا وذاك على حد سواء. ربما تدور هناك، في الامام، على الحدود معارك دفاعية طاحنة ولكنها ناجحة فعلا، اما انا فقد وقعت في منطقة يسيطر عليها الالمان، واستولى علي الرعب فلا استطيع ان اتصور ما يجري في الاماكن الأخرى؟».

وحتى لو كان هذا وذاك حقيقة على حد سواء فالقضية في الجريدة لا تتغير. فان بلاغاتها المقتبسة عن الاذاعة تدعي انها وحدها حقيقية! ذلك هو واقع الامور، وذلك هو الاستنتاج الوحيد.

– ليست لدي اية مواد – قال سينتسوف بعد صمت طويل وهو يتطلع الى عيني رئيس التحرير مباشرة. وقد فهم كل منهما الآخر.

عاد سينتسوف الى موغيليف تحت جنح الظلام في نفس سيارة هيئة التحرير التي جرح فيها ليلة البارحة تورماتشيف الذي لا معرفة له به، وكان السائق هو نفسه سائق البارحة. راح طوال الطريق يتحدث عن حادثة الامس، حتى ان سينتسوف صار كلما يوقفونهم في مراكز التفتيش يقدم هويته بيده اليسرى ويمسك المسدس بيده اليمنى، وهو المسدس الذي اهتم رئيس التحرير بالحصول عليه من اجله في الادارة السياسية.

خلال الليل تمكنوا كيفما اتفق في مطبعة موغيليف العتيقة من اعداد البروفات واصدار عدد جديد من الجريدة الجبهوية. احتل نصف الجريدة البلاغان الاخيران الصادران عن مكتب الاستعلامات، وقد نشرا باحرف كبيرة كي يشغلا مكانا اكبر. اما ما تبقى من مواد فقد جمع كيفما اتفق عند منتصف الليل من المراسلين الذين وزعوا عدد الامس. وكانت تلك لمحات قصيرة عن مختلف البطولات مقتبسة من احاديث اشخاص انسحبوا طوال الاسبوع عبر المعارك او تمكنوا توا من التخلص من التطويق الالماني. وبالتدريج اختفى من تلك اللمحات كل ما يعطي فكرة عن الاماكن التي تدور فيها المعارك الآن. اختفى ذلك في البداية باقلام المراسلين، ثم بالقلم الاحمر الذي يستخدمه سينتسوف لكي يجعل تلك اللمحات مطابقة البلاغات. ولعل تلك اللمحات تكتسب طابعا مسكنا عندما تنشر قرب البلاغات التي تتحدث عن معارك الحدود المتواصلة. فالناس يحاربون ويسجلون آيات البسالة ويقتلون الفاشيين. ولكن اين؟ ذلك ما تتحدث عنه البلاغات.

وعلم سينتسوف حتى من الاقوال الشحيحة التي ذكرها المراسلون العائدون الى هيئة التحرير خلال الليل ان ما رآه على طريق مينسك حدث ليس على ذلك الطريق وحده. فقد اقتحم الالمان اماكن كثيرة. والوضع، في الجبهة الغربية على اية حال، عصيب غامض، وليس من صلاحية الجريدة الجبهوية ان تكشف ذلك الغموض! لقد ادرك سينتسوف هذه الحقيقة فراح قلمه الاحمر يعمل دون تردد. ولكنه لم يكن يفهم شيئا آخر: كيف امكن لذلك ان يحدث؟ لم يفهم ذلك فصار يتعذب متسائلا: هل من المعقول اننا لن نتمكن رغم كل الجهود بان نحول الوضع في الايام القريبة القادمة؟ كل ما رأته عيناه يقول له: كلا، لن نتمكن. بيد ان روحه ما كانت تتقبل الرضوخ، فهي تؤمن بالعكس! ومع انه كان يحق له ان يصدق عينيه فان ايمان روحه اقوى

من كل ما هو واضح للعيان . وما كان بوسعه ان يتحمل تلك الايام لولا هذا الايمان الذى كان راسخا لديه بشكل غير ملحوظ، كما لدى الملايين من العسكريين والمدنيين الذين انخرطوا فى تلك الحرب باعوامها الاربعة .

عند الفجر وقبيل البدء بطبع العدد قرأه سينتسوف من جديد بذهن متبلد سطرا بعد سطر. ثم فرش معطفه ورقد على الارضية الحجرية الباردة فى المطبعة . كانت مكائن الطباعة العتيقة تدوى متعبة، وكانت الارضية تهتز بعض الشيء تحت رأسه .

تذكر سينتسوف ابنته قبيل ان يغط فى نومه وادرك بغضب عاجز انه الآن، بعد ان صار يعمل فى جريدة اخرى وفى قطاع آخر من الجبهة، لن يتمكن اطلاقا من معرفة شيء عنها، الى ان يتغير الحال، فى اقل تقدير، تغيرا جذريا ...

الفصل الثاني

فى الصباح غادرت سيارات الجريدة الاربع مبنى المطبعة . وفى كل سيارة مراسلان وعشر رزم من نسخ العدد الذى طبع توا . وظل اسلوب التوزيع كما كان عليه يوم امس، حيث تنقل الجريدة بمختلف طرق السيارات وتوزع على جميع الذين يصادفهم المراسلون، وفى الوقت، ذاته يجمع المراسلون ما يتيسر من مواد لاجل العدد التالى .

صرف سينتسوف فى النوم على ارضية المطبعة ثلاث ساعات لا غير . وكان قد استيقظ فى خلالها مرة واحدة عندما وصل رئيس التحرير فى الفجر. نهض سينتسوف من نومه بذهن غائم تماما . غسل وجهه فى ماء الحنفية وشد حزامه وخرج الى الباحة وصعد الى قمرة الشاحنة، ولم يصح من نومه بالتمام والكمال الا عندما بلغ طريق بوبرويسك . كانت الطائرات تزأر فى الجو، ففى الخلف، فوق موغيليف احتدمت معركة جوية : كانت قاذفات القنابل الالمانية تهاجم جسر الدنيبر على ارتفاع منخفض، بينما اشتبكت تغطيتها المكونة من سبع او ثمانى مقاتلات على ارتفاع كبير فى معركة مع ثلاث من مقاتلاتنا الخنساوات البواشق التى اقلعت من مطار موغيليف .

كان سينتسوف قد سمع ان هذه «البواشق» تفوقت فى اسبانيا ومنغوليا على المقاتلات الالمانية والايطالية واليابانية . وهنا ايضا فى البداية اشتعلت النار بطائرة «ميسرشميت» وسقطت . ولكن بعد ذلك انقلبت وسقطت اثنتان من مقاتلاتنا دفعة واحدة . وظلت الطائرة الاخيرة فى الجو وحيدة .

ارقف سينتسوف سيارته وخرج منها وراقب لحظة كيف كانت مقاتلتنا تحوم بين الطائرات الالمانية ثم اختفت جميع الطائرات وراء السحب، فى حين واصلت قاذفات القنابل الهادرة تحليقها الواطىء فوق الجسر الذى لم تتمكن من اصابته على ما يبدو .

— ماذا؟ هل نواصل السير؟ — سأل سينتسوف رفيقه الجالس على رزم الجريدة في داخل السيارة. وهو معاون مرشد سياسي لقبه لوسين الذى يشبه اسماء البنات.

كان لوسين هذا شابا نشيطا فارع القامة ووسيما متورد الوجنتين بخصلة شقراء انفلتت من تحت طاقيته الجديدة الانيقة. كان في بزته التي تناسبه تماما ونطاقه الجديد المشدود وبندقيته الرشاشة الجديدة المعلقة على كتفه دون تكلف يبدو بهيئة عسكرية انيقة اكثر من اى عسكرى صادفه سينتسوف خلال الايام الاخيرة. وكان سينتسوف يشعر بالارتياح لان الحظ حالفه برفقة هذا الانسان.

— حسب امرك ايها الرفيق! — اجاب لوسين وقد نهض قليلا وادى التحية بيده.

كان سينتسوف قد لاحظ في الليل، عندما اصدروا الجريدة ان لوسين يتحلى بعادة نادرة بين الصحفيين العسكريين، وهى المحافظة على المراسيم العسكرية. وقال سينتسوف:

— لعل من الافضل ان اجلس انا ايضا في داخل السيارة.

الا ان لوسين اعترض بتأدب:

— لا انصحك بذلك ايها الرفيق المرشد السياسي! فالرفيق الاقدم يتعين عليه، حسب الاصول، ان يجلس في قمرة السيارة. والا فلن يكون ذلك مناسبا. ويمكن ان يوقفوا السيارة... — ورفع يده الى طاقيته بالتحية من جديد.

صعد سينتسوف الى قمرة السيارة فتحركت بهم. كانت تلك نفس السيارة التي عاد بها مع نفس السائق من اركان الجبهة في موغيليف يوم امس. وقد اراد الانتقال الى داخل السيارة في الواقع خشية ان يلهيه السائق من جديد باحاديثه عن المخربين. بيد ان السائق جلس وراء مقود القيادة واجما ولم ينبس ببنت شفة. ولعله لم يأخذ قسطا كافيا من النوم، او لعله غير راغب في هذه الرحلة باتجاه بوبرويسك.

اما سينتسوف فكان، على العكس، متحمسا طيب المزاج. فقد اخبره رئيس التحرير في الفجر بان وحداتنا فيما وراء بيريزينا وعلى مشارف بوبرويسك قد الحقت اضرارا بالالمان يوم امس، ولذا كان سينتسوف يأمل بالوصول الى تلك المنطقة اليوم.

شعر بميل شديد للسير قدما، الى هناك حيث تدور المعركة. وهو بذلك مثل الكثيرين من الناس الذين لا يتميزون بالجبن بطبيعتهم والذين شاهدوا وتحملوا الايام الاولى من الحرب عبر الهرج والمرج والذعر الذى انتاب الدروب المتاخمة للجبهة.

صحيح ان رئيس التحرير لم يستطع ان يوضح بدقة اية وحدات هى التي الحقت اضرارا كبيرة بالالمان، ولم يشر على وجه التحديد الى المكان الذى حدث فيه ذلك. بيد ان هذا لم يقلق سينتسوف كثيرا بسبب قلة خبرته. اخذ معه الخارطة التي رسم فيها رئيس التحرير باصبعه دائرة حول بوبرويسك. وراح الآن يتطلع اليها. مقدرا الوقت الذى يحتاجه في الطريق بسرعة ٣٠ كيلومترا في الساعة. وحسب ان ثلاث ساعات تكفيه على وجه التقريب.

في البداية صادفوا بعد موغيليف مباشرة حقولا وغابات ليست كبيرة. وكانت الخضرة في كل مكان، الا انها مقطوعة في اماكن عديدة باكوام من التراب عريضة تارة وضيقة تارة اخرى: فعلى جانبي الطريق حفرت اخاديد وخنادق مضادة للدبابات. وكان جميع العاملين في حفرها تقريبا يرتدون الملابس المدنية. وفي احيان نادرة تلوح بين القمصان ومناديل الرؤوس قمصلات جنود الهندسة الذين يوجهون العاملين.

ثم دخلت السيارة غابة كثيفة. وفي الحال خيم الصمت والهدوء، فلا احد هناك. راحت السيارة تجوب طريق الغابة طويلا، ولكنها لم تصادف احدا لا من البشر ولا من السيارات. في البداية لم يقلق سينتسوف لذلك، ولكنه فيما بعد اخذ يشعر بغرابة الامر. في ضواحي موغيليف كانت هناك هيئة اركان الجبهة، ووراء بوبرويسك جرت معارك ضد الالمان. وكان سينتسوف يعتقد ان بين هاتين النقطتين يجب ان توجد هيئات للاركان وقوات، وبالتالي حركة السيارات. ها هم يقطعون نصف الطريق. وبعد ذلك اجتازوا عشرة كيلومترات اخرى وقطعوا عشرة اخرى، اما الطريق فلا يزال خاليا. واخيرا كادت شاحنة سينتسوف تصطدم على مفترق الطرق بسيارة «جيب» جاءت من طريق غابى. فتح سينتسوف باب القمرة ولوح بيده فتوقفت «الجيب». كان فيها كابتن مشاة قال انه مرافق قائد فيلق المشاة. صمم سينتسوف على الذهاب معه لتوزيع الجريدة في وحدات الفيلق، طالما ان جميع الرزم كانت لا تزال في داخل السيارة دون ان تمس. بيد ان المرافق اجاب على عجل بانه كان في مأمورية وان الفيلق غادر مكانه في تلك الاثناء. وهو نفسه يبحث الآن عن فيلقه، ولذا فلا جدوى من الذهاب معه. ومن الافضل ان يأخذ عدة رزم من الجريدة في سيارة «الجيب» وعندما سيعثر على فيلقه سيوزعها بنفسه. قدم له لوسين رزمتين، فوضعهما الكابتن على المقعد الخلفي لسيارته التي انطلقت وراء الاشجار. اما سيارة سينتسوف فواصلت طريقها نحو بوبرويسك.

مرقت طائرات «ميسرشميت» الالمانية فوق الطريق عدة مرات. وكانت

القابات ملاصقة له، فراحت الطائرات تمر فوق قنن الاشجار بلمح البصر فلم يتمكن سينتسوف من القفز من السيارة الا مرة واحدة . الا ان الالمان لم يطلقوا النار على السيارة، فلربما كانت لديهم اعمال اكثر اهمية .

بقي من المسافة الى بيريزينا، حسب الخارطة عشرة كيلومترات لا اكثر . وطالما تجري المعارك على تلك الضفة من النهر، وراء بوبرويسك، فلا بد من وجود مؤخرة ما او قوات الانساق الثانية على هذه الضفة . راح سينتسوف يتلفت ذات اليمين وذات الشمال ويحدق في اعماق الغابة بانفعال .

ان فراغ الطريق الغامض يستثيره اكثر فاكثر .

وفجأة فرمل السائق بشدة .

على تقاطع الطريق العام مع درب ضيق ضاع طرفه بعيدا في الافق كان هناك جندي على حافة الطريق . وقف بدون بندقية، غير ان قنبلتين يدويتين تدلتا من نطاقه .

سأله سينتسوف من اين هو وعما اذا كان هناك قائد عسكري ما .

فقال الجندي انه وصل مساء امس مع ملازم ضمن جماعة من عشرين شخصا على سيارة شحن من موغيليف، وكلف بالحراسة هنا ليوقف الافراد القادمين من الغرب ويبعثهم الى الشمال على هذا الدرب، الى مركز رعاية الغابات حيث يعمل الملازم في تشكيل وحدة عسكرية .

واتضح من الاستجواب اللاحق ان الجندي مرابط هنا منذ مساء امس، وان البنادق وزعت عليهم في موغيليف لكل واحد من اثنين . وانه وقف في البداية مع جندي آخر، ولكن هذا اختفى عند الفجر، وانه بعث خلال هذه الفترة الى المركز المذكور حوالي ستين شخصا، ولكنهم، على ما يبدو، نسوه، فلم يستبدله احد، ولم يتناول طعاما منذ مساء امس .

اعطاه سينتسوف نصف البقسماط الذي ملأ به محفظته الميدانية وامر السائق بمواصلة السير .

وبعد كيلومتر واحد اوقف السيارة اثنان من رجال المليشيا ظهرا راكضين من الغابة في مشمعين رصاصيين، وقال احدهما :

— ايها الرفيق القائد نحن في انتظار اوامرك !

— اية اوامر؟ — سأله سينتسوف مندهشا — عندكما رئاسة تتبعانها، أليس كذلك؟

— ليست لدينا رئاسة . بعثونا الى هنا، الى الغابة، امس الاول لكي نتصيد جنود المظلات اذا نزلوا . فاي جنود مظلات سينزلون هنا اذا كان الالمان قد عبروا نهر بيريزينا!

— من قال لكما ذلك؟

— الناس يقولون . ثم هذا هو دوي المدفعية ... الا تسمعه؟

— مستحيل! — قال سينتسوف مع انه راح ينصت متسمعا وخيل اليه ان دوي المدفعية يسمع في الامام . — كذب! — قال ليهدئ نفسه بلهجة فيها من العناد اكثر مما فيها من الثقة .

— ايها الرفيق القائد ... — قال رجل المليشيا ووجهه شاحب مفعم بالعزم والتصميم — انكم متوجهون الى وحدتكم في اغلب الظن . خذونا معكم واعتبرونا جنودا محاربين . فهل يتعين علينا ان ننتظر هنا الى ان يجيء الفاشيون؟ ام يتعين علينا ان ننزع البزة؟

وقال سينتسوف انه يبحث فعلا عن وحدة عسكرية، واذا كانا يريدان السفر معه فليصعدا . وسأل احد الرجلين :

— الى اين انتم ذاهبون؟

— الى هناك — اشار سينتسوف بيده الى الامام مباشرة . فهو الآن لم يعد يعرف الى اين هو ذاهب والى متى سيظل يرتحل .

هم رجل المليشيا الذي تحدث مع سينتسوف بالصعود الى السيارة فلمسه الآخر من مشمعه من الخلف وراح يهمس له بشيء . ولعله ما كان راغبا في السفر باتجاه بوبرويسك .

— اذهب الى الشيطان! .. — قال الرجل الاول غاضبا واندفع متأففا لصعود الشاحنة فرفع رجله ليتسلق متن السيارة ودفع رفيقه بجزمته في صدره .

وتحركت السيارة . ظل الرجل الثاني واقفا متحيرا حتى مرت السيارة به، ثم لوح بيده يائسا وركض وراءها وامسك بمتنها والقى ببدنه عبره والسيارة مسرعة . فان بقاءه وحده مخيف اكثر من السفر الى الامام .

سبحت فوق الغابة وسط هدير كثيف ببطء ست من قاذفات القنابل الليلية الضخمة من طراز تب-٣ ذات المحركات الاربعة ويخيل للمرء انها تزحف على صفحة السماء ولا تطير . ولم تكن قربها اية طائرة من مقاتلاتنا . وفكر سينتسوف مرتعبا بطائرات «ميسرشميت» التي حلقت توا فوق الطريق فاضطرب اضطرابا شديدا . الا ان قاذفات القنابل اختفت عن الانظار بهدوء، وبعد بضع دقائق سمعت في الامام انفجارات القنابل الثقيلة .

مروا سريعا بمؤشر على الطريق يفيد بان المسافة حتى نهر بيريزينا اربعة كيلومترات . وغدا سينتسوف على يقين بانهم سيصادفون وحداتنا في القريب العاجل، فلا بد من وجود بعض القوات على هذه الضفة من النهر .

وعلى حين غرة ظهر بضعة اشخاص من الغابة وراحوا يلوحون بايديهم يائسين. تطلع السائق الى سينتسوف متسائلا، ولكن سينتسوف لم يقل شيئا فواصلت الشاحنة سيرها. وشيعها الاشخاص الذين خرجوا الى الطريق بصيحات عبر راحات ايديهم المكورة بشكل ابواق على افواههم. فقال سينتسوف للسائق:

– توقف!

وكض الى السيارة عريف هندسة يلهث وسأل من سينتسوف عن وجهته.

– الى بوبرويسك.

مسح العريف العرق الذى تصبب على وجهه وبلع لعابه مرتعشا حتى اشتدت حركة بلعومه وقال بان الالمان عبروا الى هذه الضفة من بيريزينا.

– اى المان؟

– الدبابات...

– اين؟

– على بعد سبعمائة متر من هنا. وكانت لنا معركة معهم قبل قليل – واشار العريف الى الامام – زحفنا بمجموعة نحو خط الالغام، اما هم فاطلقوا النار من احدى الدبابات، وقتل احد عشر شخصا منا بقذيفة واحدة. وها هى البقية الباقية – والقى بنظرة حائرة على الجنود الواقفين قربه – لم يبق غير سبعة اشخاص... حبذا لو كانت لدينا متفجرات او قنابل يدوية ولكن ما الذى تفعله بها الدبابات؟! – ضرب العريف الارض غاضبا بعقب بندقيته.

لا يزال سينتسوف مترددا لا يصدق بان الالمان قريبون حقا، الا ان محرك الشاحنة صمت، فسمع بوضوح فى الحال اطلاق نيران الرشاشات بشدة الى يسار الطريق على مسافة قريبة جدا، على هذه الضفة من بيريزينا دون ادنى ريب.

– ايها الرفيق المسؤول السياسى! – رفع الوسين صوته من داخل الشاحنة لاول مرة طوال الطريق – هل تسمح لى بالكلام؟ لعل من المناسب ان نعود حتى اتضاح الامور؟

لاحت على وجهه المتورد عادة والشاحب حاليا امارات الرعب. ولكن هذا الرعب لم يمنعه من مخاطبة سينتسوف حسب الاصول العسكرية. فقال سينتسوف الذى شحب لونه ايضا:

– فلنعد.

لم يكن يتصور حتى الآن بانهم كادوا يقعون فى الاسر لدى الالمان بعد نصف كيلومتر او كيلومتر. ضغط السائق بشدة على دواسة تحويل السرعة

واستدار بالسيارة. فمرقت امام انظار سينتسوف الوجوه المتحيرة للمحاربين الذين تركوهم على الطريق.

– توقف! – صاح سينتسوف خجلا من ضعف عزيمته وضغط على كتف السائق بقوة جعلته يتأوه من الالم – اصعدوا الى داخل السيارة – مد رأسه من داخل القمرة ونادى الجنود – اصعدوا، ستذهبون معى.

وبالرغم من مرور سنة ونصف على خدمته فى الجريدة العسكرية كان ذلك، فى الواقع، هو اول امر يصدره الآن فى حياته لغيره من الناس لمجرد انه انسان كان عدد المكعبات على طرفى ياقته اكثر مما عندهم. قفز الجنود الى الشاحنة الواحد تلو الآخر، وتلكأ آخرهم فراح رفاقه يساعدونه بايديهم على الصعود، ورأى سينتسوف الآن بالذات ان هذا الجندى جريح: احدى قدميه فى الجزمة والاخرى حافية ملطخة بالدماء.

ترك سينتسوف القمرة وامر بمساعدة الجريح فى الجلوس على مقعده فيها. فعندما رأى بان اوامره قد نفذت واصل اصدار تلك الاوامر، فنفذت من جديد. اجلسوا الجندى فى القمرة وصعد سينتسوف الى داخل السيارة. واسرع السائق بالسيارة عائدا الى موغيليف بعد ان استحثته نيران الرشاشات التى غدت مسموعة اكثر فاكثر. وصاح احد الجنود مرتعبا:

– الطائرات!

فقال جندى آخر:

– طائراتنا.

رفع سينتسوف بصره فرأى فوق الطريق مباشرة وعلى ارتفاع غير كبير نسبيا ثلاثا من قاذفات القنابل تب – ٣. ولعل القصف الذى سمعه كان من فعلها. كانت الطائرات عائدة بسلام وهى تحلق الى الاعلى بارتفاع متزايد تدريجيا. الا ان الشعور الحاد بالكارثة والذى اجتاح سينتسوف عندما توجهت الطائرات الى تلك الضفة لم يفارقه الآن ايضا.

وبالفعل، فمن مكان ما فى الاعالى، من فوق السحب النادرة وثبت طائرة صغيرة من طراز «ميسرشميت»، سريعة كاليعسوب، وراحت تلحق بقاذفات القنابل بسرعة مخيفة.

تشبث جميع ركاب الشاحنة بمتنها صامتين وقد نسوا انفسهم ونسوا الخوف الذى استولى عليهم توا، نسوا كل شىء فى الوجود وراحوا يتطلعون الى الجو بترقب فظيع. مرقت «ميسرشميت» بشكل منحدر تحت مؤخرة قاذفة القنابل الثالثة التى تخلفت عن الاخريين، فنفثت دخانا فى لمح البصر وكأن عود

ثقاب اشعل فى ورق بموقد . استمرت فى الطيران قليلا وهى تنخفض ويتعالى منها دخان متزايد ، ثم تعلقت فى مكانها لحظة وسقطت على الغابة بعد ان شقت الهواء بخط دخانى اسود .

لمعت «ميسرشميت» فى ضوء الشمس وكأنها خيط فولاذى رقيق وارتفعت الى الاعلى واستدارت ثم اتجهت هادرة نحو مؤخرة قاذفة القنابل الثانية . وسمعت صلية رشاش قصيرة . وانقضت «ميسرشميت» من جديد ، وظلت قاذفة القنابل الثانية محلقة فوق الغابة نصف دقيقة وهى تميل بشدة على احد جناحيها ، ثم انقلبت وهوت ثقيلة على الغابة فى اثر الطائرة الاولى .

رسمت «ميسرشميت» بأزيز عقدة وانقضت بخط مائل من الاعلى الى الاسفل نحو مؤخرة قاذفة القنابل الثالثة والاخيرة التى كانت قد اندفعت الى الامام . وتكرر الشيء ذاته . صلية رشاش لا تكاد تسمع من بعيد ، وازيز حاد منبعث من الطائرة الالمانية الخارجة من حركة الانقضاض ، وخط دخانى اسود يسبح بصمت فوق الغابة ثم هدير الانفجار البعيد .

– طائرات اخرى ! – صاح العريف مرتعبا قبل ان يستعيد الآخرون انفاسهم من هول ما رأوه توا .

وقف داخل الشاحنة وراح يلوح بيديه على نحو غريب وكأنه يريد ان يوقف قاذفات القنابل الثلاث الجديدة التى لاحت فوق الغابة عائدة بعد القيام بغارة جوية . كان يريد انقاذها من الكارثة .

تطلع سينتسوف مذعورا الى اعلى وتشبث بكلتا يديه بنطاقه ، وجلس قربه رجل المليشيا ووضع يديه على صدره وهو يبتهل ويرجو الطيارين ان يلاحظوا باسرع ما يمكن هذا اليعسوب الفولاذى الفظيع الذى يتلوى فى السماء !

كان جميع ركاب الشاحنة يبتهلون الى الطيارين بشأن ذلك ، الا ان الطيارين ربما لم يروا شيئا ، وربما رأوا ولكنهم عجزوا عن فعل شيء . واندفعت «ميسرشميت» كالشمعة الى السحب واختفت . وبرق فى ذهن سينتسوف امل بان عتاد الطائرة الالمانية قد نفد .

– انظروا ، طائرة المانية ثانية ! انظروا ، طائرة ثانية ! – صاح رجل المليشيا .

ورأى سينتسوف طائرتى «ميسرشميت» وليس طائرة واحدة تهبطان من السحب وتلحقان معا ، الواحدة جنب الاخرى تقريبا ، بسرعة لا تصدق بقاذفات القنابل الثلاث البطيئة ، وتمرقان ازاء قاذفة القنابل الثالثة . نفثت دخانا فاندفعت المقاتلتان الالمانيتان بمرح الى اعلى وكأنهما فرحتان للقاء بعضهما البعض ،

ثم ابتعدت احداهما عن الاخرى فى الجو وتبادلتا المواقع ومرقتا من جديد فوق قاذفة القنابل ذاتها وتعالت صليات الرشاشات بصوت جاف . اندلعت النار فى الطائرة دفعة واحدة وهوت متطايرة شذر مذر قبل ان تصل الارض .

وتوجهت المقاتلتان لتصيد قاذفتى القنابل الثقيلتين اللتين حاولتا بلوغ ارتفاع اكبر وظلتا تحلقان ببطء وعناد فوق الغابة مبتعدتين عن الشاحنة التى تحاول اللحاق بهما على الطريق وقد تكدس ركابها بصمت فى كتلة واحدة سحقها الألم .

ما الذى يفكر فيه الآن ملاحو هاتين الطائرتين الليليتين الثقيلتين ، وما الذى يؤملون فيه ؟ ما الذى يستطيعون القيام به غير هذا التحليق المديد فوق الغابة بسرعتهم البطيئة الى حد اليأس راغبين فى شيء واحد هو ان العدو سيهتاج ويخطىء الحساب ويدخل بنفسه حيز رشاشات مؤخرتيهم .

وفكر سينتسوف : «لماذا لا يهبطون بالمظلات ؟ ربما ليس عندهم مظلات اطلاقا ؟» .

سمعت صليات الرشاشات هذه المرة قبل ان تقترب المقاتلتان الالمانيتان من قاذفة القنابل . فقد حاولت هذه الطائرة ان تدافع عن نفسها . وفجأة لم تخرج «ميسرشميت» التى مرقت قرب قاذفة القنابل من حركة الانقضاض واختفت وراء حاجز الغابات . حدث ذلك بلمح البصر فلم يدرك ركاب السيارة فى الحال ان المقاتلة الالمانية اصيبت . فهموا ذلك فيما بعد وتعالت تهاليل الفرح وانقطعت فى الحال . فان «ميسرشميت» الثانية هاجمت قاذفة القنابل من جديد واضرمت النار فيها . وفى هذه المرة سقطت من الطائرة ، وكأنما استجابة لفكرة سينتسوف ، عدة صرر الواحدة تلو الاخرى . هوت صرة واحدة كالحجر الى اسفل ، وانفتحت المظلات فوق «الصرر» الاربع الاخرى .

راح الالمانى الذى فقد رفيقه يطلق صليات الرشاشات ليثأر له ويحوم فى دوائر فوق المظليين . كان يطلق النار على الطيارين الهابطين فوق الغابة . وقد سمع ركاب الشاحنة صلياته القصيرة . فهو يقتصد فى العتاد ، اما المظليون فيهبطون فوق الغابة ببطء شديد . ولو تمكن ركاب الشاحنة آنذاك من التطلع الى بعضهم البعض لرأوا ايديهم تقوم بايماءة واحدة : الى الاسفل ، الى الاسفل ، الى الارض !

المقاتلة الالمانية التى حومت فوق المظليين رافقتهم حتى الغابة وحلقت على ارتفاع واطىء فوق الاشجار وكأنما تتطلع الى شيء آخر على الارض ثم اختفت .

اما قاذفة القنابل السادسة والاخيرة فقد ذابت في الافق. ولم يعد في السماء شيء، وكأنما لا اثر لوجود هذه الطائرات الضخمة البطيئة المزلاء. لم يعد هناك وجود لا للسيارات ولا للناس الذين كانوا فيها ولا لصليات الرشاشات ولا لطائرتي «ميسرشميت». لم يعد هناك شيء غير السماء الخاوية وبضعة اعمدة من الدخان الاسود اخذت تتميع فوق الغابة.

وقف سينتسوف داخل الشاحنة المكشوفة المنطلقة على الطريق وراح يبكي منفعلا ومهتاجا. بكى وهو يلحس بلسانه دموعه المالحة المنسابة على الشفتين ولم يلاحظ ان الجميع كانوا يبكون معه.

– توقف، توقف! – كان سينتسوف اول من استعاد رشده وطرق بقبضته على سطح قمرة السيارة.

– ماذا؟ – مد السائق رأسه متسائلا.

– يجب ان نبحث عنهم – قال سينتسوف – يجب ان نبحث عن هؤلاء المظليين، فلربما لا يزالون احياء...

– لكي نبحث عنهم، ايها الرفيق القائد، ينبغي ان نقطع شوطا آخر، فالهواء حملهم الى ابعد – قال رجل المليشيا وقد انتفخ وجهه من البكاء كما تنتفخ وجوه الاطفال.

قطعوا كيلومترا آخر وتوقفت السيارة فنزلوا منها. كانوا جميعا يتذكرون الالمان الذين عبروا نهر بيريزينا، ولكنهم نسوهم في الوقت ذاته. وعندما امر سينتسوف رفاقه بالتوزع والتوجه للبحث عن الطيارين في كلا جانبي الطريق لم يعترض احد.

جاب سينتسوف ورجلا المليشيا والعريف الغابة طويلا، على يمين طريق السيارات. وصاحوا ونادوا ولكن ما من مجيب. لم يعثروا على احد لا من المظليين ولا من الطيارين. والحال فان الطيارين سقطوا في مكان ما هنا، في هذه الغابة، ويجب العثور عليهم من كل بد، والا فسيعثر عليهم الالمان! وبعد ساعة كاملة من البحث المثابر عبثا خرج سينتسوف الى الطريق عائدا.

وكان لوسين والآخرون واقفين قرب السيارة. وجه لوسين مخدش وقمصلته ممزقة وجيوبه مملوءة حتى ان زر احدها قد انقطع. وكان ممسكا بمسدسه:

– قتلوهما ايها الرفيق المسؤول – قال لوسين بمرارة ومسح بيده وجهه المخدش.

– ماذا بك؟

– تسلقت صنوبرة. فقد تعلق احدهما، المسكين، في اعلى الصنوبرة وظل ميتا على هذا النحو قدماه الى اعلى ورأسه الى الاسفل. كانوا قد قتلوه وهو في الجو.

– والثاني؟

– قتلوا الثاني ايضا.

– هؤلاء الفاشيون يسخرون من البشر! – قال احد الجنود بحقد شديد.

– اخذت وثائقهما – لمس لوسين جيبه المقطوع الزر – هل تريد ان اسلمها لك؟

– فلتبق عندك.

– خذ المسدس على الاقل – قدم لوسين الى سينتسوف مسدس البراونغ الصغير.

تطلع سينتسوف الى المسدس ودسه في جيبه. فسأله لوسين:

– وانتم، ألم تعثروا على احد؟

– كلا.

واضاف لوسين:

– يخيل الي ان الذين هبطوا على يميننا حملتهم الريح الى ابعد. ينبغي ان نتقدم بالسيارة حوالي اربعمائة متر، ثم ننزل ونمشط الغابة بشكل سلسلة.

بيد انهم لم يعودوا بحاجة الى تمشيط الغابة. فعندما تقدمت السيارة اربعمائة متر وتوقفت خرج للقائها من الغابة طيار قصير القامة بقمصلة وخوذة جوية مائلة على جبينه حتى العينين وهو مثقل بحمله. كان يحمل طيارا جريحا آخر في بدلة عمل ويداه تطوقان رقبة الاول وقدماه تنسحبان على الارض.

– خذوا – قال الطيار بايجاز.

هرع اليه لوسين وبعض الجنود واخذوا الجريح منه ووضعوه على العشب قرب الطريق. اخترق الرصاص كلتا ساقيه. رقد بانفاس ثقيلة على العشب وهو يفتح عينيه تارة ويغمضهما تارة أخرى. وعندما راح لوسين يقص على عجل بالسكين الصغيرة جزمة الجريح وبدلته ويضمد جراحه، خلع الطيار القصير القامة خوذته ومسح العرق الذي كان يتصبب على وجهه كحبات البرد، وحرك كتفيه اللتين تخدرتا من ثقل ما حمل.

– هل رأيتم؟ – سأل متجهما في آخر الامر، وارتدى خوذته بعد ان مسح العرق، وسحبها على جبينه وكأنه لا يريد ان يرى احدا ولا يريد ان يراه احد. فقال سينتسوف:

– حدث ذلك فوق رؤوسنا ...

– رأيتم كيف يهلك صقور ستالين كصغار القطط العمياء؟.. – عاد الطيار الى الكلام، وارتعش صوته بمرارة، ولكنه تجاوز ضعفه ولم يضف شيئا، بل غطى جبهته وعينيه بالخوذة.

ولاذ سينتسوف بالصمت. فلم يكن يعرف بماذا يجيب.

ثم قال الطيار:

– باختصار: قصفنا وسائط العبور واغرقنا الدبابات مع الجسر. نفذنا المهمة. الم يكن من اللازم تزويدنا بمقاتلة واحدة على الاقل لتغطية الجميع؟

فقال سينتسوف:

– عثرنا على اثنين من رفاقكم، ولكنهما قتيلان.

– نحن ايضا لسنا احياء – قال الطيار، ثم اضاف بلهجة اخرى تماما هي لهجة انسان صمم على التحلي برباطة الجأش واجاد ضبط النفس – هل اخذتم وثائقهما وسلاحهما؟

– اجل – اجاب سينتسوف.

وقال الطيار ملتفتا الى الجريح الذي انهمك لوسين في تضميده:

– افضل ملاح للفوج في التحليقات الليلية والطيران الاعمى. انه ملاح طائرتي! كان ذلك افضل طاقم في الفوج، وقد قدموه ضحية بالمجان! – صاح الطيار واختنق بعبراته من جديد، ثم ضبط نفسه في الحال كما في المرة الاولى، وسأل بلهجة جادة:

– هل نتحرك؟

وضعوا الملاح الجريح داخل الشاحنة عند الجدار الخلفي لقمرتها، حيث الهزات اقل، ووضعوا تحت قدميه رزما من الجريدة. وجلس الطيار جنب ملاحه، عند موضع الرأس. ثم جلس الآخرون. تحركت السيارة، ولكنها فرملت بشدة بعد لحظة لا غير.

كان ذلك هو المفترق الذي اقتسم فيه سينتسوف مؤخرا بقسماطه مع جندي الحراسة. وكان الجندي لا يزال مرابطا هناك. وعندما رأى السيارة عائدة هرع الى منتصف الطريق وهو يلوح بقنبلة يدوية وكأنه ينوي القاءها تحت الشاحنة.

وسأل الجندي من سينتسوف بصوت جعل فؤاد هذا الاخير يتجمد في داخله:

– ايها الرفيق المرشد؟ كيف يجوز ذلك؟ انني اقف هنا اليوم الثاني ولا احد يحل محلي ... هل من المعقول انه لا يوجد امر آخر، ايها الرفيق المرشد؟

وادرك سينتسوف انه اذا اجابه بلهجة واثقة بعدم وجود اوامر اخرى وبان احدا سيأتي ليحل محله فانه سيبقى هنا في مكانه. ولكن من يستطيع القول على وجه التحديد بان احدا سيأتي ليحل محله؟

– اعفيك من نوبتك – قال سينتسوف وهو يحاول عبثا ان يتذكر الصيغة العسكرية التي نسيها والتي تقال عادة عندما يعفي القائد الاقدم مرؤوسه من مهام الحراسة. – اعفيك من نوبتك، وفيما بعد ستخبرني بما تريد ان تقول! – كرر سينتسوف دون ان يتذكر شيئا من الصيغ العسكرية، وكان يخشى ان الجندي لن ينفذ امره بسبب عدم الدقة في صياغته، كان يخشى ان يبقى هذا الجندي في مكانه فيهلك. – اصعد الى السيارة، ستذهب معي!

تنفس الجندي الصعداء، وشد القنبلة اليدوية في نطاقه وصعد الى داخل الشاحنة.

وحالما تحركت السيارة ظهرت في الجو ثلاث طائرات اخرى من طراز «ت ب – ٣» متوجهة الى بوبرويسك. وترافقها هذه المرة احدى مقاتلاتنا. ارتفعت المقاتلة في الجو عاليا، ثم مرقت فوق قاذفات القنابل في محاولة لقياس سيرها البطيء بسرعتها المضاعفة.

– هذه الطائرات الثلاث محروسة. – قال طيار القاذفة التي سقطت، ولاح في صوته شعور بالارتياح تجاوز مصيبته الشخصية.

وما كاد سينتسوف يجيبه حتى ظهرت من السحب مقاتلتان من طراز «ميسرشميت». اسرعتا نحو قاذفات القنابل فاستدارت مقاتلتنا للقائهما. صعدت الى الاعلى بزاوية قائمة في خط المواجهة، ثم انقلبت على جناحها ومرقت قرب احدى المقاتلتين الالمانيتين واضرمت النار فيها. فصاح الطيار في الشاحنة:

– تحترق، انظروا، انها تحترق!

استولت فرحة الثأر على ركاب الشاحنة. حتى السائق امسك بالمقود بيد واحدة ومد بدنه من نافذة القمرة. وسقطت «ميسرشميت»، وقفز منها الماني فتح مظلته عاليا في السماء. وصاح الطيار من جديد:

– ستسقط الطائرة الثانية ايضا. اؤكد لك – قال ذلك وهو يهز عضد سينتسوف دون ان ينتبه لنفسه.

ارتفعت المقاتلة بسرعة، الا ان الطائرة الالمانية الثانية ظهرت فجأة فوقها. ولعلعت من جديد صليات الرشاشات، فصعدت «ميسرشميت»

الى الاعلى وهبطت مقاتلتنا والدخان ينبعث منها . وانفصلت عنها كتلة صغيرة سوداء واخذت تهبط بسرعة فائقة لا تكاد تلحظها العين، وعندما كادت تبلغ قمم اشجار الصنوبر، وخيل الرائين ان كل شيء انتهى، انفتحت المظلة اخيرا . قامت «ميسرشميت» باستدارة واسعة هادئة فى الجو ثم اتجهت نحو بوبروويسك على اثر قاذفات القنابل .

انتصب الطيار فى داخل الشاحنة وراح يتلفظ بافظع الشتائم ويلوح بيديه، وانهمرت الدموع على خديه . شاهد سينتسوف ذلك للمرة الخامسة، واشاح بوجهه الآن كيلا يراه من جديد . لقد سمع مجددا صليات الرشاشات من بعيد، وسمع الطيار يصر باسنانه ويقول بيأس وقنوط : «سقطت» . ثم اغلق الطيار وجهه بيديه وهوى على ارضية الشاحنة .

امر سينتسوف بايقاف السيارة . كانت المظلة الالمانية لا تزال تعوم عاليا فوق الرؤوس، وكان طيارنا قد هبط فى منطقة لا تبدو بعيدة حسب التقديرات البصرية – حوالى كيلومترين باتجاه بوبروويسك .

وقال سينتسوف مخاطبا لوسين :

– اذهب الى الغابة واقبض على هذا الفاشى . خذ معك عددا من المحاربين .

– هل نحضره حيا؟ – سأل لوسين بجد .

– على قدر الامكان .

لا فرق بالنسبة لسينتسوف اذا كانوا سيقبضون على الالمانى حيا ام ميتا . كان يريد شيئا واحدا، هو ان لا يتقابل هذا الالمانى مع الفاشيين الآخرين عندما يصلون الى هنا .

نقلوا الجريحين – الملاح والجندى الجالس فى القمرة – من السيارة ووضعوهما تحت شجرة، وتركوا فى حراستهما ذلك المحارب ذا القنبلتين اليدويتين والذى عفاه سينتسوف من مهام الحراسة . وفكر سينتسوف : «هذا الجندى لن يترك الجريحين مهما حدث» .

توجه لوسين والعريف وباقى الجنود الى الغابة للقبض على الالمانى، اما سينتسوف فقد اصطحب الطيار ورجلى المليشيا وعاد بالسيارة باتجاه بوبروويسك من جديد .

جابوا الطريق وهم يحدقون فى جوانبه لعلهم يلاحظون المظلة من السيارة مباشرة . فهم يتصورون انه هبط على مقربة من الطريق .

فى تلك الاثناء كان الطيار الذى يبحثون عنه راقدا بالفعل فى فسحة صغيرة فى الغابة على بعد مائة خطوة عن الطريق . وكيلا يطلق

الالمان النار عليه فى الجو ظل هابطا ببرود اعصاب امدا طويلا دون ان يفتح المظلة، ولكنه اخطأ الحساب فى الاخير وسحب حلقة فتح المظلة بعد ثانية واحدة من المطلوب . فانفتحت المظلة قرب الارض تقريبا فانكسرت كلتا ساقى الطيار وارتطم عموده الفقرى بقرمة . وظل راقدا قرب هذه القرمة وهو يعرف بان كل شيء انتهى . فان بدنه من الخصر حتى الاسفل مشلول نهائيا، ولم يتمكن حتى من الزحف على الارض . رقد على جنبه يتطلع الى السماء وهو ينفث دما . اما «ميسرشميت» التى اسقطت مقاتلته فقد راحت تطارد قاذفات القنابل العزلاء الآن، ولاح فى السماء ذنب دخانى .

رقد على الارض انسان لم يكن يهاب الموت اطلاقا فى الواقع . وخلال حياته القصيرة فكر اكثر من مرة بدون ارتعاشة الرهبة بانهم سيسقطون طائرته ذات يوم او يحرقونها مثلما اسقط هو واحرق طائراتهم مرارا . ولكنه رغم طبيعته غير الهيابة التى تثير حسد رفاقه فقد انتابه الآن رعب يبلغ حد اليأس .

اقلع ليحمى قاذفات القنابل، ولكن واحدة منها احترقت على مرأى منه، واتجهت الاخريان نحو الافق وهو عاجز عن مساعدتهما . كان يعتقد بانه راقد فى ارض احتلها الالمان، وهو يفكر غاضبا بان الفاشيين سيقفون قربه مسرورين لانه يرقد قتيلا عند اقدامهم، هو ذلك الانسان الذى كتبت عنه الصحف عشرات المرات منذ عام ١٩٣٧، من الحرب فى اسبانيا!

كان حتى الآن يفتخر بذلك، بل ويتباهى به احيانا . ولكنه الآن سيكون سعيدا لو لم يكتب احد عنه ابدا، ولو عثر الفاشيون عندما يجيئون الى هنا على جثة الملازم اول المجهول الذى اسقط قبل اربعة اعوام اول طائرة من طراز «فوكر» فوق مدريد، وليس على جثة الفريق كوزيريف حاليا . فكر بغضب ويأس بانه حتى لو مكنته قواه الخائرة من تمزيق وثائقه فان الالمان سيعرفونه وسيتباهون بانهم اسقطوه، هو كوزيريف الذى يعتبر من اوائل الطيارين الممتازين السوفييت، اسقطوه دون اى عناء .

ولاول مرة فى حياته لعن ذلك اليوم وتلك الساعة اللذين كان يفتخر بهما فى السابق حيث استدعاه ستالين نفسه بعد معركة خالخين – غول ومنحه ترقية من عقيد الى فريق وعينه قائدا لسلاح مقاتلات فيلق باكمله .

انه ليس بحاجة الآن، وهو يواجه الموت، الى ان يكذب على احد : فهو لم يكن يجيد قيادة احد، ما عداه نفسه، وقد غدا جنرالا ولكنه ظل فى حقيقة الامر ملازما اول . وتأكد ذلك منذ اليوم الاول للحرب بافظع صورة . تأكد ذلك ليس معه وحده . فالسبب فى الترقية العاجلة التى تلقاها وغيره هو

البسالة المنقطعة النظير والاوسمة التى تم احرازها بالدم . بيد ان تجيمات الجنرال لم تحمل له القدرة على قيادة آلاف الناس ومئات الطائرات .

ولاول مرة خلال السنوات الاخيرة التى انتشت لها نفسه وامتلأت بالكبرياء تحس الآن، وهو يحتضر راقدا على الارض محطم العظام بلا حراك، فداحة المأساة التى حدثت له ومدى الذنب غير المتعمد الذى اقترفه بوصفه شخصا ارتقى راكضا، دون خوف او وجل، قمة سلم الخدمة العسكرية الطويل . تذكر تماهله ازاء واقع اقتراب اندلاع الحرب، وسوء قيادته عندما اندلعت . تذكر مطاراته حيث لم يكن نصف عدد الطائرات على اهبة الاستعداد للقتال، وتذكر طائراته التى احرقت وهى جاثمة على الارض، وتذكر طياريه الذين اقلعوا بيأس تحت قصف القنابل وهلكوا قبل ان يتمكنوا من بلوغ الارتفاع المطلوب . تذكر اوامره الشخصية المتناقضة التى اصدرها فى الايام الاولى من الحرب وهو فى حالة نفسية منسحقة مصعوقة، حيث كان يحوم بطائرة مقاتلة مجازفا بحياته فى كل ساعة دون ان يتمكن من انقاذ شىء تقريبا .

تذكر البرقية اللاسلكية التى وصلت قبيل الهلاك اليوم من احدى قاذفات القنابل ت‌ب — ٣ التى توجهت لقصف المعبر واحترقت والتى كان من الاجرام ارسالها نهارا بدون تغطية من قبل المقاتلات ولكن طياريها صمموا على الاقلاع واقلعوا بانفسهم لان تدمير المعبر امر ضرورى مهما كلف الثمن، فى حين لم تكن توجد مقاتلات للتغطية والحماية .

عندما حط فى مطار موغيليف حيث اسقط فى طريقه طائرة «ميسرشميت» التى صادفته فى الجو سمع بسماعة الاذن صوتا يعرفه جيدا هو صوت الميجر ايشينكو، رفيقه القديم منذ الدراسة فى مدرسة يليتس الجوية : «نفذنا المهمة، ونحن عائدون . احرقنا اربع طائرات، وسيحرقوننى الآن . نموت فى سبيل الوطن . وداعا ! بلغوا شكرنا لكوزيريف على التغطية الجيدة !» . امسك رأسه بيديه وجلس دقيقة كاملة بلا حراك لكى يقيد رغبة استولت عليه فى اخراج المسدس والانتحار فى الحال هنا فى غرفة مناوب العمليات . ثم سأل عما اذا كانت طائرات ت‌ب — ٣ ستتوجه للقصف الجوى ام لا، فقيل له ان الجسر دمر، ولكن هناك امرا بتدمير المرسى مع وسائط العبور . ولا يوجد حتى الآن، كما سبق، اى سرب لقاذفات القنابل النهارية، ولذا اقلعت ثلاث طائرات اخرى من طراز ت‌ب — ٣ .

ترك غرفة المناوبة راكضا واستقل المقاتلة واقلع دون ان يخبر احدا . وعندما خرج من السحب ورأى قاذفات القنابل المحلقة فى الاسفل سالمة

كانت تلك واحدة من لحظات السعادة القليلة التى عاشها خلال جميع الايام الاخيرة . وبعد دقيقة خاض معركة ضد طائرة «ميسرشميت» وانتهت هذه المعركة بسقوط طائرته .

منذ الايام الاولى للحرب، عندما احترقت فى المطارات جميع المقاتلات الجديدة من طراز ميغ التى استلمتها الدائرة العسكرية مؤخرا، انتقل الى طائرة اى — ١٦ القديمة مثبتا بقدوته الشخصية ان بالامكان على هذه الطائرات ايضا مقاتلة «ميسرشميت» . كان بالامكان مقاتلتها، ولكن بصعوبة كبيرة، فالسرعة غير كافية .

كان يعرف بانه لن يسلم نفسه للاسر ، وكان مترددا فقط بشأن لحظة الانتحار ، هل ينتحر بعد ان يقتل احدا من الالمان اذا اقتربوا منه، او ينتحر قبل ان يقع فى الغيبوبة كيلا يأسره الالمان قبل ان يموت .

لم يكن فى فؤاده مجال للرعب . كان فيه اسى ولوعة لانه لن يعرف مآل الامور فيما بعد . اجل، كانت الحرب مباغتة . ولم يكف الوقت للتسلح جيدا . اجل كان هو، والكثيرون غيره فى البداية مرتبكين يمارسون القيادة على نحو سيىء . بيد ان كيانه العسكرى كله يرفض الفكرة الفظيعة، فكرة ان الالمان سيستمرون على ضربنا كما فى الايام الاولى، ويرفضها كذلك ايمانه بجيشه ويرفاقه، واخيرا ايمانه بنفسه، وهو الذى اضاف اليوم رغم كل شىء طائرتين فاشيتين الى التسع والعشرين طائرة التى اسقطها فى اسبانيا ومنغوليا . آه لو لم يسقطوا طائرته اليوم، القنهم درسا واى درس ! وسوف يلقنونهم ! كان هذا الايمان المتحمس يعيش فى بدنه المحطم، ويلاحقه ظلا ثابتا لفكرة سوداء : «لن ارى ذلك ابدا» .

زوجته التى بالغت بمكانتها فى حياته، شأنها شأن كل الارواح الصغيرة، لن تصدق ابدا بانه لم يفكر بها فى ساعته الاخيرة . لكن تلك هى الحقيقة . ولم يفكر بها ليس لانه لا يحبها — فقد ظل يحبها — بل لانه كان يفكر بشىء آخر تماما . فقد كانت تلك مصيبة عظيمة تتضاءل امامها وتهون المصيبة الصغيرة الشأن فى هذه اللحظة، وهى عدم رؤية ذلك الوجه الجميل المرائى بعد الآن ابدا .

يقال ان الانسان قبيل الممات يتذكر حياته كلها . ربما تلك هى الحقيقة . ولكنه قبيل الموت تذكر الحرب وحدها ! يقال ان الانسان قبيل الممات يفكر فى امور كثيرة دفعة واحدة . ربما تلك هى الحقيقة . ولكنه قبيل الموت فكر فى شىء واحد هو الحرب . وعندما سمع اصواتا فجأة

وهو في شبه غيبوبة، وعندما رأت عيناه الملطختان بالدم ثلاثة اشباح تقترب منه، لم يفكر حتى في هذه اللحظة بشيء آخر غير الحرب، ولم يتبادر الى ذهنه اي شيء آخر سوى ان الفاشيين يقتربون منه وان عليه في البداية ان يطلق النار عليهم ثم على نفسه. المسدس على العشب قرب يده، لمس باصابعه الأربعة قبضة المسدس الخشنة، كما لمس باصبعه الخامس الزناد. رفع يده من الارض بصعوبة وضغط على الزناد المرة تلو الاخرى وراح يطلق النار على الاشباح الرمادية المائعة في ضباب الدم. عد خمس طلقات ومد يده بالمسدس نحو وجهه، خوفا من الخطأ في الحساب، واطلقه على نفسه في موقع الاذن.

وقف رجلا المليشيا وسينتسوف عند جثة الطيار المنتحر. رقد امامهم انسان غارق بالدماء في خوذة طيار وعلى شارتي ياقة قمصلته الزرقاوين نجيمات الجنرال.

حدث ذلك كله في لمح البصر، فلم يتسن لهم ان يفيقوا من هول ما رأوا: كانوا قد ظهروا من وراء الشجيرات الكثيفة الى الفسحة فرأوا الطيار راقدا على العشب ونادوه وهرعوا اليه، بينما راح هو يطلق الرصاصة تلو الرصاصة عليهم دون ان يلتفت الى صياحهم: «نحن رفاقك!» وعندما وصلوا اليه تقريبا سدد المسدس نحو صدغه وانتفض ثم سكن.

ركع رجل المليشيا الاقدم على ركبتيه وفتح جيب القمصلة واخرج وثائق القتيل مرتعبا، في حين ظل سينتسوف المصعوق واقفا وقد امسك بيده جنبه الذي اخترقته رصاصة، ظل واقفا دون ان يشعر بالالم بعد، ولم يلاحظ الا الخدر والدم ينبجس عبر قمصلته. قبل ثلاثة ايام اطلق النار صدفة على الشخص الذي كان يريد انقاذه، والآن كاد الشخص الآخر الذي اراد سينتسوف انقاذه ايضا، ان يقتله، ثم قتل نفسه وهو الآن راقد عند قدميه مثل ذلك الجندي المجنون الراقد على الطريق.

ربما تصور الطيار انهم المان بسبب مشمعي رجلي المليشيا الرصاصيين. ولكن هل من المعقول انه لم يسمع نداءهم «نحن رفاقك، رفاقك!»؟

ظل سينتسوف ممسكا بجنبه المبلل بالدم، وركع على ركبتيه واخذ من رجل المليشيا كل ما اخرجه من جيب صدر القتيل. وبينه صورة امرأة حسناء بمحيا مستدير وشفتين كبيرتين باسمتين ريانتين. كان سينتسوف واثقا من انه رأى هذه المرأة ولكنه لم يتذكر متى واين. وتحت الصورة وجد بطاقة عضوية الحزب واستمارة الوسام وهوية شخصية باسم الفريق كوزيريف.

«كوزيريف، كوزيريف...» — كرر سينتسوف في محاولة جاهدة للتذكر. وبعد لحظة تذكر كل شيء دفعة واحدة: ليس فقط وجه هذه المرأة التي يعرفها جيدا منذ سني الدراسة، وجه ناديا كارافايفا او كما كانوا يسمونها في المدرسة ناد كا، بل وكذلك هذا الوجه الذي شوهته الرصاصة والذي يعرفه من صوره في الجرائد.

كان سينتسوف لا يزال راكعا عند جثة كوزيريف عندما ظهر طيار قاذفة القنابل والسائق اللذان هرعا لسماعهما اطلاق الرصاص. عرف الطيار كوزيريف في الحال. وجلس على العشب قرب سينتسوف والقى نظرة صامتة على الوثائق وسلمها صامتا ايضا، وقال عبارة واحدة لا غير بلهجة مفعمة بالدهشة اكثر من الحزن:

— يا للعجب... — ثم تطلع الى سينتسوف الذي كان لا يزال راكعا على ركبتيه ويده تمسك بقمصلته المبللة بالدم، وسأله: — ماذا بك؟

— اطلق النار... ربما اعتبرنا المانيين — اومأ سينتسوف الى القتيل.

فقال الطيار:

— اخلع القمصلة لاضمدك.

بيد ان سينتسوف الذي فارقه الانصعاق تذكر الالمان وقال بانه يمكن تضميده فيما بعد، في السيارة، اما الان فيجب حمل جثة الجنرال اليها.

دس كلا رجلي المليشيا ايديهما بشكل غير مريح تحت كتفي كوزيريف ورفعاه قليلا وحمله الطيار والسائق من تحت الركبتين، وسار سينتسوف وراءهم متعثرا وممسكا جرحه بيده كالسابق وقد احس بالالم يتزايد عليه.

— يجب تضميدك — كرر الطيار عندما وضعوا جثة كوزيريف داخل الشاحنة التي تحركت بهم.

خلع الطيار قمصلته على عجل والسيارة سائرة، ثم خلع قميصه وامسك باذياله باصابعه القصيرة القوية ومزقه الى عدة قطع دون ان يلتفت الى اعتراضات سينتسوف. ثم رفع طرف قمصلة سينتسوف وضمده بقطع من قميصه وقال بلهجة العارف بالامور:

— جرح نافذ، سيلتئم. وستصل دون ان تموت. فلنسحب القمصلة الى اسفل. سحب القمصلة وشد الحزام عند الخصر اسفل الجرح فأن سينتسوف من الالم.

— الشيطان يعلم كيف استطاع ان يصيبك... — قال الطيار بلهجة اعتذار بعد ان القى نظرة على سينتسوف، ثم على كوزيريف القتيل، ثم على سينتسوف من جديد.

بعد بضع دقائق وصلوا الى المكان الذى تركوا فيه الجريحين.

كان الملاح الجريح فى غيبوبة، اما الجندى المصاب فى ساقه فقد رقد على ظهره وتلاحقت انفاسه المتثاقلة. وجلس قربهما جندى الحراسة بقنبلتيه اليدويتين.

— اين الباقون؟ — سأله سينتسوف.

— هرعوا الى هناك — اومأ الجندى باتجاه موغيليف — حملت الريح المظلة بعيدا الى هناك، ربما قبضوا عليه. سمعت اطلاق رصاص.

اخذوا الجريحين والجندى وواصلت الشاحنة سيرها.

اصر الطيار على ان يجلس سينتسوف فى القمرة هذه المرة.

— وجهك شاحب جدا، فلا تكن... — خاطبه بكلمة بذيئة ولكن برقة وحنان فانصاع له سينتسوف.

كانت المدفعية خلفهم تدوى بين الفينة والفينة، وفى بعض الاحيان تحمل هبات الريح اصوات صليات الرشاشات. قطعوا كيلومترين وتوقفوا، فلم يروا لوسين والجنود.

تمالك سينتسوف نفسه بصعوبة اذ كان راغبا فى السير الى ابعد قليلا، واستمع من جديد الى اطلاق النار الذى تحمله الريح وقال بانه يجب الانتظار هنا الى ان يخرج من الغابة الرفاق الذين توجهوا لتصيد الالمانى.

وتهادت من الخلف كالسابق اصوات اطلاق النار. وتحسس سينتسوف نظرات متسائلة متجهة صوبه، ولكنه صمم على ان ينتظر خمس عشرة دقيقة، فظل جالسا ينتظر. وعندما بلغ عقرب دقائق الساعة الحد المقرر قال:

— نادوهم من جديد.

راح رجل المليشيا الاقدم يصيح مكورا راحته كالبوق على فمه. الله يعلم كم مرة صاح بصوته المدوى، ولكن الغابة لا تزال صامتة كالسابق. فقال سينتسوف:

— فلنقطع مسافة اخرى.

غير انهم قطعوا مسافة قصيرة جدا. فقد اوقفهم بعد نصف كيلومتر ملازم ببزة الدبابات كان قد خرج من الغابة الى الطريق. كان غاضبا وعلى صدره بندقية رشاشة المانية. ومن ورائه نهض من الساقية الموازية للطريق اثنان من جنود الدبابات ببندقيتين مصوبتين:

— قفوا! من انتم؟ — فتح الملازم القمرة بشدة.

فاجاب سينتسوف بانه من هيئة تحرير جريدة جبهوية، وهو الآن يبحث عن رفاقه الذين توجهوا للقبض على طيار المانى.

— من هم رفاقك؟ كم عددهم؟

فاجاب سينتسوف ان عددهم سبعة: معاون مرشد سياسى وعريف وخمسة جنود. وشعر لسبب لا يعرفه بانه مذنب فى شيء. فقال الملازم ساخرا:

— هكذا اذن. لقد احتجزناهم، وهم يقولون بانك ساعدتهم على الفرار من الجيش! اوقفوا السيارة بعيدا عن الطريق وتعالوا معى الى آمرنا وسوف تتأكد هناك من هم رفاقنا ومن هم رفاقكم ومن انتم فى حقيقة الامر!

اثارت هذه الكلمات غضب سينتسوف، بيد ان شعوره المتزايد بذنبه اللاواعى حال دونه ودون الانفجار. وبدلا عنه انفجر الطيار الذى مد بدنه من داخل الشاحنة:

— يا هذا! — صاح بالملازم — تعال هنا! الميجر يكلمك! تعال هنا ومد منخارك!

لاذ الملازم بالصمت، وانتفخت اوداجه بالغضب، ولكنه اقترب من الشاحنة والقى نظرة على داخلها. وما رآه هناك لين قلبه ان لم نقل جعله يغير رأيه.

— تقدموا مائة متر، وهناك مدخل الى الغابة، فاستديروا فيه! — قال لسينتسوف متجهما وكأنه يؤكد بانه ليس ملزما بالاعتذار. — ففى كل الاحوال لدى امر بعدم السماح لاحد بالمرور...

— يا بورتنياغين! — صاح على احد مساعديه من جنود الدبابات — اصعد الى الجناح، ورافقهم الى الكابتن! قف! — اوقف من جديد الشاحنة التى تحركت — فلينزل المقاتلون من السيارة! ستبقون هنا!

قفز من السيارة كلا رجلى المليشيا والجندى ذو القنبلتين اليدويتين. فان لهجة الامر لم تترك مجالا للمماطلة.

— تحرك! — لوح الملازم بيده ليس لسينتسوف بقدر ما لجندى الدبابات الذى وقف على عتبة السيارة لمرافقتها.

عندما دخلت الشاحنة الغابة بعد ان حطمت بصرير تحت ثقلها الكبير الاغصان التى ردمت بها ساقية الطريق شاهد سينتسوف مدفعين من عيار ٣٧ ملم مخبأين بين الشجيرات وماسورتاهما مصوبتان نحو الطريق. وجلس قرب المدفعين جنديان متباعدا القدمين الواحد مقابل الآخر، وقربهما كومة من القنابل اليدوية وحزمة من اسلاك التلفون، وهما منهمكان فى ربط القنابل.

سارت الشاحنة فى درب متعرج بين الاشجار حتى بلغت فسحة صغيرة غاصة بالرجال. وهناك شاحنة فى داخلها صناديق عتاد وكومة بنادق، والى جانبها وقفت سيارة اتصال مصفحة مغطاة باغصان الشوح.

اصطف اربعون جنديا يحملون البنادق وراح عريف الدبابات يصدر اوامره المتقطعة بالاصطفاف والدوران . ورأى سينتسوف بينهم وجوها يعرفها ممن ارتحلوا معه بالسيارة .

وقرب السيارة المصفحة جلس على الارض كابتن دبابات يرتدى خوذة وقد استند بكوعه الى صندوق التلفون الميدانى واخذ يكرر فى السماعة :

— الو، الو، الو. . .

والى جانبه جلس عسكرى دبابات آخر يرتدى خوذة ايضا، ووراءهما وقف لوسين وهو ينقل ثقله من رجل الى رجل . وضع الكابتن السماعة ونهض متسائلا :

— متى سيمدون سلك الاتصال يا ترى؟

كان قد رأى بالطبع السيارة التى وصلت وكذلك سينتسوف والطيار اللذين نزلا منها، ولكنه تساءل وكأنه لم ير احدا، وبعد ذلك فقط حدق بالقادمين . وسأل بكلمات متقطعة جمعت كل المعلومات فى جملة واحدة :

— انا مساعد قائد فرقة الدبابات السابعة عشرة لشؤون المؤخرة، وانتما، من انتما؟

مظهره لا يشبه اطلاقا مظهر رجال المؤخرة رغم تأكيده على انه مساعد فى شؤون المؤخرة . فهو كبير الجسم وبدلة العمل القذرة الممزقة التى يرتديها، محروقة من الجنب، ومشط يده اليسرى مضمد حتى الاصابع بشاش تخثر عليه الدم، وعلى صدره تتدلى بندقية المانية كالتى على صدر الملازم، وذقنه غير حليق من زمان، ووجهه مسود من التعب، وعيناه تشعان بلمع رهيب .

— انا . . . — بدأ الطيار بالكلام، ولكن مظهره يدل تماما على هويته . فقاطعه الكابتن بايماءة وقال :

— واضح ايها الرفيق الميجر . انت من قاذفة القنابل التى اسقطت، اليس كذلك؟

هز الطيار رأسه بالايجاب متجهما .

— ولكن انت، ارنا وثائقك — خطا الكابتن خطوة نحو سينتسوف .

— لقد قلت لكم — تكلم لوسين الواقف وراء الكابتن .

— الزم الصمت! — قاطعه الكابتن عبر الكتف دون ان يلتفت اليه — فقضيتك تختلف! ارنا وثائقك! — كرر الكابتن مطالبا سينتسوف بمزيد من الخشونة .

— فى البداية ارنى وثائقك انت! — انفجر سينتسوف صائحا بالكابتن بسبب موقفه غير الودى تماما .

— انني فى مواقع وحدتى ولست ملزما بعرض وثائقى على احد — قال الكابتن بهدوء غير متوقع بعكس سينتسوف .

اخرج سينتسوف هويته الشخصية وبطاقة الاجازة، وتذكر الآن فقط ان الوقت لم يمهله لاستلام الوثائق الجديدة فى الجريدة . شعر بعدم الثقة بالنفس فراح يوضح القضية، مما زاد فى عدم ثقته بنفسه .

— وثائق غامضة بعض الشيء — قال الكابتن ساخرا وهو يعيدها الى سينتسوف — ولنفترض ان القضية كما تقول، فلماذا تنقل الناس من الخط الامامى الى المؤخرة، من الذى خولك بذلك؟

منذ اللحظة التى قال له فيها الملازم شيئا من هذا القبيل على طريق السيارات كان سينتسوف راغبا اشد الرغبة فى ان يوضح ان ذلك سوء فهم . ذكر كيف هرع الجنود الى السيارة وكيف اخذهم معه كى ينقذهم، وكيف اخذ فيما بعد جنديا آخر .

الا ان ما اثار دهشته ان الكابتن لا يعتبر كل ما حدث من سوء الفهم . بالعكس، فهو يقصد ذلك بالذات :

— الرعب يهول الامور! هل يمكن لقذيفة واحدة من دبابة ان تقتل عشرة اشخاص دفعة واحدة؟ وفى الغابة؟.. كذابون! سقطوا من الرعب، اما اقدمهم مرتبة فقد ترك نصفهم بدلا من جمعهم، ثم اطلق ساقيه للريح على الطريق . اما انتم فقد خدعتم بهم! فبهذه الطريقة يمكن نقل اعداد كبيرة من الناس الى المؤخرة : بعضهم ارتعب والبعض الآخر يبحث عن وحدته فى المؤخرة . . . يجب البحث عن الوحدات فى المقدمة، هناك حيث يوجد العدو! — واضاف الكابتن الى قوله هذا شتيمة بذيئة خففت من غضبه، ثم قال بصوت اهدأ واومأ بيده نحو العريف الذى يمارس تدريب المقاتلين : — هناك سيعودون الى رشدهم! سنعيدهم الى رشدهم وسنقودهم فى المعركة! نقل المذعورين الى موغيليف غير جائز . فعددهم هناك ليس بالقليل! اننا بحاجة الى المقاتلين هنا . فقد امرنى قائد الفرقة ان اعد حتى هذا المساء امدادات عددها ٣٠٠ شخص ممن يتسكعون فى الغابات، وسوف اعد تلك الامدادات . اعاهدكم على ذلك! وسآخذ مرشدك السياسى وسآخذك انت ايضا — اضاف الكابتن بلهجة متحدية على نحو غير متوقع . فقال الطيار متجهما شأنه فى كل ما يقول :

— انه جريح فى جنبه . يجب نقله الى المستشفى .

— جريح؟ — سأل الكابتن ولاحت فى نظرته رغبة مرتابة لحمله على خلع ثيابه وعرض جرحه .

وتكر سينتسوف: «لم يصدقه»، وتجمد فؤاده من شدة الغيظ.

الا ان الكابتن رأى بنفسه البقعة القائمة على قمصلة سينتسوف. فاستدار نحو لوسين قائلا:

– اخبر مرشدك السياسي لماذا ترفض البقاء والمشاركة في المعركة، ام انك جريح كذلك وتخفي الامر علي؟

– لست جريحا! – صاح لوسين بصرير غير متوقع، وانكمش وجهه الجميل ملتويا. – ثم انني لا ارفض شيئا. انا مستعد لكل شيء! ولكنني مكلف من قبل رئيس التحرير بان اؤدي المهمة واعود، ولا استطيع التصرف على هواي بدون امر من رئيسي!

– بماذا تأمره؟ – سأل الكابتن من سينتسوف. – اوضاعنا صعبة. وليس لدي ولا مرشد سياسي واحد للمجموعة كلها. فككنا الحصار امس لا غير، اما اليوم فقد زجوا بنا لسد ثغرة للآخرين. وفي الوقت الذي اجمع فيه الناس هنا تضحي فرقتنا هناك، على نهر بيريزينا، بآخر رجالها!

فقال سينتسوف بدون حماس:

– اجل، بالطبع يمكنك ان تبقى ايها الرفيق لوسين اذا كنت راغبا. ولو كنت انا... رفع بصره الى لوسين فادرك من نظرة عينيه انه لا يريد البقاء، بل ينتظر منه كلاما غير هذا.

– اذن انتهينا – قال الكابتن مخاطبا لوسين مباشرة وبلهجة صارمة – اذهب الى العريف ومارس قيادة المجموعة بالتعاون معه.

– اخبر رئيس التحرير بهذا التصرف المتعسف، ثم انك ايضا... – صاح لوسين بوجه سينتسوف، ولكنه لم يتمكن من اكمال عبارته لان الكابتن اداره قسرا بيده المضمدة ودفعه الى الامام.

– سيخبره من كل بد! اذهب ونفذ الامر. فانت في فرقتنا الآن، واذا امتنعت عن تنفيذ الاوامر ساحرمك من طعم الحياة.

انصرف لوسين وغاص رأسه بين كتفيه، فلم يعد، في لحظة واحدة، ذلك العسكري الانيق الفارع القامة كما كان عليه قبل ذلك، اما سينتسوف فقد شعر بخور فظيع وخر على الارض.

تطلع اليه الكابتن باستغراب، ثم تذكر بانه جريح فهم بان يقول شيئا، الا ان جهاز التلفون بعث صأصأة خفيفة فالتقط الكابتن السماعة على عجل:

– اسمعك ايها الرفيق المقدم! ارسلت مجموعة في الاتجاه القديم،

وشكلت مجموعة اخرى. الى اين؟ ساسجل في الحال. – اخرج من عب بدلته خارطة مطوية باربع صفحات وبحث بنظراته عن نقطة ما ورسم عليها خطا عميقا بظفره. – امرك. ترابط في الكمين. – وادرك سينتسوف انه يتكلم عن المدفعين قرب طريق السيارات – وربطنا القنابل اليدوية اذا دعت الحاجة. لن نجعله يمر!

صمت الكابتن وظل طوال دقيقة يستمع وارتسمت على وجهه امارات الفرحة. ثم قال اخيرا:

– كل شيء واضح، ايها الرفيق المقدم، واضح تماما. عندنا الآن... – اراد ان يقول شيئا، ولكن الذي كان على الطرف الثاني من السلك قطع الاتصال على ما يبدو، فقال الكابتن مرتبكا: – امرك. نهي الكلام. ذكرت انا ايضا كل ما عندي.

وضع السماعة على جهاز التلفون ونهض وتطلع الى وجه الطيار بنظرة معبرة وكأنه قادر على ان يقول شيئا سارا لهذا الانسان الذي احترقت طائرته توا وهلك رفاقه على مرأى منه. وقد قال بالفعل، قال الشيء الوحيد الذي يمكنه ان يفرح الطيار الآن:

– المقدم يقول ان من المستبعد اليوم قيام الالمان بهجوم عبر طريق السيارات. فقد عبر قسم غير كبير من دبابات الالمان. اما الباقي فقد اوقفتموه انتم وراء نهر بيريزينا. الجسر تحطم شذر مذر، ولم يبق له اثر.

– الجسر شذر مذر ونحن شذر مذر. ولا داعي للافتخار! – قاطعه الطيار، ولكن تعابير وجهه افصحت عن افتخاره بهذا الجسر رغم كل شيء.

– ما افظع احتراق طائراتكم! عضضنا اصابعنا باسناننا من الاسف! – قال الكابتن في محاولة للتخفيف على الطيار – سقط طيار الماني هنا، واردت ان اقبض عليه حيا، ولكن هيهات. هل يمكن اقناع الناس بعدم قتله بعد كل ما شاهدوه!

– اين هو؟ – سأل سينتسوف وهو ينهض بصعوبة.

– هنا، يرقد وراء الشوح. من الافضل ان لا تنظروا اليه – لوح الكابتن بيده – كما لو داسته دبابة... – واضاف بعد ان القى نظرة على سينتسوف الشاحب بفعل النزيف: – يمكنك ان ترحل طالما انت جريح، فلا مانع لدي من سفرك.

– في سيارتنا جريحان آخران. – قال سينتسوف وكأنه يبرر جريرة اقترفها – وقتيل – اراد ان يذكر ان القتيل برتبة فريق ولكنه عدل عن ذلك: فما الداعي لذكره؟ – فلنذهب – قال مخاطبا الطيار.

— اعتقد بانى سابقى هنا — قال الطيار بحزم وبدون استعجال: كان يفكر بذلك طوال الوقت، وقد صمم الآن ولا يريد التراجع عما صمم عليه — هل تعطيني بندقية؟ — سأل من الكابتن.

— كلا — هز الكابتن رأسه بالرفض — كلا، يا عزيزى الصقر! ما حاجتى اليك، وماذا ينفعنا بقاؤك؟ اذهب الى هناك — اومأ الى الجو بمشط يده المضمد — اننا نتراجع ابتداء من سلوتسك ونتألم يوميا لقلة تحليقاتكم. اذهب وحلق، لوجه الله، ذلك كل ما هو مطلوب منك! اما الباقى فسنؤديه بانفسنا!

توقف سينتسوف قرب السيارة منتظرا الخاتمة.

الا ان كلمات الكابتن لم تؤثر فى الطيار. فلو كان لديه امل فى الحصول على طائرة جديدة بدلا من طائرته التى تحطمت لما بقى هنا، ولكن لا امل له فى ذلك، فصمم ان يقاتل على الارض. وقال لسينتسوف:

— اذا لم يعطنى بندقية ساحصل عليها بنفسى. — وادرك سينتسوف ان الطيار لن يتراجع عن عناده — ارتحل، ولكن ابذل جهدك لايصال الملاح الى المستشفى حسب الاصول.

لزم الكابتن الصمت. وعندما صعد سينتسوف الى قمرة السيارة ظل كابتن الدبابات والطيار واقفين صامتين جنبا الى جنب: احدهما ضخم فارع القامة والآخر قصير عريض الكتفين وكلاهما عنيدان غاضبان متألمان للاخفاقات ومستعدان للقتال من جديد.

— ما هو لقبك ايها الرفيق الكابتن؟ — سأل سينتسوف من القمرة بعد ان تذكر جريدته لاول مرة.

— لقبى؟ لماذا تسأل عن لقبى؟ هل تريد ان تشتكى علي؟ عبثا تحاول. لقبى هو لقب كل ابناء روسيا. ايفانوف. سجله. ام انك ستتذكره بدون تسجيل؟

عندما خرجت السيارة من الغابة الى الطريق رأى سينتسوف من جديد الجندى الذى اعفاه من مهام الحراسة. كان قد جلس مع الجنديين الآخرين وراح يفعل كما يفعلان: يربط القنابل اليدوية بسلك التلفون كل ثلاث او اربع معا.

استغرق الطريق حتى موغيليف اكثر من ساعتين. فى البداية تهادى هدير المدفعية من الخلف، ثم عم السكون. وعلى مسافة عشرة كيلومترات من المدينة رأى سينتسوف مدافع تجرها الخيول الى مواقعها على شمال الطريق ويمينه، ورأى رتلا من المشاة يسير على الطريق. كان فى وعى غائم، وخيل اليه انه راغب فى النوم، اما فى الواقع فقد انتابته الغيبوبة بين حين وآخر، وكان يفيق منها كل مرة.

على اطراف موغيليف كانت مقاتلتان تحومان على ارتفاع كبير لاغراض الحراسة ويدل صمت المدافع المضادة للجو على ان المقاتلتين من طائراتنا. تطلع سينتسوف اليهما فرأى انهما من طراز ميغ. كان قد شاهد هذه الطائرات فى غرودنو فى الربيع. وقال عنها العارفون انها اسرع من «ميسرشميت» بكثير.

«ليست الامور سيئة الى هذا الحد» — فكر سينتسوف من خلال التعب والالم دون ان يدرك بان هذه الثقة ظهرت لديه ليس من رؤيته القوات التى تشغل مواقعها قرب موغيليف ولا طائرتى الميغ اللتين تحرسان اجواء المدينة، بل على الاكثر، من تذكره لرجال الدبابات الذين احتجزوا سيارته، وتذكره للملازم الشبيه برئيسه المقدم.

عندما توقفت الشاحنة قرب المستشفى العسكرى استجمع سينتسوف قواه لآخر مرة: امسك بمتن السيارة وانتظر حتى ينقلوا منها الملاح الفاقد الوعى والجندى الذى يئن عبر اسنانه المصطكة والفريق القتيل. ثم امر السائق بان يتوجه الى الجريدة ويخبرهم بانه ظل فى المستشفى.

اغلق السائق مؤخرة الشاحنة. والقى سينتسوف نظرة على رزم الجريدة الناقعة فى الدم وتذكر بانهم لم يوزعوا منها شيئا فى الواقع، ثم بقى وحيدا على قارعة الطريق.

دخل بنفسه ردهة استلام المرضى. اخرج من جيبه وثائق الفريق ووضعها على الطاولة، ثم اخرج هويته الشخصية ومد يده بها الى الممرضة، وقبل ان تأخذها منه استدار على جنبه بشكل غريب وهوى على الارض فاقد الوعى.

الفصل الثالث

بعد اسبوعين من اصابة سينتسوف سمحوا له بالتمشي فى حديقة المستشفى مرتين فى اليوم. آنذاك وصل امر بترحيل المستشفى الى دوروغوبوج. انتشرت بين الجرحى فى الحال اشاعة تقول ان الالمان عبروا نهر الدنيبر قرب شكلوف وانهم يلتفون حول موغيليف من الشمال.

كان الجرح «موفقا» على حد تعبير الطبيب الذى اجرى عملية جراحية لسينتسوف: فقد انزلقت الرصاصة على الضلوع.

وعندما احس سينتسوف بالنقاهة التامة تقريبا راجع نائب مدير المستشفى للشؤون السياسية طالبا منه ترخيصا بمغادرة المستشفى. كان الترحيل المرتقب يخيفه. فهو لا يريد ان يبحث فيما بعد عن مقر جريدته من جديد. فقال النائب مرتابا:

– يخيل الى ان هيئة التحرير ارتحلت.

الا ان سينتسوف قال واثقا بان ذلك مستحيل. فلو ارتحلت حقا لاخذته معها. فقد وعده رئيس التحرير بذلك.

لم يلح عليه النائب الغارق حتى اذنيه بشؤون ترحيل الجرحى، فطالما يريد هو مغادرة المستشفى فليغادره!

وعند الظهر خرج سينتسوف من بوابة المستشفى بعد ان تسلم وثائقه والبسته.

كانت موغيليف فارغة نسبيا ويسودها القلق. فقد ظهرت المتاريس على الشوارع، ونصبت الرشاشات وراء حواجز من الاكياس فى نوافذ اركان المنازل.

وقف عند مبنى مطبعة موغيليف التى كان سينتسوف يأمل فى العثور على هيئة التحرير فيها حارس غير ميال الى الكلام. الابواب وبوابة الباحة الحديدية مغلقة باحكام. ولا يصل من الداخل لا ضجيج المكائن، بل ولا اى صوت آخر. فقد خيم سكون مطبق على كل شيء.

بعد ساعة اكد قومندان موغيليف العسكرى، وهو نفس الميجر الذى راجعه سينتسوف قبل اسبوعين ولكنه غدا اكثر انفعالا بسبب الارق، ان هيئة تحرير الجريدة الجبهوية ارتحلت قبل يومين. وفكر سينتسوف متزعجا «ولم يكلفوا أنفسهم باشعارى».

– الى اين ارتحلت؟

هز القومندان كتفيه وقال بانهم لم يخبروه بوجهتهم. انتقلت اركان الجبهة الى منطقة سمولينسك، وعلى اثرها ارتحلت هيئة التحرير.

– عبثا غادرت المستشفى قبل الاوان. كان من الافضل ان تنتقل مع المستشفى الى دوروغوبوج ومن هناك تبحث بشكل طبيعى عما تريد.

اجتاح سينتسوف هاجس بغيض بضرورة التجوال والترحال من جديد.

– خبرنى اية وحدات ترابط عموما فى منطقة موغيليف؟

– وماذا يعنيك منها؟

اجاب سينتسوف بانه يريد الوصول الى هيئة اركان اقرب فرقة عسكرية ليبقى هناك فترة ويجمع المواد للجريدة ثم يذهب الى هيئة التحرير ليس خالى الوفاض على الاقل.

فتح القومندان الخارطة على مضض واشار الى غابة صغيرة على الضفة الثانية من نهر الدنيبر على بعد ستة كيلومترات تقريبا من الجسر. وقال ان اركان الفرقة الـ١٧٦ كانت مرابطة هناك.

بعد ان اجتاز سينتسوف جسر الدنيبر وقطع ثلاثة كيلومترات على طريق موغيليف – اورشا سمع اطلاق المدفعية من خلفه، وراء النهر. توقف على الطريق لحظات واخذ يستمع الى هدير المدفعية المقلق ثم سار من جديد وهو يفكر فى الشيء ذاته، فيما بدأ يفكر به حالما خرج من مقر القومندان: ما الذى سيحدث؟

كانت اركان الجبهة موجودة قرب مينسك، ثم قرب موغيليف، وقد انتقلت الآن الى منطقة سمولينسك، اى انها اقتربت من موسكو لمائة وخمسين كيلومترا اخرى...

ومهما حمل المرء نفسه على التفكير فى ذلك بشيء من الهدوء فان الجغرافية نفسها تهشم الادماغ تهشيما.

تعلم سينتسوف الكثير خلال الاسبوعين اللذين قضاهما فى المستشفى. فما اكثر الاشاعات التى سمعها خلال هذه الايام والتى جعلت الدم يفور فى العروق تارة والفؤاد يتجمد تارة اخرى! ولو صدق الاشاعات السيئة وحدها

لجبن من زمان . ولو استعاد من الذاكرة الاشاعات الجيدة فقط لراح فى آخر المطاف يقرض يده ويخاطب نفسه: كفى! اذا كان الامر كذلك فما سبب وجودى فى المستشفى، وفى موغيليف؟ وما الذى يجعل الاحوال على هذه الشاكلة بالذات؟

فى البداية خيل لسينتسوف ان حقيقة الحرب تقع فى الوسط، بين هذا وذاك . ولكنه ادرك فيما بعد ان ذلك ايضا ليس هو الحقيقة . فان اناسا مختلفين تحدثوا عن الامور الجيدة والسيئة على حد سواء . وهم يستحقون الثقة او لا يستحقونها ليس بسبب ما تحدثوا عنه بالذات، بل بسبب الكيفية التى يتحدثون بها .

جميع الذين رقدوا فى المستشفى لهم علاقة ما بالحرب، والا لما نقلوا الى هنا . بيد انه كان بينهم كثيرون لا يعرفون حتى الآن غير شىء واحد هو ان الالمان يحملون الموت، ولا يعرفون شيئا آخر هو ان الإلمان ليسوا فى منجى من الموت .

وكان اكبر قدر من الثقة هو من نصيب اولئك الذين يعرفون الشيئين، والذين اقتنعوا من تجربتهم الخاصة بان الالمان يموتون ايضا . ومهما كانت الامور التى يتحدثون عنها جيدة او سيئة فمن خلال كلماتهم يلوح هذا الشعور . وتلك هى حقيقة الحرب .

ومن هؤلاء الاشخاص كابتن المدفعية الذى تلقى سينتسوف منه درسا فى الغابة بضواحى بوبرويسك .

القضية ليست فى شجاعة هذا الشخص وجبن ذاك . القضية تتلخص فى ان الكابتن كان ينظر الى الحرب فى ذلك اليوم بنظرة تختلف عن نظرة سينتسوف . الكابتن يعرف جيدا ان الالمان ليسوا فى منجى من الموت وانهم عندما يموتون يتوقفون فى زحفهم . وهو يخضع كل اعماله لهذا الواقع عندما يفكر على هذا النحو . وكانت الحقيقة بالطبع الى جانبه . كان سينتسوف يريد ابعاد الخطر عن الاشخاص الذين هرعوا اليه طالبين النجدة . اما الكابتن فكان يريد انقاذ الوطن بارسال هؤلاء الاشخاص الى المعركة .

لم يحتل الالمان آنذاك موغيليف، والسبب بالطبع هو ان بقايا الفرقة التى خدم فيها الكابتن وكل الذين حملوا السلاح والتفوا حول تلك البقايا فى ذلك اليوم كانوا يعرفون ان الالمان ليسوا فى منجى من الموت . وحتى الذين لا يعرفون ذلك عرفوه فى المعركة . فقد قتلوا الالمان وماتوا ولكنهم ربحوا يوما كاملا: فعند المساء تمركزت خلفهم فرقة مشاة جديدة .

علم سينتسوف بذلك من رئيس التحرير الذى زاره فى المستشفى فى اليوم التالى .

اطرى رئيس التحرير على سينتسوف بعد ان علم بنبأ الرّحلة الى بوبرويسك من سائق السيارة، واعرب عن قلقه على لوسين ولام كابتن الدبابات بشدة على تصرفه الجائر، حتى ان عروقا قرمزية انتفخت على خديه المتهدلين الطيبين المرتعشين من الغضب .

اما سينتسوف فلم يكن يشاطر رئيس التحرير مشاعره تلك . كان يعلم بانه قام خلال ذلك اليوم بحماقات كثيرة . ومن حسن الحظ ان تصرفاته تلك لم تكن ناجمة عن الجبن . زد على ذلك انه شأنه شأن اى شخص يرقد فى المستشفى ويفكر بجراحه كثيرا، قد عجز عن التملص من الفكرة المؤلمة بان الطيار كان يمكن ان لا ينتحر لولا مشمعا رجلى المليشيا الرصاصيان اللميئان الشبيهان بالبزة الالمانية . فأن سينتسوف لم يفكر بذلك آنذاك، والحال فالحرب تتطلب من الناس ان يفكروا، وان يفكروا طوال الوقت على ما يبدو .

وما كان بوسعه ان يشاطر رئيس التحرير غضبه بخصوص لوسين . فان المرشد السياسى لوسين توجه لتوزيع الجريدة، فوجد نفسه فى المعركة . ثم ماذا؟ ذلك امر محتمل، وقد حدث بالفعل . وما يقلق سينتسوف هو تذكره التكشيرة على وجه لوسين الملتوى . لم يكن لوسين راغبا فى البقاء هناك . ولكن الكابتن قال له: «اذا امتنعت عن تنفيذ الاوامر ساحرمك من طعم الحياة!» فالى م انتهى هذا الجدال؟

حاول سينتسوف ان يعرض رأيه على رئيس التحرير الا ان هذا اجابه قائلا:

– ماذا؟ هل تطلب منى ان اوزعكم جميعا على الوحدات المقاتلة؟ اليوم لوسين وغدا سينتسوف وبعد غد لا ادرى من .

هذا الرأى صائب على العموم، ولكنه، على الخصوص، وعندما يتذكر سينتسوف تلك الغابة وتلك اللحظة وذلك الكابتن، يبدو له، على العكس، غير صائب اطلاقا .

تحدث مع رئيس التحرير ساعة كاملة، ولكنهما، على ما يبدو، لم يفهما بعضهما البعض .

وبعد بضع ساعات جرى حادث ازاح لامد طويل جميع الافكار والمشاعر الاخرى . فقد سمع سينتسوف خطاب ستالين بالراديو .

مكبر الصوت معلق فى الرواق قرب طاولة الممرضة المناوبة . فتحوا

المكبر باعلى قدرته، وفتحوا ابواب الردهات على مصاريعها .

تكلم ستالين بصوت بطيء مكبوت وبنبرة جورجية متميزة . واثناء الخطاب سمعت، مرة طقطقة القدح حيث شرب جرعة ماء. كان صوت ستالين رخيما خافتا قد يبدو هادئا تماما لولا انفاسه المتعبة المتثاقلة ولولا قدح الماء الذى اخذ يحتسيه اثناء الخطاب .

ورغم انفعاله ظلت نغمات صوته متناسقة، وانساب هذا الصوت المكبوت بدون تعرجات وبدون علامات تعجب . وكانت قوته تكمن فى عدم التناسب بين هذا الصوت المتناسق وبين الفاجعة التى يتحدث عنها . ولم تدهش تلك القوة احدا . فالجميع يتوقعونها من ستالين .

كان المواطنون يحبونه بطرق شتى: حبا لامتناهيا وحبا متحفظا . كانوا معجبين به وخائفين منه بعض الشىء . وكانوا احيانا لا يحبونه . بيد ان احدا لم يشك ببسالته وارادته الحديدية . وتلكما السجيتان بالذات هما اللتان اعتبرتا اكثر ضرورة لدى الانسان الذى تزعم البلد المحارب .

لم يعتبر ستالين الوضع فاجعا . فمن الصعب تصور هذه الكلمة على شفتيه . الا ان ما تحدث عنه — الجيش الشعبى والاراضى المحتلة وحرب الانصار — يعنى نهاية الاوهام . كنا نتراجع فى كل مكان تقريبا، وكنا نتراجع على مسافات بعيدة . كانت الحقيقة مرة كالعلقم . ولكنها حقيقة قيلت فى آخر الامر وتم الاعتراف بها، فصار الصمود على الارض مع تلك الحقيقة امتن وارسخ .

وكان المرء يتحسس قوة وليس ضعفا فى كون ستالين يتحدث عن البداية الفاشلة فى هذه الحرب الهائلة الفظيعة دون ان يغير لدرجة كبيرة الكلمات والتعابير التى اعتاد عليها، باعتبارها صعوبات كبيرة جدا يتعين تذليلها باسرع ما يمكن .

تلك، على اية حال، هى تفكيرات سينتسوف الراقد فى الليل على سرير المرضى وهو يتذكر من جديد وسط انين جاره المحتضر كل تفاصيل خطاب ستالين ونداءه الذى يمزق نياط الفؤاد: «يا اصدقائى!». ذلك النداء الذى راح المستشفى كله يكرره طوال النهار .

سأل سينتسوف نفسه فى هذه الليلة وهو طريح الفراش سؤالا يطرحه الناس عادة فى سن الفتوة، سأل نفسه لأول مرة وهو فى الثلاثين: «هل سأضحى بحياتى من اجل ستالين لمجرد ان يقول لى احد: مت انت لكى يعيش ستالين؟ اجل، سأضحى بحياتى، وهذه التضحية اليوم اسهل مما فى اى وقت آخر!».

«يا اصدقائى...» — كرر سينتسوف نداء ستالين هامسا وادرك فجأة بانه كان من زمان، فى كل الاعمال الكبيرة بل والضخمة التى قام بها ستالين ويتذكرها هو، بحاجة ماسة الى الكلمات التى قيلت اليوم: «اخوانى واخواتى! يا اصدقائى!»، والاصح انه بحاجة ماسة الى المشاعر التى تنطوى عليها هذه الكلمات . هل من المعقول ان مثل هذه الكلمات والمشاعر لا تظهر الا بظهور فاجعة كالحرب؟!

ذلك تساؤل مؤلم مرير! تنصل عنه سينتسوف مرتعبا فى الحال كما يتنصل الانسان عن فكرة تافهة خسيسة، مع انه لم يكن تساؤلا تافها ولا خسيسا . كان تساؤلا غير معتاد لا اكثر ولا اقل .

فالامر الاهم هو ما تبقى فى الفؤاد بعد خطاب ستالين: ذلك التوقع المتوتر والانتظار اللجوج لتغيرات نحو الافضل . واخذ هذا التوقع، على ما يبدو، يتحقق باسرع من المنتظر منذ الاسبوع الاول .

ظلت تتكرر فى البلاغات يوميا نفس الاتجاهات التى تدور فيها معارك طاحنة . وادى ذلك الى المزيد من الثقة لان اتجاه بوبرويسك كان يرد ذكره بين الاتجاهات الاخرى، ولان الالمان فى هذا الاتجاه يراوحون فى مكانهم بالفعل منذ بضعة ايام: فالمستشفى يعرف تلك الاخبار من مصدرها الاول .

بيد ان جو المستشفى فاح فيما بعد برائحة القلق . فى البداية ظهرت اشاعة تقول ان الالمان لم يتمكنوا من التوجه الى موغيليف فاستداروا من بوبرويسك نحو روغاتشيف وجلوبين واحتلوهما . وبعد ذلك وصل رئيس التحرير فجأة وبقى عند سينتسوف لحظة فسأله عن صحته وقال له انهم سيأخذونه معهم اذا ارتحلت هيئة التحرير ثم انصرف على عجل، وكان واضحا انه لا يريد الاجابة على اية اسئلة . واخيرا، فى يوم وصول الامر بالترحيل، تحدث المستشفى كله عن ان الالمان عبروا الدنيبر قرب شكلوف .

يسير سينتسوف الآن على حافة الطريق الموازى لنهر الدنيبر والمتجه نحو الشمال، الى شكلوف هذه . وهو يفكر بصحة او عدم صحة اشاعات الصباح .

فاذا كانت صحيحة، لسوء الحظ، يغدو مفهوما ارتحال هيئة التحرير من موغيليف الواقعة وراء الدنيبر . ولكن شيئا آخر يظل غير مفهوم: هل من المعقول انهم لم يتمكنوا من الانتظار عشر دقائق ويفوا بوعدهم فيأخذوه، هو سينتسوف، من المستشفى؟

لا تبدو موغيليف الآن ايضا، بعد يومين من ارتحال هيئة التحرير، بانها تنوى الاستسلام. فما الداعى لذلك الاستعجال يا ترى؟ اشتد غيظ سينتسوف فصمم على ان لا يعود الى هيئة التحرير بدون مادة جيدة عن القتال.

بعد السير الطويل لاحت عليه بوادر الضعف بسبب الاصابة بالجرح. فعند الكيلومتر السابع الذى قال القومندان ان اركان الفرقة تقع قربه لم يكن هناك فى الغابة الا آثار السيارات والحفر فى الارض الطينية والاغصان المستخدمة لاغراض التمويه والمبعثرة على عجل. واذا كانت الاركان قد رابطت هنا فان هذه الاغصان الذابلة تدل على انها ارتحلت قبل يوم كامل على اقل تقدير. عاد سينتسوف الى الطريق العام ومرت به مجموعة من السيارات التى تحمل العتاد، ثم شاحنة تسحب مدفعا. رفع سينتسوف يده مترددا، ولكن السيارات لم تتوقف.

ثم مرت به سيارة جيب. وظن سينتسوف بانها هى الاخرى لن تتوقف، ولكنها توقفت على بعد مائة متر منه. هرع اليها سينتسوف بانفاس متلاحقة.

– ماذا تريد ايها الرفيق المرشد السياسى؟ – سأله الشخص الجالس قرب السائق. وهو مفوض كتيبة مكتنز البدن صغير الحجم مورد الوجنتين وخط الشيب شعره ويرتدى نظارات سميكة مزدوجة.

اوضح سينتسوف بانه يبحث عن اركان الفرقة ١٧٦. وقبل ان يجيبه مفوض الكتيبة طالب منه ان يعرض عليه وثائقه. وكان مظهره لا يبعث على الامل. ففكر سينتسوف «لن يأخذنى معه». بيد ان ملامح وجه المفوض غدت اكثر طيبة بعد ان قرأ وريقة المستشفى. فاعاد الوريقة قائلا:

– على انا ايضا ان اذهب الى الفرقة ١٧٦، ولكن غدا. اما الآن فانا متوجه الى الفرقة ٣٠١. وبوسعى ان اوصلك اليها.

كان ذلك ملائما لسينتسوف. فشكره وصعد الى السيارة. ساروا صامتين زهاء كيلومتر، ثم اوقف المفوض السيارة وجلس على المقعد الخلفى وقال موضحا عندما تحركت السيارة من جديد:

– هكذا افضل. والا يتعين الالتفات طوال الوقت من اجل الكلام. وانا لا استطيع بدون كلام – ابتسم برقة ومد يده لمصافحة سينتسوف قائلا: شماكوف.

كان شماكوف من هواة الكلام حقا. فهو عندما يوجه اسئلته السريعة يميل برأسه الاشيب المستدير على كتفه اليسرى بشكل لطيف كما يفعل الطير ويتطلع الى سينتسوف عبر نظاراته باهتمام وطيبة ولسان حاله يقول: «وما

الذى ستقوله لى مما يثير الاهتمام؟». وعندما يتكلم يخلع نظاراته طوال الوقت ويمسحها وينظر فيها بامعان على الضوء من جديد ثم يرتديها. كانت عيناه بدون النظارات السميكة مريضتين تماما، فهما حمراوان بجفون منتفخة.

اخذ سينتسوف يجيب على مضض دون ان يتدخل فى التفاصيل. قال بانه وصل الى الجبهة فى اليوم السادس للحرب وكان فى مناطق مختلفة، واصيب بجرح بالصدفة فى ضواحى بوبرويسك. يبدو ان شماكوف ادرك بسرعة ان فؤاد محدثه مثقل بالكآبة، فلم يعد يسأل منه بل راح يتحدث عن نفسه. قال انه استدعى للخدمة فى الجيش قبل اسبوع واحد ووصل الى الجبهة يوم امس بوصفه محاضرا للادارة السياسية بالجيش الاحمر، وهذه اول رحلة يقوم بها الى الوحدات العسكرية.

– اية محاضرات ستلقى هنا فى الجبهة؟ – سأله سينتسوف وفكر فى نفسه بان وقت سماع المحاضرات قد فات بالنسبة له شخصيا.

– على العموم انا مختص بالاقتصاد – اجاب شماكوف دون ان يلاحظ او لعله لم يكن يريد ان يلاحظ السخرية التى انطوى عليها سؤال سينتسوف – اما المواضيع فهى متنوعة: «الحرب والوضع الدولى»، «القدرة الاقتصادية الحربية لالمانيا»، والمواضيع الاكثر تعميما بالطبع.

– هل انت حاصل على تعليم عسكرى؟ – سأله سينتسوف.

– لا ادرى كيف اجيبك – مسح شماكوف نظاراته من جديد ونظر اليها فى الضوء بامعان كأنه يتطلع الى الماضى البعيد – عملت فى زمن ما، مثل الكثيرين من الشيوعيين فى عمرى، مسؤولا سياسيا ابان الحرب الاهلية. وتلك على الاصح خبرة عملية اكثر مما هى تعليم.

وفكر سينتسوف بمرارة: «اجل، خبرة. ولكن ليس هناك ما يدل على ان هذه الخبرة تنفعنا. فالقوات الالمانية ليست مثل قوات الحرس الابيض، وهتلر ليس مثل دينيكين ...». وتذكر بهياج رواية قرأها قبل عامين عن الحرب المرتقبة التى تتطاير فيها المانيا الفاشية شذر مذر بعد اول ضربة تسددها طائراتنا. حبذا لو جيء بالمؤلف الى طريق بوبرويسك قبل اسبوعين!

برقت هذه الافكار دفعة واحدة فى ذهنه، ولكنه لم يذكر شيئا منها، بل اطلق تنهدة. سأله شماكوف على اثرها بتأدب:

– واجهت مصاعب كبيرة، اليس كذلك؟

– ما قيمة المصاعب التى واجهتها انا! – اجاب سينتسوف صادقا – على العموم المصاعب هائلة جدا ... – لوح بيده يائسا بعد ان شعر بالثقة ازاء الرجل

الصغير الاشيب الجالس قربه. فقال شماكوف ولمس برقة ردن سينتسوف وكأنه يهدئه:

– لا بأس. نقيد زحفهم شيئا فشيئا، ثم نوقفهم ونحقق الانعطاف. في الحرب الاهلية صادفت حالات اسوأ: قوات يودينتش كادت تحتل بتروغراد، وقوات دينيكين احتلت اوريل وتوجهت نحو موسكو... ومع ذلك حققنا الانعطاف في الاخير.

– لم تكن لدى دينيكين طائرات ودبابات – قال سينتسوف متألما.

– صحيح، او صحيح تقريبا اذا اردنا الدقة – قال شماكوف موافقا ولم يلاحظ من جديد او انه تظاهر بعدم ملاحظة مزاجه – ولكننا نحن ايضا لم تكن نمتلك الكثير مما لدينا الآن: لم تكن لدينا خطط خمسية ولا اربعة ملايين شيوعي...

«لماذا يطبق اساليب الدعاية علي»؟ – فكر سينتسوف متذمرا. كان فؤاده يبحث عن التهدئة، ولكنه يقاوم اغراء التسرع في قبول كل ما يمكن ان يهدئه.

– بالطبع – قال شماكوف بعد صمت قصير – كنا قبل الحرب نتباهى ونبالغ في بعض الاشياء، بما في ذلك استعدادنا للحرب. وهذا واضح كليا الآن. ولكن ذلك لا يعني باننا يجب ان نتطرف ونغالي بالاتجاه المعاكس، ونقلل من قيمة قدراتنا بسبب الاخفاقات الاولى. فهذه القدرات هائلة، وحتى نحن لم نحسب لها الحساب بالشكل الكامل، فكيف بالالمان؟ وانا اتحدث عن ذلك بثقة تامة لاني مطلع على القضية.

– ما الداعي التقليل؟ فهل يرغب فيه احد منا؟ القضية اني رأيت ما لا يبعث على السرور. ولست راغبا في انشاد اغنية: «كل شيء على ما يرام ايتها المركيزة الحسناء...».

– حقا، هذه الاغنية ليست بلشفية. – قال شماكوف مقهقها. – نحن بلاشفة، وقد حان الوقت لنسيان مثل هذه الاغاني.

– هل وصلت من موسكو من زمان؟ – سأله سينتسوف وقد تذكر ماشا.

– قبل ثلاثة ايام.

– هل قصفوا موسكو؟

– كلا.

– صحيح ما تقول؟

– تعودت على قول الصدق وحده – اجاب شماكوف بنبرة تغيرت على نحو غير ملحوظ وتطلع عبر نظاراته الى عيني سينتسوف مباشرة.

– لماذا لم يقصفوها؟ ما هو رأيك؟

– ليست لديهم القوات الكافية. فقد زجوا بسلاح الجو كله في الجبهة، ولم يبق لديهم ما يطيرون به الى موسكو.

– هل من المعقول ذلك؟

– اجل. وعلى العموم لا داعي للاعتقاد بان الالمان يمتلكون قوى لا تنفد. فالبعض منا انساقوا وراء هذه المغالاة. وعبثا فعلوا. فهي قريبة من الذعر. في حين ليست لدينا اسباب للذعر. ثم انه ليس من طبيعتنا. ومع ذلك يوجد مذعورون – قال شماكوف في الختام بنفس النبرة المتصلبة في صوته الرقيق.

ورغم ان كل ما قاله شماكوف الآن شبيه بالتوبيخ غير الصريح تطلع اليه سينتسوف بامتنان. فقد نمت كلمات شماكوف عن ثقة بعيدة عن الجهل بواقع الامور الفعلي. وتساءل سينتسوف بصوت عال:

– يعني ان الهدوء يسود موسكو، اليس كذلك؟

هز شماكوف كتفيه وقال:

– الروث يطفو على السطح بالطبع. وعلى العموم... – فكر شماكوف واضاف في الختام – الامور طبيعية. – ثم غرق في تفكيره وكأنه يزن نزاهة ما قال وكرر من جديد: – اجل، الامور طبيعية!

حالما تلفظ هذه الكلمات ظهرت مقابل سيارتهم عدة شاحنات تنهب الطريق بسرعة هائلة. وفي آخر شاحنة مد شخص اشعث الشعر بدون طاقية نصف بدنه من قمرتها وصاح بصوت يصم الآذان:

– دبابات! هناك دبابات!

التفت السائق الى شماكوف دون ان يوقف السيارة ولاحت على وجهه المرتعب امارات التساؤل. فقال شماكوف بهدوء:

– فلنواصل، بقي لنا كيلومتر واحد حتى مقر اركان الفرقة. ذعر لا داعي له. مستحيل...

لاذ سينتسوف بالصمت. فان رغبته في عدم الظهور بمظهر الانسان الحذر اكثر من محدثه تفوقت على التفكير السليم. وبعد نصف كيلومتر كرر شماكوف:

– مستحيل. قيل لي ان قواتنا تحتفظ بخط الدفاع على طول نهر الدنيبر، فمن اين وصلت الدبابات الالمانية الى هذه الضفة؟

ظل سينتسوف ملتزما بالصمت. وفكر في نفسه: «من أين وصلت؟ الشيطان وحده يعرف من اين وصلت!».

– هنا، الى اليمين، على ما اعتقد، مكان الاستدارة نحو مقر اركان الفرقة – قال شماكوف وهو يقرب الى عينيه، كما يفعل المصاب بقصر نظر، محفظته الميدانية وعليها خارطة مغلفة بقطعة من نيلون شفاف. كان على اعتقاد راسخ، مثل اى شخص يصل الى الجبهة للمرة الاولى، بان كل ما هو مرسوم على الخارطة موجود فى المكان الذى تشير اليه. – فلنتوقف الآن وتر، فلا بد من وجود مؤشر ما.

وما كاد يأمر السائق بالتوقف حتى فرمل هذا من تلقائه. فعلى مسافة ليست بعيدة جدا، على الطريق، اخذت القذائف تنفجر الواحدة تلو الاخرى. والطريق الذى كان خاليا تقريبا قبل ذلك غص بالسيارات دفعة واحدة: البعض منها ينهب الطريق من الامام والبعض الآخر جاء من الخلف ليستدير عائدا على عجل. وراح سائق سيارتهما الجيب يستدير بها دون ان ينتظر الاوامر، وعندما هدرت قذيفة اخرى ترك السيارة فجأة وركض الى الساقية.

فتح سينتسوف الباب لكى يقفز ليعيد السائق، الا ان شماكوف حل المشكلة بشكل ابسط:

– لا تتحرك – قال بهدوء لسينتسوف وامسك بكتفه ثم جلس بسرعة وراء مقود السيارة واستدار بها ووضعها على حافة الطريق. وقد فعل ذلك فى الوقت المناسب. فلو تأخر لحظة لاجتاحتهم موجة الشاحنات المنطلقة باقصى السرعة.

– والآن فلنخرج. – اقترب شماكوف من الساقية ونادى السائق المنبطح هناك: – يا رفيق سولوديلوف!

نهض السائق وجفونه ترتعش هلعا.

– اذهب واجلس وراء مقود السيارة – امره شماكوف.

عاد السائق الى السيارة كئيبا، الا ان شماكوف لم يصعد اليها بل ظل يراوح قربها على نحو غريب ويتطلع الى الامام حيث استمر انفجار القذائف.

تململ سينتسوف قلقا وقال مذللا عدم رغبته فى المبادرة الى الكلام عن ضرورة العودة:

– ايها الرفيق المفوض فلنعد كيلومترين او ثلاثة. فقد رأيت هناك على جانبى الطريق مدافع مضادة للدبابات. وسنقابل احد القادة العسكريين ونستفسر منه عما اذا كان بالامكان الذهاب الى الفرقة ٣٠١.

قال ذلك وكان يخشى ان شماكوف الذى بدا له انسانا عنيدا رغم رقته الظاهرية سيرفض الاقتراح وسيواصلون السير الى الامام، الى المجهول. بيد ان شماكوف استمع اليه وتطلع الى الدخان وكأنه يبرر موافقته على العودة:

– لم يكلفوا انفسهم بان يعطونا حتى مسدسا.

وفكر سينتسوف بعد ان نسى كيف كان منفعلا فى اليوم الاول بسبب عدم وجود سلاح لديه: «هل تعتقد بان المسدس سينفعك فى هذه الحال؟!».

وقال شماكوف بعد ان استند بكوعيه الى ظهر المقعد الامامى والقى نظرة جانبية على وجه السائق:

– يعنى انك تركت القائدين وهربت.

– حاكمنى طالما انا مذنب. – اجاب السائق بصوت منسحق دون ان يلتفت.

– كيف احاكمك؟ عيب عليك. هل انت عضو فى الكومسومول؟

– نعم – اجاب السائق بنفس الصوت المنسحق.

– يا للعار – قال شماكوف – ابنى عضو فى الكومسومول ايضا. ربما كنت سأذوب من العار لو علمت بان ابنى تصرف مثل تصرفك.

– اين هو؟ ابنك؟ – سأل السائق بخفوت، فادرك سينتسوف بان كل ما قاله شماكوف قبل ذلك سيغدو لغوا فارغا بالنسبة للسائق اذا اضطر شماكوف للاجابة بان ابنه الآن فى المؤخرة.

– كان ابنى طيارا، من الرماة الجويين. وقد قتل قبل اسبوع. فلماذا تسأل عنه؟

– لا لشيء – قال السائق بمزيد من الخفوت.

– قف! – هتف سينتسوف الذى كان يراقب الطريق.

توقفوا قرب مدفع مضاد للدبابات منصوب قرب ساقية الطريق. وقد بدا من بعيد وكأنه شجيرة زحفت من الغابة الى قارعة الطريق. والى جنب المدفع جلس عقيد بشعر اشيب حليق قصير وبدون طاقية وراح يحتسى الشاى من الترموس. وبدلا من الرد على تحية شماكوف وسينتسوف اللذين نزلا من السيارة بادرهما قائلا:

– ابعدوا السيارة حوالى مائتى متر، وبعد ذلك ستتكلم.

امر شماكوف السائق بان يبتعد بالسيارة الى الامام ثم اومأ الى الشمال وقال للعقيد بان الالمان يطلقون النار على الطريق هناك، على بعد اربعة كيلومترات. فقال العقيد ونهض وهو يغلق الترموس:

– محتمل جدا.

بعد ان استمع شماكوف الى هذا الجواب الهادئ الذى بدا لسينتسوف ساخرا بعض الشيء، سأل من الرفيق العقيد عما اذا كان يعرف بموقع اركان فرقة ما.

– اركان فرقة ما؟ – سأل العقيد بنفس اللهجة الساخرة وارتدى طاقيته وشد زر الغلاف المشمع على الترموس وعلقه على كتفه – اذا كان المطلوب اركان فرقة لا على التعيين فلنذهب الى فرقتنا .

– وفرقتكم ، ما هو رقمها؟ – سأله شماكوف فبادره العقيد بسؤال :

– وانت ، من انت؟

قدم له شماكوف هويته الشخصية فالقى العقيد عليها نظرة خاطفة وافاد بانه آمر مدفعية الفرقة ١٧٦ جاء الى هنا لتفقد الدفاع المضاد للدبابات وهو عائد الآن الى مقر اركان فرقته . فسأله شماكوف في الحال :

– وكيف يمكن الوصول الى الفرقة ٣٠١؟

هز العقيد كتفيه وقال ان مقر الفرقة ٣٠١ كان على مسافة ثمانية كيلومترات تقريبا الى الشمال ، ولكن طالما تطلق النار على الطريق فلعل من غير المجدي الذهاب الى هناك الى حين اتضاح الموقف . ولاحت في ولعل هذه نبرة السخرية الهادئة من جديد . فقال شماكوف اللجوج :

– قيل لي ان مقر اركان الفرقة ٣٠١ اقرب من ذلك ، على مسافة اربعة كيلومترات من هنا .

هز العقيد كتفيه من جديد وسأل :

– متى قالوا لك واين؟

– بالامس ، في الشعبة السياسية للجيش .

– لا تصدق كثيرا بما قيل لك بالامس ايها الرفيق المفوض ، والا فستقضي بقية حياتك في الاسر اذا اهملت عامل الزمن . ومن الحماقة ان يقع في الاسر اناس شيب مثلي ومثلك . انت محاضر ايضا؟ – سأل العقيد من سينتسوف ملتفتا اليه نصف التفاتة .

– كلا . انا من العاملين في جريدة الجبهة .

– آ ... – قال العقيد بلامبالاة وخطا نحو السيارة بساقين طويلتين كساقي الكركي وجزمتين لماعتين بمهمازين .

وتبعه سينتسوف وشماكوف والكابتن الذي رافق العقيد ، وهو قائد بطارية ، وكانوا يجدون صعوبة في اللحاق به .

صعد العقيد الى السيارة وجلس على المقعد الامامي ثم التفت الى الكابتن :

– اخبر السائس بان يوصل حصاني الى مقر الاركان .

وعندما انطلقت السيارة سأل شماكوف :

– كيف الحال عندكم في الفرقة؟

– الحال؟ – التفت اليه العقيد ورفع حاجبيه بسخرية – الحال عموما يجب ان لا يعرفها الا الله وقائد الفرقة . اما انا كمدفعي فافكر على النحو التالي : ما دامت عندنا مدافع وما دمنا قد استلمنا اخيرا كمية من القذائف يوم امس فسوف نقاتل . بالامس دمرنا سرية للالمان حاولت ان تعبر النهر واغرقنا لها ستة زوارق مسطحة . ولكن تلك ليست معركة حقيقية .

وقال سينتسوف :

– عندما غادرت موغيليف سمعت قصف المدفعية وراء الطرف الجنوبي .

فرد العقيد :

– يعني ان سربيلين بدأ يقاتل . لاحظنا امس من مركز المراقبة تحشد الدبابات . ولكنني لا استطيع الجزم ، فانا هنا منذ الصباح ، وعلى العموم فسنبدأ القتال جميعا في القريب العاجل . لا مفر من ذلك .

اعجب سينتسوف بهدوء هذا الانسان الجاد الساخر الذي لم يتسلم القذائف حتى يوم امس ، وربما كان قلقا بسبب ذلك ، ولكن القلق فارقه الآن فصار يتحدث عن المعارك المقبلة وكأنه رب بيت يقف امام مائدة كل شيء جاهز عليها .

اتضح ان مقر اركان الفرقة ليس في المكان الذي اشار اليه قومندان موغيليف على الخارطة . فهو موجود في غابة صنوبر غير كثيفة اقرب من ذلك المكان بكيلومتر واحد . وسط الغابة ، تحت صنوبرة ضخمة جلس على كرسي مركب امام طاولة صغيرة مركبة عقيد ضخم يتصبب العرق منه بسبب الحر وقد فتح ازرار قمصلته المزينة بوسامين فتعرى صدره المكسو بالشعر . انه قائد الفرقة .

عندما عرف العقيد ان سينتسوف من العاملين في الجريدة الجبهوية اطلق لسبب ما تنهدة عميقة وقال ان شؤون المراسلين ليست من صلاحياته ، وان بامكان سينتسوف ان ينتظر هنا نائبه للشؤون السياسية او يتوجه الى الشعبة السياسية . واضاف العقيد بغضب :

– اما انا فهذا لا يعنيني . لقد تعلمت درسا . اجل تعلمت درسا!

ولاح على وجهه الممتلئ تعبير حانق وكأن سينتسوف مذنب في شيء بحقه .

ابتعد سينتسوف وتطلع الى ساعته . الوقت بداية الساعة السابعة . فعزم على الانتظار هنا . اما شماكوف فقد اقترب منه وقال :

– انا ذاهب الى الشعبة السياسية ، وانت؟

– سانتظر هنا . – شد سينتسوف على يد شماكوف وهو واثق تماما من انه لن يرى هذا الانسان بعد الآن .

– هل تريد طعاما؟ – قال العقيد المدفعي الاشيب الذى جاء معهما بالسيارة، وقد مر قرب سينتسوف – بطاريتى وراء الغابة، والمدفعيون سيطعمونك، قل لهم انى امرت بذلك.

– شكرا. عندى هنا كل ما احتاج اليه – اجاب سينتسوف وطبطب بيده على محفظته الميدانية.

كانت المحفظة تضم بالفعل علبة لحم وقطعة خبز تسلمهما من المستشفى.

– ماذا؟ يبدو انك طلبت العون من قائدنا فرفض، اليس كذلك؟ – قال العقيد ورفع حاجبيه الساخرين واومأ الى قائد الفرقة الذى يتكلم بصوت عال وهو جالس الى طاولته المركبة.

– بلى.

– لا تزعل. ينبغى ان تتفهمه. اثناء الحرب الفنلندية وصل الينا احد المراسلين وقال له شيئا مخالفا لرأيه. انه سريع الغضب ولا يتأخر فى انزال العقاب. فزج بالمراسل فى السجن فورا لمدة عشرة ايام. ومن سوء الحظ ان المراسل كان كاتبا واديبا معروفا. فقال ذلك القائد عندما اعتقله، ولكن القائد لم يعره اهتماما، فهو لا يطالع الادب الرفيع. انصحك بان تنتظر نائبه للشؤون السياسية، اريد ان اقدم لك نصيحة اخرى...

بيد ان سينتسوف لم يتمكن من معرفة النصيحة التى كان آمر المدفعية الساخر ينوى تقديمها له فقد انفجرت فى الغابة قذيفة ثقيلة فى بادئ الامر، ثم سلسلة متلاحقة من القذائف. واندسوا جميعا – سينتسوف وآمر المدفعية وقائد الفرقة – فى الاخاديد الرملية الصفراء المحفورة بين اشجار الصنوبر. كان الالمان يسددون الضربات ليس الى مقر الاركان بل الى نفس تلك البطارية المرابطة وراء الغابة والتى دعا العقيد اليها سينتسوف لتناول الطعام. واتضح ذلك من الحوار بين المدفعى الساخر الذى انحشر مع سينتسوف فى اخدود واحد وقائد الفرقة البدين الذى جلس فى اخدود آخر على بعد عشرين مترا عنهما.

– مكان غير موفق لمرابطة البطارية! – صاح قائد الفرقة وقد اشرأب بعنقه من الاخدود بعد انفجار احدى القذائف.

– اسمع لى بالكلام! – اجابه آمر المدفعية صائحا وقد اشرأب من اخدوده ايضا ورفع يده الى طاقيته بالتحية. – كنت قد اخبرتك بذلك عندما نقلتم مركز القيادة الى هنا!..

وانفجرت قذيفة اخرى. فغاص كلا العقيدين فى اخدوديهما.

– ما كان هناك داع لاخبارى! – مد قائد الفرقة عنقه من الاخدود مجددا واحتقن وجهه من الصياح – كان يجب نقلها بدون اخبارى، طالما انى نقلت مركز القيادة...

– اسمع لى بالكلام – رفع آمر المدفعية يده بالتحية من جديد وقال صائحا – اننى اخبرتك فامرت انت بعدم نقل البطارية لان...

ازت قذيفة جديدة وانفجرت، وغاص الاثنان من جديد فى اخدوديهما ثم اشرأبا منهما وصاح قائد الفرقة:

– اننى لا اسألك كيف، ولماذا. اننى آمرك...

ابتسم سينتسوف رغم خطورة الموقف وهو يغوص من جديد فى الاخدود الى جانب العقيد المدفعى الذى لاحظ ابتسامته وغمز له كما يفعل الصبيان.

انتهت الغارة بغتة كما بدأت. وبلغ مجمل الخسائر فى الغابة كلها بضعة اشخاص اصيبوا بجروح طفيفة.

– آمرك بنقل البطارية فورا! – صاح قائد الفرقة وهو يخرج من الاخدود بصعوبة وينفض ركبتيه السميكتين من الرمل.

– حسب امرك، سننقل البطارية!

الا ان قائد الفرقة لم يعد يتطلع الى المدفعى، بل صاح على شخص آخر كي يقدموا له سيارة ليتوجه بها الى سربيلين.

– آلو، سربيلين، سربيلين! – صاح بعد دقيقة باعلى صوته بالسماعة – زايتشيكوف يكلمك.. كيف الحال عندكم يا سربيلين؟ انا متوجه اليك، واصل القتال دون تردد! – يبدو انهم اخبروه بالتلفون ما يبعث على الفرح – اضرب يا سربيلين، يا العتة، اضربهم كما ضربنا الحرس الابيض انا وانت!.. انا متوجه اليك فى الحال! – صاح العقيد بصوت مرح عم الغابة كلها.

وما كاد قائد الفرقة يرتحل حتى بدأ اطلاق النار من المدافع الصغيرة العيار ووصل اشعار تلفونى اكد بان الدبابات الالمانية بلغت طريق السيارات على بعد ثلاثة كيلومترات عن الاركان.

استقل العقيد المدفعى شاحنة وتوجه الى الطريق العام حيث تقع مدافعه. هم سينتسوف باللحاق به ولكنه عدل عن ذلك مترددا فى اللحظة الاخيرة. ورغم انه تظاهر لاقناع نفسه بانه اراد التوجه معه ولم يتمكن فقد كان يعرف فى دخيلة نفسه بانه جبن. وبعد دقيقة واحدة سيطر على اعصابه وصمم على التوجه بالفعل، ولكن لم يعد هناك من يذهب معه. اقترب من الطاولة الصغيرة التى جلس عندها مناوب العمليات واتكأ على صنوبرة سميكة.

6–287

صارت الاشارات التلفونية تثير المزيد من القلق: الدبابات على بعد كيلومترين، ثم كيلومتر ونصف، ثم كيلومتر واحد ...

واصدر مناوب العمليات وميجر آخر امرا باعداد القنابل اليدوية وقناني البنزين.

اعدوا قناني البنزين، ولكنه اتضح ان الجميع تقريبا لا يمتلكون ثقابا. نسي الجميع الدبابات بضع دقائق فراحوا يبحثون في الجيوب عن علب الثقاب ويوزعونها فيما بينهم.

وانداح من جهة الطريق العام هدير المحركات ثم نيران المدفعية الكثيفة، وعم السكون بعد ذلك فجأة.

مسح مناوب العمليات العرق من جبينه ووضع على الطاولة سماعة التلفون فانبعث عاليا في الصمت صوت ارتطامها بسطح الطاولة وقال ان كل شيء على ما يرام اذ دمرت المدفعية الدبابات المهاجمة.

وبعد خمس دقائق دخلت الغابة سيارة بيكاب عبر التعرجات وبين الاشجار ونزل منها رجل كان سينتسوف لا يتوقع وصوله اطلاقا.

انه المراسل الفوتوغرافي المعروف في موسكو ميشكا زميله منذ سني الدراسة في المعهد الصحافي الشيوعي وهو الآن يرتدي البزة العسكرية ولكنه ظل كليا كما كان عليه قبل الحرب بدينا مرحا صاخبا تتدلى على صدره آلتا تصوير.

— مرحبا يا ميشكا! — بادره سينتسوف فرحا وهو يهز بكلتا يديه يد صديقه القديم الثقيلة ككتلة حديد والذي اعتاد الآخرون سابقا وحاليا على تسميته بصيغة التحبب «ميشكا» بدلا من اسمه «ميخائيل».

— مرحبا، مرحبا! — اجاب ميشكا باسما وراح يمسح بيده الطليقة العرق المتصبب من وجهه المستدير كالمقلاة — متى ظهرت هنا؟

«ظهرت» هي الكلمة المحببة لديه.

— من اين ظهرت انت؟ — سأل سينتسوف وهو يتطلع الى وجه ميشكا ويضحك بصورة لاارادية ايضا.

— كانت سيارتنا تسير على الطريق العام فرأيت كيف تسدد الضربات الى الدبابات الالمانية فظهرت في الحال وصورتها. دمروا ثلاث دبابات تدميرا قطعيا ولكن الواحدة بعيدة عن الاخرى. ومع ذلك، لا بأس. يمكن ان الصق احداها بالاخرى واقتطع المناظر الطبيعية فاحصل على صورة بونورامية معبرة جدا!

— ولماذا جئت الى هنا؟

— قيل لي ان مقر اركان الفرقة هنا، فعرجت لاعرف الى اين يمكنني ان اتوجه للتصوير.

— بلغنا الآن ان عشرين دبابة المانية قد دمرت في اطراف موفيليف وراء الدنيبر — قال مناوب العمليات. فالتفت ميشكا الى سينتسوف وعقب على ذلك:

— ستكون تلك صورة بونورامية حقا! هل تريد ان تظهر معي هناك؟ اصعد الى السيارة.

— لم لا؟

— لن تجدا سريبلين بدون مرافق من مركز القيادة — تدخل المناوب في الحوار من جديد، فقال ميشكا:

— سأجد بنفسي كل شيء،. ولكن الضوء غير كاف للتصوير — تطلع الى السماء التي اخذ لونها يتحول الى رصاصي كالح وانكمش وجهه متذمرا وبعد ان ادرك نهائيا بأنه لن يستطيع الاعتراض على الطبيعة هدأ وسمح السائق بان يذهب ليتزود بالبنزين، ثم جلس قرب سينتسوف على الارض وقال: — اسمع، هل لديك ما يؤكل؟ فانا لم اتناول طعاما منذ الصباح.

فتح سينتسوف محفظته الميدانية بصمت واخرج منها الخبز وعلبة اللحم. وكان يعرف بانه لا جدوى من الاستفسار من ميشكا طالما هو جائع.

سحب ميشكا سكينا وقص اعلى العلبة بحركة دائرية وراح يلتهم اللحم بنهم بعد ان يلتقطه بطرف السكين ويرفقه بقضمة كبيرة من الخبز. وبعد ان اجهز على ثلاثة ارباع العلبة التفت الى سينتسوف وسأله بفم مليء:

— وانت؟ هل اكلت؟

— كلا.

— خذ — قدم له ميشكا العلبة وبقايا الخبز بأسف — انني دوما انسى رفاقي.. يا للعار.

اخذ سينتسوف من ميشكا السكين وبقايا اللحم وابتسم. وبعد ان مضغ ميشكا آخر قطعة من اللحم لم يتورع عن التقاطها بالسكين وهو يسلم العلبة الى سينتسوف سأله هذا:

— كيف الحال في موسكو؟

— ربما تعتبرني كاذبا، ولكنني لم ار موسكو. ظهرت هناك مرتين قادما من الجبهة لبضع ساعات: سلمت الصور وعدت. هل تعلم — تذكر بمرح فجأة — قتل كوفريغين من جريدة «النجم» بضواحي مينسك. اسفي عليه. كان شابا طيبا.

كان متأسفا على كوفريغين بالفعل، ولكنه كان مسرورا جدا لانه التقط صور الدبابات اليوم، فصار يتحدث عن كل شيء بنفس اللهجة الفرحة. وتحدث بهذه اللهجة ايضا عن جولاته في الجبهة.

قاطعه سينتسوف متسائلا عن رأيه في الوضع عموما بعد تلك الجولات. الا ان ميشكا لم يكن لديه اي رأي في الوضع العام اطلاقا. فقد رأى بأم العين كيف يضغط الالمان علينا بشدة، على حد تعبيره، ولكنه لم يكن يخامره اي شك في اننا سندحرهم مع ذلك.

لم يكن راغبا بالخوض في موضوعات جدية، ولذا فرح صراحة لعودة سيارته البيكاب بعد ان تزودت بالبنزين. وسأل من السائق:

— هل حصلت على ارزاق؟

احضر السائق من السيارة قطعة كبيرة من الخبز فاقتطع ميشكا لنفسه نصفها وراح يأكل من جديد. اما سينتسوف فذهب ليقدم نفسه الى نائب قائد الفرقة الذي عاد من الخط الامامي.

كان النائب اوكرانياً مكتنزا طويل الانف بشاربين كثيفين متهدلين جعلاه شبيها بقائد فرقة اكثر مما بمسؤول سياسي. استمع الى سينتسوف متجهما ولكن بصبر ثم قال بانه لا يدري بموقع الادارة السياسية للجبهة في الحال الحاضر: فالجبهة تزحزحت، ولكن اركان الجيش متواجدة في ضواحي تشاوسي، ولعلهم سيخبرون سينتسوف هناك بمكان الادارة السياسية.

واوضح له سينتسوف بانه يرغب غداً، قبل ان يرحل الى الجيش، في ان يزور مع المصور منطقة ما وراء الدنيبر، حيث يرابط الفوج الذي دمر هذا اليوم كثيرا من الدبابات الالمانية.

استمع النائب الى هذا الاقتراح بنفس ذلك الصبر المتجهم وقال بانه عاد لتوه من هناك، وان من الافضل الذهاب الى تلك المنطقة ليلا. اذ ربما لن يتمكنا من الوصول الى هناك في النهار. واذا عزما على الرحيل ليلا فمن الضروري ان يأخذا معهما بالسيارة دليلا.

— لا بأس، نحن من الجبهويين القدامى، سنصل لوحدنا ايها الرفيق النائب — قال ميشكا بلهجة غير متكلفة وهو يمضغ الخبز، واقترب من النائب مترنحا.

— لا ادري ما اذا كنتما من القدامى او الجدد، ولكنكما لن تذهبا بدون دليل! — قال النائب بلهجة قاطعة — سينتهي مرشد الشعبة السياسية من تناول الطعام الآن وسيذهب معكما. هل ستكتفيان بالتصوير فقط، ام ستكتبان شيئا؟

— سنفعل هذا وذاك — اجاب ميشكا.

— عندما ستكتب — خاطب النائب سينتسوف متجاهلا ميشكا بنفس اللهجة المتجهمة — لا تكشف عن مواقع مرابطة الوحدات. فالالمان اصلا يعرفون الكثير وكأنهم ينظرون في مرآة سحرية، ابناء الكلب! — اطلق النائب هذه الشتيمة على نحو غير متوقع رغم انه عاد من الفوج بعد معركة موفقة. ولعله كان مستاء لشيء لا يريد التحدث عنه.

واقترب من النائب مرشد سياسي شاب وافاد:

— ايها الرفيق النائب، وصل الينا قائد فصيلة الانصار.

— حسنا، تناول طعامك وعد معهما بالسيارة الى سربيلين — قال النائب واوماً الى سينتسوف وميشكا ثم استدار نحو شاب اشقر وسيم هبط من على ظهر حصان. كان في قمصلة جلدية مشدودة بنطاق يتدلى منه مسدس ماوزر وقنابل يدوية. واصطحبه النائب الى اعماق الغابة.

بعد ساعة عبرت البيكاب جسر الدنيبر مخلفة طقطقة خفيفة على اخشابه ودخلت موغيليف. مقابل المستشفى الذي غادره سينتسوف في الصباح وقفت عند الرصيف سيارات الشحن وجرى نحوها بهدوء صف طويل من نقالات الجرحى المحمولة على الايدي الواحدة تلو الاخرى. وفي المفترق التالي انتصبت المدافع المضادة للجو واخذ النعاس يراود القائمين على خدمتها حيث التحفوا المعاطف المشمعة.

كان كل شيء في المدينة يجري بهدوء بالغ. فتشوا الهويات بهدوء، واشاروا الى الطريق بهدوء. وكان النظام يسود كل شيء فبعث هذا النظام السرور في فؤاد سينتسوف. عندما عبرت السيارة الجسر وجابت المدينة اوقفها الخفر الليلي ثلاث مرات على التوالي.

واخيرا، عند اطراف موغيليف اوقف المرشد السياسي السيارة قرب منزل من طابق واحد وقال:

— سأذهب للاستفسار عما اذا كان سربيلين قد انتقل ام لا. — واختفى عبر بوابة المنزل بعد ان عرض هويته على الحارس.

تهادت اصوات من وراء النوافذ التي انزلت ستائرها باحكام. وبعد لحظة عاد المرشد السياسي وقال لسينتسوف بهدوء:

— هنا هيئة العمليات التابعة للفرقة، وقائد الفرقة موجود الآن هنا.

وتذكر سينتسوف العقيد الضخم الذي كان يصيح في سماعة التلفون «انا متوجه اليك يا سربيلين!»..

– اين سربيلين؟ – سأل سينتسوف الذى سمع بهذا الاسم مرارا اليوم فخيل اليه انه يعرف هذا الشخص تقريبا.

– فى مكانه السابق – اجاب المرشد السياسى.

تجاوزوا آخر دور الاطراف واستداروا نحو طريق معبد ومروا من تحت جسر السكة الحديدية، وصادفوا من جديد حراسا هرعوا اليهم من بين الشجيرات. وكان عددهم هذه المرة اربعة. فقال ميشكا:

– هذا هو النظام!

وعلق المرشد السياسى على قوله:

– عندما تتواجد القوات المسلحة يحل النظام.

تفحص الحراس الهويات وامروا باخفاء السيارة بين الشجيرات. ظل حارسان قرب السيارة وقاد الحارسان الآخران بانهما سيرافقان الرفاق القادة الى المكان المطلوب. سار احدهما فى الامام وسار الآخر فى الخلف وبندقيته معلقة على متنه. وادرك سينتسوف انهما لا يرافقانهم فقط، بل وضعاهم تحت الحراسة من دوافع الحذر. ساروا متعثرين فى الظلمة، ثم هبطوا الى ممشى التوصيل وساروا فيه طويلا حتى استداروا نحو خندق عميق واخيرا وصلوا الى باب المخبأ المعزز. دخل الحارس الامامى المخبأ ثم خرج ومعه رجل فارع القامة لدرجة ان صوته فى الظلمة بدا وكأنه هابط من عل. وسأل الرجل:

– من انتم؟

اجاب ميشكا بهمة بانهم مراسلون.

– اى مراسلين؟ – سأل الرجل الفارع القامة – ما الداعى لوجود مراسلين هنا فى منتصف الليل؟ اى عاقل يأتى الى فى منتصف الليل؟

ادرك سينتسوف من كلمتى «يأتى الى» ان هذا هو سربيلين بالذات.

– سأترككم ثلاثتكم منبطحين على الارض حتى الصباح الى ان تتأكد من هوياتكم. من ارسلكم الى هنا؟

قال سينتسوف ان قائد الفرقة ارسلهم.

– سأرغمكم على الانبطاح على الارض حتى الغد – كرر الرجل بعناد – وفى الصباح سأخبره بأنى ارجوه ان لا يرسل فى الليل الى موقع فوجى اناسا لا اعرفهم.

واخيرا تكلم المرشد السياسى الذى لم يتوقع مثل هذا التطور فى الاحداث وتحير فى بداية الامر:

– ايها الرفيق قائد اللواء انتى ميرونوف من الشعبة السياسية للفرقة. انت تعرفنى...

– اجل اعرفك. – قال قائد اللواء، – ولذا لا اجعلكم جميعا تنبطحون على الارض حتى الصباح! احكما بنفسيكما ايها الرفيقان المراسلان... – اضاف بصوت مغاير تماما، ولاحت من وراء هذا الصوت فى الظلمة ابتسامة غير منظورة – هل انتما على علم بالموقف؟ يجب على المرء ان يكون صارما. الجميع يكررون فى كل مكان: «المخربون، المخربون!» – اما انا فلا اريد ان اسمع فى موقع فوجى اية اشاعة عن المخربين. اننى لا اعترف بهم. فاذا كانت الحراسة منظمة بالشكل اللازم لا يمكن ان يوجد اى مخربين. ادخلا المخبأ وسوف يتأكد رجالنا هناك من وثائقكما، وعند ذلك ساكون فى خدمتكما. اما انت يا ميرونوف فابق هنا.

دخل سينتسوف وميشكا المخبأ وعادا بعد دقيقة. صافحهما قائد اللواء بعد ان حل اللين فى فؤاده محل الشدة وراح يتحدث، وهو يغطى سيجارته براحة يده، عن المعركة التى انتهت قبل ثلاث ساعات ودمر فوجه خلالها تسعا وثلاثين دبابة المانية. كانت انطباعاته عن المعركة مؤثرة جدا فراح يتحدث بحماس متزايد وبصوت رفيع مفعم بالفتوة حتى ان سينتسوف لم يعد يتصور ان عمر صاحب هذا الصوت يتجاوز الثلاثين. استمع اليه سينتسوف واستولت عليه الحيرة: لماذا لا يزال هذا الرجل الفارع القامة ذو الصوت الفتى يحمل رتبة ملغاة من زمان وهى رتبة قائد اللواء، ولماذا يقود فوجا لا اكثر رغم كونه يحمل هذه الرتبة؟ وقال سربيلين:

– يقولون: «دبابات، دبابات»، ولكننا دمرناها وسندمرها. لماذا؟ فى الصباح عندما يزول الظلام سترون لدى فى الفوج اننا حفرنا عشرين كيلومترا من الخنادق وممرات التوصيل. بالضبط، ودون اية مبالغة. سترون بانفسكم غدا: اذا كرروا سنكرر نحن ايضا. انظروا تلك احدى دباباتهم! – واشار الى كتلة سوداء لاحت على مسافة غير بعيدة – لم يبق بينها وبين قيادتى الا مائة متر. وها هى تقف راضية مرضية فى المكان اللازم. فلماذا؟ لان الجندى فى الخندق لا يشعر بالجبن ولا يضم اذنيه من الخوف كالارنب.

كان يدخن سجائر اللف بلا انقطاع. يشعل سيجارة من سيجارة. وظل طوال ساعة اخرى يحدث سينتسوف وميشكا عن صعوبة الحفاظ على المعنويات القتالية فى الفوج بينما كانت مئات وآلاف الناس طوال

عشرة ايام تسير على الطريق العام الذى يتمركز عليه الفوج متجهة من الغرب الى الشرق يوميا بعد ان تم فك حصارهم .

– بين هؤلاء المحاصرين كثير من المذعورين! – قال ميشكا بدون تحفظ .

فزعل قائد اللواء من نأمة التعالى التى لاحت فى كلمات ميشكا، نأمة التعالى لدى انسان لم يتعرض بنفسه للمصيبة . وقال موافقا :

– اجل، المذعورون كثيرون . ولكن ماذا تريد من الناس؟ خلال القتال يشعرون بالرعب، وبدون القتال يتضاعف الرعب! فمن اين يبدأ؟ يسير المرء على الطريق فى المؤخرة فتباغته دبابة، يهرب منها الى طريق آخر فتباغته دبابة اخرى! ينبطح على الارض فتنهال عليه النيران من الجو! ذلك هو مبعث الرعب! ولكن يجب النظر الى ذلك بعين واقعية . ان تسعة من عشرة مذعورين ليسوا مذعورين بلا رجعة . فاذا وفرت لهم فترة هدوء ورتبت امورهم وهيأت لهم فيما بعد ظروفا قتالية طبيعية فانهم سيؤدون الواجب . اما فى حالة العكس فمن البديهى ان تتسع الاعين وترتعش الشفاه . ذلك لا يبعث على السرور . ولا يبقى لك الا ان تتفرج وتفكر : حبذا لو اجتازت هذه الجموع مواقعك بسرعة . ولكنها تسير وتسير . ومن حسن الحظ طبعا انهم يسيرون، فسوف يقاتلون فيما بعد، ولكن وضعنا حرج! – وقال سربيلين فى الاخير : – لا بأس، لم نجعل امزجة مقاتلينا تتعكر مع ذلك . ومعركة اليوم دليل على ذلك . اننى راض ولا اخفى ذلك عليكما! فى الصباح كنت مرتبكا كعروس تنتظر الخطيب . فانا لم احارب منذ عشرين عاما . والمعركة الاولى ليست بسيطة! اما الآن فلا بأس، اننى واثق من فوجى وسعيد بذلك، سعيد جدا! – كرر سربيلين بلهجة تشبه التحدى . – ولكن كفانا ثرثرة . جو المخبأ خانق، والمكان ضيق . هل جلبتما معطفيكما معكما؟

– نعم .

– ناما هنا، فوق . واذا سمعتما الرشاشات لا تهتما بها : انها مجرد حرب اعصاب . ولكن اذا هدرت المدفعية فتفضلا الى الخندق . سأذهب لاتفقد المخافر، اعذرانى . – رفع يده بالتحية فى الظلمة وانصرف الى الخندق برفقة عدة اشخاص انضموا اليه صامتين .

– لن نأكل شيئا عند هذا – قال ميشكا بلهجة اختلط فيها الاستهجان والاستحسان عندما التف هو وسينتسوف بمعطفيهما واضطجعا على العشب .

ظل سينتسوف يتطلع طويلا بصمت الى السماء الملبدة بالغيوم والتى ليس فيها نجم واحد . غفا، وبعد لحظات، كما خيل اليه، سمع اصوات نيران

الرشاشات المكثفة . سمع عبر الكرى كيف تخفت تلك النيران ثم تستعر، تارة فى هذا المكان وتارة فى ذلك .

واستيقظ سينتسوف لتصوره بان اطلاق النار يأتى من جميع الجهات فهز ميشكا الغاط فى الشخير من جنبه :

– اسمع يا ميشكا ...

– ماذا؟ – قال ذاك بصوت ناعس .

– شىء غريب . اطلاق النار بدأ فى الامام، من القدمين، والآن يجرى فى الخلف، عند الرأس ...

– بدل وضعية نومك – قال ميشكا منكتا بصوته الناعس وغط فى الشخير من جديد .

الفصل الرابع

عندما استيقظ سينتسوف رأى السماء صافية تماما . وكانت الشمس مشمسة، ولا يشير الى الحرب الا هدير المدفعية البعيد جدا فلا يسمع الا بالكاد . ظل راقدا بضع دقائق يفتح عينيه تارة ويضيق ما بين جفونه تارة اخرى، ثم نهض . كان ميشكا جالسا على العشب جنبه وقد انهمك فى تعبئة آلة التصوير . فقال سينتسوف فرحا:

— ما اروع الطقس اليوم!

خرج قائد اللواء من المخبأ المطمور بعد ان انحنى بشدة عند الباب . وبدا فى ضوء النهار ليس بعمر الشباب الذى تصوره سينتسوف فى الليل . فمظهر سربيلين يدل على انه فى الخمسين ان لم نقل اكثر . خرج من المخبأ بدون طاقية . وكانت الشعيرات الشيباء الصفراء المصفوفة بتسريحة مائلة لا تكاد تغطى نصف صلعته العريضة . وجهه المكسو بغضون عميقة طويل وغير جميل كبوز حصان، وفى فمه صفان من الاسنان الفولاذية .

— كيف قضيتما ليلتكما؟ — سأل سربيلين وهو يمسد شعره الممسد اصلا . انفرج فمه الفولاذى عن ابتسامة عريضة، فطفت على وجهه غير المليح مسحة من الطيبة والفتوة.

— شكرا . لا بأس — اجاب سينتسوف .

— نريد ان نلتقط صورا للدبابات — قال ميشكا بلجاجة — هيئة التحرير بامس الحاجة الى صور الدبابات .

— سيتفرغ الآن قائد الكتيبة الكابتن بلوتنيكوف، وستذهبان معه الى كتيبته . فهو الذى دمر امس اكبر عدد من الدبابات . هل تريدان طرح اسئلة على؟ فسأكون مشغولا فيما بعد بامور الخدمة .

— خبرنا ايها الرفيق قائد اللواء — سأل ميشكا بحماس — لماذا لم نر ولا مدفعا واحدا مضادا للجو عندما عبرنا الجسر ليلة البارحة؟

— ما حاجتنا الى هذا الجسر؟ — سأل سربيلين بلهجة ظلت عالقة فى ذاكرة سينتسوف مدى الحياة .

— كيف ذلك؟ — هز ميشكا كتفيه — واذا دعت الضرورة الى العودة الى هناك؟ — واومأ باصبعه الى الدنيبر .

— لن تكون هناك ضرورة، — قال سربيلين — فالجندى لا يحفر الخندق من اجل ان يتركه نزولا عند اول طلب من العدو . تلك قصة قديمة ينساها البعض احيانا: يحفرون ويحفرون ثم ... — ولوح بيده — اما نحن فقد حفرنا ولن نترك ما حفرناه . ولا شأن لنا بالآخرين!

نطق عبارته الاخيرة بمسحة من المرارة . فهى ليست صحيحة، وهو نفسه لا يفكر على هذا النحو، ولكن تلك العبارة صادرة عن شعور ما كان سربيلين ليخجل منه . فهو يعرف ما لا يعرفه سينتسوف وميشكا، يعرف ان الالمان عبروا الدنيبر على يمين موغيليف وشمالها، واذا لم يصل فى الساعات القريبة القادمة امر بالانسحاب فان فوجه محكوم عليه بخوض المعركة فى حالة تطويق . وهو الآن لا ينتظر وصول الامر بالانسحاب بل ولا يريده . استولى عليه كبرياء الجندى الذى لا يريد التصديق بان احدا قربه يقاتل على نحو سيئ او ينسحب او يفر من المعركة . وهذا بالذات ما قصده الآن من عبارته: «لا شأن لنا بالآخرين!» . لقد عمل عشرة ايام بلياليها فى تعزيز مواقعه ليس رهبة بل رغبة . وقد ابدع فوجه فى القتال يوم امس وعليه ان يواصل القتال على هذه الشاكلة . انه واثق من ذلك ويرى ان الآخرين يجب ان يفعلوا الشيء ذاته، وعند ذلك يمكن كسب الحرب .

— ما الذى سيحدث اليوم فى رأيك ايها الرفيق القائد: هل ستنشب معركة ام لا؟ — سأله سينتسوف وقد اصيب بعدوى الانفعال المتحفظ الملازم لسربيلين وظل يعتمل فى نفسه حدس غامض .

— اخشى ان لا تنشب معركة — اجاب سربيلين بعد تفكير — اخشى ان يحاولوا اليوم فتح ثغرة فى مكان اضعف . فقد كنت ولا ازال اعتبر تكتيك الالمان على مستوى مرموق . فهم ليسوا تكتيكيين سيئين — اضاف بتحد لم يفهم سينتسوف مغزاه وابتسم بقساوة وتوتر لشيء خطر فى باله ولكنه لم يفصح عنه . ثم قال الكابتن بلوتنيكوف الذى اقترب منه وحياه مصافحا: لست حليقا هذه المرة ايضا ايها الرفيق الكابتن .

عينا الكابتن حمراوان متعبتان، وعلى وجهه تعبير عن الاستعداد المطلق القيام باى عمل يطلب منه والنوم فى الحال لو سمحوا له بالنوم .

– معذرة ايها الرفيق قائد اللواء . عشرة ايام بلياليها حفرت الارض ثم خضت المعركة، وفى الليل عملت فى ترميم الخنادق .

– اعرف كل شيء، ومع ذلك لا بد من حلاقة الذقن . واذا اراد المراسل ان يلتقط صورة لك باعتبارك افضل قائد كتيبة سيجدك غير حليق . خذ المراسلين معك ووفر لهما امكانية تصوير الدبابات، وفى المساء اعدهما الى هنا – اومأ سربيلين برأسه ايماءة توديع قصيرة وانصرف الى المخبأ فى الارض .

شيعه الكابتن بلوتنيكوف بنظرة ثم مسح ذقنه الكثيف بيده واطلق كلمة واحدة لا غير : – هيا! – سار فتبعه سينتسوف وميشكا .

بدا مظهر قائد الكتيبة وكأنه قضى بالفعل عشرة ايام بلياليها فى حفر الخنادق : طاقيته مدعوكة ولعله نام دون ان يخلعها، وجزمته متربة، وعلى بنطاله وقمصلته آثار طين مسح كيفما اتفق .

لم يبالغ سربيلين فى شيء عندما قال ان فوجه معزز المواقع . ففى الطريق الى الكتيبة لاحت فى كل مكان الخنادق العميقة التى يربط فيما بينها عدد كبير من ممرات التوصيل الرئيسية والثانوية بحيث يصعب حتى على نيران المدفعية الشديدة ان تحدث خللا فى ادارة الفوج . وقد حفرت لمراكز القيادة مخابيء معززة ذات تغطية من عدة طبقات من الجذوع . ونصبت الرشاشات على قواعد ترابية مستديرة . وقال ميشكا بلهجة استحسان :

– استحكامات كما عند اليابانيين .

– ماذا؟ – التفت اليه بلوتنيكوف مستفسرا .

– انها تشبه استحكامات اليابانيين فى معركة خالخين – غول . وما لم يتم اجتثاث كل واحد على حدة لا يمكن الاستيلاء على شيء .

– هل كنت فى خالخين – غول؟ – سأله بلوتنيكوف بغير اكتراث .

– اجل .

– اما نحن فقد قاتلنا لاول مرة يوم امس – قال بلوتنيكوف وواصل سيره .

الطرف الأمامى للكتيبة يلتف حول اجمة بلوط فتية، ووراءها انبسط حقل من الجودار، وخلفه غابة صنوبر كثيفة والألمان فى تلك الغابة . تخترق الغابة سكة حديد والى جانبها طريق السيارات . وقد قطعت مواقع الكتيبة سكة الحديد والطريق العام وامتدت الى مؤخرة الفوج . وامام الخنادق، فى حقل الجودار اخاديد الحماية القتالية، واليها تمتد ممرات التوصيل ووراء الاخاديد وسط الجودار انتصبت الدبابات الالمانية التى دمرت فى معركة امس .

– اين؟ اين الدبابات الاخرى؟ – سأل ميشكا من بلوتنيكوف بجشع – قيل لى ان اربع عشرة دبابة دمرت عندكم هنا . ارى تسعا، فاين الخمس الباقية؟

– الخمس الاخرى وراء نقاط الحماية القتالية، ولكنها فى منخفض ولا ترى من هنا

– حسنا، ساظهر هناك فيما بعد – قال ميشكا – اما الآن فلنقترب من هذه التى فى الجودار .

– الا تستطيع تصويرها من هنا؟ – سأله بلوتنيكوف .

– لماذا؟ الآن فترة هدوء .

– فترة هدوء؟ – سأل بلوتنيكوف مرتابا واستدعى قائد السرية، وهو ملازم اشقر فى حوالى العشرين من العمر – اذهب يا خوريشيف معه – واشار الى ميشكا – فهو يريد التقاط صور الدبابات . خذ من قوات الحماية خمسة اشخاص وليزحفوا الى الدبابات للتثبت من الوضع هناك احتياطا، ثم عد معه .

قال ذلك بصوت متكاسل متعب . وكان اشد ما يرغب فيه هو التخلص من هذا المراسل الصاخب والنوم قليلا .

– وانت؟ هل ستبقى عندى؟ – التفت الى سينتسوف .

– كلا، ساذهب معهما . – كان سينتسوف يريد ان يلمس باصبعه الدبابات الالمانية المدمرة .

– حسنا، افعل ما تشاء – وافق بلوتنيكوف بنفس الصوت المتكاسل – اما انا فسابقى هنا لانام قليلا – وابدى ازاء ما يمكن ان يفعله به الآخرون لاابالية مضاعفة، لاابالية انسان شجاع الغاية ومتعب الغاية .

اتضح ان الدبابات تقف على مسافة ابعد مما تصوروه . فقد زحفوا طويلا كى يصلوا اليها . ولم يكن هناك جنود المان فى حقل الجودار، ولم تطلق النار من الغابة ايضا .

صور ميشكا الدبابات فى البداية منبطحا وجالسا القرفصاء، ولكنه تجاسر بعد ذلك ووقف بقامة منتصبة . كان يريد التقاط صورة الدبابات التسع جميعا . ولكنها لم تقع جميعها فى مجال رؤية آلة التصوير، وقعت سبع، وظلت اثنتان خارج ذلك المجال . وانطبعت على وجه ميشكا رغبة مستحيلة ولكنها عارمة، فقد كان يريد سحب الدبابتين بشكل ما ليوصلهما بالاخريات .

بينما كان ميشكا منهمكا بالتصوير راح سينتسوف يحوم حول الدبابات . انتصبت بجمود الاموات فى حقل الجودار، فلم تبد كبيرة مرعبة كما كان

يتصورها في السابق . كانت دبابات قذرة بابراج مستديرة واطئة شبيهة باغطية زمزميات اسطورية . وعلى مقربة من الدبابات عدة جثث لالمان قتلى . وفاحت روائح كريهة من تلك الجثث .

فرغ ميشكا من التقاط الصور فاصطحب الدليل وتوجه الى السرية المجاورة ليصور باقي الدبابات . اما سينتسوف فقد عاد مع الملازم خوريشيف الى مركز المراقبة لدى السرية . يقع المخبأ المعزز الصغير تحت كثيب السكة الحديدية على مقربة من كوخ مفتش السكة . فقال خوريشيف لسينتسوف بلهجة ودية :

— فلنجلس قرب الكوخ ، لدي هناك ماء وقليل من الطعام . ولا يزال مفتش السكة العجوز يعيش هناك حتى الآن .

— لماذا؟

— الله يعلم . يعيش هناك ولا يخشى شيئا ! وقد عمل جنودي من اجله حيث حفروا له نفقا ، ولم تقع طوال المعركة لحسن الحظ ولا قذيفة واحدة على الكوخ .

عندما وصلا الى الكوخ وجدا المفتش العجوز جالسا على ارضية السكة قرب النفق وقد رفع بنطاله حتى ركبتيه وراح يدفئ في اشعة الشمس ساقيه النحيلتين الشائختين باوردتهما المنتفخة . والى جنبه جزمته وجواربه المنشورة لتجف في الشمس . جلس العجوز بعينين شبه مغمضتين وهو يحرك بهدوء اصابع رجليه الحافيتين . وقد ارتدى فوق قميصه القطني الاسود المائل الياقة بزة المانية خضراء قاتمة .

— اهديناه بالامس بزة ملازم الماني قتيل — قال خوريشيف باسما وقد جلس على الارض قرب العجوز — فارتداها رأسا بعد ان خلع الكتافيتين .

عندما سمع العجوز كلمات خوريشيف استدار نحوه نصف استدارة وفتح عينا واحدة ناعسة ولمس ردن البزة باصابعه وقال باستحسان :

— جوخ لا بأس به ، جوخ جيد .

— اليست حارة؟

— الحر لا يؤذي العظام .

— لماذا لم ترتحل الى موغيليف؟ — سأله سينتسوف .

— ما حاجتي الى موغيليف ؟ — اجابه العجوز بكسل — تقولون بانكم لن ترحلوا من هنا . اليس كذلك؟ — التفت الى خوريشيف .

— لن نرحل .

— وانا ايضا باق معكم . اؤدي واجبي .

— اننا نطعم هذا الجد — قال خوريشيف .

— عمل المعروف شيء جيد — فتح العجوز بكسل من جديد احدى عينيه — شبان طيبون ، ولكن الالمان قتلوا كثيرين منكم بالامس ... كثيرين جدا !

— هل كانت الخسائر كبيرة امس؟ — سأل سينتسوف .

كاد خوريشيف يغمض عينيه من الشمس فاسدل سدارته على عينيه وقال ان خسائر السرية جسيمة : حوالي ثلاثين شخصا بين قتيل وجريح .

— فلنخلع جزمتينا نحن ايضا — اقترح خوريشيف — اننا نسير طوال الوقت وارجلنا ملتهبة .

خلع جزمته ووضع جواربه على عارضة السكة الحديدية واخذ يتمتع بتحريك اصابعه المتخدرة كما فعل العجوز .

— جزمة مشمعة من زمن الدراسة ، وليس عندي غيرها . اصحابي الجنود خلعوا لي جزمة من ضابط الماني قتيل ولكنها غير مناسبة ، ضيقة عند المشط ومتصلبة في راحة الرجل . ربما يضعون عليها قطعة من قماش سميك .

— كما في عهد النظام القيصري — قال العجوز — جزمة ضباط عادية مع قماش ملصوق .

خلع سينتسوف ايضا جزمته . وذهب خوريشيف حافيا الى كوخ العجوز وعاد يحمل ابريق ماء وخبزا وثلاث سميكات مملحة .

— لا تمش على قضبان السكة فهي ساخنة — قال العجوز وسلط نظرة على السميكات واضاف : — ستعطش كثيرا .

ولكنه عندما مد له خوريشيف يده باحدى السميكات بدلا من الجواب اخذها العجوز دون اعتراض وراح ينزع جلدها .

كان سينتسوف يتطلع الى خوريشيف بين الحين والآخر وهم يأكلون . لقد ادهشه ان هذا الشاب اليافع النشيط الذي يجيد تدبير الأمور الأقتصادية شارك في القتال ضد الالمان لاول مرة يوم امس وها هو اليوم يتحدث عن ذلك وكأنه شيء معتاد لا يخشاه في المستقبل ايضا .

ظلا جالسين ثلاثين دقيقة ثم جاءهما ثلاثة من الاستطلاعيين وكل منهم يقود دراجتين هوائيتين المانيتين . كانت الاستطلاعات الالمانية قد ظهرت من الغابة في الصباح الباكر وتركت هذه الدراجات على الطريق العام بعد ان تعرضت للنيران وقتل اثنان من الأستطلاعيين الألمان وفر الباقون الى الغابة . وامر خوريشيف بالاستيلاء على الدراجات وقد احضرها الاستطلاعيون . فقال :

– اتركوا لنا ثلاثا فى السرية، وسلموا ثلاثا الى الكتيبة .

انكمش وجه احد الاستطلاعيين امتعاضا . فكرر خوريشيف امره :

– قلت سلموا ثلاثا فسلموها . والا فسوف يأخذ بلوتنيكوف الدراجات الست كلها .

انصرف الاستطلاعيون، فى حين اخذت طائرة المانية من طراز «مسرشميت» تحوم فوق حقل الجودار فترتفع فى السماء تارة وتنخفض تارة اخرى حول مكان بعينه.

فقال خوريشيف بلا مبالاة :

– انهم يقصفون صاحبك . فهناك الدبابات المدمرة.

حومت الطائرة حول الحقل ثم انصرفت وشعر سينتسوف بالقلق، ولكن شبح ميشكا الضخم لاح فى الافق . وصل وهوى على كثيب السكة، وعندما رأى السميكة فى يد سينتسوف الذى لم يقضمها كلها بعد قال له: «اعطنيها» . وغرز فيها انيابه بنهم . ودخل خوريشيف الكوخ واحضر عدة سميكات اخرى .

وسأل سينتسوف ميشكا:

– اطلقوا النار عليك انت؟

– على – اجاب ميشكا مقهقها – ولكننى انبطحت فى الحال على بطنى وزحفت الى تحت الدبابة . فظلت الطائرة تحوم كالبعوضة ولكنها لا تستطيع ان تفعل شيئا .

– هل صورت كل شىء؟ – سأله سينتسوف .

– اجل ، يمكننا ان نذهب .

اجهز ميشكا على سميكة سينتسوف ثم التهم بنفس السرعة سميكتين اخريين وشرب ابريقا من الماء . ارتدى سينتسوف جزمته وودع العجوز وعادوا ثلاثتهم الى كتيبة بلوتنيكوف .

وجدوا بلوتنيكوف جالسا قرب التلفون فى المخبأ يجيب على نسق واحد :

– نعم، مفهوم ... نعم، مفهوم . سنفعل حسب امرك . – وضع بلوتنيكوف السماعة ونهض . فسأله سينتسوف:

– هل غفوت قليلا؟

– نعم . ولكن هل يمكن النوم بقدر يعوض عما فات؟

– سالتقط لك صورة الآن – قال له ميشكا .

خرجوا الى العراء فسلط ميشكا نظرة انتقادية على بلوتنيكوف، على ذقنه غير الحليق وطاقيته المدعوكة وبزته الوسخة والمسدس الالمانى الذى انزلق من الحزام على بطنه . ثم قال متأففا :

– كلا، لا تصلح للتصوير بهذه الهيئة .

ميشكا يحب الفخفخة فى التصوير، وبلوتنيكوف لا يصلح تماما لذلك . فاخذ ميشكا يصدر اوامره :

– شد حزامك بشكل افضل . اين نطاقك؟ هل لديك نطاق؟

– نعم، فى المخبأ .

– خذ نطاقك لتكون هيئتك حسب المطلوب .

عاد بلوتنيكوف الى المخبأ مكرها واحضر نطاقه والقى به على كتفه وثبته الى الحزام .

– شد ابزيم الياقة! – طالبه ميشكا دون رحمة .

تلمس بلوتنيكوف موقع الابزيم وقال بأسى :

– ضاع .

فتنهد ميشكا قائلا :

– هل لديك خوذة؟

– كلا .

– كيف لا توجد عندك خوذة؟

– يا خوريشيف احضر لى خوذة من احد الجنود – قال بلوتنيكوف وقد شعر بالملل ولم يخف شعوره هذا . احضر له خوريشيف خوذة فخلع بلوتنيكوف طاقيته وارتدى الخوذة .

– هل لديك بندقية رشاشة؟

– نعم . احضر، يا خوريشيف، رشاشتى من المخبأ .

احضر خوريشيف الرشاشة . فعلقها بلوتنيكوف على عنقه، وعدل ميشكا من وضعيتها وقام بالتنشين للمرة الاخيرة والتقط صورة لبلوتنيكوف الذى لم تناسبه اطلاقا لا الخوذة ولا الرشاشة، ولا كل التعديلات التى اجراها ميشكا على مظهره .

ثم التقط ميشكا فى الحال صورة لخوريشيف الذى لم ينتظر حتى يدعوه للتصوير بل اسرع واخذ من الكابتن البندقية والخوذة وارتداهما وعدل قامته امام آلة التصوير ووقف متوترا دون ان يرمش له جفن .

وقال بلوتنيكوف :

– سابعث اليكما عريفا يوصلكما الى الفوج . وقد تلفن قائد اللواء وامر بان نحفر خلال الليل اخاديد تحت الدبابات الالمانية وننصب كمينا هناك . انا ذاهب لتنفيذ الامر، فالمساء يقترب . – هز كتفيه متعبا واستدار وانصرف .

عندما مثل سينتسوف وميشكا امام سريبلين من جديد سألهما :

– ماذا؟ هل اطعمكما بلوتنيكوف ام انه لم يفكر بذلك؟

– اطعمنا على العموم ... – قال ميشكا لا على التحديد، بيد ان سربيلين اعتبر جوابه شافيا فسأل دون ان يمكنه من اضافة شيء:

– يعنى انكما انجزتما ما اردتما وبوسعكما ان ترحلا، اليس كذلك؟

– نعم. ينبغى ان نصل الى موسكو غدا لتسليم المادة من اجل نشرها فى العدد القادم. ولكن بودى ان اصورك انت ايضا.

– ما الداعى لتصويرى. ارحلا فالوقت ثمين.

اثار شيء ما فى لهجته انتباه سينتسوف، فقد خيل اليه ان سربيلين يريد لهما ان يخليا المكان باسرع ما يمكن. وكان هدير المدفعية الذى تهادى طوال النهار من الشمال والجنوب قد ابتعد الآن، فى المساء، نحو الاعماق، الى الشرق، وراء ظهورهم.

– مع ذلك اسمح لى ايها الرفيق قائد اللواء ان اصورك – اصر ميشكا.

فقال سربيلين:

– اذن صورنى مع نائبى للشؤون السياسية ورئيس الاركان. صورنا ثلاثتنا لتبقى ذكرى رفاقية الخدمة فى الفوج. هل تطبع صورا فوتوغرافية منفصلة؟

– نعم – اجاب ميشكا كاذبا، فهو لا يطبع مثل هذه الصور ابدا. – نعم سأطبع صورا وسابعثها لكم.

– لا داعى لارسالها الى هنا – قال سربيلين، ولاحت فى صوته من جديد نفس اللهجة التى اثارت انتباه سينتسوف – ابعثها الى زوجاتنا وسنعطيك العناوين.

استدعى جندى المراسلة وطلب منه ان يدعو نائبه للشؤون السياسية ورئيس الاركان. فسأل ميشكا:

اين زوجاتكم؟

– زوجاهما فى ريازان وزوجتى فى موسكو. هل المفكرة معك؟

اخرج ميشكا من محفظته الميدانية مفكرة عتيقة فقلب سربيلين عدة صفحات فيها وكتب على صفحة فارغة بخط متين واحرف كبيرة: فالنتينا سربيلينا، شارع بيروغوفسكايا ١٦، شقة ٤.

بيروغوفسكايا ... انه شارع قريب جدا من شقة ارتيمييف على شارع اوساتشوفكا الذى ودعت ماشا منه زوجها سينتسوف الى غرودنو.

«غرودنو، غرودنو...» – فكر سينتسوف مئات المرات خلال هذه الايام وهو يتساءل من جديد ويكرر عبثا نفس السؤال: «ماذا حدث لبنتى؟».

بعد لحظة جاء نائب الشؤون السياسية ورئيس اركان الفوج. فقال سربيلين وهو يومىء الى ميشكا:

– يقترح تصويرنا. وعد بارسال الصور الى زوجاتنا.

وتحسس سينتسوف فى لهجته للمرة الثالثة تصميما كئيبا مهيبا لم يفصح عنه بالكامل.

وقف سربيلين فى الوسط ووقف النائب الى شماله ورئيس الاركان الشاب الوسيم الداكن الشعر بعينين سوداوين حزينتين الى يمينه.

– قف انت ايضا معهم – خاطب ميشكا سينتسوف – ولكن لا تلتصق بهم، فقيما بعد اقص صورتك واطبعها لوحدها من اجل زوجتك – لم يكن ميشكا راغبا فى اعادة تعبئة آلة التصوير، فى حين كان الشريط ينفد.

وقف سينتسوف الى جانبهم. فالتقط ميشكا الصورة، واخرج مفكرته وهم بتسجيل باقى العناوين، الا ان سينتسوف الذى اراد ان تصل الصور بالفعل الى زوجات هؤلاء الرجال نصحهم بان يكتبوا ثلاثتهم رسائل مقتضبة وسوف يوصلها الرفيق ميشكا فاينشتين الى بيوتهم مع الصور.

كان سينتسوف يأمل بان ميشكا لن يتلف الرسائل المرسلة معه من الجبهة رغم كرهه لطبع الصور الفوتوغرافية.

– ما الداعى للرسائل! – هم سربيلين بالاعتراض ولكنه لمح عينى رئيس اركانه الفتيتين الكئيبتين فوافق قائلا: – حسنا، سنكتب بسرعة. ولن نجعلكما تتأخران، فقد حان وقت السفر.

عندما انصرف الرجال لكتابة الرسائل قال ميشكا:

– خبيث! حان وقت السفر، حان وقت السفر! انه لا يريد ان يقدم لنا طعام العشاء. اعرف بنفسى: على ان اسافر، ولكننى استطيع العثور على ساعة لتناول العشاء. اما هو، البخيل فيطردنى.

– انت لا تفهم شيئا يا ميشكا! – قال سينتسوف وقد ادرك بمنتهى الوضوح فجأة معنى هذه الصور وهذه الرسائل. وظهر لديه، فى دخيلته، تصميم مفاجئ، ولكنه تصميم ثابت ولده كل ما عاناه وشاهده خلال الاسابيع الثلاثة الاخيرة. فقال لميشكا:

– انتظرنى هنا، ساعود فى الحال.

وفتح باب مخبأ سربيلين:

– هل يمكننى الدخول ايها الرفيق قائد اللواء؟

– ادخل.

كان سربيلين جالسا عند الطاولة يكتب بحروف كبيرة على وريقة استلها من المفكرة الميدانية . توقف عن الكتابة واشار على سينتسوف بالجلوس على مصطبة عند الطاولة :

— اجلس . ماذا حدث؟

جلس سينتسوف . لعل تعابير وجهه تنطوي على شيء متميز لفت انتباه سربيلين فسأله من جديد :

— ماذا بك؟

— لن اذهب مع رفيقي . اريد ان ابقى بعض الوقت في فوجكم اذا سمحت .

— لبعض الوقت؟ — سأله سربيلين .

— لست راغبا في مغادرة فوجكم — كرر سينتسوف دون ان يجيب على سؤال سربيلين .

— لماذا؟

— يخيل الي انك لا تفكر بالانسحاب . اريد ان ابقى معكم . — قال سينتسوف وتطلع في عيني سربيلين مباشرة .

— حقا ، لا نفكر بالانسحاب — قال سربيلين — ولكن لسنا نحن الوحيدين في هذا العالم . رأيت الاوضاع عندنا فاذهب لترى ما عند اخرين . المراسلون الصحفيون قليلون ، والوحدات العسكرية كثيرة . اذهب ، اذهب ! — قال بلهجة اخفق في اضفاء طابع نشيط عليها — لن اسمح لك بالبقاء ، فليس لديك ما تفعله هنا — وهم بالكتابة من جديد . فقال سينتسوف بصوت جعل سربيلين يتطلع الى عينيه مباشرة :

— ايها الرفيق قائد اللواء ! ملت من الركض كالارنب ولا اعرف عم يجب ان اكتب . هذا هو الاسبوع الرابع للحرب ، ولكنني لم اكتب شيئا حتى الآن . لا ادري ، ربما لم يحالفني الحظ كثيرا ، ولكنني وصلت اليوم لاول مرة الى فوج دمر بالفعل تسعا وثلاثين دبابة المانية ، فرأيتها اخيرا بام العين . واذا بدأت المعركة عندكم غدا فسوف اراها بام العين ايضا وساكتب عنها . انني اعمل في جريدة جبهوية ، والجبهة هنا عندكم . فاين يجب على ان اتواجد اذا لم ابق عندكم؟

— اسمع يا رفيق ... نسيت اسمك ، ذكرته لي امس ولكني نسيته ...

— سينتسوف .

— اسمع يا رفيق سينتسوف — اكتسى وجه سربيلين بمسحة جادة — انني افهم رغبتك في التواجد في المعركة ، ولكن تصادف حالات يجب ان

يبقى فيها في الوحدات افرادها فقط ، وليست هناك حاجة الى ان يقاتل فيها آخرون ويموتون . ولو كنا ننتظر مجرد معركة عادية لسمحت لك بالبقاء ، ولكننا ، على ما يبدو ، سنواجه معركة غير عادية ، معركة ضمن التطويق . في الصباح كنت افترض ذلك افتراضا ، اما الآن فانا واثق منه . الم تسمع المدفعية؟

— بلى .

— سمعتها بشكل سيء ولا بد . الألمان الآن على كلا جانبينا ، وقد توغلوا وراء الدنيبر بعيدا . وقد تواجهان صعوبات في الطريق حتى لو ارتحلتما في الحال . اذهب ، فانا اريد اكمال الرسالة ، الوقت ضيق بالنسبة لي وبالنسبة لك على حد سواء .

— ايها الرفيق قائد اللواء ! — قال سينتسوف — ايها الرفيق قائد اللواء ! — كرر بعناد وبصوت اعلى لكي يجلب انتباه سربيلين الذي امسك بالقلم من جديد .

— ماذا؟ — كف سربيلين عن الكتابة ممتعضا .

— انني شيوعي ، وانا برتبة مرشد سياسي ، وارجوك ان تسمح لي بالبقاء هنا . فالذي سيحدث لكم سيحدث لي ايضا . اذا بقينا على قيد الحياة سأكتب عن كل شيء كما كان ، ولن اثقل عليكم ، فاذا دعت الحاجة الى الموت سأموت لا اسوأ من الآخرين .

— ربما تأسف على ذلك فيما بعد يا رفيق سينتسوف ! — قال له سربيلين بلهجة ملاطفة بعد ان سلط عليه نظرة طويلة .

— لن اشعر بالاسف — قال سينتسوف واثقا في تلك اللحظة من انه لن يأسف على شيء بالفعل ، وقد ادرك بان المسألة غدت محلولة ولا داعي للاطالة في الكلام .

انصرف سينتسوف فشيعه سربيلين قائلا :

— اخبر رفيقك باني سانتهي من كتابة الرسالة بعد لحظات فليستعد للرحيل .

— اعطونا ارزاقا السفر — قال ميشكا فرحا وهو يطبطب على محفظته الميدانية المليئة من آخرها — أمر قائد اللواء بتزويدنا بالطعام دون ان يخبرنا بشيء .

— لن اذهب معك . سابقى هنا لبضعة ايام — لم يكن سينتسوف راغبا في الخوض في التفاصيل

— ماذا تقصد بالبقاء هنا؟ الى متى؟ هل المادة الصحفية عندك قليلة؟

— قليلة .

— مهما كانت قليلة فهي كافية ، وفي المرة الثانية ستجمع كمية اكبر .

— كلا يا ميشكا ، سابقى — كرر سينتسوف باصرار .

– هذه نذالة! – صاح ميشكا محتقن الوجه وقد بدأ الغيظ يستولي عليه. – انت تعلم باني لا استطيع البقاء معك، فلن يوصل احد غيرى الصور الى هيئة التحرير.

– صحيح. سافر انت.

– ذلك يعني انني اتركك هنا وحدك!

– كفاك هذرا! سافر، وهذا كل ما في الامر.

– حسنا – قال ميشكا وقد خطرت في باله فكرة اخرجته في الحال من الموقف الحرج – ساذهب بسرعة الى موسكو واسلم الصور واعود اليك، الى هنا. بعد ثلاثة ايام في ابعد تقدير. ولكن لا تترك هذا المكان. انتظرني هنا، اتفقنا؟

– اتفقنا! – قال سينتسوف وهو يشد على يد ميشكا الثقيلة مودعا.

واجتاح السرور ميشكا فورا بسبب فكرة الانقاذ التي خطرت في باله. وتذكر فقال فجأة:

– اسمع، اكتب لي الآن ولو مائة سطر، لكي يكون هناك نص يوضح كيف دمرت قواتنا هذه الدبابات. وانا اتعهد لك بان المقالة ستنشر في البانوراما المصورة. ستنشر في «الازفستيا»، فهل ذلك بالشيء القليل؟

تذكر سينتسوف بقلق كلمات سربيلين من ان الوقت ثمين وتردد فيما اذا كان من المناسب تعطيل سفر ميشكا.

في تلك اللحظة خرج سربيلين من المخبأ يحمل ظرفا مفتوحا. وقال لميشكا:

– خذ، كتبت الرسالة، فيما بعد ضع الصورة في الظرف واغلقه. هل انت مستعد للسفر؟

– في الحال. غير انه – واومأ ميشكا الى سينتسوف – سيكتب مقالة قصيرة وسأسافر.

طلب سينتسوف من سربيلين السماح له بدخول المخبأ وكتابة بضعة سطور هناك على ضوء الشمعة.

فقال سربيلين:

– ادخل، فانا ذاهب على اية حال. الرفيقان الآخران سلماك الرسالتين؟

– نعم.

– رافقتك السلامة – شد سربيلين على يد ميشكا وانصرف دون ان يودع سينتسوف على اعتباره غدا من افراده.

دخل سينتسوف المخبأ ودخل معه ميشكا. فهو يخشى الضجر لو بقي ينتظره وحيدا. جلس سينتسوف ليكتب المقالة، بينما فتح ميشكا المحفظة واخرج منها قطعة من السجق الجاف وراح يمضغه بتلذذ.

كتب سينتسوف بسرعة بل وبقسوة لاحساسه بضرورة الاستعجال. كتب عن الدبابات الالمانية المدمرة وعن جثث الالمان المسجاة بين الجودار وعن سربيلين وباوتينكوف وخوريشيف، وكتب اكثر من مرة عن الشيء الرئيسي، عن امكانية حرق الدبابات الالمانية وعدم الانسحاب امامها عندما تهاجم.

كتب على عجل، وكانت تدور في ذهنه عواقب القرار الذي اتخذه. خيل اليه انه لو لم يصمم على ذلك من قبل ولم يخبر سربيلين به لشعر الآن بالجبن وارتحل. وراح يفكر بضعفه خجلا دون ان يدرك ان الناس المختلفي الطباع يمكن ان يكونوا اقوياء باشكال مختلفة، وان قوتهم تتلخص احيانا في انهم يخشون عواقب تصميمهم ولكنهم لا يغيرون رأيهم في ذلك التصميم.

كتب المقالة في غضون خمس وعشرين دقيقة، وفي ذيل الصفحة الأخيرة كتب بضعة سطور لزوجته ماشا. ثم طوى الأوراق وسلمها لميشكا وقال:

– خذها. وبعد ان يطبعوها على الآلة الكاتبة سلم المسودة الى زوجتي. ربما لا تزال موجودة في موسكو، هذا هو رقم تيلفونها. كتبت لها مرتين من المستشفى، ولكن املي فيك اكثر من املي في البريد.

– طبعا. – تنهد ميشكا ودس قطعة السجق التي لم يجهز عليها في المحفظة الميدانية واخذ اوراق سينتسوف.

خرجا من المخبأ معا. ميشكا لا يحب التفكير طويلا لا بما يعزم عليه هو ولا بما يعزم عليه الآخرون، ومع ذلك ارتعش آنذاك في فؤاده الطيب رغم خشونته قلق غير مفهوم حتى النهاية بالنسبة له. فهو لم يكن راضيا عن سفره وبقاء سينتسوف، لم يكن راضيا عن ذلك اطلاقا!

– مع السلامة – شد على يد سينتسوف – مع السلامة. ساعود اليك. اعاهدك! – وامتزج شبحه المربع بالظلمة.

جلس سينتسوف على طرف الخندق وراح يتطلع في السماء المرصعة بالنجوم ويفكر بان ميشكا سيصل مساء الغد بسيارته البيكاب الى موسكو وسيحمض الصور ويطبعها بنفسه وسيضعها وهي لا تزال مبللة على طاولة رئيس التحرير. وبعد ذلك فقط – سينتسوف يعرف هذا – سيتلفن ميشكا الى ماشا. سيكون ذلك في الليل، وسترفع ماشا السماعة، اذا كانت موجودة في موسكو، وسيقول لها ميشكا انه رأى زوجها قبل يوم واحد حيا يرزق وسليما معافى...

اما هو، فى تلك اللحظة من اليوم التالى ... ما كان يعرف ما الذى سيحدث له فى اليوم التالى، ولم يكن راغبا فى التفكير بذلك الآن. فهو يعرف شيئا واحدا: ان هدوء اليوم ليس بلا نهاية. وان تلك النهاية ستحل فى الليل او فى الصباح، وعند ذاك تبدأ المعركة. ولكنه لم يكن يعرف ما الذى سيحدث له فى هذه المعركة، ولم يكن يعرف ذلك جميع الذين يتكون منهم فوج سربيلين، اولئك الذين يجلسون هنا، على مقربة منه، فى الخنادق، واولئك الذين يتواجدون على بعد كيلومتر او كيلومترين فى المخابئ المطمورة وفى ممرات التوصيل، وعلى مسافات ابعد، فى تلك الاخاديد التى ربما انجز حفرها بلوتنيكوف المثابر تحت الدبابات الالمانية المدمرة فى حقل الجودار.

لا سينتسوف ولا ميشكا الذى تمكن الآن من اجتياز الجسر على الدنيبر وراح بدوره يفكر بسينتسوف بعد ان تركه هنا ما كان بوسعهما ان يتصورا ما سيحدث لهما غدا.

ميشكا المتألم لتركه رفيقه فى خط الجبهة وعودته هو الى موسكو لم يكن يعرف ان سينتسوف سيظل غدا سليما معافى دون ان يقتل او يصاب بجرح او حتى بخدش، ولكنه سيكون متعبا الى اقصى حد وسيغط فى النوم فى قعر هذا الخندق.

اما سينتسوف الذى يحسد ميشكا لانه سيتحدث غدا مع ماشا فى موسكو فلم يكن يعرف ان ميشكا لن يصل غدا الى موسكو ولن يتحدث مع ماشا، لانه سيصاب بجرح مميت فى الصباح قرب تشاوسى حيث تطلق عليه صلية رشاش من دراجة نارية المانية. وستخترق هذه الصلية بدنه القوى الضخم فى عدة مواضع فيستجمع كل قواه ويزحف الى ما وراء الشجيرات على الطريق العام فينزف دما ويجهد فى اتلاف الشريط الذى صور عليه الدبابات الالمانية وكذلك بلوتنيكوف المتعب الذى ارغمه على ارتداء الخوذة وحمل البندقية وخوروشيف الشجاع حسب الظاهر وسربيلين وسينتسوف ورئيس الاركان الحزين. وبعد ذلك ينصاع لآخر رغبة لاارادية لديه فيمزق باصابعه السميكة الخائرة الرسائل التى بعثها معه هؤلاء الاشخاص الى زوجاتهم. وتستقر فى اوصال هذه الرسائل فتغطى الارض قرب جسد ميشكا المحتضر النازف بالدم ثم تنطلق من مكانها مندفعة بالريح ومتقلبة فى تحليقها فوق الطريق العام المغبر الى تحت عجلات الشاحنات الالمانية وتحت جنازير الدبابات الالمانية الزاحفة نحو الشرق.

الفصل الخامس

فيودور سربيلين الذى ظل سينتسوف فى فوجه كان من الناس الذين يتحطمون دون ان يلين لهم عود. وقد شهد سجل خدمته تغيرات كثيرة، ولكنه فى الواقع مارس عملا واحدا طوال حياته، حيث خدم الثورة على قدر المستطاع كجندى من جنودها. خدم ابان الحرب الاولى ضد الالمان، وخدم ابان الحرب الاهلية، قاد الافواج والفرق، ودرس فى الاكاديميات ثم القى المحاضرات فيها، وخدم فى الجيش حتى عندما قاده القدر رغما عنه الى كوليما.

انه يتحدر من عائلة مضمد ريفى، ابوه روسى وامه تترية هربت من منزلها واعتنقت المسيحية لتتزوج من والده. ولا يزال والد سربيلين مضمدا فى تومبا الواقعة على سكة الحديد التى تجتاز غابات ميشيرا الكثيفة. قضى سربيلين طفولته هناك ومن هناك سافر فى الثامنة عشرة من العمر مقتفيا اثر والده الدراسة فى مدرسة الطب فى ريازان. وفى هذه المدرسة انضم الى حلقة ثورية وتعرض لمراقبة البوليس، وربما كان مصيره النفى لولا الحرب العالمية الاولى التى جند فيها.

وفى شتاء عام ١٩١٧ شارك المضمد سربيلين فى اولى عمليات التآخى بين الجنود، وفى خريف العام المذكور عندما غدا قائدا منتخبا لاحدى الكتائب الثورية حارب ضد الالمان الذين هجموا على بتروغراد الثائرة. وعندما تأسس الجيش الاحمر ظل فى المراتب العسكرية التى اعجبته، وعندما وضعت الحرب الاهلية اوزارها كان هو قائدا لفوج فى منطقة بيريكوب.

كان العاملون معه والذين يعرفون بداية سيرة حياته يمزحون فيسمونه، فى حالة غيابه، بالمضمد. كان ذلك من زمان بعيد ينبغى نسيانه، ولكنه هو نفسه يستشهد بمهنته هذه مازحا فى بعض الاحيان. وبعد الحرب الاهلية كان سربيلين يدرس طوال الوقت تقريبا. فقد تخرج من دورة تغيير الاختصاص وقاد

فوجا من جديد ثم استعد للانتساب الى الاكاديمية وتخرج منها ثم غير اختصاصه فصار من ضباط الدبابات وخدم فى اولى الوحدات الآلية، ثم عاد الى المشاة من جديد وقاد فرقة طوال عامين وبعد ذلك شغل كرسى التكتيك فى نفس اكاديمية فرونزه التى تخرج منها قبل خمس سنوات من ذلك الحين. ولكنه هنا ايضا واصل الدراسة حيث خصص كل اوقات فراغه لتعلم الالمانية لغة العدو الاكثر احتمالا.

وعندما اعتقل فجأة فى عام ١٩٣٧ استخدمت ضده اللغة الالمانية والمواثيق العسكرية الالمانية التى عثر عليها فى شقته اثناء التحرى.

كانت الحجة الاولى لاعتقاله هى التحذيرات التى وردت فى محاضراته وغير المقبولة آنذاك حول الجوانب القوية فى الآراء التكتيكية للفيرماخت الذى بعثه هتلر.

وقد فكر فى ذلك بالذات يوم امس حيث قدر بمرارة والم تكتيك الالمان حق قدره وابتسم بقساوة لذكرياته التى لا يفهمها سينتسوف.

بعد الاعتقال الذى ادهشه وحيره انهالوا عليه عموما بتهم ما انزل الله بها من سلطان، بالأضافة الى التهمة السخيفة الاولى فى الدعاية لتفوق الجيش الفاشى. وقد طلب يجوف نفسه مرتين احضار افادته للاطلاع عليها، وظل المحققون الثلاثة الذين حل الواحد منهم محل الثانى على التوالى طوال ستة اشهر ينتظرون ان يوقع على ما نسب اليه.

وفى آخر المطاف حكموا عليه، دون محاكمة فى الواقع، بالسجن عشر سنوات. وبعد ستة اشهر اخرى انهال بالضرب المبرح، وهو فى السجن، ودون اية توضيحات مطولة على احد الذين خدموا معه ابان الحرب الاهلية، وهو من انصار تروتسكى وقد اولا سربيلين خطأ ثقته وحدثه عن فكرته من ان الحزب تشوه والثورة هلكت.

كانت فترة السجن فى ادراك سربيلين وقتا مضيعا هباءا قبل كل شيء. وهو عندما يتذكر الآن، فى الحرب، هذه السنوات الاربع المضيعة يعض على شفتيه اسفا والما. ولكنه طوال هذه السنوات الأربع لم يلق على السلطة السوفييتية مرة جريرة ما حدث له. فقد اعتبر ذلك سوء فهم فظيعا وخطأ وحماقة ما بعدها حماقة. اما الشيوعية فقد كانت وستظل بالنسبة له قضية نظيفة مقدسة.

عندما اطلق سراحه على نحو مفاجيء كما زج به فى السجن خرج وقد شاخ وارهق بدنه، ولكن روحه لم تتغضن بتجاعيد الشيخوخة والريبة.

عاد الى موسكو فى اول يوم من الحرب، وكان يريد شيئا واحدا لا غير، وهو ان يصل الى الجبهة باسرع ما يمكن.

وكان رفاقه القدامى الذين بذلوا قصارى جهدهم لاطلاق سراحه قد ساعدوه هنا ايضا. فقد توجه الى الجبهة دون ان ينتظر وثائق الحصول على الرتبة الجديدة بل ولا حتى اعادة العضوية فى الحزب. سلم الوثائق الى اللجنة الحزبية وسافر لكى يتسلم قيادة الفوج. كان مستعدا حتى لقيادة فصيلة بشرط ان يعود بلا تسويف الى ممارسة عمله الذى تحول مرة اخرى من خدمة عسكرية الى حرب. كان يريد ان يثبت مقدرته باسرع ما يمكن. كان يريد ان يثبت مقدرته ليس من اجله وحده: فقد اعادوا له سلاحه ورتبته ووعدوه باستعادة العضوية فى الحزب وبعثوه الى الحرب ضد الفاشيين، فما الذى يريده اكثر من ذلك؟ ولكنه كان يريد ان يثبت بقدوته الشخصية ان الحماقة التى اقترفت ضده قد اقترفت ايضا ضد الكثيرين ممن لا يزالون هناك من حيث جاء. انها الحماقة بعينها.

كان هذا الشعور يتصاعد لديه مع كل يوم يقضيه فى الجبهة. كان الالمان اقوياء. وتلك قضية لا جدال فيها. وكانت الحرب خطيرة، وقد اشتد اوارها بعد الاخفاقات الاولى.

والسؤال هو: من الذى اراد قبيل هذه الحرب ان يحرم الجيش من اشخاص مثله، هو سربيلين؟ بديهى ان الخاتمة لا تتوقف عليهم. فالجيش سينتصر فى الحرب بدونهم ولكن لماذا بدونهم؟ ما القصد من ذلك؟

فكر بذلك فجر اليوم وهو راقد على حزمة من القش حملها له جندى المراسلة. كانت المعركة الموفقة الاولى قد عززت ثقته ليس بان فوجه سيحقق المعجزات، كلا، مع انه كان يرغب فى ذلك ايضا. لقد عززت المعركة الاولى ثقته بان الامور ليست بالشكل السيىء الذى بدت عليه فى البداية.

بديهى ان الجيس قاتل بشكل افضل والحق بالالمان خسائر اكثر مما يتصوره المرء الذى لا يرى غير المحاصرين يمرون بمواقعه. ولعل الجيش قد حارب فى مئات الاماكن الاخرى مثلما حارب فوجه هنا فى معركته الاولى. واذا كان الالمان رغم ذلك يزحفون الى الامام ويطوقوننا ويضيقون الخناق علينا فانهم بالطبع لا يحققون ذلك بسهولة ولا بد من ان يكلفهم غاليا. ضخامة مسرح العمليات وزج احتياطياتنا فى المعركة وتعزيز آلياتنا التى لا بد من ان تظهر على الجبهة اخيرا بالكميات المطلوبة – كل ذلك سيوقف الالمان فى آخر المطاف عند حد معين. والمسألة كلها تكمن فى مكان هذا الحد.

فترة الهدوء امس لم تبعث السرور فى فؤاد سربيلين. فهو يفهم ان الالمان لم يتعرضوا له ليس لانهم فقدوا الامل فى سحق فوجه، بل لانهم،

ويا للاسف، يجيدون المناورة بقواتهم. وقد بدأت نتائج هذه المناورة تتجلى. لقد اخترقوا خط الجبهة على يمين موغيليف وشمالها. وذلك واضح من هدير المعركة المبتعد نحو الشرق. ولا يعجز عن فهم ذلك الا الاطرش. اما هو فقد جلس مع فوجه هنا مكتوف اليدين ينتظر دوره.

كان آخر امر وصل الى الفرقة قبل ان ينقطع الاتصال مع الجيش هو الاحتفاظ بالموقع من كل بد. وكان ذلك امرا لا بأس به لاولئك المستعدين لبيع حياتهم بثمن باهض والذين يعرفون كيف يفعلون ذلك، وخصوصا عندما لا يأتيهم امر آخر بالتراجع وحين يفوت اوان التراجع. ولكن ما الذى حدث، يا ترى، فى الفرق الاخرى؟ والى متى يستمر زحف الالمان وتطويق قواتنا واخبارهما التى تلسع الآذان؟!

كان اكثر ما يخشاه سربيلين وهو يفكر بما سيحدث هو ان يتلقى امرا متأخرا بالانسحاب. وبالمناسبة، فاذا بدأت المعركة منذ الصباح فلن يتمكن المرء من التخلص من الالمان حتى اذا رغب فى ذلك. والشيء المؤكد ان المعركة ستبدأ. الفرقة تحمى موغيليف، وعند مكان تمركزها تلتقى الطرق، وهنا يقع ايضا الجسر على الدنيبر، كل ذلك معا هو عقدة لا يتركها المرء فى مؤخرته دون ان يحاول حلها وتفكيكها.

وفكر سربيلين بمودة فى سينتسوف النائم قربه على العشب:

«الشيطان جاء به الينا. ربما سيقضى نحبه هنا. لا يزال شابا كرئيس اركانى. وزوجته شابة ايضا ولا بد ...». وحلقت افكار سربيلين الى زوجته هو التى تعيش فى شقة عتيقة تابعة للاكاديمية العسكرية فى موسكو. فعندما اعتقلوه تركوا لها هناك غرفة واحدة. لا بد وان احدهم قد انبه ضميره. وفكر سربيلين برقة: «آه، يا زوجتى العجوز! شاب شعرك كليا. تعذبت فى كتابة الرسائل وحمل الطعام الى السجن والتردد على رفاقى ورؤسائى لكى يشفعوا لى. فما كان اجملك ايام زمان. وما اكثر الحمقى ذوى الرؤوس الساخنة فى مختلف الحاميات والذين دهشوا قائلين: لماذا تزوجت من هذا الدميم الطويل ولا تخونه؟»

دوى فى الغرب هدير واضح شديد. فقد اطلق الالمان عدة قذائف دفعة واحدة. وفكر سربيلين بهدوء: «ضربوا بلوتنيكوف. تلك هى البداية».

قفز سينتسوف واخذ يبحث فيما حواليه عن سدارته دون ان يفارقه النعاس. فقال له سربيلين وهو ينفض بغير استعجال عيدان القش التى التصقت بيزته:

– بقيت معنا، اليس كذلك؟ لم يعد هناك مجال للاسف ...

لاذ سينتسوف بالصمت.

– اذن فلنذهب الى الكتائب. انت تريد ان ترى المعركة، وستراها الآن.

استمرت المعركة الجديدة على جبهة فوج سربيلين ثلاثة ايام بلياليها دون ان يخف اوارها تقريبا.

حتى منتصف اليوم الاول لم يتمكن الالمان من التقدم فى ايما مكان رغم نيران المدفعية الكثيفة التى اطلقوها دون ان يبخلوا بالقذائف، ورغم هجمات الدبابات العديدة مع قوات الانزال المدرعة. وانتصبت امام جبهة الفوج عشرون دبابة ومدرعة اخرى محروقة ومعطوبة. وظلت مسجاة على حقل الجودار، كما قال الجميع، خمسمائة جثة المانية او ثلثمائة جثة كما جاء فى البلاغ الذى بعثه سربيلين الى الفرقة وهو لا يحب المبالغة. وكانت خسائر الفوج بالارواح اكثر من ذلك. فقد سقطوا بنيران المدفعية والدبابات وبنيران المشاة الالمان الذين اردوا سرية بكاملها كانت قد تقدمت الى الامام من الخنادق. وقتل القادة او المرشدون السياسيون فى نصف السرايا، وقتل بلوتنيكوف دون ان يتمكن من تذوق طعم النوم، وفى مركز المراقبة قتل نائب قائد الفوج للشؤون السياسية حيث مزقته احدى القذائف باصابة مباشرة.

وبعد الظهر وصل قائد الفرقة العقيد زايتشيكوف الى سربيلين فى آخر زيارة لقواد افواجه الثلاثة. فى الصباح كان قائد الفرقة وراء الدنيبر وقد ادرك بانه سيظل فى طوق الحصار فوزع الفوج المتواجد فى النسق الثانى هناك بحيث تكون مقدمته نحو الشرق ومؤخرته نحو النهر. وبعد ذلك عبر الدنيبر وقضى الوقت حتى الظهر فى الفوج الذى يحمى اطراف موغيليف: فالمدفعية الالمانية انهالت عليه بنيران ضارية، الا ان ضرباتها كانت اخف من الضربات الموجهة الى سربيلين. ويبدو ان الالمان ارادوا فى البداية ان يبيدوا سربيلين ويلتفوا حول موغيليف ليصلوا الى جسر الدنيبر دون ان يشتبكوا بمعركة فى شوارع المدينة. هذا على اية حال ما قاله قائد الفرقة لسربيلين. وصل اليه فى مركز القيادة والعرق يتصبب منه بسبب الحر وقد دس يده تحت قمصلته ليتحسس قلبه الذى يوجعه. فبعد النهار الثقيل الذى صرفه فى المواقع اشتد الم قلبه. وقف قائد الفرقة الضخم قرب سربيلين فى الخندق وهو يلتهم الهواء بتلهث متواصل والجيوب المائية السميكة تستقر تحت جفنيه السفليين.

– قتل غلوشينكو – اعلن قائد الفرقة بمرارة ولوعة عن مقتل نائبه الشؤون

السياسية – قتل بحماقة، بقذيفة وقعت عند الجسر بالصدفة!

– ومن الذي يقتلونه بذكاء؟ – رد عليه سربيلين – لقد اخبرتك بان نائبي للشؤون السياسية قتل ايضا، وبقيت يتيما كذلك.

– اعرف ذلك. وقد جئتك بمن يحل محله.

التفت قائد الفرقة نحو مفوض الكتيبة القصير القامة المورد الوجه بحاجبيه الاشيبين ونظاراته السميكة ذات الزجاج المزدوج. ولم يكن سربيلين قد رآه في الفرقة مطلقا.

– انه محاضر من الادارة السياسية للجيش الاحمر. – قال قائد الفرقة بصوته المتقطع وهو لا يزال يلهث – وصل الينا لكي يلقي محاضرات، فأية محاضرات يمكن ان يلقي في مثل هذا الوضع؟..

– شماكوف – قال المفوض مقدما نفسه وقد رفع يده بالتحية.

– الرفيق شماكوف اعرب شخصيا عن رغبته في الالتحاق بفوجك – قال قائد الفرقة – الموقف واضح بالنسبة له. وقد صدر امر تعيينه، ولذا اهنئك بمفوض الفوج الجديد.

تطلع سربيلين الى زايتشيكوف مستفهما. فكرر قائد الفرقة:

– اجل. اهنئك بمفوض الفوج. فان آخر ما تسلمه المرحوم غلوشينكو من الشعبة السياسية في الجيش عندما انقطع الاتصال هو الامر الذي صدر باستئناف نظام المفوضين العسكريين. وكان يريد ان يتوجه بنفسه الى الافواج كي يحمل اليها هذا الامر، ولكن الوقت لم يتسع له، المسكين...

– اجل – قال سربيلين بعد فترة صمت – مثلما في الحرب الاهلية. القائد والمفوض ولا احد غيرهما. ذلك يشير الى مدى خطورة الوضع..

وقال شماكوف بصيغة الجمع:

– احيطكم علما، ايها الرفيق قائد الفوج، انني كنت في حينه اثناء تعبئة القوات لمحاربة دينيكين مفوضا لفرقة المشاة الثانية والاربعين حوالي عام كامل ولكنني حالما انتهت الحرب الاهلية عدت لممارسة العمل السياسي، وقد ارتديت البزة العسكرية من جديد قبل اسبوع لا غير.

– هو ايضا ارتدى البزة العسكرية قبل اقل من شهر – قال زايتشيكوف واومأ الى سربيلين – وكان ايضا قائدا للفرقة في حينه، وبعد الاكاديمية تدربت انا عنده. وهكذا فكل منكما مسؤول كبير – قال قائد الفرقة مازحا ولكن هذا المزاح كان مبتورا لان ذهنه مشغول كليا بالقتيل غلوشينكو. غير انه

حاول ان يمزح من جديد متجاوزا احزانه: – هل بقي عدد كبير من الناس تحت رئاستك ايها المسؤول الكبير؟

اخبره سربيلين عن الخسائر. فقال زايتشيكوف:

– خسائر الجميع جسيمة. خسائر فادحة! – كرر القول وفكر من جديد بمقتل غلوشينكو.

انتهت فترة الهدوء القصيرة وقام الالمان من جديد بالهجوم قبل ان يتسنى لسربيلين ان يتحدث مع شماكوف في صلب الموضوع. وحالما بدأ الهجوم اخذ المفوض الجديد مرافقا وتوجه الى الكتائب للتعرف عليها. ونصحه سربيلين قائلا:

– ابدأ بالكتيبة الثالثة، كتيبة الجناح الايسر. فهي الاقرب.

وفكر سربيلين في نفسه: «والأهدأ».

اعجب سربيلين بان المفوض لم يبحث منذ البداية عن مكان يلتجىء اليه في مركز القيادة. ومع ذلك رغب سربيلين في حماية المفوض من الخطر على قدر الامكان.

واثناء هذا الهجوم، وهو الهجوم السادس خلال النهار، ظل زايتشيكوف في موقع الفوج متواجدا طوال الوقت مع سربيلين. ولم يضيق وجوده في الفوج على سربيلين، لا سيما وان قائد الفرقة طوال مدة بقائه لم يصدر الا امرين او ثلاثة، مما كان سربيلين نفسه ينوي اصداره بعد لحظة. ويدل ذلك على انهما يريان ما يجري في ساحة المعركة بمنظار واحد.

ثم ان قائد الفرقة الذي لم يكن مسرورا اطلاقا، عندما تسلم سربيلين الفوج قبل اسبوعين، لظهور شخص اعلى منه مرتبة تحت مأموريته، قد نسي الآن، خلال المعركة، ذلك الشيء، ولم يعد يفكر فيه. ورغم انه تدرب على القيادة في قوات سربيلين قبل سنين عديدة ورغم انهما لا يعرفان بعضهما البعض في الواقع معرفة جيدة جدا فان تلك المعرفة منذ ما قبل الحرب قد لعبت دورا هاما بالنسبة لكليهما في الوضع العصيب الحالي وجعلتهما يتصارحان.

وحالما تم صد الهجوم السادس بسهولة اكبر من صد الهجمات السابقة – فقوى الالمان على ما يبدو بدأت تتقلص – اسرع قائد الفرقة الى الفوج المجاور. وقال لسربيلين مودعا بمنتهى الصراحة:

– انني لا اخشى عليك يا فيدور. انني مسرور طبعا لتسلمك فوجا في فرقتي، ولكنني اعتقد انه كان من الافضل ان نقود انا وانت فرقتين متجاورتين، وسنكون على الاقل مطمئنين على الجناحين، والحال فنحن نحارب وليس لدينا جناحان! في صباح الامس كان على جناحنا الايسر جار اما اليوم فهو غير موجود هناك!

– لا بأس – قال – سربيلين – كل ما نستحقه موجود لدينا، وسنحارب بما عندنا. واذا بقينا على قيد الحياة سنخدم حتى رتبة الجنرال. واذا متنا برتبة العقيد وقائد اللواء فسوف ندفن بهما.

– حبذا لو ندفن المزيد من الفاشيين – قال قائد الفرقة – اما نحن فلسنا بحاجة الى القربان المقدس قبل الدفن. يبدو ان طائراتهم لا تحلق اليوم – اضاف القائد مودعا سربيلين وهو يتطلع الى السماء.

وكان قوله الاخير نذير شؤم. فبعد نصف ساعة انهال الالمان بقصف شديد على منطقة التقاء فوج سربيلين بالفوج المجاور. فان اربعين قاذفة قنابل حلقت الواحدة تلو الاخرى على ارتفاع منخفض وشقت كالخنجر خطا عريضا نحو النهر. وتغطى القسم الشمالى من الافق بغشاوة كثيفة من الدخان.

وعندما انتهى القصف الجوى ومرت ساعة اخرى حملوا قائد الفرقة على نقالة خائر القوى وقد اصيب بجرح ثخين فى بطنه بشظية قنبلة. وهرع الجراح مع ممرضة الى المركز الطبى وصرف وقتا طويلا فى استخراج الشظية وسط انين مكبوت. وبعد الاصابة بالجرح اصدر قائد الفرقة امرا قاطعا بان يحملوه ليس الى المركز الطبى بل الى مركز القيادة، الى سربيلين.

واضطر الطبيب على الرضوخ غاضبا. كان طبيبا شابا خجولا، وكان الجميع فى الفرقة يخافون من العقيد زايتشيكوف خوفا شديدا، ولم يفارق هذا الشعور الطبيب حتى عندما كان زايتشيكوف الرهيب راقدا امامه بلا حراك.

وبعد ان حرثت قاذفات القنابل الالمانية كل المسافة بين الفوجين حتى نهر الدنيبر، سددت الدبابات الالمانية ضرباتها الى نفس المكان قبل ان يتبدد دخان القصف الجوى. بلغت الدبابات جسر الدنيبر وتمكنت من الاستيلاء عليه قبل ان تنسفه قواتنا. ومع الدبابات وصل المشاة على دروعها. كان عددهم قليلا، سرية واحدة، الا ان القصف الجوى وهجوم الدبابات كانا مباغتين، وبدت نيران البنادق الرشاشة كثيفة فى الظلمة الى درجة لم تسمح لا لسربيلين ولا لقائد الفوج الذى انفصل عنه فى الساعة الأولى من الكارثة بان يتجرآ على ضرب سلسلة الالمان التى اخترقت الدفاع الى الدنيبر وكانت لا تزال غير كثيفة.

لم يجازفوا بتسديد الضربة فى المساء. فقد حال دون ذلك انعدام الخبرة وكذلك التصور المبالغ فيه بشأن تعداد العدو. وفى الصباح كان الوقت قد فات.

عندما حملوا زايتشيكوف الى مركز قيادة الفوج لم يكن سربيلين موجودا فيه. فقد توجه فى نفس تلك اللحظة الى كتيبة الجناح الايسر التى

تضررت، توجه الى هناك لاصدار الاوامر بشأن الاستعداد لمعركة الصباح.

امر قائد الفرقة بان يحملوه الى مركز القيادة مباشرة، الى سربيلين، لأنه تصور الجرح مميتا وكان يريد احالة قيادة الفرقة الى سربيلين. وعندما تهيأ الطبيب وهو يطهر الجرح لزرق القائد بالمخدر اعترض عليه خشية ان يفقد وعيه ولو لدقيقة واحدة. فقد خيل اليه انه سيموت دون ان يتمكن من تسليم قيادة الفرقة الى سربيلين...

كان سربيلين قد علم وهو فى الكتيبة باصابة قائد الفرقة بجرح ثخين. وبعد ان اصدر سربيلين اهم الأوامر اسرع الى المركز الطبى فى الفوج مؤملا برؤية قائد الفرقة هناك. ولكنه لم يجد فى المركز الطبى لا القائد ولا الجراح الذى استدعى الى مركز القيادة.

– ايها الرفيق قائد اللواء – قال الطبيب هامسا وهو واقف عند مدخل المخبأ وقد تدمى رداؤه الذى يلبسه فوق القمصلة العسكرية – لست انا المذنب. كنت اريد ان أعالج الجرح بالشكل اللازم فى ظروف افضل، ولكن قائد الفرقة امر...

– عيب عليك! – لوح سربيلين بيده بائسا – هناك لحظات لا نصدر فيها الاوامر الى الاطباء بل هم يصدرون اوامرهم الينا. هل سيبقى على قيد الحياة؟

– فعلنا كل ما فى وسعنا، ولكن الجرح ثخين، وظروف الاسعاف...

– فات اوان التأوه! هل تستطيع ان تفعل اكثر مما فعلت؟

– لا اعتقد.

– اذهب، اذن. فالجرحى هناك، فى المركز الطبى، ينتظرون دورهم راقدين على الارض. – قال سربيلين ودخل المخبأ.

كان زايتشيكوف راقدا على السرير بعينين مفتحتين واسعتين، وكانت شفتاه ترتجفان فى محاولة لتجاوز الانين.

جلس سربيلين على مصطبة ثم قربها من السرير حتى ارتطمت ركبتاه بشكل مؤلم بحافة السرير. وقال قائد الفرقة:

– انتهى دورى يا فيودور.

وسقطت من عينه دمعة سالت على خده. مسح الدمعة ووضع يده من جديد على الشرشف على امتداد بدنه. واضاف: – غطنى بالمعطف، اشعر بالبرد.

خلع سربيلين المعطف من المسمار على الجدار وغطى به قائد الفرقة فوق الشرشف. وسأله القائد:

– ماذا يفعل الالمان؟

لم يكن من المجدى اخفاء حقيقة الوضع عن الجريح، ثم ان سربيلين لا يعتقد بان له الحق فى ذلك. فان زايتشيكوف الجريح كان لا يزال قائدا للفرقة. وافاد سربيلين بان الالمان فرقوا بينه وبين الفوج المجاور ووصلوا الى الدنيبر واستولوا على الجسر فى اغلب الظن. ظل قائد الفرقة صامتا بضع دقائق وهو يهضم هذا النبأ ويستجمع افكاره. وكان من الصعب عليه ان يستجمع افكاره، اذ انها تنزلق فى جهات مختلفة: اذا احتل الالمان الجسر فان ذلك يعنى انهم بضربة واحدة فصلوا الافواج الثلاثة كلها بعضها عن بعض. وفكر القائد بالعقيد يوشكيفيتش رئيس اركانه الذى ينوب عنه الآن على الضفة الاخرى من الدنيبر. وقال بصوت عال: — كل شيء شذر مذر دفعة واحدة.

كان يعتقد ان يوشكيفيتش رئيس جيد للاركان، بيد ان نصيبه الآن اقسى نصيب. فبعد فقدان الجسر غدا بين نارين ملتصقا بخط الشاطئ الضيق ووراءه الالمان. واذا حاول هذه الليلة الخروج من الحصار نحو الشرق فلربما سيحقق شيئا، واذا لم يدرك ضرورة هذه المحاولة فسوف يهلك.

كان الميجر لوشكاريف قائد الفوج المتقطع الآن والمرابط فى اطراف موغيليف شجاعا منتهى الشجاعة، ولكنه لا يزال حديث العهد بالقيادة. زايتشيكوف واثق من ان لوشكاريف لن يجبن، ولكن من الصعب تصور كيفية قيام لوشكاريف بقيادة الفوج معتمدا على نفسه فقط. وقد شعر زايتشيكوف بالاسف لانه جرح هنا، عند سربيلين، وليس عند لوشكاريف. فوجوده هناك اكثر لزوما حتى فى حالته الراهنة وهو يلازم السرير.

ثم شعر بالاسف على نفسه وفكر بجراحه وبعائلته — بزوجته وبناته. كلهن بنات، حتى ان زوجته بكت فى المرة الاخيرة لانها لم تلد صبيا.

«من الصعب جدا تربية خمس بنات» — فكر بعائلته وكأنه لم يعد على قيد الحياة.

واخيراً لم شتات افكاره وقال:

— اسمع، يا سربيلين، استعد لاستلام قيادة الفرقة. حرر الامر.

— ساكون مستعدا اذا اقتضت الضرورة. ولا داعى للامر الآن! فان قيادة الفرقة لا تحال الى شخص آخر اذا كان قائدها لا يزال حيا. ستلازم الفراش وستتحسن حالتك، فأنت رجل قوى الجسم. — ولمس سربيلين بحذر كتف قائده.

القى عليه زايتشيكوف نظرة مائلة ولاذ بالصمت. وماذا يمكن قوله فى مثل هذه الحالة؟ فلو كان هو بدل سربيلين لاجاب نفس الجواب.

— ومع ذلك استعد — قال القائد بعد فترة صمت ثم اغلق عينيه.

كان مما يعزيه انه موجود الآن عند سربيلين وليس فى المركز الطبى. فهناك كان سيشعر بانه مجرد جريح بين الجرحى، اما هنا فهو لا يزال قائدا للفرقة. ظل بضع دقائق مغلق العينين، ثم فتحهما فرأى وراء سربيلين المرشد السياسى الطويل القامة الذى جاء اليه مؤخرا فى الغابة. كان المرشد السياسى سينتسوف يرتدى قمصلة وسخة ملوثة بالتراب وهو يحمل بندقية رشاشة المانية.

كان قد قضى النهار كله تقريبا جنب سربيلين، فى البداية فى احدى الكتائب، ثم فى كتيبة اخرى، ورأى كيف اقتحمت الدبابات مواقع كتيبة بلوتنيكوف. واقتحمت دبابة كثيب السكة الحديدية وحطمت كوخ مفتش السكة العجوز وظلت تقصف امدا طويلا من مدفعها وهى على بعد خمسين مترا من سينتسوف. وكانت القذائف تئز فوق رأسه مباشرة. وبعد ذلك خرج بلوتنيكوف من الخندق ورمى تحت الدبابة بحزمة من القنابل اليدوية. واشتعلت النار بها، بينما قتل بلوتنيكوف بعد ثانية واحدة بصلية رشاش من دبابة اخرى.

ثم رأى سينتسوف كيف فرت احدى السرايا. اخذ المشاة الالمان يحصدونها ببنادقهم الرشاشة، فراح سربيلين وهو يقود جماعة من المقاتلين على مقربة من المكان يصد هذا الهجوم بالنيران والقنابل اليدوية حتى تمكن من وقفه وقد شارك شخصيا بين الحين و الآخر فى التنشين واطلاق النار من البندقية.

وليس بعيدا من سينتسوف كان مفتش السكة العجوز يطلق النار من البندقية على الالمان. وبعد ذلك التفت سينتسوف فرأى العجوز جثة هامدة فى قعر الخندق، وهو يرتدى بزة السائية مفتوحة عند صدره الاشيب المدمى.

واطلق سينتسوف نفسه النار من البندقية ورأى كيف قتل المانيا ظهر، كما من باطن الارض، على بعد عشر خطوات عنه.

وعندما تم صد الهجوم قال سربيلين الذى بدا وكأنه يلاحظ كل ما حواليه مخاطبا سينتسوف:

— وانت ايضا تمكنت من قتل احد الاعداء.

ثم امر سربيلين بان يسلموا الى سينتسوف بندقية رشاشة انتزعت من الالمانى القتيل مع مشطين احتياطيين طويلين فى كيس من المشمع، وقال:

— خذها، فهى غنيمتك الشرعية!

حدث ذلك كله من زمان، فى الصباح، اما فى المساء فقد توجه سينتسوف فى الظلمة مع سربيلين، الى المكان الذى اقتحمه الالمان بعد القصف

الجوى. وهناك ضيع آثار سربيلين وراح يبحث عنه طويلا ويخشى ان يكونوا قد قتلوه، وشعر بالفرح عندما عاد الى مركز القيادة وعرف هناك ان سربيلين حى يرزق.

دخل سينتسوف المخبأ باسما، ولكنه بوغت بما رأى. رأى ظهر سربيلين النحيف المحنى وهو جالس على المصطبة، ورأى العقيد قائد الفرقة راقدا مغمض العينين على سرير سربيلين. كان العقيد شاحب الوجه حتى خيل لسينتسوف بانه قضى نحبه. ثم فتح عينيه وتطلع الى سينتسوف صامتا امدا طويلا.

وقف سينتسوف صامتا هو الآخر، ولا يدرى ماذا يفعل او يقول. وشعر سربيلين بوجود شخص وراءه فالتفت وقال:

– ماذا ايها المرشد السياسى؟ هل حاربت بما فيه الكفاية؟ لم يعد لديك الآن سبب للتشكى من عدم وجود ما يستحق الكتابة؟

تذكر سينتسوف مفكرته الموجودة فى المحفظة الميدانية والتى لم يمسها طوال النهار. كان جائعا، ولكنه كان بحاجة الى النوم اكثر مما الى الطعام. وبدلا من الجواب طلب من قائد اللواء سماحا بالانصراف وهو يشعر بتعب شديد ليس فى اليدين ولا الرجلين، بل فى اعماق نفسه من كل المخاطر التى عايشها على التوالى خلال النهار. والقى عليه سربيلين نظرة متفهمة مهدئة:

– تريد ان تنام، اليس كذلك؟ اذهب اذن.

– سانام هنا، قرب المخبأ – قال سينتسوف وشعر بالخجل لرغبته الشديدة فى النوم، فى حين ان سربيلين المتعب اكثر منه، على ما يبدو، جالس هنا لا ينام.

هز سربيلين رأسه موافقا دون ان يلتفت. فسأل زايتشيكوف بصوت خافت:

– ماذا يفعل عندكم هنا؟

هز سربيلين كتفيه ولم يجد جوابا على هذا السؤال.

حالما خرج سينتسوف من المخبأ دخله شماكوف. وكان هو الاخر يحمل بندقية رشاشة المانية. خلع بندقيته ووضعها فى الركن ولوى رقبته متعبا واقترب من السرير. لقد اخبروه بان زايتشيكوف جرح وهو راقد هنا، ولم يبق لديه مبرر للتساؤل. فوقف ولاذ بالصمت. تطلع اليه زايتشيكوف وسأله:

– هل غنمتم بنادق كثيرة؟

– عشرين.

– نيران بنادقهم الرشاشة كثيفة. – قال زايتشيكوف – غدا واضحا منذ الحرب الفنلندية ان من الضرورى استخدام البنادق الرشاشة على نطاق واسع فى تسليح الجيش، ولكن الجميع ظلوا يفكرون بذلك مجرد تفكير، واطالوا التفكير حتى بدأت الحرب. ربما لا توجد عندنا عشر بنادق رشاشة لفوج كامل، اما هم فلديهم مئات من هذه البنادق! – لاح التذمر فى صوته الضعيف الابح.

بدأ شماكوف يتحدث عما جرى فى كتيبة الجناح الايسر. واستمع اليه سربيلين وقائد الفرقة. استمع اليه سربيلين بانتباه واهتمام، بينما استمع اليه زايتشيكوف بذهن مشتت وهو يضيق جفونه بين لحظة واخرى من الالم فى بطنه. واخيرا حمل نفسه على الابتسام وقال:

– كأننى الد طفلا.

وقال سربيلين مخاطبا شماكوف:

– سانتقل اليك فى المخبأ، اما هنا فسنعد خفارة طبية للقائد الفرقة.

فى البداية اراد سربيلين ان يصر على نقل قائد الفرقة الى المركز الطبى، ولكنه عدل عن رأيه فيما بعد. فالآن، فى طوق الحصار، ليس معروفا، على اية حال، اين هى مؤخرة الفوج واين مقدمته. فليبق راقدا هنا، فلا امل فى اقناعه بالأنتقال الى مكان آخر، اذ ان سربيلين لا يحب الدخول فى جدل لا ينتهى الى نتيجة. وقال زايتشيكوف:

– لست بحاجة الى اية خفارة. فذلك يعنى انى ارغمتك على ترك مخبأك!

– لا بد من ذلك – قال سربيلين بحزم – ولا داعى لمجادلتى فقد كنت فى الماضى مضمدا ولدى معرفة بهذه الامور.

ابتسم زايتشيكوف عفويا. وتذكر كنية سربيلين «المضمد». وتذكر فترة التدرب فى فرقته فى عام ثلاثة وثلاثين وتسعمائة والف.

نهض سربيلين وقال مخاطبا زايتشيكوف:

– حاول ان تنام يا نيكولاى. ثم اذا استطعت. اما انا فسأذهب مع المفوض لاستعراض حصيلة النهار، وبعد ذلك سنعود اليك لتلقى الأوامر.

«هل انت بحاجة الى اوامرى الآن؟! – فكر زايتشيكوف على المكشوف وبدون غيظ وشيع سربيلين بنظرة – انت لست مثل لوشكاريف. فلو كان الحال على غير ما هو عليه لقمت الآن بقيادة فرقة، بل وفيلق ولاصدرت الاوامر الى ... اذا كان هناك اتصال بيننا» – تذكر الاتصال المقطوع بالجيش وابتسم بمرارة.

دخل شماكوف المخبأ المخصص له لاول مرة. وجلس على سرير المفوض الذي قتل في الصباح، كما جلس سربيلين قبالته على سرير رئيس الاركان الذي قتل في المساء. وراحا يستعرضان حصيلة النهار ويحاولان التعويض عن خسائر الفوج، كمن يرقع ثوبا مهلهلا، فينقلان هذه الجماعة من المحاربين الى هنا، وتلك الى هناك من اجل سد جميع الثغرات. وكان من الضروري قبل حلول المساء تعيين قائد لاحدى الكتائب وقائدين لسريتين وثلاثة مرشدين سياسيين بدلا من الذين قتلوا او اصيبوا خلال النهار. تعرف شماكوف حتى الآن على محاربي كتيبة واحدة وبصورة مستعجلة، فلم يتمكن من ترشيح احد، وقدم سربيلين جميع الترشيحات تقريبا. وعندما جاء دور المرشدين السياسيين تذكر سربيلين سينتسوف.

هز شماكوف كتفيه فقال سربيلين:

– هل يظل يلاحقني حتى يقتلوه؟ ما دامت رتبته تؤكد انه مرشد سياسي فليكن مرشدا لسرية. لن يكون اسوأ من الآخرين، وحتى اذا كان اسوأ منهم فليس لدينا غيره.

بعد خمس دقائق ايقظوا سينتسوف فوقف امام سربيلين وشماكوف واستمع اليهما وهو يفرك عينيه الناعستين دون ان يتوقع ملاقاة شماكوف هنا. تلقى سينتسوف المنصب الجديد مع تمنيات مقتضبة، وارسلوه في الحال، طالما الظلام لا يزال مخيما، الى السرية، الى خوريشيف الذي جلس معه امس باقدام حافية على كثيب السكة الحديدية والتهما السميكات المجففة وهما يتشمسان.

– لم امارس القيادة مطلقا – اجاب سينتسوف بتردد عندما وجه اليه سربيلين السؤال المعهود الذي فقد معناه في الظروف الحالية: «هل تتمكن من اداء المطلوب؟». وقال له سربيلين على سبيل النصح والارشاد:

– حاول ان تقود. طالما تحمل نجمة على الردن وثلاثة مربعات على شارة الياقة فلي الحق في ان اطالبك بما تشير اليه رتبتك. – قال ذلك كله بلهجة غاضبة بعض الشيء، وليس ذلك بسبب غضبه فعلا على سينتسوف، بل بسبب رغبته في تأكيد التغير الذي حدث له. – لم يعد لك حق الآن باصطحاب دليل، واذا لم تصل بنفسك الى المكان المطلوب فسوف تعتبر فارا من الجيش!

– ابتسم سربيلين ملمحا الى ان الكلمات الاخيرة قيلت على سبيل المزاح.

لم يكن سينتسوف قد افاق كليا من النوم عندما شد على يدي سربيلين وشماكوف مودعا. وصار كلاهما بالنسبة له من الآن فصاعدا على غير ما كانا عليه في السابق. بالامس كان ضيفا على فوج هذا القائد الفارع القامة

بوجهه الحصاني الطيب، وقبل حين من الزمن كان رفيق طريق بالصدفة على دروب الجبهة لهذا المفوض الاشيب القصير القامة، اما الآن فاحدهما قائد له والآخر مفوض له ايضا، وهو مرشد سياسي لسرية خاضعة لهما. ولم يعودوا ينتظرون منه ان يصف في كتاباته كيف يحارب الآخرون، بل يتوقعون منه ان يقاتل بنفسه كالآخرين. لم يحدث في حياته مطلقا مثل هذا التحول المفاجيء العسير الغاية.

عندما خرج سينتسوف تبادل سربيلين وشماكوف النظرات. وقال سربيلين:

– خطوت من ذوي المهن الطبية الى رتبة قائد كتيبة دفعة واحدة، ومع ذلك لم اخفق في اداء الواجب. فلماذا اشك في قابلياته؟ – واومأ باتجاه الباب – فهل صاروا اسوأ منا طوال ثلاثة وعشرين عاما من قيام الحكم السوفييتي؟ ام اننا كنا نكتفي بالتحدث معهم دون ان نجعلهم يتحولون الى اناس اشداء؟ لا اصدق بذلك! ورغم كل مصائبنا السوداء الحالية لا اصدق بذلك! ربما لم نقدم لهم دوما التربية اللازمة، ومع ذلك لا بأس، فقد قدمنا لهم تربية اقوى من التي قدمها الفاشيون لرجالهم. ربيناهم بشكل لا بأس به، وحتى في السجن تأكدت من ذلك مرارا. الا يثير حديثي عن السجن دهشتك؟

– كلا. حدثني زايتشيكوف عما لاقيتموه – اجاب شماكوف بلهجة احترام خجلا من ان يبدأ مخاطبة سربيلين بضمير المفرد. وفهمه سربيلين على طريقته الخاصة. وقال بنفس تلك اللهجة بعد ان اضفى عليها مسحة من السخرية المرة:

– لم يحالفكم الحظ، ايها الرفيق شماكوف، فالى من ارسلكم المصير مفوضا؟ المسؤولية مضاعفة، بل واكثر.

كان بوسع شماكوف ان يرد على ذلك بالكثير. كان بوسعه ان يقول بان المصير لم يرسله الى الجيش، فقد التحق به متطوعا. وكان بوسعه ان يقول بانه طلب من زايتشيكوف ان يكلفه باي واجب ليس قبل، بل بعد ان اطلع على احوال الفرقة. وكان بوسعه، اخيرا، ان يقول بانه ليس اقل من سربيلين ثقة وايمانا بالحكم السوفييتي وبقدرته على تربية اناس مخلصين له حتى الرمق الاخير، ولذلك فهو يثق به، سربيلين، ثقته بنفسه.

الا ان البروفسور السابق ومفوض الكتيبة حاليا، ذلك الانسان المحب الكلام في الاوقات العادية لم يتمكن من توضيح الامور عندما حملوه على توضيحها. ولذلك لم يرد على سربيلين بشيء مما كان بوسعه ان يرد به عليه، بل لزم الصمت لحظة ثم تطلع اليه عبر نظاراته السميكة وقال عبارة واحدة لا غير:

– ايها الرفيق سربيلين، انا لا اجيد الانتقال بسرعة الى التخاطب بضمير المفرد. ارجوكم ان لا تعتبروا ذلك اساءة.

وادرك سربيلين من تركيز شماكوف على كلمة «اساءة» ان هذا فهم لهجته الساخرة بالشكل اللازم وهو يرفضها. فقال سربيلين المحب الصراحة:

– يبدو انني فهمتكم كما يجب: انكم لا تهتمون بماضي.

– اجل، لقد فهمتموني كما يجب.

– ولكنني انا لم انس ماضي. فأنا اتذكره بين الحين والآخر. هل تفهمونني؟

– اجل، معكم حق.

– ما اسمكم؟

– سرغي.

– اما انا فاسمي فيودور.

– ها قد تعارفنا بالتمام والكمال! – قهقه شماكوف فرحا لنهاية الحوار الثقيل. – فلو مات احدنا فجأة ليس من اللائق ان لا يعرف الآخر الاسم الكامل ليسجله في اشعار الوفاة.

– آه يا سرغي شماكوف، يا اخي في هذه الدنيا وفي النير العسكري!

– هز سربيلين رأسه – ان يجيد المرء الموت ليس هو الفن العسكري، انه نصف الفن العسكري في اكثر تقدير. المطلوب منا هو ان يموت الالمان بالذات. – نهض وعدل قامته الفارعة وافاد بان الوقت حان لاطلاع القائد على الامور. فاعترض شماكوف قائلا:

– هل هناك داع لاقلاقه. انه بحالة سيئة.

– عندما نطلعه تتحسن حاله. جرحه ثخين جدا وليس من الحكمة ان يرقد هكذا في انتظار الموت فقط. فطالما يستطيع اصدار الاوامر فسوف يحيا!

نهض شماكوف هو الآخر وقال:

– من المستبعد ان يوافق الاطباء على رأيك.

– انني لا اطلب موافقتهم، فانا نفسي مضمد.

ابتسم شماكوف عن غير قصد، وابتسم سربيلين ايضا للنكتة التي اطلقها، ولكن وجهه اكتسب مظهر الجد من جديد.

– بدأت تتحدث عن الموت، واقول لك كيلا نعود ونكرر من جديد وكي تفهمني كليا. انني لا اخشى الموت على مرأى من الجميع. ولكنني لا يحق لي ان اضيع دون اثر! هل فهمتني؟

قضوا اليوم التالي من الصباح حتى المساء في معركة متواصلة ايضا. وبالتدريج اصيب قسم كبير من المدافع الميدانية والمدافع المضادة للدبابات فتمكنت الدبابات الالمانية في بعض المناطق من التقدم الى اعماق المواقع وظلت تزحف امدا طويلا بين الخنادق وتحطم المخابئ بجنازيرها وتقصف بالمدافع من الجانب وتصب نيران الرشاشات على طول الخنادق وممرات التوصيل. وفي بعض الاحيان بدا وكأن الالمان احتلوا مواقع الفوج، ولكن المشاة الالمان لم يتمكنوا طوال النهار من اختراق الموقع على اثر الدبابات، وبدون المشاة ما كان بوسع الدبابات ان تحقق هدفها حتى النهاية. فبعض الدبابات صرف ذخيرته وخرج من المعركة، والبعض الآخر احترق في اعماق المواقع بعد ان القيت عليه حزم القنابل اليدوية وقناني البنزين.

وبسبب عدم كفاية المدفعية والقذائف كان عدد الدبابات المحترقة اقل مما في الايام السابقة، ومع ذلك احترقت تسع دبابات في اماكن مختلفة حتى ان دبابة وصلت الى مخبأ سربيلين حيث يرقد زايتشيكوف الآن، وهناك احترقت وظلت واقفة كالتمثال، فقد سقطت مؤخرتها في الخندق وارتفع مدفعها نحو السماء.

وخلال النهار تم صد ثماني هجمات المانية متلاحقة.

ولم يتمكن سينتسوف الذي التحق بسرية خوريشيف منذ مساء امس ان يتطلع الى ساعته سوى مرتين فقط. ولم يكن لديه متسع من الوقت ليفكر فيما اذا كان هو مرشدا سياسيا جيدا او سيئا للسرية. فقد صرف النهار كله في الخنادق مع المقاتلين وحاول على قدر المستطاع ان يصدر اوامر ذكية لاولئك الناس القلائل الذين كانوا على مقربة منه فيما يخص الاشياء الضرورية، كما يعتقد، في هذه اللحظات او تلك. كان يأمر بعدم اطلاق النار عندما يرى ضرورة لتمكين الالمان المهاجمين من الاقتراب لاصابتهم فيما بعد بالتأكيد، وكان يأمر باطلاق النار عندما يرى ان وقت اطلاق النار قد حان، وكان يطلق النار بنفسه، ولعله قتل بعضا من الاعداء.

عندما انتهى الهجوم الالماني الاخير، الثامن، بدأ الظلام يخيم واقترب منه خوريشيف برأسه المضمد تحت السدارة وصاح في اذنه بصوت عال كما يخاطب الاصم: «اجدت القيادة، ايها المرشد السياسي!». واجاب سينتسوف على ذلك بان هز كتفيه. فلم يكن هو نفسه يعرف ما اذا كان قد اجاد ام لا. انه يعرف شيئا واحدا: فقد ظلوا في نفس الخنادق التي كانوا فيها منذ الصباح، وهذا شيء جيد في اغلب الظن.

فكر على هذا النحو ودهش فجأة لبقائه على قيد الحياة . فقد قتل وجرح كثيرون جدا حواليه خلال النهار . عندما قتلوا وجرحوا الواحد تلو الآخر على انفراد لم يفكر بنفسه . ولكنه الآن، بعد المعركة، عندما تذكرهم جميعا بين جريح وقتيل، خيل اليه ان من القريب انهم جميعا قتلوا او جرحوا، اما هو فلم يصب حتى بخدش طفيف طوال النهار .

– ماذا تعتقد: هل سيقومون بهجوم غدا؟ – سأل من خوريشيف الذى لم يسمعه جيدا فطلب منه ان يكرر السؤال . كرر سينتسوف السؤال مرهقا فاجاب خوريشيف مرهقا ايضا :

– بالطبع، فماذا عليهم ان يفعلوا غير الهجوم؟!

كان قد حل الظلام نهائيا عندما عاد سربيلين الى قائد الفرقة فى المخبأ المطمور . كانت الطبقة العليا من السقف قد مالت، وبرز جذع وظل متدليا فى الركن . وقرب سرير زايتشيكوف ارتفعت على الارضية اكوام التراب الذى تناثر من السقف . وقال زايتشيكوف مازحا بمرارة :

– كادت الدبابة تدهسنى . اعتقدت ان الالمان وصلوا، وحاولت ان استعد لاطلاق النار على نفسى – لمس مسدسه الذى لاح طرفه من تحت الوسادة – كيف الحال عند لوشكاريف؟

– فى الساعات الاخيرة لم نسمع شيئا هناك . الوضع هادىء! – اجاب سربيلين .

– وانا ايضا جهدت لاسمع شيئا، فقد خيم الهدوء منذ العصر . وانا خائف على لوشكاريف – قال زايتشيكوف قلقا .

لزم سربيلين الصمت . فهو لم يعد خائفا على لوشكاريف، اذ ان الهدوء المطبق خيم هناك بحيث فات اوان الخوف عليه . وقال اخيرا :

– سيعود المفوض الآن ونسأله . فمن الصومعة يمكن رؤية شىء . وقد قال لى بانه يريد صعود الصومعة ليرى .

تصرم نصف ساعة ولكن شماكوف لم يأت . واخيرا عاد وقد اسودت قمصلته من العرق . وقبل ان يبدأ كلامه تجرع قدحين من الماء اغترفهما على التوالى من الدلو الموجود فى ركن المخبأ . كان الماء عكرا بترسبات صفراء، فقد سقط فيه طين وتراب من السقف . وبعد ان اغترف القدح الثالث خلع صدارته ونظاراته وصب الماء على رقبته المتينة الوردية بشعرها الاشيب .

– ضايقك الحر، بعد احداث اليوم، اليس كذلك؟ – قال سربيلين بلهجة اختلط فيها الجد بالهزل .

– اجل، اشعر بالاختناق، فالعمر له عيوبه – قال شماكوف بلهجة اعتذار وجلس على المصطبة وافاد بان الالمان لم يطلقوا النار ولا مرة واحدة على الصومعة عندما كان فيها، واضاف موضحا : – برجها منخور كالمنخل . ربما يظنون باننا رفعنا مركز المراقبة منها . الانباء غير سارة : على يميننا الوضع لا يزال هادئا، حتى ولا اطلاقة واحدة . وقبل ساعة، وهذا شىء لا استطيع تأكيده، فقد حل الظلام، ولكن المقاتلين يؤكدون فعيونهم افضل من عينى – خلع نظارته ومسحها باصابعه وارتداها من جديد – قبل ساعة اقتاد الالمان من موغيليف طابورا من الاسرى باتجاه الغرب .

– هل العدد كبير؟ – سأل زايتشيكوف .

– يقول المقاتلون ان عدد الاسرى يقارب الثلثمائة .

– حم! انتهى فوج لوشكاريف – قال زايتشيكوف ولزم الصمت برهة ثم كرر من جديد : – انتهى فوج لوشكاريف .

خيم السكون على المخبأ . لاذ الثلاثة بالصمت، وراحوا ثلاثتهم يفكرون بشىء واحد : غدا او بعد غد سيجىء دورهم . القذائف نفدت . ولا تزال هناك كمية من القنابل اليدوية، ولكنها ستنفد هى ايضا . ولم تعد لديهم قنانى بنزين . وغدا سيبدأ الالمان هجمات جديدة . ولنفرض ان بالامكان الصمود يوما آخر، فماذا بعد؟ من الممكن بالطبع القيام بمحاولة للانسحاب ليلا والتقحم نحو الشرق، وراء الدنيبر . ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك؟ وهل سينجح؟ وكم ستكون الخسائر؟ كل ذلك مدعاة للتفكير العسير . من المؤسف والمحزن جدا ترك هذه المواقع التى احتفظوا بها منذ بضعة ايام وصدوا الهجمات بنجاح ودمروا حوالى سبعين دبابة المانية . واذا تركوا الخنادق فلن يحرقوا كثيرا من الدبابات ...

كانت افكار الثلاثة متماثلة كليا تقريبا، ولكن ما كان اى منهم راغبا فى الكلام قبل غيره . سربيلين ينتظر ما سيقوله قائد الفرقة زايتشيكوف، وهذا ينتظر ما سيقوله سربيلين . اما شماكوف فقد راح يتلفت برأسه الاشيب المستدير ويتطلع اليهما معتقدا بانه، وهو الانسان الحديث العهد بشؤون الفوج، يجب ان يكون آخر المتكلمين بخصوص هذه الامور . ولذا لم يبدأ احدهم الكلام . فقد صمتوا جميعا واجلوا البت فى المسألة حتى نهار الغد .

في الليل سمعت اصداء معركة حامية وراء الدنيبر، وعند الفجر عم السكون هناك ايضا. ومن المستبعد ان يكون ذلك هجوما ليليا للالمان. فقد لاحظ سربيلين انهم، عادة، لا يحبون القتال ليلا. وفكر بمرارة ساخرة: «يكفيهم ما يحققونه نهارا». وفي اغلب الظن كانت تلك اصداء محاولة قام بها يوشكيفيتش للتقحم نحو الشرق مع ما تبقى من وحدات الفرقة على الضفة اليسرى للنهر.

ومن الصعب التأكد مما اذا كان يوشكيفيتش قد نجح في ذلك ام لا. وعلى كل حال فقد خيم الهدوء على الضفة اليسرى، وانتهى كل شيء. ففي صبيحة اليوم الخامس من المعارك ظل فوج سربيلين وحيدا كليا. وكان سربيلين يتوقع هجمات المانية جديدة مع بزوغ الفجر. ولم يخامره ادنى شك في انها ستبدأ بعد لحظة او اخرى. بيد ان الالمان لم يبدأوا لا بعد ساعة ولا بعد ساعتين. وبالعكس افاد المراقبون ان مخافر الحراسة الحربية الالمانية اختفت اثناء الليل وانسحبت الى الغابة. وكان ذلك لغزا لم يتضح الا بعد مرور ساعة اخرى. فقد ظهرت في الجو الطائرات الالمانية التي سددت خلال الايام الاربعة الماضية ضربة واحدة لا غير عندما فصلت الدبابات فوج سربيلين عن فوج لوشكاريف. لعل تلك الطائرات كانت مشغولة في اتجاهات اخرى اكثر اهمية. اما الآن فيتعين على سربيلين وفوجه ان يتحملا كل ضرباتها الشديدة.

بعد ان منح الالمان الفوج ثلاث ساعات من الهدوء في الصباح عوضوا على انفسهم ذلك طوال النهار. فخلال اثنتي عشرة ساعة بكاملها – من التاسعة صباحا حتى التاسعة مساء – كانت قاذفات القنابل الالمانية تحلق على ارتفاع منخفض فوق الفوج وتتعاقب بعضها وراء البعض دون ان توقف ولا مرة واحدة قصفها المميت لاكثر من نصف ساعة. كانت القنابل الثقيلة بنصف طن وربع طن والقنابل بوزن ١٠٠ و ٥٠ و ٢٥ كيلوغراما والعلب المشحونة بالقنابل الصغيرة بوزن ثلاثة كيلوغرامات وكيلوغرامين والتي تتناثر من السماء كالحمص – كل ذلك انهال من الصباح حتى المساء على مواقع فوج سربيلين. ربما لم يزج الالمان في هذه المعركة بعدد كبير من الطائرات – عشرين او ثلاثين طائرة – ولكنها كانت تقلع على ما يبدو من مطار قريب جدا وبلا انقطاع. فما تكاد تسع طائرات تنصرف الا وظهرت تسع طائرات اخرى تصب وابل قنابلها من جديد.

وغدا واضحا السبب الذي جعل الالمان يسحبون مخافر الحراسة: فهم لا يريدون ان ينفقوا على فوج سربيلين مزيدا من الدبابات والمشاة. وقد

تفرغ سلاح الجو عندهم فافردوا له دور القاتل الذي لا يطاله العقاب، فقرروا تدمير فوج سربيلين ومسحه من على وجه البسيطة دون ان يتكبدوا خسائر، وبعد ذلك يستولون بكل سهولة على ما يتبقى. وربما لن يقوموا بالهجوم غدا ايضا، بل سيواصلون القصف المتلاحق. ارعبت هذه الفكرة سربيلين: فليس هناك ما هو افظع من الموت عبثا دون الرد عليه بالموت. وهذا بالذات ما يخيم على الجو.

عندما انتهت الغارة الاخيرة وعاد الالمان الى مواقعهم لتناول طعام العشاء والنوم كانت مواقع الفوج محروثة بالحديد الذي انهال عليها من الجو بحيث استحال العثور فيها على قطعة سالمة من سلك تلفوني بطول خمسة او عشرة امتار. وطوال تلك الفترة لم يتمكنوا الا من اسقاط طائرة واحدة من طراز «يونكيرس»، اما خسائر الفوج فهي تضاهي تقريبا افدح الخسائر التي تكبدها في احلك يوم من ايام القتال، وهو يوم امس. ففي بداية المعارك كان الفوج يضم ٢١٠٠ شخص، اما الآن فلم يبق فيه، حسب الاحصائيات التقريبية، الا ستمائة شخص.

ذهب سربيلين يحمل هذه المعلومات المحزنة الى زايتشيكوف في المخبأ. وكان عدة مرات خلال النهار يفقد امله في رؤية قائد الفرقة بين الاحياء، فان عشر قنابل من جميع العيارات على اقل تقدير انفجرت في اوقات مختلفة حول المخبأ الذي ظل سالما باعجوبة في طوق الموت. وقال سربيلين حالما دخل:

– ايها الرفيق قائد الفرقة اعتقد بانه من الضروري القيام بمحاولة لاختراق الحصار هذه الليلة واذا لم نقم بهذه المحاولة فسوف يستمرون في ابادتنا غدا من الجو.

اقتنع سربيلين اليوم بانه ليس هناك مخرج آخر، وما دام مقتنعا بذلك فقد اسرع لعرض رأيه دون مماطلة.

بدا صوت زايتشيكوف الشاحب الوجه والذي بدأ جرحه يتقيح اضعف مما في يوم امس. قال انه موافق، واخذوا ثلاثتهم، مع شماكوف الذي جاء في تلك اللحظة، يناقشون اختيار الاتجاه اللازم لاختراق الحصار والوصول الى الدنيبر.

وبعد نصف ساعة تقرر كل شيء. وتوجه شماكوف الذي يجيد الالمانية الى المخبأ لكي يستجوب المقاتل الالماني الذي هبط من طائرة «اليونكيرس» المحطمة، بينما توجه سربيلين لتفقد الخنادق، وبغية تسهيل توجيه المقاتلين في المعركة الليلية قرر جمع كل من بقي على قيد الحياة في كتيبة واحدة وباشر بذلك في الحال هنا في الخنادق دون ان يفوت الوقت، حيث اجرى بعض التعيينات واشار الى مراكز التحشد قبيل الاختراق. فلم يكن جائزا تأجيل القضية يوما

آخر، اما الليل فليس بالامكان تمديده، انه ليل تموز القصير. وبعد ان حول سربيلين كتيبة بلوتنيكوف الى سرية وعين خوريشيف قائدا لفصيلة القى نظرة خاطفة على سينتسوف الذي الغى منصبه وامره بان يلحق به.

عادا الى مركز القيادة، فمر سربيلين على شماكوف دون ان يعرج على مخبأ زايتشيكوف.

كان شماكوف الغاضب المشعث الشعر قد جلس عند الطاولة ووقف امامه باعتدال شاب المانى فارع القامة يرتدى بزة طيار. كان وجه الالمانى يرتجف بصورة عصبية وكأنه يطرد الذباب عنه. احد خديه شاحب، والخد الآخر مغطى ببقع ارجوانية. وسأل سربيلين حالما اجتاز العتبة:

– الم تنته؟

– جعلنى اصفعه وارغمه على الوقوف – كان واضحا من تقاطيع وجه شماكوف انه غير راض عن نفسه – فقد جلس ووضع رجلا على رجل وراح يعدنى بصيانة حياتى عندهم فى الاسر اذا رافقته شخصيا عبر مواقعنا وخلصته! واحدة بواحدة ان صح التعبير! قرر ان يشترينى. ما اوقحه!

– ما هى نتيجة الاستجواب؟

– قليل جدا. فهو لا يعرف اى شىء تقريبا عن الوضع هنا. فقد حولوهم من بريست هذا الصباح فقط. ويزعم انه قبل يومين لا غير قصف قلعة بريست.

توقف شماكوف عن الكلام لحظة، وتبادل النظرات بانفعال مع سربيلين وادرك مرة اخرى بانهما يفهمان بعضهما البعض جيدا.

– غير مطلع عل الموقف. وليس لديه خريطة. يقول ان الرماة الجويين لا يحق لهم الحصول عليها. – تذكر شماكوف ابنه واضاف: – اعتقد ان هذا صحيح. وعل العموم فهو لا ينفعنا عمليا، ولكن نفسيا...

– ليس لدينا الآن وقت للقضايا النفسية يا سرغى – قال سربيلين بلجاجة – وما دام كل شىء واضحا فالوقت ثمين. انا ذاهب، انتظرك عند زايتشيكوف.

المسافة بين مخبأ شماكوف ومخبأ زايتشيكوف اقل من مائة خطوة.

– أيها الرفيق قائد اللواء – قال سينتسوف على عجل خشية ان لا يكفيه الوقت للسؤال: – هل تعتقد بانه لم يكذب بخصوص بريست؟

كان سربيلين مستعجلا جدا، غير ان سؤال سينتسوف اغاظه وحمله على التوقف.

– اعتقد بان تلك حقيقة لا جدال فيها! – اجاب بحدة – ولكن لماذا تشك بها انت؟ فاذا كنت تتصور باننا الوحيدون هنا الذين لا يحبون رفع الايدى بالاستسلام فان تصورك هذا احمق!

بعد هذا الجواب الخشن سارا صامتين زهاء اربعين خطوة. وقال سربيلين اخيرا مبددا الصمت الذى اثقل عل سينتسوف:

– انت انسان متعلم. ولكن، عل ما اعتقد، ليس بصورة كاملة. عندما نبدأ محاولتنا للخروج من الحصار يتعين اجراء جرد يومى صارم للناس، صادرة وواردة. وعل العموم ستبقى معى.

«اذن سنحاول الخروج من الحصار!» – فكر سينتسوف واسف لان سربيلين قرر ان يأخذه للعمل معه. فخلال اليومين الفائتين تعود عل فكرة القتال حتى النهاية الى جانب خوريشيف ورجال سريته.

– سنتحرك بعد ساعة – قال سربيلين عندما دخل المخبأ مع سينتسوف.

– انت ستتحرك – قال زايتشيكوف – اما انا فلست صالحا للنقل، سأثقل عليك... – وشد بشكل ضعيف قبضته المسددة على معطفه.

– لا بأس، اذا بقينا على قيد الحياة ستتحمل... فانت واحد ونحن ستمائة.

– هل تأكد انكم ستمائة؟

– بل واكثر بقليل – قال سربيلين واضاف: – اذا غرزنا قبضتنا بصورة موفقة فسوف نخترق الحصار. قبضتنا قوية.

فقال زايتشيكوف:

– لا داعى للتسويف. اجلس، يا سربيلين، وحرر امر تعيينك قائدا للفرقة. لا فرق فيما اذا كنتم ستتحملوننى ام لا، ولكننى لم اعد صالحا للقيادة.

هز سربيلين كتفيه.

– حسب امرك.

لم يكن راغبا فى الاعتراض لانه يعتقد ان زايتشيكوف على حق. لقد حان الوقت لذلك. فقال زايتشيكوف:

– لا سيما واننا قد نصادف بعد اختراق الحصار اناسا من الوحدات الاخرى التابعة للفرقة. اما فى الحصار فمن اللازم وجود يد قوية. انها ضرورية اكثر من اى وقت آخر.

اومأ سربيلين برأسه صامتا. وهو يعتقد ان ذلك صحيح ايضا.

– اجلس وحرر الامر – قال سربيلين مخاطبا سينتسوف بضمير المفرد من جديد وكأنه يريد انهاء الحوار الذى كان بينهما قبل قليل. ولم يكن سربيلين راغبا فى كتابة امر تعيينه بخط يده.

جلس سينتسوف عند الطاولة وسأل:

– كيف احرره؟

– بكل بساطة – قال زايتشيكوف وقد صرت اسنانه بسبب الالم.

– اننى اسأل لانه ليس لدى غير قلم الرصاص – قال سينتسوف وقد اخرج قلم الرصاص من جيب قمصلته وتطلع اليه بارتياب، فالقلم مكسور الفحمة. قدم له سربيلين سكينا فراح سينتسوف يبرى القلم، بينما ظل زايتشيكوف يتطلع الى السقف صامتا. وحالما اعد سينتسوف القلم بدأ زايتشيكوف يملى عليه:

– «امر رقم... – وراح طوال دقيقة تقريبا يتذكر بجبهة متغضنة رقم آخر امر اصدره على صعيد الفرقة، وعندما تذكره قال: – ...رقم ١١. بسبب اصابتى بجرح اكلف آمر فوج المشاة الـ ٥٢٦ قائد اللواء سربيلين باستلام قيادة جميع وحدات الفرقة المعهودة الى» – ظل سينتسوف ينتظر استمرار زايتشيكوف بالاملاء، ولكن زايتشيكوف قال: هذا كل شىء – ومسح بيده جبينه البليل بسبب الضعف والقى برأسه على الوسادة – فلاوقع. كلا، تمهل. فى محفظتى قلم احمر – احضره!

رفع سينتسوف من جدار المخبأ محفظة زايتشكوف المعلقة على مسمار واخرج منها قلما احمر مدبب الفحمة ووضع ورقة الامر على المحفظة واقترب من زايتشيكوف الذى نهض قليلا على كوعه وامسك بالقلم باصابعه الضعيفة وراح يوقع. وعلى الحرف الثانى من اسم عائلته ارتعش القلم وانكسرت فحمته وتركت على الورق خطا لا لزوم له.

– يا الشيطان! – قال زايتشيكوف – ابر القلم!

اخذ سينتسوف سكين سربيلين من جديد وبرى القلم فامسك به زايتشيكوف بجهد ملحوظ وراح يكمل التوقيع بعناية، ثم سجل التاريخ.

– خذ، يا سربيلين.

قرأ سربيلين الامر وطواه وخبأه فى جيب قمصلته.

عندما توجه الى الجبهة لقيادة فوج كان واثقا من انه سيحين الوقت الذى تعود فيه الامور الى نصابها نهائيا ويطلب منه ان يسلم الفوج ويتسلم فرقة. ولكن من الذى يتوقع انه سيضطر الى استلام هذه الفرقة بالذات وفى مثل هذه الظروف؟!

– هل تسمح لى بالانصراف للاستعداد لاختراق الحصار؟ – قال سربيلين رافعا يده بالتحية. قال ذلك لزايتشيكوف ليس حسب العادة، بل لانه اراد ان يقول على هذا النحو بالذات الآن وللمرة الاخيرة.

وقد فهمه زايتشيكوف تماما، وبدلا من الجواب مد له يده الضعيفة البليلة ممتنا. شد سربيلين على يده بحرارة وخرج من المخبأ.

ومن خارج المخبأ دوى صوته الجهورى آمرا:

– قادة السرايا جاهزون؟ فليأتوا جميعا الى!

الفصل السادس

كان الصباح مشمسا منيرا. سار المائة والخمسون شخصا، البقية الباقية من فوج سربيلين، عبر الغابات الكثيفة على الضفة اليسرى من الدنيبر، مسرعين في الابتعاد عن مكان العبور. وكان واحد من كل ثلاثة منهم مصابا بجراح طفيفة. وبين الجرحى خمسة جروحهم ثخينة وقد امكن بمعجزة نقلهم الى الضفة اليسرى من النهر، حيث تناوب على حملهم بالنقالات عشرون من اقوى المحاربين الذين خصصهم سربيلين لهذا الغرض.

كما حملوا زايتشيكوف المحتضر الذي يغمى عليه تارة ويستفيق تارة اخرى فيتطلع الى السماء الزرقاء والى قنن الصنوبر والبتولا المتمايلة فوق رأسه. افكاره مشوشة. وقد خيل اليه ان كل شيء يهتز اهتزازا: ظهور المقاتلين الذين يحملونه تهتز، والاشجار تهتز، السماء تهتز. كان ينصت بصعوبة الى السكون فيسمع فيه تارة اصداء القتال، ولا يسمع فيه شيئا تارة اخرى، فيعود اليه الوعي ويخيل اليه انه اصيب بالصمم. وفي واقع الامر كان ذلك مجرد سكون فعلي لا اكثر.

الهدوء يعم الغابة. لا شيء غير صرير الاشجار بفعل الريح واصوت خطى المقاتلين المتعبين، وطقطقة قدورهم في بعض الاحيان. بدا السكون غريبا ليس فقط لزايتشيكوف المحتضر، بل وللآخرين ايضا. فقد نسوا الهدوء حتى صاروا يرون فيه خطرا. وكان البخار لا يزال يتصاعد من البسة الجنود السائرين ويحوم فوق الرتل مذكرا اياه بجحيم العبور.

سار سربيلين في مقدمة الرتل بعد ان بعث الدوريات الى الامام والى الجانبين وترك شماكوف مع فريق حماية المؤخرة. كان يجرجر قدميه بصعوبة، ومع ذلك خيل السائرين خلفه بانه يسير بخطى خفيفة سريعة وبثقة انسان يعرف الى اين يسير، انسان مستعد للسير على هذا المنوال اياما عديدة متواصلة.

لم يكن ذلك السير سهلا على سربيلين. فهو كهل نهشته قساوة الحياة وارهقته الايام الاخيرة من المعارك الطاحنة، بيد انه يعرف ان كل الامور، حتى اصغرها، مهمة وملحوظة من إلآن فصاعدا، في ظروف الحصار. حتى مشيته هذه في مقدمة الرتل مهمة وملحوظة.

سار سينتسوف وراء سربيلين مندهشا لخفة وسرعة خطاه. وكان ينقل البندقية الرشاشة من كتفه اليسرى الى كتفه اليمنى وبالعكس. فقد آلم التعب ظهره ورقبته وكتفيه وكل ما يمكن ان يتأثر بالالم.

ما اروع الغابة المشمسة في تموز! تفوح فيها رائحة الصمغ والطحلب الدافئ. وتتسرب اشعة الشمس من الاغصان المهتزة فترتعش على الارض بقعا دافئة صفراء. ووسط اوراق الموسم المنصرم الابرية اخضرت نبتات الفراولة البرية المنتشرة كقطرات مرحة حمراء. وكان الجنود ينحنون لالتقاطها بين الفينة والفينة. ورغم الاجهاد كان سينتسوف يسير ممتعا انظاره بجمال الغابة. وراح يفكر «لا نزال احياء، مع ذلك لا نزال احياء!».

امره سربيلين قبل ثلاث ساعات بان يسجل قائمة باسماء جميع الذين تمكنوا من عبور النهر. وقد سجل تلك القائمة، وهو يعلم ان عدد الباقين على قيد الحياة مائة وثمانية واربعون. لقد هلك في المعركة او غرق ثلاثة ارباع الذين قاموا ليلا باختراق طوق الحصار. مات ثلاثة من كل اربعة، وظل على قيد الحياة رابعهم فقط. وهو، سينتسوف، ايضا رابع اربعة.

وكانت السعادة، كل السعادة، تتلخص في السير على هذا المنوال عبر هذه الغابة حتى المساء دون الالتقاء بالالمان، ومن ثم الوصول مباشرة الى قواتنا. فلماذا لا يتحقق ذلك يا ترى؟ فالالمان، في آخر المطاف، ليسوا متواجدين في كل مكان. ثم ان قواتنا ربما لم تنسحب مسافة بعيدة جدا!

– ماذا تعتقد ايها الرفيق قائد اللواء، هل سنصل اليوم الى قواتنا؟

– لا ادري متى سنصل، – اجاب سربيلين سائرا في شبه التفاتة – ولكنني اعرف باننا سنصل في وقت ما. والحمد لله على ذلك!

بدأ كلامه جادا، وانهاه بسخرية متجهمة. كانت افكاره على طرفي نقيض مع افكار سينتسوف. فالخارطة تدل على امكانية السير عشرين كيلومترا اخرى، في اكبر تقدير، عبر الغابة الكثيفة مع تحاشي الظهور على الطريق العام. وكان سربيلين يأمل في اجتياز هذه المسافة قبل حلول المساء. ولكن مواصلة السير نحو الشرق تتطلب من كل بد عبور الطريق العام هنا او هناك، وذلك يعني الالتقاء مع الالمان. وان التغلغل من جديد في اعماق الغابات المرسومة

بخط اخضر على الخارطة فى الطرف الثانى للطريق العام بدون لقاء الالمان انما يعنى توفيقا مدهشا للغاية. ولم يكن سربيلين يصدق باحتمال هذا التوفيق، وذلك يعنى انه يتعين عليهم خوض المعركة من جديد اثناء الخروج الى الطريق العام ليلا. كان يسير ويفكر بهذه المعركة المتوقعة، كان يسير ويفكر وسط الهدوء وخضرة الغابة التى جعلت مزاج سينتسوف يتحسن يطمئن.

– اين قائد اللواء؟ ايها الرفيق قائد اللواء! – صاح جندى من الدورية الامامية بصوت مرح عندما رأى سربيلين وهرع اليه – بعثنى الملازم خوريشيف! قابلنا افراد قواتنا، من الفوج ٥٢٧.

– عجيب! – اجاب سربيلين مسرورا – اين هم؟

– هناك! – اومأ الجندى باصبعه الى الامام حيث لاحت بين الاشجار الكثيفة اشباح عسكريين قادمين.

نسى سربيلين تعبه فعجل فى خطاه.

كان جنود من الفوج ٥٢٧ يسيرون وعلى رأسهم قائدان – كابتن وملازم ثان. كلهم يرتدون البزات العسكرية ويحملون السلاح. وكان اثنان منهم يحملان رشاشين يدويين.

توقف الكابتن الاجعد بسدارته المائلة وقال بحماس:

– مرحبا ايها الرفيق قائد اللواء!

تذكر سربيلين انه رآه ذات مرة فى مقر اركان الفرقة. وهو، على ما يظن، ممثل شعبة المهمات الخاصة.

– مرحبا، يا عزيزى! – قال سربيلين – اهنئك بالوصول الى الفرقة، واهنئ الجميع بشخصك! – عانقه وقبله قبلة حارة.

– حضرنا، ايها الرفيق قائد اللواء. قال الكابتن متأثرا بهذا الاستقبال الذى لا تسمح به الانظمة العسكرية – يقال ان قائد الفرقة معكم هنا، اليس كذلك؟

– معنا – قال سربيلين. حملنا قائد الفرقة، الا انه ... قطع كلامه دون ان يكمل: – سنذهب اليه الآن.

توقف الرتل، وراح الجميع يتطلعون بفرح الى القادمين. كان عددهم قليلا. ولكن الجميع اعتبروا ذلك مجرد بداية. وقال سربيلين لسينتسوف:

– واصلوا السير الى مكان التوقف المقرر – وتطلع الى ساعته اليدوية الكبيرة – لا تزال هناك عشرون دقيقة.

واصل الرتل سيره على مضض، بينما اشار سربيلين الى الكابتن والملازم الثانى وجميع الجنود الذين جاءوا معهما للحاق به وسار ببطء لملاقاة الرتل.

وكانوا يحملون الجرحى فى الوسط. ثم قال سربيلين بهدوء للجنود الذين يحملون زايتشيكوف: – ضعوه.

وضع الجنود النقالة على الارض. وكان زايتشيكوف راقدا مغلق العينين دون حراك. وزالت مسحة الفرح من على وجه الكابتن. كان خوريشيف قد اخبره حالما التقى به ان قائد الفرقة جريح، ولكن مظهر زايتشيكوف اثار دهشته. كان وجه قائد الفرقة فى السابق مكتنزا اسمر، اما الآن فهو نحيل شاحب كوجوه الاموات. وغدا انفه مدببا كانف الميت. وتركت الاسنان آثارا سوداء على الشفة السفلى الشاحبة. وفوق المعطف امتدت يده الضعيفة الجامدة البيضاء. كان قائد الفرقة يحتضر، وقد فهم الكابتن هذه الحقيقة حالما رآه.

لوى سربيلين رجليه المتخدرتين من التعب وركع بصعوبة على احدى ركبتيه قرب النقالة وخاطب زايتشيكوف الذى حرك يده على المعطف فى البداية ثم عض على شفته وبعد ذلك فتح عينيه. فقال له سربيلين:

– وجدنا بعض جنودنا من الفيلق ٥٢٧!

– ايها الرفيق قائد الفرقة! انا سيتين ممثل شعبة المهمات الخاصة وصلت تحت تصرفكم. واحضرت معى مفرزة من تسعة عشر شخصا.

تطلع زايتشيكوف صامتا بنظرة صعدت من الاسفل الى الاعلى وانبعثت من اصابعه البيضاء المستقرة على المعطف حركة ضعيفة قصيرة. وقال سربيلين الكابتن:

– اقترب فهو يدعوك.

وعند ذلك ركع الكابتن على احدى ركبتيه مثل سربيلين، فاطلق زايتشيكوف شفته التى كان يعض على طرفها وهمس له بشىء لم يسمعه ذلك فى الحال. وادرك زايتشيكوف من نظرته بانه لم يسمع ما قال فكرر القول مرة اخرى بصعوبة:

– الرفيق سربيلين تسلم قيادة الفرقة، فقدم له تقريرك.

– اسمحا لى بالكلام – قال الكابتن دون ان ينهض مخاطبا هذه المرة زايتشيكوف وسربيلين معا – احضرنا معنا راية الفرقة.

اهتزت احدى وجنتى زايتشيكوف بفتور. اراد ان يبتسم فلم يتمكن.

– اين هى؟ – همس بشفتيه، ولكن همسه لم يكن مسموعا، فطلب بنظرة من عينيه «ارنيها!» – وادرك الجميع طلبه.

فقال الكابتن:

– النقيب كوفالتشوف هو الذى حملها على بدنه . ايها النقيب قدم الراية .

الا ان كوفالتشوك راح اصلا، وبدون انتظار الاوامر، يفتح حزامه فالقى به على الارض ورفع قمصلته الى اعلى وفتح قماش الراية الملفوف على بدنه العارى . وبعد ان فتحها امسك باطرافها حتى يتمكن قائد الفرقة من رؤية الراية كلها – مدعوكة ومشبعة بعرق الجنود، ولكنها سالمة بكلماتها المعروفة جيدا والمطرزة بالذهب على حرير احمر: «فرقة المشاة الـ١٧٦ الحائزة على وسام الراية الحمراء للجيش العمالى الفلاحى الاحمر» .

نظر زايتشيكوف الى الراية وبكى . بكى كما يبكى انسان محتضر خارت قواه . بكى بهدوء دون ان تتحرك عضلة على وجهه . وانسابت الدموع ببطء الواحدة تلو الاخرى من كلتا عينيه . وبكى كوفالتشوك الفارع القامة الذى امسك بالراية بكلتا يديه القويتين الطويلتين وهو يتطلع من فوق الراية الى وجه قائد الفرقة الراقد على الارض، بكى كما يبكى رجل قوى جبار هزه ما حدث – تشنجت حنجرته بالعبرات وراحت كتفاه ويداه الكبيرتان الممسكتان بالراية ترتعش من النحيب . اغلق زايتشيكوف عينيه، وبدرت عن بدنه ارتعاشة جعلت سربيلين يلتقط يده مرتعبا .

- كلا، لم يقض نحبه . فقد ظل النبض يدق ضعيفا . لقد اغمى عليه من جديد كما اغمى عليه مرارا هذا الصباح . فقال سربيلين بهدوء الى الجنود الذين كانوا يتطلعون فى وجه زايتشيكوف صامتين: – احملوه وسيروا .

انحنى الجنود على النقالة ورفعوها برفق وواصلوا السير .

وقال سربيلين لكوفالتشوك الذى ظل واقفا والراية بين يديه :

– لف الراية على بدنك من جديد . فما دمت قد حملتها فواصل ذلك .

طوى كوفالتشوك الراية باعتناء ولفها على بدنه وخفض قمصلته ورفع الحزام من الارض وارتداه .

– ايها الرفيق الملازم الثانى انضم مع جنودك الى آخر الرتل – قال سربيلين للملازم الذى كان قبل دقيقة يبكى هو الآخر، وظل الآن واقفا مرتبكا على مقربة منه . عندما مر آخر الرتل قربهم امسك سربيلين بيد الكابتن وسار الى جنبه تاركا بينهما وبين آخر جنود الرتل زهاء عشر خطوات .

– خبرنى الآن بما تعرف وما رأيته .

اخذ الكابتن يتحدث عن المعركة الليلية الاخيرة . عندما صمم رئيس اركان الفرقة يوشكيفيتش وقائد الفوج ٥٢٧ يرشوف اختراق الحصار ليلا نحو الشرق نشبت معركة ضارية . وجرى الاختراق بمجموعتين على امل الالتقاء

فيما بعد، ولكن المجموعتين لم تلتقيا . قضى يوشكيفيتش نحبه على مرأى من الكابتن بعد ان اصطدم بالمشاة الالمان . ولا يعرف الكابتن ما اذا كان يرشوف الذى قاد المجموعة الثانية لا يزال حيا ام لا والى اين وصل اذا كان لا يزال على قيد الحياة . وعند الفجر اخترق الكابتن الحصار ووصل الى الغابة ومعه ١٢ مقاتلا، ثم صادف ستة آخرين وعلى رأسهم الملازم الثانى . هذا كل ما كان يعرفه .

– عظيم، انكم تستحقون الثناء! – قال سربيلين – لقد حفظتم راية الفرقة . من الذى اهتم بذلك ؟ انت؟

– انا

– عظيم – كرر سربيلين – لقد افرحت قائد الفرقة قبيل الوفاة!

– هل سيموت؟ – سأل الكابتن .

– الم تر بنفسك؟ – سأله سربيلين بدوره – ولذلك بالذات تسلمت منه القيادة . فلنسرع، ولنلحق بمقدمة الرتل . هل تستطيع انت ان تسرع ام انك متعب جدا؟

– استطيع – قال الكابتن باسما – فانا شاب .

– من اى مواليد؟

– ١٩١٦ .

– ٢٥ عاما فقط – صفر سربيلين مندهشا – ما اسرع ما يمنحونكم الرتب!

عند الظهر، وحالما توقف الرتل للاستراحة الاولى الكبيرة جرى لقاء آخر افرح سربيلين . فان خوريشيف الحاد البصر الذى لا يزال يسير فى الدورية الامامية شاهد جماعة من الناس منزوية بين شجيرات كثيفة . كان ستة اشخاص نائمين على الارض، واثنان يحرسانهم . الاثنان جندى يحمل بندقية رشاشة المانية وطبيبة عسكرية جالسة بين الشجيرات وعلى ركبتها مسدس . ولكنهما يحرسان على نحو سيىء . فاراد خوريشيف ان يمزح قليلا . قفز من الشجيرات امامهما مباشرة وصاح: «يدين رفع!» وكاد يحصل مقابل ذلك على صلية من بندقية رشاشة، واتضح ان هؤلاء الاشخاص من فرقتهم ايضا، من وحدات المؤخرة . وكان احد النائمين مدير مستودع المؤنة، وقد قاد مجموعة مكونة من ستة من عمال المستودع والسائسين والطبيبة التى باتت ليلتها بالصدفة آنذاك فى بيت مجاور .

عندما احضروهم جميعا الى سربيلين افاد مدير المستودع، وهو كهل اصلع جند اثر بداية الحرب، ان الدبابات الالمانية مع قوات انزال على دروعها

اقتحمت قبل ثلاث ليال القرية التى كانوا مرابطين فيها . وقد تمكنوا من الخروج من القرية الى البساتين وراء البيوت . لم تكن لدى الجميع بنادق ولكنهم لم يرغبوا فى الاستسلام للالمان ، وقد اخذ هو على عاتقه مهمة ايصال رفاقه الى قواتنا عبر الغابات . فهو من ابناء سيبيريا ، وكان من الانصار الحمر فى الماضى . وقال :

— ها قد وصلت بهم . صحيح اننى لم اصل بهم جميعا . فقد فقدت ١١ شخصا ، اذ اصطدمنا بدورية المانية ، ولكننا قتلنا اربعة فاشيين واستولينا على سلاحهم . وقد اطلقت النار هى على احد الالمان من المسدس — اوما الى الطبيبة .

كانت الطبيبة شابة صغيرة البدن حتى يخيل للمرء انها لا تزال صبية . كان سربيلين وسينتسوف الواقف قربه ، بل وجميع الحاضرين يتطلعون اليها بدهشة ورقة . واشتدت دهشتهم ورقة قلوبهم عندما بدأت تتحدث عن نفسها ردا على اسئلتهم وهى تملك قطعة من الخبز .

تحدثت عن كل ما جرى لها وكأنه سلسلة من الاشياء التى هى بحاجة ماسة الى القيام بكل منها . ذكرت لهم كيف تخرجت من معهد طب الاسنان . وعندما بدأ الجيش بقبول عضوات اتحاد الشبيبة (الكومسومول) التحقت به بالطبع . وبعد ذلك اتضح انه ما من احد يريد علاج اسنانه عندها ابان الحرب ، وعند ذلك تحولت من طبيبة اسنان الى ممرضة ، لانه لا بد من القيام بعمل ما ! وعندما قتل الطبيب اثناء غارة جوية صارت هى طبيبة لانه لا بد من ان يحل احد محل الطبيب ، وتوجهت بنفسها الى المؤخرة لاحضار المواد الطبية لانه لا بد من احضارها لاجل الفوج . وعندما اجتاح الالمان القرية التى باتت فيها غادرت القرية بالطبع مع الجميع لانه لا بد لها من ان تغادرها ، فهل يمكنها ان تبقى مع الالمان ؟ وفيما بعد ، عندما اصطدموا بالدورية الالمانية وبدأ تبادل اطلاق النار اصيب احد الجنود امامها وراح يئن بشدة ، فزحفت لتضميد جرحه ، وفجأة قفز امامها المانى ضخم الجثة فسحبت المسدس وقتلته . كان المسدس ثقيلا فاضطرت الى اطلاق النار وهى تمسك به بكلتا يديها .

ذكرت ذلك كله بسرعة وبلهجة طفولية متلاحقة ، ثم اجهزت على قطعة الخبز وجلست على قرمة وراحت تبحث عن شىء فى الحقيبة الصحية . فى البداية اخرجت بضع رزم تضميدية صغيرة ، ثم محفظة تجميل سوداء صقيلة . ورأى سينتسوف الفارع القامة فى هذه المحفظة علبة بودرة واحمر شفاه جعله الغبار اسود اللون . دست احمر الشفاه وعلبة البودرة تحت الاشياء الاخرى

فى المحفظة كيلا يراها الآخرون واخرجت مرآة صغيرة وخلعت السدارة وراحت تمشط شعرها الطفولى الرقيق كالزغب .

وبعد ان مشطت الطبيبة الصغيرة شعرها والقت نظرة على الرجال المحيطين بها وانسلت على نحو غير ملحوظ واختفت فى الغابة قال سربيلين :

— امرأة مدهشة !

ثم كرر هذا القول وطبطب على كتف شماكوف الذى كان قد لحق بالرتل وجلس قرب سربيلين اثناء الاستراحة . واضاف قائلا :

— امرأة مدهشة ! من العيب على الانسان ان يجبن قربها ! — وانطبعت على وجهه ابتسامة عريضة فلمعت اسنانه الفولاذية ومال الى الوراء واغلق عينيه غفقا فى الحال .

جلس سينتسوف القرفصاء ولامس ظهره جذع صنوبرة فتطلع الى سربيلين وتثاءب بارتياح ثم سأله شماكوف :

— هل انت متزوج ؟

هز سينتسوف رأسه ايجابا وحاول ان يبعد النعاس فراح يتصور ما كان ستصير اليه الامور لو اصرت ماشا آنذاك ، فى موسكو ، على نيتها فى السفر معه الى الجبهة ولو تمكنا من ذلك ... ها هما ينزلان من القطار معا فى بوريسوف ... وماذا بعد ؟ من الصعب حتى تصور ما حدث فيما بعد ... ومع ذلك فهو يعرف فى قرارة نفسه ان الحق كان معها وليس معه فى يوم الوداع المرير آنذاك .

ان قوة الغضب الذى يحمله على الالمان بعد كل ما عاناه قد محت كثيرا من الحدود التى كانت قائمة فى وعيه فيما مضى . فلم يعد يفكر بالمستقبل دون ان يفكر بضرورة ابادة الفاشيين . فلماذا يا ترى ، لم تتمكن ماشا من الاحساس بما يحس به هو ؟ ولماذا اراد ان ينتزع منها ذلك الحق الذى لن يسمح هو لاحد بانتزاعه منه ، ذلك الحق الذى لن يستطيع احد ان ينتزعه من هذه الطبيبة الصغيرة مثلا !

وقطع شماكوف حبل افكاره :

— هل لديك اطفال ؟

كان سينتسوف طوال الوقت ، طوال هذا الشهر يقنع نفسه بعناد ، كلما انهالت عليه الذكريات ، بان كل شىء على ما يرام وان ابنته فى موسكو من زمان . فاوضح لشماكوف بايجاز ما حدث لاسرته . ولكنه كلما استمر على حمل نفسه بتصديق ما تصوره ضعف ايمانه بصدقه .

تطلع شماكوف الى وجهه وادرك بانه كان من الافضل لو لم يوجه اليه هذا السؤال. فقال له:

— حسنا، نم. ففترة الاستراحة قصيرة، ولن يتسع الوقت لترى شيئا في المنام!

«عن اى منام يتحدث؟!» — فكر سينتسوف حانقا، ولكنه لم يصبر دقيقة واحدة بعينين مفتحتين، فخار رأسه وهوى على ركبتيه. ارتعش وفتح عينيه من جديد واراد ان يقول شيئا لشماكوف. وبدلا من ذلك خر رأسه على صدره وغط في نوم عميق.

تطلع اليه شماكوف بحسد، وخلع نظارته واخذ يمسح عينيه بسبابته وابهامه. عيناه تؤلمانه من الارق، وخيل اليه ان ضوء النهار ينفذهما حتى عبر الجفون المغلقة، في حين لا يعرف النعاس طريقته اليهما.

خلال الايام الثلاثة الأخيرة رأى شماكوف عددا كبيرا جدا من القتلى بعمر ابنه القتيل، حتى ان الاسى الأبوى الذى دفنه بقوة ارادته الصلبة في اعمق اعماق الفؤاد قد انبجس من تلك الاعماق وطفا على السطح وتحول الى شعور تجاوز ابنه وشمل اولئك الذين قتلوا على مرأى منه وحتى اولئك الذين لم يشهد موتهم بل سمع عنه مجرد سماع. ونما هذا الشعور وكبر حتى انقلب الاسى الى غضب شديد. واخذ هذا الغضب بخناق شماكوف الآن. كان جالسا يفكر بالفاشيين الذين داسوا الى حد الموت، في كل مكان، في كل دروب الحرب، آلافا مؤلفة من الشباب الذين ولدوا، مثل ابنه، مع ميلاد ثورة اكتوبر، واباد وهم الواحد تلو الاخر، حياة بعد حياة. انه الآن يحقد على هؤلاء الالمان مثلما كان يحقد على افراد الحرس الابيض في الحرب الاهلية. وهو لا يعرف حقدا اشد من ذلك، وربما لا يوجد في الطبيعة حقد اشد منه.

بالامس كان بحاجة الى بذل جهود نفسانية كبيرة لكي يصدر امره باعدام الطيار الالماني. ولكنه اليوم، بعد مشاهد العبور التى تحز في الفؤاد، وبعد ان راح الفاشيون، كالقصابين، يحصدون بالبنادق الرشاشة في مياه النهر رؤوس الجنود الجرحى وهم يقاومون الغرق انقلب في داخله شيء لم يكن يريد ان ينقلب نهائيا حتى هذه اللحظة الاخيرة، فقطع على نفسه عهدا، دون تبصر، بان لا يرحم في المستقبل هؤلاء القتلة ابدا، مهما كانت الظروف والملابسات، لا في الحرب ولا بعدها! ولعل وجهه الآن، وهو يفكر في ذلك، لعل وجه الانسان المثقف الكهل الهادئ، عادة والطيب

بطبيعته، قد اكتسى في هذه اللحظة بتعبير غير معتاد اطلاقا، حتى ان سربيلين ناداه فجأة:

— يا سرغي، ماذا بك؟ هل حدث شيء؟

كان سربيلين راقدا على العشب وقد فتح عينين واسعتين وراح يتطلع اليه.

— لا شيء اطلاقا — ارتدى شماكوف نظارته فاكتسب وجهه مظهره المعتاد.

— اذا لم يحدث شيء، فقل كم الساعة؟ الم يحن الوقت؟ فليست لدينا رغبة في تحريك الاطراف عبثا — قال سربيلين مازحا.

تطلع شماكوف الى ساعته وقال ان فترة الاستراحة ستنتهي بعد سبع دقائق.

— اذن فلانم لحظة اخرى — واغلق سربيلين عينيه.

بعد استراحة لمدة ساعة، وهى الفترة التى لم يوافق سربيلين على اطالتها ولو لدقيقة واحدة رغم تعب الرجال، تحركوا من جديد مستديرين بالتدريج نحو الجنوب الشرقي.

وحتى حلول استراحة المساء انضم الى الفصيل ثلاثون شخصا من الهائمين في الغابات. ولم يكن بينهم احد من افراد فرقتهم. كان الثلاثون شخصا الذين صادفوهم بعد الاستراحة الأولى من افراد الفرقة المجاورة المرابطة الى الجنوب على الضفة اليسرى من نهر الدنيبر. وكانوا ينتمون الى افواج وكتائب مختلفة والى وحدات المؤخرة. ومع ان بينهم ثلاثة ملازمين ومرشدا سياسيا اقدم فان احدا لم يكن يعرف اين مقر اركان الفرقة ولا حتى الاتجاه الذى انسحبت فيه الاركان. ولكن امكن من الاقوال غير المترابطة والمتناقضة في الغالب تصور اللوحة العامة الكارثة.

تشير اسماء الاماكن المحاصرة التى جاء منها المقاتلون الى ان الفرقة قبل بدء الهجوم الألماني الشامل كانت ممتدة بشكل سلسلة على مسافة ثلاثين كيلومترا في مقدمتها. وفضلا عن ذلك لم يتسن لها الوقت الكافي او لم تتمكن من تعزيز مواقعها بالشكل اللازم. قصفها الالمان طوال عشرين ساعة بلا انقطاع، وبعد ذلك القوا في مؤخرتها عدة وجبات من قوات الانزال واخلوا بالادارة والاتصال وبدأوا في الوقت ذاته عبور نهر الدنيبر في ثلاثة اماكن دفعة واحدة تحت تغطية من سلاح الجو. انكمشت وحدات الفرقة وفرت من بعض المواقع وقاتلت قتالا ضاريا في بعضها الآخر، ولكن ذلك لم يغير من سير الامور عموما.

كان افراد هذه الفرقة يسيرون بجماعات صغيرة، بنفرين او ثلاثة. وكان بعضهم يحمل السلاح والبعض الآخر اعزل. وبعد ان تحدث سربيلين

معهم ضمهم الى رتله وخلطهم مع جنوده. وابقى العزل ضمن الرتل بلا سلاح مشيرا الى انه يتعين عليهم ان يحصلوا على السلاح بانفسهم فى المعركة فليس لدى الفصيل سلاح احتياطى من اجلهم.

تكلم سربيلين معهم بحدة ولكن دون ان يهينهم. غير انه اعترض بغيظ على المرشد السياسى الأقدم الذى برر عدم وجود السلاح لديه بانه حافظ على بزته بالكامل وعلى البطاقة الحزبية فى جيبه. واكد سربيلين ان الشيوعى فى الجبهة يجب ان يصون السلاح مثلما يصون البطاقة الحزبية. وقال:

– انا، ايها الرفيق العزيز، لسنا متوجهين الى الجلجلة، بل نحن نحارب. واذا كان اسهل عليك ان يعدمك الفاشيون من ان تنتزع نجيمات المفوض من ياقتك بنفسك فذلك يعنى انك تحتفظ بضميرك. ولكن ذلك وحده قليل بالنسبة لنا. اننا لا نريد ان يعدمنا الفاشيون، بل نريد ان نعدم الفاشيين. وبدون سلاح لا يمكننا تحقيق ذلك. تلك هى القضية! التحق بالرتل واتوقع انك ستكون اول من يحصل لنفسه على سلاح فى المعركة.

عندما ابتعد المرشد السياسى الاقدم مرتبكا بضع خطوات ناداه سربيلين من جديد وخلع من حزامه احدى القنبلتين اليدويتين وسلمها له قائلا:

– خذها لاجل البداية!

سجل سينتسوف باعتباره مرافقا لسربيلين فى المفكرة اسماء القادمين ورتبهم وارقام وحداتهم، وكان مسرورا بصمت لما يتحلى به سربيلين من صبر وهدوء وهو يتحدث معهم.

من غير الممكن التغلغل فى روح الانسان، الا ان سينتسوف تصور عدة مرات خلال هذه الايام بان سربيلين لا يشعر بالخوف من الموت. ربما ليس الامر كذلك فى الحقيقة والواقع، ولكن القضية بدت على هذا النحو بالذات.

وفى الوقت ذاته لم يتظاهر سربيلين بانه لا يفهم لماذا يخاف الناس ولماذا فروا وتحيروا والقوا بالسلاح. بالعكس، فقد جعلهم يتحسسون بانه يفهم ذلك، ولكنه غرس لديهم باصرار فى الوقت ذاته فكرة تؤكد ان الخوف الذى انتابهم والهزيمة التى لحقت بهم – كل ذلك كان فى الماضى. كان الامر على هذا الحال فى الماضى، ولن يتكرر فى المستقبل. وقد فقدوا سلاحهم، ولكن بوسعهم أن يحصلوا عليه من جديد. ولعل ذلك هو الذى جعلهم، وهم ينصرفون بعد التحدث مع سربيلين، لا يشعرون بالانسحاق حتى

عندما تكلم معهم بحدة. وكان محقا عندما لم يبرئهم من الذنب، ولكنه لم يلق الذنب كله على عاتقهم. وقد شعروا بذلك وارادوا ان يثبتوا بانه على حق.

قبيل الاستراحة المسائية حدث لقاء آخر لا يشبه اللقاءات السابقة. فقد جاء عريف من الدورية الجانبية السائرة فى غمار الغابة ومعه شخصان مسلحان احدهما جندى قصير القامة يرتدى سترة جلدية محكوكة فوق قمصلته ويحمل بندقية على كتفه. والآخر رجل فارع وسيم فى حوالى الاربعين بانف مدبب وشعر اشيب يلوح من تحت السدارة ويضفى على وجهه الحليق الخالى من الغضون مسحة من الفتوة والاهمية والنبل. كان يرتدى بنطال خيالة جيدا وجزمة من جلد فاخر، وعلى كتفه رشاشة جديدة بقرص دائرى، الا ان سدارته كانت قذرة مدهنة، وكانت قذرة ومدهنة ايضا قمصلة الجنود التى لا تناسب بدنه، فهى ضيقة الياقة عليه وقصيرة الردنين.

اقترب العريف من سربيلين وقد شهر بندقيته وهو يلقى نظرة شزراء على الرجلين وقال:

– ايها الرفيق قائد اللواء! اسمح لى بالكلام! احضرت محتجزين. احتجزتهما واحضرتهما تحت الحراسة نظرا لمظهرهما ولانهما لا يكشفان عن هويتهما. وقد رفضا نزع سلاحهما، ولم نكن راغبين فى اطلاق النار فى الغابة دون موجب.

– نائب آمر شعبة العمليات فى هيئة اركان الجيش العقيد بارانوف – قال الرجل الحامل الرشاشة بصوت متقطع منفعل وبشىء من الغيظ وقد رفع يده بالتحية وعدل قامته امام سربيلين وشماكوف الواقف قربه.

– اعتذر – قال العريف الذى جاء بالمحتجزين وقد رفع يده بالتحية هو الآخر بعد ان سمع هذا الكلام. فالتفت اليه سربيلين وقال.

– لماذا تعتذر؟ حسنا فعلت عندما احتجزتهما، وحسنا فعلت عندما احضرتهما الى. واصل عملك على هذا النحو. بوسعك ان تنصرف. ابرز هويتك – التفت سربيلين، بعد ان اطلق العريف، الى المحتجز دون ان يخاطبه برتبته.

ارتعشت شفتا المحتجز وانفرجتا عن ابتسامة مرتبكة. وخيل لسينتسوف ان هذا الشخص ربما كان يعرف سربيلين، ولكنه لم ينتبه الى وجوده الا الآن فدهش اشد الدهشة لهذا اللقاء.

بالفعل. فالشخص الذى قال ان اسمه العقيد بارانوف وهو يحمل هذا الاسم وهذه الرتبة فعلا ويعمل بالمنصب الذى ذكره عندما اقتادوه الى

سربيلين لم يكن يتصور اطلاقا انه يمكن ان يقف امامه سربيلين هنا بالذات، في الغابة، وهو في بزة عسكرية ويحيط به ضباط آخرون. فقد خيل اليه للوهلة الاولى ان قائد اللواء الفارع القامة هذا برشاشته الالمانية على كتفه يشبه لدرجة كبيرة شخصا يعرفه.

– سربيلين! – هتف الرجل ونشر يديه، ولم يكن معروفا ما اذا كان قد فتحهما من شدة دهشته او انه اراد ان يعانق سربيلين.

– نعم، انا قائد اللواء سربيلين – قال سربيلين بصوت متخشب جاف على غير المتوقع – انني قائد الفرقة التي كلفت بقيادتها، ولكن من انت؟ لحد الآن لا ادري من انت؟ ابرز هويتك!

– سربيلين، انا بارانوف، ماذا دهاك؟ هل جننت؟

– ارجوك للمرة الثالثة ان تبرز هويتك – قال سربيلين بنفس الصوت المتخشب.

– ليس عندي هوية – قال بارانوف بعد صمت طويل.

– لماذا؟

– ضيعتها بالصدفة... تركتها في القمصلة التي استبدلتها بهذه... بقمصلة الجنود هذه – لمس بارانوف باصابعه قمصلته المدهنة الضيقة القصيرة.

– تركت هويتك في تلك القمصلة؟ وشارة العقيد هل بقيت على تلك القمصلة؟

– نعم – تنهد بارانوف.

– ما الذي يجعلني اصدق بانك نائب آمر شعبة العمليات في هيئة اركان الجيش العقيد بارانوف؟

– انك تعرفني، خدمنا معا في الاكاديمية! – دمدم بارانوف وقد اسقط في يده.

– لنفترض ان ما تقول صحيح – قال سربيلين دون ان يخفف من القسوة المتخشبة في صوته والتي لم يتعود عليها سينتسوف – ولنفترض ايضا أنك قابلت شخصا غيري فمن سيؤكد شخصيتك ورتبتك ومنصبك يا ترى؟

– سائقي هذا – اشار بارانوف الى الجندي الواقف قربه بسترته الجلدية.

– هل عندك هوية ايها الرفيق المقاتل؟ – التفت سربيلين الى الجندي دون ان ينظر الى بارانوف.

– نعم... – تلعثم الجندي لحظة دون ان يعلم باية صيغة يخاطب سربيلين. – نعم، ايها الرفيق الجنرال! – فتح سترته واخرج من جيب قمصلته هوية

جندي الجيش الاحمر ملفوفة بقطعة قماش وسلمها الى سربيلين الذي قرأها بصوت عال:

– هكذا اذن، «الجندي بيوتر ايليتش زولوتاريف»، الوحدة رقم ٢٢١٤» كل شيء واضح. – اعاد الهوية الجندي – خبرني، ايها الرفيق زولوتاريف، هل تؤكد شخصية ورتبة ومنصب هذا الرجل الذي احتجز معك؟ – اشار سربيلين الى بارانوف باصبعه دون ان يلتفت اليه.

– بالضبط، ايها الرفيق الجنرال، انه فعلا العقيد بارانوف وانا سائقه.

– يعني انك تشهد بان هذا قائدك، أليس كذلك؟

– بالضبط، ايها الرفيق الجنرال.

– كفاك سخرية يا سربيلين! – صاح بارانوف منفعلا.

الا ان سربيلين لم يلتفت الى جهته.

– من حسن الحظ انك، على الاقل، تستطيع ان تؤكد شخصية قائدك، والا فكان من المحتمل ان يعدم رميا بالرصاص، من يدري؟ ليس عنده هوية ولا شارة ياقة. قمصلته غريبة عليه، وجزمته وبنطاله من جزمات وبناطيل الضباط... – بدأ صوت سربيلين يكتسي بمسحة اقسى واشد. وبعد فترة صمت سأل: – ما الذي دعاكما للمجيء الى هنا؟

– ساحدثك الآن عن كل شيء... – هم بارانوف بالكلام، الا ان سربيلين قاطعه وقد التفت اليه نصف التفاتة هذه المرة:

– السؤال ليس موجها اليك. – وخاطب الجندي من جديد: – تكلم...

بدأ الجندي كلامه متلعثما في البداية، ثم بصوت اكثر ثقة وبرغبة في عدم نسيان شيء، فقال انهما وصلا من الجيش قبل ثلاثة ايام وباتا الليل في مقر اركان الفرقة، وفي الصباح توجه العقيد الى الاركان فبدأ القصف الجوي فورا في كل مكان. ووصل سائق من المؤخرة وقال ان انزالا المانيا هبط هناك، وعندما سمع هو بذلك اخرج السيارة من الكراج تحوطا للطوارئ. وبعد ساعة جاء العقيد راكضا وامتدحه لان السيارة جاهزة وصعد اليها على عجل وامر بالعودة الى تشاوسي باسرع ما يمكن. وعندما بلغا الطريق العام سمعا اطلاق النار الشديد وشاهدا الدخان فعادا الى الطريق الترابي وسارا عليه ولكنهما سمعا من جديد اطلاق النار وشاهدا الدبابات الالمانية على مفترق الطرق. وعند ذاك استدارا الى طريق خال يتجه الى الغابة ومنه دخلا الغابة مباشرة وامر العقيد بايقاف السيارة.

كان الجندي وهو يذكر ذلك يختلس النظر احيانا الى آمره وكأنه

يتشد تأكيدا منه، فى حين وقف هذا صامتا مطأطأ الرأس . فقد بدأ اصعب الامور بالنسبة له، وهو يدرك ذلك . وكرر سربيلين كلمات الجندى الاخيرة :

– امر بايقاف السيارة، وماذا بعد؟

– وبعد ذلك امرنى الرفيق العقيد ان استخرج من تحت المقعد قمصلتى وسدارتى العتيقتين، فقد استلمت البسة جديدة مؤخرا واحتفظت بالقمصلة والسدارة القديمتين لاستخدامهما عند الاقتضاء، اذا دعت الحاجة الى اصلاح السيارة من تحت . وخلع الرفيق العقيد قمصلته وطاقيته ولبس قمصلتى وسدارتى وقال بانه يتعين علينا الآن ان نخرج من الحصار سيرا على الاقدام، وامرنى بان اصب البنزين على السيارة واحرقها . ولكننى – تلعثم السائق – ولكننى، ايها الرفيق الجنرال، لم اكن اعرف ان الرفيق العقيد نسى هناك هويته، فى قمصلته، ولو كنت اعرف ذلك لذكرته به طبعا . ولكن كل شىء احترق مع السيارة .

واحس بانه مذنب .

– هل انت سامع ؟ – التفت سربيلين الى بارانوف – سائقك يأسف لانه لم يذكرك بهويتك . – ولاحت فى صوت سربيلين مسحة ساخرة – من الممتع تصور ما كان سيحدث لو انه ذكرك بها . – والتفت من جديد الى السائق : – وماذا بعد؟

– بعد ذلك سرنا يومين متخفيين الى ان صادفناكم ...

– اشكرك ايها الرفيق زولوتاريف – قال له سربيلين – ادرج اسمه فى القائمة يا سينتسوف . الحق بالرتل وانضم اليه . وستقدم لك الارزاق فى الاستراحة .

هم السائق بالانصراف، ولكنه توقف وتطلع الى آمره متسائلا، الا ان هذا ظل كالسابق واقفا مطأطأ الرأس.

– اذهب! – قال سربيلين آمرا – بوسعك ان تنصرف .

انصرف السائق . وحل صمت ثقيل .

– ما حاجتك الى السؤال منه بحضورى؟ كان بوسعك ان تسألنى ولا تشوه سمعتى امام الجندى .

– سألته لانى اثق بكلام جندى يحمل هوية الجيش الاحمر اكثر مما بكلام عقيد استبدل بزته ولا يحمل شارة ياقة ولا هوية – اجاب سربيلين – لقد اتضحت اللوحة امامى على الاقل . لقد وصلت الى الفرقة لتتابع تنفيذ اوامر قائد الجيش أليس كذلك؟

– بلى – اجاب بارانوف وهو يحدق فى الارض .

– وبدلا من ذلك هربت من اول خطر تواجهه! تركت كل شىء وهربت، اليس كذلك؟

– ليس كذلك تماما .

– ليس تماما؟ كيف اذن؟

الا ان بارانوف لاذ بالصمت . فليس لديه ما يرد به رغم شعوره الشديد بالاهانة .

– هل انت سامع يا شماكوف ؟ يقول انى شوهت سمعته امام الجندى – شىء مضحك ! لقد جبن وخلع امام الجندى بزة الآمر والقى بهويته، ويقول انى شوهت سمعته . لست انا الذى شوهت سمعتك امام الجندى ، بل انت الذى شوهت سمعة ضباط الجيش امام الجندى بتصرفك المشين . اذا لم تخنى الذاكرة، اعتقد انك كنت عضوا فى الحزب . فهل احرقت بطاقة العضوية ايضا ؟

– احترق كل شىء – نشر بارانوف يديه .

– تقول انك نسيت جميع الوثائق فى القمصلة بالصدفة اليس كذلك؟ – سأل شماكوف بهدوء وهو يشارك فى الحوار لاول مرة .

– بالصدفة .

– اعتقد انك تكذب . واعتقد بانه لو ذكرك بها سائقك لتخلصت منها مع ذلك فى اول فرصة سانحة .

– لماذا؟ – سأل بارانوف .

– انت اعلم .

– لقد سرت حاملا السلاح .

– اذا كنت احرقت وثائقك دون ان يكون هناك اى خطر فعل فانك ستلقى السلاح عند مقابلتك لاول المانى .

– احتفظ بالسلاح لانه يخشى الذئاب فى الغابة – قال سربيلين .

فصاح بارانوف منفعلا :

– احتفظت بالسلاح ضد الالمان، ضد الالمان!

– لا اصدق – قال سربيلين – كانت لديك، انت آمر الاركان، فرقة كاملة تحت تصرفك ومع ذلك هربت منها، فكيف تتمكن لوحدك من محاربة الالمان ؟

وفجأة قال بارانوف بهدوء :

– لماذا تطيل الكلام يا فيودور؟ فأنا لست صبيا . اننى عارف بعاقبة فعلتى .

الا ان هذا الرضوخ المفاجىء الذى يشبه تصرف شخص بذل كل جهوده توا لتبرير فعلته ولكنه غير رأيه فى الحال وتصور بان من المفيد له ان يتكلم بصورة اخرى قد اثار لدى سربيلين موجة شديدة من الارتياب .

– ماذا انت عارف ؟

– انا عارف بذنبى وسأمحوه بالدم . اعطنى سرية، او على الاقل فصيلة . فقد توجهت على اى حال ليس الى الالمان بل الى قواتنا . فهل تصدق بذلك ؟

–لا ادرى – قال سربيلين – اعتقد انك لم تتوجه الى احد . سرت تبعا للظروف وتحسبا لتقلباتها . . .

– اننى العن اللحظة التى احرقت فيها وثائقى . . . – بدأ بارانوف من جديد الا ان سربيلين قاطعه قائلا :

– اننى اثق بانك آسف الآن انت آسف على تسرعك لانك وصلت الى قواتنا، ولو انك وصلت الى قوات الغير فانا لا ادرى هل كنت متأسف ام لا . ماذا تعتقد ايها المفوض – خاطب سربيلين شماكوف – هل نسلم هذا العقيد السابق سرية ليقودها؟

– كلا – اجاب شماكوف .

– فصيلة؟

– كلا .

– رأيى من رأيك . بعد كل ما حدث افضل ان اكلف سائقك بان يقودك على ان تقوده! – قال سربيلين، وخاطب بارانوف لاول مرة بلهجة اخف بعض الشىء من السابق : – اذهب ، والتحق بالرتل مع رشاشتك الجديدة هذه وحاول، كما قلت، ان تغسل ذنبك بالدماء . . . بدماء الالمان – وبعد لحظة اضاف : وبدمائك اذا اقتضى الامر . السلطة التى نتمتع بها هنا انا والمفوض تجعلنا ننزل رتبتك الى جندى عادى الى ان نصل الى قواتنا الرئيسية . وهناك بوسعك ان توضح تصرفاتك، وبوسعنا ان نوضح تصرفنا .

– هذا كل ما تريد ان تقوله لى؟ – سأل بارانوف وقد رفع بصره وسلطه على سربيلين بحقد .

ارتعش عرق فى وجه سربيلين عندما سمع هذه الكلمات، حتى انه اغلق عينيه لحظة كى يخفى تعبيرهما . واجاب شماكوف بدلا عنه اجابة قاطعة :

– احمد ربك على اننا لم نعدمك رميا بالرصاص لجبنك .

فتح سربيلين عينيه وقال :

– يا سينتسوف، ادرج اسم الجندى بارانوف فى سجل الوحدة . واذهب معه – واومأ الى جهة بارانوف – الى الملازم خوريشيف وقل له ان الجندى بارانوف وضع تحت تصرفه .

– السلطة بيدك يا فيودور، سأنفذ كل شىء، ولكن لا تتوقع بأنى سانسى لك ذلك .

عقد سربيلين يديه وراء ظهره وطقطق بعظام مشطيهما ولاذ بالصمت . فقال سينتسوف لبارانوف : «هيا»، وشرعا باللحاق بالرتل الذى ابتعد فى الامام . القى شماكوف نظرة متفحصة على سربيلين . فقد انفعل لما حدث واحس بان انفعال سربيلين اشد . وواضح ان قائد اللواء تأثر تأثرا عميقا بالسلوك المشين لزميله القديم الذى كانت لديه عنه سابقا، فى اغلب الظن، فكرة اخرى افضل بكثير .

– فيدور !

– ماذا؟ – رد سربيلين وقد ارتعش كما لو استيقظ من النوم توا . فقد غرق فى لجة الافكار ونسى ان شماكوف يسير جنبه .

– لماذا تعكر مزاجك؟ هل خدمتما معا امدا طويلا؟ هل تعرفه جيدا؟

القى سربيلين على شماكوف نظرة مائعة واجاب بلهجة متملصة غريبة عليه، وقد ادهشت تلك اللهجة المفوض :

– وما قيمة معرفتى به ؟! الافضل ان نسرع فى السير حتى مكان الاستراحة!

لاذ شماكوف بالصمت، فهو لا يحب ان يثقل على الآخرين . وغذ كلاهما السير وظلا ماشيين جنبا الى جنب حتى مكان الاستراحة دون ان ينبسا ببنت شفة . فقد انساق كل منهما وراء افكاره .

اخطأ شماكوف فى ظنه . فمع ان بارانوف خدم بالفعل مع سربيلين فى الاكاديمية، الا ان رأى سربيلين به كان اسوأ رأى . فقد اعتبره شخصا وصوليا لديه بعض القابليات ويهتم بالترقية فى الخدمة وليس بمصلحة الجيش . فعندما كان بارانوف مدرسا فى الاكاديمية كان مستعدا لتأييد هذا المبدأ اليوم وذاك المبدأ غدا . وكان مستعدا لنعت الابيض بالاسود والاسود بالابيض فهو يتكيف بمهارة لما قد يعجب كبار المسؤولين حسب رأيه ولا يستنكف حتى عن تأييد الضلالات السافرة المستندة الى الجهل بالوقائع التى يعرفها هو تمام المعرفة .

اعتمد اساسا على التقارير والانباء عن جيوش الاعداء المحتملين،

فكان يبحث عن نقاط الضعف الفعلية والمزعومة ويلزم الصمت، تزلفا، بشأن الجوانب القوية والخطرة لذا العدو المنتظر. ورغم صعوبة الكلام فى هذه المواضيع آنذاك لام سربيلين بارانوف على ذلك مرتين وجها لوجه، والمرة الثالثة على الملأ.

واضطر فيما بعد الى تذكر ذلك فى ملابسات غير متوقعة اطلاقا. الله وحده يعلم مدى الصعوبة التى واجهها سربيلين الآن، اثناء الحوار مع بارانوف، فى حبس افكاره وعدم مواجهته بكل ما اعتمل فى فؤاده.

لم يكن يعرف هل هو على حق ام لا عندما ظن ببارانوف ما ظنه به، ولكنه يعرف جيدا ان الوقت والمكان غير مناسبين اطلاقا الآن للذكريات سواء كانت جيدة او سيئة!

ان اصعب لحظة فى الحديث بينهما هى عندما تطلع بارانوف الى عينيه فجأة بغضب وتساؤل. ولكنه، على ما يبدو، صمد لهذه النظرة أيضا، فانصرف بارانوف بعد ان هدأ بعض الشيء، والدليل على ذلك هو عبارته الوقحة الاخيرة.

لا بأس، فليكن! سربيلين لا يريد ولا يستطيع ان ينتقم شخصيا من الجندى بارانوف الذى يخدم تحت امرته. فاذا قاتل ذاك ببسالة فان سربيلين سيشكره امام الآخرين، واذا قضى نحبه بصورة مشرفة فان سربيلين سيخبر بذلك من يهمه الامر، واذا جبن وهرب فان سربيلين سيأمر باعدامه رميا بالرصاص كما يأمر باعدام اى شخص آخر يقدم على مثل هذا التصرف. كل ذلك فى حدود المعقول والصواب، ولكن ما اثقل الامر على نفس سربيلين!

توقفوا للاستراحة قرب مسكن بشرى صادفهم لاول مرة فى الغابة طوال النهار. فعلى طرف فسحة محروثة بمثابة بستان انتصب منزل قديم يسكنه حارس الغابة. وعلى مقربة منه بئر بعثت السرور فى افئدة المقاتلين الذين ارهقهم الحر.

اوصل سينتسوف بارانوف الى خوريشيف وعرج على المنزل. وجده مكونا من غرفتين، باب الغرفة الثانية مغلق. وتهادى من هناك صوت امرأة تئن وتنتحب. جدران الغرفة الاولى من جذوع الاشجار المغلفة بجرائد عتيقة. وفى الركن الايمن ما يشبه المحراب وقد علقت عليه ايقونات رخيصة بدون اطر معدنية. وعلى مصطبة عريضة جلس مع القائدين اللذين دخلا المنزل قبل سينتسوف شيخ فى الثمانين من العمر بمظهر صارم صامت وهو يرتدى قميصا ابيض نظيفا وسروالا ابيض نظيفا ايضا. وجهه ملئ بالغضون والتجاعيد العميقة كالشقوق وعلى رقبته النحيفة تدلى صليب بسلسلة معدنية محكوكة.

استقبلت سينتسوف عجوز صغيرة نشيطة ربما هى بعمر الشيخ ولكنها بدت اصغر منه سنا بسبب حركاتها السريعة. استقبلته بانحناءة احترام والتقطت من الرف الجدارى المغطى بمنشفة قدحا مضلعا آخر ووضعته على المائدة امام سينتسوف الى جانب القدحين الآخرين وقارورة اللبن. وكانت العجوز قبل دخول سينتسوف تسقى الضابطين اللبن.

سألها سينتسوف عما اذا كان بالامكان الحصول على طعام لقائد الفرقة ومفوضها واضاف بان الخبز موجود لديهما.

– لا شيء غير اللبن – نشرت العجوز يديها متألمة – ويمكننى ان اشعل الفرن واطبخ البطاطس اذا كان لديكم وقت.

لم يكن سينتسوف يعرف هل ان الوقت يكفى لطهى البطاطس ام لا، ولكنه طلب منها ان تطبخها على كل حال.

انهمكت العجوز باعداد الفرن وقالت:

– بقيت لدينا بطاطس قديمة، من العام الماضى...

احتسى سينتسوف قدحا من اللبن، واراد ان يشرب قدحا آخر، ولكنه نظر الى القارورة فرأى فيها اقل من النصف، فشعر بالخجل. انصرف الضابطان اللذان ارادا فى اغلب الظن ان يشربا المزيد من اللبن. وظل سينتسوف مع العجوز والشيخ. وبعد ان اعدت العجوز الحطب فى الفرن دخلت الغرفة الثانية وعادت بعد لحظة ومعها علبة ثقاب. وفى كلتا المرتين عندما فتحت الباب واغلقته انبجست منه موجات البكاء الاليم العالى. فسأل سينتسوف:

– من يبكى هناك؟ ماذا حدث؟

– حفيدتى دونكا. قتل خطيبها. يده معطلة فاعفى من التجنيد. اقتادوا قطيع الكولخوز من نيليدوفو فذهب مع القطيع، وعندما عبروا الطريق العام قصفتهم الطائرات وقتل. انها تنتحب لليوم الثانى – قالت العجوز متأوهة.

اشعلت الحطب ووضعت على النار قدرا فيها بطاطس مغسولة مسبقا، ولعلها غسلتها لعائلتها، ثم جلست قرب الشيخ على المصطبة واستندت بكوعيها على المائدة وسألت بأسى:

– كل عائلتنا فى الجبهة، ابناؤنا هناك واحفادنا هناك. هل سيصل الالمان الى هنا قريبا؟

– لا ادرى.

– جاء البعض من نيليدوفو وقالوا ان الالمان وصلوا الى تشارسى.

– لا ادرى – كان سينتسوف لا يدرى فعلا بماذا يجيب . فقالت العجوز :

– يبدو انهم سيصلون قريبا . فمنذ خمسة ايام يجرى اقتياد القطعان . فليس ذلك عبثا . ونحن ايضا – واشارت بيدها النحيفة الى القارورة – نشرب الحليب آخر مرة . سلمنا البقرة ايضا . فليأخذوها ، وقد يعيدونها ان شاء الله . وقالت جارتنا ان عددا قليلا من الناس بقى فى ڤيليدوفو ، الجميع يتركونها ...

قالت ذلك كله بينما ظل الشيخ صامتا . وطوال الفترة التى قضاها سينتسوف فى المنزل لم يتلفظ الشيخ ولا كلمة واحدة . كان طاعنا فى السن حتى يخيل المرء انه يريد ان يموت الآن دون ان ينتظر دخول الالمان منزله على اثر هؤلاء الاشخاص الذين يرتدون بزات الجيش الاحمر . واستولى على سينتسوف حزن شديد لمظهره وكآبة مؤلمة لسماعه البكاء من وراء الجدران فلم يتحمل وخرج بعد ان قال انه سيعود فى الحال .

وحالما هبط على درجات المدخل رأى سربيلين قادما الى المنزل . فهم بمخاطبته :

– ايها الرفيق قائد اللواء ...

ولكن الطبيبة الصغيرة التى رآها مؤخرا سبقته راكضة الى سربيلين وقالت بانفعال ان العقيد زايتشيكوف طلب حضوره فى الحال . فتبع سربيلين الطبيبة الصغيرة بخطى اثقل من الرصاص ولوح بيده لسينتسوف الذى رجاه ان يدخل المنزل للاستجمام وقال :

– فيما بعد ، اذا بقى لدى وقت .

كان زايتشيكوف راقدا على النقالة فى ظل اشجار البندق الكثيفة . اسقوه ماءا للتو ، وربما تجرعه بصعوبة . فقد تبللت ياقة القميصلة والكتفان .

– انا قربك يا نيكولاى – قال سربيلين وقد جلس على الارض ازاء زايتشيكوف .

فتح زايتشيكوف عينيه ببطء شديد . فحتى هذه الحركة جعلته يبذل جهدا يفوق طاقته .

– اسمع يا فيودور – قال هامسا – اطلق النار على . لم اعد اتحمل هذا العذاب . تفضل على .

– لا استطيع – قال سربيلين بصوت مرتجف .

– اننى لا اتعذب لوحدى ، اننى اثقل عليكم جميعا – تلفظ زايتشيكوف كل كلمة بمنتهى الصعوبة .

– لا استطيع – كرر سربيلين .

– اعطنى مسدسا ، وسأطلق النار بنفسى .

لاذ سربيلين بالصمت .

– تخشى المسؤولية ، أليس كذلك؟

– لا يجوز ان تطلق النار على نفسك – استجمع سربيلين قواه اخيرا واضاف : – ليس لك حق فى ذلك . فسيؤثر تأثيرا سيئا على الآخرين . ولو كنا نسير لوحدنا نحن الاثنين ..

لم يكمل عبارته ، ولكن زايتشيكوف المحتضر فهمها بل وصدق بان سربيلين ما كان ليمنعه من حق الانتحار لو كانا لوحدهما .

– ما اشد عذابى – اغلق عينيه – آه ، يا سربيلين ، لو كنت تعلم ما اشد عذابى . لن اتحمل ! اعطنى منوما يخلصنى من العذاب ، اصدر امرك الى الطبيبة لكى تعطينى منوما ، طلبت منها فرفضت وقالت ليس عندها منوم . تأكد بنفسك ، ربما هى تكذب .

رقد من جديد بلا حراك واغلق عينيه واطبق شفتيه بشدة . فنهض سربيلين وتنحى جانبا واستدعى الطبيبة . فسألها بصوت خافت :

– هل هناك امل؟

نشرت يديها الصغيرتين ثم قالت :

– لماذا تسألنى؟ هذه هى المرة الثالثة التى اعتقد فيها بانه مات او يكاد . لن يعيش اكثر من ساعات قلائل .

– هل لديك «منوم» ما؟ – سألها بهدوء وحزم .

تطلعت اليه الطبيبة مرتعبة بعينين طفوليتين واسعتين .

– ممنوع !

– اعرف بانه ممنوع . على مسؤوليتى . يوجد لديك ام لا؟

– لا – قالت الطبيبة وخيل اليه انها لا تكذب .

– لا اتحمل رؤية عذابه .

– وهل تتصور باننى اتحمل؟ – اجابت وباغتت سربيلين ببكاء بلل خديها .

اشاح سربيلين بوجهه عنها وتوجه الى زايتشيكوف وجلس قربه يتطلع فى وجهه .

ذبل الوجه قبيل الممات وبدا اكثر فتوة بسبب نحافته . وتذكر سربيلين ان زايتشيكوف اصغر منه بست سنوات كاملة . وفى اواخر الحرب الاهلية

كان قائدا شابا لفصيلة فى حين تسلم سربيلين قيادة فوج . هذه الذكريات البعيدة جعلت الاخ الاكبر الذى يحتضر بين يديه اخوه الاصغر يختنق بعبراته واجتاح اسى مرير فؤاد هذا الانسان الكهل وهو ينحنى فوق ذاك .

وفكر سربيلين : «آه ، يا زايتشيكوف . كنت انسانا عاديا عندما تدربت عندى . خدمت افضل من الاخرين تارة واسوأ منهم تارة اخرى ، ثم قاتلت فى الحرب الفنلندية ، وربما قاتلت ببسالة ، فليس عبثا ان منحوك وساما . ثم انك لم تجبن فى معركة موغيليف ، ولم ترتبك وواصلت القيادة طالما كانت قدماك تحملانك ، وها انت راقد هنا تعالج سكرات الموت فى الغابة ولا تدرى ولن تدرى ابدا متى واين ستنتهى هذه الحرب ... التى تجرعت مرارتها منذ البداية ... » .

فتح زايتشيكوف عينيه ورأى سربيلين قربه فهمس قائلا :

— حبذا لو حافظتم على رقم الفرقة على الاقل !

كلا ، لم يكن فى غيبوبة . كان راقدا يفكر بنفس الشىء الذى يفكر به سربيلين تقريبا .

— لم لا ؟ — قال سربيلين بثقة — سنحمل الراية ونفصل حاملين السلاح ونبين كيف قاتلنا . فلماذا لا نحتفظ برقم الفرقة ؟ فنحن لم نلطخه ، واعاهدك كشيوعى باننا لن نلطخه ...

— كنت ساتحمل لولا فظاعة الالم — واغلق زايتشيكوف عينيه — اذهب ، فلديك اشغال ! — قال بصوت خافت جدا وبجهد كبير ، ثم عض على شفته من جديد بسبب الالم ...

فى الثامنة مساء وصل فصيل سربيلين الى الطرف الجنوبى الشرقى من الغابة . وتبين الخارطة ان هناك كيلومترين من الاشجار المخلخلة ، وبعدها يمتد الطريق العام الذى لا يمكن تحاشيه باية حال . ووراء الطريق قرية ومنطقة محروثة وبعد ذلك فقط تبدأ الغابات من جديد . توقف سربيلين وافراده للاستجمام قبل ان يصلوا الى منطقة الاشجار المخلخلة ، وذلك توقعا المعركة وعبور الطريق فى الليل على اثر تلك المعركة . وكان يتعين على الرجال ان يتناولوا طعاما وينام بعض الشىء . كان الكثيرون منهم متعبين من زمان ويجرجرون اقدامهم بصعوبة ، ولكنهم بذلوا قصارى جهودهم لانهم يعرفون بانهم اذا لم يصلوا الى الطريق العام مساء ، ولم يعبروه ليلا فان كل جهودهم السابقة تضيع سدى ، اذ يتعين عليهم والحال هذه انتظار الليلة التالية .

تفقد سربيلين الفصيل وتثبت من الدوريات وارسل الاستطلاعيين الى الطريق العام . وبعد ذلك حاول ان يأخذ قسطا من الراحة فى انتظار عودتهم . ولكنه لم يتمكن من ذلك فى الحال . فما كاد يختار لنفسه مكانا على العشب تحت شجرة ظليلة حتى جلس قربه شماكوف واخرج من جيب بنطاله منشورا المانيا باهت اللون ربما استقر منذ عدة ايام فى الغابة ، ودس المنشور فى يد سربيلين وقال :

— خذ ، واطلع . عثر عليه الجنود واحضروه . لا بد وان الطائرات القت مثل هذه المناشير .

مسح سربيلين عينيه المؤرقتين الملتصقتى الرموش وقرأ المنشور باهتمام من الفه الى يائه . وجاء فى المنشور ان الجيوش الستالينية دحرت وتحطمت وانه تم أسر ستة ملايين شخص وان القوات الالمانية احتلت سمولينسك وهى تقترب من موسكو . ويستنتج من ذلك ان المقاومة لا جدوى منها . وبعد هذا الاستنتاج وعدان : «الابقاء على حياة كل من يسلم نفسه للاسر طوعا ، بمن فى ذلك الضباط والمسؤولون السياسيون» و«اطعام الاسرى ثلاث وجبات فى اليوم وتوفير الظروف المقبولة فى العالم المتمدن لهم» . وعلى ظهر المنشور رسم مخطط واسع عليه من اسماء المدن مينسك وسمولينسك وموسكو فقط ، ولكن السهم الشمالى للجيوش الألمانية المهاجمة تجاوز كثيرا حسب المقاييس العامة مدينة فولوغدا ، فى حين بلغ طرف السهم الجنوبى المنطقة الواقعة بين بينزا وتامبوف . اما السهم الاوسط فيكاد يبلغ موسكو . فان واضعى المنشور لم يتجرأوا بعد على احتلال موسكو .

— عج ... يب ! — قال سربيلين ساخرا وطوى المنشور واعاده الى شماكوف — حتى انت ، ايها المفوض ، يعدونك بالحياة . ماذا ؟ هل نستسلم ؟

— حتى قوات دينيكين كانت توزع مناشير اذكى من هذه — التفت شماكوف الى سينتسوف وسأله عما اذا بقى لديه ثقاب .

اخرج سينتسوف علبة الثقاب من جيبه واراد ان يحرق المنشور الذى قدمه شماكوف اليه دون ان يقرأه ، الا ان شماكوف اوقفه :

— اقرأه اولا ، فهو لا يعدى !

قرأ سينتسوف المنشور بتحجر شعورى ادهشه هو نفسه . فان سينتسوف قتل اثنين من الفاشيين امس الاول وامس بالبندقية فى البداية ثم برشاشة المانية ، ربما قتل بيديه اكثر من اثنين ، ولكنه متأكد تماما من

الاثنين . وهو يريد ان يقتل المزيد منهم، ولذا فهذا المنشور لا يعنيه ...
وفكر سينتسوف «والمنشور مكتوب بلغة روسية ركيكة»، وشخط الثقاب بالعلبة التى لم تجف تماما بعد واحرق زاوية المنشور التى التفت كالحلزون .
وفى تلك الاثناء استعد سربيلين على طريقة الجنود، ودون ان يضيع الوقت، كى يأخذ قسطا من الراحة تحت الشجرة التى اختارها . ودهش سينتسوف عندما رأى بين الحاجيات الضرورية القليلة فى محفظة سربيلين الميدانية وسادة مطاطية مطوية كالورقة . نفخها سربيلين فانتفخ خداه النحيلان على نحو يثير الضحك ووضعها تحت رأسه بشعور من الارتياح .
– احملها معى طوال الوقت هدية من زوجتى! – قال باسما لسينتسوف الذى كان يتطلع الى هذه الاستعدادات للنوم، ولم يقل ان هذه الوسادة تذكارية لان زوجته بعثتها له من البيت قبل عدة سنوات فاخذها معه الى السجن فى كوليما ذهابا وايابا .
لم يكن شماكوف يريد النوم طالما سربيلين سينام، الا ان هذا اقنعه بالنوم قائلا:
– لن نتمكن اليوم ان ننام بالتعاقب . ففى الليل لن ننام، اذ قد نضطر الى خوض معركة، لا سامح الله . ولا يستطيع القتال بدون نوم حتى المفوضون! ثم تفضل علينا واغلق عينيك ولو لساعة كالدجاجة فى بيت الدجاج .
امر سربيلين بايقاظه حالما يعود الاستطلاعيون، فتمدد مرتاحا على العشب . وغفا شماكوف بعد ان انقلب على جنبه مرة او مرتين . اما سينتسوف الذى لم يصدر له سربيلين اية توجيهات فقد عانى صعوبة كبيرة فى الصمود لغواية الرقاد والنوم . ولو قال له سربيلين صراحة ان بامكانه ان ينام لما تحمل ورقد، الا ان سربيلين لم يقل شيئا، فراح سينتسوف يقاوم النعاس ويقيس الفسحة الصغيرة التى رقد تحت الشجرة فيها قائد اللواء والمفوض بخطواته جيئة وذهابا . فى السابق كان قد سمع ان الناس ينامون سائرين، اما الآن فقد جرب ذلك بنفسه، حيث كان يتوقف فجأة ويفقد توازنه . وسمع من خلفه خوريشيف يناديه بصوته الخافت المعروف .
– ماذا حدث؟ – سأله سينتسوف وقد التفت اليه ولاحظ بقلق علامات الانفعال الشديد على وجه خوريشيف المرح عادة كوجوه الصبيان .
– لم يحدث شىء . عثرنا على مدفع فى الغابة . واريد اشعار قائد اللواء .

ظل خوريشيف يتكلم كالسابق بصوت خافت، ولكن سربيلين، على ما يبدو، استيقظ لكلمة «مدفع» . جلس مستندا الى يديه والتفت الى شماكوف النائم ونهض بهدوء واشار بيده كى يلزم خوريشيف الصمت ولا يوقظ المفوض . عدل من وضعية قمصلته واومأ لسينتسوف ايضا كى يلحق به فخطا بضع خطوات فى اعماق الغابة . وهناك سمح لخوريشيف ان يدلى بما لديه .
– اى مدفع؟ المانى؟
– روسى، ومعه خمسة مقاتلين .
– هل هناك قذائف؟
– قذيفة واحدة فقط .
– قليل . هل هو بعيد من هنا؟
– حوالى خمسمائة خطوة .
هز سربيلين كتفيه لينفض بقايا النعاس وطلب من خوريشيف ان يرافقه الى مكان المدفع .
اراد سينتسوف ان يعرف فى الطريق سبب انفعال الملازم الهادئ عادة . ولكن سربيلين سار صامتا طوال الطريق، ولم يكن من اللائق ان يعكر سينتسوف صفو هذا الصمت .
بعد زهاء خمسمائة خطوة رأوا بالفعل مدفعا مضادا للدبابات من عيار ٤٥ ملم منصوبا فى اجمة من اشجار الشوح الفتية . وعلى مقربة من المدفع جلس على طبقة كثيفة من الاوراق الابرية الصفراء المدفعيون الخمسة الذين بلغ خوريشيف سربيلين عنهم مختلطين بافراد فصيلته .
نهض الجميع عندما رأوا قائد اللواء، ونهض المدفعيون متأخرين بعض الشىء، ولكن قبل ان يتمكن خوريشيف من اصدار امره، وبادرهم سربيلين:
– مرحبا، ايها الرفاق المدفعيون! من هو آمركم؟
تقدم الى الامام نقيب بطاقية ذات حافة مفطورة ومؤطرة بشريط المدفعية الاسود . وفى موقع احدى عينيه جرح منتفخ، والجفن العلوى لعينه الاخرى يرتجف من شدة التوتر . الا انه وقف على الارض بثبات وكأن قدميه القابعتين فى جزمة ممزقة مثبتتان الى الارض بمسامير . ورفع يده كالنابض المشدود، بردنها الممزق المحروق الى حافة طاقيته المفطورة، وافاد بصوت قوى رخيم بانه شيستاكوف نقيب البطارية المستقلة التاسعة المضادة للدبابات وهو فى الوقت الحاضر آمر المجموعة وقد اوصل المدفع المتبقى من البطارية عبر المعارك من ضواحى مدينة بريست الى هنا .

— من اين؟ من اين؟ — سأل سربيلين الذى تصور بانه لم يسمع الكلمة الاخيرة بدقة .

— من ضواحى مدينة بريست حيث دخلت البطارية بكامل افرادها فى اول معركة مع الفاشيين — قال النقيب بلهجة قاطعة .

وخيم الصمت .

تطلع سربيلين الى المدفعيين وهو يحاول ان يقنع نفسه بان ما سمعه الآن حقيقة لا جدال فيها . وكلما اطال النظر اليهم اتضح له بمزيد من الجلاء ان هذه الحكاية التى لا يتصورها العقل هى الحقيقة بعينها ، اما ما يكتبه الالمان فى منشوراتهم عن انتصارهم فما هو الا كذب يشبه الحقيقة لا غير .

خمسة وجوه مسودة انحلها الجوع ، خمسة ازواج من الايدى المرهقة المنهكة ، خمس قمصلات متهرئة قذرة مزقتها الاغصان ، خمس بنادق المانية انتزعت فى المعركة ومدفع واحد ، آخر مدفع لدى البطارية نقل ليس بالجو ، بل على الارض ، ليس باعجوبة بل بايدى الجنود ، الى هنا من الحدود على بعد يتجاوز ٤٠٠ كيلومتر ... كلا ، انكم تكذبون ، ايها السادة الفاشيون ، لن تحققوا مآربكم !

— هل حملتموه بانفسكم يا ترى ؟ — سأل سربيلين وكاد يختنق بعبراته وهو يشير الى المدفع .

اجاب النقيب ، فلم يتمالك الآخرون انفسهم وراحوا يتكلمون معا مؤكدين بانهم اوصلوه بمختلف الوسائل : استخدموا الخيل لسحبه ، وسحبوه بانفسهم ، ثم حصلوا على خيل من جديد ، وسحبوه بانفسهم مرة اخرى ...

— وكيف عبرتم به الحواجز المائية ، كيف عبرتم الدنيبر هنا ؟ — سأل سربيلين من جديد .

— على كلك ، قبل ليلتين ...

— اما نحن فلم نعبر ولا مدفعا واحدا ، — قال سربيلين والقى نظرة على جنوده جميعا ، ولكنهم احسوا بانه الآن يلوم شخصا واحدا لا غير ، يلوم نفسه فقط .

ثم تطلع الى المدفعيين من جديد :

— يقال عندكم قذائف ايضا .

— قذيفة واحدة ، آخر قذيفة — قال النقيب بلهجة اعتذار وكأنه مذنب فى سهوه فلم يعوض فى الوقت المناسب عن نقص الذخيرة .

— اين انفقتم القذيفة ما قبل الاخيرة ؟

— هنا ، على بعد عشرة كيلومترات تقريبا . — اشار النقيب الى الخلف ، الى مكان امتداد الطريق العام وراء الغابة — ليلة البارحة دحرجنا المدفع الى الشجيرات قرب الطريق العام وبتصويب مباشر سددنا ضربة الى طابور من السيارات فاصبنا السيارة الامامية فى مقدمتها مباشرة !

— الا تخافون من انهم يمكن ان يمشطوا الغابة ؟

— مللنا من الخوف ، ايها الرفيق قائد اللواء ، فليخافوا منا هم !

— ألم يمشطوا الغابة ؟

— كلا . ولكنهم القوا بالالغام فى كل مكان . واصيب آمر البطارية بجرح مميت .

— اين هو ؟ — سأل سربيلين باستعجال ورأى بنفسه اين هو قبل ان ينهى سؤاله ...

فى الجهة التى اشار اليها النقيب بنظراته ارتفع قبر طرى باهت اللون تحت صنوبرة قديمة ضخمة وعارية حتى قمتها . وكانت الفأس الالمانية العريضة التى حفروا بها التراب المشوشب كى يرصفوه قطعة قطعة على القبر قد ظلت مغروزة فى الارض كصليب كريه .

وعلى الصنوبرة العتيقة لا يزال الصمغ ينز من حز غليظ عميق بشكل صليب . وعلى صنوبرتين اخريين الى يمين القبر وشماله حزان عميقان غاضبان وكأنهما يتحديان المصير ويقطعان بصمت عهدا بالعودة .

اقترب سربيلين من القبر وخلع طاقيته وتطلع صامتا الى الارض امدا طويلا وكأنما يريد ان يرى من خلالها ما لن يستطيع احد ان يراه ابدا — وجه الرجل الذى اوصل عبر المعارك من بريست حتى هذه الغابة وراء الدنيبر كل ما تبقى من بطاريته : خمسة جنود ومدفعا وآخر قذيفة .

لم يكن سربيلين قد رأى هذا الانسان ابدا ، ولكنه خيل اليه انه يعرفه جيدا . فهو رجل يتبعه الجنود رغم المخاطر ، وهو رجل يجازفون بحياتهم من اجل انتشال جثته من المعركة ، رجل ينفذون اوامره حتى بعد مماته . انه الانسان الذى يتحلى بكل ما يمكنه من تخليص هذا المدفع وهؤلاء الرجال . ثم ان هؤلاء الرجال جديرون بقائدهم . كان هو على هذا القدر من البسالة لانه رافقهم ورافقوه ...

ارتدى سربيلين طاقيته وشد بصمت على يد كل من المدفعيين . ثم اومأ الى القبر وسأل :

– الاسم؟

– الكابتن غوسيف .

– لا تسجل شيئا – شاهد سربيلين ان سيتسوف هم بالتسجيل – فلن انساه حتى الرمق الأخير . ولكن كلنا بشر وكلنا عرضة للموت . فسجل ! وادرج اسماء المدفعيين فى قائمة المقاتلين ! اشكركم على حسن خدمتكم ايها الرفاق ! اما قذيفتكم الاخيرة فاعتقد باننا سنستخدمها هذه الليلة فى المعركة .

كان سربيلين قد لاحظ بين افراد فصيلة خوريشيف الواقفين مع المدفعيين رأس بارانوف الاشيب ، ولكن نظرتاهما لم تلتقيا الا فى هذه اللحظة ، فقرأ سربيلين رعبا من فكرة المعركة المرتقبة فى هاتين العينين اللتين لم يتمكن صاحبهما من اخفاء نظرته .

– ايها الرفيق قائد اللواء ! العقيد يدعوك ! – لاح شبح الطبيبة الصغيرة من وراء ظهور الجنود .

– العقيد ؟ – سأل سربيلين . كان يفكر فى بارانوف فلم يفهم فى الحال اى عقيد ذاك الذى يدعوه – نعم ، انا قادم ، فى الحال – قال بعد ان فهم ان الطبيبة تقصد زايتشيكوف .

– ماذا حدث ؟ لماذا لم تستدعونى ؟ – سألت الطبيبة وقد شدت راحتيها امامها بمرارة عندما رأت الرجال متجمهرين حول قبر طرى .

– لا بأس ، فلنذهب ، لم يتسن الوقت لاستدعائك ! – وضع سربيلين يده الكبيرة على كتفها بملاطفة خشنة فحمل الطبيبة عنوة تقريبا على الاستدارة وسار معها دون ان يرفع يده من على كتفها .

وظل يفكر ببارانوف وهو يسير جنب الطبيبة : «انه مجرد من الايمان والشرف والضمير . عندما كانت الحرب تبدو بعيدة كان يجأر بان النصر لنا ، وعندما بدأت كان اول الهاربين . فطالما ارتعب واستولى عليه الخوف فذلك يعنى ، برأيه ، اننا لن ننتصر ! كلا ! فما عداك ، هناك الكابتن غوسيف ومدفعيوه ، وهناك نحن ، الاحياء والاموات ، على علاتنا ، وهناك هذه الطبيبة الصغيرة التى تحمل حتى المسدس بكلتا يديها ...» .

واحس سربيلين فى هذه اللحظة ان يده الثقيلة لا تزال مستقرة على كتف الطبيبة النحيلة ، ليست مستقرة فقط ، بل تستند الى هذه الكتف . اما هى فتسير وكأنها لا تلاحظ هذا الثقل ، بل ويبدو انها رفعت كتفها عمدا . انها تسير وربما لا تتصور بانه يوجد فى هذه الدنيا اناس مثل بارانوف . فقال سربيلين للطبيبة بصوت حنون مكبوت بعض الشيء ورفع يده :

– نسيت يدى على كتفك .

– لا بأس ، يمكنك ان تستند الى اذا كنت متعبا . فأنا قوية .

«اجل ، انت قوية – فكر سربيلين – ولن تهلك مع اناس مثلك . تلك حقيقة لا جدال فيها» . اراد ان يقول لهذه المرأة الصغيرة شيئا رقيقا مفعما بالثقة يأتى جوابا على افكاره بشأن بارانوف ، ولكنه لم يجد ما يقوله لها ، فسارا صامتين حتى المكان الذى يرقد فيه زايتشيكوف .

– ايها الرفيق العقيد ! احضرت سربيلين . – قالت الطبيبة بصوت خافت بعد ان بادرت الى الركوع على ركبتيها قرب نقالة زايتشيكوف .

ركع سربيلين الى جانبها ، فابتعدت جانبا كيلا تعيقه عن الاقتراب من رأس زايتشيكوف الذى سأل بهمس غير مفهوم :

– هذا انت يا سربيلين ؟

– انا .

– اسمع ما ساقوله لك – قال زايتشيكوف بخفوت اشد ثم صمت .

انتظر سربيلين لحظة ، وانتظر لحظة اخرى ، فثالثة ، ولكنه لم يكن مقدرا له ان يعرف ماذا اراد قائد الفرقة السابق ان يقوله لقائدها الجديد .

– قضى نحبه – قالت الطبيبة بصوت لا يكاد يسمع .

رفع سربيلين طاقيته ببطء وظل لحظة راكعا على ركبتيه برأس عار ، ثم نهض بصعوبة وانصرف دون ان ينبس ببنت شفة .

عاد الاستطلاعيون وافادوا بانهم شاهدوا دورية المانية على الطريق العام وسيارات تسير باتجاه تشاوسى . فقال سربيلين :

– يبدو اننا سنضطر الى الدخول فى معركة . اوقظوا الرجال وليصطفوا !

وبعد ان عرف سربيلين الآن ان توقعاته قد تأكدت وان من المستبعد عبور الطريق العام بدون معركة تخلص نهائيا من الشعور بالارهاق البدنى الذى انهال عليه منذ الصباح . فقد كان مصمما كل التصميم على الوصول بهؤلاء الرجال الذين استيقظوا من النوم وحملوا السلاح الى المكان الذى يجب عليه ان يوصلهم اليه ، الى قواتنا ! ولم يكن يفكر بغير ذلك ، ولم يكن راغبا فى التفكير على نحو آخر ، فلا شيء ، غير ذلك ، يمكن ان يرضيه .

لم يكن يعرف ولم يكن بوسعه ان يعرف فى تلك الليلة القيمة الكاملة لكل ما حققه افراد فوجه . وكما هو الحال بالنسبة له وبالنسبة لمرؤوسيه لم تكن تعرف القيمة الكاملة لاعمالها آلاف اخرى من الناس الذين قاتلوا حتى الموت فى آلاف الاماكن الاخرى بصمود لم يكن الالمان قد حسبوا له الحساب .

لم يعرفوا وما كان بوسعهم ان يعرفوا ان جنرالات الجيش الالماني الموفق آنذاك في زحفه على موسكو ولينينغراد وكييف سينعتون بعد خمسة عشر عاما شهر تموز ١٩٤١ بشهر الاماني المضللة والنجاحات التي لم تتحول الى انتصارات.

لم يكن بوسعهم ان يتوقعوا اعترافات العدو المريرة هذه في المستقبل، ولكن كل واحد تقريبا ساهم آنذاك، في تموز بقسطه في المجهود الذي اسفر من هذه النتيجة بالذات.

وقف سربيلين يستمع الى اوامر الضباط التي يوجهونها الى جنودهم باصوات غير عالية. وتحرك الرتل بشيء من عدم الانتظام في الظلام الذي خيم على الغابة. واطل القمر الارجواني المسطح على قنن الاشجار المسننة. وانتهى اليوم الاول في محاولة الخروج من الحصار...

الفصل السابع

حل هدوء نسبي على الجبهة الغربية بعد معارك يلنيا الهجومية الموفقة في اب وايلول ١٩٤١. كان لواء الدبابات بقيادة المقدم كليموفيتش مرابطا في غابات يلنيا الجنوبية. وكانت كتيبته الأستطلاعية تشغل بمثابة كتيبة مشاة، قطاعا دفاعيا طوله اربعة كيلومترات على الخط الأمامي.

قبيل بداية الحرب كان كليموفيتش قائدا لواء الدبابات المرابط في ضواحي سلونيم. ولم يبق في عداد المقاتلين الا سبعون شخصا من افراد اللواء الذين اشتركوا في الحرب منذ البداية. بعضهم قتل عندما فك اللواء الحصار عبر الغابات باتجاه سلوتسك وبوبرويسك، وبعضهم الآخر قتل دفاعا عن موغيليف، وبعضهم الثالث اصيب هنا، في معركة يلنيا.

وقبيل القتال في يلنيا استكمل قوام اللواء مناصفة من دبابات ب.ت-٧ القديمة ودبابات ت-٣٤ الجديدة، وهي الدبابات التي صار الجميع يسمونها اختصارا «٣٤». واتضح ان دبابات «٣٤» ممتازة جدا، ولذلك بالذات وقع عليها العبء الرئيسي لمعارك يلنيا. كانت كل كتيبة تعاني من نقص في عدد الدبابات، ولكنهم لم يسحبوا اللواء الى المؤخرة بل وعدوه بان يتسلم بعد ايام، وهو في مواقعه مباشرة، امدادات بالرجال والدبابات. والدبابات هذه المرة من طراز «٣٤» فقط. وصار كليموفيتش الذي اعجب بهذه الدبابات كل الأعجاب في معارك يلنيا ينتظر وصولها بفارغ الصبر الى درجة لا يتفهمها الا جندي الدبابات الذي تمكن باعجوبة، مرتين خلال هذه الحرب، ان يقفز من دبابة ب.ت-٧ والنيران تلتهمها كعلبة ثقاب. كان واضحا منذ اواخر معارك خالخين-غول (١٩٣٩) ان هذه الدبابات الخفيفة والجيدة السرعة تعاني من ضعف التدريع والتسليح. ومع ذلك استخدم كليموفيتش هذه الدبابات العتيقة بالذات وهو يواجه الحرب على الحدود الغربية دون ان ينتظر استبدالها الموعود بدبابات «٣٤».

وفي اليوم الخامس من الحرب كاد كليموفيتش يطلق النار امام الجنود على قائد احدى سراياه الذي اجتاحته نوبة من الهياج العاجز فراح يصرخ بحضور المقاتلين ويصيح بانه لا يجوز القتال بعلب الثقاب هذه، ولكنه توجه بعد ساعة الى المعركة فعطب دبابة المانية واحترق هو ايضا على مرأى من كليموفيتش.

انتاب كليموفيتش في معركة يلنيا شعور مزدوج: شعور الافتخار بجنوده الذين تمكنوا على الدبابات الجديدة من تحطيم الدبابات الألمانية كما يحطم المرء الجوز، وشعور المرارة لأنه لم يكن يمتلك في بداية الحرب ولا دبابة واحدة من هذا الطراز، فاضطر الى ان يضحي بدبابتين او ثلاث مقابل دبابة واحدة للعدو، في حين كان بوسعه ان يضحي بدبابة واحدة مقابل دبابتين.

والآن، خلال فترة الهدوء، اصلح جميع دبابات بت - ٧ المتبقية في اللواء وغرس في اذهان رجاله بعناد ان بالامكان القتال على هذه الدبابات ايضا، ولكنه كان في دخيلته ينتظر وصول الدبابات الجديدة اكثر مما ينتظر اي شيء آخر في الدنيا.

كان يفكر بلوائه ولا يفكر باي شيء آخر، لأنه ليس لديه اي شيء سواه.

قبل الحرب كان يعيش مع اربعة اشخاص، ثلاثة يحبهم والرابع كان يعتبر نفسه ملزما برعايته، وهم ابنته وابنه وزوجته وحماته. وفي اليوم الثالث من الحرب قتل الأربعة دفعة واحدة بقنبلة وقعت على سيارتهم في الطريق العام، بينما كان هو يعتقد بانهم تمكنوا من النزوح بسلام. وعندما بلغه الخبر كانت المعركة جارية فلم يتمكن حتى من الذهاب الى هناك وحضور دفن ما تبقى من جثثهم. كان في الثلاثين من العمر، ولو تبادر الى ذهن شخص ما بان يسأله: «اجل، حدث لك حادث لا افظع منه، ولكن الحياة امامك فهل من المعقول انه لن يوجد فيها ما يستطيع ان يعوض عما فقدت؟» لأجاب بصراحة، في اغلب الظن، رغم فظاعة مصيبته: «سيوجد بالطبع». ولكنه طوال جميع هذه الشهور لم يتبادر الى ذهن احد من اولئك الذين سمعوا صوته القوي ورأوا تعابير وجهه المغلق باحكام ان يسأله: كيف يفكر ان يعيش بعد الحرب وحيدا؟ ثم هو ايضا لم يفكر بذلك. كان هو نفسه تجسيدا للحرب. وما دامت الحرب قائمة فلم يبق في فؤاده الآن مكان لشيء او لاحد، بعد هلاك اسرته، ما عدا الحرب ومصالحها وحاجاتها.

في مساء الأول من تشرين الاول جلس كليموفيتش في مقر اركان اللواء، في كوخ مائل قذر من الخارج ونظيف صقيل من الداخل، فهو متزمت

يحب النظافة، - وراح يطالع «المغامرات الجديدة للجندي الشجاع شفيك». لقد قرأ اكثرية الجيهويين بارتياح هذه الاقاصيص التي الفها كاتب جيهوي ساخر، الا انها لم تعجب كليموفيتش. فطالما يضربوننا اكثر مما نضربهم، فمن السابق لاوانه الاستهزاء بهم. ومع ذلك قرأ تلك الاقاصيص لانه تعود على قراءة الجريدة الجبهوية من الفها الى يائها بحثا عما قد يكون نافعا من الناحية العملية للخدمة العسكرية.

رن جرس التلفون على الطاولة بخشخشة مبحوحة. التقط كليموفيتش السماعة بعد ان طوى الجريدة على المكان الذي بلغه في مطالعتها كيلا يصرف جهدا فيما بعد للعثور على ذلك المكان. كان على الطرف الثاني من السلك آمر الكتيبة الاستطلاعية الذي افاد بوقوع حادث طارئ. ففي مؤخرة الالمان، امام مقدمة الكتيبة، اندلعت اصوات متكررة لاطلاق النار من الرشاشات والبنادق الرشاشة والعادية، كما سمعت انفجارات قنابل يدوية. ابعد كليموفيتش السماعة عن اذنه وفتح مصراعي النافذة وانصت. والتقطت الاذن المدربة اصوات معركة نائية لا تكاد تسمع. وقال كليموفيتش بالسماعة:

– انا متوجه اليكم، انتظروني.

كان الطرف الامامي للغابة معتما ورطبا، فقد تساقطت توا زخات قصيرة من المطر. سار امام قائد اللواء كليموفيتش الليفتينانت الذي بعثوه لاستقباله. وكان كوعا يديه القابضتين على البندقية الرشاشة ناتئين من تحت المعطف المشمع المبتل. عندما مر كليموفيتش قرب دبابة بت - ٧ المموهة في خندق عميق فكر في الشيء ذاته الذي يشغل باله طوال الوقت: «حبذا لو استلمنا دبابات ٣٤ باسرع ما يمكن!».

كان مركز المراقبة منتصبا في آخر طرف الغابة. وفي النهار يرى بوضوح من هنا مرج اخضر لم تحش اعشابه، هابط بانحدار نحو الجدول، ومرج آخر صاعد بنفس زاوية الانحدار الى الغابة، ولكن على الضفة الاخرى، الضفة الالمانية. وعلى المرج تقف جنبا الى جنب دبابتان محترقتان، احدهما سوفييتية من طراز بت - ٧ والاخرى المانية من طراز ت - ٤. ظلتا واقفتين على هذا النحو طوال شهر تقريبا كتوأمين لا يفرق بينهما احد.

وفي الامام كانت تتصاعد فوق اماكن مختلفة من الغابة التي يحتلها الالمان صواريخ الاشارة البيضاء والحمراء ويلمع وميض الانفجارات. ولم يعد تبادل نيران الرشاشات والبنادق على مسافة كيلومتر ونصف وراء الخط الامامي للالمان، كما افاد آمر الكتيبة الاستطلاعية قبل نصف ساعة، بل غدا قريبا

جدا . والمسافة من هنا حتى الخط الامامى للالمان اربعمائة متر، وتبادل اطلاق النار كان على بعد خمسمائة متر تقريبا وراء ذلك الخط ، اى فى الاماكن التى يمر بها الخط الثانى من خنادق الالمان حسب معطيات الاستطلاعات .

انتقل الى كليموفيتش الاضطراب الذى اجتاح جميع الحاضرين فى مركز المراقبة. فقد كانوا جميعا يفكرون بالشىء ذاته ويخشون تصديق ما يفكرون به .

– يا ايفانوف، فلتتوجه الطواقم الى الدبابات! – امر كليموفيتش آمر الكتيبة الاستطلاعية بعد ان استمع الى تقرير عن المراقبات التى تمت خلال الثلاثين دقيقة الاخيرة .

– حسب امرك . ستتوجه الطواقم الى الدبابات! – قال ايفانوف ولم يتمالك نفسه فسأل : – هل سنضرب لملاقاتهم ايها الرفيق المقدم؟

– سنقرر حسب الظروف. نفذ الامر!

هبط كليموفيتش الى المخبأ وامر جندى الهاتف بان يتصل باركان الجيش .

كان قد تلفن الى الجيش للمرة الاولى قبل ان يتوجه الى هنا، ولكنه حان الوقت للاتصال بالجيش من جديد . وقبل ان يتمكن الجندى من تدوير مقبض الجهاز رن جرس التلفون. فان اركان الجيش نفسها طلبت قائد اللواء . وقال قائد الجيش :

– ماذا ترى هناك؟ اخبرنا!

ذكر كليموفيتش انه يرى الصواريخ ووميض الانفجارات وان معركة تدور فى مؤخرة الالمان وان المسافة من مركز المراقبة حتى مكان المعركة ثمانيمائة او تسعمائة متر .

– جارك الايسر يقول الشىء ذاته . ولكن المعركة الى يمينه . كل شىء يجرى امامكم مباشرة، على جبهة ضيقة. ما هو تقديرك الموقف وما الذى تنوى فعله؟

اجاب كليموفيتش بما كان يفكر به هو ويفكر به جميع الموجودين فى مركز المراقبة: ان وحدة تحاول فك الحصار فى قطاعهم بمعركة عبر الخط الامامى الالمانى . وطلب السماح، بعد ان اعد الدبابات، باجراء استطلاع من خلال القتال على يمين وشمال القطاع الذى تسمع فيه اصوات المعركة فى مؤخرة الالمان .

صمتت السماعة بضع ثوان، ثم قال القائد ان المعلومات المتوفرة لديه تفيد بعدم وجود اية وحدات مطوقة ومحاصرة من زمان فى اقرب مؤخرة للالمان،

وربما يكون ما يسمونه استفزازا ذكيا الهدف منه حملنا على التقحم الى الامام فى البداية ثم سحقنا والاندفاع على اجسادنا الى مواقعنا .

– سآخذ هذا الاحتمال بنظر الاعتبار ايها الرفيق القائد. وساتخذ اجراءات الحذر وسأترك دبابات ٣٤ فى كمين .

– كم عددها عندك الآن؟ ١١؟ – قاطعه القائد .

كانت كل دبابة من طراز ت ـ ٣٤ آنذاك ذات قيمة كبرى على صعيد الجيش كله، فكان قائد الجيش يتذكر عددها .

– ١١ – اكد كليموفيتش – ومع ذلك فاذا كانت وحدة من قواتنا تخترق الحصار فكيف لا تساعدها؟ – سمع كليموفيتش اصواتا لم تكن كلماتها واضحة . ربما كان قائد الجيش يتحدث قرب التلفون مباشرة مع احد اعضاء المجلس الحربى او مع رئيس الاركان . وبعد دقيقة قال :

– افعل . واخبرنا كل نصف ساعة .

وضع كليموفيتش السماعة، وشرع بالاستعداد للهجوم دون ان يضيع الوقت: اخذ السماعة من جديد وتحدث مع آمرى الكتائب واصدر اوامره . اما المعركة فى الامام فكانت تهدر وترعد متحركة تارة الى اليسار وتارة الى اليمين . وتقترب الى الامام تارة وتبتعد اصواتها بشكل مقلق تارة اخرى . كلا . ليس ذلك استفزازا . فهناك على بعد ثمانيمائة متر من هنا، بين خطى المواقع الالمانية، الاول والثانى تحرك اناس وقدموا الضحايا وحاولوا اختراق الحصار وها هم ينسحبون الى الوراء مطوقين من جميع الجهات بنيران الالمان الذين تحركوا هم ايضا وراحوا يضيقون الخناق عليهم لحظة بعد اخرى . ويخيل للمرء انه هناك بين المواقع الالمانية يهيم قلب حى ينزف دما وتنهشه من جميع الجهات ومضات الرصاص وصليات الرشاشات وانفجارات القذائف ...

ولو امر قائد الجيش بعدم نجدة المحاصرين الذين اجتازوا فى اغلب الظن مئات الكيلومترات وها هم الآن يهلكون على بعد خطوات من مواقع قواتهم لكان ذلك احلك يوم فى حياة كليموفيتش العسكرية . ولو تنبأ له احد مسبقا بانه سيقتل من كل بد بعد نجدتهم لتوجه الى هذه المعركة مع ذلك بدون اى تردد .

وعندما زحف هذا القلب الجريح المنهوش، هناك بين المواقع الالمانية، باندفاعة دموية يائسة اخيرة الى الامام مسافة مائتى متر نحو الخط الاول من الخنادق، وعندما اندفعت دبابات ب ت ـ ٧ الثمانى مع مائة وخمسين من افراد الكتيبة الاستطلاعية نحوه، لم يكن ذلك مجرد هجوم ليل جسور، بل كان تحركا

روحيا منسقا وعتيدا لجميع الذين تتكون منهم الكتيبة الاستطلاعية بعد ان تقلصت صفوفها فى المعارك المريرة.

اتضح ان فكرة كليموفيتش فى تسديد الضربة الى شمال ويمين القطاع الذى اخترق منه افرادنا الحصار من المؤخرة الالمانية كانت صائبة. وقد آتت ثمارها فورا.

تقاطر الالمان عبر الخنادق وممرات التوصيل الى مكان الاختراق المنتظر لكى يغلقوا حنجرته الضيقة بسداد من الاجساد الحية. وعندما سمعوا من الجانبين زئير محركات الدبابات والهتاف الروسى «اورا!» اخذوا يتوزعون على عجل من جديد فى الخنادق على الشمال واليمين. ان هذا التحرك المكرر فى الليل لا بد وان يثير البلبلة. وحدثت تلك البلبلة بقوة اشد لان اختراق الحصار من المؤخرة والهجوم من المقدمة كانا مفاجأة مزدوجة بالنسبة للالمان.

توقف القتال بعد ساعة. كان يندلع احيانا هنا وهناك، ثم يخفت نهائيا، ثم تتصاعد صليات رشاش متأخرة فى مكان ما فى الظلام وكأنها تطرق دلوا فارغا. فقد كليموفيتش دبابتين انفجرت بهما الالغام الالمانية، وخسر خمسة عشر مقاتلا سقطوا بنيران العدو على كلتا ضفتى الجدول. ولكن حتى الحسابات الليلية غير الدقيقة اطلاقا تفيد بان كتيبة كاملة - اكثر من ثلاثمائة شخص - تمكنت فى بلبلة القتال من اجتياز مواقع الالمان. وها هم، هؤلاء الاشخاص الذين اذهلتهم الفرحة، لا يزالون يقبضون على السلاح وهم جياع ممزقو الالبسة، جرحى واصحاء، يتوزعون على الخنادق والمخابئ التابعة لقواتنا المدرعة.

عندما كانت كاسحات الجليد والطائرات التابعة لستة بلدان تعمل على انقاذ بعثة نوبيله، وعددهم ١٢ شخصا، من الكتل الجليدية راحت كل محطات العالم الاذاعية تتابع تلك الاحداث، وكتبت كل صحف العالم عن الطيارين الذين انقذوا من اسر الجليد ركاب الباخرة السوفييتية «تشيليوسكين». وكانت عشرات الملايين من الناس تنتظر بفارغ الصبر انباء الحملات الثلاث التى توجهت دفعة واحدة الى الكتلة الجليدية «القطب الشمالى» لانقاذ اربعة اشخاص.

اما ما حدث خلال تلك الليلة فى قطاع الكتيبة الاستطلاعية التابعة للواء الدبابات الـ١٧ فقد شغل نصف صفحة فقط فى نشرة البلاغات الجبهوية العاجلة، ولم ينشر حتى فى بلاغات مكتب الاستعلامات. الا ان اعظم فرحة بين كل الافراح الجديرة بالانسان هى فرحة اناس انقذوا اناسا آخرين. ولم تكن تلك الفرحة قليلة ابدا لان احدا لم يكتب عن هذا الحادث. جلس

المنقذون والناجون جنبا الى جنب فى كل مخبأ من مخابئ لواء الدبابات بقيادة كليموفيتش، وراحوا يتعانقون ويتبادلون الآراء ويقاطعون بعضهم بعضا باحاديث غير مترابطة عما حدث وكيف حدث. اكلوا الرغيف والعصيدة واللحوم المعلبة حتى الشبع وغطوا فى نوم عميق على الاسرة والتخوت وعلى ارضية المخابئ، وعلى اغصان الشوح الابرية الشائكة.

فى المعركة الاخيرة جرح قائد المجموعة التى اخترقت الحصار سربيلين بكلتا ساقيه. سحبه مرافقه واثنان من جنود الرشاشات على معطف الى داخل كوخ كليموفيتش ووضعوه على سرير خشبى فرشت عليه بطانية مضربة زرقاء. رقد قائد اللواء سربيلين بقامته الطويلة الوسخة وذقنه غير الحليق ورأسه الاصلع وقد تدلت منه شعيرات شيباء على الوسائد البيضاء العالية. ولكنه يرتدى بزته العسكرية بالكامل، وعلى صدر قمصلته وسام الراية الحمراء، وعلى طرفى ياقته المتسخة شارتان معينيتا الشكل، احداهما حقيقية ذات ميناء متقشر، والاخرى صوفية منتزعة من شريط الطاقية.

امتدت ساقا سربيلين بالبنطال الممزق فى اعلى الركبتين على البطانية الزرقاء وكان الدم ينبجس منهما عبر لفائف الشاش الملطخة بالاوساخ. وبعد ان وضعه الجنديان على السرير خرجا من الكوخ مع مرافق كليموفيتش الذى اسرع لاصطحابهما واطعامهما، بينما ظل مرافق سربيلين - وهو مرشد سياسى متعب وفارع القامة - واقفا كالملاك الحارس عند رأس قائده وراح يتطلع فى وجهه طوال الوقت من اعلى الى اسفل بعد ان استند بكوعيه الى ظهر السرير.

جلس كليموفيتش على مصطبة قرب السرير.

- ايها الرفيق قائد اللواء! دعوت الطبيب وسيحضر فى الحال. اسمح لنا بان نضمدك قبل ان نتحدث.

- لا داعى للطبيب، ايها المقدم - قال سربيلين بشفتين تتحركان بصعوبة - انقلنى الى الكتيبة الصحية مباشرة. فهنا لا يمكن اجراء عملية. ولكن فى البداية اعطنى قائد الجيش بالتلفون. هل عندك تلفون؟

- نعم.

- من هو قائد جيشكم؟

ذكر كليموفيتش لقب القائد. فسأل سربيلين عن اسمه ولاح ظل ابتسامة على وجهه المرهق:

- سرغى فيليبوفيتش، أليس كذلك؟

- نعم.

– درست معه فى الاكاديمية . اعطنيه!

لم يعترض كليموفيتش وراح يتلفن الى القائد . ففى كل الاحوال عليه ان يقدم تقريره الى القائد . فقد تأخر عشر دقائق بسبب الانشغال . وقال عندما رفع القائد السماعة :

– المقدم كليموفيتش يتكلم . بنتيجة القتال وصلت الى مواقعى مجموعة من حوالى ثلاثمائة شخص يحملون السلاح . قائد المجموعة يريد التحدث معك .

– اعطه السماعة – قال القائد .

استدار كليموفيتش متحاشيا الطاولة وسحب السلك من تحت قوائمها وقرب التلفون من وسادة سربيلين الذى رفع رأسه فرأى وجه مرافقه واشار اليه بنظرة فهمها ذاك فى الحال فعدل من الوسائد وساعد قائد اللواء فى النهوض قليلا . وقال الجريح فى السماعة ليس بصوت هادىء كما كان يتكلم مع كليموفيتش ، بل بصوت مرتفع على قدر ما يستطيع :

– ايها الرفيق قائد الجيش! يكلمك قائد اللواء سربيلين ، اوصلت الى مواقعكم فرقة المشاة السادسة والسبعين بعد المائة والتى عهد بها الى... مرحبا يا سرغى فيليبوفيتش ، سربيلين يكلمك ...

وفى تلك اللحظة فقط ، عندما تلفظ الكلمات الاخيرة ارتعش صوته واختنق بعبراته ، وانهار على جنبه مع الوسائد التى لم يتمكن المرافق من الامساك بها لشدة المفاجأة . سقطت السماعة على الارض . رفعها كليموفيتش وسمع الكلمات التى قالها القائد وهو يتصور بان سربيلين هو الذى يستمع اليه .

– سربيلين؟ اى سربيلين؟ .. أهو انت يا فيودور فيودوروفيتش؟ – قال القائد بالسماعة التى التقطها كليموفيتش لان سربيلين رقد مغميا عليه .

انحنى الطبيب العسكرى الذى وصل راكضا على الجريح ، وراحت الممرضة تضع على المصطبة باستعجال اوعية ابر الحقن والامبولات .

– لماذا لا تتكلم يا سربيلين ؟ انت ام غيرك؟ اى سربيلين انت ؟ لماذا لا تتكلم ؟ – كان القائد يصيح بالسماعة .

تطلع كليموفيتش الى سربيلين الفاقد الوعى ونسى ان عليه ان يقول القائد من زمان ان الذى يسمعه الآن ليس سربيلين ، بل كليموفيتش .

– ايها الرفيق القائد – قال كليموفيتش اخيرا بعد ان اشاح بنظرته عن سربيلين الذى راحت الممرضة تمسد يده بالقطن والاثير قبل ان تحقن بابرة – يكلمك المقدم كليموفيتش . قائد اللواء جريح ، وقد اغمى عليه .

– صف لى مظهره . هل هو نحيف طويل واصلع بعض الشىء؟

– بالضبط – اجاب كليموفيتش دون ان يتطلع الى سربيلين .

فقد انطبعت فى ذاكرته مدى الحياة صورة سربيلين النحيف الطويل الاصلع بعض الشىء . وانطبعت فى ذاكرته ان احدى الشارتين المعينيتين محكوكة الميناء والاخرى منتزعة من شريط الطاقية ، وان على صدره وسام الراية الحمراء ، وانه رجل يقل الجيش معه جيشا على الدوام حتى وان انسحب من الحدود الى يلنيا . انه انسان لا داعى النظر اليه مرتين لكى يفهم المرء ويتذكر اى انسان هو .

– انه هو ، سربيلين! – صاح القائد فرحا بالتلفون – من اين جاء؟ لقد كان ... – كاد القائد يقول لكليموفيتش ما لا داعى لقوله ، ولكنه اضاف بانه سيصل بنفسه الى اللواء – هل عندكم طبيب؟ ماذا يقول الطبيب؟

– عندنا طبيب ايها الرفيق القائد ، سأسأله . – التفت كليموفيتش الى الطبيب – سيأتى قائد الجيش الى هنا الآن . وهو يسألك عن حالة قائد اللواء .

كان الطبيب منحنيا على سربيلين وهو يجس نبضه .

– لا داعى لمجىء الى هنا – قال الطبيب دون ان يلتفت – سنضع قماط الشرايين ، وسننقله الى الكتيبة الصحية ، الى غرفة العمليات مباشرة . فالوقت ثمين جدا . اخبر قائد الجيش بذلك .

اخذ كليموفيتش السماعة من جديد :

– ايها الرفيق القائد . الطبيب يقول ان من الضرورى نقل قائد اللواء فورا الى غرفة العمليات فى الكتيبة الصحية – تأوه القائد بالسماعة واطلق بصوت خافت شتيمة مريرة .

– اخبر الطبيب ، اذن ، بان ينقلوه . وقل له باننى سآتى الى الكتيبة الصحية ، ربما سأتمكن من الوصول قبل العملية ... كلا ، لا تقل له . فلربما ينفعلون هناك ويخطئون فى العملية ... قل له باننى سآتى الى الكتيبة الصحية بعد العملية مباشرة . وبعد ان تبعثوه تلفن الى رئيس الاركان واخبره بما تبقى . اما انا فليس عندى شىء اضيفه .

بعد عشر دقائق احضروا النقالة ووضعوا سربيلين عليها . ورافقه كليموفيتش مودعا حتى السيارة الصحية وتبعه مرافق سربيلين . اراد ان يصعد الى السيارة بعد الطبيب والممرضة ، ولكن الطبيب قال له بانه ليس هناك مكان فى السيارة ، بل وليست هناك ضرورة لذلك .

– مهما يكن من امر ، ايها الرفيق الطبيب ، فانى سأذهب معكم – امسك المرافق بمتن السيارة الصحية . فالتفت الطبيب الى كليموفيتش مستعينا به :

– ايها الرفيق المقدم!

الا ان كليموفيتش باغت الطبيب بان ايد المرافق . فهو يرى ان من الطبيعى ان يذهب المرافق مع قائده الى الكتيبة الصحية .

– لا بأس ، ايها المرشد السياسى ، اصعد الى السيارة ، فلا بد من وجود مكان فيها . ثم عد بنفس هذه السيارة .

– اذا سمح قائد اللواء .

– مفهوم . ولكن اذا عدت تعال الى مباشرة .

تحركت السيارة وصاح منها المرشد السياسى :

– ايها الرفيق المقدم ، اخبر مفوضنا شماكوف بانى رافقت قائد اللواء! وابتعدت السيارة .

فكر كليموفيتش لحظة بانه كان قد رأى هذا المرشد السياسى الفارع القامة ، ثم عاد الى الكوخ ونقل التلفون الى مكانه السابق وتلفن الى مساعده لشؤون المؤخرة ليحذره من الافراط فى اطعام المقاتلين المنهكين ومن تقديم الفودكا لهم فى غمرة الفرح .

فحاول ذاك ان يجيب بنكتة فى التلفون :

– ليس بالامكان تقييد كرم الضيافة عند جنود الدبابات .

فرد كليموفيتش بلهجة قاطعة :

– حاول ان تقيده . وخلال هذه الليلة هيئ لهم جميعا امكانية الاستحمام . وسيكون ذلك ضيافة افضل .

وبعد ذلك تلفن الى مفوض اللواء وسأل منه عما اذا كان موجودا قربه شماكوف مفوض المجموعة التى اخترقت الحصار .

– نعم ، موجود . اصيب بدوخة بسيطة . فقد انفجر لغم قربه ولكنه الآن بخير بعد ان اخذ قسطا من النوم . وسوف نتناول طعام العشاء الآن .

– حسنا ، تناولا عشاءكما . وسآتى اليكما انا ايضا الآن . – قال كليموفيتش ، واصدر امره لمراسله باجراء اللازم فى حالة عودة المرشد السياسى المبيت . وخرج من الكوخ .

كانت غيوم رمادية ممزقة واطئة تجوب السماء وتطاردها الريح . وبين تلك الغيوم تومض نجوم الخريف الباهتة . وخيم على الجبهة هدوء موات حتى لكأن القتال لم يحدث فيها اطلاقا .

وفى تلك الاثناء كان سينتسوف يترجرج فى السيارة على طريق الغابة المتموج ، وهو جالس القرفصاء عند رأس سربيلين .

فى منتصف الطريق استعاد سربيلين وعيه ، ولكنه ظل صامتا . وكان يئن احيانا عبر اسنانه المصطكة عندما تهتز السيارة على نتوءات الطريق .

واخيرا سأل : – الى اين نحن؟ الى الكتيبة الصحية؟

وعندما سمع صوت سينتسوف وعرفه طلب منه ، بعد الوصول الى الكتيبة الصحية ، ان يعود الى الفرقة . هكذا ظل طوال اكثر من شهرين يسمى بعناد تلك المجموعة من المقاتلين الذين اخترقوا الحصار حاملين السلاح . وها هو الآن ايضا يسميهم بنفس الاسم .

– اريد ان ابقى معك – قال سينتسوف وهو يفكر بالكتيبة الصحية والعملية المرتقبة .

ولكن سربيلين فهمه على نحو آخر وقال :

– كلا ، يا اخى . بهذه الطريقة ستذهب معى الى الاورال . فهل يعلم احد اين سيمالجوئنى؟ ومتى ستحارب اذن؟ ان الحرب فى معمعانها الآن!

– بودى ان انتظر العملية فقط ...

– ذلك ممكن! – قال سربيلين بعد ان فهم قصده – اعتقد ، حسب فهمى كمضمد سابق ، ان الجراح ليست خطيرة ، ولكن الامر الخطر هو كثرة الدم الذى نزف .

تنهد ثم سأل بغتة :

– هل تتذكر كيف كانت طبيبتنا تبكى لان من غير الممكن نقل الدم الى الجرحى اثناء الحصار؟ المقاتلون مستعدون للتبرع بالدم ويداها هى ماهرتان ، ولكن نقل الدم غير ممكن . ليست هناك ادوات ولا مختبر ... اجل ، يا اخى ، ما اسوأ ان يكون المرء اعزل ، ليس هناك ما هو اسوأ من ذلك . وبالمناسبة لا تنسها ، واهتم بها! .. وقل لشماكوف ان يهتم بها ، واهتم بها انت ايضا ... – لمس سربيلين ، وهو يقول هذه الكلمات ، يد سينتسوف بيده الباردة من كثرة ما فقده من دماء .

احس سينتسوف بهذه اللمسة فقال بصوت مرتعش :

– ايها الرفيق قائد اللواء ...

ولم يعرف ماذا يضيف الى تلك الكلمات .

لم يكن فى هذه الحرب يخشى فقدان احد اكثر من فقدان سربيلين ، ولكنه لا يستطيع بالطبع ان يستعطفه بصوت مسموع : «ايها الرفيق قائد اللواء لا تمت!» .

كان كل العاملين فى الكتيبة الصحية مشغولين جدا . فقبل وصول سربيلين

كان قد نقل الى الكتيبة كثير من المصابين بجروح ثخينة .

ولم يكن هناك محط رجل فى شعبتى استلام وتوزيع الجرحى والتحضير العمليات .

حملوا نقالة سربيلين على عجل من السيارة وفتحوا مشمع باب خيمة استلام الجرحى ودخلوها .

دس سينتسوف نفسه وراء النقالة وشاهد فى ضوء المصابيح الاصفر الباهت للمرة الاخيرة وجه سربيلين الشاحب الذى اكتسى بمسحة زرقاء مائلة الى بياض . وقال سربيلين وكأنه يرد على رجاء سينتسوف الصامت :

– لا تخف، لن اموت . فما جئت من اجل ذلك .

الممرضون المتعبون يحملون النقالة بسيور كتفية من لفافات مربوطة . اكتافهم تهتز وترتعش، ووجه سربيلين يرتعش معها .

وفى ملاقاتهم حمل ممرضون آخرون نقالة عليها شخص مغطى بشرشف . ولعله ميت . انزوى الممرضون فى المدخل ووضعوا النقالة ثم حملوا سربيلين الى ردهة العمليات .

ظل سينتسوف ينتظر قلقا حوالى الساعتين قرب ردهة العمليات، واخيرا خرج الطبيب العسكرى الذى رافق سربيلين من لواء الدبابات وقال بانهم اجروا له نقل الدم واستخرجوا رصاصتين، وان قلبه تحمل، ويمكن القول بانه لا يوجد الآن خطر مباشر على حياته . واضاف الطبيب بحذلقة :

– فى الوقت الحاضر .

الا ان سينتسوف لم يسمع هذه الكلمات الاخيرة . فقد فهم الشىء الرئيسى : سيعيش !

وامتلأ فؤاده كله بفرحة العودة الى رفاقه، تلك الفرحة التى كانت ترزح تحت ثقل القلق على حياة سربيلين .

اقنع الطبيب العسكرى بان ينتظر عشر دقائق وتوجه الى آمر الكتيبة الصحية لكى يتلفن منه الى شماكوف .

اراد آمر الكتيبة الصحية ان يقنعه بعدم المخابرة . فان قائد لواء الدبابات المقدم كليموفيتش تلفن الى هنا واخبروه بكل شىء، كما اخبروا المسؤولين فى الجيش . الا ان سينتسوف اصر على رأيه كالاصم، فتمكنوا – فى آخر المطاف من العثور على شماكوف، حيث اتصلوا بلواء الدبابات عن طريق غير مباشر، عبر اركان فرقة المشاة التى تتبعها الكتيبة الصحية .

اخبر سينتسوف شماكوف بالتلفون عما سمعه هذا من كليموفيتش فيما يخص العملية وحالة سربيلين الصحية . ولم يكتف سينتسوف بذلك فاضاف بانه سيأتى اليه وسيحدثه شخصيا مرة اخرى . فخفف شماكوف من حماسه قائلا :

– حسنا، ولكن فلنؤجل ذلك الى الصباح . فقد خلعت جزمتى واريد ان انام، ثم انه حان الوقت لك ايضا كى ترتاح وتهدأ قليلا .

الا ان سينتسوف لم يعد يعرف السبيل الى الهدوء .

احتسى الشاى الساخن والتهم البقسماط على عجل ونهض قائلا بانه فى عجلة من امره . واثناء التوديع امسك فجأة بكوع آمر الكتيبة الصحية وراح يوضح له سعيدا طوال خمس دقائق اخرى من هو سربيلين وما هى اهمية بقائه على قيد الحياة .

وبعد ذلك راح يتحدث بنفس الحماسة طوال طريق العودة وقد تفتحت قريحته، وهو يشرح للطبيب العسكرى النعسان كيف تمكنوا من فك الحصار .

وحتى عندما وصل الى كوخ كليموفيتش لم يرغب فى النوم فورا على السرير الذى اعد له خصيصا .

لم يكن كليموفيتش موجودا . وقال مراسله النعسان متذمرا ان المقدم توجه الى الخط الامامى ليتأكد شخصيا من كيفية سحب الدبابتين اللتين انفجرت بهما الالغام تحت جنح الظلام .

فى البداية صمم سينتسوف الذى غمرته فرحة الانفعال دون ان تفارقه ان ينتظر عودة المقدم، ثم تمشى داخل الكوخ واخذ يسأل الجندى المراسل عما اذا كان لواء دباباتهم قد فك الحصار ام لا واين؟ واخيرا طلب منه ان يتأكد مما اذا كان الحمام ساخنا وهل يتمكن من الذهاب للاستحمام الآن بالذات وليس فى الصباح .

وفكر المراسل : «يا للشيطان، اى حمام الآن؟ حبذا لو رقد للنوم قبل ان تنهار ساقاه» ولكنه لم يقل شيئا، بل استدار وتنحنح وخلع سدارته من مسمار على الجدار وتوجه للاستفسار بشأن الحمام .

عندما عاد كان سينتسوف يغط فى نوم عميق وهو جالس على السرير وقد تدلى رأسه على كتفه .

هز الجندى رأسه ثم خلع جزمة المرشد السياسى المبللة المتهرئة وفك لفاف ساقيه الاسود كالسخام وامسك بكتفيه والقاه على الوسادة .

عندما فتح سينتسوف عينيه كان الكوخ مضيئا وكان كليموفيتش بجزمته وبنطاله وفانيلته جالسا على مصطبة امام مرآة معلقة على الجدار . وقد لف

رقبته بمنشفة خفيفة وراح يحلق شعره . التفت الى سينتسوف نصف التفاتة والموسى بيده، ونصف رأسه حليق، والنصف الثاني مغطى برغو الصابون وقال:

– ها قد استيقظت اخيرا .

– ايها الرفيق المقدم – قال سينتسوف وقد خفض ساقيه من على السرير وراح يتطلع بانتباه الى مضيفه – ألم اخطئ السمع امس؟ لقبك كليموفيتش، أليس كذلك؟

– بلى . ثم ماذا؟

– انا سينتسوف . ألا تعرفني؟

وضع كليموفيتش الموسى صامتا على رف النافذة وراح يتأكد، كأنما للمرة الاخيرة، مما اذا كان ذلك ممكن الحدوث ام لا . تلقف نظرة هذا الانسان النحيل العريض المنكبين بذقنه غير الحليق وهو ينهض من السرير. وتوجه كليموفيتش لملاقاته على عجل . تعانقا . واغرورقت عينا سينتسوف بالدموع نتيجة التعب والانفعال . وقال كليموفيتش باسما:

– فكرت امس بانني كنت قد رأيت هذا المرشد السياسي سابقا!

– اما انا فلم اتمكن من معرفتك بهذا الرأس الحليق، لو لا لقبك .

– حليق على النصف – تذكر كليموفيتش وعاد الى المرآة ليكمل الحلاقة .

لربما كانا سيفرحان للقاء بعضهما البعض فرحا اكبر في ملابسات وظروف اخرى . الا ان لقاء الامس في المعركة كان بحد ذاته اقصى فرحة يتمكن البشر من الاحساس بها .

كانا سعيدين حقا يوم امس، اما الآن فهما مسروران للقائهما ولتمكنهما من التعرف على بعضهما البعض رغم الانقطاع والفراق منذ سني الدراسة الابتدائية . ولذا غدا الحوار بينهما اكثر صراحة . وقال كليموفيتش وهو يغطي رأسه برغو الصابون من جديد قبيل مواصلة الحلاقة:

– احوال قائدك لا بأس بها . نقلوه من الكتيبة الصحية، ويقال انه سينقل بالطائرة الى موسكو. فقد سألوا عنه من هيئة اركان الجبهة، بل وربما من مقر القيادة العامة! وزاره قائد الجيش بنفسه منذ الصباح . لماذا لا يزال برتبة قائد لواء؟ ألم يكف الوقت لترقيته؟

– لم يكف . – اجاب سينتسوف دون ان يخوض في التفاصيل . كان قد سمع بماضي سربيلين، ولكنه الآن، بعد شهرين من القتال، لم يفكر بالتحدث عن ذلك . – يعني ان فرقتنا ستبقى بدون قائد ...

– لو كانت فرقة حقا لعثروا لها على قائد! – رد كليموفيتش – ماذا، هل كنت فيها منذ البداية؟

شرح سينتسوف بمنتهى الايجاز، بايجاز ادهشه هو نفسه، قصة تجواله قبل ان يلتحق بسربيلين .

– يعني انك همت على وجهك وصرت جنديا – قال كليموفيتش بضحكة استحسان – جمعت انا ايضا كثيرا من الهائمين خلال خروجي من الحصار. وبينهم مقاتلون شجعان يصعب علي حتى ان اتصور كيف عشت بدونهم!

تدفأ فؤاد سينتسوف من هذا الاطراء غير المباشر، فذكر ما كان يفكر به مرارا عندما خرجوا من الحصار، قال انه لن يطلب العودة الى الجريدة، وسيظل في الفرقة .

– في حالة ما اذا احتفظوا بها ولم يوزعوكم جميعا . لقد جاء مسؤولون من الجيش ومن الجبهة للنظر في قضيتكم . ولا ادري ما هو رأيهم ...

– ما الداعي للنظر في قضيتنا؟ لقد تخلصنا من الحصار كوحدة عسكرية: بالبزات والسلاح والراية ...

– لو كان الامر على غير ذلك لكان مصيركم يختلف تماما، ولأرسلوا عباد الله من امثالك الى الاختبار المنصوص عليه قانونا ولتعذبتم كثيرا: من انتم ومن اين جئتم ولماذا وقعتم في الحصار ولماذا خرجتم منه؟ – ابتسم كليموفيتش ابتسامة حزينة عندما تلفظ الكلمات الاخيرة . فزعل سينتسوف وقال:

– هل هناك ما يستحق الابتسام؟ وهل في ذلك شيء طيب؟

– اي شيء طيب؟ كان الافضل لو اننا نقاتل الآن ليس في يلنيا، بل في ضواحي كينيغسبيرغ، وكان الافضل لو ان الالمان هم الذين يخرجون من الحصار بدلنا! ومن المحتمل عموما ان قائدكم سربيلين سيثبت ضرورة احتفاظ الفرقة برقمها وامدادها بالمقاتلين، وليس توزيع ما تبقى منها . ذلك شيء محتمل جدا – كرر كليموفيتش، فقد اراد ان يهدئ من روع سينتسوف الذي اكفهر وجهه بشكل ملحوظ – لا سيما وانكم اخترقتم الحصار ورايتكم مرفوعة . قبل ايام كتبت الجريدة عن مجموعة اخترقت الحصار ووصلت بلا شيء، ما عدا الراية . فما اشد الضجة التي ثارت حول ذلك!

– وما السيئ في ذلك؟ – سأل سينتسوف بزعل .

– وما الجيد فيه؟ – سأل كليموفيتش بدوره – بالاضافة الى الراية يجب اختراق الحصار بالدبابات والمدافع وباناس يصلحون للقتال فيما بعد! اما الراية فالمرء ملزم برفعها دوما اذا احتفظ بضميره! لقد حملنا نحن ايضا الراية عندما خرجنا من الحصار في سلونيم، ولكننا لا نعتبر ذلك مفخرة لنا، فكيف يجوز التصرف على نحو آخر؟ ثم اننا خرجنا من الحصار بسبع دبابات

من مائة واربعين دبابة. وليس لدينا ما نتفاخر به! اما محرر الجريدة فراح يكرر: «الراية، الراية!». فما الذى خرجوا به ما عدا الراية، وكم عدد الاحياء الذين وصلوا؟ ذلك ما لم يكتب عنه المحرر ولا كلمة واحدة، وكأنما هو غير مهم على الاطلاق. قال له احد من محبى الكلام فرحا بانه ظل على قيد الحياة فراح هو يكتب ويمدح ...

– يبدو انك لا تحترم الصحفيين كثيرا – قال سينتسوف.

– ما الداعى لاحترامهم؟ فلو جربوا بانفسهم ما يحدث للفؤاد عندما يخرجون من الحصار ويحملون الراية ولكن بدون دبابات لما كتبوا بهذا الشكل!

– انا، مثلا، جربت ذلك بنفسى – قال سينتسوف، فقاطعه كليموفيتش:

– لا تتكلم عن نفسك الآن، فانت جندى حاليا.

قال كليموفيتش ذلك واخرج من تحت الطاولة جزمة جيدة ملفوفة بخيط وتفوح منها رائحة القار ورماها عند قدمى سينتسوف واضاف: – خذ، وجرب. اتضح ان الجزمة ضيقة، فأسف كليموفيتش لعدم وجود جزمة غيرها لديه. وتطلع الى قدمى سينتسوف الحافيتين وقال:

– قوائم ضخمة تصلح للمشاة فقط ...

– لقد مشيت بها غير قليل ...

– وهل تعتقد بانى ما مشيت؟ فعندما بقينا بدون دبابات سرنا مثل المشاة. وباختصار: بلادنا المحبوبة شاسعة واسعة ... ولو قال لى احد فى عام ١٩٣٩، بعد معركة خالخين ـ غول، بانى سأمشى على هذا النحو واقطع هذه المسافة لتصورت بانه يمزح ولقلت له ما لا يرضيه! ولكن لا بأس – نقع المنشفة بالكولونيا ومسح رأسه به بعد الحلاقة، ووسع ما بين ساقيه وكأنه يدعو احدا للمبارزة، ووقف على هذه الصورة امام سينتسوف: قصير القامة، عريض المنكبين وقد نتأت عضلاته من تحت فانيلته. – لا تهتم، انتظر عندما ادخل المانيا على دبابتى الـ ٣٤. وساضحك على درعها اذا لم ترحل معك قبل ذلك الى «ذمة الخلود» ولم ينصبوا على قبرينا نجمتين خشبيتين. يا خاوستوف، هل احضرت الفطور؟ – سأل كليموفيتش عندما سمع صرير الباب يفتح وراء ظهره.

– بالضبط! – وضع المراسل ابريق الشاى على المائدة مع الاوانى المغطاة بمنشفة.

– هل الحمام فارغ؟

– يصعب القول بانه فارغ، ايها الرفيق المقدم ...

– بعد ان نشرب الشاى رافق المرشد السياسى الى الحمام. هل احضرت له ملابس داخلية؟

– بالضبط! ولكن اخشى ... – تطلع المراسل الى سينتسوف الفارع القامة.

– فلنفطر فى الحال – قال كليموفيتش وهو يرتدى قمصلته – فانا مستعجل، وعليك ان تحلق ذقنك. الرئاسة تريد ان يجتمع ضباطكم فى الحادية عشرة. اما لحيتك فقد طالت كلحية قس، ولا يعوزك الا الصليب على الصدر.

اثناء الفطور لم يعد كليموفيتش الى الاحاديث الجدية، وكان مستعجلا على العموم.

نصح كليموفيتش سينتسوف ان يتناول الطعام ببطء ويمضغه جيدا بعد الجوع الشديد، واحتسى قدحين من الشاى على عجل ونهض.

– اعذرنى. حان موعد الذهاب. اذا اردت ان تكتب الى اهلك بانك بعثت حيا كالمسيح فاكتب لهم وسلم الرسالة الى المراسل خاوستوف، وسيبعثها اليوم مع بريدنا الميدانى.

– كيف حال عائلتك؟ اين هى؟ – سأل سينتسوف فجأة ودون ان يتعمد فى ذلك.

– ليس عندى عائلة – اجاب كليموفيتش بصوت متخشب غريب وخرج دون ان يودعه.

تطلع سينتسوف بنظرة صامتة الى الباب الذى انغلق بعد خروج كليموفيتش. وفكر سينتسوف: «لماذا اجاب بهذا الصوت المتخشب؟ ما الذى حدث لعائلته – غرام، خيانة زوجية، طلاق؟». وعندما التقت نظرته بنظرة المراسل المتجهمة المعاتبة ادرك بان كليموفيتش كان يقصد الموت، وليس الغرام او الطلاق او الخيانة الزوجية ...

اجتمع فى الخيمة الواسعة للشعبة السياسية التابعة للواء ثلاثون من القادة والمسؤولين السياسيين الذين فكوا الحصار ووصلوا مع سربيلين. خلال الليل حلقوا ذقونهم جميعا واستحموا وتهندموا. وكان البعض من الذين وصلوا بهيئة متردية جدا يرتدون الآن بزة رجال الدبابات الرمادية. فقد رقت القلوب، اذ انها ليست من حجر. وبناء على امر من كليموفيتش تفتق سخاء مساعده لشؤون المؤخرة عن عشر بزات سلمها لهم.

عندما دخلوا الخيمة وتصافحوا فرحين لم يتمكنوا فى الحال من معرفة بعضهم البعض. وكان من الصعب ان يتصوروا بان ليلة واحدة قضوها فى ظروف انسانية واستحمام وحلاقة قد غيرت ملامحهم الى هذا الحد.

قدم مفوض الكتيبة شماكوف القادة القادمين رفاقه فى السلاح ووضع على الطاولة قائمة باسماء ٣١٢ شخصا تمكنوا من اختراق الحصار عبر مواقع الالمان .

كان عدد القادة القادمين ثلاثة: مفوض فوج من الشعبة السياسية للجيش، وهو رجل رقيق طيب القلب اسود الشعر عليه آثار السهاد اذ كان يتثاءب طوال الوقت، ومقدم من شعبة التشكيل الجبهوية، وهو رجل كهل جلس بقامة معتدلة كالعصا (ظن سينتسوف للوهلة الاولى بانه متشدد جدا)، وميجر قصير القامة من الشعبة الخاصة وهو يرتدى لسبب ما بزة رجال الحدود ووجهه متجهم بشفتيه المزمومتين .

حوار الصباح مع كليموفيتش جعل سينتسوف يتوجس خيفة . فبدلا من ان يقوموا قبل كل شىء، كما كان يحلم، بصف جميع الذين فكوا الحصار حاملين السلاح رافعين الراية ويقدموا الشكر لهم بمهابة على حسن خدمتهم، جمعوهم لسبب ما فى خيمة بمعزل عن المقاتلين ... وخيل لسينتسوف ان كل شىء سيجرى ليس كما اراد الى حد يثير الغيظ .

الا ان الحوار بدأ، على العكس، بلهجة غير مغيظة اطلاقا .

كان اول المتحدثين هو مفوض الفوج من الشعبة السياسية للجيش. قال بلهجته الرقيقة ان الاصطفاف المهيب هنا، على مقربة من الخط الامامى، ليس من الحكمة بشىء . ثم ان ذلك يمكن القيام به فيما بعد، عند الوصول الى المكان المطلوب فى منطقة يوخنوف حيث سيجرى نقلهم اليوم بالذات . وان الرفاق القادة والمسؤولين السياسيين الذين يهنئهم نيابة عن قيادة الجيش بخروجهم من الحصار يجب ان يفهموا بان المسألة التى طرحها الرفيق شماكوف حول ما اذا كانت فرقتهم ستبقى وستحتفظ برقمها وستزود بالامدادات ام لا انما هى مسألة لا يمكن البت فيها بيوم وليلة، ثم ان البت فيها ليس من صلاحيته بل وليس حتى من صلاحية قيادة الجيش . وحتى يتم حل هذه المسألة من قبل الجهة الاعلى يتعين اعتبار جميع الذين خرجوا من الحصار ليس بمثابة وحدة عسكرية، بل جماعة تكونت مؤقتا فى ظروف الحصار وادت مهمتها بهذه الصفة . وطالما الامر كذلك فهى الآن غير موجودة كجماعة، وان الذين من صلاحيتهم الاهتمام بهذه القضية سيعالجون من الآن فصاعدا مسألة كل فرد من افرادها على حدة انطلاقا من رتبته ومنصبه وسلوكه اثناء الحصار . واضاف المفوض:

— لا سيما وان المعطيات التمهيدية تفيد بان الجماعة تضم ١٠٧ اشخاص

فقط من الفرقة السادسة والسبعين بعد المائة . اما الثلثان الباقيان فيتكونان من المقاتلين الذين التحقوا بها من وحدات مختلفة وفى اوقات مختلفة .

عندما كان يتحدث راح شماكوف يمسح بطرف منديله عينيه الدامعتين من الارق تحت نظاراته ويتطلع باتنباه طوال الوقت الى مفوض الفوج . فقبل ذلك دار بينهم حوار تمهيدى، ولذا فان شماكوف ينتظر بقلق ما اذا كان المفوض سيتكلم بالشكل الذى يريده شماكوف ام لا .

ثم التفت مفوض الفوج الى المقدم من شعبة التشكيل فقال المقدم بصوت متخشب انبح كالصرير بانه عندما يصل المقاتلون الى المكان المطلوب وينخرطون تحت امرة المسؤولين هناك سيستمر الحوار معهم . اما الآن فيتعين على الرفاق القادة ان يصفوا المقاتلين ويوصلوهم، تحت قيادتهم، الى السيارات التى تقف فى الاجمة على بعد كيلومتر واحد من هنا ويوزعوهم عليها بعشرين مقاتلا وضابطين اثنين لكل سيارة . والمكان المقصود هو قرية لودكوفو بضواحى يوخنوف، والمسافة مائة واربعون كيلومترا، والطريق باتجاه الجنوب الشرقى عبر يلنيا — سباس — ديمينسك، ثم على طريق سيارات يوخنوف نحو الشرق . والفاصل بين السيارات اثناء الطريق ثلاثون مترا، وفى حالة حدوث غارات جوية ينبغى توزيع المقاتلين بعيدا عن الطريق العام . وسيتوجه هو بسيارة صغيرة فى مقدمة الطابور . وبعد ان ادلى المقدم بتلك التوجيهات بصوت كنقر الطبل لزم الصمت وبدا عليه انه لا يريد ان يضيف الى ذلك شيئا .

عندما توقف المقدم عن الكلام وجه مفوض الفوج سؤالا الى الميجر من الشعبة الخاصة:

— هل لديك، ايها الرفيق دانيلوف، تعديلات على ذلك ام نبدأ بالتحرك؟

لزم الميجر الصمت برهة بشفتيه المزمومتين، فهو لا يريد الاستعجال فى الرد، ثم انفرجت شفتاه اخيرا وقال بصوت رخيم شديد انه ليست لديه اية تعديلات، ولكنه يريد ان يوجه سؤالا الى قائد الجماعة، والتفت عند ذلك الى شماكوف :

— هل جرى تسليم السلاح؟

— اى سلاح؟ — سأل شماكوف .

— سلاح الغنيمة الموجود عند افراد الجماعة .

— لماذا يتعين علينا تسليمه؟ — سأل شماكوف مندهشا . — سلاح غنيمة ام لا، لا فرق . انه سلاحنا، فككنا الحصار به، فما الذى يجعلنا نسلمه؟

اضطرب الجميع وضجوا .

انتظر الميجر حتى هدأ الصخب فقال، دون ان يرفع صوته، بانه لا يوجد فى الجيش سلاحنا او سلاحكم. يوجد فى الجيش السلاح المقرر حسب الملاك والذى يوزع فى الوقت المقرر لتوزيعه. ولا يجوز ان يكون لدى العسكريين الذين يرسلون لاجل التصنيف والتشكيل سلاح عموما، ناهيك عن سلاح الغنيمة. يجب تسليمه وليس حمله الى المؤخرة. ذلك شىء لا يحتاج الى جدال.

— ليس معروفا ما اذا كان ذلك يحتاج الى جدال ام لا! — قال شماكوف بحدة — سوف نقدم تقريرا نطلب فيه الابقاء على فرقتنا — قال. ذلك ونسى كليا بانه لم يكن اطلاقا محسوبا على ملاك هذه الفرقة.

— لن نناقش هذه المسألة معك هنا، ايها الرفيق مفوض الكتيبة — قال الميجر — ليس من صلاحيتنا ان نبت فيما اذا كانت الفرقة ستبقى ام لا. ولكن يجب تسليم كل سلاح الغنيمة بغض النظر عن حل هذه المسألة.

— ما عدا سلاح الضباط الشخصى! — قال المقدم المنتخب من شعبة التشكيل بصوت عال وبشىء من التحدى على نحو باغت الجميع كليا، بعد ان ظل صامتا حتى تلك اللحظة.

يبدو ان شيئا فى هذا الحوار قد مس وترا شخصيا عميقا لدى هذا الانسان الجاف. ونهض شماكوف وقال وهو يشد قبضتيه:

— كل ذلك مهين. مهين! — كرر بصوت عال فدوى صوته بألم: — مهين جدا. عيب علينا امام المقاتلين! — ثم صاح بوجه الميجر: — ألا تشعر بالخجل؟

كان الميجر قد نهض هو الآخر، وشحب لونه بعض الشىء، وضغط بيده على احد ابزيمى محفظته الميدانية اولا ثم على ابزيمها الثانى. وقال بصوت خافت جدا نم على توتر اعصابه:

— لدينا اوامر، طلبنا توضيحا بشأنها واستلمنا هذه التوضيحات التى توجب علينا تنفيذ تلك الاوامر، ولذا يجب تسليم سلاح الغنيمة، ايها الرفيق مفوض الكتيبة.

فى معمعان الجدال دخل الخيمة كليموفيتش الذى لم يكن موجودا من زمان، من البداية تقريبا:

— ايها الرفيق مفوض الفوج، اسمح لى بالكلام. دعانى الى التلفون قائد الجيش وطلب ان اخبرك بان المجلس الحربى للجيش امر باجراء الاصطفاف الاحتفالى للجماعة التى اخترقت الحصار بقيادة قائد اللواء سربيلين والاجتماع الحاشد القصير بمناسبة وصولها هنا، فى موقع الوحدة الموكلة الى.

التفت الحاضرون الى بعضهم بعضا. كان مفوض الفوج فى دخيلة نفسه راضيا. ففى الصباح، قبل ان يصل الى هنا، اعرب عن رأيه لآمر الشعبة السياسية وقال ان الاصطفاف والاجتماع يجب ان يعقدا فى المكان ذاته، فى لواء الدبابات، الا ان آمر الشعبة السياسية قال بان الوقت والمكان غير مناسبين لذلك على مقربة من الخط الامامى. فمن المحتمل ان يقصفهم العدو لا سمح الله!

وفكر مفوض الفوج: «مع ذلك فالنتيجة صارت كما اردت انا، وليس كما اراد. ذلك يعنى انهم غيروا رأيهم فى المجلس الحربى!».

كان مقدم شعبة التشكيل والميجر دانيلوف خاضعين للجبهة وليست لديهما اوامر مباشرة بشأن مكان وكيفية عقد الاجتماع الحاشد، ولكن ليس بالامكان الاعتراض على قائد الجيش الذى يتواجدان فى مواقعه. فقد اكتفيا بان تبادلا النظرات صامتين.

الا ان شماكوف فرح على المكشوف وقال قبل ان يتمكن احد من الرد على كليموفيتش:

— هل تسمح لى بالكلام، ايها الرفيق مفوض الفوج؟

— نعم، اننى اصغى اليك.

— ايها الكابتن موراتوف! ايها المرشد السياسى سينتسوف! اصدرا الاوامر بشأن اصطفاف ... الفرقة! — بعد فترة صمت اضاف بعناد هذه الكلمة التى انغرست فى اذهانهم جميعا.

— هذا شىء جيد! — قال كليموفيتش بعد ان جلس الى الطاولة — صحيح انى اصدرت اوامرى بذلك، ولكن لا بأس من التكرار، فالوقت ضيق، وقائد الجيش قال: اعقدوا الاجتماع دون اطالة!

تطلع كليموفيتش بنظرة ملؤها المشاطرة الى شماكوف الذى لاحت عليه امارات الفرح. فقد اعجب كليموفيتش بهذا العجوز العتيد، كما كان يسميه فى دخيلة نفسه، فان شماكوف اشيب الشعر كليا. لقد تفهم كليموفيتش مدى تألم شماكوف على جنوده، وهذا ما حمله، هو كليموفيتش، على ابداء مبادرة.

فقد كذب عندما قال ان قائد الجيش استدعاه الى التلفون. خرج من هنا خصيصا وتلفن الى القائد بنفسه وطلب منه السماح باجراء الاصطفاف الاحتفالى والاجتماع الحاشد القصير هنا، فى اللواء. «بالضبط. — قال القائد بلهجة غاضبة. يبدو انه كان مشغولا جدا — لقد بعثنا اليكم وكيل آمر الشعبة السياسية. فلماذا تتدخل انت؟ أفلا يدرك هو بنفسه؟» — ولا ادرى، ايها الرفيق

القائد . – قال كليموفيتش – يبدو ان لديه اوامر اخرى» – «واية اوامر اخرى؟! اجروا المطلوب، ولكن بدون اطالة» .

– حسنا – قال مفوض الفوج واستند الى الطاولة بقبضتيه – هل هناك اسئلة اخرى؟

– السؤال القديم : بخصوص السلاح – قال شماكوف مذكرا .

– ايها الرفيق المقدم – قاطعه الميجر مخاطبا كليموفيتش – ألم يصدر قائد الجيش امرا بعدم تسليم سلاح الغنيمة؟

– كلا – اجاب كليموفيتش.

– يبقى القرار، اذن، كما كان – قال مفوض الفوج على عجل دون ان يسمح باستئناف الجدال – بعد الاصطفاف والاجتماع يجب تسليم سلاح الغنيمة وركوب السيارات!

– لحظة، ايها الرفيق مفوض الفوج – نهض المقدم المتخشب من شبه التشكيل. تطلع الى شماكوف، وطرق في الصمت المخيم طرقة جافة بسبابته المعقوفة على الطاولة وقال خانقا:

– اطلب من الرفيق مفوض الكتيبة ان لا يستخدم في الاجتماع كلمة «الفرقة»، لان مسألة ابقاء رقمها غير محلولة، وانكم لستم فرقة بل جماعة فكت الحصار وهي مكونة من مقاتلين وضباط من اربع فرق مختلفة ومن وحدات منفصلة اخرى .

اراد شماكوف ان يصرخ في وجهه «ويا للشيطان، انك خشبة لا غير!» لكنه تمالك اعصابه وقال:

– سمعا وطاعة!

فالامر الرئيسي سيجرى كما اراد هو: «سنصف الرجال الآن ونشكرهم، اما الباقي فالى الشيطان! الباقي سيتقرر فيما بعد».

نهض من وراء الطاولة وهم باللحاق بالآخرين، الا ان الميجر كان قربه وقد لمس ردنه برفق:

– ارجوك، ايها الرفيق مفوض الكتيبة، ان تنتظر لاقول لك كلمتين!

– انني اصغي اليك، ايها الرفيق الميجر. – قال شماكوف بشيء من الاستغراب، فقد خيل اليه انه لم يبق ما يتوجب الكلام فيه .

– المسألة ... – انتظر الميجر بصبر حتى خرج الجميع ولم يبق في الخيمة غيرهما – انا، حتى الآن، لا اعرف رجالك جيدا، اما انت فتعرفهم . ما هو رأيك، هل تستطيع ان تتحمل المسؤولية كاملة عن كل واحد . ممن اخترقوا الحصار معكم؟

– المسؤولية؟ – سأل شماكوف على عجل بصوت متشدد – اعتقد انهم اجابوا بانفسهم على سؤالك بعدم البقاء عند الالمان وبوصولهم الى قواتنا عبر المعارك .

– انني افهم ذلك، ايها الرفيق مفوض الكتيبة – قال الميجر بعد ان سمع رد شماكوف الشديد اللهجة – ان وصولهم الى قواتنا بالنسبة لي حقيقة مثلما بالنسبة لك . ولكنهم ساروا تحت قيادة، وفي مثل هذه الاحوال قد يخرج من الحصار مع الآخرين شخص ما كان ينوي الخروج منه، ولما كان قد انخرط تحت امرة القيادة فهو مضطر الى الخروج مع الآخرين ولكنه لهذا السبب او ذاك لا يستحق ثقة القيادة . ألا يوجد عندكم اشخاص من هذا النوع؟

– اولا، اعتقد انه لا يوجد عندنا اشخاص من هذا النوع – قال شماكوف بسرعة – وثانيا، لقد قطعنا الجبهة ووصلنا اخيرا الى اهلنا، وانا لا افهم ما الذي يشغل بالك .

– لا يشغل بالي شيء، ايها الرفيق مفوض الكتيبة – اجاب الميجر متظاهرا بانه لا يرى انفعال شماكوف، اجاب بصبر يدل على تحمله الخارق – يهمني، كانسان يتحمل مسؤولية عمله، سؤال آخر: الا يمكن ان يوجد بين الرجال الذين وصلوا معكم اشخاص انضموا الى جماعتكم لاغراض خاصة بهم، وقد حققوا تلك الاغراض جزئيا بعبورهم الجبهة معكم، وفيما بعد سيحققون تلك الاغراض كليا، حيث يختفون بالطريق قبل اي تفتيش؛ لا ادري اذا كان عندكم مثل هؤلاء الاشخاص ام لا، ولكن الخبرة تقول ان وجودهم محتمل . ومن الافضل التفكير بذلك الآن، قبل فوات الاوان .

– ليس لدي مثل هؤلاء الاشخاص – كرر شماكوف بعناد – عثرنا على سافل واحد واعدمناه رميا بالرصاص دون ان ننتظر نصائحك . وكان هناك سافل آخر انتحر بنفسه . اما بخصوص فوات الاوان ... – اراد ان يقول: «آه، يا رفيقي العزيز، في الآونة الاخيرة صرنا نفكر كثيرا وقبل الاوان بان هذا الشخص يثير الريبة، ثم ادركنا بعد فوات الاوان انه يستحق الثقة مع ذلك!» . اراد ان يقول تلك الكلمات، ولكنه ضبط نفسه وقال بدلا من ذلك انه عمل سنة، في حينه، في هيئات اللجنة الاستثنائية لعموم الاتحاد السوفييتي وانه يعرف معنى اليقظة لا اقل من معرفة الرفيق الميجر بها ... – اذا كان المرء بالطبع يرى فيها سيفا وليس مكنسة!

— ماذا تقصد؟ — سأل الميجر بلهجة جافة.

— اقصد — قال شماكوف بنفس لهجته الخشنة — انه يجب على المرء ان يثق برفاقه. فبدون تلك الثقة تتحول اليقظة الى ريبة وذعر!

انطوت كلمات شماكوف على تحد، الا ان الميجر ما كان يريد ان يتصور بان هذا التحدي موجها ضده، فاجاب ببرود ان ذلك صحيح، الا ان الموقف اليوم يتطلب مراعاة الاوضاع، والاوضاع معقدة للغاية، ولا يجوز التغاضي عن ذلك.

— انني لا اتغاضى عنه، ولم اكن اتغاضى عنه!

— اذن، فليس عندي ما اضيفه — قال الميجر — ساسافر في آخر الطابور. وفي سيارتي «الجيب» مقعدان خاليان. بوسعك ان تسافر معي — اضاف فجأة وكأنما يريد ان يؤكد بهذه الدعوة غير المتوقعة بالنسبة لشماكوف انه، هو الميجر دانيلوف، يؤدي واجبه هنا. ويعتقد بانه على حق، ولا يعير اي اهتمام لكل المجادلات اللفظية مع مفوض الكتيبة الشديد الانفعال.

الدرب عبر غابة الصنوبر يمتد بعيدا، حتى الافق. وشمس الخريف التي لاحت عبر الغيوم تلقي ببقع شاحبة على الارض الرطبة بعد مطر يوم امس والمغطاة بالابر الصنوبرية. في الاماكن التي تلوح فيها الرمال بين تلك الابر، كانت تلك الرمال منقطة بنقط صغيرة بعد المطر. وعندما يهب النسيم تتساقط من اشجار الصنوبر القطرات التي خلفتها امطار الامس على الاغصان. فراح المقاتلون المصطفون تحت الاشجار يتضاحكون وينكمشون ويدسون اصابعهم تحت ياقات قمصلاتهم...

اصطف المقاتلون توا، ولم يحضر القادة بعد، ولذا كانوا في حالة استراحة.

خلال الليل والصباح ارسلوا الى الكتيبة الصحية زهاء ثلاثين شخصا آخرين ممن ظلوا متحمسين يوم امس في صف المقاتلين. اصطف على طول الدرب مئتان واثنان وثمانون شخصا — وهذا العدد هو بالضبط نصف العدد الوارد في قائمة مساء امس قبيل المعركة.

كان جميع المصطفين يحملون السلاح. وكان زهاء خمسين شخصا مسلحين ببنادقنا، اما الباقون فقد تسلحوا تدريجيا، طوال شهرين ونصف من المعارك، بالسلاح الالماني — بالبنادق العادية والرشاشة. وتدلت من احزمة البعض قنابل يدوية المانية ذات مقابض طويلة.

في الجناح الايسر انتصبت ستة رشاشات يدوية — اثنان روسيان واربعة

المانية — كانوا قد حملوها من الحصار، وعلى مسافة ابعد، في الجناح نفسه، انتصب مدفع هاون ميداني الماني كبير والى جانبه قذيفتان غير مستعملتين. ووقفت امام المدفع المفرزة القائمة على خدمته والمكونة من ثلاثة من المدفعيين الذين قدموا من ضواحي بريست والتحقوا بمقاتلي سربيلين في اليوم الاول للحصار. ولا يعرف احد كيف استطاعوا ان يحملوا يوم امس من هذا الجحيم الليل الفظيع الذي اختلط فيه الحابل بالنابل تلك الماسورة الضخمة وقاعدتها وحتى القذائف. لا يعرف احد ذلك، فقد ظل سرا من اسرارهم. اما الآن فهم يقفون فخورين به دون ان يخفوا مشاعرهم.

وفي الجناح الايمن وقف النقيب كوفالتشوك بقامته الضخمة الفارعة المطلة على الجميع. وبنفس الهيئة التي ظهر فيها ذات مرة امام القائد السابق للفرقة العقيد زايتشيكوف. كان كوفالتشوك قد اصيب اثناء الحصار بجرحين طفيفين ثم بجرح اثخن. وهو الآن يقف مضمد الرأس بشاش نظيف، وقد اتسع منكباه كبطل من ابطال الاساطير، وامسك براية الفرقة المنشورة وصاريتها عند قدميه. ومهما يكن من شيء، فقد حمل هذه الراية بيده من البداية حتى النهاية ووصل بها سالمة!

عندما استلموا قبل نصف ساعة الامر بالاصطفاف وراحوا يبحثون عن كوفالتشوك عثروا عليه في طرف الغابة جالسا على قرمة وقد فتح سكينه المطوية وراح يعد صارية جديدة. اما الآن فهو يقف وبيده الراية المثبتة الى الصارية الجديدة. وكان بوسع الجميع ان يقرأوا على قماشها الباهت المتهرئ بعض الشيء نفس الكلمات التي قرأها المرحوم زايتشيكوف قبل اكثر من شهرين: «الفرقة ١٧٦ الحائزة على وسام الراية الحمراء والتابعة للجيش الاحمر العمالي الفلاحي...».

كان سينتسوف، كالآخرين، ينتظر بفارغ الصبر بداية الاحتفال. وقد وقف على مقربة من الراية وراح يتحدث الى شخص لم يتوقع ان يلتقي به هنا.

قبل ان يلتقي كليموفيتش الى قائد الجيش استدعي مسبقا، وتحوطا للطوارئ، قائد كتيبته الاستطلاعية مع جنود الدبابات الذين استبسلوا في المعركة الليلية، وذلك ليساهموا في المراسيم. وصل قائد الكتيبة بسيارة شحن، وقد نزل منها المقاتلون الذين جاءوا معه. وعندما هبط هو من قمرتها التقى بالمرشد السياسي النحيف الفارع القامة جدا والذي تتدلى من رقبته بندقية رشاشة المانية. تطلع كلاهما — كابتن سلاح الدبابات والمرشد السياسي — الى بعضهما البعض

صامتين بضع دقائق. واخيرا بادر سينتسوف الى الكلام، لان ذاك اللقاء علق فى ذاكرته اكثر مما فى ذاكرة الكابتن وقال:

– التقينا فى ضواحى بوبرويسك، اليس كذلك؟ احتجزتنى انت، ثم ابقيت معاونى لوسين عندك... والطيار ظل معكم ايضا...

– بالضبط! – قال الكابتن مرحا – مع الاسف انك لم تبق معنا، والا لحاربنا جنبا الى جنب!

– كنت جريحا آنذاك – ذكره سينتسوف.

– هل التأم جرحك الآن؟

– التأم.

– الم يضيفوا اليه جروحا اخرى؟

– لم يضيفوا بعد.

– انت محظوظ اذن. اما انا فقد نهشوا لى كتفى خلال هذه الفترة، واقتطعوا قطعة من لحم... معذرة على هذه اللفظة البذيئة.

– هل كنت آنذاك والآن ايضا فى هذا اللواء طوال الوقت؟ – سأله سينتسوف.

– اجل، فكيف لا؟

– اتضح ان قائدكم... – اراد سينتسوف ان يقول «زميلى فى المدرسة»، ولكنه قال بدلا من ذلك: من معارفى القدامى.

– لاحظت كيف؟ – قال الكابتن باسما – اما انا فقد كنت آنذاك اتحدث معه بالتلفون بحضورك. فلماذا لم تخبرنى؟ كان يوصى ان اعطيك الساعة فى الحال!

– فى تلك اللحظة ما كنت لتعطينى الساعة! انا اشك فى ذلك! – قال سينتسوف ضاحكا.

– محتمل – اطلق الكابتن ضحكة مبتسرة – عندما تكون الاوضاع عصبية فانا مضطر بدورى ان اكون متشددا بعض الشىء. ولكننا استقبلناكم هنا بكل ترحاب، فقد اخترقتم الحصار باتجاه كتيبتى الاستطلاعية مباشرة!

– اعتقد انك كنت آنذاك مساعدا لشؤون المؤخرة، اليس كذلك؟

لوح الكابتن بيده تلويحة مستهينة وقال:

– عندما يشق المرء طريقه عبر القوات الالمانية ينسى اين هى المقدمة واين هى المؤخرة. فتارة يسدد الضربة الى الوجه مباشرة، وتارة يترافس كالحصان. كنت مساعدا لشؤون المؤخرة، فصرت استطلاعيا. وبالمناسبة، لا داعى لان

اوضح لك ذلك، فانت نفسك كنت مع الذين اخترقوا الحصار. وخرجتم ببسالة خيالية، اجل خيالية! فطوال شهر لم يخرج من الحصار احد، وتصورنا ان احدا لن يخرج. يبدو ان قائدكم يتحلى «ببسالة خيالية»! – اضاف باستحسان. – يقال انه اصيب بجراح، فهل ذلك صحيح؟

هز سينتسوف رأسه بالايجاب.

– شىء مؤسف!

– اسمع – تذكر سينتسوف لوسين من جديد – كيف حال رفيقى الذى عندكم؟

– أتقصد معاون المرشد السياسى ذا الطاقية المائلة؟ – قال الكابتن مقهقها – انه، بالمناسبة، شخصية ممتعة. فى البداية عاند ورفض البقاء عندنا. وبعد ذلك، عندما رأى ان محاولاته اخفقت، قاتل ثلاثة ايام بشكل مقبول تماما، وفى اليوم الرابع، عندما استقر الوضع بعض الشىء، توجه الى القيادة رأسا واشتكى من الاكراه ومن تعسفنا والخ. وسافر الى جريدته. كنا ننوى منحه مدالية لقاء ايام القتال تلك، وغيرنا رأينا، طبعا عندما غادرنا.

– والطيار؟

– لا ادرى به – هز الكابتن كتفيه – فى اليوم الثانى اصيب بجراح، ولا ادرى اين هو الآن فى السماء ام على الارض ام تحتها.

– ولا يزال لقبك ايفانوف، وكل ابناء روسيا لقبهم ايفانوف؟

– كل ابناء روسيا – ابتسم الكابتن.

طبطب على كتف سينتسوف بود، وانسحب الى الوراء زهاء ثلاث خطوات، ووضع يديه على صدره وتطلع طويلا باعجاب شديد الى الراية التى كان يمسك بها النقيب كوفالتشوك.

– ما اروع ذلك! حتى البدن يقشعر له!

تقدم شماكوف الى وسط الدرب واصدر امره بالاستعداد، فاستعد الصف المختلط وقرقع سلاحه وتجمد الجميع وكأن على رؤوسهم الطير. وعلى الجناح الايمن للصف وقف بمسافة بينية طولها خطوتان جنود الدبابات من الكتيبة الاستطلاعية وعلى رأسهم قائدهم.

وتقدم الى الامام مفوض الفوج الذى قال بصوته الرقيق الواطىء انه بتكليف من المجلس الحربى للجيش وبالنيابة عنه يهنئهم بمأثرة الخروج من الحصار حاملين السلاح رافعين الراية. ولم يذكر كلمة «الفرقة» ولا «الجماعة».

فقد تحاشى ذلك وقال مباشرة: «ايها الرفاق! اهنئكم ...» . وردا على هذه التحية هتف الصف من صميم القلب وباصوات غير متجانسة «نحن في خدمة الاتحاد السوفييتي!» .

ثم خطا مفوض الفوج خطوة الى الوراء، وخطا المقدم كليموفيتش خطوة الى الامام .

لم يقل مفوض الفوج الذى تكلم قبله اى شيء مهم، لم يقل غير بضع كلمات عادلة . ولكن عندما احتوى كليموفيتش، قبل ان يتكلم، الصف كله بنظرة من عينيه بوغت بالدموع تنهمر على خدود الكثيرين . فقال بصوته الجهورى:

— ايها الرفاق المقاتلون والقادة! لن ينسى لواء الدبابات السابع عشر ابدا مأثرتكم واخوتنا في القتال الليل عند الكيلومتر ٢١١ حيث مددنا لبعضنا البعض يد الصداقة الكفاحية . وان كتيبتنا الاستطلاعية — واشار بيده الى الكابتن ايفانوف الواقف امام جنوده — ستظل دوما تفخر بأنكم وصلتم الى قواتكم في قطاعها القتالى . ايها الكابتن، اصدر امرك باطلاق صلية تحية للصداقة الكفاحية!

رفع جنود الدبابات بنادقهم واطلقوا صلية التحية . وخيم الصمت .

وانتظر كليموفيتش لحظة اخرى، ثم قال الشيء الوحيد الذى بقى عليه، كما يعتقد، ان يقوله: — الموت للمحتلين الفاشيين!

وكان شماكوف ثالث المتكلمين . وكان حظه هو الاصعب فقد تعين عليه اختتام احتفال التكريم والتلفظ بآخر الكلمات العادية تماما حول تسليم السلاح وترتيب السفر الى المؤخرة .

كان يريد قول الكثير، ولكنه ضبط نفسه، ولذلك تمكن من اداء المهمة . وتهدج صوته لحظة عندما مد يده الى الراية وقال بأنهم سيمضون بقيادة قائد اللواء سربيلين الذى خرج من الصف موقتا وتحت هذه الراية بالذات، راية الفرقة ١٧٦، على نفس الطرق التى انسحبوا فيها . وبذل جهدا اراديا حتى استعاد صوته لان الدموع لا داعى لها هنا، وصاح بشيء من المرح على سليقته ذاكرا بنفس الالفاظ تقريبا العبارة التى كان سيقولها ستالين بعد عام من ذلك التاريخ: «سيجيء العيد الى شارعنا ايضا، ايها الرفاق!» .

ودوى بين الصفوف هتاف «اوراء» المضطرب المخلوط بدموع الانفعال .

توقف شماكوف لحظة، وكان حسب الظاهر هادئا جدا، اما في دخيلته فكان يبذل جهدا هائلا ليتظاهر بالهدوء . ثم قال بلهجة كأنما هي البديهية ذاتها: طالما يتوجهون الى مؤخرة الجبهة فمن الضرورى قبل السفر تسليم كل اسلحة الغنيمة الموجودة، وكذلك ذخيرة هذه الاسلحة، وبعد الاستجمام واعادة التشكيل سيزودون جميعا بالسلاح كما يجب، اما سلاح الغنيمة فهو ضرورى للجبهة هنا . وعندما شمرت بين الصفوف بهسيس الحيرة اضاف قائلا:

— سنحتفظ، ايها الرفاق، بقوائم كل ما سنسلمه، لكى نتذكر من الذى نزع سلاح الغير اثناء اختراقنا للحصار، الالمان نزعوا سلاحنا، ام نحن نزعنا سلاح الالمان .

ثم قال ان سيارات الشحن وصلت لتقلهم الى المؤخرة، وسيبدأ ركوب السيارات فور تسليم السلاح .

واصدر امره بالاستراحة .

تقدم قادة السرايا والفصائل من الصف وشرعوا بتسليم الاسلحة، اما شماكوف فقد التفت الى مفوض الفوج والقى عليه نظرة متسائلة: «ماذا؟ هل فعلنا كل ما اتفقنا عليه؟» . وهز ذاك رأسه بالايجاب .

— ومع ذلك لم تضبط نفسك فذكرت الفرقة! — صر صوت المقدم المتخشب موجها اللوم الى شماكوف .

— لم اذكر الفرقة، بل ذكرت راية الفرقة! — اراد شماكوف ان يجيب بلهجة غاضبة، ولكنه استبدل الغيظ باللين وابتسم: — الافضل ان لا تتورط معى ايها الرفيق المقدم . فانا متضلع في الديالكتيك، ولدى درجة علمية في هذا المجال، ولو بدأنا نتجادل بشأن الصياغات فسأغلبك من كل بد!

استغرق تسليم سلاح الغنيمة ساعة . بعض المقاتلين سلموه بلامبالاة: فما دام تسليمه واجبا فلنسلمه . والبعض الآخر زعلوا وراحوا يطلقون الشتائم همسا، اما البعض الثالث فقد اخفوا المسدسات، اذ ان التخلى عنها مؤلم حقا .

سلم سينتسوف بندقيته الرشاشة الالمانية وظل بدون سلاح، فلم يكن لديه مسدس . واتضح ان ضباطا كثيرين صاروا في مثل حاله . فاثناء الخروج من الحصار لم يعتبروا المسدسات سلاحا جديا ولذا فضلوا عليه البنادق الرشاشة او القصيرة المغتنمة .

— اسرعوا، ايها الرفاق! — قال كليموفيتش فجأة بعد ان اقترب من شماكوف . فقد هرع الى كليموفيتش قبل لحظات مناوب العمليات وقال له

شيئا جعل مزاجه يتغير في الحال، واضاف : — اسرعوا، كي تغادروا المكان بعد خمس دقائق!

شد على يد شماكوف دون ان يدخل في التفاصيل وحيا الباقين واستدعى ايفانوف قائلا :

— فلنمض، ايها الكابتن!

ولحق بهما سينتسوف . ونادى كليموفيتش :

— ايها الرفيق المقدم!

توقف كليموفيتش واستدار نحوه وشد على يده :

— وداعا يا عزيزي . ارحلوا ولا تتأخروا . اعذرني، ليس عندي وقت ...

وواصل سيره .

الفصل الثامن

منذ اكثر من ساعة والطابور المكون من ثلاث عشرة شاحنة وسيارتي جيب في المقدمة والمؤخرة يسير في درب غابي يؤدي، كما يقول العارفون، الى طريق يوخنوف العام .

الطقس جاف من جديد والرياح شديدة بعد الامطار التي تساقطت يوم امس . وعلى جانبي الطريق اختلطت اجمات اشجار الخريف الصفراء والحمراء بالحقول الخريفية الرمادية المنبسطة حتى الافق البعيد . وكانت الاوراق الذابلة التي تتلاعب بها الريح تعبر الطريق طائرة بين عجلات السيارات . وفي بعض الاحيان تلوح الشمس عبر الغيوم، فيغدو الجو دافئا مرحا .

قبل ان يصعدوا السيارات، عندما كانوا يسلمون السلاح، سأل سينتسوف من شماكوف عن الواجبات التي يتعين عليه اداؤها الآن وعن السيارة التي ينبغي له ان يصعد اليها .

فعندما فقد سينتسوف فجأة سربيلين الذي كان يؤدي له كل الواجبات دفعة واحدة — واجبات المرافق والمراسل والكاتب، احس بأنه متفرغ على غير المعتاد .

— لا تستعجل! — قال له شماكوف برقة وبدون تكلف . فقد رق فؤاد شماكوف بعد احتفال التكريم وامتلأ بالطيبة ازاء كل ما يحيط به — سننظر في الامر عندما نصل . بوسعك ان تصعد الى اية سيارة تريد . في الوقت متسع، وسيكون بوسعك ان تقود قدر ما تشاء!

وصعد سينتسوف الى اول سيارة تصادفه وسط الطابور .

والى جانبه في السيارة جلس الجندي زولوتاريف الذي وصل اليهم تلك المرة مع العقيد بارانوف . وكان زولوتاريف يرتدي نفس السترة الجلدية، ولكنها الآن ممزقة متهرئة . وكان يحمل نفس البندقية التي شاهدها سينتسوف

آنذاك. وعندما كانوا فى طوق الحصار لم يطمع ببندقية من سلاح الغنيمة، فربح الآن حيث لم يسلم بندقيته.

وجلس جنب زولوتاريف من الجهة الاخرى سائق من لواء الدبابات طلب منهم ان يوصلوه الى قاعدة التصليح فى المؤخرة حيث تقف شاحنته.

فى البداية دار الحديث حول شيء واحد، هو سلاح الغنيمة الذى سلموه. وكان السائق من لواء الدبابات يطلق نكات متواصلة حول هذا الموضوع، فيقول:

– بالطبع لا يطمع احد بهاونكم ورشاشاتكم، حتى ولو غنمتم مدفعا. اما البنادق الرشاشة فسيدور النزاع حولها بالذات. فكيف وافقت قيادتكم على تسليم هذه الغنيمة الدسمة؟ لو كنت قائدا لكم لما سلمت شيئا على الاطلاق!

– ما الداعى لنقلها الى المؤخرة! الحاجة اليها فى الجبهة اشد – اعترض سينتسوف ليس من صميم الفؤاد، بل من اجل وضع الامور فى نصابها.

– فى الجبهة! انكم لستم مسافرين الى سيبيريا. ستعودون الى الجبهة من جديد!

– سنعود، ولكن ليس فورا.

– توضيحاتك صائبة ايها الرفيق المرشد السياسى – اجاب السائق باحترام ظاهرى، ولكن بوميض ساخر فى العينين الماكرتين. – ولكنى لن اسلمها اطلاقا لو كنت بدلك! سينشب صراع شديد على بنادقكم هذه!... قائد لوائنا سيضع يده عليها دون شك. وسيقول: اتركوها للواء! وسوف يأتى مسؤولون من مؤخرة الجيش بلا ريب وسيقولون: اعطونا بنادق! وسيأتى آخرون من الفرقة المجاورة وسيطلبون حق الجيرة: الا تتنازلون لنا عن شيء منها؟ اما عن هيئة اركان الجيش فحدث ولا حرج! سيأتون ويأخذون البنادق! وسيقولون انكم، يا جنود الدبابات، حصلتم على بعض الغنائم فى يلنيا. وعلى العموم كان القتال فيها... فى يلنيا حاميا، والغنائم قليلة... اجل، قليلة...

وانتقل الحديث الى المعارك الاخيرة فى ضواحى يلنيا والتى لم يشارك فيها السائق المذكور، كما فهم سينتسوف، ولكنه، على ما يبدو، يكرر ما سمعه عن الآخرين. فراح يتحدث بشيء من المبالغة ويقول انه كان لدى الالمان فى معركة يلنيا ثمانى فرق وجيش كامل، وان قواتنا ضربتهم بشدة، ولكنها تلكأت بعض الشيء فى الاخير. ولولا تأخر النجدة من «الجيران»، كما يقول السائق (لم يدقق بالضبط اى «جيران» وما هو وجه تقصيرهم) لكان بالامكان تضييق الخناق على الالمان جميعا.

كان جميع الجالسين فى السيارة يستمعون اليه باهتمام والسيارة تتقافز على الطريق فيفوتون بعض الكلمات والعبارات ويتساءلون عنها من بعضهم البعض. وعندما تحدث السائق عن تضييق الخناق سأل احدهم بمرارة:

– يعنى اننا افلتناهم، اليس كذلك؟

– لم نفلتهم تماما – اجاب السائق – ولكنهم سحبوا آلياتهم... فقد قلت ان الغنائم قليلة.

ومع ان جميع المستمعين فرحوا لان قواتنا ضربت القوات الالمانية بفرقها الثمانى فى معركة يلنيا ولكنهم اعتبروا فى الوقت نفسه عدم السير بالامور حتى النهاية وعدم تضييق الخناق عليها اهانة شخصية لهم. فقد كان جميع ركاب السيارة يتحرقون شوقا الى جعل الالمان يقعون فى الحصار ويعانون ما عانوه هم.

وبعد ذلك، بعد فترة من الصمت، سأل احدهم عن حجم الخسائر فى معركة يلنيا.

– ماذا اقول؟... – اجاب السائق بدون تحديد – ذلك شيء نسبى. ثم ان الخسائر بالارواح شيء، وبالآليات شيء آخر...

وادرك سينتسوف ان الخسائر جسيمة، وان السائق لا يريد التحدث عن ذلك الآن.

وسأل شخص آخر:

– وسلاح الجو؟

– لا تحلق طائرات! – افلت السائق يده من متن السيارة واومأ بها الى السماء – نحن نسير ولا طائرات هناك. وقد صادفت ايام لا يستطيع المرء ان يخرج فيها انفه من الخندق. اما الآن بوسعى ان اقول اننا نسير دون اى خوف. صحيح ان الايام الاخيرة هادئة، وان الطائرات نادرا ما تحلق، حتى ان ذلك يثير القلق، فما سببه؟

– ومع ذلك، ما هى الخسائر؟ – سأل بعناد من جديد الجندى الذى تساءل عن الخسائر فى المرة الاولى. – عندكم، مثلا، فى اللواء، كم كان عددكم فى بداية الحرب وكم هو الآن؟

– ماذا اقول؟... – حاول السائق ان يتملص من الجواب – فى المعارك الاولى خسرنا عددا من المقاتلين، وبعد ذلك خلال اختراق الحصار تكبدنا خسائر اخرى. صحيح ان بعض المقاتلين انضموا الينا فى الطريق...

– انضموا الينا ايضا – رد عدة اشخاص دفعة واحدة.

وواصل السائق كلامه منطقيا:

– ثم ان الذين تخلفوا عنا كان يمكن ان يلتحقوا بغيرنا . واحدة بواحدة . ثم اعيد التشكيل، وبدأ الحساب من جديد . وبعد ذلك نشب القتال فى ضواحى يلنيا، وها نحن ننتظر الامدادات من جديد ... فكيف يمكن عد الافراد؟ انا، مثلا، فى اللواء منذ الايام الاولى، منذ سلوتيم .

– هل ان عدد امثالك كبير؟

– لم احسبهم، لا ادرى! – قال السائق متذمرا .

وفكر سينتسوف من جديد: «ليس كبيرا!» ثم سأل:

– كيف تستلمون الرسائل الآن؟ هل البريد الميدانى يعمل جيدا؟

– الرسائل تأتى، ولا استطيع القول انها سريعة او بطيئة، ذلك يتوقف على مكان وجود الاهل . فاين اهلك انت، مثلا، ايها الرفيق المرشد؟

– لا ادرى! – اجاب سينتسوف عابسا ما كان يريد الخوض فى هذا الموضوع .

– لا يوجد شىء اسوأ من الجهل بمكان الاهل – تنهد السائق ولاذ بالصمت .

عندما سمع سينتسوف هذا الجواب فكر «ربما ضاعت عائلته هو ايضا . وربما العكس هو الصحيح، ضاعت عائلته اما عائلتى فقد عثروا عليها خلال هذه الفترة . فالحرب ليست كلها تعاسة، اذ تصادف فيها سعادة ايضا! ...» .

استند بكوعه الى السيارة وراح يتطلع الى الاسفل، الى شريط الطريق الرمادى المنفلت تحت العجلات، ويفكر بما ينتظره، هل هو السعادة ام التعاسة؟ اين ابنته؟ لعل حماته عادت معها الى موسكو عندما وصل هو الى الجبهة . او ربما بقيتا هناك، فى غرودنو، وذلك يعنى انه لا شىء معروف عنهما، ولا شىء يمكن ان يعرف ... واين ماشا؟ هل التحقت بالجيش ام لا؟ لم يتمكن من الكتابة اليها صباح اليوم، فقد عزم على الكتابة فى المساء، بعد ان يصلوا الى المكان المطلوب . وسأل سينتسوف:

– اذا كانت العائلة فى موسكو فهل تصل اليها الرسالة من هنا فى اسبوع؟

– فى حوالى عشرة ايام .

– ومتى تصل الرسالة الى فيازما، مثلا؟ – سأل سينتسوف من جديد .

– فى مدة اطول مع ان فيازما اقرب – قال السائق – فالبريد يصل اليها عن طريق موسكو... فيازما تابعة الى محافظة سمولينسك، ومحافظة سمولينسك يحتلها الفريتس!

كاد سينتسوف يسأل: «ماذا؟» فقد سمع بكلمة «الفريتس» لاول مرة . الا ان السائق الذى لاحظ الحيرة تنزلق على محيا سينتسوف قال موضحا:

– نحن الآن نسمى الفاشيين «بالفريتس» . الم تسمع بهذه الكلمة هناك، اثناء الحصار؟

– لم نسمع بها – اجاب زولوتاريف بدلا من سينتسوف .

فضحك السائق وقال:

– ذلك يعنى انكم كنتم معزولين عن العالم تماما .

– انك على حق . كنا معزولين – قال زولوتاريف وطبطب على ركبة سائق لواء الدبابات – فانا، مثلا، لم امسك بمقود السيارة منذ ثلاثة اشهر تقريبا .

– كلنا لم نمسك بشىء طوال ثلاثة اشهر واكثر، ولا احد يتشكى . نسير صابرين، اما هو فيذرف الدموع على مقوده ... – قال صوت مرح رفيع من ركن السيارة .

وضحك الجالسون فى السيارة واضافوا الى ذلك بضع عبارات اكثر ابتذالا . فاستمر الجدل وشمل الجميع لبضع دقائق، ثم خفت من جديد .

وقال زولوتاريف بعناد مؤكدا على اختصاصه فى السياقة وممسكا بردن سائق لواء الدبابات:

– اننى احن الى مقود السيارة . بودى ان اجلس وراءه الآن – واومأ الى قمرة الشاحنة – واسير!

– هل كنت تعمل فى شاحنة؟

– كلا، فى سيارة صغيرة . كانت سيارة «جيب» جديدة تماما .

– ماذا؟ هل قصفوها ام انك تركتها؟

– احرقتها... امرونى باحراقها...

– كنت سائقا لمن؟ – سأله سائق لواء الدبابات .

– كنت سائقا لاحد... – قال زولوتاريف والتقت نظرته بنظرة سينتسوف فلم يضف الى ذلك شيئا .

فقد شاءت الملابسات ان يكون كلاهما شاهدين على الكيفية التى مات فيها الشخص الذى ما اراد زولوتاريف ذكره الآن .

فى الشهر الثانى من الحصار كان سينتسوف يسير ذات مساء بخطواته العريضة فى فصيلة خوريشيف وهو يحمل امرا من اوامر سربيلين .

كان الوضع فى ذلك المساء شبيها بالوضع فى الايام الاولى من الحصار . فى

الليل توجب في كل بد اجتياز الطريق العام، وكان القتال سينشب في اغلب الظن .

بعد ان تحدث سينتسوف مع خوريشيف جلس ليدخن قبل ان يتوجه في طريق العودة . وحقق خوريشيف اعجوبة في السخاء، حيث قدم له، لاجل سجارة لف واحدة، مسحوق التبغ الرخيص المخلوط باوراق الاشجار الجافة المفرومة .

اخذ افراد الفصيلة مواقعهم حواليه بين الشجيرات . كان البعض يستجمون لان اسلحتهم جاهزة نظيفة، اما الباقون فراحوا ينظفون سلاحهم استعدادا للمعركة .

كان زولوتاريف جالسا قرب سينتسوف وخوريشيف وهو ينظف بندقيته متشكيا من ان مسح الماسورة بقماش جاف بدون زيت البنادق يشبه حك حنجرة الانسان بقشرة جافة .

وعلى بعد عشرين خطوة منهم جلس بارانوف على قربة وانهمك بتنظيف مسدس من مسدسات الغنيمة .

وبتكليف من سربيلين كان سينتسوف قد سأل خوريشيف اليوم بالذات عن بارانوف، فاجابه متذمرا بان بارانوف يقاتل ليس على ما يرام، ويبحث عن الاسهل ...

واوضح خوريشيف فكرته قائلا :

— قبل ايام استبدل بندقيته الرشاشة بمسدس اخذه من احد المقاتلين . البندقية ثقيلة عليه كما يقول! فهل بوسعي او بوسعك ان نقوم بمثل هذه المبادلة؟ انني لا اقوم بها وان هلكت! فالذي ينوي القتال حتى آخر قطرة من دمه هل يستبدل البندقية بهذه الدمية؟

وها هو بارانوف جالس على القربة بعيدا عن الآخرين وقد انهمك بمسدسه .

وفكر سينتسوف آنذاك : لماذا يجلس متفردا؟ واجاب بنفسه : ربما لانه ليس راضيا على مصيره . والآخرون يشعرون بذلك فيتجنبونه .

هكذا فكر ببارانوف، ثم اخذ نفسا من السجارة وتطلع الى زولوتاريف فرآه يتحاشى غواية التدخين وينظر الى جهة اخرى، فسلمه سجارة اللف وقال: «خذ نفسا!» .

امسك زولوتاريف بالسجارة حذرا باصبعين واخذ نفسا عميقا وقصيرا كيلا يستأثر بالاكثر واعاد السجارة الى سينتسوف .

وفي تلك اللحظة دوت طلقة .

— من اطلق النار؟ — صاح خوريشيف بصوت ابح غاضب وقد قفز ناهضا . كانوا قد رابطوا على مقربة كبيرة من الطريق العام، بحيث لا يمكن باية حال السماح بمثل هذه الامور . ولكن لا حياة لمن تنادي . فقد خر بارانوف صريعا . كانت الاطلاقة من مسدسه، وقد اصابت الطلقة جبينه مباشرة فاخترقت رأسه .

ظن سينتسوف آنذاك ان بارانوف انتحر بعد ان تعب من المخاطر اليومية او خاف من المعركة المرتقبة . وربما كان هناك سبب آخر، من يدري؟ فهو لن يرد على التساؤلات ...

الا ان سربيلين هز رأسه عندما اخبره سينتسوف بذلك وقال :

— لا اصدق بانه يمكن ان ينتحر . الاطلاقة بالصدفة، مع ان للصدف اسبابا : صار مهملا لا يهتم بنفسه، واخذ ينظف المسدس باهمال ايضا، وهو سلاح جديد عليه . ذلك هو سبب الرصاصة في الجبين . وبوسعك ان تصفها كما تشاء : بالصدفة او بدون صدفة .

ظل سينتسوف على رأيه، وعلى العموم فهو لم يفكر بذلك طويلا . فان المعركة الليلية التي قتل فيها الكثيرون قد غطت فورا على ما حدث .

وشطب سينتسوف اسم بارانوف من القوائم كما يفعل عادة عند حساب كل الخسائر . وانتهت القضية عند هذا الحد ...

ولكنه عندما التقت نظرة سينتسوف بنظرة زولوتاريف الآن تذكرا كلاهما الصوت الجاف لتلك الاطلاقة في الغابة والتي قطعت حبل حياة الشخص الذي لم يرغب سائقه السابق في ذكر اسمه .

— هذه قريتي، هذا منزلي الحبيب! — صاح سائق لواء الدبابات مرحا وطرق على سطح قمرة الشاحنة : — تمهل، هنا ينبغي ان تستدير نحو قاعدة التصليح .

في المكان الذي نزل فيه يمتد الى اعماق الغابة طريق عليه آثار سير جديدة . وعلى طرف الغابة استقرت مدافع مضادة الجو في حفر مربعة ومغطاة بشباك تمويه . وعلى الطريق نحو اعماق الغابة زحفت دبابتان من طراز ت — ٣٤ وهما تزأران مخلفتين حزوزا مسننة مزدوجة .

تذكر سينتسوف كلام السائق عن قاعدة التصليح وفكر في نفسه «لعلهم يجربون السير بعد التصليح» .

تجاوزوا الدرب الغابي وواصلوا السير بعد ان افسح لهم المجال طابور من الشاحنات الجديدة الخضراء المليئة بصناديق الذخيرة. وكانوا قد صادفوا طابورا آخر من هذه الشاحنات قبل ذلك، عندما خرجوا من الغابة. وقد رأوا المدافع المضادة للجو ليس للمرة الاولى. فقبل نصف ساعة شاهدوها لمحا فى اجمة قرب احد الجسور التى اجتازوها.

كانت اعمدة الدخان تتصاعد فوق الغابة فى بعض المناطق. وشاهد سينتسوف فى احد الاماكن بطارية للمدافع الثقيلة. وعند مداخل الجسور وقف الحراس.

وعلى ارتفاع شاهق سبحت نحو الغرب ثلاثة اسراب من تسع قاذفات قنابل سوفييتية فى كل منها وترافقها المقاتلات.

ولو سألنا سينتسوف الآن عما يهدئ من روعه اكثر من اى شيء آخر بعد ما عاناه فى الحصار فلربما اجاب ان ما اعاد الاطمئنان الى فؤاده هو بالذات امارات الجيش ودلائل النظام العسكرى المرتسمة على مشهد الحياة السلمية فان هذه الامارات والدلائل بمثابة وعد له بان ما شاهده لن يتكرر بعد الآن، وان الجيش نهض هنا، نهض من زمان وعلى نحو راسخ، وانه لن ينسحب امام الالمان.

عندما تذكر سينتسوف الالمان الآن كان يريد شيئا واحدا لا غير، هو ان نفعل بهم كل ما فعلوه بنا، ان نطاردهم مثلما طاردونا، وان نقصفهم ونطلق النار عليهم من الجو، وان نلتف عليهم ونسحقهم بالدبابات وان نطوقهم ونخنقهم بدون طعام ولا ذخيرة، وان نأسرهم ولا نرحمهم، مثلما فعلوا بنا تماما. اراد سينتسوف ذلك، واراد بشدة تجعله يضحك فى وجه الشخص الذى يتجرأ على القول بأن ثأره هذا سيهدأ فى يوم ما وان حقده هذا سينضب.

كانت الشاحنة تسير وكان سينتسوف يفكر بهجومنا المرتقب: فهذا الهجوم سيتحقق فى وقت ما، اليس كذلك؟

والى جانب ذلك كان هناك شعور آخر، شعور بالاستجمام والسعادة الغامرة. فخلال شهرين ونصف امتلأ ذهنه وبصيرته برؤية الارض والسماء والصنوبر والبتولا، والفسحات الخالية فى الغابات، واجمة الشوح هذه التى تركض الآن لملاقاة الطريق. والهدوء يخيم فى بعض الأحيان عميقا ساكنا حتى يمكن سماع الانفاس... الا ان ذلك كله، على ما يبدو، كان هناك، فى مؤخرة الالمان على غير ما هو عليه هنا: فالبتولا غير البتولا، والصنوبر

غير الصنوبر، والارض غير الارض، وحتى الهدوء يختلف عما هو عليه...

اما الآن فكل ما يلوح امام الانظار يفرح القلب ويثير السعادة. كانت السعادة تنبعث من كل شيء: من السيارة التى تنهب بهم الدرب نهبا، ومن خصلات شعر خوريشيف الشقراء المتطايرة فى الريح، حيث مد رأسه من قمرة الشاحنة السائرة فى الامام، ومن اشجار الشوح، السماوية اللون واشجار البتولا المصفرة الاوراق، ومن الاجمات والحقول، ومن دخان المداخن، والناس، والمدافع المضادة للجو، ومن طائراتنا المحلقة فى الاعالى، ومن مقاطع الاغنية المنبعثة من الشاحنة فى الامام.

كان سينتسوف يسبح فى هذه السعادة الغامرة ويتطلع بنهم الى كل شيء بعينين سعيدتين دامعتين من الريح ويبتسم دون سبب، وهو يتحسس برد الخريف الذى يكتنفه متسربا الى تحت ياقة المعطف.

وعلى هذا النحو بالضبط كان مفوض الكتيبة شماكوف يبتسم احيانا مع نفسه صامتا، وهو جالس ينظر من النافذة الجانبية فى سيارة «الجيب» بآخر الطابور. كان جالسا على المقعد الخلفى بين الميجر دانيلوف والطبيبة الصغيرة. وفى بعض الاحيان يقطع حبل افكاره فيتطلع للحظة الى الامام، الى ظهرى السائق والمراسل العريضين الجالسين على المقعدين الاماميين.

لقد تبخر على اية حال، ان لم نقل تلاشى نهائيا، غيظ شماكوف فى الصباح بسبب تسليم سلاح الغنيمة. تبخر لانه صار فى طى الماضى وبدا الآن قليل الاهمية. ثم ان المقاتلين، عندما وصل الامر الى حد تسليم السلاح، سلموه بهدوء اكثر مما كان شماكوف يتوقع. ولما كان الشيء الرئيسى الذى دفعه الى الجدال هو خوفه من تعرض جنوده للاهانة، فقد خف الامر عليه تلقائيا.

الطبيبة الصغيرة لم تتأوه ولا مرة واحدة اثناء الحصار، ولكنه صباح اليوم احست فجأة بوعكة فنامت طوال الطريق بشكل كومة ساخنة محمومة منزوية فى الركن. اما شماكوف فكان يتطلع من نافذة السيارة ويدخن بارتياح سجارة اثر اخرى من سجائر «كازبيك» من المحافظة التى ينبهه دانيلوف اليها كل مرة بفتحها امامه.

فى البداية، عندما عرض عليه الميجر دانيلوف ركوب سيارة «الجيب»، هم شماكوف بالرفض، لان غيظه كان لا يزال شديدا. وفيما بعد، عندما ركبوا السيارة وانطلقت بهم اراد ان يواصل النقاش مع دانيلوف بصدد اليقظة الحقيقية والارتياب الفارغ، ولكنه اجل ذلك لانهما لم يكونا لوحدهما فى

السيارة . فقد كانت الطبيبة مع شماكوف، وكان مع دانيلوف مقاتلان . وبعد نصف ساعة فقد شماكوف الرغبة في الجدال .

وكلما طال سير الشاحنة كلما نما في فؤاده المتعب وبدنه المرهق الشعور بالفرحة، بل والرقة لانهم خرجوا من الحصار باعجوبة، احياء سالمين، بعد كل ما حدث، خرجوا مكرمين عبر المعركة .

واخيرا، عند انتهاء الساعة الاولى من الرحيل لم يعد يشعر باي غيظ على دانيلوف، فقطع حبل الصمت . خيم الصمت على السيارة بسبب شماكوف، ولكن هذا الصمت اخذ يثقل عليه قبل غيره . فقال:

— مؤخرة جبهتكم بعيدة .

— من قال بعيدة؟ — اعترض دانيلوف وهو راض لان المفوض الذي اعجبه بانفعاله النزيه في الصباح لم يعد، اخيرا، يحمل غيظا عليه . — المسافة طبيعية ! فالجبهة واسعة، ونحن في الجناح . واذا تواجدت مؤسسات المؤخرة قرب احد الجناحين فانها ستكون بعيدة عن الجناح الآخر .

— فلنترك مؤسسات المؤخرة وشأنها — قال شماكوف بلهجة تنم على ان كلامه عن المؤخرة يستهدف بدء الحديث لا غير — من الافضل ان تحدثنا كيف حال موسكو . هل تضررت كثيرا؟

— لم ازر موسكو . ولكنني سمعت قبل يومين اقوال شاهد عيان . التدمير قليل . فهم لا يسمحون للعدو بالاقتراب !

— رائع ! — قال شماكوف فرحا — هل تعلم باني عندما التحقت بالجبهة في اواسط تموز كنت بنفسي اهدأ الرفاق من ابناء موسكو وغيرهم بان العدو لا يحلق فوق موسكو، وحتى لو حاول فلن نسمح له ! وفيما بعد، اثناء الحصار، قرأت مختلف المنشورات ... فلمن يقدمها الجنود عندما يعثرون عليها؟ المفوض ... ولذا قرأت منها الكثير ! — قال ساخرا — وفي بعض الاحيان كنت اخاف على موسكو اشد الخوف ! فمناشيرهم تدعي انه لم يبق من موسكو حجر على حجر. كنت افهم انهم يكذبون، ولكن الى اي حد بلغ كذبهم؟

— اجل انهم يكذبون بقدر كبير جدا — قال دانيلوف — يقال ان التدمير في موسكو لا يبلغ اثنين بالمائة .

— رائع ! — كرر شماكوف فرحا .

وبعد ان بدأ كلامه بالسؤال عن موسكو لم يتوقف وراح يمطر دانيلوف بمختلف الاسئلة الاخرى: عن المؤخرة، وعن الجبهة، وعن الخسائر وعن المعنويات،

عن كل ما يدور بباله وما لم يتمكن من الكلام عنه في ليلة البارحة، تلك الليلة المؤرقة تقريبا في لواء الدبابات .

— يمكن القول انك داهمتني مباشرة دون ان تسمح لي بالتحضير لحالة الاستعداد الحربي — لم يتحمل دانيلوف العبوس فابتسم اخيرا .

— لا بأس، اصبر وتحمل ! — قهقه شماكوف — لقد صبرت انا وتحملت اكثر من ذلك . فطوال شهرين ونصف لم اقرأ ولا كلمة مطبوعة واحدة ما عدا اكاذيب الفاشيين !

وطرح على دانيلوف عدة اسئلة اخرى، وآخرها عن مدة وصول الرسالة من الجبهة واليها . فالناس جميعا من بني البشر، وتشغل بالهم جميعا امور بينها ...

وفجأة، بعد ان اجاب دانيلوف على السؤال الاخير وحرك طاقيته الى الامام وحك قفاه في انتظار السؤال التالي، سمع بدلا من الصوت شخيرا واطئا متعبا . فقد غفا شماكوف دون ان يكمل الكلمة التي بدأها، غفا كشجرة اقتلعت في الحال . فالتعب السعيد اجهز عليه هو ايضا في آخر المطاف ...

— هيا، انزل، انزل . استيقظ !

سمع شماكوف هذا الصوت في نومه، ولكنه لم يستطع ان يستيقظ .

— استيقظ، هيا .

فتح عينيه . كانت السيارة واقفة . ولم يكن فيها السائق والمراسل، كما لم تكن فيها الطبيبة . اما دانيلوف فقد فتح الباب وهو واقف في خارج السيارة وراح يسحبه بقوة من يده .

— اسرع الى الساقية ! ... الطائرات ! — صاح دانيلوف بغضب، ولكن بدون اضطراب، والحق يقال .

نزل شماكوف الى الطريق وقفز الى الساقية . كانت الطبيبة جالسة هناك تمسح عينيها بقبضتها وتبتسم باعتذار . كانت ناعسة ولا تدري كم قطعوا من الطريق وما هو الوقت الذي صرفته في النوم .

الغابة تحيط بهم من كل الارجاء . توقف الطابور كله وتجمد في مكانه . لم يبق في السيارات احد . فقد تمكنوا من التوزع على ساقيتي الطريق . وكان اثنان او ثلاثة في الامام لا يزالون يعبرون الطريق راكضين .

قدمت الطائرات من جهة الغرب . كانت مرتفعة وقريبة، ولكن ليس فوق الرؤوس بعد .

– ربما هى طائراتنا عائدة؟ – قال شماكوف بتردد من اجل ان يهدىء من روع الطبيبة بالاساس، مع ان الهدير الثقيل المتقطع المعروف لديه كان يقول له ان الامر ليس كذلك، وان الطبيبة لم تكن قلقة اطلاقا.

فقال دانيلوف ساخرا:

– سنرى ذلك الآن. اليس الافضل ان نجلس؟

تطلع الى شماكوف بنظرة فيها شيء من السخرية، وجلس القرفصاء قبله فلمس الارض بيده قليلا، ثم راح ينفض الرمل من اصابعه بكل عناية.

مرت عدة لحظات ممضة اخرى. الطائرات المانية، وهى الآن فوق الرؤوس مباشرة، ولو انها قذفت قنابلها لاخطأت الهدف. قال شماكوف ذلك لدانيلوف. فاجاب هذا:

– صحيح. ولكنها ربما تستدير اذا كانت قد لاحظتنا. فالافضل ان ننتظر ثلاث او اربع دقائق اخرى.

الا ان الطائرات لم تستدر. حلقت فى نفس الاتجاه وبنفس الارتفاع. ومن مكان ما فى الامام اخذت المدافع المضادة للجو تضربها ببطء، ولكن على نحو دقيق نسبيا. فى البداية ذابت عدة كريات بيضاء خلفتها انفجارات القذائف المضادة للجو بشكل غيوم صغيرة تحت الطائرات، ثم ظهرت تلك الكريات فوق الطائرات والى جنبها. ثم ارتفع الدخان من احدى الطائرات، فمالت الطائرة جانبا والدخان المتصاعد منها يزداد كثافة. اما الكريات البيضاء فراحت تتقافز من جديد فى السماء، ولكن هذه المرة على مسافة كبيرة خلف الطائرات.

– اخطأوا الهدف ويا للاسف! هل هم عميان؟ – هتفت الطبيبة بخيبة امل، وكانت اول من قفز من الساقية. وحلت امارات الاسى محل امارات السعادة على محياها فتغير بسرعة تغير وجوه الاطفال.

– ما اشد طمعك! يكفى انهم عاقبوا احدى الطائرات! – قال دانيلوف – يمكن ركوب السيارات الآن!

خلع طاقيته الخضراء، طاقية رجال الحدود، وراح يلوح بها للمقاتلين كى يصعدوا الى السيارات.

– هل تعلم ... – قال شماكوف الذى فارقته، بعد ظهور الطائرات الالمانية، حالة الفرحة الغامرة وعاد اليه من جديد الشعور بالمسؤولية عن المقاتلين. – سأترككم، وساصعد الى احدى الشاحنات وسط الطابور. مفوض الفوج فى الامام وانت فى الخلف، وسأكون انا فى الوسط. ذلك افضل. اما الرفيقة الطبيبة فاتركها تحت رعايتك – ابتسم وركض على طول السيارات التى كان المقاتلون يصعدون اليها.

كان سينتسوف جالسا فى الشاحنة عندما ركض قربها شماكوف بخطوات رياضية متزنة. ركض بقامته القصيرة المكتنزة وشعره الاشيب، وبدا من سرعته وكأنه فى عمر اقل من عمره.

– القلب لا يزال يتحمل رغم بلوغى الثانية والخمسين! – قال بمرح وبدون لهاث مخاطبا سينتسوف والآخرين الذين كانوا يتطلعون اليه من السيارة.

اجتاز سيارة اخرى وصعد الى التى تليها، صعد الى المتن وليس الى القمرة، مما اثار ارتياح المقاتلين الجالسين هناك. وكان سينتسوف طوال الوقت يرى فى الامام رأسه المستدير الاشيب المكشوف.

وعندما تحرك الطابور من جديد ارتعشت الارض والهواء مرارا من انفجارات القنابل فى مكان ما فى الامام.

وظل الجميع يتوقعون انفجارات اخرى، ولكنها لم تحدث. فقال زولوتاريف:

– لا يبدو انهم انجزوا القصف. لقد رشوا قطرة فقط! فماذا تعتقد ايها الرفيق المرشد؟

كان رأى سينتسوف من رأى زولوتاريف. لم تتعكر امزجة المقاتلين. فان قصف جنود المدافع المضادة للجو الذين اسقطوا طائرة على مرأى منهم قد بدد القلق الناجم عن ظهور قاذفات القنابل الالمانية.

بعد بضعة كيلومترات تلكأ الطابور، فقد وصل الى المكان الذى سقطت فيه القنابل قبل قليل. لقد غضب الالمان لفقدان الطائرة فالقوا بعدة قنابل على مواقع البطارية المضادة للجو والمرابطة قرب جسر على نهير صغير. البطارية لم تصب بأذى، الا ان قنبلة سقطت على مقربة من الجسر وشوهت الطريق امامه وادت قوة موجة الانفجار الى تحطيم درابزونه وقسم من ارضيته.

توقف الطابور فى البداية، ثم، رأى سينتسوف من بعيد ان سيارة «الجيب» عبرت الجسر بحذر ثم اخذت الشاحنات تعبره الواحدة تلو الاخرى.

وعندما اقتربت سيارتهم من الجسر وقف سينتسوف على متنها ليراقب عبور السيارات الامامية. فى تلك اللحظة كانت شاحنة شماكوف تعبر الجسر، وكانت على المكان الذى تطايرت ارضيته – بطول اربعة امتار تقريبا. سارت الشاحنة باستقامة على عارضتين خشبيتين سميكتين كانت الارضية تستند اليهما. سارت السيارة ببطء ودقة. ولو انحرفت العجلتان الاماميتان او الخلفيتان قيد انملة لسقطت السيارة.

وهذا بالذات ما حدث للسيارة التالية التى كان خوريشيف جالسا فى قمرتها. ربما لم يكن السائق محنكا كالآخرين، فقد انحرف بالمقود

قليلا، وانزلقت المجلة الخلفية من العارضة، فسقطت السيارة وعلق عمود كردانها باحدى العارضتين، ومن حسن الحظ ان عجلتيها الاماميتين تشبثتا بالعارضة الثانية .

لم يصب احد بأذى . الا ان احد المقاتلين سقط من متن السيارة بسبب الصدمة ووقع في النهير، وها هو يخرج من الماء مبللا من رأسه حتى قدميه، ورفاقه يضحكون عليه .

وبعد لحظة وقف خوريشيف على الجسر وراح يصدر اوامره الى المقاتلين الذين نزلوا من سيارته والسيارة التي يستقلها سيتسوف وشغلوا اماكن مناسبة لكي يضعوا السيارة على العارضتين بجهود متضافرة .

وصاح شماكوف من الضفة الاخرى بعد ان كور قبضتيه امام فمه كالبوق : هل ننتظركم ام لا؟ ولكن دانيلوف الذي تجاوز بسيارته «الجيب» من طرف الطريق الشاحنات المتوقفة ووصل الى الجسر اجابه بتلويحه من طاقيته الخضراء بأنه لا داعي للانتظار، ولا داعي للتحشد على الطريق.

ثم صاح : — واصلوا سيركم . المسافة قصيرة من هنا الى طريق يوخنوف . بعد خمسة كيلومترات تصادفون مفترق الطرق فاستديروا نحو اليسار وسنلحق بكم . ثم ان سيارة «الجيب» تسير في الامام وستريكم الطريق!

صعد شماكوف الى سيارته التي سارت الى الامام لتلحق بالشاحنات الاخرى، اما العمل على الجسر فقد استمر خمس عشرة دقيقة اخرى .

واخيرا عبرت الشاحنة الجسر بسلام . وامر دانيلوف جميع ركاب السيارات الاخرى بان ينزلوا منها، وسمح للسيارات بالعبور واحدة واحدة تحت اشرافه شخصيا .

وعندما وصلت آخر سيارة الى الضفة الثانية تحرك دانيلوف بسيارته «الجيب» على اثرها . وواصلت الشاحنات سيرها نحو طريق يوخنوف العام كي تلحق بمقدمة الطابور .

لم يكن احد يعلم، لا مفوض الفوج من الشعبة السياسية للجيش، ولا المقدم من شعبة التشكيل، ولا شماكوف الذين ساروا في اول الطابور ووسطه، ولا دانيلوف الذي سار في آخره ان فيالق الدبابات الالمانية اخترقت الجبهة الغربية جنوبي وشمالي يلنيا قبل بضع ساعات، وانها تزحف عشرات الكيلومترات في الاعماق ساحقة مؤخرات جيشنا .

لم يكن احد منهم يعلم ان التوقف الاضطراري عند الجسر والذي شطر طابورهم الى شطرين قد قسمهم في الواقع، جميعهم، او جميعهم تقريبا الى احياء واموات .

لم يكن بوسع شماكوف ان يعلم بان الشاحنة التي صعد اليها ستكون آخر سيارة تستدير بسلام من طريق يلنيا الى طريق يوخنوف .

ولم يكن بوسع دانيلوف ان يعلم ان طريق يلنيا الذي يمتد بموازاة الجبهة تقريبا سيقود بقية طابورهم بعد عشر دقائق الى المفترق على طريق يوخنوف في اللحظة التي يصل فيها الى هناك، عبر مؤخراتنا، الفصيل المتقدم للدبابات والناقلات المدرعة الألمانية .

لم يكن يعرف ذلك فسار باطمئنان الى الامام، لقاء الموت. قال دانيلوف للطبيبة:

— سنسير زهاء اربعة كيلومترات حتى الطريق العام، وسيكون ذلك ثلث المسافة . كيف حالك الآن؟

— لا بأس — لمست الطبيبة جبينها الساخن — حرارتي مرتفعة قليلا، وسيمر ذلك بسلام . دخن ولا تهتم — اضافت عندما لاحظت ان دانيلوف اخرج سجارة ثم دسها في جيبه من جديد — انا لا ادخن، ولكني احب الدخان — قالت بما اعتادت عليه من نكران ذات واغلقت عينيها، مع انها لم تعد راغبة في النوم، كيلا يتردد الميجر في التدخين .

ظلت الطبيبة مغلقة العينين وراح الميجر دانيلوف يدخن ويناقش من جديد، مع نفسه، الشجار الذي جرى في الصباح بينه وبين شماكوف .

النظام شيء لا يقبل الجدل . وطالما هو موجود فلا يجوز لاحد في الجيش ان يخرقه، مع انه، اذا اردنا الحق، لم يكن في هذه الحالة ميالا الى سحب هذا السلاح من اصحابه . وقد وضع نفسه ذهنيا مكان شماكوف، وفكر : لو كنت محله في الصباح لانفعلت ايضا . فهناك فارق كبير عندما يخرج المرء من الحصار على انفراد او مع شخص آخر او شخصين بدون بزة عسكرية ولا وثائق، وعندما تخترق الحصار وحدة عسكرية كاملة تحمل السلاح والوثائق وشارات الرتب . فالعدالة في هذه الحالة تتطلب ترك سلاح الغنيمة عند اصحابه وان كانوا متجهين الى المؤخرة . فمن حقهم ان يفتخروا ويتباهوا به! وفيما بعد من واجبنا ان نفعل اللازم للتثبت من نزاهتهم، دون ان نهين كرامتهم . واذا حصل ان بينهم سافلا فننزع سلاحه .

لم يكن دانيلوف راضيا على حادث اليوم، كما لم يكن راضيا على بعض الاشياء الاخرى مما صادفه منذ ان انتقل من وحدات الحدود الى الشعبة الخاصة . فذلك عمل عسير.

اكتسب دانيلوف خبرة كبيرة خلال خدمته الطويلة في قوات الحدود، واصيب بجراح في معركة خالخين-غول وانسحب مع البقية الباقية من فصيله

من لوبجا. وهو يتمتع ببصيرة ثاقبة وذاكرة حادة وقابلية على سبر اغوار الناس، وكيفية الثقة او الارتياب بهم. وبفضل هذه الصفات كان دانيلوف من اولئك الاشخاص الذين يلائمهم العمل في الشعبة الخاصة تماما. انه غير معتد بنفسه، ولكنه كان يحس بأنه في المكان اللائق به.

ولانه تمكن من القبض على جواسيس ومخربين حقيقيين خلال مدة طويلة فهو يدرك تفوقه على بعض العاملين معه ممن لا يفرقون بين الحقائق والاكاذيب، بل ولا يبدون الاهتمام اللازم بذلك احيانا. اعلن دانيلوف الحرب على امثال هؤلاء المستخدمين وخلال مدة قصيرة من خدمته في الشعبة الخاصة تسنى له ان يكشف بلا رحمة عن حقيقة واحد منهم.

وها هو الميجر دانيلوف بالذات يقود الآن الى الموت، دون علم منه، اناسا تخلصوا توا من براثن ذلك الموت.

— سنصل الآن الى المفترق الذي تحدثت عنه — التفت دانيلوف الى الطبيبة وفتح نافذة السيارة عندما رأى انها ليست نائمة.

وفي تلك اللحظة انفجرت القذيفة الاولى ولمح دانيلوف الدبابات الالمانية تزحف عبر الحقل لتقطع طريق يوخنوف...

لم يتسع الوقت للاستدارة بالسيارة، ثم ان دانيلوف لا يمكن ان ينشد النجاة وحيدا ويترك الطابور في محنته. فتح الباب بشدة وكان هو اول من قفز الى الطريق حاملا البندقية الرشاشة الموجودة معه طوال الوقت في السيارة. وقفز على اثره سائقه ومراسله بسلاحيهما. وصاح دانيلوف بالطبيبة وسحبها من السيارة من يدها:

— اقفزي!

وحدث على الطريق شيء يفوق التصور.

التهمت النيران الشاحنة الاولى التي توقفت في عرض الطريق. وفرملت الشاحنات الباقية واصطدمت الواحدة منها بالاخرى. وانفجرت القذائف على الطريق وعلى جانبيه، وقفز المقاتلون من الشاحنات وانبطحوا على الطريق وفي السواقي وتراكضوا في الحقل. وضربتهم الدبابات بالمدافع والرشاشات. وصعدت دبابة الى الطريق العام وسارت بحذاء الطابور وراحت تقلب الشاحنات الواحدة بعد الاخرى في الساقية بصرير شديد وتسحق المقاتلين وهم يقفزون من تلك السيارات. ومن الناقلات المدرعة السائرة وراء الدبابات قفز جنود المان وتراكضوا الى الجانبين وراحوا يحصدون كل ما هو حي ببنادقهم الرشاشة المصوبة على مستوى البطن بشكل مروحة.

ولم يعد الوقت كافيا، بل ولم يكن بالامكان جمع المقاتلين الذين جرد ثلاثة ارباعهم من السلاح واصدار الاوامر لهم. ولم يبق غير حماية الراكضين بالنار على قدر المستطاع وبيع الحياة بثمن اغلى.

وهذا ما فعله دانيلوف وسائقه ومراسله.

انبطح دانيلوف في الساقية وراء سيارة، وهو فرح — اذا كان بالامكان الحديث عن الفرح في هذه اللحظة — لشيء واحد هو ان الالمان المنتشين بالنصر اليسير قفزوا من الناقلات المدرعة وسيقتربون منه راكضين وعند ذاك سيقتل عددا منهم.

التفت دانيلوف الى الوراء فرأى وراء الطريق شجيرات تمكن بضعة مقاتلين من الوصول اليها راكضين تحت وابل الرصاص.

— اسرعي الى الشجيرات ولن تصابي! — لمس دانيلوف بكوعه كتف الطبيبة المنبطحة قربه في الساقية — عجل كيلا يفوت الاوان!

الا ان الطبيبة نظرت اليه نظرة صامتة ثم اشاحت بوجهها، فهي لم تكن تريد ان تسرع ولا ان تنجو من الاصابة. كانت تريد ان يتسنى لها الوقت كي تطلق النار من مسدسها على الالمان ثم تموت فلا تعرف شيئا ولا ترى اكثر مما رأت!

وعند ذلك رفعها دانيلوف من كتفيها واستدار بها ودفعها من الساقية. عندما وجدت نفسها فوق تلفتت عاجزة، ومر قربها جنديان راكضان فركضت في اثرهما مندفعة مع التيار.

فليحفظ الله الآخرين من ان يروا قبل الممات ما رآه دانيلوف ومن ان يفكروا بما فكر فيه. لقد رأى الاشخاص العزل الذين جردهم من السلاح، هو دانيلوف يهيمون الآن على الطريق ويطلق الالمان النار في وجوههم. قليلون جدا هم الذين تمكنوا من اطلاق طلقتين او ثلاث طلقات يائسة قبل ان يخروا صريعين. فالاغلبية ماتت عزلاء من السلاح ومحرومة من آخر فرحة بشرية مريرة هي قتل العدو قبل الموت. كانوا يفرون وكان الاعداء يقتلونهم من الخلف. كانوا يرفعون ايديهم وكان الاعداء يقتلونهم بالوجه.

حتى في افظع الكوابيس لا يمكن ابتداع مسؤولية اقسى من المسؤولية اللاارادية التي لا تقل عن ذلك فظاعة والتي وقعت من نصيب دانيلوف الآن. فالموت نفسه سهل لا رعب فيه بالمقارنة معها.

لقد تقبله دانيلوف، تقبل هذا الموت دون خوف او وجل. فبعد ان دفع الطبيبة من الساقية فتح النار على الالمان وقتل خمسة منهم قبل ان تحطم رصاصة المانية جمجمته.

ان آخر ما سمعه فى حياته هو صلية البندقية الرشاشة التى سلطها عل الالمان مباشرة، عن بعد ثلاث خطوات، مراسله الذى طال عمره بثانية واحدة عن عمره.

وبعد بضع ثوان وقف الجنود الالمان عند الجثث الثلاث المسجاة فى الساقية. وانحنى ليفتنانت المانى غطى خده الممزق برصاصة بمنديل منقع بالدم وراح يتفحص الشارتين الخضراوين الصارختين عل ياقة الميجر الروسى القتيل المسجى عند قدميه.

الفصل التاسع

فى المساء الثالث بعد ما حدث فى طريق يوخنوف سار ثلاثة اشخاص فى خضم الغابة على بعد خمسين كيلومترا تقريبا عن مكان الكارثة. والاصح ان اثنين منهم كانا يسيران وهما المرشد السياسى سينتسوف والجندى زولوتاريف. والشخص الثالث هو الطبيبة العسكرية تاتيانا اوفسيانيكوفا، او تانيا كما صار يسميها سينتسوف للتصغير. وقد فقدت منذ ظهر اليوم قدرتها على المشى. فصار الرجلان يحملانها، حسب الدور، على الظهر فى المعطف المشمع وكأنها فى كيس كبير.

جاء دور سينتسوف. سار محنى الظهر وهو يعد فى نفسه الالف خطوة المتبقية حتى الموقف الاخير. لف طرف المعطف المشمع على قبضته كيلا تفلته اصابعه الواهنة ولا تسقط الطبيبة من على ظهره. رأسها المحموم يستقر على كتفه ويترجرج ككتلة موات مع كل خطوة يتعثر فيها. وفى بعض الاحيان كان ينحنى ليمسح بقبضته العرق الساخن الذى يسيل على عينيه فيرى تحت كوعه الايمن قدمى الطبيبة المتدليتين من المعطف. احداهما بجزمة والاخرى حافية منفوخة، وهى صغيرة جدا كقدم طفلة. لا يبدو هذا الحمل ثقيلا على سينتسوف وحده فى وقت غير هذا الوقت. الا ان الرجلين اللذين خارت قواهما بعد أربع ساعات من السير على هذه الوتيرة قد شعرا بالعجز، وأسف سينتسوف لانهما لم يتوقفا منذ البداية لكى يقتطعا اغصانا ويصنعا منها نقالة. فهذا شىء لا بد من القيام به فى مكان التوقف!

كل خطوة يخطوها جميع الذين نجوا فى اللحظات الاولى هناك، على الطريق العام، صارت الآن تنطوى على مزيد من الصدف والمخاطر، وتنذر بحياة اخرى وموت آخر فى اية جهة تتجه اليها تلك الخطوات.

فالذين قبعوا فى اعماق الغابة على يسار الطريق فى انتظار حلول الليل

قتلوا رميا بالرصاص عند المغيب من قبل الجنود الذين مشطوا الغابة. وربما كان الالمان في حالات اخرى يأخذون الاسرى، ولكن رصاصة اردت بالصدفة او، على العكس، بمنتهى البرود، قائد فوج دبابات الاساس الذي راقب المجزرة من برج دبابته، فأخذ الالمان يثأرون لهذه المفاجأة دون رحمة.

وبعكس ذلك كان مصير الذين فروا الى المكان الذي بدا اقل امانا، الى الشجيرات الصغيرة على يمين الطريق. فقد ظلوا احياء، لان الالمان لم يبحثوا عنهم هناك، وفي تلك الليلة نفسها وصلوا الى ما وراء الطوق الالماني.

واجتمع عدة مقاتلين حول الملازم خوريشيف بعد ساعة من الكارثة فعادوا بقيادته دون ان يضيعوا الوقت سدى وتلاقوا عند المساء مع جنود الدبابات من لواء كليموفيتش، وتعين عليهم ان يخرجوا مع هؤلاء من حصار جديد.

اما الذين دخلوا الغابة وساروا عبرها باستقامة نحو الشمال مؤملين في الابتعاد عن الالمان فقد وقعوا، على العكس، في مجال سير طوابير الدبابات وارتال المشاة التي اسرعت لغلق طوق الحصار الكبير حول فيازما.

كان سينتسوف من هؤلاء. فقد قفز من السيارة وهرع الى الغابة وسار دون توقف في الساعة الاولى بعد الخلاص وهو يفكر في شيء واحد – الابتعاد لاكبر مسافة ممكنة. في اللحظة الاولى التي سمع فيها الاطلاقات ورأى الدبابات والالمان الذين قفزوا من الناقلات المدرعة امسكت يده بالهواء في المكان الذي تتدلى فيه عادة بندقيته الرشاشة على الصدر... ولكن البندقية لم تكن موجودة، لم يكن هناك اي شيء، حتى المسدس. وعند ذاك قفز من على متن السيارة وهرع الى الغابة.

التقى مع زولوتاريف بعد ساعة. فبعد ان ركض وقطع عدة كيلومترات توقف ومال الى جذع صنوبرة معمرة كي يلتقط انفاسه، وفي هذه اللحظة اقترب منه زولوتاريف بسترته الجلدية الممزقة، والامر الاهم انه يحمل بندقيته على كتفه.

– بماذا تأمر ايها الرفيق المرشد السياسي؟

كانت هذه الكلمات الاولى التي قالها زولوتاريف افضل الكلمات التي يوسعها ان تعيد رشد شخص منسحق اعزل نسي طوال ساعة انه كان قائدا، بل وانه ملزم بأن يظل قائدا.

– سنقرر في الحال – اجاب سينتسوف وهو يحاول التظاهر بالهدوء ويتطلع في تلك اللحظة ليس الى زولوتاريف بقدر ما يتطلع الى بندقيته.

«ها نحن اثنان، ولدينا بندقية على الاقل» – فكر سينتسوف وقال لزولوتاريف من اجل ان يستعيد هدوءه كليا:

– فلنجلس لندخن.

جلسا في المكان ذاته، تحت الصنوبرة. اخرج سينتسوف من جيبه علبة سجائر «كازبيك» تكاد تكون كاملة، واخذا يدخنان

اثناء تسليم السلاح كان مساعد كليموفيتش لشؤون المؤخرة قد وزع، بأمر منه، سجائر «كازبيك» على جميع الضباط الذين خرجوا من الحصار.

– يبدو اننا اغنياء ايها الرفيق المرشد – قال زولوتاريف وقد اخذ بارتياح نفسا عميقا.

– لا يوجد اغنى منا! – قال سينتسوف – بندقية واحدة لشخصين!

– اليس عندك مسدس؟ – سأل زولوتاريف.

– لدي وصل بتسليم البندقية الرشاشة موقع من مدير الذخيرة! – قال سينتسوف بغضب شديد – واذا دعت الحاجة ساطلق النار منه!

– لا بأس، سنحصل على سلاح بشكل ما، ايها الرفيق المرشد! – قال زولوتاريف مؤاسيا واوضح بانه منذ نصف ساعة كان يسير في اثر سينتسوف، ولم يقترب منه في الحال.

بينما كانا جالسين يدخنان تذكر سينتسوف من جديد كيف جلسا كلاهما على هذا النحو قبل شهر ونصف يدخنان وينظران الى بارانوف. وفكر سينتسوف: «من جديد قدر للمقاتل ان يخرج مع قائده لوحدهما». فكر بزولوتاريف واكتنفه شعور بالمسؤولية المريرة اللاارادية عن تصرفات بارانوف اللعين. وتساءل سينتسوف على الفور تقريبا: «لماذا يا ترى لوحدهما؟ فلسنا الوحيدين في الغابة، ربما سنتمكن من تكوين جماعة كاملة قبل حلول الظلام».

الا ان تلك الآمال خابت. فبعد نصف ساعة من التدخين عثرا على الطبيبة الصغيرة، ولم يصادفا احدا غيرها حتى حلول الليل.

«اجل، هناك من يستحق العناية فعلا!» – تذكر سينتسوف كلمات سربيلين عندما رأى الطبيبة الصغيرة.

يبدو ان كل انسان يصل في وقت ما الى نهاية القوى المخصصة له. هكذا كان حال هذه المرأة الصغيرة التي لا تعرف الكلل. فما اكثر ما فعلته اثناء الحصار، وما اكثر ما زحفت على الارض لتضمد الجرحى في الاماكن التي يرتعب فيها الانسان عندما يرفع رأسه!.. اما الآن فهي بالكاد تجرجر قدميها وتعرج قليلا، ووجهها نحيل قرمزي من الحمى. وحتى المسدس الذي يتدلى دوما من جنبها بدا الآن ثقيلا للغاية. كان شماكوف قد اراد

منذ الصباح ارسالها الى الكتيبة الصحية للعلاج، ولكنها حققت غايتها وارتحلت مع الجميع. وهذا ما حققته!

عندما رأت سيتسوف وزولوتاريف فرحت واسرعت تعرج لملاقاتهما حتى كادت تسقط.

– اوى، ما اشد فرحتى! – راحت تكرر كالاطفال وهى ممسكة بطرف معطف سيتسوف – ألا يوجد احد غيركما؟ ألم تصادفا احدا؟

– وانت؟ – سألها سيتسوف بدوره.

– لم ار احدا. رأيت الكثيرين عندما فروا فى الغابة. وبعد ذلك فسخت قدمى، فسرت لوحدى. من حسن الحظ ان شماكوف انتقل الى الشاحنة فى الوقت المناسب! – هتفت بغتة بفرح.

– من حسن الحظ انه انتقل او من سوئه انك انت لم تنتقلى...

– ما كان بوسعه ان ينتقل لو كان يعرف بالامور – قالت الطبيبة وكأنها تخشى ان يظن سيتسوف سوءا بالمفوض.

– هذا شىء واضح – قال سيتسوف ساخرا – لو كنا نعرف عموما لما...

لوح بيده ليطرد افكاره المريرة وقال بان من حسن الحظ انها حية على اية حال وانهما التقيا بها.

– اى حظ هذا؟! – قالت واومأت الى قدمها – فسخت قدمى، ثم اننى اشعر بارتفاع درجة الحرارة – وضعت راحة سيتسوف على جبينها – هل تشعر بالحرارة؟

– لا بأس، يا اختى – قال زولوتاريف الذى بدت له الطبيبة العسكرية اوفسيانيكوفا صغيرة جدا ويافعة بحيث تصعب مخاطبتها بالدكتورة – لا بأس، يا اختى! – كرر مؤاسيا – سنحملك ولو على الظهر! فبعد كل مساعداتك للناس لا يبخل بنجدتك الا الكلب!

واليوم، وهو اليوم الثالث، حدث بالذات ما قاله زولوتاريف بسبب طيبة قلبه. ففى النهار ضغطت الطبيبة على رجلها المفسوخة فاشتد الالم فى مشطها ولم تعد قادرة على المشى. وها هما يتناوبان فى حملها على الظهر منذ خمس ساعات.

صحيح انها حاولت بعد الفسخ ان تسير بنفسها وطلبت من سيتسوف ان يخلع لها جزمتها وان يحاول تجبير قدمها المفسوخة. جلست متشبثة بجذور نابتة من الارض، وامسك بها زولوتاريف من خصرها من جهة الخلف وفعل سيتسوف ما طلبته منه، فراح يدير قدمها ويسحبها والعرق يتصبب منه. ورغم

كل التعليمات التى قدمتها له بهمس مخنوق بالالم لم يتمكن من مساعدتها بشىء. واضطرا الى تكييف المعطف المشمع وحمل الطبيبة على الظهر.

وها هو يسير وهى على ظهره. ويحسب الخطوات المتبقية حتى المكان الذى قررا التوقف فيه. الخطوات تتناقص – ثلثمائة... مائتا... مائة وخمسون...

اما هى فقد احست بمدى الصعوبة التى يعانيها فى السير فهمست فى اذنه همسا صاخبا بعد ان افاقت من الحالة الشبيهة بالغيبوبة:

– اتركنى!.. هل انت سامع؟ اتركنى... يؤلمنى انكما تتعذبان بسببى! اسهل على ان ابقى لوحدى...

ولم يكن بالامكان لومها على هذه الكلمات، لانها قالت الحقيقة، بل لانها تفكر الآن بالآخرين اكثر مما تفكر بنفسها.

واخيرا توقفوا. فرش زولوتاريف على مرتفع معطف سيتسوف الذى القاه على كتفيه طالما كان سيتسوف يحمل الطبيبة، وساعده فى التخلص من حمله برفق.

تحركت المريضة:. فقد تخدر كل شىء فيها عندما كانا يحملانها كما فى الكيس. وسألت بصوت خافت:

– ماذا؟ هل نبيت الليل؟

– كلا – قال سيتسوف – ارقدى الآن، وسنناقش ما ينبغى فعله. اومأ الى زولوتاريف فانزويا جانبا.

– ما العمل؟ عبثا اننا استعجلنا فى الفسح. كان من اللازم ان نصنع نقالة فى الحال.

– كيف «استعجلنا» ايها الرفيق المرشد؟ – اعترض زولوتاريف – كنا نرى الطريق عن قرب والسيارات تسير عليه. ولو توقفنا لاعداد النقالة «لصبحنا» الفاشيون «بالخير».

– لنفترض انك على حق – قال سيتسوف موافقا – اما الآن، افلا يجب ان نعد النقالة؟

– لا داعى لاعداد النقالة، ايها الرفيق المرشد، الافضل ان نسرع قبل حلول الظلام لنصل الى الناس، ونتركها عندهم – قال زولوتاريف واثقا – فاذا واصلنا حملها ابعد من ذلك ستموت.

– والالمان؟ اقتربنا من ثلاث قرى، فرأيناهم يسيرون فى كل مكان.

– ما العمل؟ سنواصل السير فى الغابة. فربما نعثر على مسكن فيها. فهل من المعقول انها خالية تماما؟

– شيء فظيع ان نتركها لوحدها .
– ليس لوحدها ، بل مع الناس .
– فظيع مع ذلك .
– واذا ماتت بين ايدينا افليس ذلك فظيعا ؟ – انصت زولوتاريف وقال : – انها تنادينا .

عادا الى الطبيبة دون ان يتفقا على رأي . كانت راقدة وقد رفعت صدرها بعض الشيء على كوعيها ، ووجهها محتقن محموم ، كانت تنظر اليهما بقلق شديد .

– لماذا ذهبتما فجأة ؟
– كيف نذهب عنك يا تانيا ؟ ! – قال سيتسوف .

الا انها كانت تفكر بغير ما يفكر به هو ، فليس ذلك هو ما يقلقها .

– لماذا تقرران بدوني ؟ فما دمنا نسير معا ، فلنقرر معا ايضا .
– حسنا . – صمم سيتسوف على مصارحتها تماما – تحدثت مع زولوتاريف عن النقالة وعن كيفية مواصلة حملك ، ثم فكرنا بانك لن تتحملي الطريق الطويل .
– صحيح – قالت دون ان تدرك بعد ما يريدان ، ولكنها مستعدة لتخفيف عبء اي قرار يتخذانه .
– قررنا ان نعثر على اناس لكي نتركك عندهم ونواصل السير .

تنهدت .

– حمقاء لعينة ، حمقاء ، لعينة ! ..

لامت نفسها لانها فسخت قدمها ولا تستطيع السير معهما . كانت تدرك انهما على حق ، ولكن الموت الآن اهون عليها من البقاء بدونهما .

اخذوا قسطا من الراحة وواصلوا السير ، وقبيل ان يخيم الظلام عثروا على درب شبه مهجور يتجه الى اعماق الغابة .

قرر سيتسوف ان يستديروا فساروا بمحاذاة الدرب محاولين الا يضيعوا آثاره . وتحوطا للطوارئ ساروا على مسافة معينة منه .

بعد ساعة وصل بهم الدرب الى فسحة في الغابة فيها عدة منازل وورشة طويلة للنجارة . لم يكن هناك ناس ولا سيارات . والورشة لا تعمل بالطبع . الا ان الاخشاب المقطعة بشكل الواح واسطوانات تدل على ان العمل كان يسير هنا على قدم وساق قبل فترة .

توجه زولوتاريف للاستطلاع ، بينما ظل سيتسوف مع الطبيبة . فقالت له بصوت خافت :

– يا ايفان ، اذا كان الناس هنا غير طيبين لا تتركاني عندهم . الافضل ان تسلمني مسدسي وسانتحر .
– لماذا تقولين غير طيبين ؟ – قال سيتسوف غاضبا – فهل ان كل الناس سيئون ما عدانا نحن ؟
– انت وزولوتاريف طيبان . فما اطول المسافة التي حملتماني بها ! انني اشعر بالخجل .
– ما الداعي لهذا الكلام ؟ – قال سيتسوف بنفس اللهجة الغاضبة – قولي ذلك لغيري ، وليس لي ! فنحن نعرفك على حقيقتك منذ ثلاثة اشهر ، ولا داعي للمواربة ! لنفترض انني انا فسخت قدمي وليس انت ، فهل تتركينني ؟
– من الصعب حملك . انت طويل جدا ! – قالت وابتسمت ليس لان سيتسوف طويل القامة ، بل لان هذا المرشد السياسي الطويل والمتجهم في اغلب الاحيان يتحدث معها الآن بهذه اللهجة الغاضبة بسبب طيبة قلبه لا غير . لزمت الصمت برهة ثم سألته : – هل انت متزوج ؟ كنت اريد ان اسألك عن ذلك من زمان ، ولكنك غاضب طوال الوقت .
– وهل صرت طيبا الآن ؟
– مع ذلك صممت على ان اسألك .
– متزوج . وعندي ابنة ، واسمها مثل اسمك : تانيا – اجاب عابسا .
– لماذا انت زعلان بهذا الشكل ، فانا لا اريد ان ازف نفسي لك .

عندما سمع هذا الكلام تطلع الى محياها المعذب وفكر بان الناس غالبا ما لا يفهمون افكار بعضهم البعض مثلما هنا الآن ، وقال بصوت هادئ رقيق كما يخاطب طفلا صغيرا :

– انت لا تفهمين ! .. كل القضية انني لا اعرف اين ابنتي واين زوجتي . زوجتي في اغلب الظن في الجبهة مثلك . وقد تذكرت ذلك كله دفعة واحدة . اما بخصوصك فأنا اعتقد انك افضل امرأة في العالم – واضاف باسما – راغف امرأة . هل تتصورين بان حملك ثقيل ؟ ليس فيك اي ثقل في الواقع !

لم تجبه بشيء ، بل تنهدت ، ونبتت دمعة صغيرة في زاوية عينها . فقال سيتسوف :

– عجبا ، كنت اريد ان اضحكك ، اما انت .. ها هو زولوتاريف يعود .

اكد زولوتاريف الانطباع الذى تكون لديهم من بعيد. فلا اثر للالمان، ولكن هناك اناسا يعيشون قرب ورشة النجارة. فخلال ربع الساعة الذى صرفه منبطحا على طرف الفسحة لأجل المراقبة شاهد معوقا بعكازين يخرج مرتين من المنزل الواقع على طرف الفسحة ويتطلع الى السماء ويتسمع اصوات الطائرات. ثم خرجت بنت راكضة وعادت الى الكوخ راكضة ايضا.

– ولم ار احدا غيرهما!

– فلنذهب اذن – قال سينتسوف.

رفع الطبيبة بيديه مع المعطف المشمع وحملها كالطفل دون ان يضعها على ظهره. وقال زولوتاريف محذرا:

– اليس من اللازم انّ ادخل المنزل للاستطلاع؟

الا ان سينتسوف قال باصرار:

– طالما لا يوجد المان فلنذهب مباشرة. فهل نحن بشر ام لا؟

خيل اليه ان من الامور المهينة القيام باستطلاع فى اراضيه، فى دياره، فى منزل كان بوسعه هو او اى شخص آخر فى السابق، قبل الحرب، ان يحمل اليه على اليدين امرأة مريضة ويدخله فى اية لحظة دون تردد. وقال:

– لا اصدق بان سفلة يعيشون هناك. واذا كانوا سفلة فسنعد لهم البندقية.

وصل حاملا الطبيبة على يديه الى المنزل فى طرف الفسحة وطرق الباب بقدمه.

حركت المزلاج بارتعاب صبية فى الخامسة عشرة من العمر ورأت شخصا فارع القامة عريض المنكبين بوجه نحيل جاسىء، وهو يحمل على يديه امرأة ملفوفة بمشمع. يداه الكبيرتان ترتعشان من التعب، وعلى كلا ردنيه – وهذا ما لاحظته البنت فى الحال – نجيمات المفوض الحمراء.

وخلف الرجل الفارع القامة وقف رجل آخر قصير يرتدى سترة جلدية ممزقة وبيده بندقية. وقال الرجل الفارع القامة بصوت الآمر:

– خبرينا، يا بنت، اين نضع المريضة! – وعندما رأى الرعب فى عينيها، اضاف بصوت ارق: – الا ترين المصيبة التى حلت بنا؟!

فتحت البنت الباب على مصراعيه ودخل سينتسوف حاملا الطبيبة على يديه والقى نظرة سريعة على داخل المنزل. كانت الغرفة شبه قروية تقرب

من غرف منازل المدن: فرن حجرى، ومصطبة واسعة على طول الجدار وخوان ومائدة عليها سفرة مشمعة ورفوف جدارية مزينة بورق مخرم... وسأل سينتسوف البنت وهو لا يزال يحمل الطبيبة على يديه:

– هل فى البيت احد غيرك؟

– بالطبع، كيف لا؟ – دوى صوت ابح من خلف ظهره.

التفت سينتسوف نصف التفاتة ورأى فى الباب المؤدى الى الغرفة الثانية نفس الشخص الوحيد الساق على العكازين والذى تحدث عنه زولوتاريف. كان كهلا مكتنز البدن بشعر متهدل مهمل ولحية شقراء كثة على وجهه المترهل. عندما رأى ان سينتسوف يهم بوضع الطبيبة على المصطبة اوقفه بايماءة وقال:

– انتظر لحظة. اذهبى، يا لينا، الى غرفة النوم واحضرى الحشية من السرير واتركى هناك البطانية والشرشف، احضرى الحشية فقط! وبسرعة، فمن الصعب الانتظار.

تطلع سينتسوف الى صاحب البيت مباشرة، ولعل تعابير وجه سينتسوف قد عكست ما يعتمل فى نفسه، اى تصميمه على المطالبة بكل ما يترتب للمواطن السوفييتى الذى يواجه محنة على المواطن السوفييتى الآخر، رغم الحرب والحصار. فسأل صاحب البيت:

– لماذا تنظر الى هكذا؟ هل تريد ان تعرف باننى فرح لمجيئكم ام لا؟ ما الذى يفرحنى؟ فالطريق الى هنا مستقيم، واذا وصل الالمان ستكون تلك نهايتنا ونهايتكم. فما العمل عند ذاك؟ ضعى الحشية هنا، على هذا الطرف، واطويها عند الرأس، فطولها كاف – التفت الى الصبية (التى فرشت الحشية على المصطبة باستعجال.

وضع سينتسوف الطبيبة وقوم ظهره بصعوبة. وخيل اليه ان عروقه كلها تمددت.

– يبدو انك شجاع جدا! – قال صاحب البيت بلهجة اختلط فيها الاحترام بالسخرية عندما رأى النجيمات على ردنى سينتسوف – الالمان يصولون ويجولون هنا منذ يومين وانت لا تزال تحمل شارة المفوض... يا لينا، احضرى ماء المشرب! الا ترين ان الناس متعبون وعطشى!.. اجلسا وحلا ضيفين علينا. – اسند عكازيه الى الجدار وتشبث بالمائدة بيده وجلس قبلهما فانبعث عن المصطبة صرير ثقيل. – ربما من الافضل ان اخبئكم فى السرداب. فانا اما ان اخاف او لا اخاف اطلاقا. هل تريدون ان تبيتون الليل؟

هز سيتسوف رأسه بالايجاب .

– وبعد ذلك؟

قال سيتسوف انهما سيذهبان فى الفجر ليصلا الى قواتنا، وبودهما ان يتركا الدكتورة المريضة هنا . فحرارتها مرتفعة ورجلها مفسوخة . وينبغى لها ان ترقد امدا طويلا . وحتى لو جاء الالمان فالمرأة يمكن ان لا تثير شكوكا شديدة لديهم، لا سيما وانها مريضة وليست جريحة . فقال صاحب البيت :

– دكتورة؟ ظننت انها زوجتك .

– لماذا؟ – سأله سيتسوف .

– ليس كل الناس يحملون المرأة على ايديهم بهذه الصورة . اذن فهى دكتورة . – كرر صاحب البيت والتقط عكازيه واقترب من رأس المريضة ووضع راحته على جبينها وقال : – كيف مرضت الى هذا الحد! انك ملتهبة . اليس ذلك تيفوئيد؟

– كلا، انه برد، وربما التهاب الرئتين – قالت الطبيبة بعد ان بلعت ريقها .

– وان كان تيفوئيدا، فانا لا اخشى التيفوئيد . اصبت بكل انواعه . وقدمك ماذا حدث لها؟

– فسخ .

– سنفحص القدم غدا، ربما تحتاج الى تجبير . لا يجوز التساهل فيما يخص القدمين . لقد جربت ذلك بنفسى مرة، وانا اعرج منذ ذلك الحين . فلنتعارف : غافريلا روماتوفيتش بيريوكوف . اسم ابى رومان، واخترت لقبى بيريوكوف (المعتزل) ليكون مناسبا لغاباتنا – قال ساخرا وشد على يد الطبيبة الساخنة ثم صافح سيتسوف وزولوتاريف .

دخلت الصبية الغرفة تحمل دلوا وقدحا معدنيا .

– قدمى لها الماء اولا . . . – قال صاحب البيت بما يميز سلوكه كله من رعاية خشنة واومأ الى الطبيبة – من اين جئتم؟ وكم يوما قضيتم فى الطريق؟

فقال سيتسوف وعلت محياه ابتسامة مريرة لمصيره انهم يسيرون، اذا حسبنا الوقت كله، منذ ثلاثة وسبعين يوما . فقال الرجل مستغربا : – «كيف ذلك؟»، واوضح له سيتسوف باختصار كيف حدث ذلك .

اطلق بيريوكوف صفرة الدهشة وقال :

– اجل، مصيركم صعب جدا! يمكن القول ان كل شىء مقلوب من جديد هنا رغم وصولكم الى دياركم . – ثم التفت الى ابنته وقال بعد ان رق

قلبه – لينا، اسمعى، اتركى الحشية هنا، وستنامين معها فى غرفة النوم، اما نحن الرجال فسنقضى الليل هنا .

ركضت الصبية فرحة لاعداد السرير، وهى فخورة بقرار ابيها . وبعد عدة دقائق حمل سيتسوف الطبيبة الى السرير العريض الكبير المرن والمفروش بحشية من الريش فى الغرفة المجاورة .

– آه، ما اروعه، شىء يصعب تصديقه! – همست الطبيبة – ساعدينى يا صبية فى خلع ثيابى! – خيل اليها ان الرجال خرجوا من الغرفة، ولكنهم كانوا هناك ولم يخرجوا الا بعد ان سمعوا هذه الكلمات .

ونادى بيريوكوف ابنته :

– لينا، تعالى للحظة!

– ماذا تريد؟ – اخرجت الصبية رأسها من الباب متململة .

– لا تتململى، تعالى الى هنا واغلقى الباب خلفك!

اقتربت الصبية منه .

– ساعديها فى خلع ثيابها، واذا كانت ترتدى ملابس داخلية مما يرتدونه فى الجيش اخلعيها ايضا واعطيها قميص امك . كل ما عليها مما يخص الجيش اجمعيه وخبأيه فى مستودع الحطب . هل تعرفين اين؟ فى نفس المكان الذى خبأنا فيها بزة ذاك الذى جاء الينا امس . فربما لا يهتمون بها لانها امرأة . واحضرى الهوية والوثائق وسوف اخبئها بنفسى . ام انك تأخذها معك؟ – التفت الى سيتسوف .

– الافضل ان تبقى عندها، فقد تحتاج اليها فيما بعد .

– من يدرى؟! – قال بيريوكوف ساخرا – بالامس مر بنا احدهم . . . لن اذكر رتبته، فليذهب الى الشيطان . . . لم يطلب حتى طعاما، اهتم باستبدال بزته فقط! اخرج من جيبه كل النقود ومد يده بها الى وقال : «خذها كلها، واعطنى بدلها ملابس ممزقة!» . اعطيته قميصا وبنطالا، ولكنهما سالمان، فلم اعثر على البسة ممزقة، واطلقت سراحه، فليذهب الى حيث يريد . فما هو حقنا على الشخص الذى ترتعش شفاهه من الخوف فيهمس بكلام لا صوت فيه! احتفظت ببزته مع وثائقه . وانتما هل تنويان مواصلة السير بهذه الصورة؟

هز سيتسوف رأسه بالايجاب . فسأل الرجل :

– واذا صادفكما الالمان؟

– سنقاتل . – قال زولوتاريف الذى لم يشترك فى الحوار حتى الآن .

– هل تستطيع القتال بها طويلا؟! – اومأ الرجل الى البندقية الموضوعة

عند الجدار – ومع ذلك لاحظت ان الخوف من الالمان شديد، والرعب شديد!

– شيء مرعب حقا! – قال سيتشوف.

– صحيح – قال الرجل متأملا – شيء مرعب عن قرب، واكثر رعبا عن بعد.

ونادى ابنته التي اجتازت الغرفة راكضة وطلب منها ان تعد طعاما بعد ان تنتهي من مساعدة الطبيبة.

وفي الوقت الذي كانت الصبية تروح وتجيء فيه وتغطي النوافذ بستائر من قماش الاكياس وتعد المائدة استمع سيتشوف وزولوتاريف الى موجز «قصة حياة» صاحب البيت على حد تعبيره.

بدأ هذا الحديث بنفسه قائلا:

– ربما ليس من اللائق ان تسألاني عن هويتي وعن احوالي. فلست انا في ضيافتكما، بل انتما في ضيافتي. ولكنكما تتركان عندي هذه المرأة، وذلك يعني ان الضمير يطالبكما بان تعرفا عند من تتركانها، اليس كذلك؟

فقال سيتشوف ان الامر كذلك بالضبط. وعلق الرجل ساخرا:

– «بالضبط» اذن ؟!

تحدث عن حياته بصورة مشتتة، فتارة يتناول امرا، وتارة يتناول امرا آخر. حياته غير موفقة، وهو انسان تضرر كثيرا.

ذات مرة، ابان الحرب الاهلية، قاتل وسرح ضمن الاحتياط برتبة آمر فصيلة. وكان عضوا في الحزب وعمل رئيس فرقة عمال في تخزين الاخشاب. هناك تجمدت رجله عندما كان في حالة سكر، فبترت فيما بعد. لم يكن عندهم طبيب جراح، فنشر المضمد رجله كما تنشر الخشبة. وبعد ذلك لم يتحمل هذه العاهة فتدهور الى مستوى منحط وأولع بالسكر وبذر كل ما كان يملكه وفصل من الحزب، حتى انه صار يتسكع في الاسواق. وقبل ست سنوات وصل الى هنا، الى ارملة احد المستخدمين السابقين الذين عمل معهم...

– اقصد امها – وأومأ الى الجدار الذي يفصل بينهم وبين الصبية – عندها طفلان، وكلاهما ليس مني.

انتشلته تلك المرأة من الهوة التي انحدر اليها، فظل يعيش معها وصار يعمل ميكانيكيا في ورشة النجارة هذه، وتبنى طفلين غريبين عليه.

قبل اربعة ايام حلت بعائلتهم مصيبة. فبعد ان سمع ابنه المتبني وهو في الرابعة عشرة من العمر كثيرا من اخبار الحرب من المقاتلين الذين

عملوا في ورشة النجارة اختفى فجأة. وربما التحق بالوحدة التي مرت بهم في ذلك اليوم. وفي الليل خرجت الام في اثره دون ان تخبر احدا لتعيد ابنها.

– اما الآن فقد انقلب كل شيء! الالمان في كل الارجاء، ولم تعد هي منذ اليوم الثالث. عندما طرقتم الباب ظننت انها عادت. لم اشرب الخمر منذ مدة طويلة جدا، ولكني تجرعته امس من شدة حزني. ترك الجنود قنينة وانتزعتها لينا مني، ولا ازال اذكر اني ضربتها، وانا سكران. انها لا تقول شيئا، ولكني اشعر باني ضربتها. وهي غير متعودة على ذلك... ماذا، يا لينا، هل انتهيت من اعداد المائدة ؟.. في القنينة قليل من النبيذ، انتزعتيها مني بالامس...

كان في القنينة حقا قليل من النبيذ. احتسى الرجال نصف قدح مضلع لكل منهم واكلوا بطاطس باردة مملحة اكثر من اللازم.

– كيف حالها؟ – اومأ صاحب البيت الى الباب – هل قدمت لها طعاما؟

– قبل ان اقدم لكم – اجابت الصبية.

– انت على حق، فلا تغضبي...

بعد ان شرب زولوتاريف وتناول الطعام تنحنح راضيا ووضع البندقية قربه والتحف بالسترة الجلدية دون اطالة كلام ونام قرب الجدار على القش الذي جلبته الصبية. اراد سيتشوف ان يزور الطبيبة، ولكن الصبية منعته عند الباب قائلة ان المريضة غفت توا.

عاد سيتشوف وجلس عند المائدة. فسأله صاحب البيت:

– الا تريد ان تأكل المزيد؟

– شكرا. اخشى ان ازيد بعد جوع طويل.

– ربما انت على حق.

قلل بيريوكوف من فتيل المصباح ووضع كوعيه على المائدة:

– قل لي ايها الرفيق المرشد السياسي كيف يجوز ان يحدث ذلك؟ ها انت تجلس الآن امامي ممثلا للجيش العمالي الفلاحي الاحمر. وطالما انك لم تخلع البزة فانا احترمك، ولكنني اسألك: كيف يجوز ان يحدث ذلك، والى متى سيستمر؟ لا تظن بانك اول من اتكلم معه بهذا الخصوص. فقد تحدثت بشأنه مع المقاتلين، ومع الملازم الاول الذي عاش هنا ليراقب تجارة الاخشاب. صحيح انه لم يكن يعرف الكثير... ووصل الى هنا

جنرال، قائد فرقة. رابطت فرقته فى غاباتنا حتى ارسلوها الى الجبهة. الجنرال مكافح لا جدال فى ذلك، فقد وصل مع جنوده عبر المعارك من الحدود، ثم جمع فرقة من جديد وتوجه الى الجبهة ... وسألته: «ايها الرفيق الجنرال، لا تقل لى بانكم لم تفكروا حتى فى المنام بالانسحاب الى هذه الاماكن، فانا اعرف بانكم لم تكونوا تفكرون بذلك، فالامور سارت ليس على ما تريدون. ولكن ماذا تعتقد الآن، فقل صراحة: هل ستذهبون من هنا؟ وهل يظهر الالمان هنا فى منزلى؟».

عندما تلفظ بيريوكوف هذه الكلمات رفع رأسه والقى بنظرة بطيئة على المنزل وكأنه يودعه.

– وبماذا اجابنى؟ «ماذا تقول؟ سنزحف غدا الى الامام وسنقاتل وسوف نطردهم من يلنيا كخطوة اولى». ثم ماذا؟ توجهوا بالفعل وحطموهم وطردوهم من يلنيا! اما الآن، فماذا حدث؟ انطلق الجنرال الى الامام من غابتى وحرر يلنيا، ولكن الالمان تجاوزونا يوم امس. تجاوزونا الى مسافة بعيدة جدا! يقال ان عاملة التلفون تلفنت يوم امس من اوغرا الى زنامينكا فردوا عليها من هناك باللغة الالمانية. والمسافة الى زنامينكا باتجاه الشرق اكثر من خمسين كيلومترا من هنا!

– مستحيل! – قال سينتسوف.

– كيف تقول مستحيل؟ الجنرال حرر يلنيا، ولكن الالمان فى زنامينكا وراءها. فاين هذا الجنرال الآن؟ خبرنى!

– اين؟ اين؟ ... – غضب سينتسوف فجأة – انه يقاتل فى مكان ما فى الحصار. وكان بوسعنا نحن ان نقاتل لولا المباغتة ... فمهما يكن من شىء فقد وصلنا من موغيليف الى يلنيا. وكان هناك ما يحملنا على القاء السلاح، ولكننا لم نلق به! فهل الآخرون اسوأ منا يا ترى؟

– ربما ليسوا اسوأ، ولكن الالمان طوقوكم من جديد! فهل كان من اللازم انتظار ذلك؟ ربما كان يتعين عليكم ان تستولوا عليهم من هنا ومن هناك؟ ولكنكم وقفتم تنتظرون حتى يصفعوكم على اذانكم. ثم هناك مسألة اخرى: هل ستصمدون؟ واذا لم تصمدوا فهم يضربون حتى الرابضين! ثم انك انت وجنديك، من انتما يا ترى؟ انكما من الرابضين.

– كلا – قال سينتسوف.

– من الزاحفين ...

– كلا، لسنا حتى من الزاحفين، اننا نسير للالتحاق بقواتنا وسنصل اليها.

– واذا قابلتما الالمان؟

– سنقتلهم.

– واذا قابلتما دبابة هل ستقتلانها ايضا؟ اما انا فأتمنى ان لا تقابلا احدا، اذهبا بهدوء الى ان تصلا الى قواتنا. فاذا صادفتما بعض الالمان فالاغلب انهم سيقتلونكما قبل ان تقتلاهم.

– لا ادرى – لاذ سينتسوف بالصمت برهة، والقى ذهنيا نظرة على كل ما شاهده وعاناه منذ اليوم الذى عبر فيه جسر موغيليف وظل هذا سربيلين، ثم قال: – اعرف شيئا واحدا، ربما قتلنا القليلين منهم، ولكننا قتلناهم على قدر المستطاع.

– هذا ما تعرفه. فما الذى لا تعرفه؟ لقد بدأت بكلمتى «لا ادرى».

– لا ادرى اين كل آلياتنا. لقد اختفت وكأن بقرة لحستها بلسانها من الارض ومن السماء على حد سواء!

– ثم ان طائراتهم ... – قال بيريوكوف بعد لحظة من الصمت – تدوى فوق رؤوسنا متوجهة الى موسكو. فى المساء تتجه الى هناك وفى منتصف الليل تعود. وانا اخرج من المنزل واتسمع لاعرف هل ان عدد الطائرات العائدة كبير؟ وهل الهدير فى السماء كبير؟.. على كل حال، نم! ولا تلمنى لاننى اتعبتك بالكلام. فلربما انت آخر مرشد سياسى اتكلم معه، وغدا ساضطر الى التكلم مع الالمان. اذا وصلت الى قواتنا وقدمت تقريرك اخبرهم بالنيابة عنى: ربما لديكم خطط للانسحاب حتى موسكو، مثل خطط كوتوزوف، ولكن يجب التفكير بالناس ايضا. بديهى ان بعض الصراصر فى بعض الشقوق لا تحب الحكم السوفييتى، ولكننى لا اتحدث عن الصراصر، بل عن الناس. فلو قلتم لى صراحة بانكم ستنسحبون وان لديكم خطة من هذا النوع لشددت الرحال وانتقلت انا ايضا. اما الآن فماذا على ان افعل؟ هل اعيش هنا واتمسح باذيال الالمان؟ هل اقول لهم انى شخص طيب، مفصول من الحزب ولست موافقا على الحكم السوفييتى؟ ... لماذا تتركوننى فى مثل هذا المصير؟ كان من الافضل لو ارتحلت. هكذا قل لهم ايها المرشد السياسى! ولكنك لن تقول لهم! ستصل وستقول: «وصلت تحت امركم». هذا كل ما ستقوله.

– لماذا؟

– من يدرى؟ ولكن لا تقلق بخصوص الطيبة. فلن اسمح بان تقتل اذا بقيت حيا.

– انا لا اخشى عليها، فانا واثق منك.

– ليس لديك ما تفعله غير ذلك . – قال بيريوكوف وقد عادت اليه ابتسامته المتجهمة الساخرة . اطفأ المصباح واضطجع ثقيلا على المصطبة . تململ قليلا ثم غط في شخير عميق .

رقد سيتسوف وظل يتطلع الى السقف، وخيل اليه ان السقف غير موجود وانه يرى سماء سوداء ويسمع فيها هديرا متقطعا لقاذفات القنابل المتوجهة الى موسكو. كاد يغفو عندما لمست وجهه فجأة يد طفولية :

– أيها الرفيق المرشد – جلست الصبية القرفصاء وهمست له – الطبيبة تدعوك .

نهض سيتسوف مرتبع الصبية حافيا الى الغرفة المجاورة .

– ماذا بك؟ – انحنى على الطبيبة الصغيرة – هل تشعرين بسوء؟

– كلا، حالتي افضل، ولكني اخشى ان يغمى علي او اغفو. فتذهبان دون ان اودعكما .

– لن نذهب بدون توديع . سنتوادع .

– اترك لي مسدسي، كي يبقى تحت الوسادة . حسنا؟ بودي ان اعطيك اياه، ولكني انا ايضا بحاجة اليه .

ولكن سيتسوف اجاب دون تردد بانه لن يعطيها المسدس، لانه بحاجة اليه فعلا، اما بالنسبة لها فهو يمكن ان يؤدي الى هلاكها لا غير. واضاف :

– فكري بنفسك . بزتك خبأوها، وحتى ملابسك الداخلية غيروها، فكيف يجوز ان يبقى المسدس تحت الوسادة؟! اذا لم يأت الالمان فلن تحتاجي اليه، واذا جاءوا سيكون المسدس سببا في هلاكك ... وهلاك مضيفيك – وبهذه الكلمات منعها سيتسوف من الاعتراض – حاولي ان تنامي. هل حقا ان حالتك افضل؟

– حقا ... اذا رأيت سربيلين حدثه عني . حسنا؟

– حسنا .

شد برفق على يدها الساخنة .

– اعتقد ان حرارتك اعلى .

– اشعر بالعطش طوال الوقت، وعلى العموم لا بأس .

– أيها الرفيق المرشد – اوقفته الصبية عند العتبة – اريد ان اقول لك ... – صمتت لحظة لتنصت الى شخير ابيها – لا تخش شيئا على تاتيانا. لا تفكر بان ابي – قالت «ابي» وليس «زوج امي» – شرير. انه متألم لامي واخي ... لا تخش شيئا ولا تسمع قوله بانه فصل من الحزب. فقد كان ذلك من زمان بعيد. وحالما بدأت الحرب ذهب الى اللجنة الحزبية في الناحية ورجاهم

ان يعيدوه الى الحزب. ناقشوا قضيته في المكتب الحزبي في استثمارة الغابات، ولكنهم بعد ذلك التحقوا بالجيش جميعا، فلم يعقد الاجتماع . لا تخش شيئا بسببه!

– انا لا اخشى شيئا .

– وانا سأفعل كل ما استطيع! – همست الصبية بحماس من جديد – سأقول بان تاتيانا من اقاربنا . وقد اتفقت معها على ذلك . اعاهدك كعضو في الكومسومول!

– هل انت عضو في الكومسومول؟ – سألها سيتسوف .

– منذ أيار الماضي .

– اين هويتك؟

– هل تريد ان تراها؟ – سألت الصبية باستعداد .

– لا داعي لذلك . حبذا لو تجدين مضمدا ليجبر لها قدمها . فانا لم استطع ان افعل ذلك، انه يحتاج الى خبرة .

– سأجده وسأحضره! – قالت الصبية بنفس لهجة الاستعداد – سافعل كل ما يلزم . !

صدق سيتسوف بانها ستجد المضمد فعلا وستحضره وستفعل كل شيء وتضحي بحياتها من اجل هذه الطبيبة الصغيرة .

رقد من جديد وغفا هذه المرة في الحال دون ان تشغل باله اية فكرة .

ايقظه الضوء . خيل اليه في المنام ان الفجر بزغ، ولكن المنزل كان مظلما كالسابق عندما فتح عينيه . اراد ان يغلق عينيه من جديد ولكنه انزلق على النافذة خط ضوئي عريض سريع . وهو يدل على شيء واحد لا غير، ضوء سيارة وصلت الى ورشة النجارة .

قفز سيتسوف وايقظ زولوتاريف وصاحب البيت قبل ان يرتدي جزمته . ولطم النافذة ضوء آخر .

– جاء الالمان! – قال بيريوكوف بصوت ابح – انتظرتما حتى جاءوا! اسرعا!

قفز على ساق واحدة متشبثا بالجدار حتى وصل الى النافذة المطلة على الحوش وسحب اطارها ففتحها على مصراعيها .

– هيا! اخرجا عبر الحوش وستصلان الى الغابة عن طريق البساتين، ولن يرونكما . اسرعا!

ووصل عبر النافذة المفتوحة ضجيج عدة سيارات . افسح سيتسوف المجال لزولوتاريف ليخرج اولا، والتقط جزمته التي لم يتسع الوقت لارتدائها مع اللفاف وعبر النافذة .

كان ذلك في الوقت المناسب تماما . فالسيارات الاخرى كانت لا تزال تتقدم، بينما توقفت احداها قرب المنزل . وتعالت اصوات المانية . فالسيارة غاصة بالرجال .

اجتاز سيتسوف وزولوتاريف البستان وركضا بين اكوام الخشب المنشور حتى وصلا طرف الفسحة فجلسا ليلتقطا انفاسهما . تطلع سيتسوف وهو يرتدى جزمته الى الوراء، الى المكان الذى استدارت فيه السيارات الالمانية وهى تنير مختلف الانحاء باضوائها . واضيء المصباح فى احدى نوافذ المنزل الذى تركه سيتسوف وزولوتاريف قبل خمس دقائق، ثم اضيء فى نافذة اخرى . كان الضوء يتسرب من تحت قماش الجنفاص الذى يغطى النافذة بشكل غير محكم فكان مرئيا من هنا .

عندما رأى سيتسوف هذا الضوء انتابه شعور حاد بالعجز . فقبل ساعة كان بوسعهما، على نحو ما، ان يدافعا عن المرأة الراقدة هناك بهذه البندقية وهذا المسدس . اما الآن فقد تركت وحيدة بدون اية حماية، تركت الى ضمير الناس وتحت رحمة العدو .

وفكر زولوتاريف بالشيء ذاته .

— حبذا لو لم تقل شيئا فى هذيان الحمى — قال زولوتاريف واضاف : — هل يمكن ان تدخن ايها الرفيق المرشد السياسى؟ القلب يكاد يتفطر .

— اخشى ان يرونا!

— لن يروا شيئا، ستتغطى بالمعطف ...

وهكذا ظلا لوحدهما، وسارا لوحدهما ستة ايام اخرى الى ان فرق بينهما المصير وقذفهما فى جهتين مختلفتين .

فى هذه الايام الستة تحملا كل ما يقع من نصيب رجلين مسلحين فى بزة عسكرية يشقان طريقهما الى قواتهما عبر معسكر حربى للعدو . تحملا البرد والجوع والخوف من الموت مرارا . كانا مرارا على قاب قوسين او ادنى من الهلاك او الاسر، وسمعا الكلام بالالمانية على بعد عشرين خطوة وسمعا رنين السلاح الالمانى وزئير السيارات الالمانية واشتما رائحة البنزين الالمانى .

ناما اربع مرات فى غابات اكتوبر الباردة حتى كادا ان يتجمدا، وتمكنا مرتين من المبيت فى المنازل .

فى احدى المرتين استقبلهما اهل البيت مسرورين، وفى المرة الاخرى ارتعبوا ليس منهما، بل من المصير الذى ينتظرهم لو عرف الالمان بمبيتهما عندهم . وفى كلا المنزلين اللذين باتا فيهما التفت الناس خصوصا الى انهما

يسيران بالبزة العسكرية . فى المنزل الاول افتخر الناس بهما، وفى المنزل الثانى ارتعبوا خوفا على جلودهم .

وعندما غادرا المنزل الاول عند الفجر قال زولوتاريف لسيتسوف :

— هؤلاء روس حقيقيون، اليس كذلك ايها الرفيق المرشد؟

— حقا .

وعندما غادرا المنزل الثانى عند الفجر قال سيتسوف لزولوتاريف :

— لن نخلع البزة حتى الموت، لكى تقزز عيون امثال هؤلاء الجبناء!

واجابه زولوتاريف انه ما كان يتعين على المرشد السياسى ان يعطيهم مائة روبل مقابل الطعام، كان يجب ان نبصق فى وجوههم .

— لقد بصقت بان قدمت لهم مائة روبل . فليمسحوا البصاق بها!

— ويقولون ان ابنهم فى الجيش! — قال زولوتاريف منفعلا — ما اسوأ الحظ اذا كان يتعين عليه ان يريق دمه من اجل امثال هؤلاء الوالدين!

— بالاضافة الى الوالدين هناك الحكم السوفييتى .

— صحيح . ولكن ذلك شيء صعب! — لم يوافقه زولوتاريف .

كاد هذا الحوار يغدو آخر حوار بينهما . لانهما بعد نصف ساعة، عندما كانا يصعدان واديا غابيا شديد الانحدار ارتطما باثنين من جنود الاتصال الالمان يمدان سلكا تلفونيا . كان اللقاء مفاجأة لاولئك وهؤلاء على حد سواء . الا ان الروسيين الساثرين من الحصار بحذر كوحشين متنبهين كانا اسرع من الالمانيين اللذين احتسيا قهوة الصباح توا وراحا يصفران انغام اغنية ببطن متخم .

سحب زولوتاريف بندقيته واطلق النار على احد الالمانيين قبل ان يتمكن هذا من خلع بندقيته من كتفه . اما الالمانى الآخر فقد فر مرتميا عبر الشجيرات، وركض سيتسوف فى اثره وهو يطلق النار من مسدسه، حتى ارداه قتيلا بالطلقة السابعة والاخيرة فى المسدس .

وبعد ذلك اخذا بندقية وبيت الخراطيش وركضا فى الغابة ليبتعدا اكثر ما يمكن عن مكان اطلاق النار . وظلا يركضان الى ان سقطا عاجزين بين شجيرات كثيفة . وهنا فقط تذكرا، وهما راقدان، كيف حدث ذلك كله .

«ها قد قتلنا» — فكر سيتسوف بعد ان تذكر السؤال الذى وجه اليه فى المنزل قرب ورشة النجارة : «واذا صادفتم المانا؟» . وتذكر رده على السؤال : «اذا صادفناهم نقتلهم!» .

— فلنذهب — قال زولوتاريف — والا فقد يمشطون الغابة، اذ اننا لم نبتعد كثيرا ...

– حسنا – قال سيتسوف وعلق البندقية الالمانية على كتفه واضاف : – يخيل الى انها ثقيلة . انني اسير بدون بندقية من زمان حتى نسيت انها ثقيلة .

عند ذلك نصحه زولوتاريف بان يلقى بالمسدس، فقد استخدم كل رصاصاته . الا ان سيتسوف لم يكن راغبا فى ذلك . فقد احتفظ بالمسدس وقال انه سيعثر على رصاصات له .

وبعد ذلك ظل من جديد مع هذا المسدس الخالى وحده . كانا قد عبرا النهر فى الليل خوضا حتى الرقبة . وسقط فجأة فى حفرة عميقة فأغرق البندقية الالمانية والمعطف . وكان قد ربطهما سوية بحزامه ورفعهما فوق رأسه اثناء العبور . ولم يتمكن بعد ذلك من العثور عليهما رغم غوصه فى الماء ورغم البحث الجاد . وهكذا ظلا كلاهما ببندقية واحدة وسترة جلدية واحدة .

حدث لهما خلال هذه الايام الستة كل شيء، سوى امر واحد هو انهما لم يتمكنا من الوصول الى قواتنا . وكلما تعمقا فى سيرهما المتواصل نحو الشرق وجدا ان الالمان تعمقوا اكثر .

واخيرا بدت احلامهما بالوصول الى خط الجبهة امرا غير قابل للتحقيق . وكانت الوحدة' اثقل شيء عليهما . فى بعض الاحيان كانا يتكلمان عن ذلك، وصارا يتصوران ان الفترة العصيبة التى قضياها مع سربيلين فى الطريق من موغيليف الى يلنيا فترة سعيدة بالمقارنة مع ما يعانيان منه الآن . حبذا لو عثرا على وحدة تقاتل من اجل فك الحصار لكى يلتحقا بها!

صحيح انهما صادفا ذات مرة قبيل حلول المساء ملازما اول بيزة عسكرية مع سبعة مقاتلين مسلحين . اراد سيتسوف وزولوتاريف ان ينضما اليهم ولم يعترض الملازم اول على ذلك . ولكنه خلال الليل غير رأيه . فلربما شك فى ما قاله سيتسوف من انهما يشقان طريقهما من الحصار منذ يوليو . وفى الصباح سمع زولوتاريف عن بعد حفيف الشجيرات التى مسها التجمد المبكر . فالثمانية نهضوا وانصرفوا لوحدهم دون ان يوقظوهما . وسأل زولوتاريف سيتسوف :

– ماذا؟ هل نلحق بهم؟

فقال سيتسوف :

– طالما لا يثقون بنا فليذهبوا وشأنهم .

ولكنهما لم يعثرا على الوحدة العسكرية التى تقاتل للخروج من الحصار والتى يمكن الالتحاق بها . يبدو ان القوات التى خرجت من الحصار فى فيازما سلكت طرقا اخرى ...

آخر مرة باتا الليل فى الغابة . كان الطريق العام يلتف حول اطراف الغابة، وكانت السيارات الالمانية تسير عليه فى سيل متواصل تقريبا . انتهزا الفرصة فعبرا الطريق راكضين وسارا فى اعماق الغابة زهاء كيلومترين، وقطعا اغصان الشوح وكوماها ودخلا الكومة وتغطيا بسترة زولوتاريف الجلدية الممزقة . كانت الايام حتى ذلك الحين جافة، بينما تساقط المطر فى مساء اليوم . ناما فى البرد والرطوبة متلاصقين لكى يحافظا على الدفء . زد على ذلك انهما يعانيان من الجوع الشديد، ففى الصباح انتهت البقية الباقية من الطعام الذى اخذاه من آخر منزل باتا فيه .

ولم يكونا قادرين على النوم . فقال سيتسوف بسخرية كالحة :

– من المؤسف انى اغرقت الحزام . لو كان معى لشددت به بطنى ليسهل تحمل الجوع .

– لم لم نفتش حقيبتى الالمانيين بحثا عن الطعام؟

هذه ليست المرة الاولى التى يبدى زولوتاريف فيها اسفه على ذلك .

وبعد صمت قصير قال :

– الطريق الذى عبرناه معبد بالحصى، فاى طريق هو يا ترى؟

– ربما هو طريق فيريا . فقد ظلت ميدين الى الجنوب . وربما هو بالذات الطريق من ميدين الى فيريا .

– وكم تبعد فيريا هذه عن موسكو؟

– حوالى المائة .

– نعم ... – قال زولوتاريف متأملا – يعنى انه بقيت مائة كيلومتر عن موسكو، ولا نزال نحن نسير عبر الالمان . شيء لا يصدقه العقل ... – انصت الى موجة الهدير الثقيل الواطئ* الذى انداح على صفحة السماء – الى موسكو! يعنى انهم لم يحتلوها ما دامت طائراتهم تحلق اليها!

رقدا صامتين بضع دقائق .

– يا ايفان! – ناداه زولوتاريف باسمه المجرد .

كانا من ابناء جيل واحد . فالمرشد السياسى سيتسوف فى الثلاثين من العمر والجندى زولوتاريف فى السابعة والعشرين . وقد تآخيا فى المصيبة، فى الحياة التى عاشاها الآن والتى تركتهما الاثنين، كما يخيل اليهما احيانا، وحيدين فى ارض شاسعة . ولذا رفعت الكلفة بينهما دون ان يشعرا .

– ماذا؟

– تركنا الطيبة ولم نتفقدها!

– كيف نقذها؟ لو غرقنا، مثلا، لرفعناها فوق رأسينا. اما الآن فماذا نعمل لها؟ لو اخذناها معنا لماتت فى الطريق، فهل ذلك افضل؟
– انت محق طبعا – وافقه زولوتاريف، ثم تنهد وكرر القول: – لقد تركناها مع ذلك!
– ما الذى تريده؟ – سأل سيتسوف متذمرا.
– ما اهمية الذى اريده... اريد شيئا ولا استطيع تحقيقه... ذلك ما يؤلمنى... هل تعلم ماذا اريد؟
– ماذا؟
– لو قيل لى: «يا زولوتاريف هل توافق ان نقذفك بدلا من القنبلة على هتلر بحيث تقتله وتنفجر انت ايضا؟!» لسألتهم: «هل ستصيبونه؟» ولو وعدوا: «ستصيبه»، ولقلت لهم: «هيا! موافق». هل تصدق؟
– اصدق.
– وافكر فى بعض الاحيان: لماذا صرت انا التعيس سائقا؟ فبوسعى تماما ان اكون من جنود الدبابات!
– ثم ماذا؟
– لا شىء. اريد ولو مرة ان اطلق النار عليهم ليس من البندقية بل من المدفع، بنفسى، شخصيا. اريد ان احطم لهم شذر مذر دبابة او سيارة بقوتى! عندما نصل الى قواتنا لن التحق بالسواق. فليذهبوا الى الشيطان!..
– سيعرفون بانك سائق وسيرسلونك الى السواق.
– سأخفى ذلك، ساخفيه! – لاذ زولوتاريف بالصمت ثم قال: – يا ايفان!
– ماذا؟
– قل لى هل سيحتل الالمان موسكو؟
– لا ادرى.
– ماذا تعتقد؟
– لا اصدق.
وعبرت السماء موجة جديدة من الهدير الواطئ.
– توجهت الطائرات الى هناك...
– يا ايفان، اين تعلمت؟
– فى المدرسة الابتدائية اولا، ثم فى الثانوية المهنية.
– وانا ايضا. فى اية ثانوية؟
– ثانوية الاخشاب والتجارة، وانت؟

– ثانوية البرادين التابعة لمصنع روستوف للآلات الزراعية. وبعد ذلك؟
– بعد ذلك عملت، ثم توجهت للدراسة.
– اين؟
– فى المعهد الشيوعى للصحافة.
– اما انا فقد عملت طوال الوقت. على الجرار وعلى الشاحنة، وفى الجيش فقط انتقلت للعمل فى سيارة خفيفة. ماذا تعتقد هل سيشفى سربيلين؟
– لا ادرى. قال الطبيب بانه سيشفى.
– حبذا لو التحقنا بفرقته من جديد! ما هو رأيك؟
– رأيى من رأيك. عندما نصل الى هناك سنقدم طلبا.
– قلت لى بانك عملت سابقا فى فيازما، اليس كذلك؟ – سأله زولوتاريف فجأة.
– فى فيازما – اجاب سينتسوف ولاذ بالصمت طويلا بعد هذه الكلمة.
كان قد تذكر فيازما مرارا، والآن بعد سؤال زولوتاريف قدر عدد الكيلومترات من هنا اليها، وقرر ان من اللازم الاستدارة نحوها اذا لم يتمكنا من الوصول الى قواتنا. وهناك فى فيازما سيبحثان عن اشخاص يعرفونهما وسيلتحقان بالانصار.
فى تلك الليلة فكر هو وزولوتاريف بان فيازما التى ظلت بعيدا فى مؤخرة الالمان محتلة من زمان. ولعل من الاسهل عليهما كليهما، رغم كل شىء، ان يعرفا ما حدث هناك بالفعل.
فى تلك الليلة كان طوق الحصار حول فيازما يتقلص اكثر فاكثر، ولكنه لم يكن بامكانه ان يطبق عليها كليا. فان قواتنا المحاصرة هناك كانت تهلك فى آخر المعارك المستميتة ضد الدبابات وفيالق المشاة الالمانية. ولكن هذه الفيالق التى تلكأت فى ضواحى فيازما هى التى كان هتلر فى امس الحاجة اليها فى ضواحى موسكو بعد بضعة ايام.
ان التطويق والانسحاب الفظيعين الهائلى النطاق فى اكتوبر على الجبهة الغربية وجبهة بريانسك كانا آنذاك سلسلة متواصلة من عمليات الدفاع المدهشة بصمودها والتى تشبه الرمال المتناثرة تحت العجلات بشكل حبات تارة وبشكل كثبان تارة اخرى، ولكنها حالت دون المدرعات الالمانية ودون الوصول الى موسكو رأسا.
الشخصان الراقدان فى الغابة بضواحى فيريا فى تلك الليلة، واللذان يشعران بانهما كائنان صغيران تعيسان اعزلان تقريبا، كانا رغم ذلك ذرتين من تلك الرمال القتا بنفسيهما، بارادتهما، تحت عجلات الآلة الحربية الالمانية.

لقد حالا هما ايضا دون وصول الالمان الى موسكو، مع انهما فى تلك الليلة بالذات كانا يرتجفان من الفكرة المتسائلة: «هل سنسلمها؟» دون ان يعلما بعد ان موسكو لن تستسلم ابدا.

ايقظتهما فى الفجر اصوات معركة حامية قريبة. لم يكن الخيط الابيض قد انفصل عن الخيط الاسود بعد فى الغابة. نهضا وتوجها لملاقاة تلك الاصوات وهما يعرفان شيئا واحدا: طالما نشبت معركة فهناك ليس الالمان فقط، بل وقواتنا ايضا. واذا حالفهما الحظ فسيصلان اليها.

الحرب تقيس الاشياء بمقياسها. فقد سارا نحو اصوات الانفجارات المهلكة وصليات الرشاشات المدمرة بنفس الاستعجال الذى يسير فيه الناس فى اوقات اخرى لملاقاة صوت الحياة، ومنار الهداية والدخان المتصاعد من منزل بشرى وسط الثلوج.

— ربما هناك الخط الامامى؟ — قال زولوتاريف.

كان سيتسوف ايضا يريد التصديق بذلك، ولكنه فكر قليلا وقال ان ذلك امر مستبعد. لو كان الخط الامامى يمر من هنا لما خيم مثل هذا الهدوء فى الليل. ومن المحتمل ان قواتنا تشق طريقها عبر مؤخرة الالمان.

سارا الى الامام، وبدت المعركة وكأنها تسير بلقائهما. وصار بالامكان التأكد من ان الرشاش الذى يطلق صليات قصيرة من مسافة قريبة من هنا هو رشاشنا «مكسيم» وليس غيره. وقال زولوتاريف:

— انهم يقتصدون بالخراطيش.

وهز سيتسوف رأسه مؤيدا.

سارا زهاء مائتى متر اخرى. انبلج الفجر فى الغابة، فصارا يلتزمان بالمزيد من الحذر خشية ان يصادفا الالمان قبل ان يصلا الى قواتنا.

وفجأة انفجرت قذيفة على بعد مائة متر. ركضا، ثم انبطحا فى الثغرة التى لا يزال الدخان يتصاعد منها، وتوالت انفجارات القذائف الواحدة تلو الاخرى الى شمالهما ويمينهما.

كانت عدة بطاريات تطلق النار.

فى البداية ظن سيتسوف ان الالمان لم يحسبوا الحساب جيدا وراحوا يضربون فى مكان خال. فرح لهذه الفكرة ونسى الخطر لحظة.

الا ان القذائف ظلت تنهال بانتظام على نفس ذاك المكان، فادرك سيتسوف ان الالمان ينصبون هنا حاجزا ناريا يقطع على قواتنا طريق الاختراق. وسأل من زولوتاريف:

— ماذا تعتقد، هل ننتظر منبطحين ام نستمر فى السير؟

فى الامام واصلت الرشاشات صلياتها كالسابق.

— فلنستمر.

اخذا يركضان منبطحين تارة فى حفرة خلفتها قذيفة وتارة فى وهدة، وتارة على ارض مستوية.

— هل من المعقول اننا سنصل حقا الى قواتنا؟ اننى لا اصدق ذلك — قال سيتسوف عندما انبطحا عند جذع صنوبرة كبيرة وهو يلهث بعد الركض السريع.

وكانت تلك آخر الكلمات التى سمعها منه زولوتاريف.

انفجرت قذيفة. وعندما نهض زولوتاريف رأى المرشد السياسى ملقيا على الارض ويداه منشورتان ورأسه وجبينه غارقان بالدم.

— ايفان، ايفان! — هز زولوتاريف سيتسوف من كتفيه.

الا ان سيتسوف لم يجب.

عند ذاك القى زولوتاريف بدن سيتسوف الجامد على كتفيه وسار الى الامام نحو اصوات الرشاش.

بعد زهاء اربعين خطوة سقط فلم يتحمل الثقل. نهض ورفع سيتسوف على كتفيه من جديد وسقط مرة اخرى. ظل راقدا وهو يشعر بانه لن يتمكن من ايصال سيتسوف.

فى حين ان الثوانى تمضى، وقد خيل اليه ان اطلاق الرشاشات اخذ يبتعد.

وعند ذاك صمم على الوصول الى قواتنا راكضا باقصى السرعة والاستعانة باحد والعودة الى هنا معه.

دس وثائق سيتسوف فى جيبه باصابع مرتعشة، وبعد ان تردد لحظة خلع من على المرشد السياسى قمصلته المقطوعة الازرار.

كان قد عزم على العودة الى هنا بعد ان يصل الى قواتنا، ولكنه يحتمل ان لا يصل اليها، وما كان يريد للفاشيين ان يتعرفوا على المرشد السياسى من قمصلته فيهينوه ويسخروا منه حيا او يمثلوا به ميتا.

ركض مسافة قصيرة والقى بالقمصلة وسط اشجار شوح صغيرة، وبعد زهاء مائتى خطوة صادف اربعة مقاتلين راكضين يسحبون رشاش «مكسيم» وراءهم. ثلاثة منهم جنود دبابات والرابع هو الملازم خوروشيف بشخصيته المعهودة وخصلته الشقراء المتدلية من صدارته المائلة.

وصل زولوتاريف راكضا الى قائد فصيلته فى اللحظة التى انبطح فيها ذاك وراء الرشاش بعد ان ركض مسافة . وكان اول من رأى زولوتاريف يركض نحوهم فصاح بدون اندهاش وبابتسامة وكأنه كان ينتظره :

– ها هو زولوتاريف يهبط من السماء! عندك خراطيش؟

– نعم!

– انبطح اذن واطلق النار! سيظهر الفريتس الآن من جديد .

ركض قربهم عدد آخر من جنود الدبابات والمشاة وانبطحوا بين الاشجار . وكان الجميع ينظرون بانفعال الى الخلف ، الى اعماق الغابة ، الى حيث استدار خوريشيف بفوهة رشاشه .

وسأل خوريشيف دون ان يلتفت الى زولوتاريف :

– جئت لوحدك؟

– مع سينتسوف .

– اين هو اذن؟

– اصيب بجراح ثخينة . على مسافة غير بعيدة من هنا . ارسل معى شخصا ما وسنعود به .

– اين تركته؟

اشار زولوتاريف باصبعه على نحو تقريبى الى المكان الذى ترك فيه سينتسوف حسب اعتقاده .

– اين اصيب بالجراح؟ – سأل خوريشيف من زولوتاريف ، ولعله يحسب فى ذهنه كيف ينبغى سحبه بشكل افضل ، ولكنه لم يكمل فكرته فالتصق بالارض ، لان صليات الرشاشات ارتطمت بالاشجار فوق رؤوسهم واسقطت الاوراق الصدئة : – انتم تخيفوننا ، ولكننا نجعلكم هدفا لنا! – تلفظ خوريشيف بشتيمة وصرخ ووجه الصلية الاولى قبل ان يرى زولوتاريف الهدف الذى اطلق النار عليه .

بعد ذلك رأى زولوتاريف ايضا ذلك الهدف . فالالمان كانوا يتراكضون بين الاشجار .

وحالما طقطق الرشاش ، طقطق رشاش آخر بدوى قربه ورشاش ثقيل على مسافة ابعد الى اليمين .

وظلت صليات البنادق الرشاشة الالمانية تضرب الاغصان فوق الرؤوس . تمكن زولوتاريف من اطلاق الرصاص عدة مرات على الالمان المتراكضين . ثم انبطح الالمان .

واعطى خوريشيف اشارة الانتقال ركضا . ركضوا حوالى مائة متر ولزموا مواقعهم من جديد .

ولم يتخلف الالمان هنا ايضا . فقد اخذت القذائف الخفيفة تنفجر بين الاشجار ، ثم ظهرت من جديد اشباح متراكضة .

وفتحت رشاشات خوريشيف والرشاشات الاخرى على يمينه النار من جديد فارغمت الالمان على الانبطاح ، وغير جنود خوريشيف مواقعهم مرة اخرى .

زحف زولوتاريف الى خوريشيف وسأله :

– ما العمل؟ اعطنى مقاتلا وسنزحف للعثور على المرشد السياسى ...

– الى اين تزحف الآن؟ – قاطعه خوريشيف – ما اشد حماقتك! اين هو الآن؟! ارنى .

واشار زولوتاريف بيده يائسا ، فقد ادرك ان المكان الذى فكر فى الذهاب اليه قد احتله الالمان فى سياق القتال بينهم .

– كان يجب ان تسحبه آنذاك ، اما الآن فما فائدة الكلام؟! – قال خوريشيف بغضب .

– اذن سأذهب لوحدى! – قال زولوتاريف .

– لا تمثل مشهدا انتحاريا! واصل اطلاق النار! الا ترى ان الفريتس قادمون!

حقا فقد اخذ الالمان يتراكضون من جديد بين الاشجار على مسافة اقرب من السابق هذه المرة ، فاخذ زولوتاريف يطلق النار على الاشباح الخضراء الراكضة ، اخذ يطلق النار بصورة مستميتة ولكن بجد ومهارة مثل كل ما فعله طوال خدمته العسكرية .

... كل ما فعله الملازم خوريشيف ومعه عشرة من مقاتليه وعشرة من جنود الدبابات هو ان مارس التغطية فى قطاع صغير لجناح لواء الدبابات بقيادة كليموفيتش الذى كان يشق طريقه فى تلك الليلة عبر المؤخرات الالمانية .

وكان لواء كليموفيتش بدوره واحدة فقط من قطعات الجبهة الغربية التى واصلت القتال وزحفت فى مؤخرات الالمان فارشة غابات ضواحى موسكو باجسادها واجساد الاعداء طوال تلك الليلة والنهار التالى ومنتصف الليلة التالية فى محاولة لاختراق الطوق الالمانى وقد اخترقته فى آخر المطاف بعد ان فقدت نصف افرادها .

حققت تلك القطعات هذه الاعجوبة بنيران قليلة ودماء غزيرة ، ولكنها

عندما اخترقت الحصار لم يرسلوها للاستجمام واكمال صفوفها بالامدادات، بل تركوها فى المكان الذى وصلت اليه.

كان الخط الامامى الذى ينسحب طوال الوقت نحو موسكو يتقطع فى تلك الايام تارة هنا وتارة هناك تحت ضربات الالمان. وقد سدت احدى هذه الثغرات على الفور بالوحدات التى خرجت من الحصار توا وزودت على عجل بالاغذية والقنابل اليدوية والخراطيش.

وفى مساء ذلك اليوم الذى اخترقوا فيه الحصار قاتل هؤلاء الرجال من جديد، ولكن بجبهة نحو الغرب هذه المرة وليس نحو الشرق. وكانت موسكو ليست امامهم، بل وراءهم. وكان لديهم من جديد ولو قليل من المدفعية، كما كان عندهم جيران يسندونهم من اليمين واليسار. ورغم التعب الذى تجاوز كل الحدود فقد كانوا مسرورين لذلك.

الا ان زولوتاريف كان يشعر بالتعاسة، ومع انه كان انسانا صغيرا، مجرد جندى بسيط، فقد اثبت فى الصباح الثانى من اختراق الحصار انه بحاجة من كل بد الى مراجعة قائد لواء الدبابات المقدم كليموفيتش.

كان كليموفيتش قد تخلص بمحض الصدفة من النيران المتواصلة فعاد سالما من مركز المراقبة الى مركز القيادة ووقف قرب بناية المدرسة الريفية التى دمرتها القذائف. خلع خوذته ومد رأسه الحليق بارتياح تحت المطر الخريفى الذى يتساقط رذاذا كالدش.

وقال كليموفيتش لكابتن الدبابات الواقف قربه:

– حبذا لو تساقط هذا المطر اسبوعا. انه يتلف الطرق. وسيكون حال الجميع سيئا وحال الالمان اسوأ.

ثم القى نظرة منحرفة على زولوتاريف الذى اقترب منه:

– ماذا تريد؟

ذكر زولوتاريف ما يريد. واحس بان قائد اللواء ليس لديه وقت لاطالة الحديث معه، ولكن كليموفيتش استمع اليه دون ان يبدى تذمرا وقاطعه مرة واحدة فقط عندما قال زولوتاريف انه سمع من المرشد السياسى انه كانت له معرفة بالرفيق المقدم.

– المعرفة شىء لا قيمة له! – قاطعه كليموفيتش – اننا نضحى بحياتنا يوميا دون تمييز فى سبيل الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم. اية معرفة يمكن ان تكون اثناء الحرب؟!

ولاحت فى صوته مرارة الانسان الذى قتل على مرأى منه كثير جدا من

الناس الطيبين بحيث لم يعد يستطيع ان يأسف لاحد اكثر مما يأسف لغيره، وليس ذلك بسبب تحجر المشاعر، بل بسبب العدالة.

ثم قال، بضع كلمات ايضا، عندما اخرج زولوتاريف وثائق سينتسوف من قمصلته:

– يؤنبك ضميرك لانك لم تعد لانتشاله، اليس كذلك؟

– بلى.

– عندما ذهبت هل كنت تفكر بانك ستعود اليه؟

– نعم.

– لا داعى اذن لتعذيب النفس. اردت ان تفعل الافضل، ولكن الامور جرت كما ارادت الحرب! تصادف حالات لا يعرف نتيجتها حتى الرب! – تذكر كليموفيتش فى هذه اللحظة انه لو لم يقرر بنفسه ما هو الافضل، ولو لم يرسل عائلته من سلونيم الى سلوتسك بالسيارة لما وقعت عليها القنبلة ولارتحلت بعد ست ساعات بالقطار ولظلت على قيد الحياة مثل الكثير من العوائل الاخرى.

– اعطنيها!

اخذ من زولوتاريف وثائق سينتسوف وسلمها الى الكابتن الواقف قربه وقال:

– ضمها، يا ايفانوف، مع الاخريات.

لم يوضح قصده. فقد كان ذلك مفهوما لكليهما: فى الصندوق الحديدى المتنقل معهم كمقبرة الشهداء كانوا يضعون فيه طوال الوقت الذى صرفوه فى اختراق الحصار وثائق جميع الذين سقطوا فى القتال وثيقة بعد اخرى...

الفصل العاشر

لم يكن سيتشوف يعرف المدة التي قضاها في غيبوبة، هل هي خمس دقائق ام ساعة؟ ولكن اول احساس شعر به عندما استعاد وعيه هو الاحساس بالهدوء. رفع رأسه واستند الى يديه وجلس يمسح براحتيه الدم الذي غطى عينيه. ثم تلفت حواليه فلم ير احدا.

— زولوتاريف! — صاح بصوت ضعيف، ثم كرر بصوت اعلى: — زولوتاريف!

ظن ان زولوتاريف قتل فراح يبحث عنه بنظراته وهو جالس على الارض. ولكنه لم ير زولوتاريف حواليه لا حيا ولا ميتا.

لمس سيتشوف رأسه. كان ناقعا كله بالدم، ولكن الالم ينبعث من جانب واحد، من فوق الفود. دعك بدون حذر الجلد المقشوط باصبعه فندت عنه صرخة. وسال الدم على الجبين.

نهض. واجتاحته قشعريرة، ولكنه احس بانه ليس ضعيفا الى هذا الحد، وانه يمكن ان يمشي. وضع راحتيه على صدره وضغطهما بحركة غريزية ثم ابعدهما عنه مرتعبا، فقد رأى في البداية بقعتين دمويتين على فانيلته الوسخة، وادرك بعد ذلك ان قمصلته غير موجودة.

لم يتصور ما حدث في الواقع. فقد فكر في شيء آخر: ظن انه خلع قمصلته دون وعي وخبأها في مكان ما مع الوثائق. كان يفكر مرارا انه اذا كان لا مفر من الموت فينبغي عليه ان يمزق الوثائق او يخبئها. ولربما فعل ذلك عفويا في الغيبوبة.

جلس على الارض واخذ يبحث حواليه فرأى على العشب الذابل دربا من بقع سوداء. انها قطرات دم. لم ينهض من الارض، بل راح يتفحص بيديه الشجيرات الصغيرة النابتة حواليه، وتحرك عائدا على درب قطرات دمه. ولكنه لم يجد بين الشجيرات لا القمصلة ولا الوثائق.

واخيرا وصل الى الصنوبرة التي عرفها دون شك: فقد سقط هنا عندما انفجرت القذيفة.

هذا هو المكان بالذات! وهذه هي بقعة الدم الكبيرة التي تشربت الارض بها. ضغط يديه من جديد الى صدره، وكأنه يرى نفسه بالفانيلة وحدها لاول مرة. ولكنه لم يجد القمصلة.

وفكر سيتشوف لاول مرة مترددا: «وربما اعتقد زولوتاريف بانني قتيل وخلع مني...».

وبلغت مسامعه اصوات قتال عن بعد. كان اطلاق النار لا يزال مستمرا هناك. وكان ينبغي السير الى هناك! تسمع من جديد ونهض على قدميه مترنحا فرأى المانيين اثنين يتجهان نحوه. احدهما يحمل بندقية وهو على بعد ثلاثين خطوة تقريبا، والآخر قريب جدا وقد صوب بندقيته الرشاشة نحوه.

— هالت!

شاهد سيتشوف فم الالماني المسعور المفتوح حتى الاذنين، وهو مستعد لاطلاق النار عليه في بطنه، ففكر سيتشوف ذاهلا بالمسدس الفارغ من زمان في جيب بنطاله، ورفع يديه واحس بانه سيسقط اذا ارغموه على الوقوف طويلا بهذه الصورة.

مر اكثر من ساعة على اصابة سيتشوف برجة وجراح، وراح الالمان يمشطون الغابة بدقة بعد القتال الذي نشب هنا وانتقل الى جهة الشرق.

ظل الالماني ذو البندقية مع الالمان الآخرين الذين لاحوا ابعد منه يواصلون سيرهم عبر الغابة، اما الالماني ذو البندقية الرشاشة فقد اشار بفوهتها الى الجهة التي يتعين على سيتشوف ان يسير اليها، وقاد سيتشوف الى الخلف، الى الجهة التي وصلا منها في الصباح هو وزولوتاريف.

سار سيتشوف ببطء مع ان الالماني كان يصيح به متذمرا، حتى انه دفعه بالقوة مرة ببندقيته الرشاشة في الخاصرة.

خف الدوار في رأس سيتشوف، وصار بوسعه ان يسير باسرع من السابق، ولكنه لم يسرع لانه ما كان يخاف من هذا الالماني السائر خلفه.

«فليذهب الى الشيطان، وليطلق النار علي» — فكر سيتشوف بلامبالاة تقريبا، وهو ينصت الى اصوات القتال المبتعدة اكثر فاكثر.

اقتاد الالماني سيتشوف الى مجموعة من الاسرى الآخرين الجالسين على طرف الغابة بحراسة المانيين كهلين مسلحين ببندقيتين. قال لهما شيئا وهو يشير اليه. اخرج احد الالمانيين دفترا رسم فيه علامة زائد في البداية ثم سجل

شيئا، لعله لقب الالمانى الذى اقتاد سينتسوف، وانصرف هذا الالمانى بعد ان التفت مرة اخرى. اما الالمانى الكهل الذى يحمل الدفتر فقد تطلع الى رأس سينتسوف المدمى وقال له:

— زيتس ديخ *!

وجلس سينتسوف جنب الاسرى الاربعة الآخرين، واحدهم جريح بيده والثانى معصوب الرقبة والثالث ممزق الفم والخد ينفث دما بلا انقطاع.

وخيل لسينتسوف انه يعرف المقاتل الجريح بيده. وهكذا كان. فقد اقترب منه المقاتل الجريح وقال هامسا:

— ايها الرفيق المرشد السياسى، اين جمعتنا الاقدار؟ من حسن الحظ انك تمكنت من خلع القمصلة فى الوقت المناسب!

— لا اتذكر كيف خلعتها.

— حسنا فعلت — قال المقاتل بنفس الهمس المؤاسى — فما الداعى لان يعدموك عبثا؟

فيما بعد اضطر سينتسوف الى تذكر هذه الكلمات مرارا.

— كنا نحلم باننا قد نجونا نهائيا! — واصل المقاتل كلامه بعد ان صمت قليلا — وها هى النتيجة!

اتضح انه عاد آنذاك، على الطريق العام، الى جنود الدبابات مع خوريشيف وقاتل تسعة ايام للخروج من الحصار معهم. واليوم تخلف عنهم بسبب الجرح واسره الالمان اثناء التضميد.

— المسافة بعيدة من هنا؟

— حوالى ثلاثة كيلومترات.

«ذلك يعنى ان كليموفيتش خلص قواته من الحصار قرب يلنيا رغم كل شيء» — فكر سينتسوف بشعور من الاحترام والغبطة المريرة.

وهمس له المقاتل من جديد:

— لن اخاطبك برتبتك بعد الآن. فهما ينصتان الينا.

كان الالمانيان بالفعل ينصتان مع انهما لم يفهما شيئا على ما يبدو.

— شوايغين! شوايغين! ** — صاح احدهما بصوت اراد له ان يبدو مخيفا. لم يكونا يريدان للاسرى ان يتحدثوا فيما بينهم.

---

* اجلس!

** صه! صه!

وبعد ثلاث ساعات جمعوا عند طرف الغابة كل الذين اسروهم هنا بعد الاختراق الروسى للحصار، واقتادوهم بطابور على طريق غابى فى البداية، ثم على الطريق العام باتجاه بوروفسك.

فى الطابور اربعون شخصا نصفهم مصابون بجراح طفيفة. ولم يكن هناك احد تستدعى الحاجة حمله. فالالمان، كما تهامس الاسرى فيما بينهم، قد اطلقوا الرصاص فى الغابة على جميع المصابين بجراح ثخينة. وفيما عدا ذلك، لم يبد الحراس قساوة كبيرة. كانوا يستعجلون الطابور ويصرخون: «شوايغين! شوايغين!» اذا لاحظوا احدا يتكلم.

وربما اخذ يلعب دورا معينا الدفتر المرافق الذى يحتوى على علامات الزائد الصليبية، والامر الاهم انه يحتوى على الرقم الاجمالى لعدد الاسرى. فقد انتقل هذا الدفتر الآن من الجندى الالمانى الكهل الى الملازم الالمانى الكهل ايضا الذى رافق الطابور. وهو رجل طويل القامة بساقين مثل ساقى الكركى، يسير على حافة الطريق متجهما دون ان ينظر لا الى الحراس ولا الى الاسرى.

— سيقتادوننا هكذا حتى المساء الى مقر التصنيف التابع لهم — همس مقاتل اعرج يسير الى جانب سينتسوف ورقبته مضمدة بلفاف شاش وسخ — وبعد ذلك يصفوننا ويبدأون بالتساؤل: «هل بينكم ضباط؟ مرشدون سياسيون؟ يهود؟..».

— من اين تعرف ذلك؟ — سأله سينتسوف.

— وقعت فى الاسر عندهم مرة. وهربت، وها انا اقع من جديد! ولن يقدموا طعاما الا بعد ان يستجوبوا الجميع.

هذا المقاتل ذو الرقبة المضمدة هو من اولئك الاسرى الاربعة الذين انضم سينتسوف اليهم فى الغابة. وهناك عندما كانوا جالسين تمكن سينتسوف ان يخرج من جيبه خلسة مسدسه الخالى ويدسه تحت جذور الصنوبرة. فهذا المسدس الى جانب القمصلة المخلوعة يمكن ان يكشف عن هوية صاحبه.

ولكن الا يفشى سره احد من هؤلاء الاربعة؟ احدهم يعرف بانه مرشد سياسى. والثلاثة الآخرون كان بوسعهم ان يسمعوا صاحبهم يخاطب سينتسوف فى الغابة برتبته.

لم يفكر سينتسوف بذلك الا فى هذه اللحظة عندما تكلم المقاتل المضمد الرقبة فجأة عن التصنيف. فكر سينتسوف بذلك، وطرد هذه الفكرة فى الحال: «لن يعترفوا، وهذا المضمد الرقبة لن يعترف ايضا. لقد تحدث عن التصنيف ليس بسبب ذلك، بل بالعكس لكى يحذرنى كى اكون انا على حذر...».

بعد مسيرة ساعتين استدار الطابور من الطريق العام نحو طريق جانبى، ثم استدار من هذا الطريق ايضا. كان الطريق مقطوعا بخندق مضاد للدبابات حفرته

قواتنا. وكان جمع من النساء تحت الحراسة يعمل في طمر هذا الخندق بالمعاول والايدي.

وصاح احدهم في الطابور:

– يهدرون عمل البشر!

– يعاقبون البشر! – صاح شخص آخر في الطابور بصوت عال ايضا – ما دمتم قد حفرتم الخندق بانفسكم ضدنا فاطمروه الآن بأيديكم!

– شوايفين!

توقفت النسوة عن العمل الاجباري والقين من فوق الاكتاف نظرة على الاسرى، وعندما رآهن حراسهن صاحوا بهن باصواتهم الخشنة المبحوحة.

وقال المقاتل المضمد الرقبة لسيتنسوف:

– ربما يشتمونهن بلغتهم.

بعد كيلومتر من الخندق المضاد للدبابات اوقف الحراس الطابور عند قرية خاوية مدمرة جداً بنيران المدفعية، وعلى طرفها مبنى حجري سالم تقريبا وعليه رقعة: «دار ولادة».

ورغم الحرب والتدمير في كل مكان ظلت في هذا المبنى انفاس جديدة. ولعل تشييده انجز في الربيع او في بداية الصيف، قبيل الحرب.

واتضح انهم اوقفوا الطابور قرب هذا المبنى لاطعامهم وتضميد الجرحى. وقامت الايدي الروسية بهذا وذاك. ففي مطبخ دار الولادة، على الارضية، اكوام من البطاطس وبنجر العلف. وانهمكت امرأتان في طبخ عصيدة بدلو وفي طست كبير مطلي بالميناء. وفاحت من المطبخ رائحة القشور والتراب والدخان. كانوا يطهون الطعام هنا ليس للاسرى، بل للسكان الذين اقتادوهم لاجل الاعمال الترابية. الا ان الملازم المرافق للطابور كان، على ما يبدو، يعرف هذا المكان، فتوجه بساقيه الطويلتين مع الطابور الى هنا مباشرة.

في المطبخ عشر قصاع من الالومنيوم لا غير. اصطف الاسرى حسب الدور وراحت الطباخة تصب في كل قصعة مغرفة واحدة من سائل البنجر والبطاطس غير الناضجة. وعندما ترى بين المقتربين منها اشخاصا مرهقين جدا تنتحب كل مرة يملء صدرها اسى ولوعة.

كان الطبيخ ساخنا كاللهب، ولكن الجميع اكلوا باستعجال وهم يحرقون شفاههم كيلا يجعلوا رفاقهم ينتظرون طويلا. وكان الالماني واقفا قرب الطباخة يراقبها كيلا تصب المزيد لاحد، وكيلا يقترب منها احد الاسرى للمرة الثانية. احتسى سيتنسوف قصعة المرق كلها واحرق شفتيه، وكاد يتقيأ. اغلق

فمه بيده وابتلع القيء المندفع الى حنجرته وذهب الى الغرفة المجاورة للمطبخ، حيث كانوا يضمدون الجرحى.

ولعل تلك الغرفة كانت ردهة للتوليد، اما الآن ففيها طاولة ومصطبتان فقط. وقرب احد الجدران رقدت عدة اجساد مغطاة كيفما اتفق على قش فرشت عليه شراشف قذرة. وصدر عن احد تلك الاجساد أنين مستديم، ولعله أنين امرأة.

انهمك شخصان في تضميد الجرحى، وهما ممرضة عجوز حدباء وطبيب عجوز ضخم بوجه يشبه وجه الاسد ويدين لا تزالان قويتين ماهرتين، ولكنهما ترتجفان بين الحين والآخر اما بسبب الشيخوخة واما بسبب وجود الالماني هنا كما في المطبخ. غير ان ذاك الالماني كان يقول: «غينوغ! غينوغ!»*، بينما يكرر هذا: «شنيلر! شنيلر!»**.

– اصبر – قال الطبيب لسيتنسوف عندما جلس على المصطبة وسلمه رأسه.

رش الطبيب على الجرح اوكسيد الهيدروجين الموشوش، وحلق نتفا من الشعر بخشونة بعدة رشقات من المقص التي تمس الجلد الممزق. ثم مسح تلك البقعة باليود، مما جعل سيتنسوف يعوى من الالم، وبعد ذلك وضع شيئا ما فوقه وضغط بشكل مؤلم من جديد باصابعه على الجرح، ودفع سيتنسوف دفعة خفيفة لكي ينتقل الى المصطبة الثانية وقال للممرضة:

– ضمديه!

وجلس في مكان سيتنسوف شخص آخر بيد مهشمة الاصابع.

اخذت الممرضة وهي تعرج برجلها القصيرة وكتفها المتهدلة تضمد رأس سيتنسوف وتدمدم بهمس غاضب. في البداية لم يفهم سيتنسوف ما تقول، ولكنه ادرك بعد ذلك انها تلوم الالمان لانهم يثقلون على نيكولاي نيكولايفيتش ويعيقونه عن العمل بهدوء. يبدو ان كلا العجوزين – الطبيب والممرضة – قد عملا معا امدا طويلا جدا، وهي الآن متألمة لزميلها الجراح اكثر من المها على الجرحى.

رأى سيتنسوف الآن وجه الجراح الذي لم يتمكن من رؤيته عندما كان جالسا على المصطبة تحت يده. وادرك سيتنسوف مدى العذاب الذي يتحمله هذا الانسان المضطر الى العمل كالبيطار. فالالماني لا ينتظر، بينما يريد

* كفاية! كفاية!

** اسرع! اسرع!

هو ان يعالج اكبر عدد من الجرحى بيديه الماهرتين والقاسيتين رغما عنه. كان وجهه الاسدي بحاجبيه الاشيبين وانفه العريض المضغوط وشاربيه المتصلبين المنتصبين كشوارب القط يتصبب عرقا بسبب التوتر وقد ارتسمت عليه امارات التعاسة والهياج. ولو كان يستطيع لربما غرز ملقطه في حنجرة هذا الالماني اللعين الذي يكرر بلا كلل: «شنيلر! شنيلر!».

بعد ساعة امروا الطابور بالاصطفاف من جديد. ولم يتسع الوقت لتضميد بعض الجرحى، ولكن الملازم بساقي الكركي تطلع الى ساعته، ولم تعد هناك اهمية لاي شيء بعد ذلك. فالحراس مستعجلون في ايصال الاسرى الى المكان المطلوب. وصاروا يسرعون في خطاهم ويجأرون بغيظ اشد.

الا ان ذلك كله انتهى فجأة، وتوقف الطابور طويلا. ففي الامام ازدحمت السيارات الالمانية، وخيل للرائي من هنا ان سيلها بلا نهاية. كان بوسع طابور الاسرى ان يستدير طبعا ليتجنب الازدحام، الا ان الغابة في ذلك المكان تضيق على الطريق من جانبيه، ويبدو ان الملازم بساقي الكركي لم يكن يميل الى تجنب الازدحام عبر الغابة.

— ها قد توقفنا! — قال المقاتل ذو الرقبة المضمدة لسينتسوف، فهما يسيران من جديد جنبا الى جنب.

— لم يعيدوا تضميد رقبتك، لم يكف الوقت، اليس كذلك؟ — سأل سينتسوف.

— لست جريحا، في رقبتي دمل... سنقف طويلا. هل تعتقد انهم يلتزمون بالنظام؟! ليس عندهم نظام، عندهم تشويش ايضا. عندما اقتادونا في المرة السابقة الى المعسكر رأيت خلال اليومين اللذين قضيتهما هناك قبل ان اهرب ازدحاما كثيرا مثل هذا، وكنت كل مرة افكر: اين طائراتنا؟ — صمت برهة ثم قال بلهجة حالمة: — آه، يا ليتني ادخن الآن لاخفف الالم!

لم يجب سينتسوف بشيء، ولكن جاره ما كان يريد ان يصمت:

— عندما ضمدوك هل رأيت اشخاصا راقدين على الارضية؟

— رأيتهم — قال سينتسوف — واعتقد ان بينهم امرأة...

— ليس امرأة واحدة، كلهن نساء! قالت لي ذلك الطباخة وهي تصب لي المرق. كلهن نساء، وكلهن مقطوعات الايدي. فان قواتنا زرعت الغاما في احد الاماكن قرب الخندق المضاد للدبابات. ولكن الالمان ارغموا النساء على انتزاع تلك الالغام من الارض بالايدي. اما اللواتي انفجرت بهن الالغام وهلكن فقد طمروهن هناك في الخندق مباشرة.

كان سينتسوف طوال اليوم، منذ اللحظات الاولى للأسر، في حالة انسحاق فظيع، ولكنه شعر الآن من جديد بانه لا يمكن ان يلتزم باللامبالاة بشأن ما اذا كان الالمان سيعدمونه ام لا، وما اذا كان سيصل ام سيسقط في الطريق فيطلقون النار عليه... فقد اراد من جديد ان ينجو مهما كلف الثمن، اراد ان ينجو ليس مجرد نجاة، بل نجاة تمكنه فيما بعد من اجل قتل الالمان ثأرا لهذا الخندق المضاد للدبابات والذي تطمره النساء بايديهن، ثأرا لهذه الايدي النسوية المقطعة...

عندما مرت الطائرتان الاوليان من طراز ايل بزئير فوق الطريق لم يدرك لا سينتسوف ولا الاسرى الآخرون ما حدث. ادركوه في اللحظة التالية من تصرف الالمان. فقد اخذوا يتقافزون الى السواقي من متون السيارات مباشرة، وانبطح الحراس على الارض، بينما مرقت فوق الطريق العام طائرات اخرى بعدد متزايد...

وصرخ شخص ما بصوت رنان قبيل الموت. وهوى بعض الاسرى على الارض بينما ظل بعضهم واقفين يتطلعون الى السماء كالمسحورين.

— نيدر! تسو بودين! ليغت اويخ!...* — صاح بالاسرى الملازم الالماني المنبطح على الارض.

تجرد عن كل ما كان يلازمه من هدوء وراح يجأر ويسحب باضطراب مسدسه الذي اشتبك بجرابه. ربما كان مرعبا ومعيبا له ان يرقد على الطريق كالدودة، بينما ظل هؤلاء الاسرى واقفين بكل قامتهم فوق رأسه. الا ان الطائرات استمرت باطلاق النار من الرشاشات وهي تمرق فوقهم، ولم تكن لديه القوى الكافية لا لحمل نفسه على الوقوف ولا لحمل هؤلاء الاسرى على الانبطاح. كلا، سوف يرغمهم على الانبطاح!

— تسو بودين!.. — صرخ واخذ يطلق الرصاص من مسدسه على حشد الاسرى الذين ظلوا واقفين على الطريق.

— فلنهرب، يا رفاق! — صاح سينتسوف بصورة مباغتة له نفسه عندما رأى المقاتل ذا الرقبة المضمدة يسقط عند قدميه وقد امسك رأسه بيديه — فلنهرب! — صاح مرة اخرى وقفز عبر الساقية واندفع نحو الغابة محطما الشجيرات الصغيرة، وقد سمع كيف ركض عدة اشخاص وراءه محطمين الاغصان. واستمر فوق الرأس ازيز صليات الرشاشات. ووراءه سمعت الانفجارات وصليات البنادق الرشاشة.

---

* انبطحوا، انبطحوا على الارض!...

لم يعرف سينتسوف عدد الذين تمكنوا من الخلاص آنذاك. فقد فروا الى جهات مختلفة من الغابة ولم يتقابلوا فيما بعد. سار بدون توقف تقريبا، وكان يجلس احيانا بضع دقائق لكى يلتقط انفاسه. سار بقية ذلك اليوم القصير من شهر اكتوبر حتى حل الظلام نهائيا، وسار طوال الليل ايضا. سار عبر الغابة، عبر قرية محروقة من آخرها، وسار عبر الغابة من جديد، وتجاوز خندقين مضادين للدبابات وخنادق اخرى مهجورة. فى احد تلك الخنادق ارتطم بجثث، فافقده ذلك، والا لتجمد. فقد خلع قمصلة احد القتلى وسترة قطنية مبطنة وجديدة تقريبا، سوى بقع قليلة من الدم على طرفها. ووجد قرب قتيل آخر قبعة شتوية ارتداها بصعوبة فوق عصابة التضميد بعد ان اصطكت اسنانه من شدة الالم. وهم بان يأخذ بندقية كانت مرمية هناك، ولكنها كانت بدون زناد، فبحث عنه كثيرا ولم يجده. ثم اجتاز طريقين احدهما خال، اما الآخر فقد مر به، بعد دقيقة من اجتيازه، طابور من الدراجات النارية الالمانية.

تشمم روائح الحرائق وشاهد اللهيب وسمع اطلاق النار تارة الى اليسار وتارة الى اليمين. وذات مرة خيل اليه ان اطلاق النار يجرى فى جميع الجهات. وخيل اليه آنذاك انه يجتاز خط الجبهة. وكان قد اجتازه بالفعل...

ولكنه عندما خر عاجزا على الارض وسط الغابة عند الفجر سمع من جديد هدير الانفجارات ليس على اليمين ولا على الشمال وليس من الوراء بل من امامه على مسافة بعيدة. ضعف ادراكه بسبب التعب، فلم يخطر بباله ان هذه الانفجارات البعيدة يمكن ان تكون قصفا المانيا لمؤخرتنا. فقد ظن، على العكس، ان عبوره الجبهة كان مجرد تصور وان خط الجبهة فى الواقع لا يزال امامه.

قرر ان ينقذ نفسه مهما كلف الامر ولا يقوم بمجازفة، فشرب من ماء المستنقع وزحف الى الشجيرات. فمن الافضل انتظار الغسق ومحاولة عبور الجبهة ليلا. فالامل بالليل اقوى مما بالنهار. بعد ان صمم على ذلك غط فى نوم عميق استغرق عدة ساعات، واستيقظ عندما بدأ الجو يعتم قليلا.

نهض وسار من جديد حتى قطع زهاء خمسة كيلومترات فى الغابة التى لا تريد ان تنتهى. ذات مرة خيل اليه انه يسمع اصواتا، بل وقد دوت اطلاقة قريبة جعلته يرتجف. ولو توجه نحو تلك الاصوات وتلك الاطلاقة لوصل مباشرة الى موقع الكتيبة الصحية المرابطة هناك. ولكنه كان لا يزال يعتقد بانه لم يعبر خط الجبهة وان هذه الاصوات وتلك الاطلاقة المانية وان عليه ان يسير الى ابعد.

واخيرا، عندما خيم الظلام كليا تقريبا خرج الى حقل وجد فيه خندقا مضادا للدبابات. عبر الخندق فوصل الى قرية منعزلة مكونة من ثلاثة منازل تمتد وراءها اسيجة من اغصان مضفورة.

ارتقى الرابية واقترب من المنزل الواقع فى الطرف. كان الهدوء يعم المكان. فخيل اليه ان المنزل مهجور، ولكنه عندما اقترب منه خرج من وراء ركن المنزل نحوه مقاتل كهل يحمل دلوا.

وكانت تلك هى المعجزة! فان وجود المقاتل الذى سار بالدلو نحو البئر دون تكلف قد بدد كل شكوكه: لقد وصل الى قواتنا.

تطلع سينتسوف الى الجندى وتطلع الجندى الى سينتسوف. كان سينتسوف اصغر عمرا من الجندى الذى بدا فى الاربعين، ولكن سينتسوف لا يدرى باى مظهر هو الآن بعد ان طالت لحيته فى غضون اثنى عشر يوما. ولذا دهش عندما سأله الجندى ،الذى تطلع اليه باهتمام:

– ماذا تريد يا ابتى؟

خطا سينتسوف صامتا خطوتين باتجاه الجندى الذى يحمل الدلو حتى ان هذا تراجع وسأله:

– من تريد؟

الا ان سينتسوف مد كلتا يديه صامتا كالسابق وراح يهز يد الجندى مع الدلو المرتج فيها. وتمكن اخيرا من تلفظ كلمة واحدة:

– وصلت!..

– اجل، وصلت ولكن... – قال الجندى والدلو لا يزال يرتج فى يده لان سينتسوف ظل يهز تلك اليد – ولكنك سرت اكثر من اللازم كثيرا! فخط الجبهة الامامى ظل وراءك لمسافة عشرين كيلومترا، فهل يعقل انك لم تصادف احدا قبلى؟

– كلا. سرت ليلا، وكنت انام فى الغابة نهارا. ظننت بانى سأسير ليلة اخرى...

– ما هى رتبتكم؟ – سأله الجندى وانتقل فجأة الى لهجة الاحترام وراح يتطلع بمزيد من الاهتمام الى لحية سينتسوف شبه الشيباء – رتبة مقدم؟ او رتبة اعلى؟

ولمع فى عينيه بريق الارتياح: فلربما خرج من الحصار جنرال ووصل اليه هو شخصيا. ورغم تعقد الوضع العام فان هذه الحادثة يمكن ان تبعث السرور كثيرا لديه.

الا ان سيتسوف خيب آماله:

— انا مرشد سياسي.

— حسنا، ايها الرفيق المرشد السياسي، فاما ان تنتظرني لاذهب الى البئر واعود، واما ان ترافقني، وبعد ذلك اوصلك الى مرشدنا السياسي الاقدم. فقد وصلت الى منزله بالذات!

سار سيتسوف برفقته حتى البئر وانتظره الى ان اغترف ماءا، وعاد معه الى المنزل دون ان يصدق بسعادته حتى النهاية.

— اجل ... اطلت لحية مناسبة تماما — اجتاز الجندي مع سيتسوف المسافة الى مدخل المنزل ووضع الدلو وفتح احد البابين على المدخل وقال: — ايها الرفيق المرشد السياسي الاقدم، اسمح لي بالكلام! احضرت اليك الرفيق المرشد السياسي الذي وصل من الحصار توا.

جلس في المنزل الريفي عند المائدة شخص في منتصف العمر يحتسي المرق من قدر موضوع على جريدة. جلس يحتسي المرق حزينا وقد اسند خده بيده كما تفعل العجائز، والتفت الى الباب وهو لا يزال يسند خده بيده. وجهه طيب الاسارير رقيق فيه شيء من وجوه العجائز، وشاربا ياقته زرقاوان من مستطيل واحد لكل منهما، الامر الذي جعل سيتسوف يدرك بانه وصل الى وحدة جوية.

احدى قدمي المرشد السياسي الاقدم في جزمة والاخرى بجورب صوفي. والجزمة على الارضية، وتستند الى المائدة عصا من صنع يدوي منحوتة بعناية.

وفكر سيتسوف: «وربما اعدها له هذا المقاتل». فكر سيتسوف بذلك لسبب ما، مع ان هناك آلاف الامور الاخرى الاكثر اهمية والتي كان بوسعه ان يفكر فيها الآن.

— تفضل، ادخل — صافحه المرشد السياسي الاقدم وهو ينهض قليلا — ما ابعد ما قذف بك الدهر! — قال مؤاسيا واضاف — انت جائع، اليس كذلك؟

— حبذا لو شربت شايا! — قال سيتسوف مع انه لم يتناول طعاما منذ يومين؛ فقد كان يريد ان يتدفأ اكثر من اي شيء اخر.

— سنشرب الشاي في كل الاحوال. — اومأ الى ابريق الشاي على المائدة — ولكن كل مرقا في البداية — مسح الملعقة بقطعة خبز وسحب القدر مع الجريدة على المائدة ليقربه من سيتسوف.

اخذ سيتسوف الملعقة وبدأ يأكل، بينما راح المرشد السياسي الاقدم الجالس قبالته ينظر اليه بالذات وليس الى كيفية تناوله الطعام.

قبل ان يجهز سيتسوف على المرق امح هذه النظرة وتذكر انه جلس مرتديا القبعة. وعند ذاك ترك الملعقة والقدر على مضض وامسك القبعة بكلتا يديه وخلعها متأوها من الالم. وقد التصقت القبعة بالشاش في احد الاماكن.

— هل انت جريح؟ — سأله المرشد السياسي الاقدم عندما رأى الشاش وعليه بقعة دم قاتمة.

الا ان سيتسوف لم يجبه الا بعد ان اكمل التهام الملعقتين الاخيرتين:

— جرح طفيف. كانت الرجة شديدة الى درجة، فقد استعدت رشدي بالكاد. اما الجرح فلم يمس الا الجلد والشعر...

— اين ضمدوك؟ — صب له المرشد السياسي الاقدم الشاي في القدح المعدني وقربه منه.

جاء هذا السؤال في محله. فقد سار سيتسوف دون ان يخلع القبعة، وظل الشاش نظيفا. حدثه عن مكان وكيفية التضميد، ثم حدثه عن باقي القصة.

كان المرشد السياسي الاقدم الجالس قبالته قد خرج من الحصار هو الآخر في يونيو ويوليو من الحدود نفسها، وبعد ذلك رقد في المستشفى وخرج منه قبل الاوان ووصل الى الجبهة من جديد قبل ثلاثة ايام لا غير. استمع الى سيتسوف بشعور من المشاطرة ولم يجد في حديثه ما يثير الدهشة ما عدا واقع ان الشخص الذي حدث له ذلك كله جالس الآن امامه حيا يرزق وسليما على العموم.

— لم اكن اتصور باني ساتجاوز الجبهة لمسافة عشرين كيلومترا واصل الى الطيارين مباشرة! — قال سيتسوف وابعد القدح الفارغ.

وقال المرشد السياسي الاقدم موضحا ليس المرة الاولى على ما يبدو، قضية شارتيه اللتين تثيران التساؤل:

— لا تهتم بشارتي ياقتي. ففي بداية الحرب كنت مفوضا لكتيبة خدمة المطارات. اما الآن فنحن لسنا طيارين، اننا كتيبة البناء. القائد والمفوض السابقان محاهما الالمان بقنبلة واحدة. فارسلت انا الى هنا من المستشفى مباشرة، كما ارسل القائد الجديد من لجنة التجنيد المنطقية. ونحن نحفر منذ ثلاثة ايام ليل نهار. وقد انسحبنا من الخط الذي حفرناه في اليوم الاول. — هز رأسه غاضبا — انا اعتقد ان الاشتراك في المعركة دفاعا عن موسكو ضمن المشاة افضل من الحفر هنا ثم ترك ما نحفره! ولكنه يقال ان عدد البنادق غير كاف. انها مكومة في مكان ما، اما نحن فنحسر عليها!

— يعني ان الوضع عصيب قرب موسكو، اليس كذلك؟ — سأل سينتسوف بصوت متألم.

كم مرة ظن خلال هذه الحرب ان اصعب ما فيها قد تم تجاوزه، ولكنه لا يزال في الامام؟! ثم ان هاتين الكلمتين اللتين تلفظهما الآن لاول مرة بصوت عال «قرب موسكو» قد هزتاه مع انهما قيلتا بصوته هو. قربْ موسكو! .. فهل هناك ما هو افظع من ذلك؟!

— نحن، طبعا، مناجذ يتلخص عملنا في حفر الارض. ولكن الوضع عصيب على ما يبدو. — قال المرشد السياسي الاقدم على مضض بعد ان لزم الصمت برهة، ثم تطلع الى وجه سينتسوف الشاحب والى ضماده واضاف: — توجد كتيبة صحية ليس بعيدا من هنا.

هز سينتسوف رأسه:

— كلا، انني اريد ان اقاتل ما دام الوضع كذلك! سانام عندكم، اذا سمحت، وفي الصباح سأذهب.

— الى اين؟

— الى الجبهة، مع اية امدادات، اعتقد بانهم سيقبلونني جنديا، فانا لا آمل في اكثر من ذلك بدون هوية ووثائق!

لم يدهش المرشد السياسي الاقدم. فقد كان يتوقع هذا الاعتراف من منتصف حديث سينتسوف، لان الذين خرجوا من الحصار محتفظين بهوياتهم يبدأون عادة من عرض تلك الهويات باعتزاز. اما سينتسوف فقد تحدث عن كيفية بقائه بدون هوية. تحدث عن ذلك واحس فجأة بان محدثه يتطلع اليه بارتياب لاول مرة خلال كل هذا الوقت، وكأن لسان حاله يقول: «لماذا تكذب؟ لقد مزقتها او طمرتها عندما جاء الالمان... شيء مفهوم!.. وهو يصادف احيانا، فما الداعي للكذب؟».

— ما دام الامر كذلك — قال المرشد السياسي الاقدم — نم هنا اذن مع الجندي الذي استقبلك، مع يفريموف. اما انا فسأذهب. ها هي الشاحنة قد وصلت لتأخذني.

كانت قد دوت منذ فترة قصيرة سيارة بالفعل ثم صمتت وراء النافذة.

— اشغالنا كثيرة. نحفر هنا خنادق واخاديد ونقيم هناك حواجز الاشجار... والا فكيف؟.. — اراد ان يواصل كلامه، ولكنه توقف. فبعد ان قال له سينتسوف شيئا لم يصدقه، ما عاد راغبا في مواصلة الحديث بصراحة، وكرر قائلا: — نم الآن، وفي الصباح سنرسلك انا وقائد الكتيبة حسب الاصول... يفريموف، يا يفريموف! ..

— حاضر، ايها الرفيق المرشد السياسي الاقدم! — قال الجندي وقد ظهر على العتبة.

— ساعدني يا يفريموف، رجاءا، في ارتداء الجزمة... انها مشكلة عويصة بعد الجراح... — كانت العبارة الاخيرة موجهة الى سينتسوف. فقد شعر المرشد السياسي الاقدم بالخجل لانه مضطر الى طلب المساعدة.

انحنى يفريموف وامسك بالجزمة ودس المرشد السياسي الاقدم رجله فيها وهو يتلوى من الالم. ثم التقط العصا المستندة الى المائدة وخرج وهو يعرج.

تبع سينتسوف المرشد السياسي الاقدم ولكن هذا اكتفى بان وجه وهو سائر بضع كلمات الى يفريموف وصعد الى قمرة الشاحنة دون ان يلتفت.

شيع يفريموف السيارة بنظرة وسأل:

— هل تحلق بموسى؟

— نعم.

— ولكن ربما تريد ان احلقك؟

لم تكن لدى سينتسوف لا القوة الكافية ولا الرغبة في الامتناع. فمن اغرب الامور عليه ان يجلس على المصطبة ويلقي برأسه الى الوراء ويشعر بان احدا يحلق له ذقنه!

كان يفريموف يحلق له ذقنه، بينما اخذ النعاس بخناقه وصار يسمع بصعوبة عبر النعاس ان الكتيبة تقوم بانشاء الخط الثالث، بينما تنسحب نحن على الدوام، وان من حسن الحظ ان سينتسوف التقى بالمفوض وليس بقائد الكتيبة، وان الالمان قصفوا في النهار الخندق المضاد للدبابات واصابوا هناك عشرين شخصا مع ان صلاحهم للعمل محدود، فالقنبلة لا تفرق بين الناس، وكلهم صالحون لها...

ثم غفا سينتسوف نهائيا، مال رأسه فجرح بألم عند فكه.

— لا يجوز النوم، اذ قد اذبحك على هذا النحو — قال يفريموف مؤنبا، واقتطع قطعة من الجريدة الموضوعة تحت القدر والصقها على مكان الجرح.

وبعد ان حلق ذقن سينتسوف خرج الى الباحة وصب على يديه بضعة اقداح من الماء فاغتسل سينتسوف محاولا ان لا يبلل الضماد. وسأله يفريموف:

— هل تريد استبدال الضماد؟

فرفض سينتسوف قائلا بانه يخشى ان يلمس رأسه، وتثائب متعبا.

عرجا على مستودع وضعت فيه، كيفما اتفق، حاجيات وذخيرة واكياس بطاطس وملفوف، وعلى مصطبة ضيقة فرشت حشية متدلية.

– ثم هنا – قال يفريموف وهو يشير الى المصطبة .

– وانت؟

– انا جندى ويجب ان اكون على استعداد، ولربما يأتى قائد الكتيبة.

غفا سينتسوف حالما وضع رأسه على المصطبة، واستيقظ فى منتصف الليل .

– انهض! انهض! هزه يفريموف دون ان يرى ضرورة للالتزام بصيغة الاحترام فى مخاطبة شخص لم يستيقظ بعد – انهض يا رفيق! – انتقل الجندى الى صيغة الاحترام حالما رأى سينتسوف يخفض قدميه من المصطبة – قائد الكتيبة يدعوك!

اخذ سينتسوف يرتدى جزمته بينما دخل يفريموف الغرفة المجاورة.

– نفذت امركم! – سمع سينتسوف هذا الكلام عندما اجتاز الدهليز .

– حسنا، فليدخل – تهادى صوت فتى بشىء من التذمر – اننى متعب جدا، فمن اين جاءنا هذا ...

جلس عند الطاولة قرب مصباح الكيروسين ملازم اول قصير القامة مكتنز البدن بوجه مستدير شاحب وحاجبين جميلين كأنما رسما رسما وعينين جاحظتين بعض الشىء. وبسبب البرد القى على كتفيه معطفا ملوثا حتى الياقة . وعلى المصطبة المقابلة استقرت طاقية ملوثة بالاوساخ ايضا .

– هل تسمح لى بالدخول؟ – سأل سينتسوف، وكاد يرتطم فى الباب بيفريموف الذى قال له الملازم الاول فى الحال: «بوسعك ان تذهب» . – مرحبا!

– خاطبنى حسب الاصول! – قال الملازم الاول بسرعة وغيظ .

تطلع اليه سينتسوف صامتا ورفع الطاقية من المصطبة ووضعها على الطاولة وجلس .

– انهض! – صاح به الملازم الاول .

ظل سينتسوف جالسا يتطلع اليه بصمت .

– انهض! – صاح الملازم الاول مرة اخرى.

ظل سينتسوف جالسا .

امسك الملازم الاول جراب مسدسه .

– عبثا تخوفنى – قال سينتسوف دون ان يتزحزح من مكانه – خوفونى مرارا دون جدوى . انا مرشد سياسى، رتبتى تعادل رتبتك . يصعب على الوقوف، لذلك جلست . لا سيما وانك انت ايضا جالس .

– اين وثائقك؟

– ليست عندى وثائق .

– طالما ليس عندك وثائق، فلست بالنسبة لى مرشدا سياسيا! انهض!

هكذا بدأ الحوار بينهما دون ان يبشر بأى خير. راحا ينظران طويلا الى بعضهما البعض، ولعل الملازم الاول ادرك بانه لن يحمل هذا الشخص على النهوض حتى ولو اطلق الرصاص عليه . واخيرا بدأ الملازم الاول كلامه باستهانة مشيحا بوجهه وكأنما يتكلم عن احد مرؤوسيه:

– صادفت مفوضى، ولكنى خلافا له لا اصدق بشىء، كرر امامى اساطيرك .

فوجئ سينتسوف بذلك حتى انه لم يفهم فى الحال . فقال، بعد فترة صمت طويلة بهياج مكبوت:

– حسنا، سأكرر عليك اساطيرى .

تذكر فى الوقت المناسب انهما، على اية حال، عسكريان، وانه وصل الى موقع وحدة يقودها هذا الملازم الاول بالذات، ومع انه ذكر قصته كاملة لمفوض هذه الوحدة، فان من حق قائدها المطالبة بان يكرر له ما قاله. بذل سينتسوف جهدا نفسانيا فكرر بنزاهة قصته من البداية حتى النهاية .

كان سينتسوف يتحدث وكان الملازم الاول ينصت اليه دون ان يصدق ما يقول . كان فى مقتبل العمر مرتبكا تعوزه الطيبة . وكما يحدث للناس الضعفاء المعتزين بانفسهم ولدت مشاعر الارتباك الممض المعيب لديه رغبة شريرة فى عدم تصديق الآخرين . كان قد طلب بنفسه الالتحاق بالجبهة، ولكنه عندما وجد نفسه فى هذه المعركة الفظيعة فى ضواحى موسكو، وتعرض منذ اليوم الاول للقصف الجوى فى حقل مكشوف انتابه شعور بالخوف الشديد لم يفارقه منذ ثلاثة ايام. بذل قصارى جهده ليلتزم كالسابق بمتطلبات السلوك التى تفرضها عليه بزته العسكرية، فراح يخفى ارتعابه متهما مرؤوسيه بالجبن . ولكنه ما كان يستطيع ان يخدع نفسه . وهو الآن ايضا، امام سينتسوف، يشعر فى اعماق نفسه بانه ما كان بوسعه ابدا ان يتحمل كل ما حدثه عنه هذا الانسان: ليس بوسعه ان يتحمل ثلاثة اشهر من الحصار ولا ان يسير حتى الساعة الاخيرة ببزة المفوض، ولا ان يهرب جريحا من الاسر تحت وابل الرصاص . وطالما يعرف بانه عاجز شخصيا عن تحقيق ذلك فلم يكن يريد التصديق بان الآخرين قادرون عليه . لم يكن يريد التصديق بذلك دفاعا عن نفسه .

استمع الملازم الاول الى سينتسوف ولم يصدقه ليس لان

سيتسوف لا يمكن تصديقه، بل، على العكس، لان الملازم الاول راغب كل الرغبة في اقناع نفسه بان هذا الشخص الجالس امامه يكذب، والاكثر من ذلك انه ربما كان مخربا المانيا وان هذا المخرب سيحتجز من قبل الملازم الاول كروتيكوف وليس غيره، وسيقبض عليه بالذات كروتيكوف الذي وصل الى الجبهة قبل ثلاثة ايام لا غير ولكنه يدرك الموقف افضل من بعض الذين تواجدوا في الجبهة وعولجوا في المستشفيات. وخلال هذه الايام التي تتتابع فيها ارتعاشات داخلية انكمش مرارا تحت نظرة مفوضه الطبية والمتفهمة لكل شيء، وهو مسرور لتمكنه من التفوق عليه هنا على الاقل، الآن مثلا، بنفاذ بصيرته وصرامته وحماسه الذي لا يرحم في الخدمة العسكرية، وهو الحماس الذي لا يبخل به هذا النمط من البشر عندما لا يثقل على افئدتهم الخوف والرعب على حياتهم.

قاطع سيتسوف مرارا باسئلة مرتابة سافرة:

— كيف لم تحتفظ بأية وثيقة؟! وكيف ظلت السترة القطنية جديدة تقريبا رغم الطريق الطويل الذي تقول انك قطعته؟!

تمالك سيتسوف اعصابه هذه المرة ايضا واوضح له بصبر انه خلع السترة من احد القتلى.

ولكنه عندما قال له الملازم الاول فجأة:

— حكاية غريبة: جرح في الرأس وغيبوبة، ثم تمكنت من قطع حوالي اربعين كيلومترا بعد ذلك كله! — لم يتحمل سيتسوف، ونهض بكل قامته وخلع بدون استعجال السترة القطنية ورفع القمصلة والفانيلة وقال:

— هل ترى؟ — اشار باصبعه الى الجرح المزدوج على جنبه لقد غرزت مسمارا في جنبي خصيصا لك. وهذا — واشار الى رأسه المضمد — من اجل التمويه ايضا. فليس هناك اي شيء. هل اخلع الضماد؟

— لست طبيبا، فلا تقدم على حماقات! — قال الملازم الاول مرتبكا، وكانت تلك الكلمات هي اول ما انزلق على لسانه في تلك اللحظة.

تطلع اليه سيتسوف بضع ثوان منتظرا وقال: «اسفي عليك!» — وخفض القمصلة واخذ يرتدي السترة بنفس البطء الذي خلعها فيه.

طرد الملازم الاول بصعوبة فكرة نزيهة تبادرت الى ذهنه فجأة: كل ما قاله هذا الشخص حتى الآن هو الحقيقة بعينها. طرد هذه الفكرة لانها غير مريحة بالنسبة له. لم يكن راغبا في تصديق سيتسوف، وقد احس سيتسوف بذلك.

— حسنا، اذهب للنوم، وغدا سننظر في امرك! — قال له الملازم الاول اخيرا بلهجة ذات دلالة.

نهض سيتسوف صامتا والقى عليه نظرة متعالية وخرج دون كلمة توديع.

بعد ان ظل الملازم الاول كروتيكوف لوحده نهض وبقي واقفا بهدوء زهاء دقيقة يتسمع الى سيتسوف وهو يأوي الى الفراش وراء الجدار، ثم جاب الغرفة مفكرا بما يتعين عليه فعله.

كان ينبغي في الحال ارسال رسالة مع يفريموف الى القرية المجاورة التي نزلت فيها اليوم بالذات الشعبة الخاصة للفرقة التي بدأت بالوصول الى هذا الخط. شغلت الشعبة المذكورة منزلين في طرف القرية، وجعلت كتيبة البناء تشعر بالضيق. يجب ارسال يفريموف الآن لكي يأتي العاملون في الشعبة الخاصة هذه الليلة لينظروا في قضية هذا الشخص!

بديهي انه كان بالامكان تأجيل ذلك الى الغد، ولكن شيطان الغرور اللعين الممزوج بعدم الثقة بالنفس دفع الملازم الاول كروتيكوف من ظهره، فهو يتحرق شوقا الى التثبت من صواب شكوكه. اخذ محفظته من على الطاولة واخرج منها الدفتر الميداني وحرر رسالة الى الشعبة الخاصة وطوى الورقة واستدعى يفريموف.

كان يفريموف يغفو جالسا على المصطبة في الدهليز. وقد دخل نعسان متذمرا. وقبل ان يغفو احس بان الملازم الاول يجوب الغرفة من ركن لآخر على نحو لا يبشر بخير.

استمع يفريموف الى الامر واخذ الرسالة وتنهد وقال: «حسب امرك!» معتقدا بان ذلك كله لا داعي له. ثم القى نظرة استهجان على الملازم الاول وعلق بندقيته على كتفه وخرج الى الشارع بعد ان صفق الباب.

اما الملازم الاول فقد جلس الى الطاولة بعد ان جاب الغرفة طويلا، ثم خر رأسه المتعب على المحفظة.

لم يذق طعم النوم تقريبا ثلاثة ايام بلياليها. فقد ارهقته مقاومة الشعور بالخوف، ومع ذلك بذل قصارى جهده في تكويم الاشجار وحفر الخنادق والاخاديد ونصب الحواجز المضادة للدبابات، وقد تعب مثلما يتعب جميع الناس، وحالما اغلق عينيه لحظة غط في نوم شبابي عميق.

ولم ير في احلامه التعبى لا الخنادق والحواجز ولا القنابل المتفجرة على مرأى منه، ولا المرشد السياسي النحيف بوجهه الغاضب والذي هم بخلع الضماد من على رأسه. مرق في احلامه وتكرر نفس الوجه النسائي المليح الذي يثير

الشفقة وقد ارتعب من الفراق المفاجيء. وراح يدمدم بشفتيه الناعستين المنطلقتين دون رقيب. رأى في المنام ذلك الوجه فابتسم وخده المنتفخ مستقر على الطاولة، ولم يكن وجهه هو شبيها اطلاقا بذلك الذي رآه سيتسوف...

– اسمح لي بالكلام ايها الرفيق الملازم الاول...

ارتعش الملازم الاول وهو يفتح عينيه ويرى بعينين ناعستين يفريموف واقفا امامه وقد رفع يده بالتحية الى قبعته والبندقية على كتفه. وقف بقامة معتدلة، الا ان ومضات ساخرة برقت في عينيه اللتين تشعان طيبة.

– اسمح لي بالكلام! قالوا طالما جاء بنفسه فمن المستبعد انه سيهرب. فليبق عندكم حتى الصباح. ثم قالوا ان مشاغلهم كثيرة. واذا اردنا فيمكننا ان نوصله اليهم غدا، والا فيمكننا ان نفعل ما يحلو لنا. وقالوا «عندكم رئاسة خاصة بكم فراجعوها حسب العائدية!». وقالوا ايضا: «خبر الرفيق الملازم الاول – وهنا لاحت الومضات الساخرة في عيني يفريموف بشكل سافر تماما – ان هذه الحالة لا تشبه حالة المخربين، فلينم نوما هادئا ولا يخشى شيئا!».

– يمكنك ان تنصرف! – قال الملازم الاول حانقا.

الا ان يفريموف لم ينصرف. خلع قبعته بدون استعجال واخرج منها نفس الورقة المنتزعة من الدفتر الميداني والتي اعطاها اياه الملازم الاول ووضعها على الطاولة.

– امروا بان اعيد اليك هذه الورقة، وقالوا «احتفظوا بها في قلمكم، اما نحن فلدينا الكثير من الاوراق!».

– اذهب، قلت لك اذهب! – احس الملازم الاول بالسخرية في كلمات يفريموف، ولكنه لا يتمكن من ادانته فاكتفى بان صاح به.

خرج يفريموف الى الدهليز وابتسم ساخرا في الظلمة ودخل الى مستودعه.

«حبذا لو حكيت هذه الملهاة على المرشد السياسي! – فكر يفريموف وهو يواصل الابتسام – من المؤسف انه نائم الآن».

الا ان سيتسوف لم ينم. وعندما حدثه يفريموف، من تحت، من الارضية التي نام عليها قربه بعد ان تنازل له عن مصطبته، وقص عليه تفاصيل رحلته الى الشعبة الخاصة وتقريره الى الملازم الاول، لم يخفف ذلك اطلاقا من حزن سيتسوف.

ما اشد الكآبة التي يمكن ان يسببها لاحد الناس شخص غريب عليه ولم يكن يعرفه حتى يوم امس! لم يصدق الملازم الاول بسيتسوف، فشعر هذا الاخير بالتعاسة رغم انه لم يحب ولم يحترم هذا الملازم الاول ولم يتصور انه مذنب امام احد، ولا سيما امامه.

رقد سيتسوف بعينين مفتحتين وراح يفكر بزولوتاريف: «هل هو حي ام قتيل. لا احد غيره يعرف ما حدث هناك، في الغابة، عندما اغمى علي. فهل هو الذي اهتم بي، ام انى فعلت ذلك بدون وعي وخلعت قمصلتي وطمرتها وبعد ذلك لم اعثر عليها؟ ام انه كان هناك شيء آخر لا اعرفه وليس بوسعي حتى ان اتصوره؟.. ولكن ماذا استطيع ان اقول للاشخاص الذين لا يصدقونني؟ هل اقول لهم ما اعرفه ام ابتدع شيئا لا اعرفه؟...».

كان يسائل نفسه، بينما تدور في اعماق ذاكرته نفس العبارة التي انطبعت فيها ربما الى الابد، والتي قالها سربيلين بعد العبور في اليوم الاول من الحصار: اسهل على المرء ان يقف امام جدار الاعدام من ان يخلع بنفسه نجيمات المفوضية.

وتذكر المقاتل الذي سأله في الساعات الاولى من الاسر: «هل تمكنت من خلعها؟..». وبعد ذلك تذكر عيني المرشد السياسي الاقدم اللتين برق فيهما وميض الارتياب فجأة، ثم تذكر اسئلة الملازم الاول بنفس الهياج الذي ظلت آثاره باقية في دخيلته. وظهر في اعماق روحه فجأة تصميم هادىء على التمسك برأيه دون اى تنازل. وفكر بان الشعبة الخاصة هي بالذات الجهة التي يتعين عليه ان يذهب اليها طالما لا يصدق الآخرون بما يقول. كان الحوار مع الملازم الاول صفعة شديدة له جملته، رغما عنه، يتصور وجوها مرتابة اخرى واسئلة متشككة اخرى، وعيونا متباهية بغباء: «أها! سافضح أكاذيبك في الحال!». كلا، فسيذهب الى الجهة الملزمة، حسب اصول الخدمة، بان تتثبت من كل شيء من البداية حتى النهاية، وسيذهب اليها الآن دون تأجيل! فليتثبتوا اذا كان ذلك بوسعهم! واذا عجزوا عن ذلك فليرسلوه الى الجيش المحارب وليجربوه في القتال!

خفض ساقيه من على المصطبة وارتدى الجزمة والسترة القطنية والقبعة، وخطا فوق يفريموف الذي يشخر باطمئنان شخيرا خافتا، وخرج الى الدهليز. انبسط على الارضية خيط ضوئي ضعيف منبعث من الباب الثاني. فتح سيتسوف الباب ودخل الغرفة الثانية. كان الملازم الاول نائما ووجهه مغروز في الوسادة، وقد وضع جزمته القذرة على قصاصة من جريدة. وعلى المصطبة قربه استقر حزامه وقرابه، وعلى الطاولة محفظته الميدانية. كان المصباح لا يزال يضيء وقد اسود زجاجه من السخام.

– ايها الملازم الاول – ناداه سيتسوف، ثم كرر دون ان ينخفض صوته – ايها الملازم الاول!

17–287

الا ان الملازم الاول كان يغط في نوم عميق .

اراد سينتسوف ان يوقظه ويقول له بانه ينوي الذهاب الآن، دون ابطاء، الى الشعبة الخاصة، تحت الحراسة او بدون حراسة حسب مشيئة الرفيق الملازم الاول . ولكنه بعد ان ناداه مرتين ولم يتمكن من ايقاظه غير رأيه . اقترب من الطاولة وفتح المحفظة دون استعجال وانتزع ورقة من الدفتر الميداني الموجود فيها واخذ قلم رصاص مبريا بعناية من المحفظة وكتب بضع كلمات، ثم اخذ من المصطبة نفس ذاك المسدس الذي هدده به الملازم الاول اثناء الحوار ووضعه فوق الرسالة . وعندما اقترب من الباب القى بنظرة ساخرة على هذا المشهد، على الملازم الاول الغاط في نومه والمصباح الذي احترق فتيله حتى النهاية تقريبا والرسالة والمسدس الموضوع فوقها ...

«لو جاءك مخرب حقا لما بقيت على قيد الحياة!»

انبلج الفجر، وكان الطريق يمتد من القرية مرتفعا الى تلة شديدة الانحدار . وعلى بعد كيلومترين ونيف من هناك لاحت منازل الاطراف رمادية اللون . وكان يفريموف قد ذكر كيف قطع هذا الطريق في الظلمة صاعدا التلة . ولم يتردد سينتسوف في وجهته .

بعد زهاء كيلومتر انزوى سينتسوف على حافة الطريق لتمر سيارة شحن قادمة من الجهة التي يقصدها .

«ربما توجهت هذه السيارة لتنقل الملازم الاول» — فكر ساخرا وتصور الهرج والمرج الذي سيسود عندما يستيقظ الملازم الاول . وواصل سينتسوف طريقه .

استيقظ يفريموف عندما سمع صفير السيارة قرب المنزل . فقفز وابعد ستارة الجنفاص من النافذة . كان الفجر قد انبلج في الخارج . ثم التفت الى مكان المرشد السياسي فلم يجده . عرج على الغرفة المجاورة ليرى هل ذهب المرشد السياسي الى الملازم الاول . ولكن الملازم الاول كان راقدا في الغرفة لوحده وقد سمع الصفير هو ايضا، فراح يفرك عينيه بكلتا يديه ويبحث حوارا ناعسا .

قفز يفريموف الى الخارج معتقدا ان المرشد السياسي خرج «الى الخلاء» لقضاء حاجته . دار يفريموف حول المنزل فلم يجده، ثم ناداه عدة مرات: «ايها الرفيق المرشد السياسي!» ولكن ما من مجيب .

وعند ذاك دخل المنزل وتباطأ بالسير في الدهليز، وتردد قليلا، فلا بد من ان ينقل النبأ، ثم دخل الغرفة .

كان الملازم الاول جالسا على السرير يفرك عينيه .

— ماذا، هل جاءت السيارة؟ الم يخيل الى ذلك؟

— اختفى المرشد السياسي — قال يفريموف بعد ان عدل قامته .

— كيف؟ اختفى؟

— غير موجود، لا في الداخل ولا في الخارج، — قال يفريموف .

— هكذا اذن! هكذا تعمل الشعبة الخاصة! ذهب، ذهب السافل، المخرب! — صاح الملازم الاول كروتيكوف بصوت المنتصر لشعوره بصواب رأيه . وبدا وجهه في هذه اللحظة سعيدا بقدر تعاسة وجه يفريموف ...

في تلك اللحظة لم يريا، كلاهما، رسالة سينتسوف .

عثر الملازم الاول على الرسالة بعد ان انهال باللوم الشديد على يفريموف وبعد ان خرج هذا من الغرفة وتذكر كروتيكوف مسدسه . ازاح المسدس جانبا وقرأ الرسالة متحيرا عدة مرات، وهو فرح لشيء واحد هو ان يفريموف خرج من الغرفة والحمد لله . في الرسالة خمس كلمات لا غير: «انا ذاهب الى الشعبة الخاصة»، الا ان مسدس كروتيكوف الموضوع فوق الرسالة كان بمثابة ملاحظة سامة تضاف اليها، حتى ان الملازم الاول كاد يبكي من مرارة الاهانة .

اما سينتسوف فواصل سيره على الطريق . ورغم الوقت المبكر صادف عددا من العسكريين، ولكن احدا لم يلتفت اليه خصيصا، لانه كان حليقا يرتدي ملابس كالآخرين: قبعة فرو عليها نجمة ويلوح من جانبها بالكاد طرف ضماد الشاش، وسترة قطنية مبطنة وجزمة متهرئة . فليس الجميع يرتدون جزمات جديدة . كان بدون بندقية، فليس الجميع يحملون بنادق . وباختصار، فلم يكن يختلف كثيرا عن العسكريين الآخرين السائرين او المسافرين على الطريق في ذلك الوقت .

ان التصميم على شيء امر له قيمته . فحتى المشية تتغير رغم التعب والاجهاد ... القرية التي توجه اليها سينتسوف، اذا نظرنا اليها من المنازل التي تركها، تبدو وكأنها واقعة على الطريق مباشرة، ولكنها في الواقع بعيدة عنه بعض الشيء . وفي الامام جسر دمرته قنبلة وقربه درب ملتف، وبعد هذا الالتفاف يمتد الطريق مستقيما، بينما تقع القرية الى اليمين، ويتعين عليه ان يستدير نحوها .

اقترب سينتسوف من الدرب الملتف في الوقت الذي تلكأت فيه سيارة «جيب» مرت به قبل قليل وغاصت في اخدود عميق حفرته الشاحنات على الدرب . وراح السائق والضابط يدفعانها . فتح السائق الباب ليدير المقود بيد، بينما راح الضابط يدفعها من مؤخرتها .

التفت الضابط فرأى سينتسوف وناداه:

– ايها المقاتل، تعال الى هنا، ساعدنا في دفع السيارة! هيا اسرع!...

انصاع سينتسوف عفويا الى هذا النداء الآمر واقترب من السيارة وراح يدفعها من المؤخرة. دفعوها معا فتخلصت من الوحدة.

– حسنا، شكرا. – قال القائد وهو يقوم ظهره وينفض اذيالا معطفه من الاقذار.

قوم سينتسوف ظهره هو الآخر فالتقت نظراتهما.

كان هذا الضابط هو لوسين بعينه، لوسين حيا سليما كما كان في السابق بالضبط ولكن بثلاثة مكعبات على ياقته بدلا من مكعبين.

دهش الاثنان، ويبدو ان دهشة لوسين اشد من دهشة سينتسوف.

– لوسين؟! مرحبا!

وشد بعضهما على يد بعض، وهما لا يزالان مندهشين.

– كنا قد سجلناك في قائمة الضائعين...

– وهل اخبرتم زوجتي؟

– ذلك ما لا علم لي به... اين كنت؟

– خرجت من الحصار امس... الى اين انت ذاهب؟ الى هيئة التحرير؟ اين هي الآن؟

افلت لوسين يد سينتسوف اخيرا. وتلاشت من وجهه آثار الانفعال الاول وحل محلها شعور بالتفوق.

– عندما توجهت الى الخط الامامي كانت هيئة التحرير في بيرخوشكوفو.

– بيرخوشكوفو في اقرب ضواحي موسكو! – هتف سينتسوف وكان ذهنه حتى الآن لا يتقبل فكرة اقتراب الجبهة من موسكو الى هذا الحد.

– طبعا! فاين يمكن لها ان تكون؟! قضيت خمسة ايام لا اكثر في الخط الامامي فقيل لي في الشعبة السياسية للجيش ان هيئة التحرير لم تعد في بيرخوشكوفو. فقد انتقلت اما الى موسكو، في مبنى مجلة «غودوك» واما وراء موسكو على سكة حديد غوركوفسكويه. ففي الآونة الاخيرة اتخذت هيئة التحرير مقرا لها في قطار، وربما انتقل هذا القطار. وربما لا تزال في موسكو. تلك هي احوالنا! – اجاب لوسين بهمة.

وكان مبعث هذه الهمة انه قضى خمسة ايام في الخط الامامي وهو الآن مرتاح بعد ان تخلص من الشعور بالخطر وقد نفض ريشه كالعصفور واتجه عائدا الى هيئة التحرير يحمل محفظة ملأى بالمواد الصحفية.

– وانت، الى اين؟ – سأله لوسين، ثم تطلع الى وجه سينتسوف النحيل واضاف: – يمكن القول انه بقي منك نصف انسان!

– الى اين؟ – سأل سينتسوف بدوره – طالما اني صادفتك فسأذهب معك، الى هيئة التحرير. هل ستأخذني؟

قبل خمس دقائق لا غير كان على ثقة راسخة من ان طريقه يتجه فقط الى هذين المنزلين اللذين لاحا من بعيد على طرف القرية. اما الآن فقد خيل اليه ان اية رغبة غير الرغبة في الذهاب الى هيئة تحرير جريدته مع لوسين الذي هبط عليه من السماء انما هي شيء غريب. فاللقاء مع لوسين هو مصيره، وهو مصير سعيد بالطبع. ومن الذي يمكن ان يشك بذلك في تلك اللحظة؟

– بالطبع، اصعد – قال لوسين بعد ان تلعثم لحظة قصيرة جدا – صحيح ان «الجيب» ليست سيارتي، فهي سيارة الشعبة السياسية للجيش، ولكنها ستوصلنا!... الا انه صدر للسواق قبل ايام قانون صارم بعدم نقل احد من الطريق. ولكنني اعتقد انه لن يحدث شيء، اليس كذلك؟ – التفت الى السائق الذي وقف قربهما يمسح يديه بخرقة.

– لا تهتم! – ابتسم السائق فرحا لسعادة هذا الشخص الذي التقياه بالصدفة. – لا سيما وانك ستتحمل المسؤولية اذا حدث شيء! – اضاف السائق وفتح باب السيارة واخلى لسينتسوف مكانا قرب امتعة السفر التي تشغل نصف المقعد الخلفي.

احتل السائق مقعده وجلس لوسين جنبه، اما سينتسوف فقد ضيق منكبيه ودس نفسه في المقعد الخلفي. ومن كومة الامتعة المغطاة بمشمع سقط على ركبتيه مجلجلا قدر التصقت به بقايا عصيدة محترقة وملعقة ومصباح سيارة.

– دسها تحت القدمين – التفت السائق على صوت الجلجلة – وقعت احدى السيارات تحت القصف الجوي فاخذت منها بعض الحاجيات.

سارت «الجيب» بسرعة نسبيا. ففكر سينتسوف بانهم يمكن ان يصلوا على هذا النحو الى موسكو نفسها في غضون ثلاث ساعات تقريبا. وتصور ان واقع كونه اسيرا في مثل هذا الوقت قبل يومين انما هو من نسج الخيال... وبعد ثلاث ساعات سيكون في موسكو... وهذا شيء لا يصدق تقريبا، كما لا يصدق بان لوسين جالس امامه وان السيارة تنقلهما الى هيئة تحرير جريدتهما.

وظهر لديه امل صعب التحقيق، ولكنه بدأ يهزه كما في الحمى: أليس من المحتمل ان ماشا لم ترتحل وانه سيراها بعد بضع ساعات؟

– اسمع! – قال سينتسوف للوسين بلهجة بعيدة عن التكلف مع انهما كانا

يعرفان بعضهما بعضا لا اكثر من يوم واحد، الا ان كل ما عانياه منذ ذلك اليوم ابان الحرب اضاف اليه قوة زمنية جعلتهما يرفعان الكلفة بينهما منذ اللحظات الاولى – اسمع! – سينتسوف صريح في هذه الامور – ألم تزعل على انداك في بوبرويسك؟

لقد تجرع بنفسه منذ ذلك الحين مصائب لا تعد ولا تحصى، فليس بوسعه ان يشعر، بعد فوات الاوان، بانه مذنب بحق لوسين، ولكنه الآن يدرك اكثر مما في ذلك الوقت مدى صعوبة الامر على لوسين في ضواحي بوبرويسك، ولذا ما كان يريد ان يترك ظلا للمزعل بينهما.

قهقه لوسين دون ان يلتفت الى سينتسوف، ولعله قهقه لفترة اطول بعض الشيء مما يجدر بشخص لا يحمل غيظا في الواقع. وقال وهو يقهقه:

– أليس لديك ما تقوله غير هذا ؟! فانا نسيت ذلك من زمان. اذ ما اكثر الملابسات التي حدثت منذ ذلك الحين. هذا اولا، وثانيا – بالعكس، «بفضلك» تعمدت في القتال.

كانت كلمة «بفضلك» هذه هي الدليل على الزعل غير المنسي، الا ان سينتسوف لم ينتبه الى ذلك في تلك اللحظة.

– هل تعلم باني قابلت فيما بعد كابتن الدبابات وقال لي...

– رجل باسل، الملعون! – قاطعه لوسين.

– اسمع! قال انهم قدموا اسمك لمنحك مدالية، ولكنهم عندما عدت الى هيئة التحرير غيروا رأيهم.

– طظ! – قال لوسين متظاهرا باللامبالاة. ثم استدار نحو سينتسوف وفتح معطفه وقال – هل ترى؟

كانت على صدره مدالية جديدة «للبسالة».

– حصلت عليها بدون مساعدة منهم!

– متى؟

– في معارك يلنيا. فقد بقيت منذ البداية حتى النهاية في فرقة واحدة، وتحقق ما توقعته. فقد حررت تلك الفرقة بالذات يلنيا. منحوا قائد الفرقة وسام «بطل الاتحاد السوفييتي» ومنحوني مدالية البسالة!

تحدث عن قائد الفرقة وعن نفسه عفويا وعلى نحو يوحي بانهما الاثنين فقط يستحقان التقدير.

– يعني ان جنود الدبابات لم يلوموني! – لم يتحمل لوسين فعاد الى الموضوع الذي يبعث السرور لديه.

– كلا.

– وماذا قالوا غير ذلك؟

– لم يقولوا اكثر منه. فقد دار الحديث عنك عرضا – قال سينتسوف ولم يلاحظ كيف اهان لوسين بكلمة «عرضا» – لم يتسع الوقت للكلام، فبعد ساعتين حوصرنا من جديد.

وراح يتحدث عن الحصارين اللذين وقع فيهما، ويخلط بين مشاهد الحصار الاول والحصار الثاني.

قاطعه لوسين مرارا باسئلة وملاحظات انزلقت عبر كتفه، وعندما تحدث سينتسوف عن الرسائل التي ارسلت مع ميشكا فاينشتين التفت اليه لوسين من جديد:

– صحيح؟ هكذا اذن، وصل الى هناك، في حين بحثوا عنه بعد ذلك في كل مكان... ولم يعثروا له على اثر! ضاع!

– ضاع... – كرر سينتسوف بصوت مكبوت كالصدى، وتصور لثانية واحدة ميشكا امامه حيا يدس في جيب قميصه بحرص وعناية اوراق الرسالة التي لم تصل على ما يبدو. ضاع... بينما بدا الامر آنذاك على العكس...

– ضاع! – كرر لوسين – الم تكن تعرف؟

– من اين لي ان اعرف؟...

– طبعا، طبعا.

– حسنا، فلنترك اساطيري وشأنها! – قال سينتسوف فجأة في منتصف حديثه وقد تذكر كلمات الملازم الاول وفكر بارتياح في التحول الذي حدث بين سينتسوف الذي كان جالسا في المنزل في تلك الليلة يستمع الى اسئلة الملازم الاول المرتابة وبين سينتسوف الجالس الآن مع لوسين في السيارة المتجهة الى موسكو – حدثني عما في هيئة التحرير، والاهم ان تحدثني عما يجري في الجبهة وفي موسكو وما يجري عموما...

– في الجبهة، على حد فهمي، القتال المستميت مستمر – قال لوسين – الالمان يضغطون ونحن نقاتلهم. فما الذي يمكننا ان نفعل غير ذلك؟

ومع ان الوضع في الجيش الذي عاد منه، عصيب في الواقع ورغم انسحاب هذا الجيش امام ضربات الالمان، توجه لوسين بعد ان قضى الايام الاخيرة في الخط الامامي عائدا الى هيئة التحرير رغم كل شيء بمزاج افضل من مزاجه عندما سافر الى الجبهة. فقد سافر آنذاك الى المجهول، الى غمرة الاشاعات عن الكارثة التي حدثت، ولكن حتى واقع الانسحاب العصيب جدا

بدا من كتب افضل مما كان يتصوره عن بعد. زد على ذلك انه عاد حيا سليما... ذكر لسينتسوف الحقيقة، مع انه اعرب عنها بشيء من الصلافة الملازمة لمن يريد ابراز خبرته.

– اما بخصوص موسكو فلا ادرى. فربما غريء البعض على انفسهم، اذ كانت هناك مثل هذه الامزجة عندما غادرتها. ستصل وترى – اضاف بلهجة المفتش.

فى تلك الاثناء اجتازوا جسرا كان يجرى على جانبيه غرز هياكل معاقل من الخرسانة، ثم مروا بخندق مضاد للدبابات، وخط من الحواجز المعمولة من قضبان السكك ممتد الى الافق، ثم مروا بعدة صفوف من الاعمدة المعدة لحواجز الاسلاك الشائكة ثم هياكل معاقل اخرى من الخرسانة لم تغرز فى الارض بعد. فقال سينتسوف:

– يبنون الحواجز فى كل مكان. وقد وصلت من الحصار امس مباشرة الى كتيبة بناء.

ليس معروفا كيف ستسير الامور لو لم يبدأ هو هذا الحديث. وطالما قد بدأه فلا بد من ان يصل فيه الى نقطة يدرك فيها لوسين نهائيا انه اصطحب الى موسكو شخصا بدون وثائق.

بديهى ان مثل هذه الحالات ليست جديدة على لوسين الذى وصل الى الجبهة فى الايام الاولى للحرب، ولكن الجديد عليه هو انه هو بالذات لوسين، وليس غيره، وفى هذا الوقت بالذات حيث وصل الالمان الى ضواحى موسكو، ينقل على مسؤوليته الى موسكو شخصا خرج من الحصار بدون اية وثائق. واذا اردنا الدقة فان فكرة هذا الاحتمال تبادرت الى ذهنه فى الحال، فى اللحظة الاولى التى سأله فيها سينتسوف «هل توصلنى؟»، وهذه الفكرة هى سبب ذلك التلكؤ القصير الذى اجاب لوسين بعده: «بالطبع!». ولكنه لم يتجرأ آنذاك، عندما صعدا الى السيارة، على ان يسأله بشأن ذلك فى الحال. فقد تصرف سينتسوف بثقة عقدت لسان لوسين. اما الآن فان سينتسوف يقول بكل بساطة انه ليست لديه وثائق، بل وهو يلوم الملازم الاول الذى قد يكون، فى اعتقاد لوسين، ابله بعض الشيء، ولكنه على العموم تصرف تصرفا صائبا.

واصل سينتسوف كلامه دون ان يلاحظ بان رقبة لوسين الجالس امامه تخشبت وتصلبت فجأة. فلم يعد لوسين يدير رأسه، وبدلا من الاسئلة وتعليقات التعجب السابقة صار يتلفظ بصعوبة كلمتى «نعم – نعم».

اما سينتسوف فلم يلاحظ ذلك بعد واستمر يتحدث. كان يتصور عدم وجود الوثائق لديه، وخصوصا بعد حادثة الامس مع الملازم الاول، مصيبة سيضطر الى تحمل آثارها. ولكن واقع سفره الآن مع لوسين الذى يعرف، خلافا للملازم الاول، من هو ومن اين جاء، وتوجهه الى هيئة التحرير التى يعرفونه فيها ايضا والتى كان بالامكان ان يظل يعمل فيها حتى الآن لو لم ينسوه آنذاك فى مستشفى موفيليف، كل ذلك اضعف لديه مؤقتا الاحساس بالحجم الفعلى للمصيبة التى انهالت عليه.

واصل حديثه خائضا فى التفاصيل دون ان يلاحظ اطلاقا ان لوسين لم يعد يستجيب له. ولم يكن ليستطيع ان يتصور ابدا ما يفكر فيه لوسين الآن، والحال فان لوسين كان يفكر بأمور ذات صلة بمصير سينتسوف المرتقب كله.

كانت السيارة قد مرت باحد مراكز التفتيش قبل بدء الكلام عن الوثائق، مرت السيارة بدون تفتيش دقيق. فقد اكتفى جندى التفتيش وبيديه علمان صغيران بالتطلع الى السيارة التى فرملت قربه وسمح لها بالمرور بعد ان رأى ان جميع ركابها من العسكريين.

الا انه يتعين عليهم الآن ان يتوقفوا هناك، فى الامام، عند الكيلومتر التاسع عشر، فى اول مركز موسكوبى للتفتيش يتميز بالصرامة الكبيرة. لوسين يتذكر ذلك من مغادرته موسكو، وهو الآن يلوم نفسه بشدة على حماقته فى اصطحاب سينتسوف.

«احمق! كان يجب ان اسأله منذ البداية – راح يتعذب وهو على استعداد ليضرب جبهته بجمع كفه – اسأله ولا آخذه، بل انصحه بالجهة التى ينبغى عليه مراجعتها واعده بانى سأخبر هيئة التحرير. اما الآن فما العمل؟».

– ايها الرفيق المرشد السياسى – قال السائق وكأنما يرد على افكار لوسين وهو قلق من حديث سينتسوف وقلق بصورة اكبر من مظهر لوسين المتجهم – قطعنا الكيلومتر الثانى والعشرين، وها نحن نقطع الكيلومتر الحادى والعشرين، وهناك عند الكيلومتر التاسع عشر مركز التفتيش...

لم يجب لوسين بشيء ولاذ بالصمت نصف كيلومتر آخر وهو يصارع نفسه، ثم قال بصرامة فجأة:

– اوقف السيارة، فلنخرج للحظة – التفت الى سينتسوف.

خرج سينتسوف متحيرا لتوقفهم هنا بالذات.

لم يكن هناك احد على الطريق فى هذا المكان. من اليمين غابة، ومن اليسار حقول ومنازل ريفية. حاول دون جدوى ان يتذكر اسم هذه الضاحية.

— فلنبتعد قليلا — امسك لوسين بيده وابتعد معه بضع خطوات عن السيارة . لم يكن راغبا في الكلام بحضور السائق، لانه خجل من هذا الحديث رغم انه يعتبر نفسه محقا .

— اسمع! — بدأ لوسين باستحياء وتضايق — الوضع متوتر في ضواحي موسكو، وسوف نصل الى مركز التفتيش وليست عندك وثائق .

الا ان سينتسوف فهم كل شيء قبل ان يكمل لوسين عبارته .

كان لوسين ينتظر من سينتسوف ان يرد ولو بكلمة . الا ان سينتسوف ساط عليه نظرة ثقيلة تاركا له امكانية مواصلة الحديث اذا اراد او قطعه عند هذا الحد .

— لماذا لا تجيب؟ — سأله لوسين اخيرا .

— ماذا يمكنني ان اقول؟

— لو قلت لي في الحال، عندما صعدت الى السيارة ، بانه ليس عندك وثائق ...

سينتسوف صامت، وخيل للوسين من ملامح وجهه بانه سيرفع يده ويصفعه! تراجع لوسين خطوة، وحول ثقل بدنه من قدم الى اخرى، وبعد ذلك سأله :

— ما العمل؟

— حسنا — قال سينتسوف بصوت مكبوت — اوصلني الى مركز التفتيش وسأنزل .

— المسافة من هنا ليست بعيدة — قال لوسين متلعثما — وبوسعي طبعا ان اوصلك مسافة اقرب، ولكن لا يجوز ان اوصلك الى المركز مباشرة، فمن الضروري ان تنزل على مسافة نصف كيلومتر على الاقل ...

— لماذا؟ لماذا لا توصلني الى المركز مباشرة؟ — بدأ سينتسوف يفهم لماذا لا يوصله الى مركز التفتيش، ولكنه لم يجد مبررا للرأفة بلوسين .

— لان ... — تلعثم لوسين . وكان عليه ان يقول الشيء الاصعب الآن — نقل الغرباء ممنوع منعا باتا، لا سيما بدون وثائق . فكر انت، فنحن سنؤذي السائق، وانا ساتحمل اذى لا داعي له . اما انت فسوف يحتجزونك في كل الاحوال، معي او بدوني، سيحتجزونك في هذا المركز ... اما انا فأحمل المواد وعلى ان لا اتأخر ليس من اجل نفسي بل من اجلها! وبوسعهم هنا ان يحيلوني مباشرة الى التوقيف لمدة خمسة ايام لانني اصطحبتك على هذا النحو، بدون وثائق ... ولديهم حق! وما الفرق بالنسبة لك فيما اذا وصلت راكبا ام ماشيا!؟

— وما قيمة الخمسة ايام؟ — قال سينتسوف ساخرا رغم حالته العصبية للغاية . — انت تعتقد بانه ليس هناك فرق، وانا اعتقد بان الفرق كبير بين ان اصل معك الى مركز التفتيش وتسلمني انت وبين ان اجيء لوحدي سيرا على الاقدام من الحصار! فالشيطان وحده يعلم كيف ظهرت انا هنا في ضواحي موسكو! من اين جئت؟ ولماذا؟ فكيف اوضح لهم بانني لست هاربا من الجيش؟!

— لا بأس! — قال لوسين — عندما يحتجزونك ويبدأون بالاستيضاح اكون انا قد وصلت الى هيئة التحرير وسنتصل من هناك بالتلفون مع مركز التفتيش مباشرة ...

— اجل، سوف تتصل! — قال سينتسوف باحتقار — حسنا، اذهب! — اضاف بلهجة قاطعة دون ان ينظر الى لوسين، بل راح يحدق في الارض .

— ماذا بك؟ — حاول لوسين ان يهون الامر .

— ما كان ينبغي ان تأخذني معك — قال سينتسوف بصعوبة دون ان ينظر اليه — وطالما اخذتني فيجب ان توصلني . لا تخف من الايام الخمسة . واذا كنت تخافها فما كان ينبغي ان تأخذني ...

لم يفكر لوسين الآن بان سينتسوف سيضربه، ولكن سينتسوف في الواقع يكاد يضربه الآن .

— انت سافل! ذاك الملازم الاول معذور لانه لا يعرفني ولكنك ... انت سافل حقير!

رفع بصره حاقدا وسلطه للحظة على لوسين ثم استدار وشبك يديه على ظهره وعصرهما حتى طقطقت عظامهما .

— افعل ما تشاء! — لم يجد لوسين ما يجيب به فصاح وكأنه قد اقترح على سينتسوف حلا معينا ولكن هذا رفضه .

صعد لوسين الى السيارة وصفق بابها بشدة . وسمع سينتسوف بعد ان ادار ظهره كيف انطلقت السيارة .

لم تكن قد تحطمت في حياته ابدا آمال كالتي تحطمت في هذه اللحظة!

استدار وراح يتطلع الى السيارة طويلا، ويداه مشبكتان على ظهره، حتى اختفت من مجال الرؤية .

الفصل الحادى عشر

مدرسة الاتصال التى درست فيها ماشا ارتيمييفا منذ ثلاثة اشهر، منذ منتصف يوليو، تقع فى مبانى مدرسة داخلية سابقا عند الكيلومتر الثلاثين على طريق كالوجسكويه القديم.

فى مساء ١٦ اكتوبر سمحت الادارة لماشا وصديقتها نيوسا جورافسكايا بالمبيت فى موسكو كى تأخذا من البيت بعض الملابس التى قد تدعو الحاجة اليها فى مؤخرة الالمان.

الجو بارد والرياح شديدة. قطعت المرأتان الطريق كله فى شاحنة مكشوفة كانت متوجهة الى موسكو لاحضار الاغذية. رقدتا على القش والتحفتا بمشمع سميك مما يستخدم عادة فى تغطية الشاحنات. تدفأت ماشا وخيل اليها فى الظلمة تحت المشمع ان تلك ليست شاحنة متوجهة الى موسكو لاحضار الاغذية، بل هى الطيارة الليلية التى ستنبطح فى قاعها فى الظلمة على هذا النحو لتجتاز خط الجبهة وتهبط بالمظلة فى مؤخرة الالمان. انتهت الدراسة قبل اسبوع، وهى الآن تنتظر بين ليلة واخرى آخر التعليمات والرحيل.

كانت تعلم بانها ستهبط بالمظلة مع جهاز اللاسلكى فى واحدة من النقاط الثلاث المقررة على مقربة من سمولينسك وان عليها فيما بعد ان تذهب الى المدينة لممارسة عملها السرى. وتفيد الاسطورة التى حيكت لها، الى جانب تزويدها بهوية باسم مستعار، انها كانت تعيش فى سمولينسك فى سن الطفولة مع امها، وهى الآن لم تتمكن من السفر من فيتيبسك، فقد فقدت امها اثناء القصف الجوى وجابت الارجاء عدة شهور بحثا عن مأوى فقررت ان تصل الى سمولينسك، الى خالتها التى تعيش هناك. عنوان هذه الخالة - وهى انسان حقيقى ذو اسم ولقب حقيقيين وليس مستعارين كما عند ماشا - هو العنوان الذى يتعين عليها ان تحفظه عن ظهر قلب فى آخر لحظة قبيل الاقلاع.

رقدت ماشا فى داخل الشاحنة ملصقة صدرها الى ظهر نيوسا الدافىء وراحت تكرر بهمس لا يكاد يسمع: «فيرونيكا، فيرونيكا...».

فيرونيكا هو الاسم المستعار الذى اطلقوه عليها، ولكنه لا يعجبها. خيل اليها انها لن تستجيب لمن يناديها بهذا الاسم استجابة طبيعية دون اندهاش. «فيرونيكا، فيرونيكا...» كررت شفتاها بارتعاشة تكاد تخلو من الصوت.

هذا اليوم بعد الاصطفاف المسائى قال آمر السرية: «فليتفرق الجميع ما عدا ارتيمييفا وجورافسكايا!». ومنذ تلك اللحظة شعرت ماشا بان المستقبل تحرك نحوها وتحول من مستقبل الى حاضر.

ولم تخطىء فى ظنها هذا. منحهما آمر السرية اجازة حتى الصباح لكى تأخذا من منزليهما فى موسكو ملابسهما «المدنية» على حد تعبيره. ويعنى ذلك انهم سوف يرسلون بالمظلات للعمل السرى فى المؤخرة ليس ماشا فقط بل ونيوسا ايضا. فان عاملات اللاسلكى اللواتى يرسلن الى فصائل الانصار يزودن بيزات ومعاطف فرو قصيرة.

«عبثا يرسلونها الى هناك...» - فكرت ماشا بصديقتها. كانت قد فكرت بذلك مرارا. فهى تظن ان نيوسا ذات تربية رقيقة جدا وهى غير محنكة ولم تر شيئا فى الحياة بعد، ولذا لا تصلح للعمل السرى. زد على ذلك انها حسناء تلفت الانظار بجمالها فى الحال...

ولم تكن ماشا تفكر على هذا النحو فيما يخصها شخصيا. كان اكثر ما تخشاه هو التحليق نفسه، وخصوصا بعد ان لم تنفتح مظلتها اثناء التدريب قبل اسبوع ولكنها استطاعت بالكاد ان تسحب حلقة المظلة الاحتياطية.

استبدلت وضعية الرقاد على القش فادارت ظهرها البارد الى نيوسا وفتحت طرف المشمع قليلا كى ترى وان بعين واحدة السماء المحلقة فوق الشاحنة. كانت سماء الخريف باردة فى المساء بدون قمر ولا نجوم، بدون غيوم ولا سحب. كانت رمادية مستوية لا يرى المرء شيئا عليها او من خلالها.

وفكرت ماشا: «يوجد فى الدنيا اناس يعرفون شيئا ما، ولا فرق اذا كان صالحا او طالحا! فان نيوسا، مثلا، تعرف ان اباها وقع فى الحصار وخرج منه وهو الآن يعمل كبيرا للجراحين فى مستشفى ميدانى على الجبهة الغربية. وهو يكتب لها رسائل، وهى تكتب له رسائل بالبريد الميدانى... واخوها جرح وبتر مشط رجله وهو راقد للعلاج فى مستشفى قازان ويكتب لها رسائل ايضا... هناك اناس كثيرون يكتبون الرسائل ويستلمونها ويقابلون اناسا رأوا اقاربهم او سمعوا عنهم شيئا... اما انا فلا اعرف عن اهلى شيئا

خيرا او شرا، لا اعرف ولا كلمة واحدة عنهم... لا اعرف شيئا عن ابنتي، وامي وزوجي، وليس من نصيبي الا التفكير المتواصل والتساؤل عما اذا كانوا احياء ام لا».

في الاسبوع الاول من الدراسة في هذه المدرسة طلبت بسذاجة، كما صارت تفهم الآن، ان يرسلوها الى منطقة غرودنو ان امكن بعد ان تنهي الدراسة.

– لماذا؟ – سألها مفوض المدرسة بخشونة. كان يعرف ملابسات حياة ماشا بالكامل من صحيفة الاعمال وسيرة حياتها، ولكنه يعتقد ان التساهل مع مشاعرها غير ضروري، بل وضار في هذا الوقت. – لماذا؟ – كرر السؤال – لكي تلتقي اسرتك شخصيا؟ ستجري محاولة للقيام بذلك بدونك. اما ظهورك هناك فيمكن ان يهلكها ويهلكك معها لا اكثر... تلك فكرة حمقاء! – قال بغضب وبشيء من السخرية – زوجة مرشد سياسي عاشت مع زوجها في غرودنو سنة ونصف تريد ان تعود للعمل السري الى هناك! ماذا؟ هل التحقت بمدرستنا لاعتبارات عائلية؟ اذا كان الامر كذلك فعبثا تفعلين.

– كلا، بالطبع – قالت ماشا وقد كذبت بعض الشيء، لان املا اخرق في ان تستطيع اذا عبرت خط الجبهة ان تعثر على امها وابنتها او تعرف عنهما شيئا قد لعب كذلك دورا ما في تصميمها على الالتحاق بهذه المدرسة بالذات.

مر على ذلك ثلاثة اشهر، وقد اعتادت في آخر المطاف، ورغم ما تتميز به هذه الفكرة من صيغة مأساوية فاجعة، على ان امها وابنتها بقيتا «هناك» وانهما اذا كانتا على قيد الحياة فانها ستعرف بذلك ولكن ليس قريبا على الاطلاق. الا ان فكرة نزولها في مؤخرة الالمان دون ان تعرف شيئا عن زوجها ظلت كالسابق شيئا لا يطاق.

حقا، كان من الصعب ان تتصور بانه آنذاك، في يوليو، قد شد على يديها عبر السياج في المحطة ولف سير المحفظة الميدانية وقفز الى العربة وهي تسير... وبعد ذلك قفز اليها شخص آخر فحجبه عنها... وبذلك انتهى كل شيء، كل شيء على الاطلاق...

كتبت ثلاث مرات استفسارات لم تحصل على اي جواب عليها، وتمكنت بفضل اصرارها من ان تحظى مرتين بمقابلة في الادارة السياسية، المرة الاولى بعد التحاقها بالمدرسة مباشرة، في يوليو، والمرة الثانية قبل فترة، في سبتمبر، بعد ان حصلت على اجازة لمدة ١٢ ساعة خصيصا لهذا الغرض.

في المرة الاولى، في يوليو، قالوا لها انه ليست لديهم مؤقتا معلومات عن مرابطة هيئة تحرير الجريدة العسكرية «راية الكفاح» التي يعمل فيها زوجها. اقلقها هذا الجواب وهدأ من روعها في الوقت ذاته، فهم لا يعرفون شيئا ليس عن سينتسوف فقط، بل وعن هيئة التحرير كلها، فلا يمكن لهيئة التحرير بكاملها ان تختفي! انهم، الآن لا يعرفون شيئا، وسيعرفون فيما بعد! تركت عندهم رقم صندوق بريد المدرسة وطلبت من مفوض الكتيبة الذي قابلته ان يكتب لها ولو كلمتين حالما تصلهم اخبار عن هيئة التحرير. وعدها المفوض، ولكنه لم يرسل شيئا طوال شهرين.

وتركت عنوانها كذلك عند زوسيما ايفانوفيتش بوبكوف صديق المرحوم ابيها والذي يعيش في منزلهم. اخذ منها العجوز بوبكوف مفتاح صندوق بريد المنزل ووعد بان يفتح الصندوق مرة كل يومين واذا وجد رسالة ما فسوف يبعثها اليها في الحال. ولكنها لم تستلم اية رسالة خلال هذه الفترة.

وعندما راجعت الادارة السياسية في سبتمبر للمرة الثانية قابلت مفوض كتيبة آخر، فالاول التحق بالجبهة. وقال لها المفوض الجديد: «واجل، خرجت هيئة تحرير «راية الكفاح» من الحصار بسلام، وهي تعمل الآن في المكان اللازم، ورئيس تحريرها غورييف وهو نفسه الذي كان رئيسا لتحريرها قبل الحرب. ومما يؤسف له ان الجواب الرسمي الذي وصل من هناك على الاستفسار يقول ان سكرتير هيئة التحرير المرشد السياسي سينتسوف لم يعد الى مكان عمله بعد الاجازة».

لو جاء هذا الجواب قبل شهرين فلربما حاولت ماشا ان تقنع مفوض الكتيبة بان ذلك مستحيل وانها نفسها ودعت زوجها عندما سافر الى غرودنو... ولكنها الآن في سبتمبر، وبعد ان فهمت الكثير مما لم تكن تفهمه، بل ولم تستطع ان تفهمه في يونيو ويوليو، تنهدت وانصرفت ناسية حتى ان تقول: وداعا.

«لم يعد بعد الاجازة – يعني انه لم يصل. ولكن ماذا تعني «لم يصل»؟ لو انه دخل المستشفى او قاتل في وحدة ما لكتب لي. يعني انه وقع في الحصار... فليس هناك احتمال آخر».

هكذا فكرت وهي تهدىء نفسها. فكرت وهي تحاول ان تتحمل رافضة كل الاحتمالات الاخرى. ومع ذلك كان فؤادها مفعما بشعور فوار يكاد يشبه شعور الامومة الذي تحس به عندما تتذكر ابنتها. وفي حالات الضعف والانسياق وراء هذا الشعور يبدو لها زوجها، ذلك الرجل الكبير القوي العريض المنكبين، اصغر من الطفل الصغير...

ويخيل اليها عند ذاك ان الارض والحرب هائلتان الى حد يفوق التصور. وفي هذه الحرب ضاع شخص لا يعرفه احد ولا يحتاج اليه احد غيرها، شخص صغير هو زوجها... ويخيل اليها في تلك اللحظات انه اذا تمكن خيط ما ان يربطها هي الباقية هنا بذلك الضائع هناك على بعد هائل فستكون تلك هي المعجزة.

وقد انتابها هذا الشعور الآن ايضا وهي تتطلع الى السماء الرمادية الواطئة السابحة ببطء فوق الشاحنة. لم تكن هذه السماء راغبة في الاجابة عن اي من اسئلتها، مع انها، على ما يبدو، تعرف كل شيء. ماشا لا تعرف عن زوجها شيئا، ولكن احداً ما لا بد وان يعرف اين زوجها الآن وماذا يفعل واين يرقد وبم يفكر. والامر الرئيسي اين هو؟

«والحب... — فكرت ماشا فجأة — ما هو الحب؟ هل هو ارتياحي معه ام حنيني اليه وبكائي، احيانا، في الليل؟ ام هو عدم رغبتي في النظر الى اي رجل غيره؟ ام هو كتابتي اليه رسائل لن ترسل الى اي مكان؟ اجل، كل ذلك صحيح. ولكنه قليل جداً بالمقارنة مع ما احس به وما ارغب في قوله ولا اجيد الكلام عنه! لا ادري، لا ادري... ما الذي اريده الآن اكثر من اي شيء آخر — سألت نفسها من جديد — انني اريد...».

فكرت متأملة واجابت اجابة قاطعة بان اكثر ما تريده هو ان تكون الآن هناك حيث يكون...

«واذا كان الوضع هناك مرعبا ويمكن ان يقتلوني؟ اريد ان اكون هناك رغم ذلك! واذا اصبنا بجراح؟ ليكن، فلنصب بجراح سوية! واذا متنا؟ فليكن، ولنمت سوية...»

من يدري؟ ربما كانت هذه الافكار الآن، في اتون الحرب، جوابا على ذلك السؤال الرئيسي الذي فكرت فيه قبل قليل وهمست: «لا ادري... لا ادري...»

غطت ماشا رأسها بالمشمع من جديد كي تتخلص من الريح التي تجتاح الشاحنة واستدارت على جنبها الآخر. حملها التفكير بزوجها على التنهد في اذن صديقتها مباشرة، فخلعت نيوسا قفازها وسدت اذنها بعد ان شعرت بدغدغة خفيفة. وقالت بتثاؤب لذيذ:

— انت محتالة: تدفئين بي! حبذا لو لم يقطعوا الغاز. فقد نذهب الى منزلي لنستحم...

— من يدري؟ ربما لم يقطعوه — قالت ماشا.

— شيء مستبعد. فالبلاغات فظيعة!..

ومع انها قالت «فظيعة» ومع ان كلمات البلاغ الذي قرأته هي وصديقتها وسائر فتيات المدرسة يوم امس: «والوضع في الاتجاه الغربي للجبهة تدهور» قد ادهشتهن وارعبتهن الا انهن مع ذلك لم يدركن بالكامل فظاعة هذا البلاغ.

مدرستهن تعيش حياة منعزلة، على افكار متجهة الى المستقبل القريب والخطر هناك وراء خط الجبهة. وعندما ترقد ماشا على الشرشف القطني الخشن وتلتحف بالبطانية العسكرية المرقطة تفكر دوما بالشيء ذاته — كيف تنتهي هذه الايام الهادئة في المدرسة الداخلية والدروس امام السبورة وتركيب وتفكيك المرسلات اللاسلكية وتناول الفطور والغداء والعشاء في وقت محدد وهمس الليل عن المستقبل، وكيف سيبدأ هذا المستقبل هناك وراء خط الجبهة. وتفكر باللقاء السري الاول وبالناس الذين ستعمل معهم: هل هم مخلصون امناء ام ان احدا من الخونة سيكون بينهم؟ وتفكر باحتمال وقوعها في ايدي الالمان وكيف سيعذبونها وكيف يجب عليها، مهما فعلوا بها، ان تلزم الصمت بشأن كل ما عرفته هنا في هذه المباني الهادئة لمدرسة الاطفال الداخلية التي لم تعد من زمان لا مدرسة داخلية ولا مدرسة للاطفال...

كان منطق حياتهن يجعل التفكير في المستقبل يزيح عفويا احيانا تفكير ماشا وصويحباتها بما يجري اليوم في الجبهة. كن يقرأن قبل كل شيء وباهتمام مركز الانباء الواردة من وراء الجبهة عن عدد الفاشيين الذين ابادهم في الغابات الرفيق س. او الرفيق ك. وزملاؤه في فصيل الانصار، او عن الغارة التي شنوها على مقر اركان للفاشيين او صهريج الوقود الذي اشعلوا النار فيه والطريق الذي زرعوه بالالغام او المنزل الذي احرقوه بعد ان سكنه الاقطاعي العائد البارون فون بيديرلينغ... كانت افكارهن مركزة ليس على البلاغات الواردة من الجبهة، بل على ما يجري هناك، وراء خط تلك الجبهة الى حيث سيظهرن هن في القريب العاجل، ولعل ذلك القليل من الانانية الذي يتجلى في هذا التركيز شيء معذور اذا فكرنا في كل ما ينتظرهن...

توقفت السيارة فجأة. وسمعت ماشا صوتا قرب رأسها في الشاحنة يقول العبارة المعروفة: «وثائقكم رجاء». خشخشت اوراق بيد مدير تموين المدرسة الضابط بوريلين الجالس في قمرة السيارة، ثم خشخشت نفس الاوراق بيد الشخص الذي اخذها منه، وبعد ذلك سأل الصوت الجاف الذي امر في البداية بعرض الوثائق:

– ماذا تحملون في الشاحنة؟
– في الشاحنة عسكريان تحت امرتي . ولكنني انا الاقدم في مجموعتنا .
– ليس لذلك اهمية – قال نفس الصوت الجاف .

جلست ماشا ونيوسا بعد ان ازاحتا المشمع الذي صر فوق رأسيهما .

تطلع الى داخل الشاحنة ملازم فارع القامة بوجه نحيل بارز العظام . ووقف وراءه ليس جندي واحد من المخفر، بل ثلاثة . وقال الملازم :
– وثائقكما !

اخرجت ماشا ونيوسا بطاقتي الاجازة وسلمتاهما له . امعن النظر فيهما ثم اعادهما واستدار دون ان يسلط نظرة على نيوسا ، الامر الذي كان شذوذا عن القاعدة .
– يمكنكم ان ترحلوا .
– انظري كم هو غاضب ! – قالت نيوسا .
– اربعة اشخاص بالكامل – قالت ماشا وهي تتطلع الى الخلف .

تذكرت من جديد بلاغ مساء امس والكلمات التي وردت فيه : «الوضع في الاتجاه الغربي للجبهة تدهور» . وحز القلق في فؤادها لهذا البلاغ ولهؤلاء الخفراء الاربعة بدلا من الخفيرين اللذين كانا واقفين هنا في سبتمبر .

على طول جانبي الطريق العام تكدست الحواجز القنفذية المضادة للدبابات غير المنصوبة بعد والملحومة من قضبان السكك . ثم مرت السيارة عبر متاريس على الطريق فيها ممر ضيق يتسع لسيارة واحدة فقط . قبل بضعة ايام سمعت في المدرسة بانه يجري تعزيز موسكو بل وتنشأ المتاريس . الا ان السماع بذلك شيء ورؤية هذه المتاريس ، لا سيما عند مداخل موسكو ، شيء آخر .

– ارقدي ، والا ستبردين – قالت نيوسا بعد ان اضطجعت في داخل الشاحنة .

حولت ماشا نظرتها بصعوبة عن الطريق ورقدت من جديد ازاء نيوسا بعد ان تغطت بالمشمع .

ليس من السهل الجزم بما اذا كان في ذلك خير ام لا ، غير ان بقاءهما دافئتين تحت المشمع طوال الثلاثين دقيقة التي صرفتها الشاحنة في الطريق من المخفر حتى شارع بيروفوفسكايا حال دونهما ودون رؤية اطراف موسكو على حقيقتها ورؤية ما كان يجري فيها خلال ذلك المساء .

توقفت السيارة .

– ماذا ، هل تنزلان هنا؟ – سأل بوريلين الذي فتح باب السيارة وطرق على متنها براحة يده .

خرجت ماشا ثم نيوسا من تحت المشمع وهبطتا قفزا من السيارة بعد ان وضعتا قدميهما على عجلتها .

مر بهم رتل من المدنيين المسلحين بالبنادق وهم يسيرون بطلاقة وبغير انتظام . كانوا من اعمار مختلفة وبالبسة مختلفة ، بعضهم يرتدي معطفا وطاقية ، وبعضهم يرتدي سترة قطنية وقبعة شتوية . ساروا متجهمين وبدون انشاد . وكان البعض منهم يدخن .

– تلك هي الحال يا عزيزتي ! – قال بوريلين متنهدا دون ان ينزل من القمرة . ومع انهم قطعوا بضعة شوارع لا غير بعد ان استداروا من طريق كالوجسكويه فقد رأى ما لم تراه المرأتان وهما راقدتان تحت المشمع داخل الشاحنة . – تلك هي الحال ! – كرر بوريلين وفكر باسرته : بزوجته وطفليه الساكنين في الطرف الآخر من المدينة ، قرب مخفر سيميونفسكي ، كما فكر في ضرورة التمكن من حشرهم هذه الليلة بقطار ما ذاهب الى الشرق . – بعد ان استلم الاغذية من المستودع ساجيء الى هنا غدا في تمام السابعة ، فانتظراني في الشارع .

انطلقت السيارة تاركة ماشا ونيوسا وحيدتين على الرصيف عند ركن الزقاق .
– هل نذهب الى منزلي رأسا؟ – سألت نيوسا وقد انكمشت في الريح الباردة – فلا احد عندك ، اليس كذلك؟

ظلت ماشا تتابع بنظراتها رتل المدنيين غير المنتظم والسائر بعيدا على قارعة الطريق . ولم تجب في الحال لانشغال بالها بافكار مقلقة .
– ما هو رأيك؟ – سألتها نيوسا من جديد .

منزل ماشا قريب ، وراء المنعطف ، بينما يقع منزل نيوسا على بعد خمسة احياء ، ولم تكن نيوسا راغبة ابدا في الذهاب لوحدها . وقالت لها ماشا :
– كلا . في البداية اجمع حاجياتي ثم آتي اليك .
– حسنا ، سانتظرك .
– كلا ، لا تنتظريني ، اذهبي ، وسآتي انا فيما بعد .

امتنعت من الذهاب الى منزل نيوسا رأسا ليس بسبب الحاجيات ، بل لانها كانت تريد ان تعرج على العجوز بوبيكوف لتعرف ما اذا كانت قد وصلتها رسالة ام لا . ولكنها لم تكن تريد ان توضح ذلك لنيوسا . فالتوضيح يعني الكلام عن زوجها وعن قلقها عليه ، وهو يعني نشدان الدعم الروحي عند شخص يحتاج هو اليه ، فهي اضعف من ماشا نفسها .

– حسنا، سأذهب – قالت نيوسا طائعة مترددة بسبب صلابة ماشا.

قالت واشعلت سجارة بانفعال وكأنها تنتظر من ماشا ان تغير رأيها. ظلت واقفة امام ماشا وهي تخشى مفارقتها. وقفت فارعة القامة جميلة القد حتى بمعطفها العسكري الفضفاض وجزمتها الخشنة الواسعة اكثر من اللازم.

تطلعت اليها ماشا باهتمام واحست بان فؤادها يطفح بالالم الرقيق على نيوسا ومحياها الجميل الضعيف الارادة، كما يخيل لماشا، وقوامها الانثوى الفارع اللدن – القوى والضعيف في الوقت ذاته.

فكرت ماشا وهي تتطلع الآن الى نيوسا بما فكرت فيه مرارا: انها اكبر سنا من نيوسا واقوى، انها اكبر واقوى لانها متزوجة ولديها طفلة ... اجل لديها زوج وطفلة، ولكنها لا تعرف عنهما شيئا.

فكرت ماشا وهي تتطلع الآن الى نيوسا بما كانت تذكره نيوسا والفتيات الاخريات احيانا في الاحاديث بينهن: ما الذي ينتظرهن لو وقعن هناك، في المؤخرة، في ايدى الالمان قبل ان يتمكن من الانتحار؟ كادت ماشا تصرخ لهذه الفكرة، ولكنها تمالكت نفسها، وبدلا مما كانت تفكر فيه قالت بصوتها الهادئ الصافي الذى اكتنفته مسحة من الأسى:

– ما اجملك يا نيوسا! – وتذكرت ان سينتسوف كان يقول لها «ما اجملك» وهو معجب بها رغم انها ليست جميلة مثل نيوسا اطلاقا. قال لها ذلك عندما كانت تشرف على ولادة ثانيا، وعندما كانت – وهي متأكدة من ذلك – غير جميلة ابدا. وحالما تذكرت ذلك انتابها القلق ليس على نيوسا، بل على نفسها وفكرت بالتحليق المرتقب الى مؤخرة الالمان، ثم اغتاظت من هذه الفكرة الجبانة وقالت لنيوسا بحدة تقرب من الخشونة:

– اذهبي، ماذا تنتظرين؟

قالت ذلك ودخلت الزقاق. اجتازت المدخل المعروف لديها. وكان بابه مفتوحا على مصراعيه، فدخلت الباحة. كانت خالية، جميع النوافذ سوداء مغطاة بورق التعتيم وكأنها عمياء. وقرب المدخل السابع الابعد الذى يعيش بوبكوف في طابقه العلوى كادت ماشا تسقط على الارض اذ تعثرت بخشبة ملقاة في الباحة.

السلم مظلم كما في داخل مدخنة. عندما بلغت الطابق العلوى بحثت طويلا وبصورة عشوائية عن زر الجرس، فلم تعثر عليه، فطرقت الباب. ولم تسمع جوابا من وراء الباب. ثم دوى صوت بوبكوف الابح:

– من هناك؟

– ماشا.

كانت حتى الان، وعلى عادتها منذ الطفولة، تخجل من بوبكوف العجوز المشاكس.

لم يجب العجوز بشيء. وتهادى حفيف حذائه متجها الى احدى الغرف ثم رجع حذاؤه نحو الباب. انهمك طويلا في معالجة المزلاج والسلسلة وفتح الباب اخيرا.

– ادخلي. انا هنا لوحدى. وانا مريض.

الدهليز مظلم، فرافق بوبكوف ماشا الى غرفة الطعام مباشرة. وفي تلك الغرفة سرير حديدى كبير مطلى بالنيكل وعليه فراش مدعوك. فبعد وفاة زوجة بوبكوف نقل السرير الى هذه الغرفة وانتقل هو اليها وقدم الغرفة الثانية لابنه المتزوج.

– اجلسي! لماذا انت واقفة؟ – رتب بوبكوف الفراش على عجل وجلس عند المائدة وهو يمسك، قرب الحنجرة، بالياقة المحكوكة لمعطف فرو قديم كان يرتديه في المناسبات، ولكنه يرتديه الآن فوق ملابسه الداخلية مباشرة.

جلست ماشا قبالته عند المائدة التى تعرفها جيدا. ففي شقتهم مائدة مماثلة تراها كل يوم منذ ان كانت صغيرة. والد ماشا وبوبكوف اشتريا في وقت واحد ومن حانوت واحد مائدتين من هذا النوع الذى يمكن توسيعه. اشترياهما عندما نزلا معا في اواخر العشرينات في هذه الشقق العمالية الاولى.

– ما هي اخبارك؟ – سأل بوبكوف وهو ينظر الى ماشا ويمسد براحته رأسه الحليق الذى نمت حول صلعته شعيرات شيباء طويلة بشكل ملحوظ: الشقة باردة ورأسه يتأثر بالبرد.

– ما الذى يمكنني ان اقوله؟ – هزت ماشا كتفيها – ظننت انك ستقول لي شيئا.

– بودى ان اقول، ولكن ليس لدى ما اقوله. صندوقك فارغ، بالامس خرجت وفتحته.

تنهدت ماشا بشدة.

– لماذا تتنهدين هكذا؟ – سأل بوبكوف متذمرا واطلق بدوره تنهدة عميقة – طوال اسبوعين لم افتح صندوقك، فقد رقدت اسبوعين في المستشفى لاصابتى بفتق. وامس فتحت الصندوق فوجدته فارغا.

– اين اهلك؟

– ارتحلوا. فقد تم ترحيل المصنع ...

– وانت؟ لماذا بقيت؟

– قلت لك انى اصبت بفتق ورقدت في المستشفى. رفعت شيئا اثقل من اللازم، فاصبت ...

كان بوبكوف قد احيل على المعاش قبل ثلاث سنوات، ولكنه عاد للعمل في الورشة عندما اندلعت الحرب.

– وهل ستلحق بهم؟

هز العجوز رأسه نفيا.

– لا اسوأ من الانتظار واللحاق. ساجد عملا في احد المصانع الصغيرة المتبقية. ساعمل في صنع القذائف. كان في نيتي ان ارتحل سابقا، اما الآن فلا ارغب في ذلك. فالهاربون من موسكو كثيرون حتى بدوني. لقد سرت انت في الشوارع ورأيت بنفسك. في الصباح خرجت من البيت لاشترى خبزا ورأيت مظاهر هذا الهرب فبصقت اشمئزازا: تفو...

بوبكوف يحب وضع النقاط على الحروف.

– منظر الباحة يبعث على الخجل. المفارش ملقاة على الارض وريشها يتطاير مثلما في سبى بابل. كلا، لن اترك موسكو مطلقا، على العناد! – سعل ودس يده تحت المعطف ومسد صدره.

– اعتقد انك مريض الآن ايضا.

– قليلا. اخذت بردا. حالما غادرت المستشفى اصبت بالبرد. مرض على مرض... مصنعنا انتقل الى مدينة مياس. يقال انه توجد مدينة بهذا الاسم في محافظة تشليابينسك. زارني ابني عندما كنت في المستشفى واخبرني بذلك. الشيطان وحده يعرف موقع المدينة بالضبط. بحثت عنها في الخريطة فلم اجدها. الى اي مستوى هبطنا؟! مصنعنا الموسكوبي الاصيل نقلوه الى قرية لا اثر لها حتى على الخريطة... لماذا جئت الى موسكو؟ – رفع بصره الى ماشا – اذا كان ذلك من اجل الرسائل فسارسلها لك اذا وصلت. فانا لن اهرب، لا تخافي. سابقى هنا، كمسمار صدىء، في خشبة. حتى النصر النهائي... ام انك تعتقدين بان الالمان سيحتلون موسكو، آ؟

– كيف تقول ذلك، يا زوسيما ايفانوفيتش! – اطلقت ماشا صرخة مبتسرة لهذا السؤال المفاجيء، فادرك العجوز ان هذه الفكرة لم تدر في بالها.

– ليس في ذلك صعوبة، – قال بوبكوف فرحا لثقتها الراسخة ولكنه قال ذلك، كعادته، بدافع من المشاكسة، لا غير. – حبذا لو رأيت كيف هرب البعض نهار اليوم! اوقفت احدهم، وهو رجل ضخم وسألته: «هل عندك سماح بالسفر؟». فراح يبحث في جيوبه كلها دفعة واحدة، وتناثرت اوراقه على الرصيف. ولكن من انا بالنسبة له؟ ولماذا ارتعب الى هذا الحد؟ ذلك يعني ان فؤاده خاو وليس في عروقه غير الرعب!

اخرج العجوز يده من عبه ولوح بها غاضبا فوق المائدة وكأنه يزيح اقذارا غير مرئية.

– وانت؟ لماذا جئت الى هنا اذا لم يكن من اجل الرسائل؟

– بعد ايام سيرسلوننا الى الجبهة، فجئت لاخذ بعض الحاجيات – قالت ماشا ملتزمة بقواعد المدرسة في عدم افشاء سرها لاحد.

– يعني انهم يرسلونكن انتن ايضا الى الجبهة؟ فمن انتن يا ترى؟

القت ماشا نظرة صامتة عليه. فقال دون زعل:

– حسنا، لا تجيبي اذا كان لا يحق لك ان تجيبي! ولكن قولي لي شيئا واحدا قد يهدئني: هل الكتيبة كلها نسائية مثلما في عهد كيرينسكي، ام ان فيها رجالا ايضا؟

– فيها رجال – ابتسمت ماشا عفويا.

– الحمد لله! يعني ان الامور عندنا لم تتدهور بعد الى هذا الحد – تنهد بوبكوف وصمت امدا طويلا وكأنه متردد فيما اذا كان يتعين عليه ان يتحدث مع هذه البنت التي لم تر ولم تعرف في حياتها الا القليل ويشرح لها ذلك الشيء المهم جدا بالنسبة له والذي يفكر فيه طوال الوقت في الآونة الاخيرة. ولكنه ليس لديه احد غير ماشا يمكنه التحدث اليه بهذا الخصوص، وهو لم يعد قادرا على السكوت. – رقدت في المستشفى وكان معي احد المقعداء، وهو من الجبهة ولكنه غير جريح، كان مثلي مصابا بالفتق لا غير. واتضح ان هذا المرض يمكن ان يوجد حتى في الجبهة. وسألته: «قل لي من اين جاءت هذه «المباغتة»؟ اين كنتم انتم العسكريون؟ لماذا لم يعرف الرفيق ستالين منكم شيئا عن ذلك قبل اسبوع على الاقل او حتى قبل ثلاثة ايام؟ هل عندكم ضمير؟ لماذا لم تخبروا الرفيق ستالين؟»

– وماذا قال لك؟ – كانت ماشا قد طرحت على نفسها مرارا هذا السؤال المؤلم، ولكنها لم تطرحه بصوت مسموع وبهذه الصراحة وعدم الخوف مثلما فعل بوبكوف الآن.

– ماذا قال؟ لم يقل شيئا. كلمني، انا العجوز، بخشونة. اما بالنسبة لك فكل شيء مفهوم على ما اظن. اليس كذلك؟ – قال بوبكوف ساخرا. – في الشهر الماضي لامتني امرأة شابة من باحتنا بسبب لساني الطويل: فكل شيء مفهوم بالنسبة لها. اما اليوم فقد اجتازت هذه المسكينة الباحة حاملة الحقيبة حتى كادت ساقاها تلتويان. واذا كان كل شيء مفهوما بالنسبة لك انت ايضا، فالله معك، والافضل ان تصمتي.

– لا ادرى، يا زوسيما ايفانوفيتش . عشنا سنة ونصف على الحدود تقريبا في مدينة غرودنو . فمن منا لم يفكر هناك بالحرب؟! بديهى ان الجميع كانوا يفكرون بها! وبعد ذلك هبطت على اعيننا غشاوة فتركنا امي وتانيا هناك قبيل اندلاع الحرب مباشرة! انني لا ادرى بخصوص الآخرين، ولكني الوم نفسي وزوجي: كيف استطعنا ان نفعل ذلك؟ لا ادرى . اكاد افقد رشدي عندما افكر في ذلك .

– ساقول لك الآن رأيي – قال بوبكوف بصرامة وبشيء من المهابة بعد صمت طويل – لا ادرى اية «مباغتة» كانت هناك، فهذا شيء فوق مستواى، عندما يجيء ضيوف للجيران نسمع طقطقة اعداد المائدة وراء الجدار! فكيف يجوز ان تتحشد قوات بكاملها على مقربة منا ولا احد يسمع بها . ذلك ما لا افهمه! ولكنني اقول اننا اخطأنا في تقدير قوة الالمان . وان قوتهم هائلة . ذلك صحيح . والا لما استطاعوا ان يحطمونا من الحدود مباشرة – وضع بوبوكوف يديه على المائدة امامه واشرأب بدنه كله باتجاه ماشا . – لست صغيرة، وانت تعرفين بعض الامور في عمرك هذا . فقولي لي: هل بخلنا نحن بشيء للجيش الأحمر في زمن ما رغم كل الصعاب التي واجهتها؟ وهل حدث يوما ان الجيش الاحمر احتاج الى شيء ورفض الشعب تقديمه له؟! اجيبي! هل حدث مثل ذلك ام لا؟

– لم يحدث – قالت ماشا وقد سكتت قليلا .

– اما الآن فاعتقد ان الجيش الاحمر ليس عنده كل ما يجب ان يكون عنده! فكم مضى من الوقت ونحن لا نستطيع ان نوقف الفاشيين؟ وانا اسأل الآن واريد ان تتحملوا مسؤولية ذلك: لماذا لم يخبرونا؟ كان بوسعي على الاقل ان اسلم هذه الشقة واعيش في غرفة واحدة . وكان بوسعي ان اعيش على كسرة من الخبز وعلى مرق الأعشاب مثلما في الحرب الاهلية، من اجل ان يكون عند الجيش الاحمر كل شيء، كيلا ينسحب من الحدود ... لماذا لم يخبرونا بنزاهة؟ لماذا سكتوا؟ هل انا محق ام لا؟

لم تكن ماشا تعرف هل ان بوبكوف الجالس امامها والذي يتكلم، بل ويجأر بذلك كله محق ام لا . ولكنه رغم مرارة ما يجأر به فقد احست ان بين جوانحه قوة تجعله وتجعلها يشعران بانهما قويان مستعدان لكل التضحيات: للاكتفاء بمرق الاعشاب وكسرة الخبز، بل وللاقدام على اية معركة واي موت من اجل تصحيح وتبديل كل شيء، من اجل ان نهجم نحن على الالمان وليس هم علينا!

– لا بأس، يا زوسيما ايفانوفيتش . سوف نقطع رقابهم – قالت ماشا بلهجة تقرب من المرح وهي مسرورة المشاعر التي استولت عليها .

– شكرا لك . لقد اوضحت لهذا العجوز الاحمق! – قال بوبكوف متذمرا . – انني افهم، ليس اسوأ منك، من الذي سيكون فوق ومن الذي سيكون تحت في آخر الامر! ولكن لماذا نحن تحت الآن ومنذ شهور؟ ..

– لماذا؟ لماذا تقول تحت؟ – قالت ماشا وتحيرت بسبب الهجوم الجديد الذي شنه العجوز – المعارك جارية، وهي معارك طاحنة بالطبع ...

– اعرف من البلاغات ان المعارك جارية – واصل بوبكوف كلامه مصرا على رأيه – هنا ضربناهم، وهناك اسرناهم، وهناك اوقفنا زحفهم ... ومع ذلك سلمنا برياتسك وفيازما قبل ثلاثة ايام! فما معنى ذلك؟ هل نحن فوق ام تحت؟ ماذا يعني ذلك برأيكم، برأي العسكريين؟ انت عسكرية فاجيبي!

لم تتمكن ماشا من اجابته . فوراء النافذة هدرت المدافع المضادة للجو دفعة واحدة على مسافة قريبة . وقال بوبكوف بهدوء:

– كنت افكر : لماذا تأخروا اليوم؟ – ثم تطلع الى الساعة الجدارية القديمة المتبقية من عهد ما قبل الثورة ونهض وسألها:

– هل تذهبين الى الملجأ؟

– وانت؟

– كلا . نجلس هناك كالطرشان، ومن فوقنا يدوى الرعد والهدير . لذا اعتقد ان البقاء في البيت افضل ... ماذا؟ هل ستذهبين ام لا؟

– كلا . سانتظر معك هنا .

– اذن فلنطفئ* الضوء ونرفع الستارة – قال بوبكوف فرحا لبقاء ماشا – جلست ليلة البارحة قرب النافذة وتطلعت الى مشهد مثير!

امسك بياقة معطف الفرو عند الحنجرة واقترب من زر الكهرباء فاطفأ الضوء ورفع ستارة التعتيم الورقية .

جلست ماشا على رف النافذة الى جانب العجوز . الشقة في الطابق العلوى، والمنازل هنا ليست عالية، فلاحت امام الانظار سماء واسعة دوى فيها كل شيء ورعد وجلجل بآلاف المطارق . كانت السماء كشرشف اسود هائل منبسط فوق المدينة كلها وفي كل لحظة يتشقق بصريف في آلاف الاماكن وفي كل مكان يتشقق فيه تومض كريات تفجر القذائف المضادة للجو.

وعلى مقربة كبيرة جدا، وراء المنزل، كانت بطارية مدفعية تطلق قذائفها كالرعد فيغطي هديرها بين الحين والآخر على كل الاصوات الاخرى .

وبين الصليات يتهادى، كما فى جهاز راديو مشوش، دوى الطائرات المتقطع المرتفع. واهتز المنزل عدة مرات من انفجارات القنابل، وفى مكان ما غير بعيد اندلعت ألسنة اللهيب وانطفأت.

وبعد ذلك سمعت ماشا طقطقة فى مكان قريب جدا. فقال بوبكوف:

– شظية من قذيفة ارتطمت بالشرفة – ثم اضاف ملتفتا الى ماشا: – ألا تريدين ان تبتعدى؟ فربما تطير نحونا شظية وتصابين بجروح بالزجاج...

لم تجب ماشا بشىء وظلت تتطلع الى السماء.

– الدفاع المضاد للجو قوى، وليس من السهل اختراقه – قال بوبكوف فى احدى لحظات الهدوء النسبى. وتأكيدا لقوله لمعت بقعة كبيرة صفراء جدا بين الكريات الصفراء لانفجارات القذائف المضادة للجو فى اعالى السماء. وبعد ذلك تحولت تلك البقعة المديمة الشكل الى زاوية صفراء ثم الى صليب مبتور، وهوت الى الاسفل، الى الظلام، متمزقة الى بقع صغيرة خافتة. وصاح بوبكوف: – اسقطوها!

بدأت نيران المدافع المضادة للجو بالخفوت، وصارت الكريات الصفراء تنفجر بكميات متناقصة، واخذت ايدى الاضواء الكاشفة المتصالبة فى قبة السماء تنداح الى الافق الواحدة تلو الاخرى.

– مرت هذه الموجة – ظل بوبكوف يتطلع عبر النافذة – وعلى هذه الصورة يبدو الليل وكأنه حريق سدوم. وعندما نخرج فى الصباح نرى الدخان يتصاعد فى اماكن قليلة. هنا منزل محترق، وهناك منزل محترق، الا ان موسكو سالمة!

قال بوبكوف هذه الكلمات وانزل الستارة فظلا لحظة فى ظلام دامس. ثم اضاف واشعل الضوء:

– لا بأس، الحرب زائلة. الا تريدين ان تشربى شايا معى؟

شكرته ماشا ورفضت. فان فيوسا تنتظرها، وربما هى قلقة الآن. يجب ان تأخذ ماشا حاجياتها بسرعة وتذهب اليها لتنام ليلتها عندها.

– شكرا لك، يا زوسيما ايفانوفيتش! ساشرب الشاى فى المرة القادمة!

– متى فى المرة القادمة؟ – سأل العجوز بلهجة صارمة. فهزت كتفيها:

– لا ادرى.

– حسنا، اذهبى! – صفق بوبكوف الباب بعد ان خرجت ماشا واغلقه بالمزلاج.

اجتازت ماشا الباحة من جديد وولجت مدخل المنزل الى شقتها. الريح تهب ومصراعا باب المدخل المفتوحان يحتكان بالطابوقتين اللتين وضعتا تحتهما فينبعث عن هذا الاحتكاك صرير كئيب.

وفكرت ماشا: ماذا لو كانت هناك وراء الثقوب المستديرة فى صندوق البريد المعلق على باب شقتها فى الطابق الثانى رسالة تنتظرها وقد وصلت اليوم وليس امس؟ ماذا سيحدث لو كانت الرسالة ليس من سينتسوف، بل من جهة تنعاه؟

امسكت بدرابزون السلم وصعدته فى الظلمة واخرجت المفتاح من جيب الفصلة وراحت تتحسس ثقب القفل. ولكن يدها ارتطمت بشىء بعث خشخشة معدنية مفاجئة. ارتعشت ماشا وسحبت يدها فى البداية، ثم مدتها من جديد وتحسست سلكا دائريا يربط شدة مفاتيح. وكان احدها داخلا فى ثقب القفل.

امسكت ماشا بمقبض الباب فانفتح قليلا بشكل مرعب، اذ لم يكن مغلقا. وقفت ماشا لحظة فى الظلمة دون حراك، وقد اقشعر بدنها لخوف مجهول من هذا الباب والمفاتيح، ثم غضبت على نفسها وفتحت الباب ودخلت الشقة.

فى البداية خيل اليها ان كل شىء هادىء هناك، ثم سمعت انفاسا متقطعة تتهادى من الغرفة الثانية. اجتازت عتبة غرفة النوم وتذكرت المصباح اليدوى فاخرجته من جيب معطفها العسكرى.

فرأت سينتسوف نائما على الحشية الخالية على السرير ووجهه مغروز فيها وقد تدلت مقدمة رأسه منها، وهو بقبعته الشتوية وسترته القطنية وجزمته الممزقة. كان يغط فى نوم عميق دون حراك وبانفاس متثاقلة مزكومة.

النافذة ليست مغطاة بستارة تعتيم. اطفأت ماشا المصباح واسرعت عشوائيا لانزال ستائر التعتيم الورقية فى كلتا الغرفتين، ثم اسرعت الى المطبخ وانزلت الستارة هناك، وركضت الى الباب، وانتزعت منه شدة المفاتيح واغلقته، وضغطت على كل الازرار الكهربائية فاشتعل المصباحان المتبقيان فى الشقة – فى الدهليز وفى المطبخ.

بعد ذلك فقط عادت الى غرفة النوم التى تسرب اليها عبر الباب المفتوح ضوء خافت من الدهليز. كان سينتسوف لا يزال نائما ورأسه متدل من الحشية. ركعت ماشا على ركبتيها ورفعت رأس زوجها ووضعته على الوسادة. لاح طرف شاش متسخ من تحت القبعة المثبتة على الرأس بعناية، فخافت ماشا من ان تخلعها.

لم يستيقظ سينتسوف. وخيل لماشا ان حرارته مرتفعة. لامست قوده بشفتيها فلم تجده ساخنا، بل كان مبللا بقطرات العرق.

وعند ذلك خلعت ماشا بسرعة محمومة قبعتها الشتوية ومعطفها وجزمتها وكأن بوسع طقطقتها ان توقظ هذا الانسان الغاط فى نومه. وهرعت الى المطبخ

فاشعلت الغاز الذي بعث بالكاد ضوءا بنفسجيا ضعيفا يومض على الطباخ، وخلعت من المسمار على الجدار طستا معدنيا كبيرا وصبت فيه ماء ووضعته على النار.

ثم فتحت بالمفتاح خوانا في غرفة الطعام واخرجت بياضات وشراشف وبطانية واقتربت من السرير من جديد، وفي هذه اللحظة فقط اشرأب بدنها كله نحو زوجها فعانقت كتفيه والصقت صدرها بظهره وانتحبت بمرارة وسعادة.

الفصل الثاني عشر

لا يستطيع ان يغط في مثل هذا النوم العميق الا شخص بلغ آخر درجة من الارهاق.

وصل سينتسوف الى شقته وغفا منهارا على الحشية الخالية قبل مجيء زوجته بوقت قصير.

مرت ثماني ساعات بين اللحظة التي غفا فيها واللحظة التي انزله فيها لوسين من السيارة فظل وحيدا على الطريق العام على بعد عشرين كيلومترا عن موسكو. وقد كلفته هذه الساعات الثماني غاليا.

عندما ظل وحيدا على الطريق اسف لانه تمالك اعصابه ولم يصفع لوسين. فما الذي يمكنه ان يفعله الآن؟ ربما كان من الاصوب، رغم كل شيء، ان يتوجه الى مركز التفتيش ويحاول ان يوضح لهم كيف وصل الى هنا والى اين هو ذاهب. الا ان الناس لا يفعلون دوما ما هو الاصوب.

عندما وقف وحيدا على الطريق لعن سينتسوف الحفلة التي سافر فيها مع لوسين، ولكنه لم يعد يريد التراجع في الوقت ذاته. فما دامت موسكو قريبة فسوف يذهب على اية حال الى هيئة تحرير جريدته السابقة، وسوف يصل الى هناك من هذا المكان الذي تركه فيه زميله لوسين.

وفي حالة اليأس والهياج التي اكتنفت سينتسوف صمم بانفعال على محاولة الوصول الى هيئة التحرير دون ان يمر باي من مراكز التفتيش. واذا اخفق في ذلك، واذا احتجزوه قبل ذلك فالفرق غير كبير، فهو ليس هاربا من الجبهة ولا ينوي الهرب منها!

ومن المؤكد تقريبا انه ما كان بوسعه ان يمر ويصل الى موسكو ليوم قبل ذلك او ليوم بعده. ولكنه في ذلك اليوم بالذات، في ١٦ اكتوبر،

انحرف عن الطريق العام وتحاشى مراكز التفتيش ووصل الى الاطراف التى يعرفها جيدا، ثم وصل الى وسط موسكو دون ان يحتجزه احد .

فيما بعد، حيث غدا ذلك كله فى طى الماضى، صار سيتسوف يلوذ باذيال الصمت كلما تحدث احد بمرارة وألم عن ١٦ اكتوبر بحضوره . فلم يكن يتحمل تذكر موسكو فى ذلك اليوم، كما لا يتحمل شخص رؤية وجه عزيز عليه وقد شوهه الرعب .

بديهى انه كان هناك فى موسكو نفسها عدد كبير من الذين بذلوا قصارى جهودهم لعدم تسليمها، فضلا عن القوات التى كانت تقاتل وتموت فى ضواحيها فى ذلك اليوم. ولذلك بالذات لم تسلم موسكو. الا ان الوضع فى جبهة ضواحى موسكو بدا وكأنه ينشأ مباشرة على نحو لم يسبقه مثيل فى فظاعته وخطورته خلال الحرب كلها . وكان الكثيرون فى موسكو خلال ذلك اليوم مستعدين بيأس وقنوط للتصديق بان الالمان سيدخلونها غدا .

وكما هو الحال دوما فى مثل هذه اللحظات المأساوية، فان ايمان الاوائل وعملهم غير الملحوظ لم يكونا واضحين للعيان بالنسبة للجميع، بل كانا يعدان بالثمار فقط . اما الحيرة والرعب واليأس واللوعة التى تلازم الآخرين، من غير الاوائل، فقد كانت على مرأى من الجميع وذلك بالذات هو ما طفا على السطح وما كان بوسعه ان لا يطفو عليه . فان عشرات ومئات الآلاف من الناس نهضوا وفرّوا من موسكو فى ذلك اليوم تخلصا من الالمان . غصت بهم شوارعها وساحاتها بشكل سيل عارم مسرع نحو محطات القطار ونحو الطرق المتجهة الى الشرق، مع ان التاريخ، ونقول ذلك لوجه العدالة، لم يكن له فيما بعد الحق فى ادانة الكثيرين من عشرات ومئات الآلاف من اولئك الناس على فرارهم .

سار سيتسوف فى شوارع موسكو ولم يهتم به احد فيها خلال ذلك اليوم المرعب من حياة المدينة . فقد كان الناس يضيمون بعضهم بعضا ويبحثون عن بعضهم البعض دون جدوى ويكسرون ابواب الشقق المغلقة وينتظرون بيأس وقنوط على مفترقات الطرق وتحت ساعات الشوارع المتوقفة ويصيحون ويبكون فى دوامات ساحات المحطات .

نسى سيتسوف لوسين من زمان . فالحقد على هذا الانسان غدا ضئيلا تافها فى خضم المصيبة التى اجتاحت سيتسوف وراحت تتقاذفه كالحطبة فى شوارع موسكو. لم يعد يلعن لوسين، بل اخذ يلعن نفسه . فلو تصرف على نحو آخر وذهب الى الشعبة الخاصة كما قرر فى البداية لربما سلموه بندقية

هناك، على بعد مائة كيلومتر عن موسكو، حيث كان يتقرر مصيرها . الا ان الحصول على امل فى ذلك يتطلب السير حتى النهاية بما بدأه . وهو الوصول الى هيئة التحرير .

واخيرا استدار من ساحة نيكيتسكيه الغاصة بالسيارات والناس ودخل فى زقاق غلينوفسكى حيث تقع ادارة جريدة «غودوك» («الصفير») التى كان قد زارها ذات مرة قبيل الحرب .

تفوح من الزقاق، كما فى كل مكان، رائحة الدخان، وتحمل هبات الريح من قارعة الزقاق رماد الاوراق المحروقة الذى يدوم فى جوه . جميع نوافذ ادارة الجريدة مغطاة باحكام بستائر التمويه من الداخل، وقرب الباب المغلق بقفل متدل جلس على مصطبة بواب عجوز يرتدى معطفا اسود من معاطف عمال السكك وبيده بندقية من عيار صغير. كان جالسا لا يعبأ باضطراب الناس الراكضين امامه فى الزقاق حاملين حاجياتهم .

اقترب منه سيتسوف وسأله، مع توقعه التام لجواب بالنفى، عما اذا كانت قد وصلت الى هنا هيئة تحرير الجريدة الجبهوية ام لا . هز البواب رأسه صامتا .

– ماذا؟ هل ارتحلت ادارة «غودوك»؟ – سأل سيتسوف مع انه كان واضحا ان ادارة الجريدة ارتحلت .

– وانت، ماذا تريد؟ – رفع البواب رأسه الآن فقط – ارنى هويتك!

– ما حاجتك الى هويتى؟

– لكى اعرف هل يتعين على ان اجيبك ام لا! – قال العجوز بغيظ . اجل، ارتحلت «غودوك»، اما الجريدة الجبهوية فلم تصل وليس معروفا ما اذا كانت ستصل ام لا . كان ذلك واضحا . بيد ان سيتسوف ظل يراوح فى مكانه ويتطلع الى نوافذ ادارة الجريدة دون ان يعرف ما ينبغى له فعله .

وخطرت على باله فكرة: بما ان هيئة التحرير غير موجودة فى موسكو فينبغى العثور على سربيلين . فقد نقلوه الى احد المستشفيات فى موسكو بالذات ...

«ولكن كيف تعثر عليه؟ – سأل صوت آخر متعقل فى دخيلته – فى اى مستشفى؟ ومن الذى سيدلك على سربيلين اليوم وسط كل ما يجرى هنا؟»

فى ساحة أرباتسكايا، ليس بعيدا من هنا، يقع مبنى الادارة السياسية للجيش . تذكر سيتسوف انه كان هناك فى عام ١٩٤٠ قبيل تعيينه فى غرودنو وفكر: «ألا اذهب الى هناك؟ ولكن من يسمح لى بالدخول بدون هوية؟ ثم هل ان هذه الادارة لا تزال هناك؟ شىء مستبعد ... واذا لم اذهب الى هناك، فالى اين؟ الى اين اذهب ياترى؟...»

وتبادرت الى ذهنه من جديد الفكرة التى طردها من زمان: «وربما كانت ماشا موجودة فى موسكو مع ذلك». ورغم مقاومته لهذه الفكرة المستحيلة فقد دفعته من زقاق خليبنوفسكى الى شارع اوسانتشيفكا، الى المنزل الذى توجه منه الى الجبهة.

فى منتصف الطريق حمل نفسه من جديد على عدم التفكير فى المستحيل. فليس فى الشقة احد. ذلك امر بديهى ولكنه ذهب الى هناك ليس لانه يأمل فى شىء! فهو بامس الحاجة الى الجلوس فى مكان ما واستعادة انفاسه ولو على درجات السلم! وبعد ذلك سينهض وسيذهب... ولكن الى اين؟ الى مفوضية التجنيد على الاقل. سيذهب وسيقول لهم، دون الخوض فى اية تفاصيل وتوضيحات، بانه يرجو قبوله متطوعا... فلا بد من وجود وحدات قيد التشكيل... ومعروف انهم يرسلون البعض الى الجبهة مباشرة!.. وهناك سيعرض قصته بعد المعركة الاولى! ولن تكون لذلك اهمية عندئذ. المهم هو ان يقبلوه الآن ويرسلوه الى الجبهة! اجل، هذا هو القرار الصحيح!

ولكنه، فى اللحظة الاخيرة، عندما اقترب من باب داره وتذكر فجأة بكل التفاصيل كيف جمعت ماشا حقيبته فى يوليو هناك، وراء هذه النافذة التى على الطابق الثانى، لتودعه الى الجبهة، تبخرت من ذهنه كل الافكار ما عدا تفكيره فيها وفى احتمال وجودها هنا.

باب المدخل مفتوح على مصراعيه، وقد وضعت تحتهما طابوقتان. وعلى الرصيف رميت كسرات من مقعد. لم يدهش سينتسوف لذلك بعد كل ما رآه وهو يجتاز موسكو ماشيا. ركل الكسرات بقدمه وصعد الى الطابق الثانى وطرق على الباب بقبضته.

ظل يطرق على الباب بقبضته وقد التصق وجهه به مع انه ادرك من زمان انه لا احد فى الشقة. وفى هذا الطرق الهائج اليائس تركز كل القنوط الذى ملأ فؤاده عن آخره.

واخيرا عدل قامته واستدار ولوح بيده ونزل من السلم متعثرا.

خرجت من بوابة الباحة راجعة الى الوراء سيارة شحن مليئة عن آخرها بالعفش والاكياس حتى ارتطمت اعاليها باسفل طاق البوابة الواطىء. وفى عرض الشارع راح شخص يتراقص ويلوح بيديه فى الهواء ويصيح: «قليلا الى اليسار، الى اليسار، والآن عدل المقود، عدله!..». واخيرا خرجت الشاحنة من الباحة. وتوقف الشخص الراقص فى عرض الشارع عن رقصه ومسح العرق عن وجهه بردن سترته الجوخ، وعرفه سينتسوف. انه مدير السكن المسؤول

عن هذه المنازل، واسمه كلوشكين او كروجكين. سينتسوف لا يتذكر اسمه جيدا، مع انه يعرفه قبل ان يتزوج ماشا.

– اسمع! – صاح سينتسوف – اسمع! – كرر بصوت اعلى وخطا نحو مدير السكن واخذ بخناقه وامسك بياقة سترته حتى انشقت.

– ماذا بك، هل جننت؟ – تملص المدير صائحا وهم بضرب سينتسوف، الا انه عرفه، فقال: – انت الذى طرقت الباب بهذه القوة؟

– نعم.

– زوجتك ارتحلت.

– الى اين؟

– لا ادرى. هل يمكن تذكر الجميع؟! – صعد مدير السكن الى السيارة – اما القوائم فقد احرقناها. احرقنا كل شىء اليوم، حتى كراسات ارقام التلفونات احرقناها. احرقنا كل شىء! – كرر من على السيارة بلهجة فيها شىء من الحماس. – زوجتك سافرت فى يوليو، وكانت ترتدى بزة عسكرية.

– اين هى؟ – صاح سينتسوف وهو يخطو وراء السيارة التى تحركت.

– قف! قف! – صاح المدير فجأة وطرق على قمرة السائق براحته عدة طرقات. – اسمع! – نادى المدير سينتسوف عندما توقفت السيارة. – عندى المفتاح الثانى لشقتكم.

فتح حقيبته نترا واخرج منها حلقة كبيرة من سلك مخنى يتدلى منها زهاء عشرين مفتاحا.

– ابحث عن مفتاحكم بينها وخذه. ولكن بسرعة.

اقترب منه سينتسوف وراح يتفحص المفاتيح بتردد.

– هيا، هيا! – استعجله المدير وهو ينظر الى السائق الذى مد عنقه وقد صبره – خذها كلها! – صاح المدير وترك له كل المفاتيح.

افلت سينتسوف شدة المفاتيح فسقطت مجلجلة على الطريق.

وعندما مر هيكل السيارة امام عينى سينتسوف سأل:

– الى اين انت مسافر؟

– حالى من حال الجميع! – صاح مدير السكن. – انا عضو فى الحزب. فهل يتعين على ان انتظر وصول الالمان حتى يشنقونى؟

«يا عيب الشؤم، ياعضو الحزب!» التقط سينتسوف المفاتيح وتذكر بغضب تلك اليد القوية المكسوة بالشعر والتى امسكت بها قبل قليل من على الشاحنة.

راح يتفحص المفاتيح الواحد تلو الآخر وفكر فجأة بان ماشا ربما تركت رسالة في الشقة تحسبا للطوارئ...

فاستولت عليه فكرة الرسالة هذه حتى صعد السلم راكضا وفتح الباب وهرع الى الشقة تاركا شدة المفاتيح في الباب من الخارج.

لم يجد رسالة. لا على المائدة التي تستقر عليها المنفضة اليدوية الصنع التي يعرفها جيدا — زورق خشبي تمثل مقدمته رأس النمر، ولا على السرير في غرفة النوم حيث لم يكن هناك غير حشية مخططة خالية ووسادة بدون شرشف وقد برز الريش منها.

الدولاب مغلق. حرك سينتسوف مقبضه فلم ينفتح. واستقرت طبقة سميكة من الغبار على كل شيء — على الارضية والكراسي والمائدة العارية. كوة النافذة في غرفة الطعام تهتز من الريح وقد انفطر زجاجها. اغلق سينتسوف الكوة وجلس قرب المائدة والقى بيديه النحيلتين المتثاقلتين عليها.

كل ما مر به هو، وسائر الذين كانوا معه، بتلك الصلابة والصمود ابتداءا من موغيليف، يتسم بقيمة او تنعدم قيمته تبعا للجواب على سؤال بسيط واحد: هل سننتصر ام لا في هذه الحرب التي بدأت على هذه الدرجة من الفظاعة بالنسبة لنا؟ عدد الضحايا لا ينحصر في تلك القائمة العسكرية التي قدمها الى شماكوف بضواحي يلنيا بعد ان خرجوا من الحصار الاول. ففي جوانحه قائمة طويلة لجميع التضحيات التي اقدم الناس عليها امامه وهم يشترون النصر بحياتهم. ولكنه رأى هنا، في موسكو، الآن علامة استفهام هائلة سوداء، كالمصيبة، توضع على هذه القائمة الدامية امام عينيه.

ولو كان سينتسوف في حالة اخرى لربما تمكن من ان يفرق ذهنيا بين افظع امكانية لفقدان موسكو وبين الهزيمة التي لا مفر منها والنهاية التي تشمل كل شيء. الا ان روحه الآن تشبه زورقا انهالت عليه الاحمال الواحد تلو الآخر بكثرة جعلته يبدأ بالغرق في آخر المطاف. وبالاضافة الى ذلك كله امامه هذه الشقة الخالية الصامتة، لا زوجته فيها ولا طفلته.

القى بمفاتيح هذه الشقة اليه شخص غادر موسكو لان الالمان — كما يعتقد هذا الشخص — سيدخلون موسكو غدا. هرب هذا الشخص من موسكو في سيارة مشحونة بالعفش. وسينتسوف واثق تماما من انه هرب بدون امر رسمي، هرب لانقاذ رقبته المتينة كرقبة ثور ويديه القويتين المكسوتين بالشعر واللتين يتعين عليهما بالذات حمل البندقية...

كلا، لم يحسد سينتسوف هذا الثور الذي ينشد الخلاص. ولكن عدم

وجود بطاقة الحزب في جيب سينتسوف، وعدم تمكنه الآن من الذهاب الى اللجنة الحزبية المحلية الواقعة على بعد ثلاثة شوارع من هنا والتي انضم الى الحزب في حينه عن طريقها، وعجزه عن القول هناك: «انا، الشيوعي سينتسوف، جئت للدفاع عن موسكو، سلموني بندقية وخبروني الى اين اذهب!» — ذلك ما يرهق فؤاده.

ظل يفكر بذلك حتى تبادرت الى ذهنه فجأة، وعلى حين غرة، كما تتخذ اهم القرارات في حياتنا، فكرة متسائلة: «ولماذا؟ لماذا لا استطيع الذهاب الى اللجنة المحلية لاقول هناك: «انا، الشيوعي سينتسوف، اريد ان ادافع عن موسكو»؟ ألم اعد شيوعيا؟ ذلك الثور الهارب بالشاحنة شيوعي، وانا لم اعد شيوعيا؟ لم يصدقني البعض، وقد لا يصدقني الآن ايضا، ولكنني انا اعرف نفسي جيدا. فلماذا افكر بالذهاب الى الشعبة الخاصة والى هيئة التحرير والى مفوضية التجنيد واخشى الذهاب الى لجنتي المحلية التي انتسبت الى الحزب عن طريقها؟ من الذي يمكنه ان يمنعني من ذلك؟ ومن يحق له ان يمنعني؟»

نهض، فترنح من شدة الضعف. ذهب الى المطبخ وبحث طويلا في الظلمة على الرفوف حتى عثر، لحسن الحظ، على قطعة خبز جافة كالبقسماط. اقترب من المغسلة وفتح الحنفية ليجربها، فسال الماء. اتكأ على الجدار وراح يبلل الخبز تحت الحنفية ويلتهم الشرائح المبللة الواحدة تلو الاخرى بنهم شديد وهي تنزلق من بين اصابعه.

وبينما كان يلتهم الشريحة الاخيرة هدرت المدافع المضادة للجو من وراء جدران المنزل. وانساب على النافذة غير المعتمة خيط من الاضواء الكاشفة. واهتز المنزل لانفجار قنبلة.

اغلق الحنفية وراح يستمع الى اطلاق المدافع الجوية ويفكر بنفس الشيء الفظيع الذي تبادر الى ذهنه عدة مرات هذا اليوم وتضاءلت مصيبته الشخصية امامه: «هل يعقل اننا سنسلم موسكو؟!».

— سأذهب الآن! — قال لنفسه حاسما بعد ان تذكر اللجنة المحلية، ولكنه عندما تزحزح عن الجدار ادرك بانه لن يستطيع الوصول الى اللجنة الآن فهو بحاجة الى الرقاد قليلا. يجب ان يرقد قليلا ثم يذهب. وصل الى غرفة النوم مستندا بيده الى الجدار، وتشبث بمسند السرير النيكلي البارد وهوى منبسطا على الحشية الخالية.

— سأرقد قليلا وسأذهب — همس بعناد — سأرقد ربع ساعة ثم اذهب...

عندما حاولت ماشا ايقاظه بدل وضعية نومه دون ان يستيقظ وأن بصوت ابح رهيب في البداية ثم على نحو متألم حتى كاد قلب ماشا يتفطر له. وصارت مستعدة للبقاء هكذا، محنية عليه، ساعة اخرى دون ان تحاول ايقاظه، ولكنه استيقظ بنفسه. فمن اعماق وعيه المتعب انبعث شيء حال بينه وبين النوم. تململ قبل ان يستيقظ نهائيا وفتح يديه والقى بهما متثاقلا على كتفي ماشا من كلا الجانبين وضغطهما، ثم فتح عينيه فجأة وكأنه تلقى ضربة ما. لم يكن في عينيه لا نعاس ولا اندهاش. كانتا مفعمتين بالسعادة وحدها، بسعادة لا حدود لها، سعادة لم تر مثلها ماشا قبل ذلك ابدا طوال حياتها ولن يقدر لها ان ترى مثلها في اية عينين.

ولو ارغمنا سينتسوف طوال قرن من الزمان على ان يبتدع السعادة التي يريدها لما استطاع ان يبتدع اي شيء غير هذا الوجه الحبيب المبلل بالدموع المنهمرة عليه والملتصق بخده في وضعية ليست ملائمة تماما. لقد انحسرت الى آلاف الاميال فظاعة الايام العديدة المنصرمة وافظع ما فيها هذا اليوم. ومن جديد لم يعد سينتسوف يخشى شيئا.

امسك بكتفي ماشا ورفع وجهها باعلى من وجهه وابتسم. لم تكن الابتسامة حزينة ولا تبعث على الشفقة، كانت ابتسامة عادية جدا، انها ابتسامته المعتادة. وحدقت ماشا في وجه زوجها النحيل الذي تغير الى حد مرعب وفكرت بان منظره الذي اثار هلعها في اللحظة الاولى ليس فيه ما يسيء ابدا.

وبكل ما يتحلى به فؤادها الجسور من صفاء وصراحة بعيدة عن المحاججات راحت تفسر لنفسها باستعجال كل ما حدث: انه قائد فصيلة للانصار وقد استدعوه بالطائرة الى موسكو. ولم تكلف ماشا نفسها بالتفكير في تصورها هذا: لماذا يقود فصيلة الانصار؟ ولماذا يستدعونه هو بالذات وعلى الطائرة؟ لقد قالوا لهم في المدرسة يوم امس ان طائرة نقلت من المؤخرة الالمانية الى موسكو قبل ايام عددا من قادة الفصائل الذين اخذوهم من المطار مباشرة، دون ان يغيروا ملابسهم، لكي يقدموا تقاريرهم في الحال.

كانت افكارها خلال هذه الشهور تصور لها سينتسوف في مختلف الرتب ومختلف الاماكن. وما اكثر تلك الرتب والاماكن التي تخيلته فيها! ولكنها الآن، منذ اللحظة الاولى، بعد ان وجدت هذا التفسير، وليس غيره، لظهور زوجها، لم تعد قادرة للتفكير باحتمالات اخرى.

افلتها سينتسوف ونهض قليلا واسند ظهره الى الجدار. فالتحرك يتطلب جهدا. وانطبع الشحوب على وجهه.

– ماذا حدث لرأسك؟ هل انت جريح؟

استعد لتوقع الألم فخلع القبعة بكلتا يديه. الا ان الشاش هذه المرة لم يلتصق بالقبعة، فلم يشعر بالألم، ولذا صدقت ماشا التي حدقت في عينيه مباشرة بكلامه عندما قال انه اصيب بخدش طفيف.

– هل تريد ان اجدد الضماد؟

قال بانه لا داعي لذلك. فقبل ثلاثة ايام ضمدوه حسب الاصول ومن الافضل عدم المساس بالضماد.

– ما هي اخبار ماما وتانيا؟ – سأل سينتسوف وقرأ الجواب على وجهها قبل ان تتكلم.

لم يسأل اكثر من ذلك. فما الداعي للاسئلة؟ ظل ممسكا بيديها عدة دقائق مثلما امسك بهما آنذاك، عبر سياج محطة بيلوروسكي، اثناء افتراقهما...

غدت ماشا اكثر نحافة، وقد حلقت شعرها باقصر مما كان، وخيل اليه وهو يراها في بزتها العسكرية بياقة قمصلتها العريضة بعض الشيء والتي لا تناسب رقبتها. انها تحولت فجأة من امرأة الى فتاة، ليس الى هيئتها قبل الزواج، بل الى تلك الفتاة التي ودعها سينتسوف في وقت ما الى الشرق الاقصى قبل ست سنوات.

وقال اخيرا:

– قررت مع ذلك الالتحاق بالخدمة العسكرية؟

– نعم.

– كنت اتصور ذلك. ولا اعتقد باني سألتقي بك هنا.

– ذلك يعني ان الباريء رتب لنا هذا اللقاء – قالت ماشا لاهثة. اعطوني اجازة اليوم فقط. ولم اكن هنا منذ شهر. وقد التقينا، انت بالذات وانا بالذات، في يوم واحد...

– يعني انه كانت هناك ضرورة قصوى لنرى بعضنا البعض – قال سينتسوف وانطبعت على وجهه المرهق تلك الابتسامة الطيبة التي تعرفها ماشا جيدا، ابتسامة انسان اكبر منها عمرا واكثر اطلاعا. – لا تستغربي. الافضل ان تحدثيني لماذا جئت ولماذا لم تأت الى هنا شهرا كاملا، وما هي طبيعة خدمتك واين؟

ابدت ماشا محاولة ضعيفة للاعتراض. فكل ما حدث لها ليس مهما بأية حال. ولكنه اخذ يدها بهدوء من الرسغ واوقفها برفق وبشيء من التسلط.

– سأحدثك عن كل شيء، ولكن تلك القصة طويلة. الافضل ان تذكري لي باختصار اين تخدمين؟ وهل كنت في الجبهة؟

تطلعت ماشا الى وجهه النحيل المتعب والى الغضون العميقة التى لم تشهدها سابقا على جانبى شفتيه المتشققتين، ونظرت الى عينيه اللتين انطويتا على شيء ما – لم تستطع ان تتفهمه، ولكنه لم يكن موجودا فى السابق – وادركت بانه يتعين عليها إما ان تقول له كل شيء او لا تقول له شيئا على الاطلاق. لقد بخلت بالكلمات لانها تعتقد بان الاهم هو ان تساعده فى الاغتسال والرقاد باسرع ما يمكن. فحدثته بايجاز عن نفسها وقد خرقت دفعة واحدة كل التوجيهات التى تلقتها فى المدرسة بشأن الالتزام بالصمت فى اى مكان واية ملابسات وامام اى انسان... واذا اردنا الحقيقة فهى لم تفكر بذلك الآن. فالملابسات التى وجدت نفسها فيها والشخص الذى تحدثت له عن ذلك كله ليس مما تنص عليه التوجيهات مهما كانت.

استمع سينتسوف اليها وهو ممسك بيديها كالسابق، ويشعر بين الفينة والفينة كيف ترتعشان فى راحتيه عندما تريد ماشا ان تقوم بايماءة او اشارة ما بيديها فى سياق الحديث. حدثته عن كل شيء ما عدا نقطتين: الاولى هى انهم سيرسلونها الى المؤخرة فى الايام القريبة القادمة، والثانية هى ان الشاحنة ستنتظرها عند ركن شارع بيروفوفكا فى تمام السابعة صباحا.

استمع اليها دون ان تتغير تعابير وجهه الا ان شحوبه ازداد كما يبدو. ولو استمع الى ذلك كله قبل ثلاثة اشهر، ناهيك عما قبل بداية الحرب، لربما احس بفظاعة ما ينتظر ماشا ولقال لها ذلك صراحة. ولكنه الآن، بعد كل ما عاناه، لم يتصور بان له الحق فى ان يقول لها ولا كلمة واحدة من هذا القبيل رغم القلق الشديد الذى ملأ فؤاده عليها. لقد رأى اثناء الحصار نسوة فعلن ما لا يقل عما تنوى ماشا فعله. فلماذا لا يحق لها ان تفعله؟ هل يجوز ذلك لانه يحبها ولا يحبهن؟

سيطر على اعصابه وقال عندما صمتت ماشا وتطلعت اليه بقلق شديد:

– لا بأس. ربما ستصادفين هناك، وراء الجبهة، احدا من معارفنا فيازما؟

– هل تعتقد بان الوقت لم يكن كافيا لتهجير سكان فيازما؟

– اعتقد بانه لم يكن كافيا – قال سينتسوف بصوت متهدج، فقد اثار هذا السؤال شجونه – اعتقد بان الوقت لم يكن كافيا لتهجير سكانها – كرر القول – ولتهجير سكان مدن اخرى – ثم قرب وجهه من وجهها وغير نبرة صوته فقال لها بصوت خافت هادئ وكأنما يخاطب طفلة صغيرة: – يبدو لى انك لا تتصورين ذلك بالشكل الكامل حتى الآن.

– هل انت تعب جدا؟ – سألته ماشا.

اغلق سينتسوف عينيه وفتحهما من جديد.

– هل كان الامر صعبا جدا؟

هز سينتسوف رأسه بايماءة خفيفة، فقد الم به الدوار فحاول ان يتمالك نفسه.

– متى وصلت بك الطائرة الى موسكو؟ اليوم؟ – سألته ماشا بصوت خافت وخيل اليها انه راح يتذكر شيئا عندما اغلق عينيه.

ولانها سألت بخفوت، ولانه كان يصارع الدوار فى هذه اللحظة، فقد فاته سماع الكلمة التى يمكن ان تدهشه: «الطائرة»، وسمع الكلمة الاخيرة فقط «اليوم» فهز رأسه بالايجاب بايماءة ضعيفة. وقالت ماشا:

– سأساعدك فى خلع ملابسك والاغتسال والنوم.

قالت ذلك وارتعبت من كلمة «الاغتسال» التى قد توحى له بانه لا يحبها بالقذارة التى هو عليها الآن، فالتقطت بتشنج يده الثقيلة التى تنتشر عليها الخدوش والكدمات وانهالت عليها بقبلات حرى، ثم رفعت بصرها اليه وقالت:

– سنغتسل، حسنا؟

وما الذى بوسعه ان يقوله؟

– طبعا، طبعا! – فما الذى يريده اكثر من ان تساعده هاتان اليدان الصغيرتان الرقيقتان القويتان اللتان كان يتذكرهما كثيرا فى خلع ملابسه واغتساله واضطجاعه على السرير؟

– حالما رأيتك وضعت الماء فورا على الطباخ ليسخن.

– وضعته فورا؟ ما اكثر حكمتك! – قال سينتسوف باسما.

– لست حكيمة. اردت فقط ان اساعدك. يبدو لى انك ضعفت كثيرا.

– نعم، ضعفت بعض الشيء – امسك سينتسوف بيدها الصغيرة النظيفة فى راحته القذرة، وشعر للحظة برغبة عارمة فى الضغط عليها لحد الألم.

– نسيت ان اسألك، ألا تريد ان تأكل شيئا؟

– كلا، لا اريد الآن – اجاب ودهش لانه احس فعلا بانه لا يريد طعاما الآن. – اذهبى الى المطبخ، وسأخلع ملابسى هنا وآتى – ثم رأى عبر الباب معطف ماشا العسكرى ملقيا على الطاولة واضاف: – اعطينى هذا المعطف لالقيه على كتفى.

انتظر حتى احضرت له المعطف وانصرفت، فشيعها بنظرته، ثم انزل رجليه الى الارضية واخذ يخلع جزمته.

ثم وقف في المطبخ في الطست المعدني بينما راحت ماشا تغسله كما تغسل الام اطفالها، وكما تغسل العجائز من خدم المستشفيات المرضى والجرحى.

عندما بدأت ماشا تغسله لاحظت في الحال حزين احمرين على جنبه.

– هل جرحت؟ – سألته بصوت خافت فهز رأسه صامتا ومؤكدا بانه جرح.

– اعطيني، رجاء، قدحا من الماء – قال سينتسوف بعد ان طوقته ماشا من ابطه كالمريض واسندته بكتفيها واوصلته الى السرير واجلسته عليه.

ولما ذهبت ماشا لاحضار قدح الماء رقد سينتسوف على شرشف نظيف بطيات غير مكوية والتحف بشرشف آخر وعليه البطانية، وفوق البطانية معطف ماشا. لمس باصابعه القميص القطني النظيف الذي ارتداه بعد الاستحمام، ثم تشممه ففاح منه عطر القولونيا الذي يعرفه جيدا. فالقميص بقي عدة شهور مع حاجيات ماشا. وكان قميص آخر، مثله، قد وضع على الوسادة بدلا من الشرشف.

احضرت له ماشا الماء فشرب، وفي تلك الاثناء اغلقت ماشا الباب ورفعت ستارة النافذة، ثم اخذت منه القدح وخلعت ملابسها على عجل ورقدت قربه ودست اذيال المعطف تحت جنبها الذي استشعر بردا.

– لماذا لا تنام؟ انك متعب جدا على ما اعتقد.

– متعب، ولكنني لا استطيع ان انام.

– لماذا جلست؟

– الكلام اسهل بهذه الوضعية. يجب علي، اريد ان احدثك...

– فيما بعد. الافضل ان ترقد. فانت متعب. انني اخاف عليك. فانت متعب جدا. وربما تزعجك الاضواء الكاشفة وتمنعك من النوم. سأنهض وانزل الستارة...

– لا يزعجني شيء.

– اذن غط كتفيك. اسحب المعطف. والا فستصاب بالبرد. هل انت مصر على الجلوس؟

– نعم... ربما لا تعرفين مدى اهمية التقائي بك اليوم...

– لماذا؟

– كلا، لا تعرفين. ولن تعرفي ما لم احدثك عن كل ما حدث لي. وبعد ان احدثك ستعرفين، بل انك لا تتصورين مدى شكري العميق لك الآن.

– شكرك؟ على ماذا؟

– على حبك لي.

– سخافة! هل يجوز الشكر على الحب؟

– اجل، يجوز.

احست بانه منفعل لشيء آخر بالاضافة الى لقائهما، ولكنها لم تتمكن من فهم ماهيته. لقد كانت هي بذاتها مفعمة بشعور الامتنان له لانه حارب وجرح وظل على قيد الحياة، ولانه موجود هنا، معها، من جديد... ولكنها لم تفهم حقا سبب شكره لها. من المستبعد ان يكون ذلك بسبب تقبيلها يديه وغسلها رجليه او حبها له كالسابق بل واكثر. فذلك شيء طبيعي على اية حال. وهل يمكن للامور ان تكون على نحو آخر؟

اما هو فقد احس فعلا بشعور من الامتنان العميق لها على قوة حبها ولانه، بعد ان تلمس هذه القوة من جديد، صار قادرا على ان يحدثها عن كل ما يعذب روحه لدرجة تكاد تقربها من الموت.

تنهد وابتسم في الظلمة وكأنه يودع بهذه الابتسامة كل ما حدث بينهما في هذه الليلة من طيبة ورقة وحنان. اما هي فلم تر هذه الابتسامة، ولكنها شعرت بها فسألت:

– هل تبتسم؟ لمن تبتسم؟

– لك.

وفي الحال غدا جادا وقال بان ثقتها ومساعدتها في هذه اللحظة الحرجة بالنسبة له هما اعز شيء في الوجود عنده.

– لماذا تقول اللحظة الحرجة؟

– اللحظة الحرجة – كرر، ثم سألها فجأة: – ما الذي فكرت به عندما رأيتني لاول مرة بهذه القمصلة والسترة الغريبتين؟ ربما فكرت بانني عائد من الانصار، أليس كذلك؟

– بلى.

– كلا، الامر اسوأ بكثير، اسوأ بكثير، بكثير.

ارتجفت وتوترت اعصابها، وفكر هو بانها ستسأله الآن عن معنى ذلك، ولكنها لم تسأله. واكتفت بان نهضت قليلا ثم جلست.

عندما كان هو يتكلم انتابتها قشعريرة داخلية، بينما هو، على العكس، كان طوال الوقت تقريبا يتكلم بصوت متوازن واطىء كان يمكن ان يبدو لها هادئا لو ان معرفتها بزوجها اقل مما هي عليه.

ورغم صعوبة الكلام، فقد تكلم عن ذلك كله بالتسلسل، من البداية، والا لما كان بوسعها ان تفهمه.

حدثها عن الليلة التي قضوها في ضواحي بوريسوف، وعن الجندي الذي جن وعن طريق بوبرويسك ومقتل كوزيريف وعن معارك موغيليف وعن الحصار الذي دام شهرين ونصف الشهر. تحدث عن كل ما شاهده وعاناه: عن صمود المقاتلين غير الهيابين وعن الاستغراب الشديد من فظاعة وسخف ما يجري، وعن الاسئلة الفظيعة التي تخطر بالبال: لماذا حدث ذلك؟ ومن المسؤول عنه؟

تحدث لها عن كل شيء دون ان يرأف بها، مثلما لم ترأف الحرب به شخصيا. صب عليها خلال هاتين الساعتين او الثلاث كل المرارة التي تجمعت في دخيلته وكل ثقل المصائب التي انهالت عليه طوال اربعة اشهر. صب عليها ذلك كله دفعة واحدة دون ان يعبأ بعدم التناسب بين قوة كلماته وبين مدى جهلها بواقع الامور، ذلك الجهل الكبير جدا رغم اطلاعها على الحرب من البلاغات والجرائد ورغم امتلاكها لبصيرة وسمع وتفكير سليم يؤكد لها ان كل ما يجري ربما هو اكثر فظاعة مما يتحدثون ويكتبون عنه. ولكن ذلك كله شيء، وما قاله سينتسوف شيء آخر تماما. فما قاله افظع واشنع بما لا يقاس.

جلست ماشا على السرير لكي تكبت القشعريرة وقد اصطكت اسنانها على طرف الوسادة الملفوفة بقميص زوجها بدلا من الشرشف.

لو كان بوسعه ن يراها لرأى وجهها شاحبا للغاية وقد اشبكت يديها وضغطتهما على صدرها وكأنها تتوسله صامتة بان يتوقف ويرحمها ويعطيها فرصة لتلتقط انفاسها. ولكنه لم ير وجهها. فقد راح يحدق في الجدار وقد تشبث بطرف السرير باحدى يديه ويشق الهواء امامه دون رحمة بيده الاخرى المكورة ويلفظ كل ما تكدس في فؤاده وما لا يستطيع قوله الآن لاحد غيرها.

وعندما تحدث عن المعركة الاخيرة في ضواحي يلنيا وعن السعادة التي اكتنفته في ليلة اختراق الحصار، في هذه اللحظة فقط تراخى وجهها المتوتر المتخشب فتأوهت بصوت خافت وتلك هي الدقيقة الاولى التي خف الثقل فيها على فؤادها.

– ماذا بك؟ – سألها.

– لا شيء، تكلم – قالت له بعد ان سيطرت على اعصابها وظنت بانها لن تسمع بعد ذلك شيئا فظيعا.

الا ان افظع شيء كان لا يزال ينتظرها. لم يلاحظ سينتسوف انها على شفا الخور النفساني فلم يرحمها، بل تكلم عن هذا الشيء الاكثر فظاعة: عن الدبابات التي داهمتهم على طريق يوخنوف وعن الحصار الجديد والاسر والهرب.

وقال انه يجلس امامها الآن على حقيقته: بكل ما عاناه وتحمله وقام به، وما لم يستطع ان يقوم به. واذا كان يتعين عليه، بعد ذلك كله، ان يتحمل مسؤولية مصيره المنحوس فانه مستعد لتحمل تلك المسؤولية مرفوع الرأس حيثما كان وامام اي كان، وخصوصا بعد ان رآها هي ماشا!

وفجأة رفع صوته وقال بتشنج في الحنجرة:

– ما شأن المصير هنا؟ انني ابصق على مصيري! ما قيمة مصيري اذا كان الذي يجري الآن لا افظع منه ولا اشنع. فمهما كان المصير يجب علي ان اذهب للقتال من اجل موسكو. هذا كل ما في الامر! من الذي قال بانه لا يحق لي ذلك؟ كلا، لي كل الحق فيه! ثم هناك سؤال آخر. – تهدج صوته نهائيا، فرأت ماشا لاول مرة انه فقد السيطرة على نفسه – لماذا لم يصدقني ذلك الملازم الاول عندما جئته وحدثته بكل شيء على حقيقته؟ لماذا لم يصدقني وهو الذي وصل توا من مفوضية التجنيد فلم ير شيئا ولم يقتل ولا المانيا واحدا؟ ذلك لانه لم يكن يريد تصديقي! لقد رأيت بنفسي انه لا يريد تصديقي! فلماذا؟ لماذا لا يصدقونني؟

– لا تنفعل!

– لا استطيع! – صاح وسحب يده عندما ارادت هي ان تلمسها. ولكنها سامحته على هذه الخشونة. وكيف لا تسامحه في مثل هذه اللحظة! وكرّرت عليه القول:

– لا تنفعل.

عندما اهتاج سينتسوف وصرخ الآن عاد اليها الهدوء فجأة، وغاصت في اعماقها اسئلتها التي كانت جاهزة وصراخها الذي يكاد ينفجر: كيف؟ لماذا؟..

– لا تنفعل – قالت للمرة الثالثة وقد احست بانها الآن، في هذه اللحظة اقوى منه رغم تجربته الفظيعة في الحرب، وان عليها ان تساعده – لماذا تقول ذلك يا حبيبي؟ لا تتكلم هكذا، لا داعي لذلك!.. – صارت تستعطفه بدلا من ان تجادله.

وذوبت رقتها قساوته. تراخى وابتعد عن الجدار وغرز وجهه في الوسادة وظل على هذا النحو راقدا بلا حراك فترة طويلة.

لمست ماشا كتفه. فقال سينتسوف بصوت مكبوت عبر الوسادة:

– تمهلي، لا تلمسيني! سأعود الى رشدي في الحال.

ظنت انه يبكي، ولكنه لم يكن يبكي.

– لماذا تقول بانهم لا يصدقونك؟.. – سألته ماشا بدلا من ان

ترد عليه مباشرة. فان كلماته بخصوص عدم تصديق الآخرين له قد هزتها اكثر من اى شيء آخر – كيف لا يصدقونك؟ وانا؟..

– اعذريني... – اعتذر ورقد على ظهره ولمس يد ماشا بحركة هادئة.

– انني لا اقصد...

– اعذريني مع ذلك!

لاذ بالصمت. وصمتت ماشا ايضا.

خيل اليه انها تفكر فيما ينبغي فعله الآن. ولكنها كانت تفكر في شيء آخر.

كانت تفكر بكل ما عاناه، وتسائل نفسها: هل تستطيع هي ان تتحمل ذلك كله لو كانت في مكانه؟ ربما لن تستطيع ان تتحمله... تذكرت كل ليالي السهاد التي كانت تتقلب فيها وتفكر بما يمكن ان يحدث له هناك في الجبهة. وكم مرة خيل اليها انه وقع في الاسر؟ تارة تتصور بانهم يطلقون النار عليه، وتارة تتصوره جريحا وهو يتلوع في الهذيان ويناديها: «ماشا! ماشا!» وتصطك اسنانه مقرقعة على حافة القدح المعدني. وها هي ترى ان كل ما كانت تفكر فيه حقيقة: اطلقوا النار عليه، اصابوه بجراح، اسروه، طلب ماء وصاح: «ماشا! ماشا!». وكاد «يختنق من العطش، ولا احد يضمد جراحه.

– لماذا انت صامتة؟ ما الذي يتعين على فعله في رأيك؟ – سألها سينتسوف.

اقتربت منه ووضعت رأسه المضمد على ركبتيها وقالت:

– لا ادرى. فربما تعرف انت افضل مني.

كانت بالفعل لا تعرف بم تجيب. ولكنها تعرف الامر الرئيسي، وهو انه يجب ان يشعر بمدى حبها له. وهذا هو الجواب الاكثر ضرورة له. فبعد ان احس بقوة دعمها الروحي له قال بايجاز وبساطة انه قرر نهائيا تقريبا قبل مجيئها ان يذهب في صباح الغد الى اللجنة الحزبية المحلية التي انتسب الى الحزب عن طريقها في حينه. سيذهب ويحدثهم بكل شيء، وليقرروا هم ما يرونه مناسبا. وهو الآن لا يخشى الا شيئا واحدا، هو ألا تحدث حماقة ما في اللحظة الاخيرة ولا تحتجزه في الطريق دورية ما.

– سأذهب معك – قالت ماشا في الحال قبل ان تدرك بانها لن تستطيع القيام بذلك: ففي الليل منع التجول، وفي تمام السابعة صباحا تأتي السيارة اللعينة لتأخذها!

– يعني انك ستأخذينني بيدك وتسلمينني كطفل صغير – ابتسم في الظلمة – حسنا، سنناقش ذلك فيما بعد.

وغدا من جديد كما كان عليه في السابق – كبيرا قويا هادئا.

– نسيت تماما احد الامور – يبدو انه ابتسم من جديد – هل لديك ما يؤكل؟ فأنا جائع كالذئب.

– لم لم تقل قبل الآن؟ فقد سألتك!

– لم اكن راغبا آنذاك. فقد عثرت هنا قبل مجيئك على قطعة خبز من عهد ما قبل الحرب. وبللتها بماء الحنفية.

– مسكين! في معطفي قليل من البسكويت وعلبة ولكني لا ادرى من اى نوع من المعلبات...

– ما الفرق؟ – ضحك سينتسوف – حتى ولو كانت الاسبرط المملح. سيشرب كل منا بعدها خمسة اقداح من الماء لا غير.

– ارقد انت، وسأذهب لاحضرها – قالت له ماشا وقد خفضت قدميها الحافيتين على الارضية.

– كيف ارقد؟! – قال سينتسوف وخفض قدميه ايضا.

نهضا، فالقت هي المعطف على كتفيها، بينما التف هو بالبطانية، وتوجها الى المطبخ وجلسا عند المائدة. اخرجت ماشا صرة البسكويت الذي بدأ يتفتت، بينما اخرج سينتسوف بصعوبة من الجيب الثاني لمعطفها علبة كبيرة. وقال ضاحكا:

– كنت افكر طوال الوقت: ما هذا الشيء الثقيل الذي يضغط على قدمي؟

– نسيتها تماما.

فتح سينتسوف العلبة بسكين المطبخ. جلسا قبالة بعضهما البعض واكلا اللحم المعلب وهما يبللان قطع البسكويت في صلصة العلبة. ثم احتسى سينتسوف بقية الصلصة وتطلع الى ماشا باسما.

– اعتقد ان مظهرنا الآن يثير الضحك ونحن جالسان في المطبخ الواحد مقابل الآخر باقدام حافية...

تثاءب ثم ابتسم معتذرا.

– هل تعلمين؟ حالما اكلت اصابني النعاس ككلب جائع... شيء مخجل.

– لا داعي للخجل.

ولكنه لا يشعر بالخجل فعلا قالت كاذبة على عجل بانها هي ايضا راغبة في النوم.

عادا الى الغرفة ورقدا كما تعودا فى الماضى عندما كانا يحبان النوم معا. اضطجع هو على ظهره باسطا يده اليمنى ورقدت هى على جنبها ضاغطة خدها على هذه اليد الكبيرة القوية التى تعانقها برفق. ولكنه حالما رقدا دوت فى السماء وراء النافذة اطلاقات المدافع الجوية المتزايدة الواحدة تلو الاخرى.

— لن نغفو الآن — قالت ماشا بخيبة امل وهى تقصده هو لا نفسها. فهى ليست راغبة فى النوم.

— لم لا ؟ — قال سيتسوف ناعسا — سنغفو فى الحال...

وبعد دقيقة احست ماشا بانه غط فعلا فى نوم متعب عميق. كان فى السابق ايضا يغفو بهذه السرعة، ولكنه كان يتنفس اثناء النوم على نحو آخر — برفق وتوازن.

لم تنم ماشا طوال الوقت الذى دوت فيه صفارات الانذار الجوى وطوال ساعة او ساعتين بعده. رقدت ضاغطة خدها على يد زوجها الكبيرة الدافئة، وهى تفكر بما حدثها به.

يصعب القول بانها لم تكن تعرف ذلك كله فى السابق. كانت تعرف وتسمع الكثير منه بصورة متقطعة من مصادر ثانوية. ولكن يبدو ان من اللازم لها ان تسمع ذلك كله دفعة واحدة ومن مصدره الاول — من هذا الرجل الراقد قربها، لكى تتحسس ضخامة الثقل الذى انهال ليس فقط على كتفيه وكتفيها، بل وعلى اكتاف جميع الناس، بالطبع جميع الناس. وذلك بالذات هو افظع شئ!

— ما افدح المصيبة! — قالت بصوت مسموع ولم تكن تعنى نفسها او تعنيه هو، كانت تقصد الوضع بمجمله، تقصد الحرب.

فكرت باحتلال فيازما وبالبلاغات الاخيرة فلامت نفسها بشدة لانها التحفت بالمشمع من جديد بعد تفتيش الهويات فى المخفر اليوم وسارت بها السيارة فى موسكو على هذا النحو دون ان تتطلع الى ما يجرى حواليها...

«كأننى امرأة لا يعنيها شئ من ذلك!».

عرفت من حديث زوجها ان عددا كبيرا من الناس قد قتلوا على مرأى منه خلال هذه الشهور الاربعة. لم يكونوا يفكرون بانقاذ انفسهم، بل كان همهم الوحيد هو وقف زحف الالمان. ومع ذلك احتل الالمان فيازما واقتربوا من موسكو. ولكى يمكن وقفهم يجب ان تبذل الآن جهود اكثر من التى بذلها اولئك الذين استشهدوا ولم يتمكنوا من وقف الزحف الالمانى! وعليها هى ايضا ان تفعل ذلك فى العمل الذى ستمارسه! فكرت بقلق شديد كيف

هزها حديث زوجها الى هذا الحد، فى حين يتعين عليها ان ترى ذلك كله بام العين، بل وربما ترى اسوأ منه ولا ترتعش ولا ترتجف!

تذكرت بانها لم تجمع حاجياتها بعد، وان من اللازم القيام بذلك طالما هو لا يزال نائما كيلا تسرق منه ولا دقيقة واحدة.

رفعت رأسها قليلا من على يده، فحنى هو يده المتخدرة وبسطها من جديد دون ان يستيقظ.

نهضت واقتربت من النافذة واسدلت الستارة وفتحت الباب قليلا على الدهليز دون ان تجد التصميم اللازم على القيام بشئ آخر. فعادت من جديد الى السرير، وجلست على المعطف الذى انزلق طرفه على الارضية وراحت تتطلع فى وجه زوجها النائم.

جبينه ندى ويداه ممدودتان بتراخ فوق البطانية. وعلى وجهه خطان عميقان غريبان من التجاعيد، ينحدران من جانبى الشفتين الى الذقن دون ان يفترقا حتى فى المنام، وكأنهما يشيران الى شئ دخل عنوة والى الابد حياة هذا الانسان الطيب القلب، دخل ولم يعد قادرا على الخروج.

وتذكرت ماشا الحقد القاسى الذى تحدث به عن الالمان فجعل بدنها يقشعر، ثم فكرت بهذه الليلة التى لم تنته بعد وتنهدت بهدوء. غدا او بعد غد يتعين عليها الوصول بالطائرة الى مؤخرة الالمان، ولكنها لم تخبره بذلك ولم تطلب منه ان يلتزم بالحذر ويصونها. كانت قد فكرت فى ذلك لحظة، ثم نسيته من فرط السعادة. ولكن ماذا لو كانت ستحبل فجأة؟ فما الذى سيحدث لها هناك اثناء ممارسة النشاط السرى فى مؤخرة الالمان؟ ينبغى عليها اليوم ان تترك الخجل وتسأل مفوض المدرسة عما يتوجب عليها فعله اذا حدث ذلك.

«اجل، اليوم، وبعد وقت قصير جدا» — فكرت وتطلعت الى ساعتها.

كانت الساعة السادسة. وحان موعد جمع الحاجيات.

فتحت ماشا الدولاب، فاخذت فى البداية من الركن الابعد ما اعتبرته مسبقا من اكثر الحاجيات ملاءمة — الفستان الصوفى الخشن القديم المرشوش بالنفتالين والذى كانت قد جلبته معها من الشرق الاقصى. ثم بحثت على الرفوف الاخرى واخذت منديل رأس اكله العث قليلا وبعضا من البسة امها التى يتعين تضييقها وتقصيرها.

لفت ذلك كله فى شرشف مائدة عتيق ووضعت الصرة على المائدة، واغتسلت بدون استعجال بحنفية المطبخ وتنشفت بمنشفة سميكة حتى احمرت بشرتها وشعرت بالدف،

ثم ارتدت بزتها بدون استعجال ايضا، ومشطت شعرها بصورة عشوائية بلا مرآة وتطلعت الى الساعة ثم جلست على السرير.

– ايفان! – غرزت انفها فى الوسادة قرب رأس زوجها ودفعت خده بخدها برفق – ايفان!

خيل اليها انه لن يستيقظ بسرعة، ولكنه استيقظ وجلس فى الحال.

– آه، هذه انت؟! – تطلع اليها بابتسامته الطيبة.

ثم رأى انها ارتدت ملابسها فسأل مرتعبا:

– انت ذاهبة؟ الى اين انت ذاهبة؟

اوضحت له ان السيارة ستأتى بعد نصف ساعة، فى السابعة، وستنتظرها فى ركن الزقاق، ولا يجوز لها ان تفوت هذه السيارة، لان مدة اجازتها حتى الساعة التاسعة صباحا.

– لا بد مما ليس منه بد... وربما سيكون ذلك افضل. ستذهبين انت، وسأنتظر حتى ينبلج الفجر كليا وسأذهب، كما اخبرتك البارحة. سأرتدى ملابسى. اخرجى للحظة، فأنا اشعر ببعض الخجل منك.

– سأدير ظهرى – اقتربت من النافذة وازاحت الستارة قليلا وتطلعت الى الخارج. الظلام لا يزال مخيما على الشارع – انت غريب الاطوار. البارحة لم تشعر بالخجل فماذا حدث لك اليوم؟

– تلك هى طبيعتى – قال وهو يرتدى ملابسه.

ذهب الى المطبخ وجزمته تطقطق على الارضية، بينما ظلت ماشا واقفة قرب النافذة تستمع اليه وهو يغتسل تحت الحنفية.

عاد الى الغرفة وعلق على ضلع السرير المنشفة المبللة وقال:

– اعطينى عنوانك مع ذلك. وسأكتب اليك عن النتيجة مهما كانت: هل سيصدقوننى ام لا؟ هل سيبعثوننى الى الجبهة ام لا؟ وهذا هو الاسوأ. – بذل جهدا فى تلفظ هذه الكلمات فظل صوته هادئا.

تحيرت ماشا. فبم تجيبه؟ هل تقول له بانها مسافرة غدا او بعد غد؟ لم تكن راغبة فى ان تقول له ذلك. هل تمتنع عن الجواب؟ لم تكن قادرة على ذلك.

– كم ستبقين هناك، فى المدرسة؟ – القى نظرة منحرفة على الصرة الموضوعة على المائدة – ما هذا؟

– جمعت حاجياتى، اعطونى اجازة لهذا الغرض – لم يتسع الوقت لماشا كى تفكر بكذبة ما.

– آ... مفهوم. يعنى انك مسافرة قريبا، أليس كذلك؟

هزت رأسها بالايجاب.

– اعطينى العنوان مع ذلك. هل هو رقم صندوق بريد ام هو بريد ميدانى؟

اقتطع قصاصة من جريدة صفراء كانت مستقرة على رف النافذة وسجل رقم صندوق بريد ماشا ببقية من قلم رصاص كانت على الخوان، ووضع القصاصة فى جيب القمصلة وقال ساخرا:

– هذه هى وثيقتى الوحيدة حتى اليوم.

ثم صمت قليلا، واضاف لكى يهدئ من روع ماشا:

– ربما سأتمكن بواسطة اللجنة المحلية من العثور على سربيلين. لقد حدثتك عنه.

هزت ماشا رأسها.

– اذا كان على قيد الحياة واذا كان موجودا هنا بالطبع فسيقول كلمة طيبة عنى. فكل كلمة ثمينة الآن بالنسبة لى.

– لا اتصور بان احدا يمكن ان لا يصدقك.

– اما انا فأتصور. – تطلع الى عينيها بنظرة مباشرة من عينيه اللتين بدتا غريبتين شائختين، طيبتين وغاضبتين فى وقت معا.

ثم سألها عن اخيها لانه لم يعد راغبا فى المزيد من الكلام عن نفسه: – كيف حال بافل؟ الا يزال فى تشيتا؟

– نعم. بعث لى رسالة مؤخرا.

– هل هو متأثر لانه لا يقاتل؟

– متأثر جدا... اسمع يا ايفان – قالت ماشا وقد شعرت الآن من جديد بانه كبير وهى صغيرة – ماذا سيحدث لموسكو؟

– لا ادرى. ليس بوسعى ان اعطى حكما. لا اريد ان اكذب. لا ادرى. ولكنى لا اعتقد باننا سنخسر الحرب! واذا كنت تفكرين باحتمال ذلك فانت على خطأ. كل ما حدثتك به هو الحقيقة بعينها. وانا نفسى اقول اننا لن نخسر الحرب! مطلقا!

قال ذلك بشدة بدا فيها شىء من القلق على ماشا: فهل ستتردد بسببه؟

– كلا. فان رأيى من رأيك – تطلعت ماشا الى عينيه مباشرة – اردت فقط ان اتثبت من مشاعرى.

وفجأة اكتسى وجهها بمسحة من الاغتراب والوحشة، لاحظها هو فى الحال:

– ماذا بك؟

– السيارة وصلت . انني اسمع صوتها .

ارتدت معطفها على عجل وتلفتت ثم بحثت عن المصباح اليدوي على المائدة ودسته في جيبها بتشنج وبعد ذلك فقط، وهي في المعطف والقبعة الشتوية، هرعت الى سيتسوف والقت بنفسها على صدره وتجمدت صامتة طوال دقيقة دون ان تقوى على التلفظ حتى بكلمة واحدة .

عانقها وتجاوز في تلك الدقيقة الشعور بالاغتراب التام عن كل ما كانت له صلة به شخصيا، عن كل مصائبه الماضية والمرتقبة . ولم يبق في فؤاده غير الخوف اللامتناهي على ماشا لانها ستحلق الى هناك، الى الالمان، ولان ذلك سيتم في القريب العاجل ولا توجد اية قوة تسمح له بمعرفة ما ستواجهه هناك، ولا بالقيام باي شيء اطلاقا لمساعدتها...

– الا تريد ان ترافقني الى السيارة؟ – سألته وهي تنفصل عنه – انها واقفة وراء الركن .

– كلا . لا اريد العاملين معك ان يروني . وعلى العموم لا داعي للتصارح مع اي كان ولا داعي للقول بانك التقيت معي . فقيما بعد، عندما اعود الى الحظيرة البشرية، كما يقال، بوسعك، ان تذكري هذا اللقاء اذا شئت . اما الآن فلا داعي لذلك . عملكم يتطلب اشد الحذر . وقد يمنعونك من الرحيل بسبب زوج من هذا النوع – قال بسخرية مرة وفكر للحظة بشيء من التشفي: «حبذا لو منعوك» .

– لا تتكلم على هذا النحو!

عانقها بسرعة مرة اخرى وقبلها واقلتها، بل ودفعها نحو الباب دفعة خفيفة . التقطت ماشا صرتها من على المائدة وخرجت من الغرفة الى الدهليز دون ان تلتفت .

ولكنها عندما فتحت باب الشقة لحق بها وادارها نحوه من جديد وسألها:

– قولي لي الى اين ستنقلك الطائرة؟ اريد ان اتصور على الاقل اين ستكونين .

– الى منطقة سمولينسك .

– خذي حذرك – قال بسرعة وبصوت متهدج متشنج – كوني مخادعة كالثعلب، كالشيطان، كابليس، ولكن لا تقعي في ايديهم. ارجوك، استعطفك، هل انت سامعة؟ استحلفك! لا اريد شيئا، لا شيء له قيمة، لا شيء... اريد ان تبقي حية فقط . هل انت فاهمة؟!

اخذ يهزها من كتفيها كالمجنون ويكرر هذه الكلمات التي قد تبدو لكليهما سخيفة في وقت غير هذا الوقت .

ثم هدأ فجأة وابتسم ومد لها يده وانتظر حتى تضع عليها يدها فضغط عليها بحنان ورقة ولكن دون ان يؤلمها .

– وداعا يا ماشا ! يا حبيبتي ... ماشا، ماشا ...

خفض يده واستدار وعاد راجعا الى الغرفة .

اغلقت الباب على عجل وركضت هابطة .

القت بنظرة من الباحة على نافذتها وهي راكضة . كانت النافذة مفتوحة على مصراعيها . وفي الفجر الرمادي الذي انبلج توا رأت وجه زوجها بلا وضوح . لم يلوح لها بيده ولم يصرخ . ظل واقفا قرب النافذة يشيعها بنظراته ...

في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم دخلت ماشا غرفة المرافق الصغيرة امام مكتب مدير المدرسة . لم يكن المرافق موجودا . انتظرت ماشا عدة دقائق وتنهدت وعدلت من وضعية قمصلتها وطرقت الباب .

– ادخل ! – بلغها صوت من الداخل .

دخلت . ماشا واغلقت الباب وقالت ما تعودت على قوله خلال ثلاثة اشهر من الدراسة في هذه المدرسة:

– ايها الرفيق العقيد، هل تسمح لي بالكلام؟

– مرحبا، يا ارتيميفا – رفع الشخص الجالس وراء الطاولة رأسه عن الاوراق المعروضة امامه – ماذا تريدين؟

– مسألة شخصية، ايها الرفيق العقيد .

– راجعي المفوض .

– المفوض سافر الى موسكو، ايها الرفيق العقيد، وقضيتي مستعجلة .

– اجلسي اذن . انتظري – وغاص العقيد شميليف في اوراقه من جديد .

– ربما اعيقك عن العمل ايها الرفيق العقيد؟ – قالت ماشا .

– لو كنت تعيقينني لقلت لك ذلك – اجاب شميليف دون ان يرفع رأسه عن الاوراق فجلست ماشا على كرسي قرب الجدار .

العقيد شميليف شخص جديد على المدرسة . فالمدير السابق اختفى من المدرسة قبل اسبوع . وقيل انه استقل الطائرة بمهمة خاصة . وفي اليوم التالي

حل محله شميليف . وصل من المستشفى بعد اصابته بجراح . وراح يجوب اروقة المدرسة على عكازين بسرعة ومهارة ليجرب المشي على رجله الجريحة .

وفي اليوم الثاني ادهش التلامذة بذاكرته العجيبة في حفظ اسماء الاشخاص وتذكر وجوههم . ومع ذلك فلم تعجب به ماشا على العموم . فهي تعتقد بانه انسان مرح جدا ومحب للكلام، بل وطائش عموما بالنسبة للعمل الذي يتدربون عليه هنا . واثناء الكلام يتلعثم احيانا بشكل يثير الضحك ويهتز رأسه ويغمز بعينيه . ماشا تعرف ان هذا الغمز ليس على سبيل النكتة اطلاقا، بل هو نتيجة لاصابة قديمة في الرأس . ورأت ماشا وسامي الراية الحمراء على قمصلة العقيد، وهي تعرف بانه جرح في الجبهة خلال هذه الحرب . ومع ذلك فلم تكن تميل الى مراجعته . ولو كان ما تريد الحديث عنه يتحمل تأجيلا الى الغد لانتظرت من كل بد عودة المفوض الذي نادرا ما يبتسم ويتكلم . فهو يحظى بثقة اكبر لديها .

جلست تنتظر وتتطلع الى شميليف . فهو الآن لا يتلعثم ولا يغمز ولا ينكت . جلس يكتب صامتا وقد ارتدى نظارات لم تكن ماشا قد رأته فيها . ولاحت خصلة كثيفة شيباء بين شعره الاجعد المكور . وكان وجهه الباسم المتغير المليء بالالغاز متعبا الآن ومتجهما شائخا .

تنهد شميليف مرتين بصوت عال وربما نسى وجود ماشا، وقطب حاجبيه ومسح جبينه بشدة وكأنه يطرد افكارا ثقيلة وواصل الكتابة .

لم تخبر ماشا احدا، بعد، بانها التقت بزوجها . وردا على سؤال تيوما القلقة التي كانت تنتظرها قرب السيارة – ماذا حدث؟ – اجابت بانها رقدت ونامت حتى الصباح .

لم تستعد حالتها الطبيعية الى النهاية حتى الآن، وقد سرت لان المدير هيأ لها هذه الفرصة غير المقصودة لالتقاط الانفاس .

انجز شميليف كتابة الورقة واغلق الظرف ودق الجرس فاستدعى المرافق وامره بان يوصل الرسالة الى نائب مدير المدرسة الميجر كاربوف ويخبره بان يرتحل حسب الامر الذي استلمه سابقا .

بسبب تدهور الوضع في ضواحي موسكو صدر الى الميجر كاربوف امر بتسلم مبان احتياطية للمدرسة قرب احدى محطات سكة حديد غوركوفسكايا . ولم تكن ماشا تعرف بذلك . ولكن شميليف بدأ منذ مساء امس بالاستعداد لنقل المدرسة، وكان مزاجه متعكرا جدا .

– اقتربي يا ارتيميفا – قال المدير بعد خروج المرافق، ونقل عكاز

المستند عند الجهة اليمنى من الطاولة الى الجهة اليسرى . قربت ماشا الكرسي وجلست فسألها : ماذا تريدين؟

ارتعش رأس شميليف وغمز بعينه اليسرى، الا ان هذه الغمزة كانت متعبة كالحة وليس مرحة كما هي العادة .

– كنت امس في اجازة، في موسكو، ورأيت زوجي هناك ... – بدأت ماشا كلامها .

– لقب زوجك سيتسوف، أليس كذلك؟ – قال شميليف وتغضن جبينه بعض الشيء – ايفان ... ايفان ابن ....

– ... ابن بتروف . ايفان بتروفيتش . – اضافت ماشا بصوت منهار . فقد خيل اليها ان شميليف يعرف عن سيتسوف شيئا فظيعا لا تعرفه هي .

– مسؤول سياسي التحق بالجبهة، ولم تكن لديك حتى الآن اية معلومات عنه، اما الآن فقد رأيته، ويعني انه عاد الى موسكو... – واصل شميليف كلامه .

– اجل، عاد – قالت ماشا تعذبها الظنون . فما هو الشيء المجهول لديها والذي يعرفه شميليف عن سيتسوف؟

الا ان شميليف لم يكن يعرف عن سيتسوف شيئا غير ما هو مسجل في صحيفة اعمال ماشا . وصحيفة الاعمال هذه مع صحيفتين اخريين موجودة في جرار الطاولة . فقد تعين هذه الليلة انزال ثلاثة من تلاميذ المدرسة الى مؤخرة الالمان، ولذا اطلع شميليف مرة اخرى على صحيفة الاعمال الخاصة بكل منهم قبل ان يتحدث معه .

– يعني ان زوجك عاد . ثم ماذا؟

لم تكن المرأة الشابة الجالسة امام شميليف بمحياها الطفولي الشاحب والحازم شبيهة بامرأة تريد ان تطلب منه عدم ارسالها بالمهمة لان زوجها عاد اليها . فلماذا جاءته اذن؟ ولماذا هي مضطربة مع انها تحاول السيطرة على اضطرابها؟

– اولا – بدأت ماشا بصوت مرتعش عبارتها التي اعدتها منذ ان كانت في طريق العودة من موسكو – ماذا علي ان افعل اذا اتضح هناك، بعد الانزال، باني حامل؟ انني اعرف بانه لم يكن لي حق في ذلك، ولكن ماذا يجب ان افعل اذا حدث ذلك؟

وتلك هي القضية – فكر شميليف – يعني انها ارتعبت، ولا تريد السفر اذن!

كان يفتخر بمعرفته بالناس، وقد استاء لانه اخطأ هذه المرة .

– يعنى انك لن تتمكنى من تنفيذ المهمة، أليس كذلك؟

اهتاجت ماشا:

– كيف يخيل اليك هذا، ايها الرفيق العقيد؟!

– بوسعى ان اتخيل كل ما يمكن تخيله – قال شميليف وقد ادرك ان انطباعه الاول صائب والثانى خاطئ، ففرح لذلك .

– ليس ذلك ما تطوعت من اجله عند الالتحاق بالمدرسة – احست ماشا بان وجهها يلتهب .

– انا افهم بانك تطوعت ليس من اجل ذلك – قاطعها شميليف . وهو يريد مساعدتها هذه المرة – واذا كان الامر كذلك، واذا كنت تنوين اداء ما تم اعدادك له فلماذا تسأليننى؟ فأنا لست طبيبا ولست قارئ كف .

– اننى اسأل لان ذلك ربما يعيقنى هناك – قالت ماشا وقد شعرت بالهدوء من اللهجة الشديدة بالذات التى تكلم بها شميليف – فماذا على ان افعل حينئذ؟ سأفعل اللازم .

– كل شيء يمكن ان يعيق العامل فى المخابرات اذا كان ينصاع للملابسات، ويصعب ان يعيقه شيء اذا تمكن من اخضاع الملابسات . يمكن ان تمارس المخابرات المرأة المرضع والعجوز والاعمى والاصم والمعوق . ذلك سلاح ذو حدين يمكن استخدامه ضد العدو وضد النفس . كل شيء يتوقف على الانسان وعلى الصعوبات التى هو مستعد لتحملها فى سبيل القضية . – صمت شميليف ثم اضاف : – اعرف حادثة اضطر فيها الاستطلاعى الى كسر رجله فعلا لانهم اشتبهوا بانه قبل يتظاهر بانه اعرج .

نظرت ماشا عفويا الى عكاز شميليف المستند الى الطاولة .

– حدث ذلك من زمان، وليس لى – قال بعد ان تلقف نظرتها – انى كمدير المدرسة لا اعتبر مسألتك ذات اهمية من حيث الخدمة، واذا كنت تريدين مشورة بهذا الشأن باعتباره قضية شخصية فبوسعك ان تتحدثى مع طبيبتنا، وهى امرأة لحسن الحظ .

«انسانة نزيهة – فكر شميليف وهو يتطلع الى ماشا – يمكن ارسالها، ولن تخون» .

اعتبر شميليف المسألة منتهية، فقال لماشا بانه سيستدعيها مرة اخرى للتحدث فى شؤون الخدمة، وهم بان يصرفها، الا ان الحديث بالنسبة لماشا كان فى بدايته فقط .

وبدلا من ان تنهض ماشا وتنصرف قالت بانها لم تذكر، بعد، الشيء الاهم . تطلع شميليف الى ساعته خلسة، فالوقت ثمين . الا ان شيئا ما فى صوت هذه المرأة منعه من مقاطعتها . تزحزحت ماشا مع الكرسى الى الامام وشبكت يديها وبدأت تتكلم .

شميليف يجيد الاستماع الى الآخرين ولم يتعود على الاستغراب . فهو يجيد الاستماع الى درجة تجعله يبذل جهدا للسيطرة حتى على اضطرابه العصبى اذا احس بان ذلك يمكن ان يعيق الحديث . وبديهى ان ماشا لم تستطع ان تثير دهشته بحديثها عن زوجها الذى بحث اولا عن وحدته ثم قاتل فى وحدة غريبة، وخرج من حصار ووقع فى حصار آخر، وكان اسيرا وهرب من الاسر ووصل اليها فى آخر الامر .

ان حبكة هذه القصة معروفة جيدا بالنسبة لشميليف الذى سمع مثلها من الآخرين، كما انها معروفة لديه شخصيا لانه تمكن من عبور خط الجبهة مرتين ذهابا وايابا .

الا ان المغزى الفاجع لما قالته هذه المرأة الشابة الجالسة امام شميليف قد لقى صدى فى فؤاده لانه رأى فى مؤخرة العدو اشياء اسوأ مما سمعته هذه المرأة عن زوجها، وتذكر لحظات لم ينقذه فيها من اتخاذ قرار خاطئ الا التحمل والخبرة .

يعتقد شميليف ان الحالة التى واجهها زوج هذه المرأة كانت عسيرة حقا، وحتى لو تصرف هو فى الاخير ليس بالشكل الافضل فلا يجوز القاء الذنب عليه وكأنما ليس هناك مذنب آخر غيره .

ولكن ماشا عندما حدثت شميليف عن كيفية وصول سيتسوف الى موسكو وتطلعت اليه بعينين تنشدان تأكيدا منه بان كل شيء سيكون على ما يرام فى آخر المطاف فانه لم يتمكن بان يتعهد لها بذلك . فاذا وقع زوجها فى ايدى اناس طيبين غير متحجرين فانهم سيبعثونه الى الجبهة وسيحارب . اما اذا وقع فى ايدى اناس متحجرين غير طيبين فالامر يبقى مشكوكا فيه . ولا احد يعرف الخاتمة مع امثال هؤلاء!

كانت ماشا تتكلم وتتطلع الى شميليف وتحس بازدواجية غريبة بين التأكيدات التى يكررها بين الحين والآخر: «اجل، اجل»، «نعم، نعم»، وبين تعابير الاستياء التى ارتسمت على وجهه اثناء ذلك .

وعندما قالت كل ما لديها وسألها عما اذا كانت قد انتهت واجابته بانها انتهت وقال بايجاز: «حسنا، بوسعك ان تنصرفى» فكرت فى نفسها:

كلا، ليس حسنا. انه، مثلها، يريد ان يكون كل شيء حسنا، ولكنه لا يدري هل سيكون حسنا بالفعل، رغم تأكيداته «اجل، اجل»، «نعم، نعم».

همت ماشا بالانصراف عندما اوقفها شميليف بعد ان صمم على قول ما كان يفكر به طوال الوقت وهو يستمع اليها:

— اسمعي، كل ما حدثتني به عن زوجك لا داعي لذكره لاحد بعد الآن. وانا اقول لك ذلك بصفة رسمية. فأنا اعرف ذلك وآخذه بعين الاعتبار، وليست هناك حاجة لاحد، غيري، ان يعرف بذلك. مفهوم؟

لم تفهم ماشا تماما السبب الذي جعله يقول ذلك، ولكنها شعرت بالارتياح لانها لم تعد بحاجة الى تكرار اعترافاتها.

— مفهوم.

— في الساعة الخامسة بعد الظهر تعالي الي مع مدرب مجموعتك! اذهبي!

خرجت ماشا، وظهر المرافق في الباب فقال له شميليف:

— انتظر.

كان منفعلا، فأراد ان يبقى لوحده بضع دقائق.

شميليف لا يعرف الخوف تقريبا عندما يكون مسؤولا عن نفسه. ولكنه لا يحب كثيرا تحمل المسؤولية عن الآخرين.

وخلال هذه الثواني القليلة مرت بباله بلمح البصر طائفة كاملة من الاعتبارات المتلاحقة. هل يتعين عليه الغاء سفر هذه المرأة الى مؤخرة الالمان بعد كل ما سمعه؟ انه شخصيا واثق منها، وليس لديه سبب في الغاء سفرها، ولكن يمكن الغاء هذه الرحلة لان الآخرين في المدرسة ربما يكون لهم رأي مغاير بهذا الخصوص.

وفكر شميليف: «وماذا ستظن هي نفسها؟ كنا مستعدين لارسالها ولم نرسلها. ستكون تلك مأساة بالنسبة لها. وحتى لو لم تكن تعلم بأن عليها ان تسافر اليوم فانها ستنتظر السفر قريبا يوما بعد يوم، ولكننا لا نرسلها، فتتصور باننا لا نثق بها. وهذا اسوأ شيء بالنسبة للاستطلاعي العامل في المخابرات. ذلك يمكن ان يجعله غير صالح لهذه المهنة اطلاقا».

واذا حدث شميليف مفوض المدرسة (الذي كانت ماشا تفضله على شميليف) بما سمعه اليوم من التلميذة ارتيميفا فان هذا المفوض، وهو رجل طيب في اغلب الظن ولكنه شكلي جدا في مثل هذه الحالات، سوف يقترح من كل بد تأجيل سفر ارتيميفا. وسيفعل ذلك بشكل لا يدع مجالا لشميليف كي يصر على رأيه. واذا لم يقل شيئا عن ذلك بنفسه لمفوض المدرسة واذا

فضحت ارتيميفا ذلك فان شميليف سيكون في موقف حرج جدا لانه لم يبدأ بالحديث مع ارتيميفا، بل ولم يطلع احدا على هذا الحديث.

وبالرغم من ذلك كله يجب ارسالها. فهذا ضروري للقضية، وضروري لها شخصيا، وليست هناك اية اسباب تحول دون ارسالها!

«سأرسلها! — فكر شميليف بغيظ — ساتحمل المسؤولية وارسلها، بدون اية ثرثرة مسبقة!»

كانت حصيلة هذه الافكار هي الهتاف الذي اوقف به ماشا عند الباب.

والآن، وبعد ان فعل ما صمم عليه، وانصرفت هي، سخر شميليف من نفسه بمرارة. انظروا الى مدير المدرسة الهمام الذي صمم على القيام بعمل عظيم وهو ارسال مخبره الذي يثق به الى المكان الذي يعتقد بضرورة ارساله اليه!

وتذكر شميليف آمره الذي وجه له في معركة خالخين-غول لوما لا ينساه مدى الحياة: «واسفي عليك ياشميليف! انت عسكري تحمل وساما على الصدر، وصدرك اخترقته الرصاصات، ولكن ليس لديك ذرة من الشجاعة الادبية».

صحيح ان الآمر لم يكن محقا بخصوص «الذرة» آنذاك. ولكن الآن، حيث تحمل، ايها العقيد شميليف، وسامين للراية الحمراء على الصدر، وتحمل على كاهلك سلسلة جديدة من المخاطر التي اجتزتها، وحيث الالمان يهددون موسكو، ألم يحن الوقت لتبدي ما لديك من شجاعة ادبية. واذا لم تكشف عنها الآن فمتى يا ترى؟

خالخين-غول! ما اقصى المصير! فبعد ان رأى بام العين كيف تم سحق اليابانيين هناك، في تلك الحرب، تعين عليه ان يعاني بعد عامين ما عاناه آنذاك، وان يحلق بالطائرة عبر الجبهة الى الجيوش المحاصرة ويرتب عمل المخابرات السرى في مدن لم يتصور حتى في ابشع الكوابيس باننا سنسلمها الى الالمان! ويتفطر الفؤاد ألما لمشهد طوابير اسرانا يملأون الطرق بالآلاف وكوكبات الدبابات المحترقة، تلك الدبابات التي سجلت النصر آنذاك في معركة باين-تساغان!

اجل، انه الآن يرى الكثير مما حدث في خالخين-غول بمنظار آخر يختلف عن السابق. وهو الآن ايضا لا يعتبر الجندي الياباني اسوأ من الجندي الالماني. ومهما يكن من شيء فقد كنا متفوقين مرتين، ان لم نقل ثلاث مرات، من حيث الآليات. اننا نتحسس الآن بجلودنا ما يعنيه ذلك!

وفكر شميليف: «على العموم حان الوقت لمواجهة الحقيقة كما هي عليه. حان الوقت من زمان. ولو كنا قد واجهناها حتى النهاية، حتى اللحظة

الاخيرة بعد الحرب الفنلندية مباشرة، ولو استخلصنا الاستنتاجات اللازمة، وهذا هو الاهم، لسار كل شيء الآن على نحو آخر. ولكن لا يزال حتى الآن متسع من الوقت لمواجهة الحقيقة، بل ومن الضروري والواجب مواجهتها وعدم التهرب منها!».

فكر، بأسف شديد على نفسه، بانهم في المدرسة لا يذكرون، بعد، حقيقة الموقف بالشكل اللازم. لا يذكرون تلك الحقيقة حتى للذين سيقومون غدا بانزالهم في مؤخرة الالمان والذين سيواجهون ليس فقط واقع الامور الفعلي، بل وكذلك الاشاعات المبالغ فيها عن الوضع والدعاية والافتراءات. سيواجهون ذلك وهم على استعداد له اقل بكثير من استعداد هذه المرأة التي انصرفت توا من مكتبه. يجب تغيير هذا الوضع. يجب اطلاع العاملين في المخابرات بشكل آخر، بصدق اكبر وشجاعة اكثر.

انكمش وجه شيليف وهو يفكر بالعراقيل الكثيرة، الصغيرة والكبيرة، التي يتعين عليه تذليلها اذا اقدم على ذلك. فاسهل من ذلك، بالنسبة له شخصيا على الاقل، ان يعالج قدمه ويستقل الطائرة من جديد ويعبر خط الجبهة ويؤدي مهمة اخرى من تلك المهمات الخطرة التي تعود عليها والتي لا يخشاها عموما!

عبرت الطائرة خط الجبهة من زمان، واقتربت من سموليتسك حسب مؤشر الزمن.

الريح شديدة في تلك الليلة والطائرة تتمايل وتدخل السحب تارة وتخرج منها تارة اخرى.

وفي الاسفل انبسط سواد رتيب. كل شيء معتم، فلم تر ماشا عبر الكوة الجانبية غير نقاط ضوئية مرقت بضع مرات في مكان ما في الاسفل البعيد. في احدى المرات كانت النقاط الضوئية كثيرة، بسلسلة كاملة. وفكرت ماشا في البداية ان تلك قرية، وبعد ذلك ادركت انها سيارات المانية تسير على الطريق. فان منطقة سموليتسك صارت بالنسبة للالمان مؤخرة عميقة فلم يعودوا يموهون مصابيح السيارات.

في الساعة الاولى من طيرانهم الى الجبهة وعبورها كانت ماشا تتحدث مع رفيقي الطريق، الفتى والفتاة اللذين يتعين انزالهما ابعد منها. وبعد ذلك لزموا الصمت. لم يكن اي منهم يريد ان يكشف عن اضطرابه، فجلسوا

في آخر المطاف على انفراد بين صناديق المتفجرات واكياس المواد الطبية التي تغص بها الطائرة. الفتى والفتاة يحلقان معا وينبغي ان يهبطا معا ايضا. انبطحت ماشا على كيس المواد الطبية وراحت تحسدهما، فالهبوط معا ليس كالهبوط على انفراد.

الساعة الآن الثانية عشرة. ليلا. وقد مر يوم واحد على دخولها الشقة ورؤية سينتسوف.

ضيقت جفونها وحاولت ذهنيا ان تجمع في حزمة واحدة كل ما حدث، كل ما قالته هي وما قيل لها اثناء هذا اليوم الذي لا نهاية له. حاولت ولكنها اخفقت: فقد تشابك كل شيء ثم تفكك. فتارة ترى وجه سينتسوف القاسي وهو يتحدث لها عن الالمان، وتارة تتذكر كيف حفظت عن ظهر قلب ما املاه عليها المدرب من معلومات اخيرة: الشارع والمنزل وكلمة السر، وتارة يلوح امام عينيها وجه العقيد المتأمل وهو يقول لها: «اجل، اجل، نعم، نعم»، وتارة ترى المتاريس التي لم تكن موجودة في الصباح ولكنها ظهرت في المساء عندما غادروا المدرسة الى المطار، وكذلك الحزمة الضوئية المنبعثة من مصباح يدوي سلط على وجهها هناك.

ثم تذكرت من جديد العقيد وهو يسألها فجأة، في المساء، «قبيل الرحيل»، عن اخيها الذي خدم عنده ابان معركة خالخين-غول. قالت له ان اخاها في تشيتا، فوضع العقيد كلا عكازيه تحت ابط واحد ووضع يده الاخرى على كتفها وقال بصوت خافت لا يسمعه غيرها: «لا تقلقي بخصوص زوجك. كل شيء سيكون على ما يرام!». وشد على يدها طويلا وبدلالة كبيرة كما خيل اليها. فما الذي يقصده بتعبير «كل شيء سيكون على ما يرام»؟ هل كان يريد تهدئتها فقط، ام انه استفسر وعرف شيئا ما؟

واثناء التوديع هز مفوض المدرسة ايضا يدها وقال بصوته الجهوري: «تذكري يا ارتيميفا: كل الذين ظلوا هنا يحسدونك. كل شبابنا من هذا النوع! انهم تواقون الى القتال دون ان يبخلوا بحياتهم. كل واحد منهم يتحرق الى القتال». ومع انها معجبة عادة بالمفوض وبالكلمات التي يقولها، فانها لم تعجب في هذه اللحظة لا بالمفوض ولا بالكلمات التي قالها. فهذه الكلمات لم تكن تناسب ما يعتمل في فؤادها مع انها كانت مصممة على السفر ولا تريد البقاء ولا تبخل بحياتها. ولكن ذلك كله يختلف عن الكيفية التي تحدث بها المفوض.

والآن، بعد ان ادركت بانها تقضي الدقائق الاخيرة في الطائرة، شعرت برعب شديد. شديد للغاية! كانت حتى الآن تتصور نفسها شجاعة بالفطرة

ولم تفكر مطلقا بانها يمكن ان ترتعب الى هذا الحد عندما تتصور الفضاء الاسود المجهول المحلق تحت قدميها والذى ستقفز اليه من الطائرة بعد لحظات.

سلم قائد الطائرة مقودها الى الملاح الثانى وخرج من القمرة فقال لماشا بانهم سيحلقون فوق النقطة المطلوبة بعد ثلاث دقائق.

نهضت ماشا من ارضية الطائرة.

فحص الطيار المظلة وسأل من ماشا بصوت عال مقربا فمه من اذنها:

– ما اسمك؟ – سألها وكأن ذلك اهم شيء فى اللحظة الاخيرة.

«فيرونيكا» – تذكرت ماشا اسمها الجديد ولكنها قالت وكأنها تودع الماضى:

– ماشا.

اقترب الطيار من الباب وسحب المزلاج فانفتح الباب واندفعت هبة من الهواء البارد بشدة الى داخل الطائرة.

خطت ماشا خطوة واحدة نحو الباب الا ان الطيار اوقفها بيده وظل واقفا بضع ثوان ويده على كتفها.

رن جرس فى الطائرة واعطى الملاح اشارة من القمرة ولكن يد الطيار ظلت على كتف ماشا.

رن الجرس ثانية. رفع الطيار يده وقال:

– هيا!

اقتربت ماشا من الباب وكادت تسقط الى الخلف من شدة الريح، ثم انحنت وخطت نحو الفراغ.

وكان آخر ما سمعته فى الطائرة هو الجرس الثالث الضعيف الذى انقطع فى اذنيها حالما رن.

الفصل الثالث عشر

عندما اقترب سيتسوف من مبنى اللجنة المحلية كان الشارع خاليا والجو باردا. ومن جهة دير نوفوديفيتشى ارتفع الى السماء عمود شفاف من الدخان. فقد كان هناك شيء لا يزال يحترق بعد القصف الجوى الليلى.

فى ركن شارع سادوفايا تعثر سيتسوف حيث وقعت قدمه على سجل تلفونات ملقى على قارعة الطريق وقد احترق نصفه وهو مفتوح على الحرف «س».

انحنى سيتسوف على السجل فقرأ على صفحته المفتوحة:

«سيتوفيتش أ. ب.

سيتوفيتش اى. أ.

سيتوفيتش ى. ف ...»

ركل السجل ورفع بصره. فرأى قمرة جهاز تلفون وقد تحطم زجاجها وقلعت سماعتها وتدلى جزء من سلكها.

كانت الريح الباردة تتلاعب فى قصاصات الاوراق المتفحمة فى عرض الشارع. وقرب حانوت الاغذية الذى انفطرت احدى واجهاته الى قصفين وتحطمت الواجهة الثانية عن آخرها وقف ثلاثة مناوبين: رجل مليشيا ومدنيان متمنطقان ويحملان بندقيتين. اراد سيتسوف ان يقترب منهم ولكنه تذكر بانه ليس لديه هوية ويمكنهم ان يحتجزوه فابتعد على عجل.

بعد خمس دقائق توقف امام مبنى عريق من طابقين، كان سابقا بلون اصفر واعمدة بيضاء ولكنه الآن مسود كله ببقع رمادية على اخضرار.

سحب سيتسوف المقبض المعدنى البارد ودخل بعد ان لاحظ سيارة واقفة قرب مبنى اللجنة المحلية وينقل اليها شخصان اكياسا مختومة بالشمع الاحمر.

وعند الحاجز الخشبى فى البهو وقف رجل مليشيا وعلى كتفه بندقية.

– ماذا تريد؟ – سأله رجل المليشيا .
– اريد مراجعة اللجنة المحلية .
– من بالتحديد؟
– غولوبيف . – ذكر سيتسوف لقب سكرتير اللجنة المحلية الذى سلمه هناك فى حينه بطاقة العضوية ، وفكر قلقا بان السكرتير يمكن ان يستبدل .
– الرفيق غولوبيف غير موجود – قال رجل المليشيا – فهو فى التنظيم الحزبى .
– اذن فسأقابل شخصا غيره . لا على التعيين . فأنا بحاجة الى التكلم ...
– معك بطاقة عضوية؟
– كلا ... – قال سيتسوف بعد صمت ثقيل – ولكن انا بحاجة الى التكلم مع شخص ما ، ادع احدا .
– لا استطيع ، فانا مناوب . اوضح لى قضيتك وسأتلفن بالتلفون الداخلى .
فى تلك اللحظة اصطفق باب المدخل من وراء ظهر سيتسوف ، وصعد السلم راكضا شخص اشقر قصير القامة يكاد يكون فى عمر الشباب ، وهو يرتدى بنطال خيالة وقمصلة انيقة بحزام سلك الضباط العريض . القمصلة منتفخة فى جنبه ويتدلى منها طرف قراب المسدس .
عندما مر قرب رجل المليشيا راكضا قال دون ان يلتفت الى سيتسوف :
– انتهينا ، يا يفستيغنييف ، من شحن الارشيف ، مع انك قلت اننا لن ننتهى حتى يوم الغد .
وقال رجل المليشيا لسيتسوف ببطء عندما ركض الرجل الاشقر المكتنز ازاءهما :
– هذا هو الرفيق يلكين مدير قسم الجرد الحزبى . فراجعه .
عندما سمع الرجل اسمه توقف واستدار وسأل بهمة :
– انا يلكين! ماذا حدث ؟
– ايها الرفيق يلكين – قال سيتسوف بصوت ابح غليظ وهو يخطو نحو الرجل الاشقر – اننى لا احمل اية وثائق الآن ، ولكننى تسلمت هنا فى اللجنة المحلية بطاقة الترشيح وبطاقة العضوية . وانا بحاجة الى التحدث معك ، انا باشد الحاجة – اضاف سيتسوف على عجل وكأنه يخشى من ان هذا الرجل الاشقر السريع كالكرة سيقفز الآن على قدميه المشدودتين كنابضين ويتدحرج مبتعدا فى الرواق .
الا ان يلكين لم يقفز ولم يبتعد ، بل خطا نحو سيتسوف . فى اللحظة الاولى خيل اليه انه رأى فى مكان ما هذا الانسان المرهق ، وبعد

ذلك فكر بانه لم يره . وعلى العموم فذلك شىء لا اهمية له . ففى هذه الايام يندر ان يراجع اللجنة المحلية احد بدون قضية جدية .
– حسنا ، تعال معى . اسمح له بالدخول ، يا يفستيغنييف!
افسح رجل المليشيا المجال صامتا فلحق سيتسوف بيلكين .
الغرفة التى دخلاها صغيرة ، بنافذة عليها شبكة حديدية من الخارج وجرارات جدارية مفتوحة وخالية كلها الآن تقريبا . وفى الغرفة مكتبان وسرير مطوى وتخت خشبى وحشية تبن . وعلى السرير رقد شخص تغطى حتى الرأس بمعطف مدنى اسود ، وقرب رأسه بندقية مستندة الى الجدار .
جلس يلكين على التخت ، واشار الى الكرسى مخاطبا سيتسوف :
– اجلس .
عندما تطلع سيتسوف عن كثب الى الرجل الاشقر وجده فى منتصف العمر ووجهه حرك ، ولكنه مرهق . وحالما جلس الرجل اخرج سجارة ودعك طرفها ودسه فى فمه ، ثم تذكر ومد علبة السجائر الى سيتسوف الذى هز رأسه رافضا . فقد كان جائعا بشكل فظيع منذ الصباح ، ولذا خشى ان يتقيأ اذا دخن بدون فطور .
– ما هى قضيتك ايها الرفيق!
هز يلكين كتفيه منتفضا بشدة واغلق عينيه وفتحهما مرارا كما يفعل الشخص الذى يقاوم من زمان رغبة شديدة متواصلة فى النوم .
– اسم عائلتى سيتسوف . درست فى المعهد الصحافى الشيوعى ، وهنا ، فى هذه اللجنة المحلية رشحت لعضوية الحزب وقبلت فيه ...
– مفهوم – قاطعه يلكين بنفاد صبر – ولكن ماذا تريد الآن؟
ولكى يوضح سيتسوف ما جاء من اجله الآن عليه من كل بد ان يشرح كل ما حدث له سابقا . فتطلع الى عينى يلكين وقال :
– انا اعرف ان وقتك ضيق الآن . ولكن ارجوك ان تستمع الى عشر دقائق ، ان امكن طبعا .
– لم لا؟ تكلم . فقد جئت الى اللجنة المحلية وليس الى حريق ...
تصور سيتسوف بانه سيتمكن من عرض ما هو رئيسى فى عشر دقائق ، ولكنه تحدث اكثر من ذلك بكثير . ولو جاء الى اللجنة المحلية مساء امس او فى الليل ، وليس فى هذه الساعة المبكرة من الصباح ، لما كان يلكين قادرا حتى من الناحية البدنية ان يستمع اليه حتى النهاية رغم توفر حسن النية .
انتهى سيتسوف ولزم الصمت ، وامتدت يده مع ذلك الى علبة السجائر المستقرة على التخت ودخن سجارة بنهم .

راح يلكين يتطلع اليه صامتا، وهو يدارى مشاعر متناقضة. هذا الشخص، اذا صدقنا كلامه، جريح اعزل: ولكنه مع ذلك سلم نفسه للاسر عند الالمان. ومع انه هرب من الاسر بعد ذلك فقد اجتاز خط الجبهة ولم يبق هناك، فى الجبهة، بل جاء الى موسكو، الى منزله، اى انه تصرف، عموما، تصرف الهارب من الجبهة. ومع ذلك اراد يلكين ان يساعد هذا الشخص الجالس امامه.

لماذا؟ ربما بسبب الصراحة التى قد لا تكون نافعة فقط لهذا الشخص، بل وضارة به.

وكرر سينتسوف من جديد ما بدأ به حديثه:

— ليست عندى اية وثائق، ولا احد يؤكد ما قلته. ما حدث حتى الاول من اكتوبر يمكن ان يؤكده قائد اللواء سربيلين، وقد بعثوه آنذاك الى موسكو للعلاج فى المستشفى. ولكنى لا اعرف بما اذا كان موجودا هنا ام لا. وبعد الاول من اكتوبر لا احد يمكنه ان يؤكد ما قلت.

وعندما تحدث سينتسوف عن كيفية وصوله الى موسكو ذكر اسم لوسين ولكنه لم يرغب فى ذكر هذا الاسم مرة اخرى. فان تشبثه بهذا الناقل لاثبات نزاهته، كتشبث الغريق بقشة، انما هو فوق طاقة سينتسوف.

— لا احد — كرر سينتسوف بتصلب ونهض وغرز عقب السجارة فى العلبة المعدنية الموجودة على الطاولة.

— كيف حال رأسك الآن؟ — سأله يلكين فجأة وتطلع الى رأس سينتسوف المعصوب بعد ان فكر بذلك اثناء ذكر المستشفى.

— لا بأس. يؤلمنى قليلا. وربما اخذ الجرح يلتئم.

قفز يلكين من التخت وراح يجوب الغرفة جيئة وذهابا على رجليه القصيرتين المشدودتين كنابضين.

— طيمى، انك حسنا فعلت لانك جئت الى اللجنة المحلية. ولكن ماذا حدث لبطاقة العضوية؟.. — قال يلكين غاضبا ورفع كتفيه مندهشا وراح يجوب الغرفة من جديد. — لن يعيدوا لك العضوية — قال بحزم بعد ان توقف قبالة سينتسوف.

— اننى لا افكر بذلك الآن، ايها الرفيق يلكين — قال سينتسوف. — انا افهم معنى البقاء بدون بطاقة العضوية. ولكن قل لى الى اين على ان اذهب الآن لاعرض كل ما حدث لى واطلب شيئا واحدا هو ارسالى الى الجبهة بمثابة جندى؟ حدثتك عن كل شىء، اما الآن فقل لى انت: الى اين يتعين

على ان اذهب وكيف افعل ذلك؟ هل تستطيع اللجنة المحلية ان تساعدنى فى ذلك ام لا؟

هز يلكين كتفيه. لم يكن يعرف شخصيا بعد كيف يساعد هذا الانسان الذى فقد بطاقة العضوية على اية حال واسره الالمان بعد ذلك. ولكن هذا الانسان جاء الى اللجنة المحلية بالذات وليس الى اية جهة اخرى، وهو يقف امامه، هو يلكين، وليس امام شخص آخر.

وسأل سينتسوف الذى ارهقه صمت يلكين:

— ربما سيتمكن الرفيق غولوبيف من مساعدتى حين يعود.

لوح يلكين بيده يائسا:

— غولوبيف؟.. اننى انا نفسى لم اره منذ يوم امس. غولوبيف الآن غارق فى المشاغل. حتى انا لم انم منذ خمس ليال، فكيف بغولوبيف؟.. — لوح يلكين بيده للمرة الثانية وتفضن جبينه وقال وربما من الافضل مراجعة المفوضية العسكرية المحلية. — فمن الذى بوسعه ان يرسل الانسان الى الجبهة؟ رئيس المفوضية العسكرية المحلية! — واصل يلكين كلامه وهو يلتقط سماعة التلفون — اريد يوفيريف. يلكين من اللجنة الحزبية المحلية يتكلم. اين هو الآن؟ الا تعرف بالضبط؟ حسنا، سأتلفن فيما بعد. — وضع السماعة. — المفوض العسكرى المحلى غير موجود. قالوا انه الآن يتفقد بناء المتاريس هنا، قرب جسر القرم. رتبته ميجر ولقبه يوفيريف. اذهب وابحث عنه هناك وحدثه، وبوسعك ان تخبره بانك راجعت يلكين فى اللجنة المحلية وان يلكين بعثك اليه. فهو يعرفنى.

تحمس يلكين لهذه الفكرة التى تحل كل التعقيدات دفعة واحدة.

— واذا لم تجده او اذا دعت الحاجة فتعال الينا من جديد وقل لرجل الميليشيا كى يخبرنى. وسوف اتلفن مرة اخرى الى يوفيريف لاتأكيد الامر. اتفقنا! — قال يلكين مختتما كلامه برقة لاول مرة خلال الحديث كله.

تنفس سينتسوف الصعداء وارتدى قبعته. لم يكن فى الواقع ينتظر خيرا من يوفيريف الذى لا يعرفه، ولم يكن راغبا فى مغادرة اللجنة المحلية. فقال له يلكين فى تلك الاثناء:

— ابحث عنه قرب جسر القرم. على يمين الجسر وشماله. فهم يبنون المتاريس فى كل مكان، على شارع ميتروستروبفسكايا وعلى شارع سادوفايا...

وفجأة خطرت على باله، من خلال هذه التوضيحات، فكرة لم تتبادر الى ذهنه من قبل: «ماذا لو يغادر هذا الشخص الآن مبنى اللجنة المحلية

ولا يذهب الى يوفيريف بل يختفى فى الحال؟! فقد كان فى الاسر الالمانى. وعلى العموم، يمكنه ان يفعل ما يشاء فى موسكو فى مثل هذا الوضع الآن!». ومع ان هذه الفكرة تتعارض مع كل ما فكر فيه حتى الآن، فقد شعر بلكين بالتردد. فهو يريد الآن ان يعثر على من يؤكد له صواب رأيه فى تصديق هذا الانسان. فقال لسيتسوف فجأة بشىء من الصرامة:

– انتظر قليلا، انتظر، اجلس.

جلس سيتسوف.

– اسمع، يا مالينين! – صاح بلكين.

– ماذا؟ – اجاب صوت مكبوت.

تحرك الشخص النائم على السرير وانزاح المعطف جانبا فكشف عن رجل مضطجع بعينين مفتوحتين ويدين مشبكتين تحت الرأس.

– اسمع يا مالينين. اريد ان اشركك فى هذا الامر – جلس بلكين على التخت، والتفت الى سيتسوف: – كرر له قصتك بايجاز.

– ما الداعى للتكرار؟ – قال الرجل الذى يحمل اسم مالينين – سمعت كل شىء، فلم اكن نائما...

– منذ متى استيقظت؟ – سأله بلكين باستعجال.

– لم انم اطلاقا – اجاب مالينين – غطيت رأسى بالمعطف ومع ذلك لم اغف.

صوت مالينين واطىء متجهم وكأنه ينبعث من انبوب. وهو يتلفظ الكلمات بلهاث متقطع وكأنه غاضب لان احدا يحمله على فتح فمه. وجهه كالح متعب، انه وجه عريض ثقيل بسمات خشنة صارمة، وهو وجه وسيم رغم تجهمه. وفى اعلى جبهته العريضة المنحدرة بقع صلعاء تطوقها نتف رمادية من شعر اجعد اشيب بعض الشىء. اما فمه العريض فقد كان مزموما على نحو غاضب. سلط مالينين نظرات غير ودية على سيتسوف ولزم الصمت.

– ما دمت قد سمعت فبماذا تنصحنا؟ – سأله بلكين.

– اطعمه اولا – قال مالينين بنفس اللهجة المتجهمة – الرغيف على رف النافذة والسمك المعلب هناك ايضا، اما السكين... – تحرك لاول مرة واخرج من تحت رأسه يده القوية الضخمة فانتشل من جيب بنطاله سكينا مطوية وقدمها الى سيتسوف. – خذها – ودس يده من جديد تحت رأسه.

– حقا، فانت جائع ولا بد! – قال بلكين معتذرا.

اسرع الى رف النافذة واخذ من هناك قطعة الخبز وعلبة السمك ووضعهما

على المكتب امام سيتسوف الذى فتح السكين وهم بفتح العلبة، ولكنه غير رأيه واقتطع لنفسه كسرة خبز وراح يمضغها فى محاولة لعدم الاستعجال.

تطلع اليه مالينين طوال دقيقة تقريبا، ثم مد يده الى المكتب واخذ السكين واغلق شفرتها وفتح طرفها الثانى المخصص للمعلبات ثم فتح العلبة ولوى غطاءها ووضعها امام سيتسوف، واغلق طرف السكين من جديد وفتح شفرتها الكبيرة التى قص بها سيتسوف الخبز ووضعها على المكتب ودس يديه تحت رأسه واتخذ وضعيته السابقة.

– اسمع يا بلكين، حبذا لو سقيته شايا. – قال مالينين بعد ان سلط نظرة جانبية على سيتسوف وراقبه طوال دقيقتين او ثلاث وهو يأكل.

– من اين لى بالشاى؟ – سأل بلكين.

– اسقه ماءا مغليا على الاقل. يوجد ماء فى الغلاية عند العمة تانيا. ام ان كسلك يجعلنى انهض بنفسى؟.

– حسنا، ارقد – قال بلكين واخذ القدح المعدنى من رف النافذة وخرج.

– قتلت بنفسك عدة المانيين؟ – سأل مالينين عندما خرج بلكين مؤكدا بهذا السؤال انه سمع حقا كل ما قيل هنا. – هل رأيت بنفسك انك قتلتهم ام انك تعتقد مجرد اعتقاد؟

– رأيت بنفسى.

– كل، ولا تنشغل بالكلام – قال مالينين عندما لاحظ ان سيتسوف ابعد الخبز. قال ذلك واغلق عينيه ملمحا الى انه لن يطرح المزيد من الاسئلة.

عاد بلكين ووضع قدح الماء الساخن امام سيتسوف. اكل سيتسوف ثلاث كسرات من الخبز، ثم حاول ان لا يأكل المعلبات عن آخرها، ولكنه لم يتمكن فاكلها كلها وشرب الماء الذى يحرق البلعوم.

– شكرا، انا ذاهب – قال سيتسوف ونهض. فسأل بلكين:

– بم تنصحه يا مالينين؟

– ما حاجته الى نصيحتى؟ – قال مالينين دون ان يرفع بصره – لقد نصحته انت، وينبغى الآن العمل بنصيحتك!

– الى اللقاء! – قال سيتسوف.

– مع السلامة! – اجاب مالينين وفتح عينيه للحظة ثم اغلقهما.

وخرج بلكين مع سيتسوف. وقال الرجل الميليشيا:

– اذا جاء هذا الرفيق مرة اخرى اخبرنى. اذهب اذن الى يوفيريف! – كرر بلكين، وخرج سيتسوف من مبنى اللجنة المحلية.

لم يعد الوقت مثلما فى الفجر عندما يبدو فراغ المدينة طبيعيا. فالفراغ الآن يثير الانتباه. لا يزال رجل المليشيا يتمشى قرب واجهة الحانوت المحطمة على ركن ساحة زوبوفسكايا. ولكن المدنيين المسلحين انصرفا. الشاحنات تجوب شارع سادوفايا الدائرى. مرت احداها بأزيز قرب الرصيف الذى يسير عليه سيتسوف. الشاحنة محملة بالقضبان والاسلاك، وكانت الاسلاك متدلية من مؤخرتها وهى تخدش الاسفلت. وفى موقف الباص طابور غير كبير من اناس مهم حقائبهم وقد يئسوا من وصول الباص. وسار اناس آخرون يحملون صررا وحقائب فى شارع سادوفايا الدائرى، ولكن عددهم اليوم قليل جدا لا يمكن حتى مقارنته مع عددهم بالامس. وبدت موسكو اليوم اقل قلقا واكثر استعدادا للدفاع من يوم امس.

«اجل، سيدافعون عنها حتى النهاية – فكر سيتسوف – ولهذا الغرض يبنون المتاريس. سيعطوننى بندقية وسأقاتل من المتاريس اذا اقتضى الامر. ساقاتل من اجلها هنا ايضا، داخل المدينة – فكر سيتسوف – ولهذا الغرض يبنون المتاريس فهل من المعقول انهم لن يعطونى بندقية؟ فهل انا اسوأ الخلق فلا يعطوننى بندقية لاقاتل فى هذه المتاريس؟! شىء غير معقول».

عاملوه فى اللجنة المحلية ببساطة: بدون عطف ولكن بدون ارتياب ايضا، فبعثت هذه المعاملة الهدوء فى نفسه. ومما بعث الهدوء فى نفسه على الخصوص هو وجود اللجنة المحلية بالذات، وبقاء سكرتيرها نفسه، وهو غولوبيف وليس غيره، ووجود رجل المليشيا عند الحاجز فى الرواق، ونقل الارشيف الى مكان امين، والتلفون يرن والاتصال قائم. وحتى غلاية العمة تانيا تحتوى على ماء ساخن.

وراء موسكو المضطربة التى رآها بالامس توجد موسكو اخرى، موسكو الهادئة كالسابق والنشيطة وغير المرتعبة. فان مدير السكن الذى القى اليه امس بشدة المفاتيح ليس هو الكل فى الكل. وان اى اعتقاد من هذا النوع انما هو اعتقاد غبى حتى فى يوم امس!

بعد عشرين دقيقة وصل الى جسر القرم الذى اقيمت عند مدخله حفا متاريس تسد، من جهة، شارع متروسترويفسكايا ومن جهة اخرى شارع سادوفايا الدائرى. ومن نفس الشاحنة التى خدشت الاسفلت على مقربة من سيتسوف قبل قليل راحوا ينقلون الاسلاك والقضبان. ومن شاحنات اخرى كانوا يلقون بأكياس الرمل على الارض. وفى الزقاق المتجه الى ما وراء محطة المترو تعمل بضع عشرات من الاشخاص فى اقتلاع القرميد من قارعة الطريق. ولعلهم

بدأوا هذا العمل منذ الليل، فقد كانت هناك كومة هائلة من القرميد. وسدوا جزءا من شارع متروسترويفسكايا. فقد غرزوا فى الارض صفين من الاعواد ووضعوا بينهما اكياس الرمل، وامامها غرزوا القضبان الحديدية بشكل مائل بدت كالانياب والى جانبها عوارض حديدية ذات نهايات مستطيلة. وكانوا ينزلون القضبان والعوارض من عدة شاحنات اخرى ويقطعونها فى الحال. ففى مكان ابعد تسمع رشات قصيرة لقطع المعدن بالاوكسجين.

وقف عند المتاريس ملازم كهل من الاحتياط وعلى ياقة معطفه شارة قوات الهندسة. وراح يصدر اوامره. اقترب منه سيتسوف وسأله:

– ايها الرفيق الملازم، الم تر الميجر يوفيريف؟

– كان يوفيريف هنا، احضر العاملين وذهب. وعد بان يعود – اجاب الملازم دون ان يلتفت الى سيتسوف. ثم رفع بصره وسأله: – ماذا تريد؟ من اين انت؟

– ارسلونى من اللجنة الحزبية المحلية...

– وانتم؟ – التفت الملازم نحو اشخاص آخرين اقتربوا منه فى نفس الوقت تقريبا.

بينهم امرأتان وشاب فارع القامة طويل الرقبة يرتدى نظارات وكهلان نحيفان يشبهان بعضهما البعض شبها كبيرا ويرتديان قبعتين عتيقتين متماثلتين بحافتين متهدلتين.

– ارسلتنا اللجنة المحلية ايضا، والا فمن يرسلنا؟ – اجابت احدى المرأتين.

– اذن انقلوا القضبان والعوارض الحديدية الى مكان التقطيع بالاوكسجين واعيدوا القضبان المقطعة وكوموها فى تلك الجهة، على مسافات، فى الاماكن التى سنغرزها فيها.

عبر ملازم الهندسة الطريق بخطوات سريعة واشار الى اماكن تكديس القضبان والعوارض المقطعة.

– فلنذهب لنحمل قضيبا – خاطب الشاب الطويل الرقبة سيتسوف.

انحنى سيتسوف صامتا وامسك بطرف القضيب ورفعه مع الآخرين فشعر بارتياح ان قوة يديه ظلت على حالها تقريبا رغم التعب والاجهاد. فى البداية حملوا القضبان على الاكتاف، ثم صنعوا كلاليب من اسلاك سميكة واخذوا ينقلون القضبان بادخال تلك الكلاليب فى ثقوبها، مثلما يحملها عادة عمال السكك الحديدية.

ازداد عدد الناس. البعض يحملون القضبان والعوارض المقطعة وغير المقطعة الى هنا وهناك، والبعض الآخر يحفر الطريق بنبشها بالاسافين الحديدية. وعلى الجانب الآخر من شارع سادوفايا دوت مطرقة عاملة بالهواء المضغوط. وعمل فى قص القضبان والعوارض بالاوكسجين شاب عريض المنكبين يرتدى بدلة عمل وسترة قطنية مبطنة. وبعد ساعتين من العمل، عندما خلع هذا العامل، على مرأى من سيتنسوف، قناع حماية الوجه، اتضح انه امرأة بشعر اجعد وانف افطس.

– هيا، قربوا العارضة، يا شيوخ، فان عملى متوقف بسببكم! – صاحت بلهجة مداعبة على سيتنسوف والتوأمين اللذين يحملان العارضة معه وهما يرتديان قبعتيهما المتهدلتين. وقد عرف سيتنسوف منهما انهما يعملان امينى مكتبة فى دار الكتب. "تقع بناية هذه الدار العريقة ليس بعيدا من هنا، على شارع سادوفايا، وقد دمرتها قنبلة. تحدثا عن ذلك مرارا اثناء العمل ولم يهدأ روعهما مطلقا.

– انى اشعر بالخجل – قال الشاب الطويل الرقبة لسيتنسوف بصوت هادئ خجول – فبوسعى ان اكون فى الجبهة، وسأكون هناك، ولكننى غادرت المستشفى قبل اسبوع فقط، فقد اصبت بالتهاب المعى الاعور المتقيح، واجروا لى عملية. حماقة! فى هذا الوقت اصبت بالتهاب المعى الاعور، أليست حماقة؟ الا تعتقد بذلك؟ – سأل وسلط على سيتنسوف، وهو يسير حاملا العارضة، نظرة من عينيه الخجولين المصابتين بقصر البصر.

فقال له سيتنسوف مهدئا بان التهاب المعى الاعور شيء خارج ارادة البشر. واضاف:

– الافضل لك ان لا تحمل ثقلا، والا فيمكن ان ينفتق الجرح...

– كلا، من رابع المستحيلات! – قال الشاب بغيظ وكأنما لا يحق لجرحه ان ينفتق.

استمروا فى نقل القضبان والعوارض ساعة اخرى او ساعة ونصف، ثم التحقوا بالذين يحفرون الحفر على الطريق.

وقال احدهم:

– ما اقسى ارض موسكو!

– مع الاسف ان الالمان لا يعرفون كم حفرنا لهم هنا. ولو عرفوا لانسحبوا رأسا...

لم يعترض احد على هذه النكتة، ولكن احدا لم يدعمها. فالناس يعملون بجد. ومع ان احدا منهم لم يتكلم عن ذلك بصوت مسموع فقد

كانوا يفهمون جميعا بانهم يعملون، تحسبا الطوارئ او لغير الطوارئ، فى وضع العراقيل بوجه الدبابات الالمانية ليس فى مكان قليل الاهمية، بل على شارع سادوفايا الدائرى مقابل جسر القرم.

وبعد ذلك وصل رتل من الشاحنات المحملة بالحواجز القنفذية وغير القنفذية الملفوفة بالاسلاك الشائكة والمصنوعة على عجل من العوارض الحديدية.

وقالت احدى النساء العاملات مع سيتنسوف:

– يلحمونها فى مصنع «المنجل والمطرقة». فقد قال لى زوجى بالامس انهم يلحمون هناك هذه الحواجز القنفذية بالآلاف ليل نهار...

عمل سيتنسوف بولع شديد، واغرق بولعه هذا افكاره عما سيحدث له فيما بعد. «فليكن ما يكون» – قال لنفسه وهو يرفع بارتياح عارضة جديدة. لم يعد راغبا فى ترك هذا العمل والذهاب للبحث عن يوفيريف الذى لا يعرفه، لا سيما وان المفوض العسكرى المحلى سيعود بنفسه الى هنا على حد قول الملازم.

عند الظهر جاءت الى العاملين هناك امرأة ترتدى سترة قطنية ومنديلا وبريا رماديا واخذت تصيح:

– الوجبة الاولى من العاملين منذ الليل اذهبوا الى دار الايتام لتناول الغداء! فليذهب الذين بدأوا العمل من الليل فقط، اما الذين بدأوه بعد ذلك فليصبروا قليلا! الوجبة الاولى! الحقوا بى الى دار الايتام!

لم يذهب سيتنسوف مع الوجبة الاولى. وعندما ذهب مع الوجبة الثانية وجد نفسه فى بناية من طابق واحد منزوية فى الباحة الداخلية لمبنى ضخم. دار الايتام خالية فقد تم تهجير نزلائها من زمان. وقد افتتح فيها مركز تغذية وتدفئة للذين يعملون فى بناء التحصينات.

فى دار الايتام اثاث الاطفال فقط. الموائد واطئة جدا، حتى اضطر الناس الى الجلوس القرفصاء امامها او عليها او احتساء المرق من القصعة بعد الاستناد الى الحائط. ولم يقدموا شيئا غير المرق. والذين لم يحضروا خبزا من منازلهم قدم لهم الخبز اولئك الاكثر فطنة. الا ان المرق جيد ودسم. فهو معمول من اللحوم المعلبة والشعير الفاخر.

تذكر سيتنسوف الموقف هناك اثناء الاسر، فى دار الولادة على الطريق، وفكر بالالمان وبان من غير الجائز، من المستحيل تسليم موسكو لهم.

– من يريد زيادة؟ زيادة من يريد؟ – طرقت المرأة التى ترتدى السترة القطنية والمنديل بالمغرفة على مائدة التوزيع. دخلت من الشارع ولم تخلع

سترتها ومنديلها، بل ارتدت فوق السترة صديريا كبيرا وسخا – من يريد زيادة يا جماعة؟ والا فستأتي الوجبة الثالثة وتأكل كل ما هو موجود!

طلب سيتسوف مزيدا من المرق، وكلما تمادى في الأكل ازداد احساسه بالجوع، وخيل اليه انه استعاد وضعه الطبيعي كليا

عملوا بعد الغداء حتى حلول الظلام. وعندما حل الظلام اطلقت صفارات الانذار الجوي. محطة المترو قريبة. فنزل فيها سيتسوف مع الآخرين.

دخلت النساء واطفالهن المترو في وقت سابق واحتللن اماكنهن كما في المنازل، حيث احضرن معهن الحشيات والبطانيات والوسائد وقناني اللبن. وقد تعود الاطفال على هذا الموقف فناموا على حشياتهم وبطانياتهم وكأن شيئا لم يحدث.

وجد سيتسوف مكانا، فانزوى عند الجدار وطوق ساقيه الطويلتين بيديه الطويلتين ايضا وغرز وجهه بين ركبتيه. راوده النعاس بسبب الدفء والشبع، فلم يقاومه. فقد عاش يومه هذا مثلما تعود ان يعيش: بين الناس وفي العمل المشترك.

وفكر عبر النعاس الذي انهال عليه: «حالما ينتهي الانذار سأخرج وسابحث عن يوفيريف هذا...»

– ابتعد قليلا – سمع صوتا نسائيا – اريد ان اضع الطفل هنا!

تزحزح سيتسوف دون ان يفتح عينيه، وسمع كيف وضعوا جنبه طفلا نائما يتنفس باطمئنان. وقال صوت رجالي:

– امس وقع تاسع صدام فدائي بالطائرة فوق موسكو.

– عجيب. طائرة تهجم على طائرة اخرى وترتطم بها عمدا!

– طبعا، لا يفل الحديد الا الحديد – اجاب صوت ثالث.

وقابله صوت نسائي فتي معجب:

– انا مستعدة لتقديم كل شيء لهؤلاء الابطال!..

– يمكن تقديم كل شيء، ولكنهم لن يتمكنوا من اخذ شيء.

وتحدث الجميع عن الصدام الفدائي. فهذا الحديث يهم الجميع.

– لم يعد الالمان يحلقون بمثل تلك الوقاحة – قال صوت جهوري عال، ووافق الجميع على هذا القول.

– صحيح، لم يعودوا يحلقون بمثل تلك الوقاحة...

– بعد الصدامات الفدائية.

– انهم يخافون من الصدامات الفدائية...

اختلطت افكار سيتسوف نهائيا بعد ان كانت في شبه اغفاءة. خيل اليه انه يحلق بالطائرة الى مكان ما. وظل يدغدغه هذا الاحساس بالتحليق، بعد ان بذل جهدا اخيرا لرفع رأسه من على ركبتيه والقائه الى الجدار.

استيقظ من دفعة خفيفة على كتفه: – يارفيق، يارفيق...

فتح عينيه. كانت محطة المترو خالية تقريبا. وفي بعض ارجائها لاحت اشباح منفردة. امرأة شابة طوت الحشية وشدتها بحبل. ووقف قربها صبي في الخامسة يرتدي قبعة شتوية. وقالت المرأة:

– انا ايقظتك. اعذرني. فقد نمت طويلا من يوم امس وخشيت ان تفوت عملك...

– اجل، اجل – انتفض سيتسوف – ماذا؟.. كم الوقت الآن؟

– الساعة السابعة تماما.

– السابعة؟!

تطلع اليها مندهشا وادرك الآن فقط بأنه نام الليل كله دفعة واحدة.

مر يوم كامل فعاد سيتسوف الى مبنى اللجنة المحلية ووقف امامه من جديد. كان نصف عدد النوافذ قد تحطم زجاجه فاغلقت بالخشب المعاكس المصبوغ بنفس لون الجدران. ودمرت بناية من اربعة طوابق كانت على مقربة من مبنى اللجنة المحلية وكأن احدا قد اقتطعها بسكين.

جاء سيتسوف الى هنا من المترو مباشرة، لانه رغب في المجيء ولانه كانت لديه مبررات للمجيء. فقد طلب منه يلكين نفسه ان يأتي مرة اخرى اذا لم يعثر على يوفيريف. لم يجد يوفيريف بالامس ولذا جاء الى هنا من جديد. فتح الباب المؤدي الى البهو. وكان رجل المليشيا في مكانه السابق، الا ان عينه وخده معصوبان. وحزر سيتسوف «ربما جرح بالزجاج».

اقترب سيتسوف من رجل المليشيا وقال:

– اريد ان اقابل الرفيق يلكين. فقد قال ان بالامكان استدعاءه.

– غير موجود. اصيب بجراح. ويجري تضميده الآن في المستشفى...

– متى سيأتي؟

هز رجل المليشيا كتفيه.

ظل سيتسوف واقفا امامه دون ان يعرف ماذا يفعل. فعندما جاء الى هنا كان واثقا من النجاح لسبب ما: فسوف يرى يلكين، وقد تلفن يلكين

الى يوفيريف كما وعد، وسوف يذهب من هنا مباشرة الى المفوض العسكري المحلي، وسوف يتقرر مصيره على اية حال. ومن جديد انقلبت الامور فجأة.

فما العمل؟ هل يتعين عليه انتظار بلكين هنا ام البحث عن يوفيريف ام العودة الى ساحة القرم؟

وقف مترددا زهاء دقيقة وهو ينظر الى الارضية التي انتشرت عليها كسر الزجاج، وعندما رفع بصره رأى جار بلكين. كان مالينين يسير قربه في الرواق ضخما متجهما يتطلع الى نقطة واحدة امامه، وهو يحمل قدحا معدنيا بعد ان لف مقبضه بمنديل. سار دون ان يلتفت الى احد، ولكنه عندما مر قرب سينتسوف التفت نحوه فجأة وكأنه كان ينظر صوبه من بعيد.

— لماذا جئت مرة اخرى؟ — سأل بصوته المتذمر. — ألم تجد يوفيريف؟

هز سينتسوف رأسه بالنفي صامتا.

— جئت الى بلكين؟ بلكين غير موجود — واصل مالينين كلامه ولاحت على وجهه تعابير تكاد تدل على ارتياحه من اخبار سينتسوف بهذا النبأ.

فسأله سينتسوف:

— ألا تعلم شيئا؟ هل تكلم بخصوصي مع المفوض العسكري؟

— لم يتكلم معه. لقد نسي ... — قال مالينين وكأن ذلك شيء بديهي، ثم دمدم على نحو مفاجئ تماما بالنسبة لسينتسوف فقال لرجل المليشيا: — اسمح له بالدخول. فلنذهب!

هكذا دخلا غرفة الامس — مالينين وبيده قدح الماء المغلي في الامام وخلفه سينتسوف المتحير بسبب دعوة هذا الشخص المتجهم له.

— اجلس! — اومأ مالينين الى التخت ووضع القدح على رف النافذة ومال الى الجدار.

سريره الشخصي مرتب على طريقة الجنود بدون اي خلل، ولذا ما كان يريد تشويش هذا الترتيب فلم يجلس عليه.

سأل سينتسوف وهو يومىء الى التخت الخالي ويقصد بلكين:

— هل اصيب بجرح خطير؟

— جرح طفيف في الرقبة ... سيلتئم من كل بد!

— بشظية ام بزجاج؟

— بسكين قصيرة — قال مالينين واضاف متذمرا عندما رأى امارات الدهشة في عيني سينتسوف — لماذا تستغرب؟ هل تعتقد ان هذه السكاكين لا تستخدم في موسكو الآن؟ فالسفلة في موسكو لا ينامون هم ايضا. انهم يزاولون عملهم.

اما بلكين فلا بد وان يتدخل ... — قال مالينين، وليس واضحا ما اذا كان يمتدح بلكين او يلومه — مر بالسيارة ليلا فرأى لصوصا يسرقون حانوتا. سحب مسدسه وصاح: ارفع يديك! ولذا جرحوه بالسكين. ومن حسن الحظ انه لم يكن وحيدا. فقد امكن قتل اللصوص في الحال!

اتضح الآن ان مالينين يستحسن فعلة بلكين، ولكنه يتحدث عن ذلك كله بلهجته المتذمرة كالعادة.

— لماذا استغربت انت؟ — سأل من سينتسوف مجددا. — ففي مثل هذه الاوقات يطفو الخراء على السطح. ذلك هو قانون الطبيعة. اتأمل احيانا واتساءل: هل من المعقول ان الدلو كله مليء بالخراء؟ كلا، غير معقول.

يبدو انه تذكر شيئا اثار انفعاله الى اقصى حد فلم يستطع ان يتوقف:

— وحتى حشرات النظام القديم زحفت الى الشقوق كي تخرج منها عند الضرورة! سددت امس بيدي هذه لكمة الى بوز احدهم ... — رفع قبضته الثقيلة وتطلع اليها وكأنما هو مندهش لنفسه. — فأين صبري يا ترى؟ كان عندي صبر، ولكن عندما آن الاوان لم اجده ... يعني انك لم تعثر على المفوض العسكري؟ — سأل كي يقطع حبل افكاره بنفسه.

— كلا — قال سينتسوف واوضح بانه عمل يوم امس في انشاء المتاريس قرب جسر القرم، وبات الليل في المترو.

— اما بلكين فقد شك امس بانك ستعود ... — ضحك مالينين — يخشى بانك ستهرب!

— الى اين؟ ولماذا؟ — سأل سينتسوف.

— حقا، الى اين ولماذا؟ انني اتذكرك — قال مالينين وهو يقطع حبل افكاره بنفسه من جديد \ فتلك هي على العموم طريقته في الكلام — كنت اعمل بدل بلكين، فاعددت وثائقك عندما قبلوك للعضوية. ذاكرتي جيدة. مر عن طريقي حوالي ثلاثة الاف من الاعضاء الجدد، ورأيت كذلك عددا من المفصولين، واذا اتطلع اليهم اتذكر واحدا من كل اثنين على الاقل.

سر سينتسوف لان هذا الشخص المتجهم يتذكر كيف انتسب هو الى الحزب، وحاول سينتسوف، بدوره، ان يتذكر مالينين، ولكن دون جدوى.

— لا تحاول — حزر مالينين فكرته — اذا تذكرتني فلا اهمية لذلك، اما تذكري لك فقد يلعب دورا. كيف حدثت لك هذه المصيبة ايها الرفيق العزيز؟ — هز مالينين رأسه. لم يكن ميالا الى التقليل من خطورة المصيبة التي حلت

بسينتسوف . – ألم تكذب ذرة يوم امس؟ هل ان كل ما قلته صحيح من الفه الى يائه؟

– بالطبع – قال سينتسوف .

فما الذى بوسعه ان يضيف وكيف يمكنه ان يقنع محدثه؟

تطلع اليه مالينين صامتا لفترة طويلة .

وخلافا لبلكين المرح لم يكن لهذا الشخص المتجهم الذى وخط الشيب شعره وهو يعمل فى قسم الجرد الحزبى رأى ثان، احتياطى، لاجل الطوارئ . كان لديه بخصوص الآخرين رأى واحد لا غير – جيد او سيئ . فهو اما ان يصدقهم او لا يصدقهم . واذا صدقهم فهو يصدقهم حتى النهاية، واذا ارتاب بهم فلن يصدقهم مطلقا .

ولو بقيت لديه ذرة من الارتياب فى صحة كلام سينتسوف لما فكر بفعل ما ينوى الآن فعله . وقد ظل مرتابا بشىء واحد فقط : هل يمتلك، هو مالينين، الحق الكامل فى القيام بذلك؟ واخيرا شد العزم نهائيا :

«ولى حق؟! سأذهب معه بنفسى وسأقف جنبه .. واثبت للمفوض هوبر ... واذا لم اتمكن فسنرى ما يكون» .

وقال مالينين بعد فترة من الصمت :

– يجرى فى المحلة تشكيل كتيبة شيوعية حاليا، ولكنها لا تضم الشيوعيين والكومسومولين فقط، بل ونشطاء اللاحزبيين ايضا . وانا ذاهب الى هناك . ليلة البارحة اقنعت المسؤولين فسمحوا لى ... وخلال الليل تم تشكيل عدة فصائل اخرى . وليس هناك قادة بعد . سأقوم انا بمهمة العسكرى الاقدم فى فصيلى، وسأسجلك معى . بعد ساعة سنذهب الى الكتيبة، فى شارع بلوشيخا . ما رأيك؟ هل اسجلك؟ – سأله مالينين وهو يخرج من جيب بنطاله دفترا مطويا بنصفين من دفاتر المدارس .

– هل هناك داع للسؤال؟!

اقترب مالينين من الطاولة واخرج من جيب قميصه نظارات لا تناسب اطلاقا وجهه العريض القوى وفتح الدفتر ومرر اصبعه على القائمة التى تحتوى على ستة وعشرين رقما . بلل قلم الحبر واضاف الرقم السابع والعشرين وسجل بخط جميل :

«سينتسوف» .

– ما اسمك وما اسم ابيك؟

– ايفان بتروفيتش .

وسجل مالينين حرفى «ا . ب»، وجفف الدفتر بمنشفة الحبر ووضعه فى جيب بنطاله، وبعد ذلك فقط قال :

– عندما نحضر هناك سأخبر مفوض الكتيبة بأمرك . وسنرى ما يقرره ... اما انا فسأعرض وجهة نظرى عليه .

لم يركز على هذه العبارة الاخيرة، مع انها تعنى الكثير . كان يعمل فى قسم الجرد ستة عشر عاما، وقبل عامين فقط انتقل الى العمل التوجيهى بعد ان ساء نظره . وهنا، فى المحلة، يتسم رأيه باهمية كبيرة، وخصوصا فى قضايا التثبت من الكوادر والثقة بالآخرين او عدم الثقة بهم . بديهى ان المسؤولية التى يتحملها مالينين عن هذا الشخص الجالس امامه كبيرة جدا . وهو يدرك ذلك، مع انه لا يؤكد عليه .

لم ينتبه سينتسوف الى كلام مالينين عندما قال بانه سيخبر المفوض . فقد كان سينتسوف سعيدا جدا للامكانية التى تهيأت له للالتحاق بالكتيبة الشيوعية مع مالينين فى الحال، هذا اليوم . وقال :

– لن انسى لك هذا الفضل مدى الحياة .

– ما الداعى لذلك؟ – اجاب مالينين بلهجته المتجهمة المعتادة . – لو كنت قد هيأت لك مكانا بالقطار مع العفش والمهجرين الى قازان لكان بوسعك ان لا تنسى ذلك – اضاف ساخرا . – يوم امس وعدنى عشرون شخصا منهم بان لا ينسوا ذلك مدى الحياة . اما انت فأساعدك فى العودة الى الحرب! وسوف تعود اليها فى كل الاحوال . ستعود من كل بد ولكن بعد مماطلة .

– حسنا، لن اقول شيئا . اننى مسرور لانك صدقتنى . كان بوسعك ان لا تصدقنى، ولكنك صدقتنى . هذا هو كل شىء .

– لا يجوز تصديق الجميع – قال مالينين بشىء من الغيظ لانه فهم هذا الكلام على طريقته الخاصة واعتبره تشكيا من الافراط فى اليقظة . – الويل لنا اذا صدقنا الجميع . ولتذهب نحن الى الشيطان، ولكن الحكم السوفييتى يتعرض للخطر . اردت ان احلق ذقنى، ولكن صرفت النظر عن ذلك . – قطع حبل افكاره بنفسه من جديد – واذا تريد ان تحلق انت فخذ عدتى من رف النافذة . الوقت كاف ...

مسح سينتسوف ذقنه برغو الصابون على عجل وراح يحلق بقوة لحيته غير الطيعة بعد ان مرت عليها ثلاثة ايام .

القى مالينين نظرة جانبية على وجه سينتسوف المخدش فقال :

– حجر الشب هناك، ابحث عنه . سال الدم كما لو ذبحوا خنزيرا .

ولكن مالينين لم يذكر مكان الشب على وجه التحديد. فقد طرق الباب في تلك اللحظة فقال مالينين على مضض: «ادخل...». صر الباب وانفتح. كف سينتسوف عن البحث عن الشب والتفت، فرأى امرأة نحيفة فارعة القامة وبيدها حقيبة ظهر.

– مرحبا، احضرتها لك – قالت المرأة فخطا مالينين نحوها.

فهم سينتسوف انها زوجة مالينين فحاول الا يستمع الى الحديث بينهما وانهمك بتنظيف عدة الحلاقة، ولكن بعض العبارات بلغت مسمعه رغما عنه.

– هذا ضروري – قال مالينين باستحسان – ولكن هذا غير ضروري. قلت لا داعي له فلا داعي له. يكفيني زوجان من الالبسة الداخلية.

– خذها، فاين تتركها؟! – اصرت زوجته.

ولكن مالينين دمدم بانه ليس جملا ولن يكون هناك حمالون...

ثم فوت سينتسوف عدة عبارات، وسمع مالينين يقول:

– خذي... اربعمائة.

– ما الداعي لذلك كله؟ وانت، هل تركت لنفسك شيئا؟ – قالت زوجة مالينين.

– ما حاجتي الى النقود الآن؟ – سأل مالينين، ويبدو ان سؤاله هذا ارعب زوجته فانتحبت.

نظف سينتسوف عدة الحلاقة ولم يعد يعرف ما يفعله، فظل جالسا وظهره الى مالينين وزوجته. وفكر: «ربما تعانقا الآن ليودعا بعضهما بعضا. واذا كانا يتحدثان بشيء فبصوت واطئ جدا».

– خذ زوجا من الالبسة الداخلية – قال مالينين بصوت عال من وراء ظهره والقى على ركبتي سينتسوف بزوج من البياضات العتيقة المرتقة ولكنها نظيفة – فأنا اعتقد انك بدون احتياطيات، وزوجتي احضرت اكثر من اللازم.

التفت سينتسوف فلم ير زوجة مالينين في الغرفة. فقد تواعدا بمنتهى الهدوء حتى انه لم يسمعها تغادر الغرفة.

دس مالينين عدة الحلاقة في الحقيبة وارتدى معطف الجوخ الاسود العتيق فوق بدلته الزرقاء شبه العسكرية، كما ارتدى طاقية سوداء من جوخ المعطف نفسه والقى بالبندقية التي كانت مستندة الى ركن الغرفة على كتفه.

– فلنذهب!

عندما خرجا الى الشارع توقف مالينين على الرصيف ورفع رأسه وتطلع الى بناية اللجنة المحلية وكأنما يريد لصورتها ان تنطبع في ذاكرته قبيل الوداع. فسأله سينتسوف:

– كم عملت هنا؟

– في اللجنة المحلية منذ عام ١٩٢٣، وفي هذا المبنى منذ ان انتقلنا اليه في عام ١٩٢٦. كان زجاجه من زجاج المرايا – اضاف مالينين بشكل غير متوقع – من عهد القياصرة. وفي ليلة واحدة، بقنبلة واحدة، تحطم ذلك الزجاج كله تقريبا. هل انت سامع؟ واضطررنا الى سد الثغرات بالخشب المعاكس، كما في حانوت بقال.

رأى مالينين يوم امس وامس الاول نفس ما رآه سينتسوف، ولكنه، كموظف في اللجنة المحلية، يعرف اكثر مما رأى. بديهي ان الزبد طفا على السطح يوم امس الاول، ولكن الوضع تحت هذا السطح كان رهيبا حقا. فقد جرى التهجير على نطاق هائل، وسار بسرعة متناهية في المرحلة الاخيرة حتى كان من المحتمل ان يسود ذعر اكبر من ذلك الذي ساد بالفعل. فتح العدو ثغرة في الجبهة. ومنذ ثلاثة ايام تلقى قواتنا في تلك الثغرة كلما لديها كما في جوف وحش لا يشبع. ولكن الوضع لا يزال عصيبا حتى الآن.

في الخامسة من صباح اليوم انتهز مالينين الفرصة ومر على سكرتير اللجنة المحلية غولوبيف ليودعه، فتطلع هذا في عيني مالينين وقال:

– استعجلت بالامس وسمحت لك بالالتحاق بالكتيبة. وانا آسف لذلك هذا اليوم. فأنا بحاجة اليك هنا...

– وهناك؟ – مالينين على استعداد ليفعل ما يطلب منه، ولكنه لم يكن راغبا في ان يغير السكرتير رأيه.

– انهم هناك ايضا بحاجة اليك – قال غولوبيف. – ربما سيزجون بكم في المعركة حالا.

كانا لوحدهما في المكتب. وهما يعملان معا منذ ثماني سنوات.

– كيف هو وضع موسكو اليوم؟ ولكن اجبني بصراحة... – شطر مالينين الهواء براحته الثقيلة مشيرا الى انه يريد جوابا صريحا والا فلا داعي للكلام.

الا ان غولوبيف اجاب بصراحة:

– بالامس الاول، على ما اعتقد، لم يكن معروفا بالكامل لمن الغلبة. اما الآن فالوضع يتعادل شيئا فشيئا. يبدو اننا لن نسلم موسكو باية حال. ولكننا قد نضطر الى القتال في اقرب اطرافها، بل وحتى في شوارعها. فذلك غير مستبعد.

ذلك هو رأي سكرتير اللجنة الحزبية المحلية. ولم يكن لدى مالينين موجب لعدم تصديقه. فهو انسان يعرفه مالينين جيدا. انه يتمعن بكلماته قبل ان يتلفظها، ولا يميل الى نافل القول.

«ربما سنضطر حقا الى القتال فى الشوارع – فكر مالينين وهو يسير قرب سينتسوف فى شارع بلوشيخا – فماذا يعنى القتال فى الشوارع؟ يعنى هنا، فى شارع بلوشيخا! الالمان فى هذا المنزل ونحن فى ذاك. او الالمان وراء جسر القرم ونحن فى هذه الجهة، لن نسمح لهم بالوصول الى مركز المدينة. يعنى مثلما كان فى عام ١٩١٧، اثناء معارك الشوارع ضد طلبة المدارس العسكرية القيصرية، ولكن اكثر منها بمائة مرة!».

سار وهو يحاول التعود على هذه الفكرة، ولكن ذهنه لم يتقبلها مع ذلك. وقال لسينتسوف بعد صمت طويل:

– ربما سنتوجه غدا الى الجبهة رأسا.

هز سينتسوف رأسه بالايجاب. كان يسير ويفكر فيما اذا سيحصل على بندقية فى الكتيبة ام انهم سيسلمونهم فى الجبهة مباشرة.

المدرسة المهنية التى افتتحت الكتيبة الشيوعية فيها ثكناتها تقع وسط باحة مطوقة بسياج قرميدى عال. وتحشد قرب السياج حوالى عشرين من المدنيين.

– هؤلاء افراد الفصيلة. – قال مالينين – فى البداية اردنا ان نجتمع فى اللجنة المحلية، ولكننا قررنا فيما بعد الاجتماع هنا، قرب الكتيبة هذا افضل.

عدلَ من وضعية البندقية على كتفه فجأة كما يفعل شاب فى ريعان الصبا واقترب من المجتمعين.

كانوا كلهم تقريبا فى سن تجاوزت سن الشباب، والكثيرون منهم يرتدون نظارات. والبعض منهم يحملون حقائب ظهر خفيفة، والبعض الآخر يحملون اكياسا للملابس، ولدى اثنين منهم حقيبتان خشبيتان صغيرتان، ولدى احدهم سلة بياضات ملفوفة بعناية... وكان ثلاثة او اربعة اشخاص يحملون بنادق صيد، واثنان يحملان بندقيتين عسكريتين. ويتدلى مسدس من حزام احدهم فوق المعطف. كانوا جميعا يرتدون احزمة. ورغم تنوع ألبستهم فقد حاولوا ان يجعلوها مناسبة لهم ولا تعيقهم عن السير.

عندما اقترب مالينين وسينتسوف كان الحاضرون يتكثون على تروفيموف، الرجل الاشيب الذى يحمل سلة البياضات.

– تروفيموف ينوى صيد السمك من جديد. انظروا كيف اعدت له زوجته السلة! فيها طعام ليومين وقنينة فودكا ووسادة صغيرة... كل شىء حسب الاصول!

– اين شصك يا تروفيموف؟ هل نسيته؟

– ها هو مالينين قادم! – صاح عدة اشخاص دفعة واحدة.

يبدو انهم جميعا تقريبا يعرفونه. وقال احدهم:

– جاء الرفيق الاقدم فى مجموعتنا. ويعنى ذلك انه حان موعد الاصطفاف.

– اين ايكونيكوف؟ ألم يأت بعد؟ – سأل مالينين بعد ان عد الجميع بنظراته.

– ايكونيكوف لن يأتى – قال تروفيموف الذى يحمل السلة. – مررت عليه فوجدت فصيلة تعمل فى تنظيف السرداب المنهار... وهو مع الذين فى السرداب.

– وكيف حالهم هناك فى السرداب، هل هم احياء؟ – سأل مالينين.

– لا يزالون يعطون بالطرق على الجدران اشارات تدل على انهم احياء.

علق احدهم بسخرية كئيبة وقال: لا يوجد اسوأ من هذه السراديب والاقبية. فالافضل ان يموت الانسان فى شقته! وقال مالينين:

– طالما ايكونيكوف لن يأتى فالجميع حاضرون!

اصطفوا اثنين اثنين. وقف مالينين فى الامام، واتضح ان سينتسوف ظل وحيدا فى الصف الاخير. وهكذا دخلوا، بشكل رتل مصطف، الى الفناء الرحب للمدرسة المهنية، ومروا بالحارس الذى يرتدى ملابس مدنية. سمح لهم بالمرور وحيا مالينين بلهجة اخوية:

– مرحبا، يا مالينين!

– مرحبا! – اجاب مالينين بلهجة مستاءة من هذه التحية غير العسكرية.

ترك القادمين الجدد فى الباحة ودخل المبنى ليخبر مفوض الكتيبة بوصولهم.

ظل هناك فترة طويلة، حوالى عشرين دقيقة. واخيرا عاد بوجه اكثر تجهما من السابق. وقال للرجل الحامل للسلة:

– يا تروفيموف، اننى اعينك رفيقا اقدم فى المجموعة فى حالة غيابى. اخبركم بان اليوم هو يوم التدريب. وخلال النهار سيأتى قادة السرايا. وسوف تستلم فصيلتنا اليوم خمس عشرة بندقية، والباقى فيما بعد ان شاء الله. التدريب العام يبدأ فى العاشرة. وبوسعكم الآن ان تتدفأوا فى الثكنات. خصصت لنا الغرفة التاسعة عشرة، وهى الثانية على اليمين. اما انت يا سينتسوف فابق. – تطلع مالينين الى سينتسوف وكأن اسنانه توجعه فلا يلفظ حرفا الا بألم شديد – سنذهب الى المفوض.

«بدأت المشاكل» – فكر سينتسوف.

عندما دخلا على مفوض الكتيبة هوبر قال مالينين بنفس اللهجة المتجهمة:

– احضرته فاسأله .

كان مفوض الكتيبة جالسا عند طاولة المعلم فى الصف . ووراءه سبورة عليها كتابات كثيرة بالطباشير .

جلس مالينين على طرف رحلة التلاميذ وظل سينتسوف واقفا .

مفوضُ الكتيبة فى حوالى الخمسين من العمر بهندام جيد، حيث يرتدى جاكيتا صوفيا سميكا وبدلة زرقاء راكنة وعلى صدره وسام قديم للراية الحمراء . وعلى الكرسى الى جانبه معطف جلدى وقبعة من فرو الأيل . وعلى الطاولة امامه مسدس ماوزر برقعة فضية مثبتة على القراب .

– تفضل اجلس – قال لسينتسوف بدلا من ان يرد التحية . ينبغى ان نفكر بقضيتك . فقد قلت باننا لسنا بحاجة الى امثالك، الا ان الرفيق مالينين متذمر .

– من حقك ان تصدر الاوامر ، وما علاقة تذمرى بالموضوع؟! – قال مالينين .

– لم اتذكر بعد كيف اصدر الاوامر – قال المفوض ساخرا – وعندما ارتدى البزة العسكرية سأتذكر وسأبدأ باصدار الاوامر . اما الآن فلنتشاور فى الامر . حدثنى الرفيق مالينين قصتك بالخطوط العريضة – خاطب المفوض سينتسوف من جديد . – أفلا تريد ان تضيف اليها بعض التفاصيل؟

شعر المفوض بلون الفولاذ وهو مصفوف بتسريحة مائلة . وجهه ضيق ذكى وشفتاه مزمومتان على نحو ساخر وعيناه مفعمتان بنفس التعابير الساخرة من وراء نظارات مؤطرة بالذهب .

– ما فائدة الاضافة؟ – قال سينتسوف وهو يتطلع الى هاتين العينين الساخرتين – هل هناك داع للمزيد من العذاب؟!

تلفظ ذلك بخشونة نتيجة اليأس الذى اصابه، الا ان خشونته هذه تركت انطباعا حسنا لدى المفوض لسبب ما .

– وهل هناك داع للكلام عن العذاب؟! فمع ان لقبى المانى ولكننى انا لست المانيا لاعذبك . لقد تعذبت بما فيه الكفاية كما يبدو من اقوال الرفيق مالينين . ولكن ما يثير شكى هو الآتى (اذا كان بوسعك ان تبدد شكى فاعترض عليه): لو كنت شخصا مدنيا لطرحنا فقط مسألة الثقة بك . الرفيق مالينين يثق بك، وانا كذلك . ولكنك عسكرى وضابط . أفلا يفسر ذلك باننا كأنما نحميك ونتستر عليك؟

لم يتحمل مالينين فقال :

– ما اغربك، يا رفيق هوبر! عن اى تستر تتحدث؟!

القى المفوض نظرة على مالينين فلمعت نظارته وواصل كلامه مصرا على رأيه :

– انك فى سلك الضباط، ولكى توضح تصرفاتك السابقة وتحصل على تعيين جديد فى الجبهة يجب ان تراجع الدائرة المعنية . واعتقد ان هذه المسائل من صلاحية الشعبة الخاصة . او ربما ينبغى لك مراجعة الادعاء العام للمنطقة لانك موجود الآن فى الاراضى التى تشملها صلاحياته . ويقع مبنى الادعاء العام – وانا اعيش على مقربة منه – على شارع مولتشانوفكا ليس بعيدا من هنا . وانا انصحك بالذهاب الى هناك . وانا لا اطلب تكرار قصتك، لان ذلك لن يغير من رأيى باية حال . ذلك كل ما اردت ان اقوله – اختتم المفوض كلامه بهدوء وبلا رحمة، وادرك سينتسوف ان التأدب والرقة فى كلامه مجرد شكل معتاد للتعبير لا اكثر .

– حرر له على الاقل ترخيصا، يا رفيق هوبر – قال مالينين فجأة بلهجة ودية – فليس لديه اية وثائق . ومن حسن الحظ انه وجدنى فى اللجنة المحلية، فانا اتذكره جيدا .

– حسنا – قال هوبر بايجاز وبدون تذمر، وفتح المفكرة الموجودة امامه على الطاولة واخرج من جيبه قلم حبر وبدأ يكتب .

– لقبك سينيف، أليس كذلك؟ – سأل بعد ان حرر السطرين الاولين .

فقال سينتسوف مصححا :

– سينتسوف، ا . ب .

– وسينتسوف، ا . ب . – كرر هوبر وهو يسجل اللقب ثم حرر بضعة سطور اخرى ووقع الورقة وانتزعها من المفكرة وطواها بنصفين وسلمها لسينتسوف وقال : – لا يوجد عندنا ختم . فان صدقوا فيها، والا فلا ادرى ... – هز كتفيه .

– هل تسمح لى بالانصراف؟ – سأل سينتسوف الذى شحب وجهه .

– تفضل .

ادار سينتسوف رأسه بغضب وبشكل دقيق عبر كتفه الايسر حسب الاصول العسكرية وانصرف بخطى متزنة من جزمته الممزقة .

ظل هوبر ومالينين لوحدهما، وتلاقت نظراتهما بصمت . تنهد مالينين تنهدة عميقة، وكاد الغضب يخنقه .

– تكلم يا مالينين والا ستختنق . فأنا ارى انك تكاد تختنق . تكلم بصورة غير رسمية . فالامر لم يصدر بعد . وانا مفوض حتى الآن بفضل اللجنة المحلية فقط . ثم اننا نعرف بعضنا بعضا من زمان ...

– انك بيروقراطي ! – دمدم مالينين بلهجة كالحة – كيف كنت مفوضا للواء؟ ذلك ما لا افهمه!

– والاكثر من ذلك انى كنت مفوضا فى لواء الخيالة الاول بالذات – قال هوبر ساخرا – كان ذلك فى قديم الزمان! منذ ذلك الحين تهرأت على عشرة بناطيل وانا اعمل فى الادارة الرئيسية، كما عملت خمسة عشر عاما فى التجارة مع الاجانب، فتدهورت ... ألا ترى كيف احل المسائل ؟

– واضح تماما . نسيت روحك فى الحقيبة، ونسيت الحقيبة فى البيت .

– من الغريب ان اسمع ذلك منك بالذات يا مالينين . فهل تعرف بم ينعتونك، فى غيابك طبعا؟

– اعرف – قال مالينين – العبوس المتحذلق ...

– بالذات – قال هوبر ساخرا من جديد – ذلك لانك تحفظ عن ظهر قلب منذ عشرين عاما كل حسابات اللجنة المحلية وكل الاجوبة عندك تطابق الاسئلة كما فى الكتب الدراسية! اما الآن فقد صممت على الحياة بسخاء! فالحرب ستمحو كل شيء! ولنضرب بكل الانظمة عرض الحائط! هكذا تعتقد؟ ذلك ما لم اكن اتوقعه منك!

– حسنا – قال مالينين – خفت من انه اذا حدثك – واشار مالينين باصبعه الى الباب وكأن سينتسوف لا يزال واقفا هناك – خفت من انك يمكن ان تقرر على نحو آخر. اما الآن فالافضل لك ان تسكت! ضميرك يؤنبك فاسكت ولا تتحرش بى ...

– لماذا يؤنبنى ضميرى؟ – قال هوبر وقد احتقن وجهه فجأة وفقد مسحته الدفاعية الساخرة – لقد تصرفت بشكل صائب . فهو عسكرى وعليه ان يراجع الادعاء العام، وهناك يقررون الامر بالشكل اللازم .

– وهل يقرر الجميع وفى كل مكان الامور الآن بالشكل اللازم؟ – قاطعه مالينين .

– ربما ليس فى كل مكان – قال هوبر – ولكنهم فى الادعاء العام العسكرى سيتمكنون، على ما اعتقد، من معالجة المسألة وسيصل هو الى الجبهة بافضل حال وبدون معونة منا .

– حسنا، اسكت اذن . فعلت فعلتك فاسكت، ولا توضح شيئا – لوح مالينين بيده يائسا من جديد ونهض ورفع يده نحو مقدمة طاقيته السوداء كمنقار البط وسأل: – هل تسمح لى بالانصراف الى الفصيلة؟

فى تلك الاثناء اقترب سينتسوف من مبنى الادعاء العام العسكرى على شارع مولتشانوفكا . فى الطريق فتح الورقة التى قدمها له هوبر وقرأها مرتين . خط هوبر جميل فيه تقاسيم حازمة . وتوقيعه رصين الى درجة بدت فيها هذه الوريقة وثيقة رسمية رغم عدم تذييلها بختم . كتب هوبر: «الى الادعاء العام فى دائرة موسكو العسكرية» وتحت ذلك كلمة «كتاب» وبعدها ما يلى: «نرسل اليكم الرفيق ١٠ ب . سينتسوف لعرض قضيته الشخصية . مفوض الكتيبة الشيوعية لمحلة فرونزنسكى . مفوض لواء الاحتياط ن . هوبر» .

قرب مبنى الادعاء العام وقفت سيارة جيب قديمة وقد غفا داخلها سائقها العسكرى . زجاج نوافذ المبنى مغطى بأشرطة ورقية ملصوقة بشكل علامة ضرب، ولكن ذلك لم ينقذها من الخراب، فقد تحطم نصف عدد النوافذ . دفع سينتسوف الباب ودخل . فوجد فى البهو بابين آخرين يؤديان الى الداخل . وقف حارس قرب احد البابين، ولم يكن هناك احد قرب الباب الثانى الموارب . اجتاز سينتسوف هذا الباب الى غرفة فيها طاولتان مستديرتان وكراس للمراجعين وشباكان خشبيان صغيران فى الجدار . وعلى احدهما رقعة: «الترخيصات»، وعلى الثانى: «المراسلات»، ولكنهما مغلقان . طرق سينتسوف على الباب، ثم طرق بشدة فتح الباب قليلا واطل الحارس منه:

– لماذا هذا الضجيج؟ لا احد هنا، فلا داعى لطرق الباب .

– اريد ان اراجع الادعاء العام .

– لا احد هنا، فلا تطرق الباب .

– اذن اريد ان، أكلمك انت .

– لا جدوى من التكلم معى – قال الحارس بلهجة قاطعة – اترك المبنى! هل عندك ترخيص؟

– كلا .

– اذن فلا داعى لبقائك هنا . لن اسمح لك ... اخرج، هيا – صاح به الحارس مهددا ودفعه الى الشارع .

لم تعد سيارة الجيب موجودة . وكان الشارع خاليا تماما . فهم سينتسوف انه لا جدوى اطلاقا من مراجعة الحارس من جديد، فقرر الانتظار فى الشارع . فلا بد من ان يأتى احد موظفى الادعاء العام آجلا ام عاجلا .

انتظر طوال ساعة وهو يرتجف فى الريح الباردة ويتيه وسط الاحاجى بسبب عدم دخول او خروج احد من مبنى الادعاء العام . وراح يجوب الرصيف امام المبنى جيئة وذهابا .

واخيرا نفد صبره فدخل البهو من جديد. القى عليه الحارس نظرة ثقيلة مرتابة وسأله وكأنما يراه للمرة الاولى:

– ماذا تريد!

– ألا تستطيع ان تدعو مناوب الادعاء؟

– لن ادعو لك احدا. لا يجوز الانتظار هنا. اذهب والا فسوف احتجزك!

– احتجزني – قال سيتسوف بمنتهى الاستعداد.

الا ان الحارس لم يكن ينوى احتجازه.

– اذهب والا استخدمت البندقية! – قال الحارس بلهجة غاضبة حائرة – ولا تتسكع امام المبنى. فذلك ممنوع!

قال تلك الكلمات وصوب البندقية نحو سيتسوف. تطلع سيتسوف بلا مبالاة الى الحربة المصوبة نحوه وادار ظهره للحارس وخرج دون ان ينبس ببنت شفة. لم يبق لديه الا الانتظار: فقد يدخل المبنى او يخرج منه شخص ما... ولم يعد سيتسوف يتمشى امام باب المبنى، بل راح يذرع الرصيف على الجانب الآخر المقابل له.

الشارع خال موات. ضيع سيتسوف حساب الزمن فدخل البهو من جديد وهو يفكر: «ساجعله يحتجزني! ساكلمه بخشونة وارفض الخروج. فما العمل؟».

دخل البهو بهذا التصميم منتظرا ان يصطدم للمرة الثالثة بالحارس المتجهم بعد ان اثقل احدهما على الآخر الى حد الغثيان. الا ان الحارس تبدل خلال هذه الفترة. فقد لزم نوبة الحراسة جندى ضئيل بوجه كوجوه الفتيات وحاجبين اسودين.

اخرج سيتسوف الوريقة من جيبه رأسا وتوجه الى الحارس مباشرة وقال بحزم:

– ايها الرفيق الجندى. هذا كتابى. استدع المناوب او اخبره عنى. فلدى قضية مستعجلة.

تسلم الجندى الورقة من يد سيتسوف فتراجع سيتسوف خطوة الى الوراء بعد ان سلمها. وقدر الجندى هذا التصرف حق قدره وقاس، بنظرة جانبية، المسافة بينه وبين مقدم الورقة وبدأ بقراءتها. ولبضع ثوان تصارع فى دخيلة الاحترام لتوقيع «مفوض لواء الاحتياط» مع الشك بالورقة الخالية من الختم. واخيرا القى نظرة جانبية اخرى على سيتسوف ورفع سماعة التلفون الموضوع على خوان قريب:

– ايها الرفيق مناوب الادعاء. يكلمك الحارس. جاء مواطن يحمل كتابا الى الادعاء العام من مفوض لواء تصعب على قراءة لقبه. وهو يرجوك ان تأتى لدقيقة... حسنا! سمعا وطاعة... سيأتى المناوب فى الحال – قال لسيتسوف وسلمه الورقة من جديد.

بعد زهاء خمس دقائق ظهر فى الباب حقوقى عسكرى برتبة ملازم. وهو شاب نحيف بشعر مبلل مصفوف على عجل وبقعة قرمزية على خده الايمن. ويبدو ان الحقوقى كان نائما عندما تلفن له الحارس، وقد وضع خده على قبضة يده فوق الطاولة. قرأ الورقة واعادها الى سيتسوف وتطلع اليه:

– لماذا هى بدون ختم؟

اجاب سيتسوف بانه لا يوجد ختم لدى الكتيبة الشيوعية. هز المناوب رأسه، فهذا التوضيح البسيط ما كان بوسعه ان يدهشه فى تلك الايام.

– حسنا، وماذا تريد انت من الادعاء العام؟ لماذا ارسلوك الينا؟

– ارسلونى بشأن قضية شخصية. – قال سيتسوف وتلفت حواليه. فهل يتعين عليه ان يقص حكايته كلها هنا، فى هذا البهو؟ – ارجوك ان تخصص لى انت، او الشخص الذى تكلفه، نصف ساعة.

القى المناوب نظرة اخرى على سيتسوف. وجه هذا الانسان يبعث على الثقة، انه وجه متعب صريح نزيه. صحيح ان ملابسه وسخة متنافرة ولا تناسب قامته، وبزته متهرئة جدا ولكن المناوب تذكر ان هذا الشخص جاء بالكتاب من الكتيبة الشيوعية وفكر بان الكثيرين عندما يغادرون البيت يرتدون كيفما اتفق مؤملين بالحصول على بزة عسكرية من الكتيبة. وهو، فى اغلب الظن، انسان نزيه، فالملوثون فى هذه الاوقات يحاولون الابتعاد من دوائر الادعاء العام العسكرى. ولكن المناوب لم يتمكن من الاستماع الى ما سيقوله هذا الشخص، ولم يتمكن كذلك من احالته على شخص آخر، ولم يكن بوسعه ان يوضح السبب فى عدم استطاعته القيام لا بهذا ولا بذاك.

اما السبب فهو ان الملازم الحقوقى بولوفينكين هو الشخص الوحيد الموجود حاليا فى مبنى الادعاء العام العسكرى لدائرة موسكو، اذا لم تأخذ بعين الاعتبار الحارسين اللذين ذهب احدهما للنوم وحل الآخر محله. فقبل ثلاثة ايام تسلم الادعاء العام امرا بالانتقال الى مكان آخر قرب احدى محطات القطار بضواحى موسكو. وتم نقل الارشيف كما نقلت الاعمال اليومية الى المكان الجديد. ومنذ يومين لم يبق فى مبنى الادعاء العام الا الخزانات الخالية واجهزة التلفون والحارسان وهو، المناوب الملزم بان يحيل الى العنوان الجديد

كل من يراجع هذا المبنى او يتلفن اليه وله حق فى معرفة العنوان الجديد. ولم يكن بوسع المناوب ان يتحدث مع سيتسوف هنا، فى البهو، لانه ينبغى عليه ان يلزم نوبته فوق، قرب تلفونه. ولم يتصور ان بالامكان اصطحابه معه الى فوق لان كل من يصعد الى هناك يفهم فى الحال ان الادعاء العام انتقل، وهذا شيء يجب ان لا يعرفه من لا يهمهم الامر!

وبعد ان فكر المناوب بكل الاحتمالات قال:

– تفضل، انتظر هنا، فى الغرفة عند مكتب الترخيصات. وانا لا استطيع ان استمع الى قضيتك لانى يجب ان اكون فى مكان نوبتى. وحالما يتفرغ الشخص الذى بوسعه ان يستمع اليك ساخبرك. فاما ان ندعوك الى الداخل واما ان ننزل اليك للتحدث معك. – واشار المناوب باصبعه الى الغرفة ذات الشباكين الصغيرين وقال للحارس – فليتنظر هناك...

– حسنا، شكرا – قال سيتسوف – غير اننى انتظر منذ ثلاث ساعات تقريبا.

– ما العمل؟ ستضطر الى الانتظار اكثر.

لم يكن المناوب يعرف كم سينتظر سيتسوف. الا ان اقتراحه بالانتظار لم يكن رياءا. فقبل ساعة تلفن من المكان الجديد احد المسؤولين وقال بانه سيعود الى هنا بعد قليل مع جماعة من العاملين. وعندما قال المناوب لسيتسوف: «انتظر» فهو يأمل فى وصول هذه الجماعة.

صعد المناوب الى غرفته وظل سيتسوف ينتظر. فى البداية انتظر بفارغ الصبر وراح يحسب الوقت دقيقة دقيقة. ثم تشوش الحساب فغفا. وعندما استيقظ هرع الى البهو وقال للحارس بلهجة سريعة لا تصدر الا عن شخص استيقظ من النوم توا:

– اعطنى المناوب!

اثرت لهجته الحازمة على الحارس فرفع السماعة وقال للمناوب:

– الشخص الذى تركته ينتظر يرجوك ان تتكلم معه. هل اعطيه السماعة؟

يبدو ان الجواب كان بالايجاب، لان الحارس مد سماعة التلفون الى سيتسوف. وتهادى فيها صوت متذمر:

– ماذا؟

– ايها الرفيق، لم يستدعنى احد حتى الآن!

– انتظر. سيستدعونك.

– ولكن على ان اعود الى الكتيبة – كذب سيتسوف بالتلفون يائسا – وسوف اعاقب على التغيب...

صمتت السماعة بضع ثوان.

– حسنا، ما دمت مستعجلا الى هذا الحد فاجلس هناك تحت، واكتب كل ما تريد اخبار الادعاء العام به، وعندما تنتهى من الكتابة اخبر الحارس وسوف يتلفن لى فانزل أنا وآخذ ما ستكتبه.

ظل سيتسوف واقفا بضع ثوان اخرى ضاغطا السماعة على اذنه. ولم يبق عليه الا ان يفعل ما قاله المناوب. فليس هناك من حل آخر... غير تسجيل القصة على الورق وتركها هنا، وانتظار النتيجة.

«ساذهب انا الى الكتيبة من جديد» – فكر سيتسوف فجأة بحزم وبشعور من الارتياح.

عثر فى جيب سترته القطنية على الاوراق المطوية التى كان قد اخذها من «اليين فى اللجنة المحلية ليكتب عليها رسالة الى ماشا، وعاد الى مكتب الترخيصات فوجد هناك ريشة محنية ولكنها لا تزال صالحة للكتابة. جرب الريشة ثم جمع بقايا الحبر من محبرتين وعدل وضعية الاوراق وانحنى على الطاولة واخذ يحبر الصفحة تلو الصفحة دون ان يتوقف او يطيل التفكير.

عندما حبر الصفحة الثامنة وانتهى من كتابة كل الملابسات بدأ الظلام يخيم فى الخارج.

اراد ان يقرأ ما كتبه ولكنه تطلع الى النافذة وعدل عن ذلك ملوحا بيده، وكتب آخر عبارة فى ذيل الصفحة الاخيرة:

«اعتبر كل تصرفاتى صائبة ما عدا نقطتين. الاولى هى اننى لم اراجع الشعبة الخاصة فى الوحدة المرابطة فى مكان خروجى من الحصار، اذ ارتحلت بدلا من ذلك كما ذكرت اعلاه. والنقطة الثانية هى اننى تحاشيت مركز التفتيش ولم اراجعه عندما اقتربت من موسكو. وانا اتحمل المسؤولية الانضباطية الكاملة عن صحة كل الوقائع التى عرضتها».

وقع الورقة الاخيرة وسجل التاريخ وقرأ السطور الاخيرة واضاف: «والحزبية» بعد كلمة «الانضباطية».

وتكررت نفس العملية فى البهو، حيث طلب سيتسوف من الحارس ان يتلفن للمناوب، فتلفن له وخلال بضع دقائق ظهر المناوب فى الباب.

– هل كتبت؟ – اخذ الاوراق من سيتسوف وتطلع اولا الى البداية ليتأكد من صحة العنوان، ثم تصفحها والقى نظرة عاجلة على الخاتمة – هل كتبت اين سنعثر عليك بعد الاطلاع على ما كتبت؟

– نعم. فى البداية – اشار سيتسوف الى المكان الذى كتب فيه «الكتيبة

الشيوعية لمحلة فرونزنسكي موجودة حاليا بالعنوان التالي: بلوشيخا، مبنى المدرسة المهنية رقم ٢».

وفي تلك اللحظة تذكر الورقة التي زوده بها هوبر فاخرجها من جيبه وقال:

– ايها الرفيق الحقوقي! اكتب على ظهر ورقتي بانني تأخرت عندكم حتى المساء، والا فسوف اعاقب...

لقد كذب قليلا، فالقضية ليست في موعد عودته الى الكتيبة. لقد كان يريد لهوبر ان يرى بانه راجع الادعاء العام فعلا.

– حسنا، ساكتب بانك بقيت هنا حتى السادسة مساء – قال المناوب.

– ادمغ الورقة بالختم ان امكن!

انكمش وجه المناوب. فينبغي له ان يصعد الى الطابق الثاني ثم ينزل، ثم يصعد. فتنحنح وهم بالرفض، ولكنه غير رأيه. فالقلب ليس من حجر! واخذ وريقة سيتسوف وخرج ثم عاد بعد دقيقتين.

– خذ! – قال بتذمر شخص طيب ولكنه غير مرتاح من طيبته.

خرج سيتسوف الى الشارع الذي احلولك قليلا، وطوى الورقة.

لم يكن على الورقة ختم دائري، بل ختم صغير مستطيل: «الادعاء العسكري العام لدائرة موسكو». وتحت هذا الختم عبارة: «تواجد في مبنى الادعاء العام حتى السادسة من مساء ١٨-١٠ الجاري». وفي ذيل العبارة حرف «ب» مرسوم بشكل جيد وكبير، وقربه توقيع مائل الى اسفل، وهو توقيع تصعب قراءته فظل لقب هذا الشخص مجهولا بالنسبة لسيتسوف.

بعد انتهاء اول انذار جوي خلال هذا المساء جاء الى هوبر آمر الدورية وقال له ان شخصا اسمه سيتسوف يقف عند البوابة ويقول بانه ترك الثكنة بترخيص من هوبر نفسه، وقد عاد الآن وعليه ان يراجع المفوض. ابتسم هوبر بسخرية وعدل من وضعية نظاراته وطلب ان يسمحوا لهذا الشخص بالحضور امامه كما استدعى مالينين في الوقت ذاته.

دخل سيتسوف على هوبر ولم يكن مالينين قد جاء بعد.

– ماذا لديك، ايها الرفيق سيتسوف؟ – سأل هوبر ساخرا – هل ان مبنى الادعاء العام مغلق بسبب الترميم ام انك لم تعثر على شارع مولتشانوفكا، ام ماذا؟

اخرج سيتسوف وريقة المفوض هوبر ووضعها امامه.

قرأ هوبر الورقة باهتمام وكأنه لم يكتبها بقلمه، ثم قلبها وقرأ بصوت مسموع ما كتبه مناوب الادعاء: «تواجد في مبنى الادعاء العام حتى السادسة ...».

– حسنا، يبدو انهم درسوا قضيتك وارسلوك الينا من جديد، أليس كذلك؟ آ؟ – رفع هوبر بصره الى سيتسوف متسائلا.

– كلا، ليس كذلك.

– هل يمكنك ان توضح بتفصيل اكبر؟

ذكر سيتسوف العريضة التي تركها في مبنى الادعاء العام.

– وهل ذكرت فيها كل ما قاله لي مالينين عنك؟

– نعم.

– دون ان تخفي شيئا؟

هز سيتسوف كتفيه، ففكر هوبر بنزاهة ان سؤاله هذا سخيف. فاي شيء يمكن اخفاؤه؟ لو كان هذا الرجل جبانا لفر بكل سهولة يوم امس الى اعماق المؤخرة. ولو كان متحايلا لربما تمكن بالكذب والاختلاق من ان يدس نفسه في وحدة عسكرية ما. وهل قليل الآن عدد الاشخاص الذين ضيعوا وحداتهم وفقدوا وثائقهم في المنطقة بين فيازما وموسكو؟

وعندما فكر هوبر بضخامة عدد هؤلاء الاشخاص اطلق صفرة وابتسم لسيتسوف ليس ابتسامة ساخرة، كما كان يفعل حتى الآن، بل ابتسامة بسيطة، فهو يجيد الابتسام ببساطة ايضا، وقال:

– اجلس، سيأتي مالينين الآن، وسنتشاور في الموضوع...

كان مزاج هوبر جيدا. فقد تسلم خمسمائة بندقية اضافة الى الستين بندقية الموجودة لدى الكتيبة منذ الصباح. لقد تسلحت الكتيبة الآن بالبنادق على الاقل. والامر الاهم هو ان الكتيبة ستنقل غدا بالسيارات الى منطقة اقرب الى الجبهة.

ولم يكن هوبر يعرف بما سيحدث بعد ذلك. فاما ان يجري جمع كل الكتائب في فرقة واحدة، واما ان يجري تعزيز الوحدات الاخرى بهذه الكتائب. وعلى اية حال فان ذلك قريب من العمل الذي بقي من اجله في موسكو بعد ان استأثر بفرصة البقاء فيها، بوصفه من قدامى المحاربين في جيش الخيالة الاول، وقام بتهجير الادارة الرئيسية واوكلها الى نائبه.

دخل مالينين فرأى سيتسوف وحياه بايماءة متجهمة بعد ان القى عليه نظرة شزراء غير ودية على عادته.

– خذ، واطلع... – دفع هوبر الورقة على الطاولة نحو مالينين ووجد صعوبة في ستر نظرته الساخرة – احد البيروقراطيين كتب ورقة شكلية فجاء بيروقراطي آخر فسجل ملاحظة عليها ودمغها بالختم، اما الانسان الحي – واومأ الى

سيتسوف – فيبير فى حلقة مفرغة ولا يستطيع ان يصل الى الجبهة بسبب البيروقراطيين. ماذا تعتقد؟ – سأل هوبر بفرحة مفاجئة – هل يمكننا التخلص من البيروقراطية وادراج المتطوع سيتسوف فى فصيلتك فنودع الشرعية وليعش اسلوب الانصار؟! آ؟

الا ان مالينين لم يتقبل هذه النكتة. فسأل بلهجته المتجهمة:

– ماذا قررت؟

– ماذا قررت؟! – كرر هوبر سؤال مالينين بمرح – الورقة تبقى عندى، وهو – اشار هوبر الى سيتسوف – يبقى عندك. بالورقة، عند الاقتضاء، سابرر تصرفى، اما انت فستبرر تصرفك بسلوك الرفيق سيتسوف فى القتال!

قال هوبر الكلمات الاخيرة بجد، فاكتست بمسحة وطنية تقريبا بالمقارنة مع لهجته عموما.

– سابرر إلثقة – قال سيتسوف – يمكنك ان لا تقلق بهذا الخصوص!

– اننى، على العموم، نادرا ما اقلق – قال هوبر بلهجته الساخرة السابقة وهو ينهض من وراء الطاولة. انه رجل ذو مزاج رومانسى، ولكنه يكبت هذا المزاج فى دخيلته. وقد كبته الآن ايضا.

– هل يمكننى الانصراف؟ – سأل مالينين بصوته المتجهم.

– طبعا، اذا كنت لا تريد ان تعرب عن رأيك.

– ما الذى يوسعى ان اقوله؟ لو انك قررت عكس ما قررت الآن لذهبت اشتكى عليك فى اللجنة الحزبية المحلية.

– لاستخدمت آخر امكانية، آ؟ – قال هوبر متشفيا.

– بالضبط. – التفت مالينين الى سيتسوف وقال: – فلنذهب!

الفصل الرابع عشر

تساقط الثلج لاول مرة قبل يومين. ولكن النهار مشمس الآن والسماء صافية والجو بارد.

كان مالينين متوجها من السرية الى الفصيلة. فى البداية ركض بحنى الظهر ليعبر مكانا مكشوفا فى احد ممرات التوصيل الملفعة بالثلج، ثم ارتقى بخط مستقيم رابية صغيرة عليها انقاض معمل للطابوق. وفى هذه الانقاض تقبع الفصيلة. ورغم الصقيع كانت الشمس تدفئ الوجه والرأس حتى عبر القبعة وخصوصا اثناء صعود الرابية.

توقف ليلتقط انفاسه والتفت الى الوراء.

انبسط خلفه مشهد معتاد من المشاهد الطبيعية فى ضواحى موسكو: ارض متموجة بعض الشيء تغطيها بقع الاجمات السوداء وتتخللها خطوط الغابات عند الافق. وفى مكان قريب مربع الشكل لاح مبنى اسود لمحطة جرارات محترقة، وفى ذلك المبنى مقر اركان الكتيبة، وعلى مسافة ابعد لاحت سطوح منازل القرية التى يرابط فيها مقر اركان الفوج. وتبرز على الثلج آثار كل درب جديد وكل خندق وكل ممر من ممرات التوصيل. ومهما فعلت لتمويهها فهى مرئية جيدا من هذه الرابية الواطئة. فقد كشف الثلج عن كل الاسرار.

فى نفس اليوم الذى وصل فيه مقاتلو الكتيبة الشيوعية مع الامدادات الى فرقة المشاة الحادية والثلاثين منح مالينين رتبة مرشد سياسى لسرية وبعثوه الى احدى السرايا. وهو لا يزال بهذه الرتبة الآن ايضا، بعد عشرة ايام من القتال.

المعارك دامية متواصلة. واستلمت الفرقة امدادات جديدة بعد الامدادات التى وصل معها مالينين. صحيح ان الامدادات هذه المرة شحيحة. وكان هناك شعور بان تقليص الامدادات يستهدف صيانتها لاجل المستقبل.

الالمان يواصلون نجاحاتهم، والفرقة اليوم تقاتل وظهرها الى موسكو، على مسافة عشرين كيلومترا شرقي الخط الذى وجدها مالينين فيه عندما التحقت كتيبتهم بها .

وخلال هذه الفترة انسحبت الفرقة عن مواقعها ثلاث مرات متتالية . انسحبت مرتين فجعلت جبهتها توازى جبهات جيرانها متحاشية الوقوع فى الحصار . والمرة الثالثة انسحبت لان فوجا من افواجها ابيد عن آخره تقريبا ولم يتمكن الفوجان الاخران من الصمود . ولم تتمكن الفرقة من وقف زحف الالمان الا فى صباح اليوم التالى على مسافة بعيدة داخل المؤخرة، فى المواقع الاحتياطية، حيث ارغمتهم على الانبطاح بنيرانها وبضربة مكثفة من المدفعية الثقيلة المرابطة فى الاعماق . تشبثت الفرقة بهذه المواقع التى يسير مالينين الآن على خطها الامامى ولم تنسحب منها مع ان الايام الثلاثة الماضية شهدت هجمات ضارية .

تلك كانت الحال فى قطاع الفرقة . اما الوضع على نطاق الجبهة فى ضواحى موسكو كلها فقد كان بمثابة معركة دفاعية هائلة مستديمة تكاد تستنفد فيها، على ما يبدو، قوى المهاجمين وقوى المدافعين على حد سواء، ولكن هذه القوى وتلك لا تريد ان تستنفد ولا تريد ان تستنزف . فقد استمرت المعارك بنفس الضراوة السابقة وبنفس التفوق لصالح الالمان . ولكنهم، رغم تفوقهم، يدفعون من يوم لآخر ثمنا متزايدا باطراد لقاء كل كيلومتر يحتلونه .

كان مالينين يشعر بنفس مشاعر الكثيرين من المحاربين فى ضواحى موسكو فى تلك الايام . فان خناجر الدبابات الالمانية لم تعد تنغرز فى جبهتنا كالسكين فى الزبدة، مثلما كان الحال فى الصيف ومثلما تكرر بنفس الصورة تقريبا فى الايام الاولى لاختراق خطوط الدفاع فى ضواحى فيازما وبريانسك . فقد ظهرت لدى الناس الآن بالتدريج حالة نفسانية اخرى هى حالة النابض المشدود الى اقصى حد وباكبر قدر ممكن من القوة والجهد، ولكنه يحتفظ بقدرته على الامتداد والمقاومة مهما بلغ الضغط المسلط عليه . ان هذا الشعور بالذات، هذه الحالة البدنية والروحية، هذه القدرة الباطنية على المقاومة وتسديد الضربات ، هى التى استولت فى تلك الايام على الناس الذين ازاحهم الالمان ببطء ووحشية من خط الى آخر وهم يقتربون من موسكو اكثر فاكثر.

لقد وتروا قواهم بانفسهم، فهم يعلمون ان موسكو وراءهم . وهم ليسوا بحاجة لمن يوضح لهم هذه الحقيقة . ولكنهم، فضلا عن ذلك، شعروا بان الوطن كله من ورائهم قد وتر قواه كيلا يسلم موسكو. شعروا بذلك من

الامدادات التى تصل فى احرج اللحظات، ومن المدفعية التى تتوارد على الجبهة بقدر متزايد يوما بعد يوم، ومن كثير من الدلائل الاخرى ابتداءا من الهدايا والرسائل وانتهاءا بلهجة الصحف .

واذا كانت هناك لحظة ما يحتمل ان تقع موسكو فيها بايدى الالمان فان هذه اللحظة قد مرت . فالمواطنون لا ينتظرون بعد انتصارا فى معركة موسكو، ولكنهم لم يعودوا يصدقون باحتمال الهزيمة . كانت الجغرافية، على مايبدو، الى جانب الالمان . فقد اقتربوا من موسكو فى عدة طرق عامة على مسافة اقل من مائة كيلومتر. الا ان حساب بداية الحرب، عندما استطاعت الدبابات التى اخترقت الجبهة ان تقطع هذه المسافة خلال يوم او يومين، لم يعد سارى المفعول فى ضواحى موسكو. كان بوسع الدبابات ان تخترق الجبهة، وقد اخترقتها بالفعل تارة هنا وتارة هناك، ولكنها كانت تتوقف من كل بد بعد ثلاثة او خمسة او سبعة كيلومترات . وبدون ذلك الحساب السابق الفظيع لم يعد بوسع الجغرافية وحدها ان تحطم النفوس والمعنويات .

انتهزت دائرة البريد الميدانى فرصة الهدوء اليوم فحملت رسائل الى المقاتلين . استلم مالينين رسالة من زوجته . عاشا معا ثلاثة وعشرين عاما فعودت على شحة ابدائه لمشاعره حتى صار ذلك من طباعها المكتسبة . ولذا كتبت له الآن بتحفظ عن انها تفكر فيه دوما وهى قلقة بخصوص ما اذا كانوا سيتسلمون الالبسة الشتوية فى الوقت المناسب . فالناس يقولون ان البرد الشديد سيحل مبكرا فى القريب العاجل . وبالاضافة الى ذلك كتبت له عن نبأين .

النبأ الاول حول ابنهما . فقد كتب مدير المدرسة التى جرى تهجيرها الى ضواحى قازان ان ابنهما فكتور مالينين التلميذ فى الصف العاشر اختفى تاركا ورقة قال فيها انه مسافر للدفاع عن موسكو. ولم يحتجز حتى الآن رغم التحريات .

«هل يستطيع احد ان يحتجز هذا الملعون» ! — فكر مالينين فى ابنه بحنان .

كتبت زوجته عن ابنها بأسى عميق لم يثر فى البداية لدى مالينين شعورا بالمشاطرة . «وما العمل؟ الصبى فى السابعة عشرة» — فكر مالينين متشجعا، ولكنه تذكر بعد ذلك عصر الامس وقبر الشهداء المفتوح الذى سجيت فيه جثث سبعة قتلى من السرية قتلوا فى يوم واحد . تذكر ذلك فاكتأب، مع ان فؤاده ظل مفعما بالافتخار بسلوك ابنه .

والنبأ الثاني يخص الزوجة نفسها. فان دائرة الاسكان التي تعمل فيها زوجته مفتشة اخذت تمارس العمل من جديد وقد عينوها مديرة لان المدير السابق كوكوشكين الذي يعرفه مالينين قد اعيد من مدينة غوركي التي هرب اليها، ونحي عن منصبه وفصل من الحزب ثم ارسل الى الجبهة كجندي بسيط. وقد افرح هذا النبأ مالينين. فان تجنيد امثال كوكوشكين في موسكو عزز ثقة مالينين بان كل شيء سيكون على ما يرام في آخر المطاف. سوف لن نسلم موسكو، وربما لن ننسحب اليها مباشرة.

وفكر مالينين بغضب ان كوكوشكين الذي يعتبره من السفلة سوف يتخلص من المأزق. سيزجون به في الجبهة ولكنه سيقفز منها، كالفلين، الى مكان ما في المؤخرة.

بعد ان استعاد مالينين انفاسه ارتقى الرابية التي ترابط عليها فصيلته. فالقتال يوم امس حال دون وجوده هنا في النهار والليل، فصار يشعر بذنب لا جريرة له فيه. كان قد تعود على رؤية احد من مقاتليه ولو مرة في النهار. فلم يبق عدد كبير منهم في السرية. ثم ان الحياة هنا لا ترحم: امس لم ير احدا، واليوم لن يرى احدا ايضا. فقد تكبدت الفصيلة بالامس خسائر فادحة ولم يبق فيها، حسب احصائيات الصباح، الا احد عشر مقاتلا، بمن فيهم آمر الفصيلة العريف سيروتا الذي يقودها منذ اسبوع بعد ان قتل في يوم واحد ملازمان: في الصباح قتل الملازم الذي اشترك في الحرب منذ اندلاعها، وفي المساء قتل الملازم الآخر الذي ارسلوه بدلا عنه من المدرسة العسكرية مباشرة.

انقاض معمل الطابوق لم تكن انقاضا في الواقع. فليس هناك ما يمكن ان يتحول الى انقاض. كانوا قد بدأوا بانشاء المعمل ولكنهم هجروه قبل ان يكتمل. ارسوا اساس جدرانه وافرانه وبدأوا ببناء الجدران حتى بلغت ارتفاعات مختلفة، ولكن مستواها لم يرتفع الى اعلى من نصف النافذة. وعلى مسافة قريبة ارسى اساس مدخنة المعمل المرتقب. ارتفع اساس المدخنة الدائري الضخم لمستوى متر واحد فوق الارض، وفي داخله تجويف لتصاعد الدخان من تحت الارض. وغدا ذلك بمثابة معقل دائري طبيعي لم يبق الا تكييفه ليكون نقطة جيدة لنيران الرشاشات.

قبل ثلاثة ايام، عندما شغلوا هذا الموقع، نصح مالينين، وهو من قدامى رماة الرشاشات، باستخدام المدخنة على نحو افضل. وقد رأى امس الاول كيف احتل قاعدة المدخنة سينتسوف برشاشه الثقيل. منذ بداية القتال

ادرج سينتسوف ضمن سرية مالينين بمحض الصدفة من جهة، لانه كان يمكن ان يلتحق على العموم بفوج آخر او كتيبة اخرى، وبارادة مالينين من جهة اخرى لان مالينين طلب ذلك من المسؤولين في الكتيبة فنسب سينتسوف الى سريته عندما جرى توزيع الامدادات.

وسرعان ما اتضح ان سينتسوف انسان مجرب يجيد استخدام السلاح. ثم ان ترقية الجنود لا تتأخر عادة اثناء المعارك الكبرى.

في الصباح الاول كانت مهمته ايصال الخراطيش الى الرماة، وفي مساء اليوم ذاته صار مساعدا لرامي رشاش «مكسيم». وفي اليوم التالي حل محل هذا الرامي الذي قتل. وقبل اربعة ايام، اثناء الانسحاب من المواقع السابقة الى هذه المواقع الجديدة، عمل سينتسوف مع مساعده، حتى حلول الظلام، في تغطية انسحاب السرية بنيران الرشاش، وقد ابدى بسالة وتحملا في ذلك كما يعتقد آمر السرية الملازم ايونوف.

وقال الملازم ايونوف بانه يتعين تقديم اقتراح بمنح سينتسوف مدالية «البسالة»، الا ان مالينين الذي يعرف قصة سينتسوف طالب بالتريث. فان طبيعته الصارمة وشعوره بالمسؤولية الشخصية عن سينتسوف لم يسمحا له بالاستعجال في هذا الامر. واكتفى بذكر لقبي واسمي القائمين على خدمة الرشاش في تقريره السياسي الدوري وامتدح اعمالهما، ولكنه لزم الصمت بخصوص الاقتراح بملء استمارة تقليد المدالية. اما آمر السرية المشغول بهموم كثيرة اخرى فقد نسي اقتراحه هو بشأن سينتسوف.

اراد مالينين ان يرى سينتسوف الآن، ولكنه لم يتوجه الى نقطة نيران الرشاش، بل ذهب في البداية الى انقاض المعمل نفسه حيث يتواجد العريف سيروتا.

لم يكن العريف سيروتا، شأنه شأن الآخرين، قد تخلص بالطبع من الشعور بالخطر، ولكن هذا الشعور لم يلعب الدور الرئيسي في اعتباراته الخاصة بالخدمة. فهو يمكن ان يقتل مثل اي شخص آخر. وبذلك ينتهي كل شيء، بما فيه الخدمة. الا ان فكرة الموت ما كان بوسعها ان تؤثر على صرامة اداء هذه الخدمة.

لمح سيروتا المرشد السياسي للسرية عن بعد فشد الحزام على سترته القطنية وتثبت مما اذا كانت النجمة على القبعة تستقر وسط الجبهة ام لا، والقى على كتفه رشاشته القصيرة من طراز شباغين، وهي جديدة ومصقولة توا. في الاسبوع الاخير بدأت هذه البنادق الرشاشة تتوارد على الفرقة. وكان سيروتا اول من استلم رشاشة من هذا النوع في فصيلته، وقد جربها في القتال.

ومع انها لا تتحلى بتهديف مثل البندقية العادية، الا ان كثافة الاصابة جيدة، ولذا يبدى سيروتا الآن، فى البداية، اهتماما مفرطا بعض الشيء برشاشته.

بعد ان علق الرشاشة على كتفه هرع عبر الفجوة فى الجدار للقاء المرشد السياسى. وردا على تحية سيروتا الصارمة حسب الاصول العسكرية رفع مالينين فى البداية يده الى قبعته ثم مدها لمصافحة العريف.

– كيف حالك يا سيروتا؟ – شد بقوة براحته الثقيلة على يد سيروتا الثقيلة ايضا.

– الطعام ليس على ما يرام، ايها الرفيق المرشد – تشكى سيروتا دون مقدمات.

فهو يعرف جيدا من خبرته فى الخدمة العسكرية متى يجوز التشكى لدى الرئاسة ومتى لا يجوز، وعندما يجد التشكى ممكنا فهو يتشكى دوما.

– لماذا؟ – مالينين مطلع على الامر ولكنه تظاهر بعدم المعرفة.

– فجر اليوم توجهنا نحمل الترموسات فعدنا بطعام تتسع له قدور الجنود الصغيرة...

– قدموا لكم المقرر – قال مالينين – للعدد الموجود من المقاتلين. فما الداعى للزعل؟

– است زعلان – قال سيروتا مع انه كان متذمرا من ذلك بالذات. فهو لم يقدم قائمة الخسائر بالارواح وكان يأمل اليوم فى الحصول على ارزاق بقدر ارزاق يوم امس.

– وما هى الامور السيئة الاخرى؟ – سأل مالينين.

– انت تعرفها – هز سيروتا كتفيه ولاح على وجهه تعبير: «لا حيلة لنا فى الامر» – لم يحضروا شيئا، فما العمل؟!

– هل تعنى التبغ؟

– طبعا. فهل هناك اهم منه، ايها الرفيق المرشد؟ الذخيرة كافية، وليس لدينا اعتراض عليها.

ابتسم مالينين وفتح محفظته الميدانية واخرج اربعة اكياس صغيرة من التبغ الرخيص.

– خذه ووزعه. اليوم استلمنا هدايا من اهالى موسكو فاخذت لكم منها تبغا. وهناك سجائر ايضا، ولكنهم سيجلبون لكم ذلك كله فى المساء...

اخذ سيروتا التبغ من مالينين وتنهد من فرط السعادة. واتضح من تعابير وجهه انه لم يدخن من زمان.

– دخن – قال له مالينين بعد ان رأى تعابير وجهه – وسادخن انا ايضا – اخرج من جيبه كيس تبغ مفتوحا ونثر على وريقة سيروتا تبغا ونثر لنفسه وراحا يلفان سجارتين. فقال سيروتا:

– ألا تدخل؟ نصبنا هناك مشمعا قرب الجدار.

– فلنبق هنا، فى النسيم. فالطقس جيد تماما.

– اذن اسمح لى بدقيقة، ايها الرفيق المرشد، لاوزع التبغ على المقاتلين.

– بالطبع...

اختفى سيروتا فى فجوة الجدار واستدعى احدا ولعله امره بتوزيع التبغ وعاد الى مالينين.

كان سيروتا قد التحق بالجيش حسب القانون القديم للخدمة العسكرية فى الثانية والعشرين من العمر وليس التاسعة عشرة. وهو الآن فى الثامنة والعشرين، ولكنه يبدو اكبر سنا بسبب امارات الاهتمام التى تعلو وجهه على الدوام. الا ان الابتسامة انداحت الآن على محياه وهو يلف السجارة.

– ما الذى يفرحك؟ – سأله مالينين.

– الطقس، ايها الرفيق المرشد – دخن سيروتا وهو يغطى السجارة المشتعلة براحته بكل مهارة – حبذا لو اشتد الصقيع اكثر.

– ما فائدة ذلك؟ اذا اشتد الصقيع صعب القتال.

– اما انا فاعتقد بان الامر اذا كان صعبا علينا فسيكون اصعب على الالمان – قال سيروتا بارتياح وكأنه قادر على ان يدبر هذه الاحبولة للالمان – فى فصيلتى طالب من الصف الرابع فى معهد الكيمياء، وهو يقول ان دهان الطائرات الالمانى لا يتحمل الصقيع فهو يتجمد فيه. انظر – واومأ سيروتا الى السماء – بدأ الشتاء الحقيقى منذ يومين، وطائرات الفريتس قللت تحليقاتها منذ يومين. واذا اشتد الصقيع فلربما يتجمد الدهان فى الدبابات ايضا.

– لا تخش الدبابات.

– انا لا اخشاها. لقد احرقنا اثنتين منها...

– ليس ذلك كثيرا.

– بالنسبة للفصيلة؟! – اعترض سيروتا بزعل – فلنحسب اذن: اذا اخذنا فصائل المشاة فقط، للفصيلة اثنتان، للسرية ست، للكتيبة ثمانى عشرة، للفوج اربع وخمسون – واصل سيروتا العد وهو يثنى اصابعه – للفرقة

مائة واثنتان وستون، لعشر فرق الف وستمائة دبابة ... وعلى ذلك لن تبقى لدى الالمان دبابات في ضواحي موسكو. لو كان الجميع يفعلون ذلك! فهل ان كل فصائلنا احرقت دبابتين للفصيلة الواحدة؟ فلنأخذ كتيبتنا مثلا. انني لا اعرف فصيلة اخرى احرقت دبابتين غير فصيلتنا! – قال سيروتا في الاخير متفاخرا.

– حسبت كل شيء بجبهة كاملة – قال مالينين بابتسامة ساخرا – لقد اديت واجبك – احرقت دبابتين، وبوسعك ان تنام مطمئن البال، فليحرق الآخرون دبابات العدو، لقد جاء دورهم، أليس كذلك؟

– كلا، انني لم اتعود على التفكير بهذه الطريقة. انني فقط اؤكد الحقيقة، فتدمير دبابتين من قبل فصيلة واحدة ليس بالشيء القليل.

– انا لا اقول بانه قليل. انا اقول بانه لا داعي للتعويل على الدهان. الصقيع سيشتد، وسيتجمد الدهان عند الالمان وستكف المدافع عن اطلاق النار وستتعطل الرشاشات ولا يبقى علينا غير ان نكنسهم من الطرق ونكومهم كجذوع الاشجار المنشورة! هذا التفكير خاطىء، ولا داعي لتهدئة النفس به.

– ما حاجتنا الى تهدئة النفس؟ – سيروتا حاضر البديهة ولا تعوزه الكلمات عندما يكون في حالة «الاستراحة». نشر يديه، ثم رفع رأسه وتطلع الى الشمس وقال وهو يضيق جفونه – خداع في خداع. حالما يشددون ضربتهم لن يبقى من هذا الطقس الجميل الا الدخان ...

– فلنتفقد موقعكم – قال مالينين والقى بعقب السجارة وداس عليه ودخل الفجوة في الجدار وتبعه سيروتا.

بعد عشر دقائق جلس يتحدث الى الجنود كما هي عادته دوما في ساعات الهدوء. تحلق حوله ستة اشخاص، بينما ظل الباقون، ومنهم سينتسوف، في مواقعهم. ولكن مالينين تعود على استحالة تحشد الجميع فاكتفى «بالجمهور» الذي احاط به. وقال لجندي شاب نحيف يسحب انفاسا مضطربة من غليونه:

– انت كيمياوي يا ميخنيتسوف. وانا لست كيمياويا. انت مطلع على الامور وتقول ان وقود الطائرات عند الالمان لا يصلح للصقيع، وان الدهان في دباباتهم يتجمد وربما تعتقد بان مدافعهم ستتعطل وكذلك البنادق الرشاشة – اثار هذا الموضوع قلق مالينين، فراح يخوض في تفاصيله مؤملا في آخر المطاف بان يحول مجراه كما يريد ويطرحه بالشكل الذي يعتبره صائبا – وانا اكرر القول بان ذلك ربما يكون صحيحا، فانت كيمياوي، وانت اعرف بالامور. ولكنني شخصيا لا اعلق املا على ذلك. انت تعلق عليه الآمال،

اما انا فلا. والاكثر من ذلك انك تأمل بان آليات الالمان ستتوقف عن العمل في الصقيع، وانا لا اعلق اي امل على ذلك، بل اعلق كل آمالي عليك انت يا ميخنيتسوف. كل املي فيك وفي فؤادك الذي لا يرتعب باي طقس، وفي بندقيتك وقنبلتك اليدوية وكل ما يقع بين يديك مما لا يتوقف عن العمل، لان فؤادك اذا لم يرتعب فان الالمان لن يصلوا الى موسكو باي حال حتى وان عملت كل آلياتهم كالساعة في صقيع يبلغ ثلاثين درجة مئوية تحت الصفر. ولكنه اذا ارتعب فؤادك فسوف يصلون الى موسكو في كل الاحوال بالآليات وبدونها، في الصقيع وبدونه. فما هو رأيك ايها الكيمياوي؟

يبدو ان ميخنيتسوف لم تكن تعوزه النباهة، فقد ادرك فورا ما يرمي اليه المرشد السياسي، ولكنه يريد من صميم القلب ان تنهال على رؤوس الالمان الزاحفين نحو موسكو كل المصائب دفعة واحدة. فراح يورد بحماس مختلف الاعتبارات الجديدة بخصوص صقيعنا والآليات الالمانية. فقال مالينين بلهجة مصالحة بعد ان احس بانه بدد الامزجة المتفائلة التي كانت تقلقه:

– لنفرض انك محق. فلتفقأ عيونهم! ولكن هل فهمت ان القضية الرئيسية تتوقف عليك وليس عليهم؟ انها تتوقف على صمودك وليس على تجمد دهان آلياتهم! – كرر مالينين الفكرة ذاتها بعناد.

– اجل، مفهوم طبعا، ايها الرفيق المرشد – اجاب عدة اشخاص بصوت واحد.

– سامع، يا سيروتا – قال مالينين بعد صمت قصير – اليوم هو الخميس، اليس كذلك؟

– بلى.

– تذكر، في السبت ستعقد جلسة المكتب الحزبي المفوج. وضعت في جدول الاعمال مسألة قبولك في الحزب.

– انني اخشى الاسئلة – قال سيروتا – فعندما لا توجه اسئلة اعرف كل شيء، وحالما يسألونني انسى كل شيء من سوء الحظ!

وقال مقاتل كهل بلهجة عطف ابوي:

– منذ الصباح طالع النظام الداخلي «وموجز تاريخ الحزب» ...

كان ذلك المقاتل هو تروفيموف الذي تعرض لنكات رفاقه قبيل دخول ثكنات الكتيبة الشيوعية حيث قالوا انه كأنما يستعد لصيد السمك. اما الآن فهو، بقبعته وسترته القطنية والمعطف الذي ارتداه فوقها، يشبه الجندي الاصيل، ولا يكشف عن كهولته الا شارباه الاشيبان المنتصبان. التحق بالسرية من

نفس الامدادات التى وصل معها سيتسوف ، وبعد الخسائر الكبيرة بالارواح
ظل هو الشيوعى الوحيد فى الفصيل . «واذا لم تأخذ سيتسوف بعين الاعتبار» –
تذكر مالينين وفكر فى الحال بانه لا يجوز اعتبار سيتسوف من الشيوعيين . اذ
ربما لن يعيدوا له العضوية بسبب بطاقته المضيعة فى ظروف غامضة ، رغم مآثره
الكفاحية . فقال مالينين مخاطبا تروفيموف :

– ساعد سيروتا فى التحضير . فمع انه آمر الفصيلة وانت جندى ، ولكنك
شيوعى قديم ولذا فانت اكبر منه فى هذا المجال .

– انه يساعدنى . وقد اخذت منه «موجز تاريخ الحزب» ، فلم يكن لدى
الا النظام الداخلى .

– هل احضرته من موسكو؟ – تطلع مالينين الى تروفيموف متسائلا .

هز تروفيموف رأسه بالايجاب وقال :

– جميع الشبان يعذبوننى باسئلتهم عن موسكو : كيف حال موسكو؟
وماذا يجرى فيها؟ يقال ان الذعر والفوضى انتشرا فيها ... حدثنا عما حدث .
وانا اجيبهم : اذا كان قد حدث شىء فلم اعد اتذكره . كل ما اتذكره الآن
بيتان من قصيدة ليرمونتوف :

«ويا شباب ، اليست موسكو وراءنا؟
فلنمت فى سبيل الوطن ! ..» .

حفظت ذلك فى قديم الزمان ، فى مطلع هذا القرن ، بالمدرسة الدينية ،
ولكننى اتذكره حتى الآن !

– اذا كانوا مهتمين بانباء موسكو – قال مالينين – فبوسعى ان احدثهم عن
آخرها . فقد استلمت رسالة من زوجتى ...

حدثهم عن ابنه الذى هرب من المدرسة الى الجبهة وقال ان زوجته عادت الى العمل
فى دائرة الاسكان . وحدثهم عن كوكوشكين الذى الغى اعفاؤه من التجنيد وارسل الى الحرب .
استمع المقاتلون الى ذلك بشعور من المشاطرة . وقد اعجبهم الغاء اعفاء
كوكوشكين من التجنيد فذلك ما يستحقه هذا السافل !

فعلق تروفيموف على ذلك قائلا :

– يعنى انهم يحلون النظام فى موسكو . شىء جيد . اما ان ابنك هرب من
المدرسة ، فاقول لك ، يا مالينين ، ولا يهمنى ان تزعل ام لا ، انه كان صبيا مشاكسا
وظل كذلك . انني اعيش على بعد شارعين عنكم ومع ذلك اعرف شيطنته كلها ...

– لا بأس . – قال مالينين الذى تأثر قليلا لهذه الاهانة – لقد كنت
بنفسى شيطانا فى سنه .

– ومع ذلك – سأل محارب شاحب الوجه كان قد جلس صامتا حتى
الآن وقد اسند خده بيده – كيف تبدو موسكو بعد القصف الجوى؟ انا من
سكان موسكو ، من ابناء شارع كوروفيى .

– شارع كوروفيى سالم – قال مالينين – الله يعلم كم مرة حدثكم
تروفيموف بذلك ! ثقوا به ، فهو رجل جاد ، لا يكذب ولا يشرب الخمر مع
انه صياد سمك !

قهقه الجميع .

– ومع ذلك – سأل ابن شارع كوروفيى دون ان يقر له قرار – هل
من المعقول ان التدمير فى موسكو قليل الى الحد الذى تكتب عنه الصحف؟
ففى كل ليلة تحلق الطائرات فوقنا متوجهة الى هناك وهى تزأر وتدوى .

– تحلق الى هناك ولكنها لا تصل – قال مالينين – فليس كل رصاصة
تتجه نحوك تصلك ! وكذلك هو حال موسكو . يخيل اليك من هنا ان القصف
الجوى مستمر هناك وانه قصف فظيع ، وانا عندما توجهت الى هنا ، الى
الجبهة ، كنت ارتجف من الهلع ، ولكننى عندما وصلت لم ار ان الاحوال
هنا فظيعة الى هذا الحد .

لم يصدقه سيروتا فقال بلهجة متأدبة :

– لا بد وانك تبالغ ، ايها الرفيق المرشد ، فكيف ترتجف من الهلع ؟!

والقى عليه مالينين نظرة جانبية ساخرة :

– كنت ارتجف حقا . فهل تظن باننى لا اشعر بالخوف المعتاد؟! اننى
اشعر بخوف شديد ! – انحنى مالينين فى تلك اللحظة لدى سماع صفير قذيفة
مرقت على انخفاض واطىء ، ووجد فى نفسه قدرة على اطلاق نكتة : الا ترى
كيف اركع للقذائف؟ !

ابتسم اثنان او ثلاثة ، اما وجوه الباقين فقد ظلت صارمة ، اذ ان
القذيفة انفجرت على مسافة قريبة لا تسمح بالتنكيت . وانفجرت قذيفة
تهديفية مماثلة فى الامام . وتوزع الجميع للاحتماء بالجدران ، بينما راحت
المدفعية الالمانية المسعورة تنهال بالقذائف الواحدة تلو الاخرى على الرابية
كلها وانقاض معملها . وفاحت رائحة الدخان الخانق .

– يوم امس حدد هؤلاء الانذال هدفهم عندما كنا نصد نحن هجومهم ! –
صاح سيروتا فى اذن مالينين – يوم امس اطلقوا قذائف كثيرة جدا ، واليوم
يطلقون قذائف اكثر ... لقد بدأوا من رابيتنا !

لم يكن لدى احد متسع من الوقت للتفكير فيما اذا كان الالمان

قد حددوا هدفهم بالامس، ام ان التوفيق حالفهم اليوم. فقد اطلقوا زهاء عشر قذائف متقاربة على الرابية جعلت الارض تهتز وتميد مرارا من جانب الى آخر. ووقعت احدى القذائف داخل المبنى الذى لم ينجز انشاؤه.

وكان مالينين، شأنه شأن جميع الذين انبطحوا تحت الجدار للاحتماء به من شظايا القذائف المنفجرة فى الخارج، قد احس فى وقت واحد بالصدمة والهدير والثقل وعسر التنفس. انهال عليه حطام الجدار المنهار والكتل الجليدية التى رفعها الانفجار.

استجمع مالينين كل قواه، وهو يشعر بالاختناق، وزحف من تحت اكوام الطابوق والتراب التى انهالت عليه. وقد وفق فى ذلك لانه غطا رأسه بيديه قبل الانفجار، فكانت اليدان طليقتين فوق الرأس.

خلص يديه اولا وتحسس وجهه المدمى فراح ينبش بهياج كل ما يعيقه عن النهوض، واخيرا تمكن، رغم اصابته برجة فى الاذنين، من الخروج من قبره الحجرى، فنهض مترنحا على قدميه.

كل شيء حواليه تحول الى حطام. فالقذيفة الثقيلة قلبت كل ستستر من المكان.. وعلى الثلج المخلوط بالتربة المحروثة وبحطام الاساس استقر الدم القاتم وخرق ممزقة من البزات العسكرية واشلاء مشوهة من جسد بشرى، وجزمة بداخلها ساق مقطوعة من فوق الركبة.

خطا مالينين بضع خطوات دون هدف معين، ثم ارتعش وتوقف. فقد خشخش شيء تحت جزمته. تطلع الى الاسفل ورأى نظارات تروفيموف باطارها الذى يعرفه من الخيط الملفوف عليه.

عاد الى الركن الذى انهال عليه الحطام فيه وادرك بانه ظل على قيد الحياة بسبب هذا الحطام. فقد تساقط الطابوق من ضربة قذيفة ارتطمت من الخارج باساس الجدار، اما القذيفة التى وقعت فى الداخل فقد انفجرت فى لحظة لاحقة بعد ان غطى الطابوق المنهار بدن مالينين وحماه من الشظايا.

– يا جماعة! يا جماعة! – صاح مالينين وقد اخذ يتذكر من كان معه فى اللحظة الاخيرة.

كان معه سيروتا وكان معه الطالب الكيمياوى ميخنيتسوف. فاين هما يا ترى؟ فى هذا الجانب من الانقاض لا توجد جثتاهما ولا حتى ما يتبقى من الجسد البشرى بعد الاصابة المباشرة.

وفكر مالينين: «ربما قذفتهما الضربة بعيدا»، وفى تلك اللحظة سمع

انينا من تحت الطابوق الذى انهال على ركن المبنى. اخذ ينبش الطابوق محطما اظافره حتى استخرج من تحته سيروتا حيا، بل وقادرا على التحرك الذى يشيه الرغبة فى النهوض. وبدلا من النصف السفلى لوجهه رأى مالينين عصيدة دموية حمراء. كان يئن بحنجرته وليس بفمه. وخيل لمالينين انه يئن ليس بحنجرته بل باحشائه الحية التى لاحت من فمه المشوه.

اخذ مالينين حفنة من الثلج ومسح بها وجه سيروتا المرعب فتحولت الى دم كثيف. ثم اخرج من محفظته الميدانية كيس تضميد ورفع رأس سيروتا قليلا وراح يضمد له اسفل وجهه. فى البداية نسى ان سيروتا بحاجة الى التنفس فضمد كل شيء حتى بدأ سيروتا يختنق. فاضطر الى تضميده من جديد. وبعد ان ضمد وجه الجريح بالشاش الملوث بالدم سحبه مالينين الى الحائط بحيث يكون رأسه اعلى كيلا يختنق بدمه. وفى تلك اللحظة رأى ساقا بارزة من تحت الطابوق فى المكان الذى سحب منه سيروتا.

عندما وصل الى هنا قبل ساعة لاحظ ان طالب الكيمياء ميخنيتسوف يرتدى جزمة لبادية جيدة بنعل مزدوج. وقال ميخنيتسوف انه عثر عليها قبل ايام فى كوخ مهجور واراد مالينين ان يطلق نكتة بهذا الخصوص ويقول ان الكيمياوى استعد للشتاء افضل من باقى افراد الفصيلة، ولكنه نسى ذلك آنذاك. اما الآن فقد ادرك ان ميخنيتسوف تحت الانقاض حالما رأى الجزمة اللبادية بارزة من تحت الطابوق.

لم يضيع مالينين الوقت فراح ينبش الطابوق على عجل من فوق ميخنيتسوف. بدأ من القدمين، ثم لام نفسه بصوت مسموع وقدر بصورة تقريبية موقع الرأس تحت الانقاض فزحف الى هناك وراح يخلصه من الطابوق. كان يجب البدء من الرأس كيلا يختنق الشخص اذا كان لا يزال حيا.

ظل مالينين يلوم نفسه لانه لم يفكر حالا فى هذا الامر البسيط وراح يلقى بالاحجار الى الجانبين بحماس مسعور. واخيرا لاحت كتفا ميخنيتسوف. لمس مالينين كتفا من تحت السترة القطنية فوجدها دافئة. كان ميخنيتسوف حيا. اسرع مالينين، ولكن بمزيد من الحذر، فحرر العنق والرأس، ولكنه توقف فجأة وهو يمسك بكسرة طابوقة رفعها توا من على قفا ميخنيتسوف. كان بدنه دافئا، ولكنه قد فارق الحياة. فالقسم العلوى للجمجمة قد قشطته كسرة الطابوقة هذه.

عدل مالينين قامته والقى بكسرة الطابوقة غاضبا، وفى تلك اللحظة سمع طلقات متقطعة من رشاش قريب. فعلى بعد اربعين خطوة منه، فى اساس

مدخنة المعمل كان هناك مقاتلون احياء يطلقون النار على الالمان. وتنفس مالينين الصعداء، فقد ظن في البداية انه ظل وحيدا.

اقترب مالينين من سيروتا ورفعه مرة اخرى وحرك بدنه الثقيل بحيث يكون محميا بشكل افضل من الشظايا في حالة وقوع انفجارات اخرى. وبالمناسبة فان نيران المدفعية الالمانية ابتعدت في الاعماق. عندما نقل مالينين سيروتا صدرت عن هذا الاخير من تحت الضماد الدامي بضع حركات ضعيفة ولعله يريد ان يصرخ، ثم بسط قبضتي يديه وكأنه مندهش لعجزه، وبعد ذلك شد قبضتيه من جديد وسكن. الا ان صدره كان يرتفع وينخفض بفحيح ثقيل. القى عليه مالينين نظرة اخرى، ثم اجتاز الجدار وسار في ممر التوصيل المؤدي الى المدخنة والمحفور على عمق واطيء، بقدر نصف قامة الانسان الى المكان الذي يتهادى منه صوت الرشاش المتقطع.

عندما بدأ اطلاق القذائف كان سينتسوف، مع مساعده الجندي الشاب كوليا بايوكوف الذي يخدم في الجيش منذ اكثر من عام، جالسين وراء الرشاش عند احدى الفجوتين المحفورتين في اساس جدار المدخنة. كانا يتمرنان بدون اطلاق نار، حيث يوجهان الرشاش نحو اهداف محددة مسبقا. علما بانهما تمرنا الواحد بدل الآخر، سينتسوف كمساعد وبايوكوف كرام اول.

امام الفجوة منحدر شديد يحتجب قسم منه عن الانظار في المنطقة غير المرئية، وبعد ذلك يتناقص الانحدار ويتحول الى منخفض ملفع بالثلوج يمتد بزاوية قائمة امام مواقعنا، ومن ورائه تبدأ رابية اخرى تتواجد عليها باقي فصائل سريتهم قرب ثلاثة منازل متباعدة قليلا. لم تكن هناك خنادق في المنخفض، وتم التنشين عليه من كلا الجانبين فكانت تغطيه نيران رشاشين. في الامس حاول الالمان الهجوم عبر هذا المنخفض بالذات، ولكنهم اخفقوا بسبب النيران المصوبة نحوهم من كلا الجانبين، بل ولم يتمكنوا حتى من نقل جثث قتلاهم مع انهم يفعلون ذلك عادة بمخاطرة. ويقال انه ظل في المنخفض امس زهاء ثلاثين جثة، ولكن من هنا، من فجوة الرشاش، لا يرى الا عدة جثث سوداء على الثلج في الاسفل. سينتسوف يتمرن مع بايوكوف الآن على اطلاق النار الرمزي، وقد اتفقا على التنشين بموجب وتد مغروز في الثلج وجثتين في طرفي المنخفض عند مدخله ومخرجه.

بايوكوف الذي خدم مع سينتسوف طوال اسبوع يشبه بعض الشيء ذلك الجندي الذي وافق، في موسكو آنذاك، على استدعاء مناوب الادعاء العام. فوجه بايوكوف وردي صقيل يشبه وجوه الفتيات، وله حاجبان اسودان

مثل حاجبي ذلك الجندي. وعندما خلع قبعته اتضح ان شعره الذي نما كالقنفذ اشقر الى حد البياض.

«كانت خصلات شعرك متدلية على جبهتك قبل الحرب، اليس كذلك؟» – سأله سينتسوف في اليوم الاول لالتقائهما. فابتسم بايوكوف وقال: «بالفعل!». وفكر سينتسوف بان بايوكوف كان جميلا للغاية بشعره الاشقر وحاجبيه الاسودين. وهو الآن حليق الرأس يرتدي قبعة شتوية عتيقة وكبيرة جدا. ومعطفه العسكري منتفخ فوق السترة القطنية. ثم انهما منبطحان هنا في العراء منذ ثلاثة ايام، في البداية تحت الرطوبة، ثم في الصقيع. فهل هناك مجال للجمال؟!

نشأت علاقات لا اطيب منها بين الاثنين منذ اليوم الاول لتعارفهما، وعلى الاصح منذ اللحظة التي قال فيها سينتسوف ان رامي الرشاش ومساعده يجب ان يجيدا كلاهما العمل بحيث يحل احدهما محل الآخر في اية لحظة، وعزز اقواله بالافعال، فانهمك منذ اول ساعة للهدوء بتعويد بايوكوف على حساب الزوايا وتصحيح التصويب حسب المسافة...

بايوكوف فلاح كولخوزي من ضواحي ريازان. وهو من ابناء قرية سولوتشا الواقعة وراء نهر اوكا والمشهورة ببطاطسها وبصيد السمك في المجرى القديم لهذا النهر.

ومهما يكن من شيء، فالناس لا يقاتلون طوال الوقت. وخلال اسبوع تمكن بايوكوف الذي يجيد الصمت والكلام تبعا لما اذا كان الآخرون يحبونه ام لا من ان يحدث سينتسوف ويخبره بانه لم يكمل الدراسة المتوسطة لاسباب عائلية: توفي ابوه ومرضت امه. وقبيل الحرب عمل رئيسا لفرقة كومسومولية في جمع البطاطس، وهو راغب في الدراسة بعد الحرب ليكون مهندسا زراعيا.

وقال بايوكوف:

– يتعين علي في البداية ان اقدم امتحانات الدراسة المتوسطة من سبعة صفوف. كنت انوي تقديم هذه الامتحانات اثناء الخدمة في الجيش، ولكن حدث ما حدث...

و«ما حدث» هو الحرب.

بايوكوف شاب نابه يثق بالآخرين. وفي كيس حاجياته دفتر يحتوي على اسماء جميع الكتب التي طالعها في حياته. وعددها غير قليل بالنسبة لشخص في عمره، مائة واربعة كتب – واغلبها من الكتب الجيدة. وفي الامسيات، اذا كان الوضع يسمح بذلك، يقص على سينتسوف مضمون بعض تلك الكتب بلهجته المتميزة التي يتكلم بها ابناء ريازان.

في القتال كانت واجبات بايوكوف تستأثر باهتمامه كليا. وهو في ذلك يشبه سيتسوف، ولذا فقد فهم بعضهما البعض تماما.

فؤاد سيتسوف مكرس هو الآخر للقتال، فهو لا يتساهل مع نفسه اطلاقا ولم تكن لديه اية مشاريع شخصية للمستقبل. فهو يتصور الآن كل حياته المرتقبة في الحرب – حتى النصر او حتى الموت – حياة جندي لا غير. واهم شيء بالنسبة له الآن في الوجود هو معرفته بان بايوكوف زميل جيد، فصار يعتز به من اجل ذلك، بل وهو ممتنه لان يقدم له اكثر مما يقدمه للعديد من الناس الذين يعرفهم من سنين.

عندما بدأ القصف الالماني سحب سيتسوف وبايوكوف الرشاش قليلا من فجوته كيلا تصيب شظية فوهته بالصدفة، وجلسا في مكان اوطأ في قعر اساس المدخنة المطوق بالطابوق المتين المقاوم للحرارة. وقد ادركا في الحال ان القصف شديدٌ ودقيق. فقد دوت الارجاء حواليهما من الانفجارات القريبة. ولكنهما، على العموم، شعرا بالامان تقريبا هنا، داخل المدخنة، حتى في مثل هذا القصف. فان الصفوف المتعددة من الطابوق المقاوم للحرارة لا يمكن ان تخترقها الا قذيفة ثقيلة موجهة بتنشين مباشر من مسافة قريبة، بل وبزاوية قائمة وليس بخط التماس. ومن الصعب على الشظايا ان تقع في المدخنة. فقد قام سيتسوف وبايوكوف منذ الامس الاول بتغطيتها بصفائح حديد المرجل. وقال آمر الفصيلة سيروتا ان هذه الصفائح اعدت لتكون حواجب لبوابات الافران. كانت الصفائح سميكة، بعشرة ملمترات، فغطت اثنتان منها المدخنة كلها تقريبا ولم يبق الا شق صغير. وعبر الاساس تتواجد فتحة الدخان التي صارت الآن بالنسبة للمقاتلين مدخلا الى المدخنة من تحت.

– انه معقل حقيقي – قال سيروتا بالامس. وكان سيتسوف وبايوكوف يعتقدان الشيء ذاته بخصوص مدخنتهما.

ولا يمكن ان تقتلهما رأسا الا اصابة مباشرة من قذيفة تقع على الصفيحتين اللتين تغطيان المدخنة. ففي تلك الحالة لا منجى لهما طبعا، اذ سيهلكان كلاهما. الا انهما لم يهتما بمثل هذا الحظ العاثر حتى خلال القصف الجاري الآن اكثر من اهتمامهما باي احتمال آخر للموت من الاحتمالات المتوقعة في الحرب على اية حال.

اخذت النيران الالمانية تشتد باطراد. قلب بايوكوف جيوبه من الداخل الواحد تلو الآخر وهو ينثر منها على راحته حبات التبغ القابعة بين طياتها. بالامس ايضا لم يحضروا تبغا. وقد قام بايوكوف بهذه العملية مرة، ولكنه

حاول ان يكررها اليوم. فالنيران شديدة الى درجة جعلته ينفعل.

نهض سيتسوف واقترب من فجوة الرشاش وتطلع الى المنخفض الثلجي المرئي عبرها.

كانت القذائف تنفجر هناك ايضا في الاماكن الخالية، ولكن بصورة اندر. اما في الرابية ذات المنازل الثلاثة فالدخان كثيف جدا فوق مواقع الفصيلتين المجاورتين. كانت القذائف هناك تنفجر متوالية كأعمدة السياج. وقد اختفى احد المنازل الثلاثة وكأنه لم يكن موجودا على الاطلاق.

اعتصر الالم فؤاد سيتسوف ليس لخوفه من استمرار القصف، بل لانه فكر على نحو قاطع: «حالما ينتهي القصف يبدأ الهجوم». جلس قرب الجدار جنب بايوكوف وظل ينتظر نهاية القصف. وشعر فجأة بحكة في الرأس فابعد قبعته لحظة ولمس بيده حذرا اثر الجرح فوق الفود. قبل اسبوعين خيل لزولوتاريف ان ذلك جرح مميت، اما الآن فلم يبق من هذا الجرح الا خدش ضيق بجلد املس صقيل الملمس وشعر ابرى قصير على الجانبين.

فيم يفكر الناس في مثل هذه اللحظات؟ انهم يفكرون، عادة، بامور شتى. يفكرون احيانا باشياء مهمة، واحيانا اخرى باشياء غير مهمة، واحيانا يفكرون بهذه وتلك معا. انهم يفكرون في بعض الاحيان بصورة طبيعية حسب مجرى الافكار، وفي احيان اخرى يحملون انفسهم على التفكير بما يمكنه، كما يخيل اليهم، ان يلهيهم عن الخوف من الموت.

لم يحمل سيتسوف نفسه على التفكير عمدا. كان يفكر بكل ما يتبادر الى ذهنه. الا ان الافكار تتعاقب ويدفع بعضها بعضا وكأنها تخشى الا يتسع الوقت للتفكير في كل ما هو بحاجة الى التفكير فيه.

خلال هذه الايام هم عدة مرات بكتابة رسالة الى ماشا عما هو فيه وعما يفعله. كان يريد لها ان تعرف ذلك. وكلما اشتدت رغبته في الكتابة كلما سائل نفسه بقساوة: على اي عنوان؟ اين هي الآن؟ لديه رقم صندوق بريد المدرسة، ولكن ماشا ليست هناك حاليا، فهي من زمان على الجانب الآخر من الجبهة. والكتابة من هنا اليها هناك تشبه غرز وريقة الرسالة المطوية بشكل مثلث في جدار المدخنة الحجري هذا.

تذكر كيف جلست القرفصاء في موسكو خلال تلك الليلة وراحت تغسل رجليه في الطست وتمسح طبقات الاوساخ وتلمس الكدمات برفق لتغسلها. وثار في دخيلته حنان ممض الى يديها الرقيقتين حتى ارتعب من قوة ذكرياته فخنقها في الحال ولام نفسه بهمس مسموع. وسأله بايوكوف بعد ان تمكن من جمع بضع حبات من فتات التبغ ولف منها سجارة رقيقة جدا:

– ماذا بك؟

– لا شيء – لوح سيتسوف بيده يائسا.

– ظننت انك تذكرت حماتك – اطلق بايوكوف نكتة غير مناسبة.

تذكر سيتسوف بألم مكبوت قديم غرودنو وكل ما يرتبط بهذه الكلمة في ذاكرته الجريحة والمتخدرة بسبب الجراح. وهز رأسه، دون وعي منه، كحصان لدغه ذباب الخيل. ثم فكر بمالينين الذي رآه من بعيد عندما ارتقى السفح قبل ساعة، وتذكر الحديث بينهما في اليوم الاول عندما عين مالينين مرشدا سياسيا للسرية. راح مالينين اثناء تعرفه على المقاتلين يتفقد المنازل السالمة في قرية كليتشى التي باتت السرية ليلتها فيها والتي صارت من زمان ضمن مؤخرة الالمان. وبعد ان تحدث مالينين الى المقاتلين استدعى سيتسوف الى خارج المنزل ووقف بساقين متباعدتين ودس يديه في جيبيه – تلك هي الوضعية المحببة لديه – وقال بلهجته المتجهمة:

– اكتب عريضة ووضح فيها ماضيك. فقد التحقنا بوحدة عسكرية نظامية، ويجب ان يسود النظام كل شيء.

– لمن اكتب؟ لقد سبق وكتبت ... – قال سيتسوف بكآبة.

القى عليه مالينين نفس النظرة المتجهمة وقال بنفس الصوت المتذمر:

– اكتب لي. وسوف اسلمها بنفسي الى المفوض او الى الشعبة السياسية للفرقة. وهم سيقررون الى اين يرسلونها حسب العائدية. ولكن اذكر الاشخاص والوقائع تأكيدا لها. اذكر اسماء الاشخاص. فاذا ارادوا التثبت من ذلك فليفعلوا. اكتب العريضة اليوم طالما نحن تحت سقف. فمن يدري اين سننام غدا؟! اتفقنا؟ – هز مالينين رأسه بتجهم وسار باتجاه المنزل التالي، ولكنه توقف فجأة ونادى سيتسوف، فاقترب منه هذا، وقال له مالينين:

– اذكر بانى مطلع على كل شيء منذ البداية. وابدأ العريضة كالآتي: «تعلمون جيدا باني ...» – ثم اضف: – «... ولكنني اريد ان اسجل ذلك لكي تطلع الشعبة السياسية وقيادة الوحدة ...» مفهوم؟

– مفهوم.

في تلك الليلة جلس سيتسوف مرة اخرى ليكتب قصته – بايجاز ويذكر اسماء الاشخاص، كما قال له مالينين.

ولكن الكتابة من جديد، رغم الايجاز، شيء مؤلم بعد ان تحدث عن ذلك لماشا ويلكين ومالينين، وبعد ان سجل ذلك كله في الادعاء العام، وبعد ان تذكره مرارا عندما كان يخلو الى نفسه. وهل جاء الى هنا، يا

ترى، ليقاتل ام ليكتب العرائض؟ ومع ذلك كتب العريضة وسلمها الى مالينين. وكان ذلك في اليوم الثاني من المسيرة في الجبهة. كانت الفرقة تلتف على الجناح المكشوف وتنسحب على عجل الى المواقع الاحتياطية. وكانت قدما مالينين العبوس اكثر من المعتاد تغوصان في الاوساخ الكثيفة حتى اقترب من سيتسوف واخذ منه العريضة صامتا ودسها في جيب معطفه. ولم يتحدثا عن ذلك فيما بعد مع ان سيتسوف رأى مالينين مرارا.

حاول سيتسوف الآن، وهو يستمع الى الضربات الشديدة التي تميد لها الارض، ان يتصور كيفية تسليم مالينين العريضة، ولمن سلمها، وما الذي قاله اثناء ذلك، والى اين سيستدعونه، هو سيتسوف؟ الى الشعبة السياسية ام الى الشعبة الخاصة؟ ومع انه يعتقد بان احدا لن يعيده من الخط الامامي بعد عشرة ايام من القتال، فقد كان عدم البت في مصيره يثير قلقه. واضيفت الى ذلك فكرة كئيبة هي انه يمكن ان يصاب بجرح فينقل الى المؤخرة. وعند ذاك سيقول وداعا لهذه العريضة ولمالينين على حد سواء! وسيخرج من المستشفى ويرسل الى وحدة اخرى، وسيضطر الى كتابة كل شيء من جديد ...

– اسمع! – صاح بايوكوف في اذن سيتسوف ليعلو صوته على هدير المدفعية – اعتقد ان قذيفة اصابت الشبان هناك!

اقترب سيتسوف من الفجوة الاحتياطية ورأى عبر الدخان المتموج ان احد جدران المعمل غير الكامل كأنما غدا اوطأ مما كان عليه.

– اعتقد انها اصابتهم – قال سيتسوف مرتعبا.

كان ذلك في الدقيقة العاشرة على وجه التقريب بعد بدء القصف الالماني. واستمر القصف ثلاثين دقيقة اخرى ثم ابتعد في اعماق المؤخرة. وبدلا من الانفجارات القريبة صار يسمع فقط الازيز المتلاحق للقذائف المنطلقة فوق الرؤوس.

– راقب، يا كوليا، المنطقة من هنا، كن على اتصال، فربما سيظهر احد – قال سيتسوف لكوليا بايوكوف واشار الى الفجوة التي يرى منها معمل الطابوق، وذهب من جديد الى الفجوة التي يستقر فيها الرشاش.

الرؤية جيدة من هنا: في المؤخرة سياج من دخان الانفجارات، وعلى المنخفض الثلجي بين رابية معمل الطابوق ورابية المنازل الثلاثة زحفت الدبابات الالمانية. دبابات المقدمة اخذت تتسلق السفح نحو المكان الذي كان فيه ثلاثة منازل وظل فيه الآن منزل واحد ماثل. وفي سراديب تلك المنازل وفي الخنادق حولها ترابط فصيلتان من فصائلنا كما يعلم سيتسوف.

توقفت الدبابة الامامية واطلقت النار من مدفعها فانهار على الجانب آخر منزل مائل وكأنه مكعب من ورق . وانفجرت اطلاقة تحت الدبابة فصارت تدور في مكانها، ثم انفجرت تحتها اطلاقة اخرى فارتفع دخان اسود كثيف من الدبابة . وقفزت اشباح سوداء من الكوة العليا الى الخارج . واطلقت عليهم رصاصات نادرة من البنادق . الريح تهب من تلك الجهة، والاصوات مسموعة جيدا، فزاد ذلك من القلق بسبب قلة رصاص البنادق . ولم يكن يجري اطلاق النار تقريبا من الاماكن التي ترابط فيها فصيلتانا . مرت الدبابة الثانية جنب الدبابة المحترقة واجتازت الرابية واختفت وراء قمتها . وكانت الدبابات الزاحفة في المنخفض تتقدم هي الاخرى الى الامام دون عائق .

مضت دقيقة اخرى . فظهر المشاة الالمان في مجال رؤية سيتسوف . فقد سارت سلسلة من الاشباح القائمة على الثلج خلف الدبابات .

— يا بايوكوف، الى الرشاش! — صاح سيتسوف وقد رأى عبر الشق وتد التنشين الذي تسير مقدمة الالمان على بعد اربعين مترا تقريبا عنه .

هرع بايوكوف الى الرشاش وعدل من وضعية شريط الخراطيش وتطلع في البداية عبر الفجوة، ثم تطلع بتوتر من الاسفل الى الاعلى، الى وجه سيتسوف . وكانت نظرته القلقة تتساءل: «لماذا لا تبدأ؟» ولكن سيتسوف انتظر نصف دقيقة . فالتنشين على الوتد دقيق، وهو يريد الاستفادة من ذلك .

بلغت سلسلة الالمان مستوى الوتد . فاطلق سيتسوف صلية قصيرة، ثم صلية طويلة، فصلية قصيرة عندما قفز الالمان وانبطحوا في البداية قرب الوتد . وكانت الصلية الاخيرة، على ما يبدو، هي الاكثر توفيقا . فقد سقط من جديد خمسة من الالمان الذين قفزوا ولم يحاولوا النهوض او الزحف بعد ذلك .

— ماذا؟ — قرب سيتسوف وجهه من وجه بايوكوف وسأل على عجل بعد ان توقف للحظة — كيف حال رفاقنا في المعمل؟

— لا ارى احدا، اخشى ان يكونوا قد اصيبوا — اجاب بايوكوف .

وعندما سمع سيتسوف هذا الكلام اطلق صلية اخرى اقصر مما كان ينوي . فقد يخل بالخراطيش، وتلك ظاهرة تتجلى عند الجنود عندما يبقون لوحدهم .

طوال خمس دقائق واصل سيتسوف وبايوكوف اطلاق النار فارديا الالمان صرعى على الجليد بين الحين والآخر واعاقا تقدمهم . ثم اعاد الالمان تنظيم صفوفهم وراحوا يتراكضون على جانب المنخفض الابعد . وكانت نيران

الرشاش تبلغ تلك المنطقة، ولكن مفعولها ضعف . وعبرت سلسلة الالمان السوداء رابية المنازل الثلاثة . ولم يطلق احد النار عليهم من هناك . وذلك يعني ان كل رفاقنا قد ابيدوا .

وانبطح رامي رشاش الماني مع مساعده على الثلج مباشرة وقد فتح ساقيه — رأى سيتسوف وبايوكوف ذلك من هنا — واطلق النار ردا على رشاشهما . راحت الرصاصات ترتطم بالطابوق عند الفجوة مباشرة . كان الالماني يهدف بدقة، ولكن موقعه غير ملائم . فهو منبطح في مكان مكشوف . وبعد اخفاق ثلاث صليات سدد اليه سيتسوف صلية رابعة دقيقة . وشاهد كيف انقلب الرشاش على الثلج اما بسبب الصلية واما لان الالماني سحبه بيده قبل ان يموت . وخيل لسيتسوف ان مساعد رامي الرشاش رقد ميتا على الثلج ايضا . ولكنه بعد بضع دقائق، عندما كان سيتسوف وبايوكوف مشغولين باطلاق النار على اهداف اخرى، سحب بايوكوف يد سيتسوف وقال :

— انظر، المساعد ...

تطلع سيتسوف فرأى شبحا واحدا فقط يرقد على الثلج قرب الرشاش .

— هرب زاحفا ... — قال بايوكوف ولاحت في صوته مسحة من الاستنكار، فضلا عن الاسف . فهو، بايوكوف، لو كان بدل هذا الالماني لما هرب زاحفا، بل لواصل اطلاق النار لوحده .

واخيرا قرر الالمان التخلص من هذا الرشاش الذي اقلقهم والذي لم يكونوا في البداية قد التفتوا اليه خصيصا على ما يبدو، بسبب حماس الهجوم، فاتصلوا برجال دباباتهم . كانت الدبابات قد بدأت تخرج من مجال رؤية سيتسوف نحو اليمين، ولكن احدى الدبابات استدارت فجأة . ظن سيتسوف ان الدبابة اصيبت بعطب، ولكن الدبابة سارت بسرعة نحو رابيتهما مباشرة . وعندما اقتربت من السفح تباطأت ثم توقفت . وقال بايوكوف :

— ستضربنا .

هز سيتسوف رأسه مؤكدا، ثم قال:

— اذهب وانصت لتعرف كيف حال رفاقنا هناك .

فتحت الكوة في برج الدبابة وبرز منها الماني لعله اراد ان يطلع على الموقف بشكل افضل .

سلط سيتسوف صلية عليه، فاختفى الالماني وانغلقت الكوة . وبعد لحظة ارتطمت قذيفة بالجدار قرب فجوة الرشاش . وعند ذاك وجه سيتسوف، لكي يثبت بانه لا يزال حيا، صلية طويلة غاضبة نحو الالمان الذين كانوا لا يزالون يتراكضون في المنخفض.

وفكر سيتسوف، «انهم يسيرون بكثافة، في عدة سلاسل». كل شيء مرئي جيدا من هنا، وقد رأى بصورة جيدة لاول مرة في حياته كيف يجري القتال ويتوسع.

– انصت فلم اسمع شيئا، ولا اطلاقة واحدة... أليس من الافضل ان اذهب الى رفاقنا؟ – سأل بايوكوف.

– حبذا – قال سيتسوف – ولكنني اخشى ان لا اتمكن لوحدي هنا...

اطلقت الدبابة قذيفة اخرى على مقربة من الفجوة، وسلط سيتسوف صلية جديدة على المشاة وكأنه يقول:

«كلا، لا ازال حيا!».

– قد ترغب الدبابة في الاقتراب. هيئ القنابل اليدوية! – قال سيتسوف بصوت ابح.

رفع بايوكوف من الارض حزمة من القنابل اليدوية المربوطة بسلك وعرضها امام انظار سيتسوف صامتا.

اطلقت الدبابة عدة قذائف اخرى، ثم قررت ان تقترب كليا، كما توقع سيتسوف. زأرت الدبابة زئيرا مكبوتا بسرعتها الاولى – وكان قرب هذا الزئير يثير الخوف – وتحركت من مكانها وزحفت مائلة ببطء على السفح الثلجي، ثم غيرت اتجاهها وصعدت الى اعلى بشكل متعرج ووقعت في المنطقة غير المرئية. وصار سيتسوف وبايوكوف يسمعان الآن زئيرها المختنق العالي. وقال سيتسوف:

– اذا اقتربت سنطلق النار على الفجوة.

– عند ذاك اضرب انت في شق الرؤية – قال بايوكوف – وسأزحف انا نحوها لاضربها بالقنابل اليدوية!

الا ان سيتسوف لم يجب، بل سلط صلية على مجموعة جديدة من الالمان المتراكضين عبر المنخفض.

ظلت الدبابة غير المرئية تزأر في مكان ما في الخارج، وخيل لسيتسوف انها واقفة في نفس المكان دون ان تقترب او تبتعد. واخيرا ظهرت الدبابة من جديد ولكن ليس امام المدخنة، عند الفجوة مباشرة، كما كانا يخشيان، بل انزلقت الى الاسفل، الى مكانها السابق. وقال سيتسوف فرحا وهو يمسح العرق بردنه:

– لم تستطع ان تتسلق على الثلج المتجلد!

ارتفع غطاء كوة الدبابة من جديد وظهر للحظة رأس الماني ثم اغلقت الكوة، وتزحزحت الدبابة قليلا لتغير موقعها. ارتفع المدفع، كالسبابة،

ثم هبط ليأخذ الفجوة هدفا. اضطرب سيتسوف اشد الاضطراب. ارتطمت القذيفة بالجدار قرب الفجوة تماما وتفتت الطابوق. وسددت الدبابة ضربة اخرى وتفتت الطابوق من جديد. وبعد ذلك دوى انفجار يصم الاذان وهدير حديدي من الصفيحتين اللتين انحرفتا عن موقعهما وارتطم رأس سيتسوف بالجدار فجأة فاصاب الصمم كلتا اذنيه. خيل اليه ان القذيفة اصابت فجوة الرشاش وانفجرت في الداخل، مع انه لو حدث ذلك لما بقي منه وبايوكوف شيء.

اما في الواقع فقد ارتطمت القذيفة بطرف الفجوة من الخارج، واندفعت الى داخل المدخنة عدة شظايا مع موجة الانفجار. شعر سيتسوف بالم خفيف في القفا، وهرع الى الرشاش، ورأى الالماني الذي رفع غطاء الكوة ووقف باطمئنان على البرج بكامل قامته وراح يتطلع الى نتائج الضربة وقد غطا عينيه بطرف طاقيته ليحميهما من ضوء الشمس الساطع.

حرك سيتسوف فوهة الرشاش حركة خفيفة فصوب نحو الطرف العلوي لبرج الدبابة وكتفي الالماني وضغط على الزناد «مسلطا»، بهذه الحركة الخفيفة، جام غضبه وحقده على الالمان. انشطر الالماني الى نصفين عند الخصر وكاد يسقط من البرج، الا ان احدا من الداخل سحب هذا القتيل من قدميه – كان سيتسوف واثقا من انه قتل – ثم اغلق الكوة. اطلقت الدبابة ثلاث قذائف متوالية اخرى من مدفعها، ولكنها ليست دقيقة، اذ اصابت المدخنة قذيفة واحدة فقط منها، ثم استدارت وهبطت نازلة.

عند ذاك فقط ترك سيتسوف الرشاش وانحنى على بايوكوف الراقد بلا حراك. وكان يئن بصوت خافت.

– ماذا بك يا كوليا؟ – سأل سيتسوف وقد شعر بوحدة مرعبة.

– اصبت في الظهر... عند الخاصرة – قال بايوكوف بخفوت.

حاول ان ينهض قليلا على يديه، فرجلاه لم تكن تطاوعانه.

رفع سيتسوف معطف وسترة بايوكوف فرأى على ظهره بقعة دامية صغيرة. الشظية صغيرة، ولكنها اصابت العمود الفقري، فلم يتمكن بايوكوف من الحركة. انهمك سيتسوف في تضميده، فقال بايوكوف وهو يحرك اصابعه:

– يداي سالمتان. قربني من الرشاش وسوف ازودك باشرطة الخراطيش.

اداره سيتسوف وقربه من الرشاش. ند عن بايوكوف انين قصير، ولكنه تمكن مع ذلك من الوصول الى الشريط وادخله في الرشاش بحركة ضعيفة.

– لا ازال قادرا على ادخال الاشرطة. ماذا حدث لقدمي؟..

— اصبت برجة بسيطة، وستشفى منها ... — قال سينتسوف دون ان يتعمق في معنى توضيحاته . كان يريد تهدئة بايوكوف لا غير.

تطلع بقلق عبر فجوة الرشاش . لم يكن يريد تفويت الالمان اذا دخلوا من جديد مجال الرماية في المنخفض، مع انه احس في الوقت ذاته بانهما كلما اثقلا على الالمان كلما حلت بصورة اسرع، في اغلب الظن، نهايته ونهاية بايوكوف ورشاشهما.

وفكر بان الالمان يمكن ان يصعدوا من السفح الآخر، ولا يستطيع هو وبايوكوف ان يدافعا عن الفجوتين في وقت واحد . ترك الرشاش لحظة وهرع الى الفجوة الثانية . تبدد الدخان فوق معمل الطابوق من زمان، وساد صمت مطبق هناك . لعلهم جميعا قد قتلوا، والا فكيف يفسر هذا الصمت؟ ركض عائدا الى الرشاش ونظر من جديد عبر فجوته.

— انظر! انظر! — صاح بصوت عال واعجاب غامر، مع ان بايوكوف قربه ولا داعي للصياح.

انبعثت حمم من اللهيب والدخان الاسود الكثيف بهدير مرعب هناك، من الخلف، على الطرف الشرقي للمنخفض وابعد منه، قرب سياج محطة الجرارات التي اجتاحها الالمان، والى اليمين، على الرابية المجاورة التي هلكت فيها الفصيلتان . وخيل لسينتسوف ان الارض نفسها تنفجر تحت اقدام الالمان . ووسط الانفجارات تتراكض اشباح وتقع على الثلج، ثم تتراكض من جديد .... بينما استمرت الانفجارات متواصلة بشكل خط يلتهم ارجاءا جديدة متزايدة من الارض .

بايوكوف يعرف ذلك، اما سينتسوف فلم يكن قد رآه سابقا، ولكنه ادرك ماهيته بحدسه فقال:

— مدافع «كاتوشا» الصاروخية . «كاتوشا» ...

وقال بايوكوف :

— نعم . رأيتها في معركة يلنيا .

تطلع الاثنان، السليم والجريح، مسحورين، الى ذلك المشهد الفظيع الذى اثار البلبلة فورا في حركة الالمان بعد ان كانت جيدة التنظيم تماما قبل ذلك . ظل مشاتهم يراوحون في مكانهم، ثم بدأوا يتراجعون . وفي تلك الاثناء اخذت تنفجر في كل الاماكن التي احتلها الالمان توا قذائف المدفعية العادية وليس صواريخ «كاتوشا» .

استدارت الدبابات الالمانية الى الوراء واقتربت من رابية المنازل الثلاثة

التي امحت من وجه الارض واخذت تطلق النار من هنا . ومن داخل الغابة الصغيرة على يمين سياج محطة الجرارات زحفت الى طرف الغابة سبع من دباباتنا واخذت تطلق النار على الدبابات الالمانية . ها هي النار تشتعل في دبابة المانية، ثم في دبابة اخرى... وها هي احدى دباباتنا تحترق، ثم دبابة اخرى ... شد سينتسوف قبضته الى حد الالم وهو يراقب هذه المبارزة . اما مدفعيتنا فقد واصلت طحنها في كل الحقل امام محطة الجرارات وفي المنخفض وعلى رابية المنازل الثلاثة وابعد من ذلك وراء الرابية... وظلت القذائف تنفجر، فاخذ الالمان ينسحبون . وذلك واضح تماما الآن .

ثم رأى سينتسوف فجأة ان مجموعة من الالمان المنسحبين من محطة الجرارات، وعددهم ستون شخصا تقريبا، راحت تجر رشاشا ثقيلا وتتحاشى المنخفض الذي يتعرض للقصف وتتجه نحو اليسار بسلسلة عريضة صاعدة سفح الرابية التي يرابط بها هو سينتسوف . سلط على هؤلاء الالمان صلية، ثم صلية اخرى، فانبطحوا واستداروا الى يسار ذلك المكان، تياسروا فيه اكثر حتى غدوا خارج مجال رؤية سينتسوف .

ساعده بايوكوف وقدم الاشرطة عدة مرات بحركات متشنجة . كف سينتسوف عن اطلاق النار . فقد كان من الضروري سحب الرشاش باسرع ما يمكن الى الفجوة الاخرى .

— كوليا، يجب سحب الرشاش ... — بدأ سينتسوف كلامه ورأى رأس بايوكوف ساقطة على الطابوق دون نأمة من حياة .

كانت يده لا تزال تمسك بالشريط، ولكنه فاقد الوعي .

ابعده سينتسوف ثم انهمك بسحب الرشاش وهو يفكر بصورة محمومة: كيف يتمكن لوحده الآن، بدون مساعده، ان يطلق النار بلا انقطاع . وفي تلك اللحظة التي كاد يجأر فيها بسبب عجزه ظهر مالينين من ثغرة مجرى الدخان ووجهه قذر ملطخ بالدم وبيده بندقية . وسأل مالينين:

— هل تطلق النار من زمان ؟

— منذ اكثر من ساعة .

— كيف ذلك؟ غير معقول . — قال مالينين .

خيل اليه ان اغماءته استغرقت ثانية واحدة، في حين انها استغرقت نصف ساعة . خيل اليه انه خلص سيروتا وميختيشوف من الانقاض بضع دقائق، في حين ان ذلك استغرق زهاء ساعة . وعندما سمع صليات سينتسوف، لم تكن تلك الصليات هي الاولى اطلاقا، بل كانت الاخيرة التي سلطها سينتسوف توا على الالمان الزاحفين نحو الرابية .

تطلع سيتسوف الى وجه مالينين على عجل. فالوقت لم يكن مناسبا لتوضيح مدة وكيفية اطلاق النار. وبدلا من ذلك قال لمالينين بلهجة وكأنما سيتسوف الآن هو الاقدم:

– ساعدني في سحب الرشاش الى تلك الفجوة. فالالمان يزحفون من تلك الجهة!

سحبا الرشاش. وانبطح مالينين في مكان المساعد دون ان ينطق بكلمة، وبعد دقيقة دخل مجال الرؤية امامهما اولئك الالمان الذين يتسلقون الرابية على عجل.

– هيا! – قال مالينين بصوت خافت.

الا ان سيتسوف الذي صار يعرف عمله جيدا اومأ اليه بان ينتظر لحظة. الالمان يسيرون مستعجلين دون ان يحاولوا الاختفاء. واحس سيتسوف بانهم يأملون بان لا يهددهم اطلاق الرصاص من هذه الجهة لانهم صعدوا الرابية من المؤخرة. وبالمناسبة فقد شغلت مفرزة رشاش مواقع خلفية، تحسبا للطوارىء وكانت على اهبة الاستعداد لتغطية هجوم الالمان اذا تحرك احد على قمة الرابية. فقال مالينين بخفوت:

– نصبوا رشاشا للتغطية.

هز سيتسوف رأسه صامتا، فقد لاحظ ذلك.

صعد الالمان متعمقين اكثر فاكثر في مجال الاصابة الفعلية الكثيفة، وكانوا في الوقت ذاته يقتربون مع كل خطوة يخطونها من الخط المنشود الذي يبدأ وراءه المجال الذي لا تصله نيران رشاش سيتسوف. وفي الخلف، من وراء ظهورهم هدرت المدفعية.

– مدفعيتنا؟ – ارتعشت شفتا مالينين.

هز سيتسوف رأسه بالايجاب مع انه لم يكن في تلك اللحظة يرى شيئا غير الالمان الصاعدين الى الرابية وغير جزء من الحقل الثلجي وراءهم. كانت قد بقيت عشرون خطوة بين الالمان والمنطقة التي لا تصلها نيران سيتسوف عندما ضغط على الزناد وراح يدير مقبض الرشاش بصلابة واتساع من اليمين الى اليسار ثم الى اليمين وهو يرسم قوسا فتاكا من الرصاص على الاشخاص الذين لم يسقطوا بعد. وكانت تلك من الحالات النادرة في الحرب حيث تحصد صلية مفاجئة ومحسوبة جيدا جماعة كاملة من الرجال على مسافة اقل من مائة متر. سقطت الجماعة، ونهض عدة اشخاص في محاولة للوصول باقصى السرعة الى منطقة النجاة. واطلق سيتسوف صلية، ثم صلية اخرى!..

وكاد اول الالمان الراكضين يصل الى منطقة النجاة. ولكي يجهز سيتسوف على هذا الالماني ايضا اضطر الى حني الرشاش عن آخره. وسلط رشاش الالمان صلياته على الفجوة في هذه الجهة، الا انها كانت ضيقة فراح الرصاص يفتت الطابوق حولها لا غير.

وقال سيتسوف:

– ستأتي مجموعة اخرى.

وبالفعل نهضت من وراء الرشاش مجموعة اخرى من الالمان وسارت الى الامام. لم يطلق سيتسوف النار عليها. بل ركز كل انتباهه على الرشاش الالماني. فبسبب نيران الالمان الجوابية اصابت وجهه، عند عينه اليسرى الضيقة الجفنين، شظايا صغيرة من الطابوق، فجعله الالم يضيق جفونه لدرجة اكبر، وسلط الصلية الاخيرة على الرشاش الالماني فاصاب كلا الالمانيين المنبطحين خلفه. خر احدهما على جنبه. وقفز الآخر ثم وقع على ظهره وتدحرج على المنحدر. وعندما احست المجموعة بان الرشاش وراءها قد صمت لم تتحمل ذلك فتوقفت ثم ركضت الى الاسفل.

ارتبك سيتسوف لهذه المفاجأة. فقد خيل اليه ان الالمان سيتوجهون الى هنا جماعة اثر جماعة الى ان يقتل هو ومالينين وراء الرشاش. وفجأة استدار الالمان وركضوا عائدين فسدد نحوهم صلية متأخرة اخطأت الهدف ومرقت فوق الرؤوس. صحح التنشين. ولكن الاوان قد فات. ترك مقبض الرشاش والتفت بوجهه البليل من العرق نحو مالينين:

– افحص عيني يا رفيق مالينين... ماذا حدث لها؟

– افتح جفنيك، لماذا تضيقهما؟

– لا استطيع. عيني تؤلمني...

قرب مالينين وجهه من وجه سيتسوف وقال انه لا خطر هناك. فلا شيء غير كدمة تحت الحاجب.

فتح سيتسوف عينه موسعا بين جفنيها باصبعين. عينه تؤلمه ولكنها تبصر. وقال مالينين:

– يبدو اننا تخلصنا منهم.

لم يجب سيتسوف بشيء، فهو ايضا يتصور بانهما قد تخلصا من الالمان. لا احد يعرف ماذا سيحدث، ولكنهما الآن تخلصا منهم. يبدو ان الاخفاق العام فت في عضد الالمان فلم يستمروا فيما اقدموا عليه حتى النهاية.

– مساعدك قتل؟ بايوكوف؟ – سأل مالينين.

– كلا، اغمى عليه فقط.
ركع مالينين قرب بايوكوف: – اين جرح؟
– في الخاصرة.
فتح مالينين، مثلما فعل سينتسوف قبله، معطف بايوكوف وسترته ورفع قميصه وتطلع طويلا الى الشاش الذى تنقع بدم قاتم على الخاصرة، وعض شفته.
– يبدو ان حاله سيئة. هل عندك كيس تضميد آخر؟
اخرج سينتسوف من جيب معطفه كيس تضميد والقى به الى مالينين دون ان يبتعد عن الرشاش. سحب مالينين خيط الكيس وفتحه باسنانه ورفع بدن بايوكوف الفاقد الوعي وراح يضمده مرة اخرى فوق الشاش القديم.
عندما كان مالينين يضمد بايوكوف اخذ هذا يئن بخفوت دون ان يستعيد وعيه. فقال مالينين:
– انه يئن. وربما سيستعيد وعيه.. كيف حال الالمان هناك؟
– لا ارى لهم اثرا.
– اعتقد ان قواتنا تطاردهم.
– انظر عبر تلك الفجوة.
تطلع مالينين عبر الفجوة وهرع الى الرشاش، وصاح بصوت ابح:
– هيا! هيا!
سحبا الرشاش الى الفجوة الكبيرة. وبينما كانا مشغولين في التنشين تمكن حشد من الالمان المنسحبين عبر المنخفض من تجاوز منطقة نيران الرشاش. خفت القتال وتم طرد الالمان من كل الاماكن ما عدا رابية المنازل الثلاثة التى احتلوها منذ البداية. والآن تضرب مدفعيتنا هذه الرابية الخالية الآن، ولكن الالمان تمكنوا من ايصال الهاونات اليها وراحوا يردون على النار بنار شديدة.
كان سينتسوف قد ادرك خلال هاتين الساعتين ان كل رفاقنا الذين كانوا على تلك الرابية قد ابيدوا وان الالمان يحتلونها الآن. اما مالينين فلم يفهم ذلك الا الآن. ان الاغلبية من الـ ٤٢ شخصا الذين كانت سريته تتكون منهم في صباح اليوم اموات الآن هناك على تلك الرابية التى احتلها الالمان، وهنا بين انقاض معمل الطابوق.
– ابيدت السرية – هز رأسه متألما واضاف يلوم نفسه بغير حق. – غفلت عن السرية حتى ابيدت وبقيت انا على قيد الحياة!..
– لماذا تتكلم على هذا النحو يا رفيق مالينين!

– اسكت انت. فانا اعرف... – هز مالينين رأسه بهياج شديد وقد حز الالم في اعماق فؤاده – انظر عبر تلك الفجوة، أليس هناك المان؟
احس سينتسوف بان ساقيه لا تقويان على حمله من شدة التعب.
– كلا، لا احد هناك – قال وجلس قرب الجدار.
وفي تلك اللحظة سمعا كلاهما، هو ومالينين، في وقت واحد خشخشة جعلت مالينين يمسك بالقنبلة اليدوية المتدلية من حزامه، ولكنه خفض يده في الحال.
فقد لاح من الشق السفلي رأس سيروتا وكتفاه. كان آمر الفصيلة قد افاق من غيبوبته وزحف الى هنا على اصوات النار وسحب معه بندقيته. زحف ووصل ولا احد يعرف من اين له القوة الكافية. فعندما ساعده مالينين على الخروج من الشق لم يستطع ان يقف بل ولا حتى ان يجلس. فقد استند الى الجدار كالكيس. القسم السفلي من وجهه المضمد بشاش غدا احمر قاتما، في حين كانت جبهته واعلى وجنتيه شاحبين كالورق الابيض. استند الى الجدار دون ان يحرك رأسه، بل راح ينقل نظراته بين مالينين وسينتسوف ويبذل جهدا ليقول شيئا. وربما كان يتصور بانه يتكلم، ولكن ما ينبعث من تحت الضماد ما هو الا اصوات كالنباح الخالي من المقاطع والكلمات.
فقال مالينين وقد انحنى عليه وهز رأسه مهدئا:
– مفهوم، يا آمر الفصيلة، مفهوم. فكرتك واضحة. كل شيء على ما يرام. تخلصنا من هجوم الالمان. وربما ستصل قواتنا قريبا وستقدم لنا امدادات...
الا ان سيروتا واصل جهده ليقول شيئا ما. ومن جديد لم تفهم ولا كلمة واحدة مما قال. لم يتحمل مالينين اخيرا فاوقف هذا العذاب المشترك:
– لا تحاول الكلام، يا سيروتا. فلن افهمك مهما حاولت. فمك محطم... انك تلفظ اصواتا فقط وليس كلمات. سيعالجونك في المستشفى وتستعيد قدرتك على الكلام، اما الآن فلا تبذل جهدا ولا تعذب نفسك...
تطلع اليه سيروتا بعينين متسعتين وكأنه لا يصدق بما يقول، الا ان مالينين هز رأسه بالايجاب من جديد، فمد سيروتا يده الى البندقية ووضعها على ركبتيه بجهد جهيد ومال برأسه الى الحائط واغلق عينيه.
– الا ترى احدا من جهتك؟ – سأل مالينين من سينتسوف الذى وقف قرب الفجوة من جديد.

– لا احد – اجاب سينتسوف بصوت كالصدى .

– اذا لم يصل احد من قواتنا قبل حلول الظلام فسابقى انا معهما – قال مالينين واشار الى الجريحين – وستذهب انت من اجل الاتصال . فلا يجوز تسليم مثل هذا الموقع . ويمكننا من هنا ان نحرر تلك الرابية اذا كنا لسنا من الحمقى – قال وتطلع عبر الفجوة الى الرابية المجاورة – حبذا لو عرفنا احوال ايونوف؟ – تذكر مالينين آمر السرية بعد فترة صمت – فهو ليس ذلك الشخص الذى يمكن ان يهرب ويترك سريته ... لماذا انت صامت يا سينتسوف؟ – سأل مالينين بعد صمت دام بضع دقائق .

– انني افكر .

– بم تفكر؟ حدثنا اذا لم يكن ذلك من الاسرار ...

– افكر بمن ليسوا معنا ...

– من تقصد؟ وضح ...

– زوجتي .

– لا يحق لاحد منا ان يصطحب زوجته هنا – اطلق مالينين نكتة كئيبة – فلا نفع في التفكير بها . ولكن يجب الكتابة اليها بعد مثل هذا اليوم، واخبارها بانك بقيت حيا معافى بفضل ابتهالاتها .

لاذ سينتسوف بالصمت ولم يرد عليه .

لم يأت افراد من قواتنا الا بعد ساعة، قبيل الغسق . في البداية جاء ثلاثة استطلاعيين قيل لهم ان رفاقنا، على ما يبدو من القتال، صمدوا في هذه الرابية، ولكن الموقف غير واضح، وهناك مجال لمختلف الاحتمالات . زحف الثلاثة حول المدخنة من جهات مختلفة وبمنتهى الحذر، حتى ان سينتسوف شاهد واحدا منهم فقط في آخر لحظة .

– نحن رفاقك، فلا تحاول الاختباء! – صاح سينتسوف متنفسا الصعداء وقد لاحت في صوته فرحة جعلت الاستطلاعي يثق بهذا الصوت وينهض بكامل قامته فورا .

وبعد الاستطلاعيين وصلت الى الرابية فصيلة، ثم وصل، بعد حلول الظلام، آمر الكتيبة الملازم الاول ريابتشينكو مع جنود الاتصال الذين مدوا سلك التلفون . وكان مكلفا بمهمة ازاحة الالمان في الليل من الرابية المجاورة التى لا تزال تسمى برابية المنازل الثلاثة رغم كل ما حدث . وقبيل

المعركة الليلية نقل ريابتشينكو مركز قيادته الى هنا، الى معمل الطابوق، لان فيه خط الانطلاق الاكثر ملاءمة للهجوم الليلي .

قدم مالينين تقريرا شفويا عن القتال الذى جرى عند انقاض المعمل وقال ان رامي الرشاش سينتسوف ومساعده بايوكوف قاتلا بالشكل اللائق في معركة غير متعادلة . ولم يحمل مالينين نفسه على قول شيء اكثر من ذلك . ولكن آمر الكتيبة يدرك بنفسه انهما قاتلا بالشكل اللائق .

فقد رأى من مركز قيادته كيف تساقط الالمان المتقدمون في المنخفض، وكيف حاولت الدبابة اجتياح الرابية، وكيف حاول المشاة الالمان الصعود الى الرابية اثناء الانسحاب ولكن دون جدوى . ثم ان خسائر الالمان خير دليل . واعتبر المسؤولون في الفوج وفي الفرقة ان الهجوم الالماني اليوم كان محاولة لتحسس القطاع الضعيف ثم الاندفاع في اختراق الدفاع في حالة نجاح تلك المحاولة . الا ان المحاولة اخفقت ولم يتحقق الاختراق .

واستفسر مالينين عن احوال آمر السرية ايونوف، فقيل له ان ايونوف جرح في الدقائق الاولى للمعركة وحمل الى الكتيبة الصحية . وقال ريابتشينكو ان النجاح السريع لهجوم الالمان على رابية المنازل الثلاثة يعود من ناحية الى قوة نيرانهم، ومن ناحية اخرى الى تغيب آمر السرية ومرشدها السياسي في لحظة الهجوم، مع انه من القريب القاء اللوم على مالينين، الذى كان هنا اثناء الهجوم . ثم ان آمر الكتيبة ما كان يقصد اوبه، الا ان مالينين اعتبر ان تلك الملاحظة موجهة اليه، ورجا ريابتشينكو ان يسمح له بالمساهمة في الهجوم المضاد «على رابيتنا السابقة» . وقد قال هذه العبارة بالذات مؤكدا على مسؤوليته عن فقدانها . تطلع آمر الكتيبة الى وجهه المكسو بالكدمات وفكر بالدهشة التى تلازم الشباب : من اين يجد القوة هذا الشخص الذى هو في عمر ابيه؟

لم يرفض طلبه، ولكنه قال : – حبذا لو ضمدت جراحك في البداية .

وضعوا مالينين تحت تصرف المضمد الذى صرف وقتا طويلا في تضميد الجراح الطفيفة على وجهه اولا، ثم على يديه اللتين خدشهما الطابوق . وظل مالينين اثناء ذلك يفكر بسريته التى هلكت، فهل سيعاد تشكيلها من جديد ام انه سينقل الى مكان آخر وقعت فيه خسائر بين المرشدين السياسيين؟

ضمدوا مالينين، بينما استدعى آمر الكتيبة سينتسوف ووجه اليه بضعة اسئلة . سأله عما اذا كان الالمان قد حاولوا منذ البداية صعود الهضبة ام لا . فاجاب سينتسوف بالنفي . فقد مارس هو وبايوكوف اطلاق النيران

الجانبية فقط على المنخفض. ثم سأله آمر الكتيبة عن سبب عودة الدبابة دون ان تصل الى المدخنة. فاجاب سينتسوف بان الدبابة، على ما يبدو، تلكأت على الثلج المتجلد، وذكر الجندي الذي قتل على برجها.

– ربما كان ضابطا – هز آمر الكتيبة رأسه – وبعد ان شطرته الى نصفين لم يتجرأوا على الاقتراب!

ثم استدعى آمر الكتيبة الى التلفون ليكلم آمر الفوج وقائد الفرقة فقدم الى الاول ثم الى الثاني تقريرا منسقا، بصياغة افضل بكثير مما ذكره مالينين وسينتسوف، عن المعركة من اجل رابية معمل الطابوق. فقد خاض القتال هناك المرشد السياسي مالينين ورامي الرشاش سينتسوف ومساعده بايوكوف الذين صدوا هجوم المشاة الالمان والدبابات الالمانية واحتفظوا بالرابية حتى وصول تعزيزاتنا. وعلى حد تعبير آمر الكتيبة لم يكن سينتسوف وبايوكوف يطلقان النار فقط على الالمان، بل يخوضان القتال، ولم يقاتلا فقط، بل احتفظا بالرابية.

جلس سينتسوف على الطابوق متعبا. وشعر بغرابة الحديث عن كيفية خوضه القتال والاحتفاظ بالرابية، حتى خيل اليه ان الكلام يدور عن شخص آخر غيره.

نقل كلا الجريحين، بايوكوف وسيروتا، الى المؤخرة من زمان. وظلت جثث القتلى فقط. حفروا لهم هناك، وراء جدار معمل الطابوق مقبرة في الارض التي لم تتجمد بعد. ولكنهم قرروا ان يدفنوهم عند الفجر، لانهم لم يتمكنوا في الظلام من جمع كل ما تبقى من اشلاء المقاتلين بعد ضربات المدفعية المباشرة.

ظل سينتسوف جالسا يفكر بان شخصا ما سيكون مساعدا له عند الرشاش، وبما اذا كان بايوكوف سيعود الى الوحدة ام لا اذا شفي. ثم غفا للحظة، على ما يبدو، لانه انتفض من المفاجأة عندما سمع صوت مالينين قرب اذنه مباشرة.

– فلنذهب. تلفنوا من الفرقة. استدعانا مفوضها...

لم يكن مالينين مرتاحا لهذا الاستدعاء، لانه رغب في المشاركة في الهجوم الليلي على رابية المنازل الثلاثة، ولكنه اخفى مشاعره تلك. فلا جدال في الاوامر. وعلى خلفية الانقاض السوداء لاحت ثلاث بقع بيضاء هي وجه مالينين المعصوب ويداه البيضاوان الكبيرتان. فقال سينتسوف:

– انك، ايها الرفيق المرشد، كشبح ابيض في الظلام.

– قمطوني كالطفل الرضيع – قال مالينين غاضبا – فلنذهب، ولا داعي لتضييع الوقت!..

– ماذا يريدون منا؟ – سأله سينتسوف وهو يتبعه هابطا المنحدر.

– سنعرف هناك. يجب ان نصل الى اركان الفوج سيرا على الاقدام، ومن هناك ينقلوننا بالشاحنة الى الفرقة. ذلك يعني انهم بحاجة الينا...

– حزرت لماذا – قال سينتسوف بعد صمت طويل عندما هبطا من الرابية الى السهل امام البناية الرئيسية لمحطة الجرارات وراحا يعبرانه في الثلج غير العميق.

– لماذا؟

– بسبب عريضتي.

كان قد فكر بذلك حالما اخبره مالينين بانهم استدعوهما الى الفرقة: وحلت حالة الانتظار المتوتر محل حالة الارهاق البدني والحماسة النفسانية التي كان فيها بعد المعركة.

– ذلك شيء مستبعد تماما – قال مالينين – فهل من المعقول ان يستدعونا من المعركة مباشرة بهذه السرعة من اجل ذلك؟!

– وما علاقة المعركة بذلك؟! – قال سينتسوف – قرأوا العريضة وقدموها لمن يهمه الامر، وراحوا يتساءلون: كيف يجوز ارسال مثل هذا الشخص المريب الى الخط الامامي؟! ارسلوه فورا الى المؤخرة، للتثبت منه!

لم يكن سينتسوف واثقا من هذا الكلام، ولكنه كان يعد نفسه لاسوأ الاحتمالات.

– وانا، ما علاقتي بالقضية؟ – سأل مالينين.

– لقد استشهدت بك طوال الوقت!

– سخافة! – قال مالينين واثقا.

كان واثقا من ان تلك سخافة حقا، وذلك لسبب بسيط هو انه لم تسنح له حتى الآن الفرصة لكي يسلم عريضة سينتسوف شخصيا الى الشعبة السياسية للفرقة. فهو منذ اسبوعين ينتظر تلك الفرصة من يوم لآخر محتفظا بالعريضة في جيب معطفه. ولكنه ما كان راغبا في اخبار سينتسوف بذلك الآن: فان استدعاءهما الى الفرقة هيأ له الامكانية ليس فقط لتسليم العريضة، بل وللتحدث مع المفوض في افضل الظروف بالنسبة لسينتسوف – بعد المعركة الحالية.

– سخافة – كرر مالينين والتفت نحو سينتسوف وهما سائران – اعتقد العكس، انهم يستدعونك ليقلدوك مدالية تكريما لمعركة اليوم.

لزم سينتسوف الصمت . فلم يكن يصدق بهذا القول .

اما في الواقع فان كلا الافتراضين خاطئان، مع ان مالينين كان اقرب الى الحقيقة من سينتسوف . فقد كان هناك سبب آخر تماما لاستدعائهما العاجل من الخط الامامي . فقد وصل اليوم الى موقع الفرقة اديب يعمل في احدى صحف موسكو وهو كاتب كهل معروف . كان جالسا في مقر اركان الفرقة خلال المعركة . سمحوا له بالمجيء الى الفرقة على مضض، خشية ان يقتل فيتحملوا مسؤولية! ولكنه عندما عرف هذا المساء من قائد الفرقة ان هناك في الكتيبة الامامية مرشدا سياسيا ورامي رشاش صدا عدة هجمات المانية وقتلا زهاء خمسين المانيا صمم تصميما قاطعا على الذهاب الى الكتيبة للتحدث معهما . ورفض المسؤولون رفضا قاطعا ايضا السماح له بالذهاب الى الكتيبة وقالوا له بان وصوله اليها مستحيل الآن، وتنازلوا له، الامر الذي لم يلاحظه وهو في سورة من الغضب، ووعدوه بان الرجلين اللذين يرغب في التحدث اليهما يمكن استدعاؤهما الى هنا من الكتيبة . حاول ان يعترض على هذا الرأي: فما الداعي لحضورهما خصيصا؟ وقالوا له ما يقال عادة في مثل هذه الاحوال: طالما ان هذين الشخصين سيأتيان عاجلا ام آجلا، فليس في ذلك فارق بالنسبة لهما!

وقطعا لدابر الجدل رفع المفوض السماعة وتلفن . فهو، رغم تردده في السماح للكاتب بزيارة الكتيبة، كان راغبا جدا في ان يكتب هذا الاخير شيئا عن الفرقة وافرادها .

وها هو مالينين وسينتسوف المتعبان بعد المعركة يمشيان على الثلج من رابية معمل الطابوق الى بناية محطة الجرارات . توقف الثلج الذي تساقط خفيفا في الساعات الاخيرة . وبزغ القمر في السماء . واكتسى الثلج بلون فضي لماع واكتست الارجاء بمسحة اكثر مرحا وحبورا .

– الطقس جيد! – قال سينتسوف .

– انظر . هناك الماني قتيل – اشار مالينين الى جثة قائمة بيدين منشورتين الى الجانبين ازاء الدرب مباشرة .

وعندما مرا بالالماني القتيل توقفا لحظة وتطلعا اليه ثم واصلا طريقهما .

– انك رجل تستحق التقدير على ما اعتقد – قال مالينين بدون اية مقدمات .

وقطعا صامتين زهاء ثلاثين خطوة اخرى . فقال مالينين فجأة ايضا:

– لو انتسبت الى الحزب من جديد لاعطيتك تزكية في الحال ... –

وصمت مرة اخرى .

– شكرا .

وسارا صامتين زهاء خمسين خطوة اخرى . فقال سينتسوف :

– سنصل قريبا .

وما كاد يتلفظ هاتين الكلمتين حتى انفجرت قذيفة خلفهما، وتبعتها قذيفة اخرى ...

انبطح سينتسوف ومالينين جنبا الى جنب على الثلج الابيض اللماع الذي ربما كان من السهل رؤيتهما بمعطفيهما عليه عن بعد كبير . الا ان القذائف ظلت تنفجر باعداد معتدلة في مربعات كالشطرنج على الحقل الثلجي كله، فتنبعث مخروطات سوداء على اثرها وتنشر روائح الحريق حواليها . فقال مالينين:

– انهم لا يضربوننا، اطلقوا النيران بدون تنشين على الساحة .

– اجل – قال سينتسوف واسنانه مصطكة . لا فرق اذا كانا هما المقصودان بالقصف ام غيرهما . فقد ظلا منبطحين خمس دقائق، ثم عشر دقائق، بينما ظلت القذائف تتساقط في الحقل الواحدة تلو الاخرى، تارة من اليمين وتارة من الشمال، تارة من الامام وتارة من الخلف . فاستولى على مالينين وعلى سينتسوف شعور بالخطر اخذ يزداد ولا يضعف بعد المعركة الطاحنة التي مرا بها توا . رقدا صامتين وما كانا يرغبان لا في الكلام ولا في التفكير ولا في تهدئة بعضهما بعضا . كانا يريدان شيئا واحدا لا غير هو ان ينتهي ذلك باسرع ما يمكن . فلا يقتلان، بل يواصلان سيرهما .

انتهت الغارة بنفس المباغتة التي بدأت بها . وشوهت آثار الانفجارات من جديد الحقل الابيض الذي ما كاد ثلج المساء يغطي فيه آثار معركة النهار . فقد صار الحقل من جديد مسرحا للحرب وفاحت منه رائحتها .

نهض مالينين وسينتسوف وواصلا سيرهما . فما كان مقدرا لهما ان يموتا في هذا الحقل الثلجي الليلي . كان ينتظرهما الكاتب عند مفوض الفرقة . وقد اعد مفكرته وقلم الحبر واسئلته المعتذرة العاجزة التي تنم عن هويته المدنية . عريضة سينتسوف قابعة في جيب معطف مالينين، واستمارة تقليد سينتسوف المدالية تقديرا لمآثره في معركة اليوم يحررها ضابط في هيئة اركان الفوج . ولكن هذه وتلك لم تلتقيا بعد معا، وسوف تلتقيان حتما .

كانت رحى الحرب تدور . وانتهى يوم آخر من ايامها . والشيء الرئيسي في هذا اليوم ليس هو العريضة القابعة في جيب معطف مالينين ولا استمارة التقليد التي يحررها ضابط في هيئة اركان الفوج، ولا الملاحظات التي يسجلها الكاتب في مفكرته على عجل، بل الحقيقة البسيطة والمشهودة وهي ان الالمان، مرة اخرى وفي قطاع آخر من الجبهة بضواحي موسكو، لم يتمكنوا حتى المساء الا من تحقيق ربع ما كانوا يؤملون في تحقيقه في الصباح .

الفصل الخامس عشر

في محطة كورسكي للشحن جرى بليلة ٦ على ٧ نوفمبر تفريغ القطارات التي نقلت لواء الدبابات بقيادة كليموفيتش من غوركي الى موسكو. ولم يكن كليموفيتش قد تسلم بعد امرا بشأن الوجهة التي يتعين عليه الذهاب اليها فراح يفكر متحيرا: هل سيتركونهم في موسكو ام سيزجون بهم في الجبهة رأسا؟

بعد الواحدة ليلا وصل الى مكان التفريغ جنرال من قومندانية موسكو. انتحى بكليموفيتش جانبا واخبره بان وجهة اللواء هي بودولسك، ولكنه عندما يجتاز موسكو الى تلك الوجهة ربما سيساهم في العرض العسكري في الساحة الحمراء*.

الوضع في ضواحي موسكو لا يزال خطرا جدا، فلم تتبادر الى ذهن كليموفيتش حتى الآن فكرة احتمال هذا العرض. ولكنه قال: «حسب امرك» دون ان يعرب عن انفعاله، وظلت يده مرفوعة قرب خوذته وطلب السماح بالسؤال من الجنرال، ولكن الجنرال اجاب بما لا يترك ضرورة لطرح السؤال فقال:

– العرض في طور التحضير الآن. وفي تمام السادسة صباحا ينبغي ان تصل في مقدمة الرتل الى مبنى التلغراف المركزي وتنتظر هناك امرا بمواصلة السير. البت النهائي في هذا الموضوع يتوقف على الطقس، على ما اذا سيكون الجو صالحا لاقلاع الطائرات ام لا – اضاف الجنرال واومأ بقفازه الى السماء الصقيعية الصاحية.

قال ذلك كله بصوت منخفض مع ان بوسعه ان يصيح، لان الدبابات الاخيرة كانت تهبط من العربات واخشاب العبور تطقطق تحتها.

* بمناسبة الذكرى الرابعة والعشرين لثورة اكتوبر في ٧ نوفمبر ١٩١٧ (في ٢٥ اكتوبر حسب التقويم القديم.) المترجم.

الا ان كليموفيتش كان ينوي طرح سؤال مغاير تماما. وقد طرحه بعد ان ظل رافعا يده الى خوذته:

– هل يمكننا ان نذهب الى الساحة الحمراء مسبقا لنرى درجة الصعود ودرجة الانحدار نحو نهر موسكفا؟ فانا لم اسر في الساحة الحمراء ابدا – وكان كليموفيتش لا يقصد نفسه شخصيا، بل دباباته.

سمح له الجنرال بذلك وارتحل تاركا عند كليموفيتش كابتن القومندانية.

جلس كليموفيتش والكابتن على مقعدين باردين كالجليد في سيارة جيب انزلت توا من عربة القطار. وتحركت بهم السيارة في شارع سادوفايا الدائري ثم استدارت نحو شارع غوركي. كانت موسكو خالية تماما. واجهات المتاجر مغلقة بالالواح والخشب المعاكس ومحمية باكياس الرمل. القوات التي يتعين عليها ان تشارك في العرض العسكري لم تتحرك بعد نحو المركز، ولم يكن هناك مارة. وفي بعض الاحيان تمر مدوية سيارات منفردة بترخيص من القومندانية.

اوقفوا سيارة كليموفيتش والكابتن مرارا، ولكنهم كانوا يسمحون لها بالمرور، الى ان اوقفوها نهائيا: فان شارع غوركي مسدود عند مبنى التلغراف المركزي. وتعين عليهما مواصلة السير على الاقدام.

الساحة الحمراء، كلها تقريبا مغطاة بطبقة متساوية من الثلج الذي لم تمسه قدم. وتكومت اكداس ثلجية كبيرة كالقبعات على المدرجات الرمادية.

سار كليموفيتش عبر الساحة وهبط امام برج سباسكايا حتى بلغ نهر موسكفا. ليس هناك جليد تحت الثلج وبوسع الدبابات ان تجتاز الساحة دون عائق باية سرعة تشاء، وخصوصا اذا زيدت، بعض الشيء، المسافات الفاصلة بين دبابة واخرى.

قال كليموفيتش ذلك لكابتن القومندانية عندما عادا الى الساحة صاعدين من جهة النهر. هز الكابتن كتفيه وقال بان زيادة المسافات الفاصلة امر ممكن. فلا احد يدوس على الاعقاب من الخلف، والآليات ستكون قليلة كما سمع. ثم قطع الكابتن كلامه ورفع رأسه وتوقف. السماء مكفهرة بشكل ملحوظ بعد ان كانت صافية تماما قبل نصف ساعة. وقال الكابتن:

– سيقام العرض العسكري حتما.

سارا من جديد عبر الساحة الحمراء امام مبنى متجر الجوم الهائل الذي رسمت على جدرانه مختلف المربعات والمستطيلات التمويهية الملونة، وامام ضريح لينين المغطى بدرع حماية خشبي وقد وقف في بابه العميق حارسان مرئيان بالكاد... الا ان هدوء الساحة الحمراء وفراغها لم يتركا في نفس كليموفيتش ذلك الانطباع المقلق الذي احس به عندما عبرها باتجاه الكورتيش رغم تحكمه

بمشاعره. السحب تتلبد في السماء اكثر فاكثر. وبعد بضع ساعات سينتعش هذا القرميد الملفع بالثلج. فسوف تقف عليه القوات بشكل مربعات وسوف يرتقي ستالين منصة الضريح. فما قيمة العرض العسكري بدونه؟

في صبيحة ١٧ اكتوبر عندما استدعى من الجبهة كل من تبقى من افراد اللواء بعد الحصار وبعد معارك دامت ثلاثة ايام في ضواحي موسكو وارسلوا بعشرين شاحنة فورا عبر موسكو الى مدينة غوركي ليتسلموا دبابات هناك، نزل كليموفيتش، من سيارته السائرة في المقدمة، عند احد اركان شارع سادوفايا الدائري، قرب متجر للخبز بواجهة محطمة من اجل ان يترك هناك جنديا يدل باقي الرتل على الطريق. وحالما نزل اقتربت منه امرأتان احداهما عجوز والاخرى شابة بوجه جميل ولكنه نحيل. وقفتا امامه وسلطت عليه المرأة الشابة نظرة غاضبة وقالت بصوت عال دوى في الشارع كله:

– ماذا، يا رجال الدبابات، هل انتهت الحرب بالنسبة لكم؟

تطلع كليموفيتش الى هاتين العينين النسويتين الغاضبتين وتذكر من جديد كل ما عاناه في طريقه المأسوي الفاجع الذي بدأ بفقدان العائلة. وتجمعت في قبضة واحدة كل المرارة التي تكدست في صدره منذ اليوم الاول للحرب وكل الدروب الدامية وكل الخسائر وكل الدبابات التي دمرها الالمان والتي احرقها هو بنفسه – وضربته هذه القبضة في قلبه مباشرة: «ماذا، يا رجال الدبابات، هل انتهت الحرب بالنسبة لكم؟»

لم يجبها بشيء.

وبعد ذلك وصلوا الى شارع اينتوزياستوف. في الساعات الاولى سار رتل كليموفيتش وسط سيل متواصل من البشر. وبعد ساعة غصت قمرات سياراتهم ومتونها بالنساء والاطفال. ولكن الناس ظلوا يسيرون بلا انقطاع. وفي الاماكن التي تتلكأ فيها السيارات كانت جوانبها تحتك باكتاف السائرين والمتزاحمين قربها.

كان اكثر ما يعذب جنوده هو انهم وجدوا انفسهم، هم العسكريين المسلحين في سياراتهم، بين هذا السيل الاعزل وانهم يتجهون الى نفس الجهة التي يقصدها، نحو الشرق الى الفولغا. كان الناس يتطلعون اليهم بريبة ودهشة واستنكار، وبنظرات متسائلة: «الى اين انتم؟ ولماذا؟». ومهما كان عدد المعارك التي خاضوها، فقد كان صعبا عليهم السير في هذا الشارع الغاص بالناس دون ان يشرحوا لاحد لماذا يتجهون هم، الى الشرق، لانه لا يحق لهم ان يشرحوا ذلك.

كان ذلك في ١٧ اكتوبر. اما الآن، بعد عشرين يوما، فسوف يجتاز الساحة الحمراء بدباباته الثمانين، بستين دبابة من طراز «ت–٣٤» التي يحلم بها اي جندي من جنود الدبابات وعشرين دبابة ثقيلة من طراز «كف» الضعيفة المناورة بعض الشيء والتي لا تخترقها في الواقع المدفعية القليلة العيار.

حبذا لو كانت هذه الدبابات في لوائه خلال الايام الاولى من الحرب!

ثمانون دبابة ... في يوم الخروج من الحصار الثاني، في فيازما، حيث اخترقت قواته الحصار سائرة باستماتة واستبسال على طريق ترابي على ملتقى فرقتين الماتيتين، وصل هو، كليموفيتش، على شاحنة الى مركز قيادة فرقتنا مباشرة. ونهض لملاقاته جنرال شاب غير حليق كلف بمهمة عسيرة هي قيادة مجموعة من القوات التي تشكلت على عجل.

– ايها الرفيق الجنرال! انا قائد لواء الدبابات السابع عشر المقدم كليموفيتش حضرت لاكون تحت تصرفكم.

ومع ان كليموفيتش سار اثني عشر يوما من الحصار فان جميع ازرار سترته الجلدية مشدودة، وياقتها والشارة عليها سالمتان. فان تعوده على حسن الهندام اقوى من الملابسات، وربما لذلك بالذات استقبله الجنرال بعبارة الدهشة:

– اخيرا جاء رجال الدبابات! انتظرناكم طويلا! كم عدد الدبابات التي جئت بها؟..

تصور الجنرال السعيد ان قطاعه الجبهوي المدمى الممزق كالمنخل قد تسلم من المؤخرة لواء دبابات، وان هذا المقدم الحسن الهندام هو الملاك المنقذ.

وظن كليموفيتش ان الجنرال يسخر منه. ولكنه ادرك الحقيقة في اللحظة التالية وقال بمرارة ان تصور الجنرال خاطئ. فقد اخترق الحصار الالماني واحضر معه من كل آلياته السابقة عشر شاحنات ودبابة واحدة معطوبة بعض الشيء.

– فلتذهب الى الشيطان! ظننت انك ... – تلعثم الجنرال وتوقف عن الكلام ثم خطا نحو كليموفيتش وعانقه – اعذرني، يا اخي، ولا تزعل! كم عدد الاشخاص الذين اوصلتهم؟

– حوالي خمسمائة – قال كليموفيتش – بعد ساعة سأتأكد من العدد المضبوط.

– هل يستطيعون ان يقاتلوا؟

– نعم. ولكن الذخيرة تكاد تنفد.

– ساعطيك ذخيرة. الدبابة واحدة؟

– واحدة فقط.

– ومع ذلك اوصلتها. عمدا؟
– عمدا. – قال كليموفيتش.
في ذلك المساء احرق الالمان هذه الدبابة الاخيرة في درب تلك القرية، قرب ذلك المنزل الذي تقابل فيه كليموفيتش مع الجنرال. هكذا هلكت آخر دبابة...
اما اليوم فسوف يعبر الساحة الحمراء بثمانين دبابة وسيتوجه الى طريق بودولسك، في نفس الاتجاه تقريبا الذي كان فيه آنذاك.
«لم يتقدم الالمان كثيرا منذ ذلك الحين. يبدو ان موسكو تلسع بشدة!..».
عندما مر كليموفيتش بالضريح توقف قربه. في بابه يقف حارسان كالسابق. وهناك، وراءهما، عدة درجات الى الاسفل، وفي اعماق الضريح يرقد لينين. واذا كان ذهن كليموفيتش في الماضي يعجز عن استيعاب احتمال احتلال موسكو من قبل الالمان، فهو الآن، قرب ضريح لينين، يعتقد بان ذلك من رابع المستحيلات. تصوروا اننا لسنا موجودين هنا امام الضريح في الساحة الحمراء، وبدلنا يقف الفاشيون ببزاتهم وطاقياتهم والصليب المعقوف على اذرعهم... مستحيل!..
... في ذلك الصباح، قبل طلوع الفجر، ايقظ سربيلين جاره في ردهة المستشفى مفوض الفوج مكسيموف.
– انهض يا سربيلين! سنذهب لحضور العرض – راح مكسيموف يهز سربيلين من كتفه.
نهض سربيلين بقفزة واحدة وسأل على عجل:
– ماذا؟.. الى اين نذهب؟ اى عرض؟ متى؟..
لم يكن قد استيقظ تماما، ولكنه تظاهر بانه استيقظ، وراح يتطلع الى عيني المفوض ويتصور ناعسا ما حدث: سمحوا لمكسيموف نهار امس بالتجول في موسكو قبل ان يخرج من المستشفى نهائيا. فلماذا يقف الآن امامه في الليل بنفس المظهر الذي ذهب فيه، ببزته الكاملة، وهو يضحك؟..
– انهض، انهض! – كرر مكسيموف وقد جلس على حافة السرير قربه – اليوم هو السابع من نوفمبر. سيقام عرض عسكري. ادعوك لحضوره. فلنذهب!
– اى عرض؟ – سأل سربيلين دون ان يصدق بجدية ما سمعه – الالمان في ضواحي موسكو! فعن اى عرض تتكلم؟!

– العرض العسكري! – كرر مكسيموف واكتسى وجهه بابتسامته المرحة الوضاءة. – الرفيق ستالين امر بذلك. القى خطابا امس في محطة مترو مايا كوفسكي، وكنت هناك، ولكنني عدت متأخرا ولم ارغب في ايقاظك... القى خطابا امس، وقال بان العرض سيقام اليوم.
– حقا؟ الا تمزح؟ – خفض سربيلين من السرير بحذر ساقيه اللتين شفيتا ولكنهما لا تطاوعانه ويتعين عليه، بعد، ان يعاملهما معاملة ساقين من زجاج.
– لا مجال للمزاح! – ابتسم مكسيموف من جديد – لا سيما وان الجو غير صالح للطيران. لقد خرجت ورأيت ان السماء تلبدت بالغيوم، لصالحنا.
– اذا كنت تمزح فلن اعذرك – قال سربيلين وهو يحملق من الاسفل الى اعلى في وجه مكسيموف الضاحك.
– ما الداعي للتهديد والوعيد؟ لقد طلبت سيارة جيب. – وهل سيسمحون لي؟
– كيف لا؟ فلقد سمحوا لك بالخروج امس الاول.
حقا. لقد بدأ سربيلين يتمشى في حديقة المستشفى مستندا الى عصا. وامس الاول سمحوا له بالذهاب لاستلام البطاقة الحزبية والاوسمة والهوية الجديدة برتبة جنرال. وكان مكسيموف يقصد هذه الرحلة بالذات.
– سمحوا آنذاك بمراجعة المفوضية العسكرية...
– والآن بحضور العرض العسكري – ظل مكسيموف يبتسم. – فانت الآن جنرال قادر على المشي ولست ملازما الفراش.
– ساضطر الى ارتداء جزمة اللباد، فالجزمة الجلدية ضيقة على الآن – قال سربيلين ونهض على قدميه متهيبا.
العادة تلازم الانسان مدى الحياة. وخيل له ان مفهوم «جزمة اللباد» لا يناسب مفهوم «العرض العسكري».
– لقد دعونا ليس للاشتراك في العرض بل للتفرج من المدرجات.
– هل دعونا حقا؟ – سأل سربيلين متشككا.
– حقا، حقا! – قهقه مكسيموف وطبطب على جيب قميصه – هنا بطاقتا الدعوة! عندي اصدقاء. كثيرون جدا في موسكو، والاهم انهم كثيرون في الادارة السياسية للمجلس العسكري الثوري.
– طالما الامر كذلك فسارتدي ملابس – قال سربيلين الذي ابتسم عفويا ايضا وتطلع الى مكسيموف بارتياح.
مفوض الفوج مكسيموف من الاشخاص الذين يثيرون اعجاب الرجال، فضلا عن النساء. فهو شاب فارع القامة عريض المنكبين ذو محيا يثير الانتباه

بقوته اكثر مما بجماله . وكان عنده بالفعل اصدقاء كثيرون جدا في موسكو . تأكد سربيلين من ذلك مع انه لم يتمكن بعد من اكتشاف حقيقة جاره حتى النهاية : هل هو مجرد انسان محظوظ، ام انه انسان يتحلى ببسالة مرحة نادرة الى درجة يخيل معها للآخرين عفويا بانه يحقق بسهولة كل ما يريد . والاصح ان المفوض مكسيموف هو هذا وذاك معا . ففي الثلاثين من العمر منح ثلاثة اوسمة حربية . ووراء كل وسام توافق خاص للمناسبات من قبيل التوافق الذي يقال بشأنه عن الشخص الذي يبقى على قيد الحياة في تلك الاحوال بانه انسان محظوظ . وقد بدأ مرتين – في معركة خالخين - غول وفي الحرب الفنلندية – من السفر الى هناك بوصفه مفتشا للادارة السياسية للمجلس العسكرى الثورى وانتهى في كلتا المرتين الى القتال بوصفه مفوضا لفوج . وعندما اندلعت الحرب في يونيو ١٩٤١ كان هو في رحلة تفتيشية في الدائرة الغربية الخاصة . وفي هذه المرة حل منذ اليوم الاول للحرب محل مفوض الفرقة الذي قتل، وطوال شهر اجتاز مواقع الالمان عبر المعارك، وبعد ان اخترق الحصار اصيب بجرح خطير في بطنه . وبعد عدة عمليات جراحية عاش في المستشفى مع سربيلين وهو يلتزم بحمية قاسية ويسخر منها في الوقت ذاته . انه كالعيد الحي الذي لا يكتئب ولا يدع الآخرين يكتئبون .

وعدوه بان يخرج من المستشفى بعد اسبوع بقابلية محدودة على القتال، ولكنه يسخر من ذلك ايضا، كما يسخر من كل ما تبقى ويقول لسربيلين مقهقها بانه لن يكتفي بالتوجه الى الجبهة بل سيحاول العودة الى فرقته .

وفي الليل فقط، عندما لا يراه ولا يسمعه احد – ما عدا سربيلين – يجلس المفوض مكسيموف الذي لا يعرف الكآبة على سريره محني الظهر ولا يذوق طعم النوم ساعات طويلة بسبب الالم .

بزة سربيلين معلقة داخل الخزانة في الردهة باعتباره مريضا في دور النقاهة . ارتدى بنطال الخيالة وقمصلة جديدة على ياقتها شارة الجنرال وعلى صدرها وسامان للراية الحمراء، الوسام القديم والوسام الذي قلدوه اياه امس الاول . اقترب من المرآة ومسد بيديه شعره النادر الاشيب على اصفرار . ثم جلس على الكرسي ودس رجليه بحذر في الجزمة اللبادية، وتطلع اليها بنظرة ساخرة متذمرة وقال لمكسيموف :

– اذا كنت لا تمزح فانا مستعد!

وصلا في السابعة والنصف بالسيارة الى مبنى التلغراف المركزي حيث الشارع مسدود ولا يسمح العسكريون بمرور اية سيارة .

وعلى طول شارع غوركي من ساحة مایاكوفسكي حتى مبنى التلغراف وقفت الدبابات في صفين . لم يكن عدد الدبابات يتجاوز اللواء، الا ان مظهرها افرح سربيلين . فقد كانت كلها من الدبابات المحترمة من طراز ٣٤ وك.ف، وليس من دبابات ت – ٢٦ التي احرقها الالمان جزافا في بداية الحرب .

وقال مكسيموف عندما نزلا من السيارة :

– لن يسمحوا لنا بالسيارة ابعد من ذلك . فهنا تنتهي دائرة اصدقائي . سنمشي على الاقدام، اليس كذلك؟

– ما دمنا قد جئنا فلا بد من ان نمشي – قال سربيلين والقى نظرة جانبية على الدبابات .

قرب دبابة المقدمة التي برزت من كوتها راية ملفوفة وقف قائد قوات الدبابات بمعطف فرائي اسود قصير مشدود بحزام . وخيل لسربيلين انه يعرف هذا الرجل . فان ذاكرة سربيلين تحتفظ بوجوه الاشخاص حتى عندما يريد نسيانهم . ولكنه كان مسرورا لتذكر وجه هذا الشخص . ظل يتطلع اليه بعد ان صار يعرف بالتأكيد من هو، ثم خطا نحوه فرفع هذا الاخير يده بالتحية من بعيد حالما رأى قبعة الجنرال الفرائية العالية على رأسه .

– مرحبا ايها المقدم – رفع سربيلين يده الى قبعته – في ليلة الاول من اكتوبر خرجت من الحصار ووصلت الى قواتك . أليس كذلك؟

– بالضبط ايها الرفيق الجنرال – اجاب كليموفيتش مع انه عندما رفع يده بالتحية في البداية لم يكن يعرف ان هذا الجنرال الفارع القامة والذي يعرج مستندا الى عصاه هو قائد اللواء الجريح الذي سأل عنه قائد الجيش بالتلفون : «كيف يبدو سربيلين هذا؟...» . آنذاك خيل لكليموفيتش بانه لن ينسى قائد اللواء هذا مدى الحياة . وها هو ينساه بعد اقل من شهرين! فقد جرت احداث كثيرة جدا منذ ذلك الحين .

ظل كليموفيتش يتطلع الى الجنرال ويفكر: «يعني انه نهض على ساقيه، بينما كان يبدو آنذاك وقد اشرف على الموت ...» .

وعندما فكر بذلك تذكر الجندي زولوتاريف وهو يسلمه وثائق المرشد السياسي سينتسوف الذي ضاعت آثاره، او الذي قتل اذا اردنا التبسيط في القول . آنذاك، في معركة يلنيا قلق سينتسوف على مصير قائد اللواء . وها هو قائد اللواء حي معافى ويقف امام كليموفيتش بقبعة الجنرال، بينما تتفسخ عظام سينتسوف في مكان ما من الغابات وراء فيزيا ...

– شكرا لك على النجدة ايها المقدم . الم تصبح عقيدا؟

– كلا – اجاب كليموفيتش .

– انا مسرور للقائك! اردت ان اكتب لك عن تشكراتى، لكن الجبهة واسعة ...

شد سربيلين على يد كليموفيتش، فدهش هذا لتلك القوة الكامنة فى هذه اليد الكبيرة النحيفة . وانهالت الذكريات الحزينة على سربيلين فقال :

– صحيح انهم كتبوا لى فيما بعد ان الكثيرين من جنودى لم يتمكنوا من الخلاص . فقد اصطدموا بدبابات العدو فى الطريق منكم!

– عاد بعضهم الى، الى اللواء، ايها الرفيق الجنرال .

– وهل عددهم كبير؟

– حوالى عشرين شخصا .

– واين هم الآن؟

– قسم منهم قتلوا فى المعارك، وقسم التحق بالمشاة بعد الخروج من الحصار . وواحد منهم لا يزال عندى .

– من هو؟

– السائق زولوتاريف . وهو الآن سائق دبابة «٣٤» .

– اعرفه – قال سربيلين . وكان بوسعه ان يقول هذه الكلمة عن كل منهم – هل استطيع رؤيته؟

– انه بعيد . فى نهاية الطابور .

– اذن انقل اليه بنفسك تشكراتى على الخدمة الجيدة، تشكرات قائد الفرقة السابق . ومن وصل اليكم من الضباط؟

– الملازم خوريشيف – قال كليموفيتش .

– هل هو حى؟

– كان حيا، ولا ادرى عنه شيئا الآن . فقد التحق بالمشاة .

لاحظ سربيلين بنظرة جانبية ان كابتن الدبابات اقترب من كليموفيتش وهو ينتظر نهاية الحوار بينهما ليقول له شيئا يتعلق بالخدمة .

الا ان كليموفيتش عندما تحدث عن زولوتاريف وخوريشيف تذكر سينتسوف .

– اما مرافقك، ايها الرفيق الجنرال، فقد ضاع كل اثر له، وربما قتل على الاكثر .

لم يجب سربيلين بشىء . طأطأ رأسه وظل بضع ثوان يتطلع صامتا الى اسفل . ثم القى من جديد نظرة جانبية على كابتن الدبابات فمد يده الى كليموفيتش .

– بودى ان نتعاون فى القتال . اما الآن فسوف نرى استعراضكم – رفع يده الى قبعته الفرو واستدار وسار فى شارع غوركى منحدرا وهو ينقل جزمته اللبادية بحذر ويعرج قليلا .

شيعه كليموفيتش بنظراته ثم استدار على مضض الى الكابتن :

– ماذا تريد يا ايفانوف؟ ما الذى لا يزال غامضا عليك؟ فى المعارك لم تكن تتحير، اما فى موسكو فعندك سؤال فى كل مفترق!

عندما وصل سربيلين وهو يجرجر قدميه معتمدا على العصا الى المدرجات وجدها مليئة بالناس تقريبا .

كان قد اشترك فى العرض مرارا فى الساحة الحمراء، ولكن فى صف اكاديمية فرونزه العسكرية . ولكن المدرجات كانت تختلف تماما . كان الحاضرون فيها من المدنيين المسرورين واطفالهم على اكتافهم والبالونات المطاطية الملونة تحلق فوق رؤوسهم، والمناديل النسائية الزاهية ترفرف فى الهواء محيية ...

اما الآن فالعسكريون على المدرجات ثلاثة امثال المدنيين تقريبا . وقد وصل الكثيرون من الخطوط الامامية مباشرة ممثلين عن الافواج والالوية والفرق المحاربة فى عدة اتجاهات بضواحى موسكو . كانوا يرتدون قبعات مدعوكة وقفازات مشمعة ومعاطف عسكرية طويلة ومعاطف فراء قصيرة مشدودة باحزمة .

اصطفت فى الساحة بشكل مربعات عدة افواج من المشاة وعلى المدرجات كذلك وقفت موسكو المدافعة عن نفسها دون الالمان، موسكو العسكرية والمدنية .

تجمع هنا كل هؤلاء العسكريين والمدنيين المدافعين عن موسكو، تجمعوا فى هذا اليوم كما يتجمعون كل عام، رغم ان هتلر على مقربة بضع عشرات من الكيلومترات عن موسكو . وساد هذا التجمع شعور بالقوة وتحد صامت، وشعر الحاضرون هنا بقوة تحديهم دون ريب .

وشعر سربيلين بذلك ايضا . ومع انه كان يشعر فى السنوات الماضية، وهو يمر امام الضريح فى صف الاكاديمية، باحساس يعرفه كل من يشارك فى الاستعراضات العسكرية، احساس التحمس السعيد، فان هذا الاحساس الآن اعمق واقوى . ولعل من الممكن القول بان سربيلين وهو يقف هنا على احد مدرجات المتفرجين قد شعر بالسعادة، مع ان الافكار التى استولت عليه تتعارض، على ما يبدو، مع هذا الشعور بالسعادة .

اعتصر الالم فؤاده وهو يفكر بسينتسوف الذى حدث له ما كان هو،

سربيلين يخشاه اكثر من اى شيء آخر عندما يفكر بنفسه: ضاع كل اثر له... فى حين بدا وكأنه اجتاز العقبات وظل على قيد الحياة وتخلص من الحصار... وهل يمكن ان يسمى ذلك بالخلاص؟! ثم ان الكثيرين غيره تصوروا بانهم تخلصوا من الحصار... تذكر بغضب رسالة شماكوف التى وصلت من الجبهة وجاء فيها انه لا احد يعرف شيئا عن جميع ركاب السيارات الثمانى الاخيرة من الطابور. تلكأت السيارات قرب الجسر، وبعد ذلك قطع الالمان الطريق عليها، كما يبدو...

«كما يبدو!» — تمتم سربيلين ولام شماكوف من بعيد، كما لامه مرارا وتكرارا.

غضب آنذاك بسبب هذا التعبير: «كما يبدو»، حتى انه لم يرد على الرسالة.

وتبادرت الى ذهنه افكار عصبية عن نفسه شخصيا: عن الحوار الذى جرى امس الاول بينه وبين نائب رئيس الاركان العامة، وهو رفيق قديم واحد الذين انجدوه فى محنته. انه شخص لا يجوز الارتياب فيه واتهامه بعدم الطيبة والائتمان. وذلك بالذات ما جعل الحوار اكثر صعوبة.

قال الرفيق القديم بعد ان هنأ سربيلين بمنحه الرتبة الجديدة وعموما بكل ما يمكنه ان يهنئه به: «طلبت التقرير الطبى الخاص بك. فمن جهة صححوا هوية حالك، ومن جهة اخرى شوشوها. شوشها الاطباء هذه المرة. وبصراحة، فمن السابق لاوانه التفكير بتوجهك الى الجبهة. صحتك ليست على ما يرام. وعلى العموم فقد تدهورت صحتك، ثم ان الحصار زاد فى الطين بلة...».

فقال سربيلين بقساوة تأججت فى فؤاده: «بخصوص صحتى «على العموم» لا اتذكر شيئا ولا اريد للآخرين، وحتى الك شخصيا، ان يذكرونى بذلك. اما بخصوص الحصار فان عشرات الجنرالات خرجوا منه عبر المعارك واكتسبوا خبرة قتالية بالتجربة الشخصية ليس من اجل الجلوس مع هذه الخبرة فى المؤخرة! حالما اكون صالحا للخدمة فاما ان ترسلونى الى الجبهة واما ان اذهب الى ستالين، خذ بالك!».

«على هذا النحو تتكلم الآن، آ؟» — قال الرفيق القديم وانكمشت اساريره من لهجة سربيلين.

«اجل، على هذا النحو اتكلم الآن!» — رد سربيلين ردا قاطعا.

تذكر هذا الحوار مرارا وهو يجرجر قدميه فى الجزمة اللبادية من مبنى التلغراف الى المدرجات. وكلما شعر بصعوبة السير كلما بدا له ذلك الحوار اثقل واصعب حتى بعد مضى وقته.

وراح يسخر من نفسه فيقول: «ربما من الانفع حقا الذهاب الى مكان ماوراء الفولغا والعمل فى تشكيل الوحدات. فهذا العمل ضرورى ايضا...»

وخطرت فى باله افكار كئيبة اخرى. ومع ذلك، ورغم تلك الافكار، يقف سربيلين الآن على احد المدرجات فى الساحة الحمراء وهو سعيد. ففى هذا الصباح الثلجى، فى صفوف القوات الواقفة بلا حراك على الساحة، فى الحقيقة التى لا يستوعبها العقل رأسا، حقيقة اجراء العرض العسكرى اليوم؛ فى ذلك كله يكمن، على ما يبدو، شيء جعل الناس المتحشدين هنا يشعرون بالسعادة. فذلك هو اول تصور محسوس خلال الحرب للنصر البعيد كل البعد، انه اول تصور تحسسته آلاف عديدة من الناس معا دفعة واحدة فى الساحة الحمراء فى ذلك الصباح.

— اسمع. كيف حدث ذلك؟! — همس مكسيموف منفعلا عند اذن سربيلين بعد ان اختفى مدة — اننى متأثر جدا... فان احد افواج فرقتى موجود هنا... انظر، انه مصطف قرب مبنى الجوم. — اشار مكسيموف بيده الى المربعات التى تلوح قائمة فى الطرف الايمن البعيد للساحة — قيل لى ان الفرقة تقاتل، ولكنه اتضح انهم اخرجوها قبل خمسة ايام وعززوها بالامدادات ونقلوها هذه الليلة عبر موسكو الى اتجاه جديد. وهذا الفوج سيتوجه ايضا من الساحة الحمراء مباشرة الى الجبهة. اما انا فلم اكن اعرف بذلك. خسارة!

كان مكسيموف متحمسا لذلك ومكتئبا بسببه فى الوقت ذاته. فقال له سربيلين مازحا:

— هل يجوز لك ان تكون محظوظا طوال الوقت؟ لم توفق هذه المرة. فوت الفرصة! ربما بعد العرض...

— ماذا بعد العرض؟ — قاطعه مكسيموف — هل اطلب منهم ان يأخذونى مفوضا ثانيا زيادة على الملاك؟ كان الافضل لى لو اننى لم اعرف بذلك! — لوح بيده مكتئبا، ولكنه لم يتحمل فراح يحملق فى ارتال فوجه المصطف قرب الجوم.

تطلع سربيلين ايضا الى تلك الجهة وفكر بحسد ان مكسيموف رغم عدم التحاقه بفرقته فانه سيطلب بالتأكيد ادراجه ضمن فرقة اخرى وسيجد نفسه قريبا فى الجبهة على اية حال.

ولو تمكن سربيلين، وهو ينظر الى جهة هذا الفوج على مسافة بعيدة، من رؤية وجوه الجنود لشاهد فى الصف الاول لكتيبة الجناح الايمن القامة الفارعة التى يعرفها جيدا، قامة مرافقه السابق وهو يرتدى قبعة عتيقة مدهنة ومعطفا قرائيا قصيرا جديدا وتتدلى على صدره بندقية رشاشة.

في اليوم الثاني لمعارك معمل الطابوق تقرر مصير الفرقة التي يخدم فيها سينتسوف الآن والتي كان مكسيموف مفوضا لها في بداية الحرب على نحو يندر ان يحصل في ضواحي موسكو في تلك الشهور. فبدلا من تزويدها بالامدادات في الخط الامامي مباشرة كما هي العادة، استبدلت بغيرها ونقلت الى مؤخرة الجبهة. صحيح ان تزويدها بالامدادات في المؤخرة، رغم خسائرها الجسيمة التي بلغت ثلثي افرادها، قد استغرق وقتا قصيرا، خمسة ايام لا غير، وفي اليوم السادس وضعت تحت الانذار. وفي الحال، في الليل، نقلت هيئة اركان الفرقة مع فوج المدفعية وفوجين للمشاة عبر موسكو الى ما وراء بودولسك، حيث تقدم الالمان الى الامام من جديد على نحو يهدد بالخطر. وابقوا فوجا واحدا في موسكو ليوم واحد من اجل المشاركة في العرض العسكري.

لم يصدر الامر بالاستعداد بعد. وكان الجنود يتحدثون فيما بينهم عن كيفية ارسالهم الى الجبهة بعد العرض: سيرا على الاقدام ام بالسيارات ام بالقطار؟ وكان الموضوع الثاني، والاهم، للحديث هو العرض نفسه وما اذا كان ستالين سيحضره ام لا. الاغلبية تعتقد بانه سيحضر، ولكن البعض شكوا في ذلك.

– سترى يا نائب العريف، بانه لن يحضر – قال لسينتسوف جندي المشاة الواقف قربه.

– لماذا يا ترى؟

– لو كان الامر بيدي لما سمحت له بالظهور هنا، في الساحة. فمن يدري ماذا يمكن ان يحدث؟! – واومأ الجندي الى السماء الرمادية على بياض وقد بدت واطئة ملفعة بالضباب – انني اخشى عليه!

– أفلا تخشى على نفسك؟ – سأله سينتسوف وتطلع الى السماء ايضا.

– لا اخشى على نفسي. فالالمان لن يبذلوا جهدا لاصابتي، ولكنهم سيبذلون جهدا لاصابته. ومع ان الجو ملبد بالغيوم فيمكن ان يقصفوا من وراء الغيوم!.. وماذا سنفعل عندئذ؟! – وكرر الجندي باصرار انه لو سأله احد لما سمح المرفيق ستالين بحضور العرض.

في تلك اللحظة اقترب من سينتسوف آمر الكتيبة ريابتشينكو ومالينين الذي تسلم خلال هذه الفترة ترقية وعين مفوضا للكتيبة.

– مرحبا – قال مالينين بصوته المتجهم المعتاد والقى على سينتسوف نظرة شزراء من وجه عبوس وكأن سينتسوف مذنب بشيء في حقه – قال قائد

الفوج لآمر الكتيبة ان اركان الفرقة استلمت امرا بتقليدك وبايوكوف وسام النجمة الحمراء على معارك معمل الطابوق. ولذا اهنئك!

لدى مالينين عادة مدهشة. فكلما ملأ الكلمات بمزيد من المشاعر الروحية كلما تلفظها بمزيد من التجهم والخشونة. ولو سمع شخص غريب نغمات صوته فقط لخيل اليه انه لا يهنئ سينتسوف بالوسام الآن، بل يوبخه.

– اجل، اجل – كرر امر الكتيبة ريابتشينكو فرحا – سمعت ذلك بنفسي. اهنئك ايها الرفيق سينتسوف!

فقال سينتسوف: «انا في خدمة الاتحاد السوفييتي!»، ولكنه، ويا للدهشة، لم يشعر بالفرحة تقريبا. ربما سيشعر بتلك الفرحة فيما بعد، ولكنها الآن لم تستول عليه. فقد تذكر رابية معمل الطابوق، وتذكر سيريوغا المشوه وكوليا بايوكوف المصاب بجرح خطير، وتذكر كيف دفنوا عند الفجر ما تبقى من اجساد الآخرين، فتلكأت الفرحة في منتصف الطريق ككسرة خبز جافة في البلعوم. وسأل سينتسوف مالينين قبل ان ينصرف:

– هل يمكنني ان اهنئك انت، ايها الرفيق المرشد السياسي الاقدم؟

– ليس ما حققته كبيرا – قال مالينين بنفس اللهجة المتجهمة فلم يفهم سينتسوف على وجه التحقيق هل منح مالينين وساما ام لا.

اما في الواقع فان مالينين لم يمنح شيئا. كانوا يريدون ترشيحه لوسام الراية الحمراء، وليس النجمة الحمراء. ووسام الراية الحمراء تمنحه الجبهة. وكان احد المسؤولين فيها، ممن قلصوا القوائم دون تمحيص، قد شطب اسم المرشد السياسي مالينين مع من شطب من اسماء. الا ان مالينين واجه ذلك بلاابالية يندر وجودها حتى عند اكثر الناس تواضعا. والسبب في تلك اللاابالية هو انه بالفعل يعتبر ما حققه قليلا، فالقضية لا تتوقف عليه، هو مالينين، بل على الافراد الذين عهد بهم اليه. وهو مرتاح تماما لان سينتسوف الذي بقي بين المقاتلين وبايوكوف الذي رقد للعلاج قد رشحا للوسام ومنحا هذا الوسام من الرتبة التي طلبها هو بالذات. فهو عند ما يطلب منح شخص ما مدالية او وساما يفعل ذلك وكأنما على مضض، ولكنه فيما بعد يصر على رأيه ويتألم دوما اذا رفض طلبه.

– اسمع، يا سينتسوف! – قال مالينين بعد صمت قصير – منحوك رتبة نائب عريف وقلدوك وساما وكتبوا عنك في جريدة الفرقة. اعتقد ان من الضروري، قبيل المعارك المرتقبة، ان تقدم طلبا لاستعادة العضوية في الحزب. فما هو رأيك؟

ما هو رأى سينتسوف؟ مالينين اعرف الناس برأى سينتسوف. القى مالينين نظرة شزراء على السماء التى بدأ الثلج يتساقط منها خفيفا وقال:

– اعتقد ان النهار اليوم مناسب لكتابة العريضة.

ولاحت فى صوته نأمة مهيبة غير معتادة. فهو، مثل الجميع، منفعل لما سيجرى فى الساحة الحمراء.

تطلع سينتسوف الى عينى مالينين مباشرة: «أليس ذلك سابقا لأوانه؟ واذا كنت قد تكلمت عن هذا قبل الاوان فلم تكلمت دون ان تفكر جيدا؟ واذا لم يكن ذلك سابقا لاوانه فساعدنى حتى النهاية. واذا لم تساعدنى انت فمن سيساعدنى يا ترى؟».

التقت نظرة سينتسوف بنظرة مالينين الذى ظل يتطلع اليه صامتا ايضا بضع ثوان. خلال هذه الايام التى جرى فيها امداد الفرقة، وهى متوقفة بضواحى موسكو، تمكن مالينين، دون ان يخبر سينتسوف، من تقديم استجواب رسمى عن طريق الشعبة السياسية فى الفرقة وحصل على الجواب. اجل، اوراق الشيوعى أ. ب. سينتسوف محفوظة فى الارشيف. انتماؤه للحزب مؤكد بالوثائق، الامر الذى لا يمكن لاحد بدونه ان ينظر فى مسألة استعادة العضوية مجرد نظر. وتلك هى الخطوة الاولى الهامة، وبها فكر مالينين الآن الا ان نظرة عينيه لم تفصح عما فكر به فى تلك اللحظة. فان تعابير وجهه لا تنم عن انه يفكر بشىء اطلاقا، وكأنما رغب فى التطلع بانتباه مرة اخرى الى سينتسوف: «هذا انت، اذن، يا ايفان سينتسوف!..».

وفجأة دوى امر عسكرى واندلع من اليمين كالرعد:

– امـ...:...مـه!

اندفع ريابتشينكو، كالنابض المشدود، الى الامام، وخطا مالينين خلفه متلكئا، واخذت الصفوف تتوازى...

– انظر، انظر... هيا انظر!– همس الجندى الذى ما كان يريد لستالين ان يحضر العرض، همس فى اذن سينتسوف وهو يتوازى معه. – انظر، اسرع!..

تطلع سينتسوف الى الامام والى اليمين. وكما هو شأن الآلاف من الاشخاص المصطفين معه فى الساحة، رأى، عبر شبكة بيضاء من الثلج المتساقط بكثافة، ستالين واقفا بمعطفه العسكرى البسيط فى مكانه المعتاد على جناح الضريح.

بعد العرض العسكرى عاد سربيلين مع مكسيموف الى اكاديمية تيميريازيف التى شغل المستشفى مبانيها. وقال سربيلين عندما اقتربت السيارة من المستشفى:

– لو قيمنا الموقف على الجبهات تقييما واقعيا لصعب علينا اليوم ان نتصور باننا نعود على الاقل الى ما بدأنا منه: نخوض القتال على حدودنا الدولية. ولكن هناك فكرة تهدىء بالى اليوم.

– اية فكرة؟

– عندما عبرت الدنيبر مع بقايا فوجى قرب موغيليف لم اكن اتصور بان العرض العسكرى فى الساحة الحمراء سيقام يوم ٧ نوفمبر كالعادة وبانى ساحضر هذا العرض. ذلك شىء يفوق التصور. ومع انى كنت احاول السيطرة على اعصابى الا ان افكارا قاتمة جدا بالنسبة لذلك كانت تعشعش فى نفسى. وعندما اتذكر ذلك كله يخيل الى ان انسانين مختلفين يعيشان فى داخلى. الاول يقول: «الفرحة سابقة لاوانها» والثانى يقول: «سابقة لاوانها، ومع ذلك ينبغى ان نفرح!». كيف استطيع ان اعبر عن رأيى بشكل افضل؟ بالرغم من كل نجاحاتهم فانا اشعر بوجود فارق بيننا وبينهم لصالحنا، ليس بشكل عام فقط، بل وحتى من الناحية العسكرية الصرف. فانا لا اعتقد بانهم يمكن ان يقيموا عرضا عسكريا فى برلين اذا كنا نحن على بعد ستين كيلومترا منها. لا اصدق بذلك، اطلاقا. مع ان الامر يتقرر ليس فى الاستعراضات، بل فى الجبهات... ماذا؟ هل وعدوك بالخروج من المستشفى نهائيا الجمعة القادمة؟

لم يجب مكسيموف. كان جالسا قرب سربيلين يتطلع فى نقطة واحدة. وعندما توقفت السيارة ونزل منها سربيلين بحذر مد له مكسيموف يده دون ان ينزل.

– اتمنى لك كل خير، يا سربيلين، وارجو لك الشفاء العاجل.

– وانت؟

– انا؟ بوسعك القول انى هربت. سأقدم طلبا لارسالى الى الجبهة وسألح فى الطلب. واقول لك الحقيقة، اننى لن اكون معافى حتى النهاية ابدا. والاسبوع لا اهمية له بهذا الخصوص. فاما ان يعيدونى وانا خجل، واما ان يرسلونى غدا الى مكان ما من الجبهة.

دخل سربيلين ردهته فوجد زوجته فالينتينا يفوروفنا هناك.

ارتدت، بمناسبة عيد الثورة، فستانها الحريرى الأسود القديم الذى يتذكره سربيلين من زمان. حالما نهضت صامتة مزمومة الشفتين للقائه ادرك سربيلين انها هنا من زمان، وانها زعلانة عليه منذ عدة ساعات. وقالت له:

– كل ذلك من فعل صاحبك مكسيموف. انا اعرفه. اين هو؟ شعر بذنبه ويخشى ان يظهر امامى، اليس كذلك؟

لقد ادركت انها، من اجل العيد، ستسامح زوجها على اية حال، ولذلك فقط بادرته بالكلام. فرد عليها سربيلين:

— فر ولم يبق له اثرا استدار بالسيارة فى الباحة وتوجه الى الجبهة.

— من الذى سيسمح له؟ لن يعطوه ترخيصا بالخروج من المستشفى الا فى الجمعة القادمة.

— قال بانهم سيسمحون له.

— وهل تنوى القيام بمثل هذا العمل؟

— لا ادرى الآن!..

— سمعت الاذاعة — قالت فاليتينا يغوروفنا — ولكننى لم افهم فى الحال ان ستالين هو الذى يتكلم. ولا ادرى لماذا بدأوا خطابه من منتصفه، بينما كانت الاذاعة مفتوحة دوما...

هز سربيلين كتفيه مستغربا. لم يعرفا، وما كان بوسعهما ان يعرفا، بانه تقرر من البداية عدم بث شىء على الاثير حتى انتهاء العرض. وذلك خوفا من غارات سلاح الجو الالمانى. وفى اللحظة الاخيرة تطلع ستالين، وهو يقترب من المكرفون، الى السماء، التى تساقط منها ثلج كثيف واصدر امره بفتح جميع المحطات الاذاعية. واستغرق وصول هذا الامر وتنفيذه عدة دقائق اخرى...

— وعندما فهمت بانه هو الذى يتكلم بكيت...

— لماذا؟

— لا ادرى لماذا، اختنقت بعبراتى فبكيت... هل تريد ان ترقد؟

— كلا.

كان منفعلا فلم يرغب فى الرقاد. وادركت فاليتينا يغوروفنا ذلك فلم تلح عليه.

— حسنا، ولكن اخلع جزمتك.

— انها عريضة.

— وما اهمية كونها عريضة. قدماك تؤلمانك؟

— قليلا.

خلع سربيلين الجزمة اللبادية ووضعها قرب الدولاب واجتاز الردهة بالجوارب فقط وجلس على المقعد ازاء زوجته

لم تغادر فاليتينا يغوروفنا موسكو الى اى مكان. منذ بداية الحرب عملت ممرضة فى مستشفى قريب من منزلها على شارع بيروغوفسكايا. وعندما

نقل سربيلين الى المستشفى فى اكاديمية تيميريازيف صارت تتردد عليه يوميا طوال تلك الاسابيع الخمسة تارة فى الصباح وتارة فى المساء تبعا لنوبتها فى العمل.

ولسبب غير معروف، والاصح لسبب معروف، هو ان فاليتينا يغوروفنا رأت زوجها اخيرا بعد فراق دام عدة سنين، فقد تحسنت صحتها خلال هذه الاسابيع الخمسة وتورد وجهها، وتحولت من تلك العجوز المثقلة بالقلق والتى ادهشه منظرها عندما رآها بعد عودته من معسكر الاعتقال فى اليوم الاول من الحرب، الى امرأة غير شابة ولكنها جميلة مثلما كانت قبل عدة سنين. خلال سنوات الفراق وخط الشيب شعرها بعض الشىء، وخصوصا عند الفودين، ولكنها ذات مرة صممت على ان تصبغ شعرها فجاءته الى المستشفى دون اثر للشيب. وعندما اخذ سربيلين يمزح معها بهذا الخصوص قالت له دون زعل، ولكن بملامة نغزته فى القلب:

«ماذا؟ تريد ان تقول بان جهودى لا داعى لها، فانت تحبنى على علاتى؟ انا اعرف ذلك. ولكن اياك ان تنسى حبى! — ثم اضافت بعد صمت: — ماذا؟ هل شطبت تلك السنوات؟.. ام انك تتظاهر فقط؟».

«شطبتها» — قال سربيلين، وقد قال الحقيقة.

«وانا شطبتها ايضا — قالت وابتسمت بغير مرح — هذا ليس شيئا من الطبيعة — لمست شعرها — ولو كان من الطبيعة لما صبغته بالسواد من جديد...».

— كيف جرى العرض العسكرى؟ — سألت فاليتينا يغوروفنا عندما جلس سربيلين على المقعد.

فحدثها عن العرض العسكرى اولا، ثم عن مراجعته للمفوضية العسكرية امس الاول. كانا قد التقيا آنذاك، امس الاول، ولكنها زعلت كثيرا لانه خرج قبل الاوان فلم ترغب فى سماع شىء. وخيل اليها من مظهره ان صحته تدهورت من جديد بعد هذا الخروج السابق لاوانه، وفى مثل هذه الاحوال لا تعير اهتماما للاسباب مهما كانت وجيهة.

وقالت له دون تسامح ودون ان ترغب فى سماع مبرراته: «بوسعك ان تسلم وثائقك واوسمتك بعد اسبوع، فلن يحدث لك ولها شىء!». ولم تأت لزيارته امس وكأنها تحتج بذلك عليه.

ولكنها الآن، بعد العرض العسكرى، لا تقوى على لومه لا على ما كان امس الاول ولا على ما فعله اليوم.

بعد ان بدأ سربيلين حديثه لم يلزم الصمت بشأن ما يمكن لشخص آخر ان يلزم الصمت بشأنه فى اغلب الظن لو انه تحدث مع انسان غير

فاليتينا يغوروفنا . حدثها عن التقرير الطبي السيء وعن ايفان الكسيفيتش (زميله القديم) الذي هدد بارساله، بعد الخروج من المستشفى، ليس الى الجبهة بل الى المؤخرة للعمل في تشكيل الوحدات .

حدثها عن ذلك كله دون خوف او وجل، مدركا بان زوجته ستفهمه رغم قلقها على صحته . فان عدم الالتحاق بالجبهة بعد المستشفى تعاسة بالنسبة له، وهي لا تريد له التعاسة . بالعكس، فهي تريد ان يكون كل شيء كما يرغب فيه هو، ولو بثمن من القلق الجديد بالنسبة لها . ولذلك كان يحبها حبا جما لا يشيخ، حبا لا يهبه القدر للناس كل يوم ولا في كل منزل .

وحدثها بكل التفاصيل عن القسم الآخر من مراجعته للمفوضية العسكرية، ذلك القسم الذي آلمه ايضا، وان بشكل مغاير .

فقد دار الحديث هناك عن الفرقة الـ ١٧٦ التي قاد بقاياها بعد وفاة زايتشيكوف وعن رقمها ورايتها التي اوصلها شماكوف الى هيئة اركان الجبهة .

والآن، بعد المستشفى، والأهم من ذلك، بعد كل ما حدث منذ ذلك الحين في ضواحي فيازما وضواحي موسكو، لم يتطرق سربيلين الى ما كان في زمن ما ينوي الاصرار عليه، اي ابقاء الفرقة كفرقة فهو لايهيم في الخيال، وهو يعرف بان ذلك مستحيل، ولكن هذا المستحيل بالذات هو الذي ترك في نفسه شعورا بالمرارة «ولذا بدأ، خلافا للعقل السليم، يسأل ايفان الكسيفيتش عن مكان وجود راية الفرقة الآن، ويقول بانه حبذا لو جرى من جديد، ورغم استحالة جمع الافراد، تشكيل الفرقة استنادا الى رايتها ورقمها .

«ربما ستشكل فرقة بهذا الرقم»، اجاب ايفان الكسيفيتش بلامبالاة ودون ان يخفي قلة اهتمامه بهذه القضية .

«المهم ان يكون للفرقة تقليدها» – قال سربيلين .

«قد يكون ذلك شيئا مهما، ولكن من سيهتم به؟ اذا ارسلناك فانت لا تريد تشكيل فرقة جديدة، اذ تفضل الحصول على فرقة جاهزة واستلام القيادة من قائد قتل او لم يبرر الثقة، ثم تتوجه الى القتال! ويخيل الي انه لو عينوك انت فلن تهتم بما كان وكيف كان، بل ستسأل عن عدد الافراد وكمية الاسلحة ومكان المرابطة، وتذهب لاستلام الفرقة . ام انك تقيس نفسك بمقياس والآخرين بمقياس آخر؟» .

«لنفترض انك محق . ولكن هل سيكتب عندنا تاريخ الوحدات العسكرية ام لا؟ ماذا تعتقد؟»

«سيكتب بالطبع – قال ايفان الكسيفيتش – ولكننا في الحقيقة لا نريد في الحال الحاضر ان نبدأ كتابته من عهد آدم وحواء، من هربنا ...» .

«نحن لم نهرب! – قال سربيلين مصححا وقد رفع صوته .

فقال ايفان الكسيفيتش : – وانني اقدر معاناتك، ومعاناة غيرك ... ولكن الحقيقة التي لا جدال فيها هي انه ما من فرقة تمتلك الآن تاريخ الهجوم حتى كينيغسبيرغ او على الاقل حتى وارشو . والموجود هو تاريخ الانسحاب حتى موسكو . يجب ان لا نخشى من الحقيقة . وطالما الحرب قائمة – قال بحدة واحس سربيلين بانه محق – وطالما الحرب قائمة – كرر القول – فسوف نسجل التاريخ ابتداءا من الانتصارات! من العمليات الهجومية الاولى . يجب ان نتذكر ذلك ما دامت الحرب قائمة . ويجب ان نعلم الناس على ذلك . اما الذكريات عن كل شيء من البداية فسوف نسجلها فيما بعد، لا سيما واننا لا نرغب في تذكر الكثير» .

«اسمع – قال له سربيلين وقد انحنى على الطاولة وتطلع في عينيه مباشرة – كنت تشغل هذا المنصب نفسه عشية الحرب . قل لي، اذن، كيف حصل اننا لم نكن نعرف؟ واذا كنا نعرف فلماذا لم تخبروه؟ واذا لم يسمع فلماذا لم تلحوا عليه؟ قل لي . انني افكر بذلك منذ اليوم الاول في الجبهة، ولا يهدأ بالي . لم اسأل احدا، انني اسألك انت ...» .

«اسألني عن شيء أسهل من ذلك!» – طرق ايفان الكسيفيتش بقبضته على الطاولة واكتست عيناه بمسحة من الحزن والغضب .

لم يشعر سربيلين بالوجل امام هاتين العينين، فقد اراد ان يواصل اسئلته، ولكن ايفان الكسيفيتش اوقفه بان ضغط يده على الطاولة وقال بلهجة حازمة تقرب من التهديد:

«اسكت! لا اريد ان اكذب، ولا استطيع ان اجيب! – ثم ابتلع جرعة من الهواء وكأنه يختنق وسأل بصوت آخر تماما: – كيف حال زوجتك فاليتينا يغوروفنا؟ كيف صحتها؟ وكيف تبدو الآن؟ عندما كنت محاصرا جاءتني الى هنا . وكانت في اسوأ حال ...» .

نقل سربيلين هذا الحديث الى زوجته بكل تفاصيله التي جعلت وجهه يشحب وهو يستعيدها، وجعلت وجهها يشحب وهي تستمع اليها .

وقال سربيلين بخفوت وهو يقرب وجهه من زوجته وينظر في عينيها الكئيبتين:

– لا ادرى، والله لا ادرى كيف يمكن لانسان مثل ستالين ان لا يتوقع ما كان يجرى الاستعداد له؟! وانا لا اصدق بانهم لم يخبروه.

– باى مظهر يبدو ستالين؟– سألت فاليتينا يغوروفنا، ولعلها راغبة فى تحويل هذا الحديث المؤلم الى مجرى آخر، او لعلها انساقت وراء افكارها هى.

فقال سربيلين بعد تأمل:

– باى مظهر؟ اعتقد بمظهره الاعتيادى. – عندما كان فى الساحة الحمراء لم يتمعن كثيرا فى صوت ستالين المتعب المكبوت، بل كان يتطلع اليه لا اكثر.

كان ستالين واقفا يتكلم. الالمان فى ضواحى موسكو، وهو واقف على منصة الضريح يتكلم. وامام الضريح وقفت القوات، وكان ذلك هو العرض العسكرى بموسكو فى نوفمبر. وفى ذلك بالذات يكمن الشىء الرئيسى الذى تحسسه سربيلين فى تلك اللحظات. «بل وربما الآخرون جميعا» – فكر سربيلين.

– كان متألما جدا! – قالت فاليتينا يغوروفنا.

تطلع اليها سربيلين وفكر بان الجدال القديم مستمر بينهما. ظل كل منهما على رأيه، وفى اغلب الاحيان كانا يتجادلان فى ذلك صامتين دون ان يقولا لبعضهما البعض ولا كلمة واحدة اثناء وجودهما معا واثناء افتراقهما. وهما يتجادلان منذ اعوام.

زوجة سربيلين – وهو يعرف ذلك – تؤمن ايمانا عميقا بان كل ما يحدث من مساوىء انما يحدث بغير علم ستالين لان احدا لم يخبره به او لانهم اخبروه بشىء خاطىء حمله على التصرف ليس بالشكل اللازم. وكانت تفكر على هذا النحو حتى فى السنوات التى انتزعوا فيها زوجها منها.

اما سربيلين فكان يفكر على نحو آخر.

انه يعرف ستالين من زمان، منذ معركة تساريتسين ويصعب عليه جدا تصور امكان خدع هذا الشخص والتحايل عليه وارغامه عنوة على القيام بما لا يريد القيام به. سربيلين يعرف قيمة ستالين، كما يخيل اليه، ويعرف جيدا الاهمية التى يعلقها على الجيش وكل ما فعل من اجل هذا الجيش. فكيف حدث ما حدث للجيش فى عامى ١٩٣٧ و١٩٣٨؟ ولمصلحة من؟ وكيف سمح ستالين بوصول الامور الى هذا الحد؟

واندلاع الحرب؟ كيف اندلعت بعد ان توقع ستالين مؤامرة ميونيخ ووقع فى عام ١٩٣٩ المعاهدة مع الالمان ومنع الانجليز والفرنسيين من ان يحولونا من جديد الى طعام روسى للمدافع؟! بعد ذلك كله كيف يجوز ان نستقبل هذه الحرب بالشكل الذى استقبلناها به؟ ذلك ما يحير سربيلين.

– نعم – قال سربيلين بعد صمت قصير – مظهره لا بأس به، لا بأس... – كرر بصوت عال – ولكنه شاخ بعض الشىء... – قال ذلك وفكر بنفسه، فكر بانه ربما لن يكن لاحد ابدا مثل تلك المشاعر المتناقضة المؤلمة التى يكنها لستالين الذى فعل اليوم ايضا شيئا ربما لا يجرأ احد على فعله اركان بدلا منه، فقد اقام العرض العسكرى رغم وجود ثمانين فرقة المانية فى ضواحى موسكو...

بعد اثنتى عشرة ساعة على وجه التحديد من انتهاء العرض وخلو الساحة الحمراء ساهمت احدى كتائب الفوج ٩٣ من فرقة المشاة ٣١ التى يخدم فيها نائب العريف سينتسوف فى معركة ليلية لتحرير قرية كوزكوفو الواقعة على مسافة ثمانين كيلومترا عن الساحة الحمراء بخط جغرافى مستقيم فى اتجاه الجنوب الغربى. كانت التقديرات الاولية تشير الى ان هيئة اركان الفوج ينبغى ان ترابط فى هذه القرية بالنسق الثانى فى المؤخرة. الا ان الامور فى الواقع جرت بصورة اخرى.

ففى الصباح، عندما كان العرض العسكرى مستمرا فى الساحة الحمراء مدد الالمان الضربات فى عدة اماكن دفعة واحدة الى السلسلة المتخلخلة التى تغطى هذا القطاع والتابعة لفرقة استنزفت قواها بمعارك طويلة. فى البداية لم يحقق الالمان اى انجاز، فقد اوقف زحفهم بالنيران. ولكنهم زجوا بقوات اضافية وقاموا بهجمات اخرى حتى اخترقوا الجبهة وتقدموا خمسة كيلومترات واحتلوا ثلاث قرى، بما فيها كوزكوفو. وصدر الامر الى الفوج الذى نقل من موسكو قبل حلول الظلام ودعم من الخلف الوحدات المنسحبة بان يستعيد هذه المواقع خلال الليل. لم يتمكن الفوج من استعادة القريتين، اما قرية كوزكوفو فقد استرجعت من الالمان حتى الثانية عشرة ليلا بموجب الامر المذكور. وحققت تلك المهمة كتيبة واحدة من فوج المشاة ٩٣ وسرية لواء الدبابات ١٧ بقيادة المقدم كليموفيتش.

كانت كوزكوفو هى النقطة الاخيرة فى تقدم الالمان خلال النهار. وقد احتلوها عند المساء فلم يتسع لهم الوقت لتثبيت اقدامهم. وكان امر القيادة الالمانية بعدم الانسحاب ولا خطوة واحدة امرا قاطعا مثل امر قيادتنا باستعادة كوزكوفو مهما كلف الثمن. وكما هى الحال عادة عندما يصدر قراران من هذا النوع فى وقت واحد ويلتقيان فى نقطة واحدة من الجبهة تسفر النتيجة عن تنفيذ

احدهما وعدم تنفيذ الآخر. ويعود الدور الرئيسي في تحريرنا لكوزكوفو بدون خسائر كبيرة الى الدبابات التي ظهرت بغتة. فالالمان تصوروا انها غير موجودة في هذا القطاع من الجبهة، وهي لم تكن موجودة فعلا صباح ذلك اليوم.

وبعد الامدادات التي تسلمتها الفرقة تشكلت لدى كل كتيبة فيها فصيلة من رماة البنادق الرشاشة. وعين سينتسوف آمرا لمفرزة في احدى هذه الفصائل، فدخل مع سائر حملة البنادق الرشاشة الى كوزكوفو على اثر الدبابات.

اقتحم جنود الدبابات كوزكوفو من الحركة رأسا. كان القمر منيرا في تلك الليلة، وكان شارع القرية ملفعا بالثلج الناصع، وعندما اخذ الالمان يتراكضون من المنازل ويعبرون الشارع قتلت اغلبيتهم.

وجرى تعزيز مواقع الكتيبة بسرعة على الطرف الامامي لكوزكوفو، ورابطت هيئة الاركان في القرية وخصص لحملة البنادق منزلان قرب مركز القيادة. لقد انجزوا مهمتهم اليوم وصاروا يشعرون مع جنود الدبابات بانهم ابطال الساعة. ومما حسن امزجتهم ايضا منحهم فرصة الاستجمام وعدم ارغامهم، كالآخرين، على التخندق هذه الليلة في الحقل على الثلوج.

المنزل المجاور لمنزلي حملة البنادق احترق عندما احتل الالمان القرية. وكانت هناك عدة جثث تحت جدران المنزل الخشبية المحترقة. في البداية، عندما رأى حملة البنادق رماد المنزل ظنوا بان الالمان احرقوا اسرانا. ولكنهم استخرجوا من تحت الرماد ثلاث بنادق محترقة جزئيا وبندقية رشاشة بمقبض متفحم.

القرية خالية من السكان. فلا يعرف احد على وجه التحديد ما الذي حدث هنا في النهار. وقال صوت:

– ربما دافعوا عن انفسهم وما ارادوا الاستسلام، فاحرق الالمان المنزل.

– ما دام السلاح معهم فلم يكونوا اسرى.

وانهمك احد الجنود في تنظيف البندقية التي استخرجت من تحت الرماد. صرف في ذلك وقتا ولكنه بصق في آخر المطاف والقاها جانبا. فسأله احدهم:

– ماذا؟

– ليس بالامكان تنظيفها بسرعة فهي مكسوة بطبقة متفحمة سميكة. يبدو ان النار كانت حامية جدا.

– كانت القضية حامية فعلا! – حاول جندي ان ينكت، ولكن النكتة لم تجد اذنا صاغية.

ورغم الانتصار الليلي اليسير تألمت النفوس بهذا القدر او ذاك، تبعا لطبائع الاشخاص، من رماد المنزل المجاور والمقاتلين الذين احترقوا

فيه وهم احياء. فان مثل هذا المصير المجهول يمكن ان ينتظر هؤلاء الاشخاص انفسهم في معركة اخرى، حيث لا يبقى منهم الا جثث محترقة واسلحة متفحمة، ولا احد منهم يمكنه ان يخبر بما حدث...

المنزل الذي هجره اصحابه من زمان على ما يبدو، فغدا غير مسكون، قد انير الآن بلهب غير ساطع من الاحطاب الطرية التي تصفر وتطقطق في الفرن. رقد عدة اشخاص على امتداد الحائط وقد تقاربوا طلبا الدفء. اما الباقون، ومنهم سينتسوف، فقد جلسوا قرب النار. تذكروا الصباح والساحة الحمراء والمدرجات الغاصة بالناس، وتذكروا ستالين بمعطفه العسكري وهو يتكلم من الضريح... ومع ان ذلك كله كان قد حدث بالفعل، ولكنهم لم يصدقوا تقريبا بان ذلك حدث في صبيحة هذا اليوم لا غير.

– من المؤسف اننا لم نأسر ولا المانيا واحدا – قال جندي اسمه كوماروف كان قد وقف جنب سينتسوف اثناء العرض العسكري، وهو الآن يجلس جنبه ايضا.

– ما الذي كنت ستفعله به لو قبضت عليه يا كوماروف؟ – سأله المقاتل الذي نظف البندقية المتفحمة.

وهو رجل نحيف طويل معروق يتمتع بقوة بدنية كبيرة. وقد تجاوز الثلاثين من العمر حسب الظاهر. لقبه ليونيدوف، ويعتبر لقبا جميلا بالروسية. عندما تعرف على سينتسوف قبل خمسة ايام قدم نفسه قائلا: «ليونيدوف. لقب جميل». وضحك على نحو يصعب فيه التفريق بين الجد والهزل في قوله هذا.

– ماذا؟ لماذا انت صامت يا كوماروف؟ ما الذي كنت ستفعله بالالماني لو قبضت عليه الآن؟

– لو قبضت عليه لاوضحت له باننا شاركنا اليوم في العرض العسكري وان الرفيق ستالين خطب فيه.

– وكيف ستوضح له ذلك؟ هل تجيد الالمانية؟

– بواسطة المترجم.

– حسنا. لنفترض انك اوضحت له بواسطة المترجم. ثم ماذا تفعل؟

– اطلق سراحه.

– ماذا تقول؟ تطلق سراحه؟

– نعم. فليذهب الى زملائه وليحدثهم.

– ستطلق سراحه حيا؟

— بالطبع، فكيف اطلق سراحه ميتا؟

— حسنا فعلت، يا نائب العريف، عندما قتلت الالمانيين قرب الكنيسة. انتهى قرص الخراطيش عندى فى تلك اللحظة وظننت بانهما سيختفيان وراء التلة، ولكنك اصبتهما فى الحال — قال الجندى الثالث، ولقبه بودالوف، لسينتسوف ووضع بذلك حدا للجدال.

سينتسوف يعرفه هو ايضا منذ ثلاثة، بل اربعة ايام، وقد لاحظ ان بودالوف هذا مقاتل صالح تماما، ولكنه يتزلف بين الحين والآخر، لسبب ما، حتى لآمر صغير مثل آمر المفرزة. كان سينتسوف فعلا قد اردى، بصلية، هناك قرب الكنيسة المانيا راكضا، ولكنه قتل المانيا واحدا وليس اثنين. فالثانى تمكن من الفرار. وبودالوف يعرف ذلك، ولكنه، على ما يبدو، لم يعتبر التزلف الى آمر المفرزة خطيئة. فقال سينتسوف:

— الثانى نجا. فقد كانت عندى بقية قرص فقط.

وقال ليوتيدوف، ولاحت على وجهه الضيق النحيل ابتسامة ساخرة متصلبة:

— بالمناسبة، فالالمان يهربون من الدبابات حالما يرونها. يا ليتنا تمتلك العدد الكافى من الدبابات لكى يقود كل منا دبابته فتسحقهم ولن تقوم لهم قائمة. بيستراك، يا بيستراك! — دفع بكوعه جنديا فارع القامة كان جالسا قربه غفا ومال رأسه المتعب الى الجدار.

وجه الجندى جميل صاف، فهو فى ريعان الشباب. ولكنه حتى فى النوم كانت تلوح عليه امارات التعب الى درجة جعلت سينتسوف يشفق عليه. فما الداعى لايقاظه؟ وقال سينتسوف:

— لا توقظه.

— كلا. فليحدثنا كيف ارتعب من دبابتنا. حالما مرت الدبابة قربنا قفز الى كومة الثلج ورقد هناك على وجهه دون حراك... بيستراك، يا بيستراك!

ولكن بيستراك ظل نائما، وانطبعت امارات التعب الفظيع على وجهه ليس لانه مرهق اكثر من الآخرين، بالعكس، لانه كان اصغر سنا واقوى من الكثيرين. كانت امارات التعب على وجهه نتيجة لكل ما عاناه هذا اليوم.

ومع ان السواد الاعظم من افراد فصيلة حملة البنادق الرشاشة هم من الذين شاركوا سابقا فى القتال، فان بيستراك، كما فهم سينتسوف اليوم، يشارك فى القتال لاول مرة رغم التحاقه بالوحدة بعد اصابته بجراح. ولكن هل فى ذلك ما يثير الدهشة؟ وهل يندر ان يصاب المرء بجراح قبل ان يتمكن للمرة الاولى من رؤية عدو بام العين او من اطلاق الرصاص عليه عن بعد؟

كان سينتسوف جالسا قرب الفرن وهو يتطلع الى افراد مفرزته النائمين والجالسين ازاءه قرب النار ويفكر بانه يعرف الآن واحدا منهم، وهو ليوتيدوف، اطول فترة — خمسة ايام كاملة، ويعرف واحدا آخر، هو بيستراك، اقصر فترة، يومين لا غير. كان يتطلع اليهم ويفكر بانه لم يشهد طوال حياته مثل هذا القدر من اللقاءات العاجلة والعرى الوثقى والفراق الذى لا مرد له مع هذا العدد الكبير من الناس كالذى شهده خلال خمسة اشهر من الحرب. فقد كان هناك كابتن المدفعية فى الغابة بضواحى بوبرويسك، ومفوض الكتيبة، ضابط الحدود الذى قتل فى انفجار قنبلة، والعقيد الذى بحث معه فى اورشا عن القطار المتوجه الى موغيليف، والطيار من قاذفة القنابل، وكابتن سلاح الدبابات الذى التقى به مرة اخرى فى ضواحى يلنيا ثم فقده من جديد، وخوريشيف الذى كان يعمل فى سريته مرشدا سياسيا، وزولوتاريف الذى سار معه للبحث عن قواتنا، ولو كان حيا لتمكن لوحده فى هذه الدنيا من التدليل على ان سينتسوف لا يتحدث عن نفسه الا الحقيقة من اول كلمة الى آخر كلمة يقولها...

وكوليا بايوكوف؟ هل هو حى؟ هل تتحسن صحته ام انه صار معوقا الى الابد؟ ثم اين هو؟ وعلى اى عنوان يمكن الكتابة اليه بخصوص وسامه؟

فما العمل؟ طوال الوقت يتلاشى البعض حوله ويأتى آخرون، ولا يمكن ان يكون الحال على غير ذلك فى الخط الامامى للجبهة. كان الحال كذلك وسيظل كذلك.

— ماذا يا شباب؟ هل تنام؟ — قال سينتسوف ليطرد كل هذه الافكار التى جاءت بغير مناسبة.

بدأ الجنود يرقدون. وهم سينتسوف ايضا بالرقاد، الا ان باب المنزل فتح فجأة ودخل مالينين.

— عندكم اغذية كافية؟

اجاب سينتسوف بان لديهم معلبات تكفى ليوم غد. فقال مالينين:

— فى الصباح سنوصل المطبخ اليكم. استريحوا. فعلتم حسنا، وضمائركم صافية، فيمكنكم ان تناموا.

فتح الابزيم العلوى لمعطفه الفرائى القصير ودس يده فى عبه واستخرج من هناك ورقة منتزعة من دفتر مدرسى ومطوية اربع طيات وسلمها الى سينتسوف.

— اكتب عما تحدثنا عنه فى الساحة الحمراء. الم تنس؟

– كلا .

– خذ هذا ايضا وارفقه بالعريضة . فقد كتبته من اجلك .

– شكرا .

– كتبته ليس من اجل الشكر، بل لانني واثق – قال مالينين – لم يبق من سريتنا الا اثنان، انا وانت . فمن كان يتوقع مثل هذا المصير؟!

ولمح سينتسوف في عينيه ما جعله يفهم «بان الجميع يريدون ان يعيشوا، ومالينين ايضا» .

– حسنا، الى اللقاء ...

اراد سينتسوف ان يرافقه مودعا، ولكن مالينين لوح بيده مكتئبا وخرج .

جلس سينتسوف ازاء الفرن وفتح الورقة المستلة من الدفتر وقرأ السطور الاولى على ضوء الشمعة الخافتة التي تكاد تحترق: «انني، مالينين الكسي دينيسوفيتش عضو الحزب الشيوعي (البلشفي) لعموم الاتحاد السوفييتي منذ عام ١٩١٩، اعرض هنا رأيي ...» .

قرأ سينتسوف الورقة حتى نهايتها، حتى الكلمات التي ربما يصعب توقعها من مالينين في زمن السلم: «شخصيا لا استطيع التدليل على حسن ماضيه الا من اكتوبر العام الحالي، ولكنني اعاهدكم باخلاصه كما لو كنت انا بدله» . طوى سينتسوف الورقة من جديد اربع طيات ودسها في جيب قمصلته، وسمع هدير جنازير دبابة في الشارع، فخرج الى الهواء الطلق .

البدر الساطع ينير الشارع . وقرب المنزل توقفت دبابة من طراز «٣٤» . ووقف احد جنودها في الكوة المفتوحة .

– يا مشاة! هل عندك تبغ؟

– نعم . – اقترب سينتسوف من الدبابة واخرج من جيب معطفه القصير علبة سجائر «بيلومور» مستهلكة حتى النصف، وكانت قد بقيت لديه من هدايا العيد في موسكو .

– انتم مدينون لنا . فلولا جنود الدبابات لسلخ الفريتس جلودكم في كوزكوفو! سآخذ سجارة واعطي اخرى لرفيقي، هل عندك مانع ؟

– كلا . – وافق سينتسوف .

اختفى الجندي في الكوة، ولعله اعطى سجارة الى سائق الدبابة . ثم ظهر من جديد على البرج وسلم العلبة الى سينتسوف .

– شكرا .

– ماذا؟ هل انتم ذاهبون؟ – سأله سينتسوف .

– نعم . ألن تنسحبوا من القرية بدوننا؟

– كلا بالطبع . سنبذل جهدنا على قدر المستطاع – اجاب سينتسوف .

– اذا شعرتم بالضعف اصعدوا الى ناقوس الكنيسة، واقرعوه وسنسمعكم فنأتي – ثم صاح بصوت عال الى داخل الدبابة: – يا بيتيا، شغل المحرك . هيا!

زأرت الدبابة وسارت على امتداد الشارع المضاء بنور القمر تاركة خطين في الثلج المهروس .

وقف سينتسوف مستندا الى جدار المنزل وراح يشيع الدبابة بنظراته حتى اختفت وراء المنعطف دون ان يعرف بان المصير الحربي القاسي والمتقلب الاطوار كاد يجمعه الآن مع الشخص الذي هو بأمس الحاجة للالتقاء به، مع سائق الدبابة زولوتاريف الذي ناداه الجندي قبل دقيقة صائحا: «يا بيتيا، شغل المحرك . هيا!» .

الفصل السادس عشر

الضيعة الاقطاعية القديمة تقع على تلة غير مرتفعة ولكنها ملحوظة، والمتنزه القديم يهبط على كلا سفحيها - الى الخلف، نحو مؤخراتنا، والى الامام، نحو الالمان. ويتلوى كالثعبان في المنخفض جدول متجمد، ووراءه تقع قرية دوبروفيتسى التي احتلها الالمان قبل بضعة ايام.

كانت التلة تهتز طوال ايام بكاملها من انفجار القنابل والقذائف. وقد تحطم نصف اشجار المتنزه كاعواد الثقاب، ووقعت القنابل مباشرة على المنزل وعليته فدمرته شذر مذر. وقصمت القذائف برج النواقيس في كنيسة الضيعة حتى طابقه الاول. ولكن مهما جهد الالمان لهز التلة وحفر هذه الأرض بالقنابل والقذائف فان الفرقة، بعد عدة انسحابات اضطرارية، صارت وكأنها غاضبة على نفسها وعلى جيرانها فتشبثت بهذه التلة ومنزلها الاقطاعي القديم وامسكت بها بالاسنان وخيل للرائي بانها شدت على فكيها بقوة اكبر.

منذ خمسة عشر يوما، اعتبارا من صباح يوم ١٥ نوفمبر، زحف الالمان بكل قواتهم على موسكو من جديد محاولين احتواءها من الشمال والجنوب في وقت واحد، وفي اماكن مختلفة من القطاع المركزي للجبهة اخترقوا الدفاع مقتربين منها بقدر اكبر. وخلال اسبوعين من الهجوم احتلوا كلين وايسترا وياخروما وسولنيتشنوغورسك وفينيف وستالينوغورسك وبوغورودیتسك وميخائيلوف. وفي الاتجاه الشمالي الغربي لم يبق بينهم وبين موسكو الا ٢٥ كيلومترا....

ومع ان الفرقة، بعد العرض العسكري في الساحة الحمراء، دخلت القتال ولديها امر صريح بعدم الانسحاب حتى لخطوة واحدة، فقد اضطرت من جديد الى الانسحاب اكثر من مرة.

صحيح ان اقاويل الجنود تحمل من المؤخرة المزيد من الانباء التي تفيد بان وحدات النسق الثاني تحمى الظهر، بل ويقال ان هناك نسقا ثالثا ابعد من ذلك.

وظهر لدى المحاربين على الخط الامامي شعور بان هناك قوة احتياطية ما خلفهم، وراء سلسلتهم الرقيقة، تحسبا للطوارىء. ولم يعودوا يشعرون بالبرد التلقائي في الظهر والذي يبرز عندما يعرف المرء انه لا احدٌ وراءه، وانه اذا سقط فسوف يتجاوزونه ويواصلون سيرهم...

ويقال - وهذا شيء اكدته المعارك الاخيرة على ما يبدو - ان الالمان يشنون الهجوم بآخر ما لديهم من قوى. ولكن من يدرى كم لديهم من «آخر القوى» هذه؟ فرح الجميع امس عندما تمت على الجبهة الجنوبية استعادة مدينة روستوف منهم، مع ان الناس لم يعرفوا باننا سلمنا لهم روستوف الا من بلاغ استعادتها. واليوم جاء في البلاغ الصباحي الذي سجل من الراديو اننا تركنا مدينة تيخفين منذ عدة ايام. وربما سنستعيدها فيما بعد، مثل روستوف ولكننا تركناها الآن...

وحول ذلك بالذات، حول روستوف وتيخفين ثار الجدال الآن في مخبأ جنود البنادق الرشاشة، وهو عبارة عن دفيئة قديمة من الطابوق غطيت بطبقتين من جذوع الاشجار. وهي قريبة جدا من مركز قيادة الكتيبة الواقع في سرداب المنزل الاقطاعي ومن الخط الامامي للجبهة الذي يمر هنا، في الاسفل، على طرف المتنزه.

وثار الجدال بين ليونيدوف وكوماروف. فان ليونيدوف السريع الانفعال راح يتهجم على بلاغات مكتب الاستعلامات، بينما راح كوماروف المتعقل يدافع عنها. وقال ليونيدوف بهجمة متهكمة:

- دعك من هذا يا كوماروف فان كل شيء صائب دوما بالنسبة لك. اين الصواب في ان يقال لى اننا استرجعنا روستوف من الفريتس، اما انا فافرك عيني واقول: عجبا! استرجعناها، ذلك شيء حسن، ولكن متى سلمناها لهم؟ فهل يعقل انى كنت نائما واستيقظت الآن فقط؟ وتلك هي حال تيخفين. حدثت مصيبة فسلمنا تيخفين. فقولوا فورا باننا سلمناها. ولا تقولوا ذلك «بعد عدة ايام». وربما سلمناها قبل شهر!

- ما اشد غباءك! - قال كوماروف - فما نفعك من ذلك لو انك عرفت به قبل اسبوع من وقوعه؟

- النفع لا يهمنى، فانا اريد ان اعرف الحقيقة.

- ربما لا تجوز الكتابة عن ذلك! ربما لا ينبغي للالمان ان يعرفوه!

- ماذا؟ - سأل ليونيدوف حتى كاد يقفز - الالمان لا يعرفون بانهم احتلوها؟ احتلوها دون علمهم؟ فنحن عندما استعدنا كوزكوفو هل اخفينا

ذلك؟ بالعكس تماما! فقد تلقى قائد الفوج منا، من الكتيبة، الى الجيش مباشرة. وسمعت ذلك بنفسي. وعندما كنا ننسحب فلا داعي، طبعا لاثارة الضجيج ... كل شيء صائب بالنسبة لك! انك لست بعوضة تلسع، بل انت دعسوقة وادعة.

— لا ترفع صوتك — در كوماروف (لقبه مشتق من كلمة «كومار»، وتعني بالروسية «البعوضة») — تدعي ان معارفك كثيرة ... فهذا بالنسبة لك دعسوقة، وذاك حشرة. اما انت فكالنحلة الطائفة: طنين كثير وقع قليل.

— سأستمر على الطنين! — قال ليونيدوف واكتسى وجهه الغاضب بمسحة من الكآبة — انني متألم لتيخفين! انني من ابناء كايواكسا، ويمكن القول من ابناء تيخفين. احتلوا تيخفين وانا لا ادري.

— من اية واكسا انت؟ اين تقع واكسا الوسخة هذه؟ — سأل كوماروف المسالم ليغيظ ليونيدوف المشاكس.

— لست من واكسا، بل من كايواكسا. توجد قرية بهذا الاسم في ضواحي تيخفين! — اجاب ليونيدوف بغيظ.

الا ان كوماروف لم يكن راغبا في تفويت فرصة التفوق في الجدال.

— يا عيب الشؤم! انت من واكسا الوسخة وتحكم على الآخرين بهذه القساوة وكأنهم لا يجيدون وضع البلاغات بدونك!

— اسمع يا نائب العريف — خاطب ليونيدوف سينتسوف الذي جلس عند باب وضع على كسر من الطابوق فصار بمثابة طاولة وراح يكتب رسالة الى زوجته — ماذا تعتقد: لماذا منح الانسان رأسا؟ الاجل ان يقول «نعم» ام لاجل ان يقول «لا»؟

— لاجل ان يكون فيه دماغ — علق كوماروف قبل ان يرفع سينتسوف رأسه.

— والدماغ في الرأس لاجل ماذا؟ أليقول «نعم» ام ليقول «لا»؟ — سأل ليونيدوف دون ان يهدأ. رفع سينتسوف رأسه. الجو في المخبأ المطمور دافىء وجاف، وبالاضافة الى ذلك فالوضع هادئ اليوم.

خيم الهدوء على قطاعهم منذ الصباح لاول مرة خلال تلك الفترة. وكان ذلك هو اليوم الاول الذي لم يقتل ولم يجرح فيه احد على مرأى منهم، ولم يذكرهم شيء بالموت غير القصف المدفعي المتوالي البعيد من اليمين، في الفرقة المجاورة. ولعل معركة حامية جرت هناك. ولكنه لم تكن هناك دلائل على ضرورة النجدة المباشرة التي يمكن ان تطلب منهم في اية لحظة

من الليل او النهار. وقد فرح سينتسوف، شأنه شأن سائر رفاقه، لان الالمان يضغطون اليوم ليس عليهم، بل على جيرانهم. فبدون هذا القليل من الاتاتية العسكرية لا يمكن للجندي ان يعيش عموما على الخط الامامي للجبهة.

خلال اسبوعين من المعارك بقي من الاشخاص السبعة في مفرزة سينتسوف اربعة، بمن فيهم سينتسوف نفسه. فقد قتل بودالوف وهو يسحب جريحا من ساحة القتال. كان الجندي الاول بودالوف يحب التزلف الى الرؤساء في صغائر الامور، ولكنه في لحظته الاخيرة خدم رفيقه وضحى بحياته في سبيله. واصيب اثنان بجراح نقلا على اثرها الى الكتيبة الصحية. وكان هناك جريح آخر هو بيستراك، ولكنه لم يرغب في مغادرة المفرزة فظل فيها بفضل قوته الاسطورية رغم اصابته بجرح مفتوح في الكتف. ذهب الآن لاحضار طعام الغداء، وكان في المخبأ كل افراد المفرزة ما عداه. وهم سينتسوف وهذان الجنديان المتخاصمان دوما — ليونيدوف وكوماروف الذي التصقت به كنية «البعوضة»، وقد اطلقها عليه آمر الفصيلة الملازم كاراولوف.

— اليس هناك موضوع للنقاش افضل من هذا؟! — قال سينتسوف — اذا كان الرأس خاليا من كل شيء ما عدا «نعم» و«لا»، فهل هو رأس يا ترى؟ انه مجرد استمارة.

كان سينتسوف يفهم ما يقصده ليونيدوف بكلمتي «نعم» و«لا». فان المبرر لوجود الرأس على الكتفين هو ان الشخص يتمكن من قول كلمة «لا» عند الضرورة. كان ليونيدوف شجاعا في القتال، ولكنه شديد الانفعال، ولذا فهو يغضب من هدوء كوماروف الذي يعتقد، عادة، ان كل ما يجرى صحيح. ولو كان هناك موضوع آخر للنقاش لربما التزم سينتسوف جانب ليونيدوف، الا ان ليونيدوف، بسبب من تعكر مزاجه، تشبث الآن بالبلاغات وراح يتهجم عليها. وذلك شيء لا مبرر له. فليس من الجائز التشكيك بالبلاغات في الجبهة. وعلى اية حال لا يجوز التشكيك فيها بصوت مسموع. «ثم ما اهمية وقت الاعلان عن تسليم تيخفين، اليوم او قبل ثلاثة ايام؟» — فكر سينتسوف — وربما كانوا يأملون باسترجاعها بسرعة فلم يعلنوا النبأ. فنحن، عندما طردونا من كوزكوفو لم نخبر الجيش ليلة بكاملها، مؤملين باننا سنستعيدها. وبعد ذلك، في الصباح، كنا مضطرين الى اخبار القيادة رغما عنا ...».

— لمن تكتب يا نائب العريف؟ — سأل ليونيدوف بعد صمت قصير.

— لزوجتي.

— لاحظت انك تكتب مرة اخرى، وربما هذه ثالث مرة، ولكنك لم تستلم رسائل منها.

— لم استلم.

— الا ينبغى ان تشتكى طالما انك لا تستلم رسائل؟! — قال ليونيدوف. ولاحت فى كلماته سخرية ومشاطرة فى وقت معا.

— عند من اشتكى؟ اننى كأنما اتكلم مع صماء فلا جواب.

— وانا ايضا لا استلم جوابات — قال ليونيدوف — بالامس ظننت اننى اعرف شيئا، ولكننى فى الحقيقة لا اعرف اى شىء. بالامس فكرت ان الالمان فى ضواحى فولخوف، ولكنهم اليوم تجاوزوا تيخفين. ووقع هذا النبأ على كالصاعقة! فعائلتى هناك. وفكرت ربما لست انا الوحيد الذى علمت بعد الأوان بان الالمان احتلوا تيخفين. فماذا لو كانوا هناك ايضا قد فوجئوا بوصول الالمان؟ فى الصباح كانت هناك قواتنا، وفى المساء وصل الالمان. آ؟ وانى معوق من زمن الحرب الاهلية. واذا لم يخبروه مسبقا فلن يتمكن من النزوح بعيدا.

وبعد هذه الكلمات فقط اتضح لسينتسوف وكوماروف تهائيا لماذا اشتد غيظه الآن اكثر من المعتاد. ونصحه كوماروف:

— اكتب رسالة ايضا مثل نائب العريف.

— الى اين؟

— الى واكسا هذه...

لم يعد كوماروف راغبا فى مشاكسته، ولكنه، بسبب تكرار هذه النكتة مرتين، نسى بالفعل اسم مسقط رأس ليونيدوف.

— كاى... وا.. كسا! — صحح له ليونيدوف غاضبا اسم القرية — واذا كررت الاهانة ساصفعك.

— ومع ذلك اكتب رسالة — كرر كوماروف دون ان يعبأ بالتهديد — ففى الحرب تحدث حالات مختلفة. يقال فى الجبهة ان الالمان يحتلون كل المناطق حول تولا، ولكنهم لم يحتلوا تولا. وربما يكون العكس عندكم: احتلوا تيخفين، ولكن قواتنا فى كل مكان حولها. اجلس واكتب رسالة.

— لن اكتب — قال ليونيدوف، فقد منعته طباعه من التصديق بسهولة بهذا الأحتمال السعيد.

تزحزح سينتسوف قليلا ليقع ضوء اكثر على الورق وانهمك فى الكتابة من جديد. وكان ليونيدوف على حق، فان سينتسوف يكتب الرسالة الثالثة الى ماشا خلال الأسابيع الأخيرة على صندوق البريد الغامض الذى سجل رقمه

على الوريقة فى موسكو.

كانت الرسالة موجزة مثل الرسالتين السابقتين: انا بخير! سؤالى عنكم. فمن الصعب عموما كتابة رسائل طويلة اذا كان المرء لا يعرف بانها ستصل الى المرسل اليه ام لا، ناهيك عن الرقابة العسكرية.

انهى كتابة الرسالة وطواها بشكل مثلث، ثم كتب تحت لقب ماشا، مثلما فى المرتين السابقتين: «واذا كان المرسل اليه غير موجود ارجو فتح الرسالة مع ذلك». فاذا اتصلت ماشا بموسكو باللاسلكى فهل يصعب عليهم ان يقولوا لها بضع كلمات على الاقل: «زوجك على قيد الحياة»؟ وحتى لو اوصلوا هذه العبارة بالشفرة، فهل هى طويلة؟ كلا ابدا. ولو اوصلوها لما قلقت تلك المرأة فى المؤخرة. فهل ذلك شىء صعب؟ وحتى لو كان صعبا، ثم ماذا؟! — فكر سينتسوف بقساوة عابرة ضد الشخص الذى ابتدعه بنفسه والذى لا يريد ان يهتم بماشا.

دخل بيستراك المخبأ وقد حنى لدرجة كبيرة كتفيه الضخمتين. وبيده وعاء مما ينقل به الحليب، وهو وعاء حل محل الترموس الذى حطمته الشظايا قبل ايام، وتحت ابطه قطعتان كبيرتان من الرغيف. فرك ليونيدوف يديه وقال:

— سوف تتلذذ بالطعام الساخن.

ولكن كوماروف ألقمه حجرا:

— ربما سننتظر حتى يعود الشبان من الدورية ويعود آمر الفصيلة. اليس كذلك؟

وسأل سينتسوف: — الم تحضر الجرائد؟

— احضرتها.

فتح بيستراك معطفه واخرج من بنطاله جريدة مدعوكة وراح يعدلها.

— جريدة جبهوية؟ — سأله سينتسوف.

— كلا، من منزلة اعلى. جريدة «الأزفستيا».

— يبدو انك فتى شاطر — قال له ليونيدوف، فاضاف بيستراك:

— اخذتها من المطبخ مباشرة. فقد أكل احد المراسلين طعاما هناك وترك رزمة من الجرائد.

— يعنى انهم اطعموه جيدا — قال ليونيدوف ساخرا.

لم يرد بيستراك على هذه الملاحظة وعدل الجريدة بعناية من جديد ثم سلمها الى سينتسوف، وقال انه جاء الآن الى الخط الامامى بصحبة مصور من الفرقة، وقد طلب منه المصور ان يدله على مركز قيادة الكتيبة، ثم ذهب الى مالينين.

فقال ليونيدوف لسينتسوف: – يعنى انك «ستسقيناه» قريبا.

كان الجنود يعرفون بان سينتسوف سيستعيد العضوية فى الحزب، وهو مثل عدد آخر من افراد الكتيبة الذين توقفت قضيتهم فى المكتب الحزبى، ينتظر وصول المصور بين لحظة واخرى.

– يبدو انك محق – قال سينتسوف باسما. فقد سر لمجيء المصور، ولم يكن لديه سبب يمنعه من اخفاء سروره عن رفاقه.

– هل تريد موسى؟ – سأله ليونيدوف. فقد كان لديه موسى حاد جيد، ولم يبخل به على الآخرين.

– استطيع ان احلق بموساى – قال سينتسوف.

– موساك ليس حادا. فهو يحلق فى مكان ويترك نتفا من الشعر فى مكان آخر.

اغترف سينتسوف ماء فى علبة فارغة من الدلو المتواجد قرب الفرن ووضع العلبة عليه كى تتسخن.

– الاشياء الهامة سأقرأها بصوت عال، حسنا؟ – قال ليونيدوف وقد استأثر بالجريدة. انه يحب القراءة بصوت عال، ولكنه لا يحب قراءة كل شيء، بل ما يسترعى الانتباه فقط فى رأيه.

اخرج سينتسوف من كيس متاعه صابونة وفرشاة حلاقة. الصابونة فى علبة نايلون وردية، والفرشاة جيدة وجديدة. وكانت هناك اداة حلاقة ايضا، ولكن دون جدوى، فهى بدون موسى. وكان سينتسوف قد استلم ذلك كله فى احد اكياس الهدايا. كانت الهدايا تصل الى الفرقة من منطقة التاى التى رابطت فيها قبل الحرب. ووصلت هذه الهدايا التى ارسلت بمناسبة عيد ٧ نوفمبر متأخرة مدة اسبوعين من ذلك التاريخ. ولم يبق فى الكتائب والسرايا من سكان التاى الا القليل، وبين جنود البنادق الرشاشة شخص واحد فقط من التاى وهو آمر الفصيلة كاراولوف. ومع ذلك كان وصول الهدايا من التاى البعيدة جدا قد اثر فى نفوس المقاتلين تأثيرا شديدا فكتب الجنود رسالة جوابية الى ابناء بلدة كاراولوف. حرر سينتسوف الرسالة التى املاها عليه الجنود، بينما وقف كاراولوف خلف ظهره وهو يشتم الألمان بصيغ مختلفة بين الحين والآخر. ففى ذلك اليوم ارتخت اعصابه على غير عادته فشرب مزيدا من الخمر. تذكر سينتسوف ذلك الآن وهو يخرج الصابونة والفرشاة.

وطرق ليونيدوف باصبعه على الجريدة وقال:

– عثرت على الخبر... قرأته امس الاول فى الجريدة الجبهوية واردت

ان اقرأه عليكم، ولكن لا ادرى من اخذ الجريدة منى. – واخذ يقرأ ببطء وبصوت غاضب عال: – «الفاشيون الالمان السفلة ينتقمون بوحشية من افراد الجيش الاحمر الجرحى وقطعوا رؤوس ثلاثة منهم...». – وضع اصبعه على هذا المكان من الجريدة، ورفع عينين غاضبتين وسأل: – ماذا؟ – سأل بلهجة وكأن احدا يجادله فى هذا الموضوع. ثم تطلع من جديد الى المكان الذى وضع اصبعه عليه وكرر: – «وقطعوا رؤوس ثلاثة منهم...». اما انا فقد صفعنى كاراولوف عندما قتلت المانيا امس. أليس كذلك؟

– هذا ما تستحقه! – علق كوماروف – المقاتلون بذلوا جهدهم للقبض على المانى حى، فجئت انت وقتلته. يا لك من رام منحوس!

– قبضت عليه بنفسى – قال ليونيدوف معترضا.

– ولكن ليس لوحدك.

– حسنا. صفعنى – قال ليونيدوف – لو لم يكن آمرا للفصيلة لرأى منى ما لا يسره! حسنا، لا بأس، ولكنه هددنى قائلا: اذا كررت ذلك سأعدمك رميا بالرصاص! فماذا يقصد؟

– يقصد بان لا تقتل الالمانى الذى يقبض عليه حيا. – قال كوماروف بلهجة تربوية.

– وماذا يقصد المرشد السياسى الاقدم عندما انبنى؟ فهو لم يتحدث عن الالمانى الحى، بل قال: «طالما هو اسير فليس لك الحق عموما... كيف يحق لك؟!» – وهذا؟ – غرز ليونيدوف اصبعه فى الجريدة حتى تمزقت – وهذا؟ هل يحق لى ان اقرأ عنه؟ ام لا يحق لى؟ اننى ارى بام العين، عبر الجريدة، كيف يقطعون رؤوس البشر! بينما احصل على صفعة. فهل فى ذلك عدالة؟

صمت متوقعا جوابا من احد منهم. ولكن احدا لم يجبه، فواصل القراءة بصوت اعلى من السابق:

– «فى قرية ماكييفو عثر آمر الاتصال الرفيق موتشالوف والمرشد السياسى للسرية الرفيق غوباريف على جثث الجنود لابينكو وسوبوف وفيلتشينكو ممزقة بوحشية. فقد شوه الفاشيون الجرحى ففقأوا عيونهم وبتروا انوفهم وقطعوا رقابهم...» – رفع رأسه من الجريدة مرة اخرى وسأل: لماذا يكتبون لنا عن ذلك، يا نائب العريف؟

– لنكون اشد غضبا.

– اننى غاضب جدا حتى بدون ذلك!

– ومع ذلك لا تمس الالمان الذين نقبض عليهم احياء بسوء. – قال

كوماروف الذى يحب الضرب على وتر واحد – ما دمت قد قبضت عليه فذلك يكفى .

– انتم مفرطون فى الطيبة ! – قال ليونيدوف بغضب .

وضع سينتسوف اداة الحلاقة، فقد اغاظته كلمات ليونيدوف هذه .

– لا تفرض علينا غضبك ! تمهل ... – طبطب على ركبته عندما رأى ان ليونيدوف ينوى مقاطعته – انت غاضب، ولكن كم عدد الفاشيين الذين قتلتهم؟ اثنان بالاضافة الى الاسير، اليس كذلك؟ اما كوماروف الطيب القلب فقد قتل اربعة !

– لا يسجل كل القتل – اجاب ليونيدوف عابسا .

– لا يسجلون كلهم عند الآخرين ايضا . فعند كوماروف ايضا لم يسجل كل القتلى . فما قيمة غضبك؟ انت غاضب لأنك قتلت عددا قليلا، فقررت ان تضيف، الى الاثنين ثالثا، اليس كذلك؟ قتل الاسرى غضب رخيص !

– هل تعرف شيئا عن غضبى؟ ! – قاطعه ليونيدوف بلهجة حانقة جافة .

– نعم، اعرف ! – قال سينتسوف بلهجة قاطعة . المصير جعل قلبه قاسيا وحرمه من البقية الباقية من الرقة التى كان يتحلى بها قبل الحرب – انك لم تر الكثير فى حياتك بعد ! ذلك هو السبب .

– ليس اقل مما رأيت انت .

– اقل . بالتأكيد . معركتك الحقيقية الاولى، ان صح القول، كانت فى كوزكوفو .

– يخيل اليك انك تعرف الكثير جدا عنى ! – قال ليونيدوف بزعل ولكن بشىء من الحيرة .

– انا آمر مفرزتك ويجب على ان اعرف كل شىء عنك .

قال سينتسوف ذلك فى محاولة لتهدئة نفسه بتذكر منصبه بالذات .

وفكر، بما يلازمه من احساس بالعدالة، بان ليونيدوف كان فى معركة كوزكوفو، مثل بيستراك، قد شارك فى الهجوم حقا لاول مرة، ولكن سينتسوف لم يدرك ذلك حينئذ من سلوك ليونيدوف نفسه . وقد عرف بذلك، فيما بعد، صدفة . وقد قتل ليونيدوف فاشيين اثنين، لا اربعة، ليس لانه اجبن من كوماروف، بل لان وضع المعركة كان على هذا النحو بالذات . وليس على نحو آخر .

التقط سينتسوف اداة الحلاقة من جديد والقى نظرة جانبية على ليونيدوف الذى غرز وجهه فى الجريدة بعناد . وفكر سينتسوف بانه على حق . «فليس من اللائق ان يفرض غضبه على الآخرين، فنحن جميعا فى الحرب متساوون :

فالغاضبون غاضبون، والطيبون غاضبون ايضا ! والذى يتحلى بالطيبة اما لم يكن قد رأى الحرب واما يتصور بان الألمان سيرأفون به لطيبته» .

خرج الى الشارع بدون قمصلة ومسح بالثلج وجهه المتوقد بعد الحلاقة وعاد .

– طظ عليه ... – سمع سينتسوف صوت ليونيدوف عندما دخل المخبأ من جديد – انا غاضب شرير، وهو طيب القلب ... اما عندما ضرب ذلك الالمانى بالبندقية على خوذته قرب المخبأ فقد انفصل عقب البندقية من ماسورتها من شدة الغضب ! ..

لاذ ليونيدوف بالصمت حالما دخل سينتسوف . ولم يكن خائفا من مواصلة الكلام – فالخوف ليس من طباعه – ، بل لم يكن راغبا فيه .

– ماذا قرأت فى الجريدة غير ذلك؟ – قال سينتسوف بلهجة مصالحة بعد ان ارتدى قمصلته ومعطفه وقبعته وعلق على رقبته البندقية الرشاشة ذات الكدب الجديد الذى صنعه بنفسه .

– قرأت الشىء ذاته – اجاب ليونيدوف بغير ود، وغرز اصبعه فى آخر نفس المقطع من البلاغ الذى قرأه بصوت عال قبل ذلك . – «وفى قرية يكاتيرينوفكا عثر على جثة المفتش الصحى الرفيق نيكيفوروف . فبعد ان اصيب بجراح ثخينة انهال عليه الهتلريون ضربا باعقاب البنادق ونخروا جسمه بالحراب وشققوا وجهه بالموسى» .

«بالموسى؟ ! » – فكر سينتسوف وتصور نفسه جريحا عاجزا عن الحركة والالمانى جالس على صدره يمزق وجهه بالموسى .

– انا ذاهب لاتصور – قال بصوت مسموع – اذا جاء كاراولوف اخبروه .

عندما خرج من المخبأ فى المرة الاولى لينتسل لم يلاحظ شيئا، اما الآن فقد رأى فجأة جمال الطبيعة الخلابة فى هذا اليوم المشمس من ايام الشتاء : زرقة السماء المنقطعة النظير وبياض الثلج الناصع الذى تساقط خلال الليل والظلال السوداء لجذوع الاشجار، وحتى الطائرات المحلقة بشكل مثلث على ارتفاع شاهق، بحيث خيل اليه ان طنينها البعيد لا ينطوى على خطر .

كانوا فى المخبأ قبل قليل يتجادلون عن الحرب والموت وعن قتل البشر وعما اذا كان بالامكان ان يتحلى المرء بالطيبة او الغضب اثناء القتل ...

وها هو الآن يسير نحو انقاض المنزل الاقطاعى السابق على ممشى مغمور بالشمس ومخطط بظلال جذوع الصنوبر ويفكر بعدم تكيف الانسان جيدا فى الواقع للحياة التى تسمى بالحرب . انه يحاول تعويد نفسه على هذه الحياة، والآخرون يحملونه على التعود عليها، ومع ذلك لا يستطيع ان يحقق

اى شىء اذا كان المقصود ليس هو سلوك الانسان الذى يؤثر عليه بالتدريج الوقت الذى يصرفه فى الحرب، بل مشاعره وافكاره فى لحظات الاستجمام والهدوء، عندما يستطيع ان يغلق عينيه ويعود ذهنيا الى الحياة البشرية الطبيعية، وكأنه قادم من عالم آخر ...

كلا، يمكن للمرء ان يتعلم القتال، ولكن لا يمكن التعود على الحرب. يمكن التظاهر بانك تعودت عليها، والبعض يجيدون هذا التظاهر تماما، والبعض الآخر لا يجيدونه، ولن يجيدوه ابدا على ما يبدو. اما هو، سيتسوف، فيجيد هذا التظاهر، كما يخيل اليه. ولكن ما فائدة ذلك؟ دفأت الشمس ما حواليه وازرقت السماء وحلقت الطائرات باتجاه آخر واطلقت المدافع نيرانها نحو جهة اخرى، وليس صوبه، وهو يسير ويتشوق الى الحياة برغبة حارة الى درجة يكاد يقع فيها على الارض وينتحب ويرجوها بتعطش ان تمهله يوما آخر او يومين او اسبوعا من هذا الهدوء الخالى من المخاطر، ليعرف بانه لن يموت طالما يستمر هذا الهدوء...

قرب انقاض المنزل صادف سيتسوف الغارق فى افكاره رقيب سرية الرشاشات فاسيوكوف الذى يتعين عليه، هو الآخر، ان يأخذوا له صورة لاجل هوية العضوية فى الحزب.

– ماذا؟ هل متصور؟– سأله سيتسوف بمرح.

– تصورت – قال فاسيوكوف وهو يمسد شاربيه، وقد فاحت منه رائحة القولونيا.

– اين المصور؟ – سأل سيتسوف.

– هنا، وراء المنزل، يوقفك قرب الجدار مثلما فى حالة الإعدام – قال فاسيوكوف مازحا.

– والباقون هناك؟– سأل سيتسوف.

– تصوروا. ظننت انك انت ايضا تصورت قبل. الحق به. فقد ذهب الى الفوج توا!

هم سيتسوف بالاسراع معتقدا بان الذنب يقع عليه لانه صرف وقتا طويلا فى الحلاقة، ولكنه تذكر مالينين ودقته فى هذه الامور وادرك بانه ما كان بالامكان خلال هذه الفترة القصيرة جمع وتصوير فاسيوكوف والآخرين. وذلك يعنى ان مالينين كان يعرف مسبقا بمجىء المصور فامرهم، مسبقا ايضا، بان يستعدوا للتصوير ويحضروا. ولا داعى للحاق بالمصور اذن. فالذين تقرر التقاط صور لهم لاجل الهويات الحزبية قد تصوروا.

وهو لا يدخل فى عدادهم. وذلك يعنى ان اللجنة الحزبية فى الفرقة لم تصادق على قرار المكتب الحزبى فقررت عدم تسليمه بطاقة حزبية جديدة. وهل هناك توضيح غير هذا؟!

وقف متحيرا.

خلال هذا الشهر والنصف فى الجبهة امتحان سيتسوف مرارا، فى اللحظات العصيبة حتى الآن، بالفكرة القائلة بان كل شىء فى حياته سيعود فى آخر المطاف الى ما كان عليه، وليس بالامكان ان لا يحقق ذلك بنفسه او ان لا يساعده الآخرون فى تحقيقه! وصادفت ايام اشتدت فيها المعارك الطاحنة الى درجة كبيرة جدا، كما حدث على رابية معمل الطابوق، حيث ملأت الحرب كل المسامات وخيل اليه انه ليس هناك شىء غير الرشاش وغير اشباح الالمان الصغار الذين احتواهم جهاز التنشين على الثلج الابيض. ومع ذلك كانت هذه الفكرة الخاصة بالثقة والعدالة حتى فى تلك الايام قابعة فى ركن من الاركان فى دخيلته، وليست قابعة فقط، بل ساعدته على القتال بالشكل الذى قاتل به.

اليوم الذى استدعوه فيه الى المكتب الحزبى للفوج كى يقدم توضيحات شفوية عن فقدان هوية العضوية ظل عالقا فى ذاكرته باعتباره آخر يوم للمحنة، كما خيل اليه.

فقد صدقه اعضاء المكتب الحزبى للفوج فيما هو رئيسى، صدقوا بانه قال الحقيقة عن ذلك الصباح فى ضواحى فيريا عندما وجد نفسه وحيدا بدون زولوتاريف. ومع ان هذه الحقيقة بدت لهم، للوهلة الاولى، بعيدة عن الحقيقة، فقد ادركوا فيما بعد انه يقولها لسبب واحد هو انه ليس راغبا فى الكذب حتى وان كانت فيه نجاته. وقال آنذاك لاعضاء المكتب الحزبى للفوج: «ايها الرفاق، ما الذى بوسعى ان اضيفه؟ لا ادرى اين ضاعت الهوية! لم اطمرها ولم امزقها! ولا ادرى، وربما كنت ساطمرها لو لم يكن لدى مخرج آخر. ولكننى لم اطمرها، لم اطمرها. قرروا ما ترتأون، ولكننى لا استطيع ان اكذب!».

وصدقوه فيما ارتاب به الآخرون سابقا، صدقوه لانهم يعرفونه اليوم افضل مما كان يعرفه اولئك.

وجهوا له توبيخا شديدا على ضياع الهوية الحزبية، وقرروا ان يطلبوا من اللجنة الحزبية للفرقة تسليمه هوية جديدة.

ومع انهم اصدروا توبيخا شديدا له فقد كان سعيدا فى ذلك اليوم، وخيل اليه انه ما من احد يستطيع ان ينتزع ذلك منه!

وها هم يتنزعونه! فتبددت الثقة السعيدة التي عاش بها في الايام الاخيرة ورافقته الآن عندما توجه الى هنا، وقبل ذلك عندما استعد على عجل للمجيء الى هنا... ذلك يعني انهم في مكان ما، في الفرقة او غيرها، لا يثقون به من جديد. لم يثقوا بماضيه مع ان حاضره معروض امامهم كما على صفحة المرآة!

وقف دقيقة كاملة مثقلا بكل هذه الافكار، واستدار ليعود الى المخبأ، ولكنه عدل عن رأيه وتوجه الى مالينين.

جلس مالينين الى الطاولة وقد القى معطفه القصير على كتفيه وراح يستمع متذمرا الى امرأة عجوز جلست مقابله في جزمة من اللباد ومنديل دافىء ومعطف اسود مما يرتديه عمال السكك. كانت تشتكي لمالينين من شيء.

عندما دخل سينتسوف صمتت المرأة، بينما التفت اليه مالينين نصف التفاتة بنفس المظهر المتذمر.

– ما هي اخبارك؟

– هل تسمح لي بالكلام ايها الرفيق المرشد السياسي الاقدم؟

– انتظر قليلا – قال له مالينين متجهما.

راح سينتسوف يتلهى بالتطلع، ليس للمرة الاولى، الى السرداب الذي استخدم كمركز للقيادة، وكمسكن لمالينين وآمر الكتيبة ريابتشينكو. السرداب طويل واطىء. ونصفه مملوء حتى السقف بالعفش المتبقي من المستشفى الذي تم تهجيره من هنا. ولذا لم يكن ريابتشينكو في البداية راغبا في استخدام هذا السرداب. ولكنه دافىء، ومالينين يحب الدفء ولا يخشى العدوى، ولذلك اصر على رأيه. اجروا تعقيما بسيطا لمخلفات المستشفى، واستعملوا بقايا الدواليب وصناديق الادوية كحطب للمدفأة.

المرأة من بودولسك وهي تشتكي لانها سجلت نفسها متطوعة في القسم الصحي للفرقة، ولكنهم عندما وزعوا الجميع على الكتائب لم يقبلوها هي.

– لم تكن موجودا في الصباح فراجعت نائبك الشاب الاشقر...

– ليس نائبي، بل هو آمر الكتيبة – قال لها مالينين مصححا.

– لا فرق عندي. – قالت المرأة – فقد قبل فتاتين ولم يقبلني متحججا بان الملاك لا يسمح. طبعا، فهو شاب، وانا افهم ذلك...

فقال مالينين غاضبا:

– ما هذا الكلام؟ لا داعي لهذه التلميحات. مفهوم؟

– يعني انني يجب ان اعود الى بودولسك؟

– قد يكون.

– لن اعود! انت انسان راشد، وعليك ان تفهمني! انني اعمل في المستشفيات منذ ثلاثين عاما. ومنذ عشرين عاما وانا اعمل في مستشفانا، مستشفى السكك. فما الذي اريده؟ انا لا اريد شيئا. ولكن يؤلمني ان مثل هؤلاء الممرضات غير المجربات يعملن عندكم. انهن لا يجيدن امورا كثيرة، ولا شيء عندهن غير الفتوة. فانا اضمد ثلاثة اشخاص في حين يضمدن شخصا واحدا. ذلك ما يؤلمني!

– الجرحى لا يحتاجون الى التضميد فقط. فيجب نقلهم من ساحة القتال ايضا – قال لها مالينين – وساحة القتال بحاجة الى القوة والفتوة.

– اعتقد انك انت لست شابا – قالت المرأة وهي تتطلع الى مالينين.

– صحيح – وافقها مالينين.

– ولكنك تقاتل دون ان تهتم بالعمر، اليس كذلك؟

– ثم ماذا؟

– لا شيء. فلتحمل الفتيات صاحبك الاشقر طالما يعلق الآمال عليهن، ولكنني سأحملك، انت العجوز، على كتفي!

– ذلك يعني تقسيم العمل – ضحك مالينين من هذه المفاجأة في تفكيرها. فقالت المرأة:

– عندي جزمة لبادية، واعطوني فقط معطفا عسكريا. فمعطفي اسود ويمكن ان يكشف عن وجودي على الثلج – قالت ذلك لانها اعتبرت المسألة منتهية. وكانت المسألة منتهية فعلا. وراحت تبحث في جيب معطفها فاخرجت منه ورقة وضعتها على الطاولة امام مالينين الذي سألها دون ان ينظر الى الورقة:

– ما هذا؟

– ترخيص من بودولسك. فهل كنت تتصور باني جئت اترجاك لوجه المسيح؟ لقد بعثتني الى الجيش اللجنة الحزبية المحلية.

لم يجب مالينين، بل اخذ الورقة وكتب عليها شيئا بالقلم الرصاص، ثم توقف وتطلع الى المرأة وسألها:

– هل تريدين ان اسجل لك قبعة فرو؟

– هذا يتوقف على اللهجة التي ستخاطبني بها – قالت المرأة بمرح ولاحت في صوتها التأتأة المعتادة لممرضة نشيطة من ممرضات المستشفيات –

اذا ناديتنى «بالعمة باشا» فيكفينى منديلى، واذا ناديتنى «بالمقاتلة باشيا كوليكوفا» فسجل لى قبعة!

— حسنا، ساسجل لك. — كتب مالينين سطرا آخر وسلم الورقة للمرأة — اذهبى لاستلام الارزاق والالبسة، اما ما تبقى فسنناقشه عند عودة آمر الكتيبة. تعالى فيما بعد — اومأ لها برأسه دون ان ينهض فتوجهت نحو الباب والورقة بيدها.

رأى سينتسوف جيدا الآن وجهها المكسو بغضون عميقة، وجه امرأة عجوز ولكنها قوية بتعودها على العمل العسير الدؤوب طوال سنين. عندما مرت قرب سينتسوف القت عليه نظرة سريعة. ولمعت عيناها ببريق الانتصار الذى حققته توا.

«اى انتصار؟ — تساءل سينتسوف — قبولها ممرضة فى الكتيبة او السرية، فى اتون النار! لو كانت امرأة اخرى لفرت من هذا الانتصار على مسافة الف كيلومتر...».

— ماذا، هل جئت زعلان؟ — سأل مالينين دون مقدمات واشار على سينتسوف بان يجلس.

وجلس سينتسوف على المصطبة التى لا زالت دافئة.

تطلع اليه مالينين واكفهر وجهه عندما رأى مدى الانسحاق الذى يعانى منه سينتسوف. فقد تعود مالينين، وهو يتحمل المسؤولية عن شخص ما، على التفكير به اكثر مما يفكر بنفسه منذ لحظة تحمل تلك المسؤولية.

لم يكن سينتسوف يعرف بان مسألة تسليمه بطاقة عضوية جديدة نوقشت فى المكتب الحزبى للفوج ليس بالسهولة التى كان يتصورها.

فقبل جلسة المكتب تحدث مالينين مع السكرتير طوال ساعة.

قال له السكرتير: «كتبت عنه بصورة جيدة، فالكلمات لا تعوزك، ولا توجد اعتراضات على ذلك من حيث الجوهر. ولكن فكر بنفسك فانت اكثر منى خبرة فى هذه الامور: اليس سابقا لاوانه ان تطرح مسألة استعادة بطاقة العضو لشخص فقدها قبل شهر ونصف لا غير؟»

اعترض مالينين على ذلك غاضبا، وقال ربما كان ارساله الى الجبهة سابقا لاوانه على هذا الاساس. ولكن عندما ارسلناه الى الجبهة ما كنا نخاف، وعندما وضعناه وراء الرشاش فى رابية «معمل الطابوق» لمواجهة الهجوم الالمانى ما كنا نخاف، وعندما منحناه وساما تقديرا لذلك ما كنا نخاف، ولكننا نخاف تسليمه هوية الحزب.

واضاف: «انا شخصيا لا اخاف. اما بخصوص «مسألة الوقت» و«السابق لاوانه» فلم يبق من تلك السرية بعد معركة معمل الطابوق الا اثنان: انا وهو. فلننتظر وقتا آخر...».

اعتبرت هذه المسألة محلولة، ولكنه ظهرت مشكلة اخرى هى التوضيح المشوش، فى رأى السكرتير، والذى قدمه سينتسوف بخصوص ضياع الهوية الحزبية والوثائق الاخرى.

«تارة يقول كيت وتارة كيت، وتارة ثالثة يقول انه فقد ذاكرته... شئ يصعب تصديقه!

«وما فائدته من الكذب؟ كان بوسعه ان يقول بانه دفنها، وتنتهى المشكلة».

«ربما تسرع فى البداية وفكر بان ما ابتدعه هو الافضل. وفيما بعد فات اوان التراجع رغم ان ما ابتدعه هو الاسوأ. افلا يحدث ذلك؟».

«كل شئ يمكن ان يحدث!.. — قال مالينين — ولكننى شخصيا اثق به. اطرح المسألة على المكتب وسنعمل حسبما يصدق به الآخرون...».

صدق به الاخرون. ولكنه فيما بعد، بعد جلسة المكتب، تنهد السكرتير وهو جالس مع مالينين الذى ساعده فى صياغة المحضر، وقال مع ذلك:

«انت اعرف، بالطبع، بوصفك من قدامى الحزبيين، ولكننى اخشى من ان اللجنة الحزبية للفرقة لن تصادق على قرارنا بسبب هذا التوضيح لفقدان الهوية الحزبية».

«من يعش يرى» — اجاب مالينين الواثق من صواب رأيه.

وها هم يعيشون ويرون!

عرف مالينين بذلك قبل ساعتين عندما تلفن له سكرتير المكتب الحزبى للفوج وقال بان مصورا سيأتى من الفرقة وينبغى اعداد جميع المقبولين ما عدا سينتسوف.

لم يجب مالينين، ولكنه قرر صامتا بانه سيراجع من جديد مفوض الفرقة بهذا الخصوص. صحيح ان الفرقة غير محظوظة. فمنذ بداية الحرب حتى الآن تبدل فيها ثلاثة مفوضين. فالمفوض الذى سلمه مالينين شخصيا عريضة سينتسوف بعد معركة معمل الطابوق والذى قدم عن طريقه فيما بعد استجوابا بخصوص بطاقة الجرد الحزبية، نائم الآن فى المستشفى. وقد قال ذاك المفوض عندئذ عن سينتسوف بان القضية واضحة، فليقاتل، وعندما يحين

الوقت ويستحق ذلك نطرح مسألة اعادته الى الحزب . لم يعد ذلك المفوض موجودا ، وحل محله مفوض جديد ، وينبغى بدء الحوار معه مجددا من بدايته .

وما العمل؟ سابدأ من جديد – فكر مالينين بعناد – واذا دعت الحاجة فسأكتب الى جهات اعلى» .

كان يتوقع مجيء سيتسوف ، وكان سيدهش لو لم يأت . فان ذلك يعنى ان سيتسوف غير واثق من صحة رأيه .

– تلك هى القضية يا سيتسوف ! – قال مالينين وقد بادر الى قطع حبل الصمت الطويل .

– ألم يصادقوا على القرار؟ – سأل سيتسوف .

– اجلوا النظر فيه .

– لماذا؟

– لا ادرى بعد .

– وماذا تعتقد؟

– اعتقد لنفس السبب .

– هل يمكننا ان نتكلم بمنتهى الصراحة؟ – سأل سيتسوف بصوت لا يبشر بخير .

– اذكر ما تريد – كان مالينين يدرك ان سيتسوف متصعق لهذه المفاجأة ولا بد له من ان يلفظ ما اختزن فى صدره ...

«فليتكلم طالما نفد صبره فلن يمكننا ايقافه . والافضل ان يقول ذلك لى وليس لغيرى» .

– يعنى بمنتهى الصراحة ، اليس كذلك؟ – كرر سيتسوف فقال مالينين :

– لن تستطيع تخويفى فانا لا اخشى الحقيقة ، كما لا اخشى الاكاذيب .

– اذن قل لى – امتقع لون سيتسوف – من هو الاغلى : الانسان ام الورقة؟

– وانت ، ما هو رأيك؟ – قال مالينين ولاحت فى صوته رنة حديدية خافتة .

ولكن سيتسوف لم يلتفت الى ذلك .

– انا الآن اعتقد بان الورقة اغلى . انها ملقاة الآن فى مكان ما من الغابة ، انها تتفسخ وتفكر فى قائلة : «انك مخطىء اذا كنت تعتقد بانك انسان له قيمته بدونى . كلا ، فبدونى لست انسانا ! لست مذنبا ، ولم تتركنى انت ،

ولكنك لن تعيش بدونى مع ذلك !» .

– هذا ما تقوله هى لك . وانت ، ماذا تقول لها؟ – سأله مالينين بنفس الصوت الحديدى الخافت .

– اننى صامت ! انا اكتب العرائض والتوضيحات ... وانتظر : لمن الغلبة ، لى ام للورقة؟

– اذا كانت الورقة وحدها تتفسخ هناك فى الغابة ، فلماذا انت مهتم بها؟ واذا كانت هناك هويتك الحزبية فلم يرغمك احد على الانتساب الى الحزب ، التحقت به بنفسك وانت تعرف قيمة الهوية الحزبية . وما دمت مصرا على رأيك ، وعلى انك لم تدفنها ، ما دمت مصرا على رأيك حتى ولو خنقوك ، فذلك يعنى ان القضية ليست بهذه البساطة . فان يطمر الشخص الهوية او يمزقها شيء ، وان يكذب شيء آخر ...

– وماذا يتعين فعله على الذى قال الحقيقة؟ هل ستعلم ، فى وقت ما ، تصديق الناس ام اننا لسنا بحاجة الى ذلك؟ – قاطعه سيتسوف .

– على من انت زعلان هنا؟ – قاطعه مالينين بدوره . فمهما كان عطفه على سيتسوف شديدا ومهما كانت قوية عرى الحياة الكفاحية التى تربط بينهما ففى آرائه نقاط لا يتساهل فى الحكم عليها مطلقا – هل انت زعلان على؟ لاننى نصحت بتقديم العريضة ولم أعد اصر على رأيى؟ انت محق . ولكن ذلك لا يزال مبكرا . فانا لم اتراجع عن كلامى بعد . ام انك زعلان على المكتب الحزبى؟ ذلك لا يزال مبكرا ايضا . فالمكتب هو الآخر لم يقل كلمته الاخيرة بعد ... ام انك زعلان على اللجنة الحزبية للفرقة؟ هل رأيت احدا من اعضائها بأم العين؟ – سأل مالينين وقد قاطع نفسه بنفسه .

– كلا بالطبع . من اين لى ان اراهم؟

– وهم ايضا لم يروك ! ولكنهم لا يصدقون باوراقى واوراقك ! – قال مالينين ساخرا ، – ربما هم مثلك ، يعتقدون بان الانسان اثمن من الاوراق ! وربما يريدون القاء نظرة عليك فى البداية ثم يبتون فى امرك ! ألا تعتقد بهذا الاحتمال؟ اما انا فاعتقد به . ولكننى اعتقد ، من جهة اخرى ، باحتمال وجود شخص ما متعجرف هناك لا يمكن التأثير عليه الا من فوق . الحزب كبير . ويصادف فيه مختلف الناس . وهذا ما اقوله انا لك ، وليس ما تقوله انت لى ، ما دمنا نتكلم بمنتهى الصراحة ! ولكن حذار من التلويح فى وجه الحزب ! – رفع مالينين صوته فجأة ،

بل ونهض عندما تلفظ هذه الكلمات – «متى ستتعلم تصديق الناس؟» – كرر كلمات سيتسوف بسخرية – ما اشد فباحتك! . لقد صنعت شمارا كاملا من دملك!

– الدمل يؤذيني يا مالينين – قال سيتسوف ونهض هو الآخر.

لم يشعر بالاهانة من انفجار مالينين . فقد احس بان مالينين متأثر لما حدث لا اقل من تأثره هو.

– مد يدك – قال مالينين ومد له يده عبر الطاولة . فهو كعادته دوما، عندما يقابل او يودع شخصا، يصافحه متجهما ودون ان ينظر في عينيه .

شد سيتسوف على يد مالينين ولم يتحمل فقدم منفجرا:

– قل لي ارجوك: لتلك الاسباب ايضا لنْ ارى الوسام بعيني؟ فقد مر وقت طويل ولم يسلموني اياه .

اكتفى مالينين بابتسامة ساخرة لسخف هذا الافتراض، حتى ان صراحة سيتسوف اعجبته، فهي تدل على الثقة .

– يخيل الى انك تكاد تجن . يقال ان الجنرال يحمل الاوسمة في محفظته منذ ثلاثة ايام . امس الاول قلد رجال المدفعية، وامس قلد رجال الفوج الثاني والتسعين . وربما سيزورنا اليوم .

طلب سيتسوف سماحا بالانصراف، ولكنه استدار عند العتبة وكرر منفعلا نفس ما قاله لمالينين ذات مرة في اللجنة الحزبية المحلية بموسكو:

– لن انسى ابدا حسن معاملتك لي مهما حدث .

– دعك من هذا! – لوح مالينين بيده باستهانة – عندما ستلاقيني في شارع بموسكو بعد الحرب وتقول لي «مرحبا، يا مالينين!» ففي ذلك الكفاية! – لوح بيده من جديد وسار على امتداد الطاولة واستدار بشدة كيلا يواجه سيتسوف . فهو غير متعود على سماع التشكرات .

تمشى مالينين في السرداب بانفعال جيئة وذهابا والقى نظرة جانبية على الباب الذي اصطفق بعد انصراف سيتسوف وتنهد بعمق ثم جلس الى الطاولة واخرج من جيب قمصلته رسالة وارتدى نظارته وراح يقرأ ببطء وكأنه يتثبت مما اذا كان ما يقرأه مكتوبا بالفعل هناك، وكانت تلك هي المرة الثالثة التي يقرأ فيها الرسالة من بدايتها حتى نهايتها خلال النهار . الرسالة من المستشفى، وهي تقول ان ابنه فكتور راقد هناك بعد ان بترت يده اليمنى، وهو يتماثل الى الشفاء بشكل موفق بعد اصابته بجراح، ولكنه يرجو عدم اخبار امه بشيء بعد . قرأ

مالينين الرسالة وتوقف عند كلمتي «بشكل موفق» . وخلع نظارته ووضعها على الطاولة امامه وراح يحملق في الجدار .

لا بد من اخبار زوجته مع ذلك، والا فسوف تتصور بانه قتل اذا لم تصلها رسائل لامد طويل . ينبغي تهدئتها والتخفيف عنها، اما هو فليس بوسعه ان يتشكى لاحد، فالتشكي لا يليق بمنصبه . ويتعين التعود على فكرة ان ابنه ظل بدون يده اليمنى وهو في السابعة عشرة من العمر . ولكن التعود على تلك الفكرة عسير .

فتح الباب وهرع الى السرداب آمر الكتيبة الملازم الاول ريابتشينكو . هبط بسرعة على السلم وهو يطقطق على الدرجات الحجرية بمهمازي الخيالة غير المنصوص عليهما في زيه العسكري . كان المعطف العسكري الطويل المستقر باناقة على منكبيه الفتيين العريضين يتلوى اثناء المشي حول الجزمة الصقيلة، وعلى وجهه المائل للشقرة والمدبب الانف كمنقار الديك انطبعت آثار المرح وانشغال البال في وقت معا . وسأل بلهجة مرحة :

– استلمت رسالة؟

– نعم – اجاب مالينين وخبأ الرسالة في جيبه .

– بعد ساعة سيصل الجنرال اورلوف لتقليد الاوسمة – قال ريابتشينكو بنفس اللهجة المرحة – ووسامي بينها، وسامي الذي حصلت عليه في يوليو . ظننت انهم صرفوا النظر عنه عندما كنت انتقل بين المستشفيات . ولكني اخطأت الظن!

جلس على المصطبة فطبطب على جزمته بالقفاز فرحا وفتح معطفه من الاسفل ناشرا اذياله .

– وعد بالمجيء . وفي اللحظة الاخيرة سلط اللوم على كل الحاضرين في مقر اركان الفوج وقال مخاطبا قائد الفوج : «فلماذا لم تتمكنوا في قطاعكم الحربي من القبض ولو على الماني حي واحد خلال يومين؟» . ثم قال لي: «اعرف انكم قبضتم امس على الماني، ولكنكم حمقى فلم توصلوه!..» من الذي اخبره بذلك يا ترى؟

– الشعبة السياسية – قال مالينين بهدوء – فقد ذكرت ذلك بالامس في التقرير السياسي الذي قدمته الى الشعبة .

– عبثا فعلت! – قال ريابتشينكو .

– هذا جدال قديم لا جدوى منه .

لوح ريابتشينكو بيده متأسفا ولم يدخل في جدال مع مالينين . ولكنه قال بعد صمت قصير:

— قل لي لماذا يفتقر افرادنا الى التربية؟ نربيهم ونهتم بتربيتهم ويخيل الينا انهم يفهمون، ولكنهم بعد ذلك يطلقون النار على الاسير!

— لسنا وحدنا الذين نربيهم — قال مالينين — فنحن من طرف والالمان من الطرف الآخر. نحن نقول له: لا تمس الاسير! ولكنه شاهد بام العين في كوزكوفو كيف احرق الالمان رجالنا احياء في المنزل. واحدة بواحدة. وهو، بعد ما شاهده في كوزكوفو، يريد ان يقطع اطراف هتلر نفسه او غوبلز، ولكنه لا يدرى هل سيظل على قيد الحياة حتى ذلك الحين. لن يظل على قيد الحياة في اغلب الظن. وبدلا من هتلر، وبدون مماطلة، وقع في يده جندي الماني فاجهز عليه في سورة الغضب!

— يعني انك تبرر ذلك؟

— كلا، لا ابرره. انني اوضح لنفسي كيف يحدث ذلك. الناس عندنا ليسوا وحوشا، فكيف يصادف ان يتصرفوا بوحشية؟ لقد بذل الفاشيون جهدا كبيرا جدا لكي يوصلوا الناس عندنا الى هذا الحد!

— ولكنني لا افهمك جيدا الآن.

— اعتقد ان من الضروري ان نعمل على عدم تكرار مثل هذه الحالة. وقد اعتبرتها دليلا على تقصيري في العمل، ولذلك ادرجتها في التقرير السياسي. ومع انك لا ترغب في عرض مساوئنا على الآخرين. فعرض المساوئ امر سيء، ولكن الاسوأ منه هو الاحتفاظ بها في دخيلتنا.

— وعلى العموم كيف حالكم هنا، يا اخي، في غيابي؟ — سأل ريابتشينكو بعد ان صمت قليلا وتطلع الى وجه مالينين المتجهم.

— الحال ليست على ما يرام. بعثوا بمصور التقط صور الرجال لاجل الهوية الحزبية. اما سينتسوف فعاد بخفي حنين.

— اية حماقات يمارسون هناك؟! هتف ريابتشينكو — كتبنا كلانا في تزكيته وتأييده... فماذا يريدون اكثر من ذلك؟..

— انا وانت يا آمر الكتيبة قوة بالطبع — قال مالينين ساخرا من انفعاله الصبياني والقى عليه نظرة طيبة ورقيقة تقريبا من تحت حاجبيه المكفهرين — قوة كبيرة! — ثم اضاف بعد لحظة: — ولكنها، على ما يبدو، ليست مؤثرة في كل مكان.

وصل الجنرال بعد ساعة، على زحافة قائد الفوج باغلوك. وجلس في الزحافة خلف الجنرال وباغلوك احد المرافقين، بينما امسك باغلوك بعنان الحصان.

خرج ريابتشينكو ومالينين لاستقبال الجنرال. واستدعي الى مقر اركان الكتيبة مسبقا الرجال الاربعة الذين منحوا الاوسمة، بالاضافة الى ريابتشينكو نفسه، وهم سينتسوف وآمر فصيلته كاراولوف، واثنان من افراد سرايا المشاة. وقد وقفوا جميعا، على مسافة ابعد، في انتظار وصول الجنرال.

كان باغلوك اول من قفز من الزحافة. سلم العنان الى المرافق وقال له:

— قد الحصان الى ما وراء المنزل.

نزل الجنرال من الزحافة بخفة ايضا. انه متوسط القامة، ولكنه بدا صغيرا الى جانب باغلوك الطويل جدا. كان يرتدي قبعة فرائية عادية وليس قبعة الجنرالات. وعليه معطف فرو قصير مشدود بحزامين متصالبين. وعلى قدميه جزمة من اللباد. الابزيم العلوي لمعطفه مفتوح، فلاح طرفا شارتي الجنرالات الحمراوين على ياقة سترته. شاربا الجنرال اورلوف كفرشاتين قصيرتين سوداوين. وجهه اصفر بعض الشيء، وملامحه كملامح التتر، وعيناه الضيقتان سوداوان كشاربيه، يلمع فيهما بريق مريح لا ينم عن الشيخوخة.

امر ريابتشينكو الحاضرين بالاستعداد، واستمع الجنرال الى التقرير المقتضب واصدر امره بالاستراحة، ثم القى نظرة فرحة الى السماء، والى الشمس الغاربة وراء الغابة وطلب بان يحضروا الى هنا مباشرة طاولة صغيرة.

— سنقلدكم الاوسمة هنا، في الشمس، فهذا افضل من دخول سراديبكم، لاسيما وان رائحة المعقمات تفوح منها.

كان في احسن مزاج، ولاسباب عديدة.

مساء امس عقدوا لهم اجتماعا في مقر هيئة الاركان واطلعوهم على خطة لعملية هجومية تشمل الجيش كله، وطلبوا من جميع قادة الفرق آخر المعلومات عن قوات العدو المواجهة لهم وامروا كلا منهم بان يخطط للقتال في قطاعه الهجومي استنادا الى التوجيه الخاص بالجيش.

ويستفاد من هذا التوجيه ان الضربة الرئيسية يفترض، على ما يبدو، أن تسدد ليس في قطاع جيشهم، ولكن كل الدلائل تشير الى ان الهجوم المزمع اجراؤه ضخم، وانهم سيشاركون فيه ولو في قطاع ثانوي. والحمد لله حتى على ذلك!

في الآونة الاخيرة كان الجنرال يتحسس بكل جوارحه ان الالمان يضغطون علينا ويواصلون الضغط، ولكننا رغم قوة هذا الضغط الشديد لا نتراجع الا بخطوات بطيئة وعلى نحو غير ملحوظ تقريبا. كان يتحسس ذلك بكل جوارحه

وبجوارح فرقته التي استنزفت قواها في القتال . كان يعرف بان الانساق الثانية اقتربت من الخلف، ولكنهم لم يقدموا له امدادات من زمان ،وان هذا البخل القاسي له مبرراته . وعلى العموم كانت هواجس التغير نحو الافضل تحوم في الارجاء منذ اسبوع، الا ان استدعاءهم للاجتماع في الجيش يوم امس لم يكن هاجسا، بل كان مقدمة للعمل!

سئل الجنرال في الاجتماع عما يحتاجه من امدادات اضافية، فطلب المزيد، معتمدا على معرفته القديمة بقائد الجيش، ولكنه تلقى رفضا . قال له القائد بابتسامة مريرة: «مع انني خدمت تحت امرتك، يا ميخائيل نيكولايفتش في زمن ما، فلا تنتظر مني ان اعطيك اكثر من المقرر» . الا ان هذا الرفض لم يفت في عضده: فليعطنا ما يتمكن من اعطائه، ومع ذلك سنحصل على اكثر منه بشكل ما! الامر المهم هو ان الهجوم سيشن! وبعث ذلك في نفسه فرحة لا نهاية لها .

وعندما عاد الجنرال قضى بقية المساء والليل كله مع رئيس الاركان في وضع الصيغة التقريبية الاولى للخطة . وفي الصباح تركه يعمل بوحده وذهب الى باغلوك في الفوج لكي يقوم بثلاثة اعمال دفعة واحدة: تقليد الاوسمة ومحاولة الحصول على الماني حي بغية تدقيق الوضع امام جبهة الفرقة، واخيرا تفقد مراكز المراقبة في الكتائب الثلاث، لانه من هنا، من فوج باغلوك، يمكن تسديد الضربة باكثر الاشكال ملاءمة، ولذا رغب في تفقد ذلك في مكانه .

كان قد زار كتيبتين، ووعدوه بالقبض على الماني حي، حتى انهم عاهدوه على ذلك بكلمة شرف . اما ما رآه من مركزي المراقبة في كلتا الكتيبتين فقد اكد تخميناته التمهيدية . وبالاضافة الى ذلك كانت الشمس مشمسة، والالمان لا يطلقون النار...

— ما اكثر مرحه اليوم، انه يضحك! — قال آمر المفرزة الملازم كاراولوف الواقف قرب سينتسوف بصوت خافت وهو يتطلع الى الجنرال . وكان كاراولوف قد قضى في هذا الفوج ثلاثة اعوام من الخدمة الفعلية وتسعة اعوام من الخدمة الاضافية .

— ربما شرب قليلا اثناء الغداء — قال سينتسوف .

الا ان كاراولوف هز رأسه بالنفي على نحو قاطع:

— انه لا يشرب . فهو من ابنائنا، ابناء الناس المتمسكين بالتقاليد الدينية القديمة . وهو لا يشرب حتى البيرة .

— ربما هو متدين .

— انه عضو في الحزب — قال كاراولوف واعرض عن تفهم هذه النكتة — ولكنه من عائلة متدينة .

كاراولوف لا يحب النكات عموما، لاسيما اذا كانت عن الرؤساء . ولذا القى نظرة شزراء على سينتسوف متوقعا منه نكتة اخرى . ولكن سينتسوف لم ينكت اكثر لانه يعرف ان كاراولوف سريع الزعل . فبعد ان حصل على رتبة الملازم تقديرا لبسالته الخارقة في القتال، دون انهاء الدراسة، ظل يعاني من قلة التعلم فلا يسمح لاية نكات من مرؤوسيه على اي حال .

رق قلبه عندما رأى ان سينتسوف لا يبتسم. فهو يحترم سينتسوف ويعلم انه كان في بداية الحرب مرشدا سياسيا، ولو انه عاد الى هذا المنصب مجددا لاعتبر كاراولوف الخدمة تحت امرته شيئا طبيعيا . الا ان سينتسوف الآن آمر مفرزة في فصيلته هو، كاراولوف، ولذا لا يتسامح كاراولوف معه، كما لا يتسامح مع احد غيره .

— لا تهتم بكونه يضحك — قال لسينتسوف وهو يتطلع باعجاب الى الجنرال — فهو الآن يضحك، ويمكن بعد دقيقة ان يكون متشددا الى اقصى حد! — لوح كاراولوف بقبضته في الهواء على نحو مهيب ليبين مدى تشدد قائد الفرقة اذا حدث شيء خلافا لرأيه .

وفي تلك الاثناء احضروا طاولة من السرداب . خلع الجنرال محفظته الميدانية عبر الكتف وسلمها الى مرافقه . اخرج المرافق من المحفظة خمس علب حمراء وخمس شهادات، وتطلع الى الشهادات والى داخل العلب ثم وضع شهادة تحت كل علبة واقترب من الجنرال وقال له شيئا .

التفت الجنرال فاختفت الابتسامة من محياه الذي غدا في الحال صارما وجميلا .

كان يتعين على ريابتشينكو ان يتسلم وساما، ولذا اصدر باغلوك الامر بالاستعداد .

عدل سينتسوف قامته وفكر بمالينين الواقف على مقربة منه . «ولماذا استلم انا وساما ولا يستلم مالينين شيئا؟ واذا حدثته بهذا الخصوص يعترض ولا يتركك تتم عبارتك!» .

— الملازم الاول ريابتشينكو! تقدم وتسلم الوسام — دوى صوت الجنرال .

وخطى ريابتشينكو ثلاث خطوات سريعة واذيال معطفه تنتفض ووقف امام الجنرال وقد رفع الى الاعلى وجهه الشاحب ولاح من تحت قبعته المائلة قودان قصيران اشقران .

كان سيتسوف آخر من تسلم الوسام، وقبله تسلم كاراولوف وسامه. وعندما نادى الجنرال كاراولوف وتلا عليه أمر المجلس العسكري وهنأه فطت حبات العرق جبين كاراولوف بسبب الانفعال.

— انا مسرور جدا لك يا كاراولوف! — قال الجنرال وهو يدس يده بشكل اكثر ملاءمة تحت قمصلة كاراولوف لكي يعلق وسام الراية الحمراء على صدره — وانا مسرور لاني انا بالذات اقلدك هذا الوسام! فقد خدمنا سوية ست سنوات، نصف مدة خدمتك في الجيش، وكنا كل عام نتوقع معا ان الحرب ستندلع قريبا.. وها انت الآن ملازم، ووسام الكفاح على صدرك. انني مسرور لمنجزات فرقتنا!

ارتعشت شفتا كاراولوف عندما سمع هذا الكلام. وعندما جاء دور سيتسوف وتقدم الى الامام كان لا يزال يحس بانفاس كاراولوف المنفعل الثقيلة وراء ظهره.

تلا الجنرال الامر. وكان سيتسوف واقفا في حالة الاستعداد، ففتح له المرافق الابزيم على معطفه وكأنما هو عاجز عن رفع يديه، ثم ثقب قمصلته بسكين صغيرة. والتقط الجنرال النجمة الحمراء ووضعها على راحته وفك صمولتها على مهل، ودس يده الباردة بسبب الصقيع تحت قمصلة سيتسوف وراح يشد صمولة النجمة.

في تلك اللحظة رأى سيتسوف وجهه من كثب وتذكر كيف رآه لاول مرة وهو يرتدي خوذة ومعطفا مشمعا ميللا في ناحية دوروخوفو خلال اكتوبر عندما وصل ليختار امدادات لفرقته. وعندما سأل: — من يذهب معي؟ تقدمت الكتيبة الشيوعية كلها نحوه.

بعد ان شد الجنرال الوسام تراجع نصف خطوة ومد يده الصغيرة القوية الى سيتسوف. وقال وهو يحتوي سيتسوف بنظرة من الاسفل الى الاعلى:

— اهنئك! — منذ متى تخدم في الفرقة؟

— منذ التاسع عشر من اكتوبر. وصلت مع الامدادات من موسكو.

— من الكتيبة الشيوعية لمحلة فرونزينسكي! — اضاف مالينين بمسحة من الافتخار.

— كانت امدادات جيدة — امتدحها الجنرال ورفع بصره الى سيتسوف من جديد — هل انت شيوعي؟

— نعم! — اجاب سيتسوف والتقت نظرته بنظرة مالينين.

عبثا نظر اليه مالينين على هذا النحو. فهو لن يضيف الى ذلك شيئا الآن، ولن يطلب شيئا! فلا المكان مناسب ولا الزمان. اما انه اجاب «بنعم» فذلك هو الجواب الوحيد. فليصححه مفوض الكتيبة مالينين اذا كان خاطئا.

الا ان مالينين لم يصححه، فتراجع سيتسوف ثلاث خطوات الى الوراء ووقف في صف حملة الاوسمة.

تطلع الجنرال اليهم وشبك يديه خلف ظهره وحول نظرته الى باغلوك ثم حولها من جديد الى حملة الاوسمة، تمهل ثانية وقال ان الفرقة نفذت بالشكل اللائق حتى الآن جميع اوامر القيادة، الا انه تنتظرها مهمات اكثر مسؤولية، وهو واثق من ان الرفاق الذين قلدوا الاوسمة اليوم، شأنهم شأن سائر افراد الفرقة وضباطها سوف ينفذون تلك المهمات بجدارة.

— ولكنه توجد اليوم مهمة طفيفة... — لمع بريق في عيني الجنرال الضيقتين.

باغلوك الذي حضر مراسيم تقليد الاوسمة في الكتيبتين الاخريين يعرف ما ينتظرهم. ولذا نقل بدنه بعسر من رجل الى رجل واشرأب برأسه الكبير ذي الجبهة المنحدرة.

لاحظ الجنرال ذلك فالقى نظرة الى جهة باغلوك وقال:

— ها انا ارى قائد فوجكم المقدم باغلوك ينكمش لاني سأقول له بحضوركم ان هذه المهمة كان ينبغي تنفيذها منذ يوم امس. ولكن يمكن تصحيح القضية اليوم ايضا. فمن اللازم القبض على الماني حي، اكرر حي وليس ميتا! من ينوي القيام بذلك؟

خيل لسيتسوف ان الجنرال تطلع اليه مباشرة بأمل، مع ان الجنرال في الواقع تطلع ليس الى سيتسوف بل الى كاراولوف الواقف جنبه.

— سنقبض عليه، ايها الرفيق الجنرال! — قال سيتسوف وهو يقبل التحدي، وقد خطا الى الامام واحس بكتف كاراولوف تلامس كتفه. فقد خطا كاراولوف الى الامام ايضا في نفس اللحظة، ولكنه التزم بالصمت.

— حسنا، اتفقنا — قال الجنرال بلهجة غير عسكرية، بل رفاقية بسيطة — هل انتما مطلعان جيدا على مواقع العدو والمسالك الموصلة اليها؟

— نعم! — قال هذه المرة كاراولوف.

— وهل بوسعكما ان تشيرا الى المكان الذي تنويان المرور منه؟ — سأل الجنرال.

كان يريد تنفيذ القسم الاخير من برنامجه وهو الذهاب الى مركز مراقبة الكتيبة. ولكي يتخلص من لجاجة ونواهي باغلوك الحذر المعتادة: «لا تذهب»، «لا يجوز لك» — قرر ان لا يأخذه معه، بل يأخذ كاراولوف ونائب العريف سيتسوف.

وقال باغلوك في محاولة يائسة لوقف قائد الفرقة، ولكنه ادرك بان تلك المحاولة لا جدوى منها:

– ربما من الافضل، ايها الرفيق الجنرال، ان نتطلع من مركز مراقبة الفوج.

– يوصي دوما ان ازور مركز مراقبتك، ولكنني اريد ان اتطلع من مركز مراقبة الكتيبة الى ذلك الشق الذي ينوي هذان الشابان الدخول منه للقبض على الماني حي، فانا لا اجيء الى هنا كل يوم. فابق انت هنا، ايها الرفيق باغلوك، ومارس اعمالك. وسيذهبان معي هما – واومأ الى كاراولوف وسيتسوف – وآمر الكتيبة.

فقال باغلوك متكدرا:

– اسمح لنا، على الاقل ،بان تعد طعام العشاء هنا، في الكتيبة!

– الحمد لله انك حزرت في آخر الامر! – قال الجنرال مرحا، ولكنه اضاف لانه لم يكن واثقا بان باغلوك حزر بالشكل الكامل – سأتناول طعام العشاء مع جميع الذين منحوا الاوسمة – والتفت الى كاراولوف: ما هو رأيك يا كاراولوف؟فان كأسا واحدة لن تعيقنا قبيل الاستطلاع، اليس كذلك؟

– بالنسبة لي، لن تعيقني ايها الرفيق الجنرال! – قال كاراولوف – ولكني اخشى انك لن تشرب كأسك.

– كلا – ضحك الجنرال – كلا يا كاراولوف! في السابق لم اكن اشرب، هذا صحيح! ولكن منذ ان حدد مجلس مفوضي الشعب المعدل اللازم صرت اشرب حسب الاوامر. اما انت – التفت الجنرال الى مرافقه الذي وقف متحيرا لا يدري هل سيأخذه الجنرال معه ام يبقيه هنا – فاذهب الآن الى جنود الهاون.

– يمكن مخابرتهم – تدخل باغلوك.

– اذهب الى جنود الهاون – قال الجنرال متجاهلا ملاحظة باغلوك – وانقل اعتذاري الى فيرسوف. فقد وعدتهم باني سأصل لتقليد الاوسمة اليوم، ولكني سآتي غدا. الوقت لا يكفي!

رفع المرافق يده بالتحية واسرع على مضض لتنفيذ هذا الامر، اما الجنرال فقد استدار دون ان يتلفت وسار بخطى سريعة في الاتجاه الآخر متحاشيا انقاض المنزل. كان في السابق قد زار مركز مراقبة الكتيبة فهو يعرف الطريق اليه. وراح ريابتشينكو يلحق به جارفا الثلج باذيال معطفه، وتبعه كاراولوف وسيتسوف. في البداية ساروا على سفح التلة الآخر المحجوب عن الالمان، ثم

ساروا في وهدة تخترق قاعها دربب مطروق، واخيرا دخلوا احد ممرات التوصيل حتى بلغوا كثيبا لا يكاد يلحظ في طرف المنحدر. في زمن ما كانت هناك تعريشة حجرية. ولكنها متداعية الآن، وتحتها بالذات، تحت اساسها الحجري المتين أنشىء مركز مراقبة ريابتشينكو المموه بشكل موفق.

تغير الآن ترتيب السائرين. ففي الامام سار ريابتشينكو وبعده كاراولوف، وخلفهما الجنرال وبعده سيتسوف.

وقد لوحظ على كاراولوف انه يتباطأ متعمدا وكأنه يريد ان يحجب بظهره المربع العريض الجنرال عن انظار الالمان. وربما كان ذلك ما يرمي اليه بالفعل. فدفع الجنرال كاراولوف من ظهره بشدة وقال مازحا:

– يا هذا! لا تتخلف والا ساسحق رجليك – اسرع كاراولوف، فتخلف الجنرال عنه قليلا وصاح على ريابتشينكو: – ماذا، ايها الملازم الاول، الا تشعر بالبرد ببزة الخيالة؟ صحيح ان معطفك جيد ... – ولم يكمل كلامه.

فقد انفجرت قذيفة قرب ممر التوصيل. هوى سيتسوف ووجهه الى الاسفل وقد وضع يديه على قفاه غريزيا. وعندما نهض رأى الجنرال راقدا في قعر الممر ورأسه عند قدمي سيتسوف، رآه يحملق فيه متسع العينين وشفتاه تتحركان دون صوت.

جثم سيتسوف على ركبتيه واخذ يرفع الجنرال. تحت المعطف القصير المفتوح الابزيم على الصدر كل شيء ممزق. تدلت خرق الجوخ ولاح جزء من الصدر العاري الغارق في الدم. رفع الجنرال بحذر من كتفيه الى اعلى شيئا فشيئا، وسمع فجأة بقبقة تصورها صوتا، الا انها كانت بقبقة الدم الذي انهمر من الحنجرة.

التقت نظرته بنظرة كاراولوف الذي دس نفسه في ممر التوصيل الضيق لكي يمسك بالجنرال من يديه على نحو ملائم.

– ضعه! – قال كاراولوف – لقد مات! .. – ورفع قبعته وانتحب.

وفي المنتزه خلفه ،عند مقر اركان الكتيبة، تفجرت صلية كثيفة من القذائف، ثم هدأ كل شيء من جديد.

ففي المساء اراد الالمان ان يذكرونا بوجودهم، فقصفوا انقاض المنزل الاقطاعي. وبمحض الصدفة لم تبلغ القذيفة الاولى هدفها ...

– سنحمله على معطفي – قال ريابتشينكو واخذ يخلع معطفه ولكن بشكل اخرق غريب – ساعدني في خلع المعطف، قال لكاراولوف متأوها – فقد اصابت شظية معصمي – ورأى سيتسوف معصم يده اليسرى غارقا في الدم.

— لماذا نلوث المعطف؟! — قال كاراولوف والدموع تسيل على خديه — ساحمله بنفسي .

معطفه القصير ملوث بالدم من اعلاه الى اسفله . فالدم الذى تفجر من حنجرة الجنرال شخب باتجاه كاراولوف مباشرة . ووقع رذاذ الدم حتى على وجهه، فاختلط بالدموع على خديه .

رفع القتيل على يديه بالشكل الذى استعد ليحمله به عندما ظن انه لا يزال حيا . نهض فى البداية على ركبتيه، ثم بكامل قامته، وسار فى ممر التوصيل عائدا الى مقر الاركان وحمله على يديه .

سار سيتشوف امامه، وهو يتلفت الى الوراء بين الحين والآخر . وعندما قطعوا زهاء خمسين خطوة سأل سيتشوف :

— أليس الافضل ان نحمله معا؟

الا ان كاراولوف هز رأسه رافضا .

احتقن وجهه واتقد بسبب التوتر، بينما ظلت الدموع تنهمر من عينيه . وسار على هذا النحو حتى مقر الاركان دون ان يتنازل عن حمله او يتقاسمه مع احد، ودون ان يسلم لاحد جثة قائد فرقته .

وصل سيتشوف الى مقر الاركان راكضا قبل دقيقتين من وصول كاراولوف . وعندما اقترب هذا من المقر هرع الى الخارج باغلوك وماليتين المصعوقان للحادث .

وصل كاراولوف الى الجدار ومال عليه لاهثا وسأل بصوت لا يكاد يسمع :

— اين اضعه؟

لم يكن يريد وضع حمله على الارض . فسأل وقد خارت قدماه فترنح وانزلق ظهره على الجدار فجلس على الثلج وجثة الجنرال على يديه كطفل صغير .

بعد دقائق وصلت زحافة، فوضع كاراولوف مع باغلوك جثة الجنرال على البساط المفروش فوق القش . وكان ريابتشينكو الواقف على مقربة من الزحافة ينحنى طوال الوقت فيأخذ حفنة من الثلج ويضعه على يده الجريحة . الثلج يتحول الى دم فورا ويتساقط ندفا وردية اللون .

طوى ماليتين ردن معطف قائد الكتيبة الذى تنقع بالدم . وبعث فى طلب طبيب او ممرضة، لان ريابتشينكو المنفعل لم يرغب فى الانصراف للعلاج .

وقبل ان يرافق باغلوك زحافة الجنرال هبط الى السرداب ليتلفن الى الفوج والى الفرقة . ورغم تعودهم على الخسائر فى الارواح فان هذه المصيبة تختلف

كثيرا من غيرها، زد على ذلك انها صعقت الجميع بشكلها المفاجئ، تماما . وكان ينبغى ايصال خبرها . الجنرال مسجى على الزحافة . والحصان يراوح على الثلج فتهتز الزحافة بهدوء .

اما ماليتين وريابتشينكو وكاراولوف وسيتشوف فقد وقفوا حول الزحافة يتطلعون الى القتيل وانساق كل منهم وراء افكاره .

فكر ماليتين بان الجنرال فى عمره هو تقريبا، وان ابناءه، فى اغلب الظن، راشدون الآن، وربما قاتلوا فى الجبهة او سيقاتلون ...

صعق ريابتشينكو، شأنه شأن الآخرين، ولكن انصعاقه هذا تشابك مع تفكيره بجرحه . فكر بان عظام المعصم اذا لم تكن قد انكسرت فبوسعه ان يبقى فى صف المقاتلين، وراح يضع الثلج المرة تلو الاخرى على معصمه كى يخفف من الألم ويحرك اصابع يده الجريحة : كلا، يبدو ان العظام لم تنكسر .

تذكر كاراولوف كيف دفعه الجنرال فى ظهره قبيل وقوع القذيفة، وكيف قفز الى الامام ثلاث خطوات، بينما كان يتعين عليه ان لا ينصاع وان يظل فى مكانه، وعند ذاك ما كان لما حدث ان يحدث . وهو يقصد بذلك ان الجنرال كان سيظل على قيد الحياة وان كاراولوف نفسه سيتلقى تلك الشظية . وتجلى فى بساطة هذه الفكرة وفى شدة أسفه على نفسه ذلك القدر الكبير من التفانى الذى يتحلى به هذا العسكرى .

اما سيتشوف فقد تذكر بانهم عندما كانوا يسيرون اربعتهم فى ممر التوصيل انتاب الرعب فؤاده فجأة فأسف لابداء استعداده للقبض على الماني حى . اما الآن بعد هذه الوفاة المباغتة فقد بدا له كل شيء فى الحرب مرعبا وغير مرعب على قدر واحد، ولم يعد يأسف لانه ابدى استعداده لاداء هذه المهمة .

الجنرال مسجى على الزحافة التى تهتز بهدوء!

كم كان فرحا طوال النهار! كان فرحا مرحا لدرجة لا يتذكر انه صادف مثلها فى حياته . كاد يطير من فرط السعادة لنبأ الهجوم المرتقب . فهو عادة لا يبتسم كثيرا، ولكنه اليوم كان يبتسم طوال النهار بمناسبة وبغير مناسبة . «بدء الهجوم! الهجوم!..».

كلا، لم يكن مقدرا له ان يشارك فى الهجوم . فما اطول انتظاره لذلك اليوم، وما اعظم تألمه لانسحابنا! وما اطول الايام والليالى التى كان يحلم فيها بهذا الهجوم! ولكنه سقط عند عتبته مباشرة! ولو تمكن الاموات

من التفكير بعد الممات لربما فكر هو في ذلك بالذات، ولو تمكن الاموات من البكاء لربما ترقرقت عيناه بدموع الاسى الذى لا يطاق!

الجنرال مسجى على الزحافة وعيناه مصوبتان نحو الاحياء الاربعة الذين كان يتحدث ويمزح معهم قبل نصف ساعة. انه يتطلع اليهم بعينين مفتوحتين ميتتين بدأتا تتجمدان.

عاد باغلوك فغطوا جثة الجنرال كيلا يراه اى كان ولا يعرف قبل الاوان ان قائد الفرقة قتل. وتوجهت الزحافة فى طريق العودة يقودها باغلوك.

– سيكون وقع ذلك شديدا على الفرقة – قال مالينين وهو يشيع بنظراته الزحافة التى كادت تختفى فى المنعطف.

وصل الطبيب العسكرى لاهثا من السير على الثلج، ومعه ممرضة ومضمد. ومن حسن الحظ انه لم يكن فى الكتيبة اليوم اى جريح. واصطحب الطبيب ريابتشينكو الى السرداب من اجل تضميده.

وقال ريابتشينكو مخاطبا رفاقه ليهدئ نفسه اكثر مما يهدئ مالينين:

– بدني قوى، وسوف يلتئم الجرح بسرعة!

انه رجل باسل، ولكنه يعانى من عيب واحد يعرفه منذ اصابته الاولى، فهو لا يطيق الالم. وها هو الآن خائف بعض الشيء من التضميد.

– ما رأيك، يا كاراولوف بخصوص القبض على المانى حى؟ – سأل مالينين عندما ذهب ريابتشينكو.

– سنقبض عليه، طبعا، ايها الرفيق المرشد الاقدم!

قال كاراولوف ذلك ورفع بصره الى مالينين فلاحت الدهشة فى عينيه المنتفختين من البكاء. فالآن، بعد وفاة الجنرال، غدا آخر امر صدر عنه اقدس الاقداس بالنسبة لكاراولوف. فقال مالينين:

– اعتقد ان من الضرورى فى البداية ان يختار سينتسوف لنفسه رفيقا ويذهب معه.

– وانا؟ – سأل كاراولوف بصوت منسحق بسبب الانفعال. – لقد وعدت الجنرال! ولن تنتزعوا منى وعدى!

– لذلك بالذات يتعين عليك ان تنفذ العملية مهما كانت الظروف – قال له مالينين – يجب ان تؤمن لهما – واومأ الى سينتسوف – المرور عبر المواقع، واذا اخفقا فسوف اسمح لك بالذهاب لتكرار العملية بنفسك...

ويا لك من خطيب فصيح، اختار تعبيرا بليغا: «واذا اخفقا»! » – فكر سينتسوف وانتابت القشعريرة ظهره.

– هكذا اذن، ايها الرفيق كاراولوف – قال مالينين عندما لاحظ ان كاراولوف يهم بالاعتراض – اذهب واعمل!

لم يكن يجيد الاساليب العسكرية المهنية. فهو عندما يصدر اوامره غالبا ما يقول كلمات غير الكلمات المطلوبة، الا ان طباعه متشددة فلا يحتاج الى تكرار الاوامر مرتين.

انصرف كاراولوف وسينتسوف وظل مالينين وحده دون ان يصمم على دخول السرداب بعد. وفكر:

«من يدرى؟! التضميد شيء مؤلم، وريابتشينكو شاب معتد بنفسه، فاذا أن بوجودى سيكون ذلك مخجلا له فيما بعد».

مالينين لا يخشى تعكير العلاقات وازعاج الآخرين اذا كان ذلك امرا لا بد منه، ولكنه لا يحب اثارة آلام الناس بدون ضرورة قصوى. وكانت تلك هى حاله مع كاراولوف. فقد نحاه عن اداء المهمة بحجة معقولة دون ان يغيظه. اما فى الواقع فهو لم يكن راغبا فى ارسال كاراولوف الى الالمان، وذلك لأنه يمكن اليوم بالذات ان لا يتمالك اعصابه ويهلك. هذا، على الاقل، ما خيل لمالينين بعد ان رأى بام العين مدى الهزة التى اجتاحت كاراولوف. صحيح ان كاراولوف هو واحد من اولئك الذين يقال عنهم ان اى مكروه لن يحدث لهم، فجلودهم مدبوغة! الا ان مالينين لا يثق بالقوة الوقائية للجلود المدبوغة عندما يكون المقصود هو الانسان. فقد حدث ان قيلت هذه الكلمات عنه بالذات، ولكنه يجيد تمالك اعصابه لا اكثر.

ظهر مرافق الجنرال على الدرب الملتف حول الانقاض. كان مسرعا فى طريق العودة من جنود الهاون، وعندما رأى مالينين وحده من بعيد تصور انه تأخر. فسأل قبل ان يصل اليه:

– اين قائد الفرقة؟ هل ارتحل؟

تطلع مالينين الى عينى المرافق وتنهد وقال بدلا من الجواب الصريح:

– اهبط على السفح مباشرة. فالزحافة لا تزال فى الطريق وستلحق بها حالما تلتف هى حول الهضبة...

وركض المرافق على الممشى الهابط وهو ممسك بالمحفظة الميدانية التى تراقص على جنبه، بينما فكر مالينين مرة اخرى بنفس الشيء الذى فكر به وهو يشيع بنظراته زحافة باغلوك وجثة الجنرال فيها: «سيكون وقع ذلك شديدا على الفرقة، شديدا جدا!..».

قبل ان يدخل كاراولوف مخبأ جنود البنادق الرشاشة خلع معطفه القصير واخذ يمسحه طويلا بالثلج، ولكن بقع الدم ظلت لاصقة به. فقال له سينتسوف الواقف قربه:

– امسح وجهك على الاقل...

اخذ كاراولوف حفنة من الثلج ومسح بها وجهه عدة مرات.

– هل بقي شيء؟

– تمهل! – قال سينتسوف واقتلع بقعة من الدم المتخثر قرب اذن كاراولوف.

القى كاراولوف المعطف على كتفيه فدخلا المخبأ معا.

كان نبأ مقتل الجنرال اورلوف قد بلغ المخبأ، وعندما بدأ كاراولوف يوضح المهمة وقال بانهم وعدوا قائد الفرقة نفسه بالقبض على الماني حي شعر الجميع بمدى متانة هذا الوعد الذي قطعوه على انفسهم امام الشهيد.

اوضح كاراولوف المهمة. وقال انه سيودع الاستطلاعيين ويستقبلهما بنفسه. فمن يتطوع بالذهاب مع نائب العريف سينتسوف؟

– انا! – قال ليونيدوف في الحال.

كان سينتسوف يأمل بان يتطوع كوماروف للذهاب معه. فان هدوءه واتزانه يعجبان سينتسوف ويحظيان بثقة كبيرة لديه.

الا ان ليونيدوف هو الذي تطوع. تطوع وراح يتطلع الى الحاضرين بنظرة غاضبة وكأن احدا منهم يريد ان ينتزع لقمة من فمه، وبسبب هذه النظرة الغاضبة لم يجرأ احد غيره على التطوع.

تعكر مزاج سينتسوف لعدم ذهاب كوماروف معه. ولكن لا مجال للاعتراض. فان ليونيدوف نفسه تلقى منه اليوم كلمات مغيظة ولكنه تطوع مع ذلك. وربما كان الدافع لذلك هو رغبته في ان يثبت انه تلقى الملامة دون مبرر.

«انه عصبي بعض الشيء، وفيما عدا ذلك فلا بأس به...». اخذ سينتسوف يهدئ نفسه، وشعر بالأسف لآخر مرة لان كوماروف لن يذهب معه، ثم قال:

– طالما سنذهب فلنستعد!

توجها بالبسة خفيفة بدون معطفين. فقد ارتديا السترتين القطنيتين وحدهما متمنطقين بحزامين. واخذ كل منهما سكينا وقنبلتين يدويتين تحوطا لاسوأ الاحتمالات، كما اخذا نتفة من القطن لكم فم الاسير ولفة من الاسلاك التلفونية لربطه.

عندما اصدر كاراولوف جميع الاوامر ولم يبق عليهما الا ان يخرجا من الخندق ويزحفا نحو الاسفل بين الشجيرات الصغيرة الملفعة بالثلوج الى

الجدول الواقع في المنطقة الفاصلة همس ليونيدوف فجأة في اذن سينتسوف بكلمات لم يكن هذا الاخير يتوقع سماعها مطلقا:

– لولا خطيئتي يوم امس لجلسنا اليوم نحتفل بوسامك...

وادرك سينتسوف بان ليونيدوف تطوع للمشاركة في هذه العملية الاستطلاعية ليس بسبب غضبه، بل لانه لا يريد للآخرين ان يخاطروا بحياتهم بسبب الاسير الذي قتله هو بالامس.

– لا تستعجل، سنحتفل فيما بعد. قال سينتسوف، واحس بلمس الثلج القارس على خده، وتدحرج عبر المتراس...

وعندما نزلت بهما مصيبة بعد ثلاث ساعات، حينما عادا يجران الاسير وراءهما فانفجر لغم في منخفض يبعد نصف كيلومتر عن مواقعنا وادى الانفجار الى بتر مشط قدم ليونيدوف، شد سينتسوف بالحزام رجله تحت ركبته وفكر بمرارة: «ها قد احتفلنا!».

والى جانبهما رقد على الثلج الالماني المربوط اليدين والقدمين: في البداية اقتاداه مربوط اليدين، وفي الخمسمائة متر الاخيرة سحباه على الثلج، حسب الدور، وكأنه كيس. رقد الالماني وهو يشخر، اذ ان فمه مكموم بالقطن.

يبدو ان اللغم كان من الغامنا. ولو كانت الالغام هناك المانية ويعرف الالمان بوجودها لبدأوا باطلاق النار حال سماع الانفجار. بيد ان الهدوء يعم المواقع الالمانية، ولم يكتشف احد اختفاء الجندي الذي كان قد غفا في الخندق. ولعلهم اعتبروا الانفجار من قذيفة اطلقها الروس.

– ما العمل؟ – سأل ليونيدوف بصوت خافت.

من يدري؟ ربما كان قد صرخ اثناء الانفجار عندما بتر مشط قدمه ولكنه فيما بعد لم يفتح شفتيه المصطكتين لا عندما قص سينتسوف بالسكين بقية الجلد الذي ظل المشط متعلقا به ولا عندما ضمد بالشاش بقية القدم المجدوعة ولا عندما شد رجله تحت ركبته بحزام الخصر. ليونيدوف شديد الشكيمة. تلك حقيقة لا جدال فيها!

– فلننتظر قليلا، ثم نواصل الزحف – قال سينتسوف – واذا فقدت قواك سأسحبك.

– والفريتس؟ – سأل ليونيدوف.

ارتعش سينتسوف عندما تذكر بان اطلاق النار غير ممكن. وسوف يضطر الى نحر الالماني بالسكين قبل ان يسحب ليونيدوف الى مواقعنا. اما

ترك الالماني هنا ثم العودة اليه فيما بعد فشيء فيه مجازفة، لانه يمكن ان يفك رباطه او يخلع الكمامة من فمه.

– ما العمل؟– قال سينتسوف وادرك ليونيدوف من حركاته ما ينوى فعله. فقال له: اسحبه انت! فيجب تنفيذ الامر. هل تتمكن من سحبه لوحدك؟

– نعم، ولكن ....

لم يكمل سينتسوف كلامه لان ليونيدوف قاطعه من جديد بهمس ساخن محموم. فبسبب النزيف تضاءلت قواه بشكل ملحوظ من لحظة لاخرى.

– اسحبه انت، وانا سازحف خلفكما.

– حسنا – وافق سينتسوف على حين غرة – ولكن لا تزحف الى اى مكان! ابق هنا. ساوصله واعود اليك. ساصطحب بعض الرفاق واعود. ولكن ابق في هذا المكان. ولا تزحف!

كان يخشى من ان ليونيدوف المنهوك القوى يمكن ان يزحف فى اتجاه آخر ولن يعثر عليه.

– هل ستعود؟– كان ليونيدوف يريد ان يعيش بالرغم من قراره المتفاني هذا. والا لما طرح هذا السؤال.

– ساعود بنفسي! اعاهدك!

خلع سينتسوف حتى سترته القطنية ليسهل الزحف وترك بندقيته الرشاشة قرب ليونيدوف وزحف الى الامام ومعه السكين وقنبلة يدوية واحدة وهو يسحب الالماني وراءه.

لم يكن الالماني، كما اتضح فيما بعد، ضخما ولا ثقيلا، بل كان قصير القامة تماما، ولكن ما اثقل سحب هذا الكيس على الثلج والمرء لا يتمكن من رفع رأسه؟!

وعندما وصل سينتسوف زاحفا الى مكان يبعد خمسين مترا عن الخنادق، دون ان يصدق بانه وصل فعلا ورأى كاراولوف وآمر السرية التى تحتل مواقع الدفاع هنا، بعد ان زحفا للقائه ورقدا وراء كثيب على الثلج، خارت قواه وكان العرق يتصبب منه، من رأسه الى اخمص قدميه، رغم انه كان يزحف على الثلج. وبادره كاراولوف:

– اين ليونيدوف؟

– جريح ... هناك ... ساعود اليه حالا ...– قال سينتسوف وهو يلهث بعد كل كلمة.

ولم يسأله كاراولوف عن شيء الى ان سحبوا ثلاثتهم الالماني الى الخندق.

– ماذا حدث لليونيدوف؟– سأل كاراولوف من جديد فى داخل الخندق بعد ان القى معطفه القصير على سينتسوف.

– دقيقة ... ساخبرك ... انتزع ... القطن من فم ... الالماني... والا ...– لم يكمل سينتسوف عبارته، اذ كاد يختنق ...

انتزعوا كمامة القطن من فم الالماني. فراح يسعل سعالا عميقا كالمسلول. ثم شعر بالغثيان اما من الخوف واما من المدة الطويلة التى كان فمه مكموما فيها. وقال سينتسوف:

– بتر مشط قدم ليونيدوف. ساذهب اليه الآن.

– كيف تذهب اليه وانت بهذه الحال؟– قال كاراولوف. – ساذهب انا اليه، ولكن اوضح لى اين هو.

– كلا – قال سينتسوف – ساذهب معك. ولكن فلآخذ نفسا.

قدم له آمر السرية زمزمية فيها كحول.

– لا داعى لذلك – قال سينتسوف – اخشى ان تضعف قواى. فانا اشعر بالحر اصلا. ولكن اعطنى ماء...

ولكنه لم يكن هناك ماء على مقربة منهم. فاخذ حفنة من الثلج وراح يلتهمه.

– ابق هنا – قال كاراولوف من جديد وبلهجة آمرة هذه المرة – ساذهب بنفسى وساخذ كوماروف معى.

كان كوماروف هنا ايضا. فان كاراولوف اخذه معه تحوطا «للاخفاق» – تذكر سينتسوف كلمة مالينين.

وبصق سينتسوف قطعة الثلج وقال:

– افعل ما تشاء، ولكنى ساذهب معكما. فبدونى لن تعثرا عليه... وهناك سترتى وبندقيتى...

تذكر فجأة فظاعة ما عاناه فى الغابة عندما استعاد وعيه وهو جريح زحف آنذاك، ثم نهض ورأى الالمانى يتوجه نحوه وبندقيته بيده.

«كلا، لن يحدث ذلك لليونيدوف!».

– فلنذهب – كرر وزحف من الخندق دون ان ينتظر قرار كاراولوف النهائى.

الفصل السابع عشر

لم يحصل سربيلين على تعيين فى الجبهة الا بعد تقرير من اللجنة الطبية الثانية. كما انه لم يحصل عليه فى الحال. اجرت اللجنة الطبية الفحوص عليه فى ٢٥ نوفمبر، ولم يعين الا بعد اسبوع. استدعوه فى الصباح الى هيئة الاركان العامة، وفى المساء تعين عليه ان يتسلم فرقة تقاتل ضد الالمان فى ضواحى موسكو.

قال له ايفان الكسيفيتش:

– اخبرنا الرفيق ستالين عنك وعن رسائلك التى تطلب فيها ارسالك الى الجبهة من كل بد، والى آخره... (كان سربيلين قد بعث بهذه الرسالة بعد فحوص اللجنة الطبية الثانية). ولا اخفى عليك اننا كنا نعارض ارسالك الى الجبهة. اردنا ان تبقى هنا، معنا... الا ان الرفيق ستالين – هز ايفان الكسيفيتش كتفيه – قرر حسب رأيه. ولذلك فانت المحق الآن، وليس نحن. وقال: طالما يريد الذهاب الى الجبهة فاعطوه فرقة. واقول لك، وليبق ذلك بيننا، انه تقرر فى البداية ارسالك الى جبهة كاريليا. فهو لا يحب التكرار. واذا سألنا: وهل سافر؟، فبماذا نجيب؟ ولكنه حدثت فى ضواحى موسكو امس الاول مأساة مروعة. فقد قتل قائد رائع لاحدى الفرق دون اى مبرر، بقذيفة طائشة حمقاء. وهو الجنرال اورلوف. الا تعرفه؟

– سمعت به – قال سربيلين – كان يخدم فى دائرة سيبيريا العسكرية قبل الحرب.

– فعلا. فى فرقة ألتاى. هز ايفان الكسيفيتش رأسه بالايجاب – فى البداية فكرنا بان يحل رئيس الاركان محله، وبعد ذلك تلفن قائد الجيش وطلب اختيار قائد اقوى. فوقع الاختيار عليك.

– شكرا – قال سربيلين.

– لا تستعجل الامور! – قال ايفان الكسيفيتش – صحيح ان الفرقة جيدة، وهى من الفرق الاصيلة، ولكنها اصيبت بخسائر جسيمة، وعلى الاصح خسائر فظيعة. كان اورلوف قائدا قويا، فلا بد من الأعتراف بذلك. وقد تعودوا عليه طوال ست سنوات. لذا فانت تستلم الفرقة ليس بعد قائد غير ناضج. وذلك له محاسنه ومساوئه... وعلى العموم فطالما لا تريد العمل معنا هنا، اتمنى لك النجاح! – قال ايفان الكسيفيتش فى الختام!

لهجته تنطوى على الزعل. فالرفاق القدامى ارادوا خير سربيلين، اما هو فقد عاند وكتب الى ستالين متحديا المرجع. الا ان سربيلين لم يشعر بذنب تجاههم. فهو يرغب فى الذهاب الى الجبهة، ولا يمكنه بهذا الخصوص ان يهتم حتى بمشاعر الاشخاص الذين لهم عليه فضل كبير.

– تسلم انت قيادة جيش وساخدم عندك آنذاك – قال سربيلين مازحا دون ان يدخل فى جدال.

– تسلم، تسلم!.. – قال ايفان الكسيفيتش – هل تتصور ان الجلوس هنا شىء يسير؟ ربما الجلوس على السندان تحت المطرقة اسهل! بودى ان اتسلم جيشا، ولكن ليس كل الرسائل موفقة مثل رسالتك. فاذا قال المرء: اريد الذهاب الى هناك ولا اريد العمل هنا... ربما يتلقى ما لا يرضيه!

وفكر سربيلين بان رسائله، هو ايضا، لم تكن موفقة دائما. فقد بعث رسائل فى حينه الى نفس العنوان، ولكن دون جواب. حسنا، فلننس تلك الرسائل. اما هذه الرسالة فلن ينسى، مدى الحياة امتنانه للجواب عليها!

– هل تعرف رئاستك المرتقبة؟ – سأله ايفان الكسيفيتش ونهض ثم ذكر لقب قائد الجيش الذى يتعين على سربيلين الالتحاق به.

وقال سربيلين ان الشخص المذكور درس معه، على ما يتذكر، فى الاكاديمية، ولكنه اصغر منه بصفين.

– كان اصغر بصفين والآن اكبر بنجمة! – قال ايفان الكسيفيتش ضاحكا. – وبوسعى القول ان ترقيته جاءت عن جدارة واستحقاق. فقد كلف فى بداية الحرب بمهمة عسيرة جدا، حيث تسلم قيادة فيلق آلى فى طور التشكيل ان صح التعبير: الدبابات القديمة تشرف على البلى والدبابات الجديدة لم تستلم بعد. ولكن امور هذا الفيلق بقيادته بدت على نحو لا بأس به، وخصوصا بالمقارنة مع بعض الفيالق الاخرى. وقد خرج من الحصار عبر المعارك. ثم انه هنا ايضا، فى ضواحى موسكو، تحلى بمزايا القائد الناضج... وبالمناسبة فسترى ذلك بنفسك. فالأمور اوضح من الاسفل كما يقال.

29-287

— ماذا؟ هل الرؤية سيئة من الاعلى؟

— لا ادري بالضبط . فهنالك حالات مختلفة . يصادف ان يتسلم المرء منصبا كبيرا من زمان ولكنه يعزف على آلته الموسيقية العسكرية باصبع واحد حتى الآن ، يعزف عليها بذاكرته القديمة ، مثل الكمان ، ونحن ، مسؤولي الصعيد الأوسط المجربين نسمع وندرك ما هى هذه الموسيقى حسب سير الامور ، اما فوق — القى ايفان الكسييفيتش نظرة خاطفة الى السقف — فلم يستمعوا بعد الى تلك الموسيقى كما يجب ! وبالمناسبة — قال ايفان الكسييفيتش وهو يمد يده الى سربيلين مودعا — جاءتنى امس ارملة بارانوف . تذكرت الحديث بيننا ونصحتها بان تقابلك . فحدثها انت ، لانى لم ارغب فى القيام بهذه المهمة .

تجهم سربيلين .

— متى ستذهب لاستلام الفرقة؟

— ساذهب الآن الى هيئة اركان الجبهة مباشرة اذا هيأت لى انت سيارة . ومن هناك الى البيت لساعة كى اجمع حاجياتى ، واعتقد باني سأصل الى الفرقة فى المساء .

لم يكن يريد التحدث مع ارملة بارانوف ، ففكر بارتياح بانه سيسافر الى الجبهة اليوم وسيتخلص من هذه الورطة . الا ان الامور سارت على نحو آخر . فقد عاد من رحلته الى هيئة اركان الجبهة فى بيرخوشكوفو فى وقت اقل مما كان يتوقع ، وعندما عرج على بيته ليتناول الغداء ويأخذ حاجياته وجد زوجته التى اخبرها بتعيينه بالتلفون من الاركان العامة منهمكة فى اعداد الحقيبة وقالت له متذمرة :

— تلفنت لك مرتين وبكل اصرار امرأة لقبها بارانوفا . اجبتها بانك مسافر اليوم الى الجبهة ، ولكنها قالت بانها ستتلفن من جديد مع ذلك . فمن هى بارانوفا يا ترى؟

— بارانوفا زوجة بارانوف !

تبادلا النظرات . كانت فالينتينا يغوروفنا تعرف ان لدى زوجها مبررات لاعتبار بارانوف من المسؤولين عما حدث له فى عام ١٩٣٧ ، وهى تعرف ان الاقدار كأنما جمعتهما ، سربيلين وبارانوف ، من جديد عمدا اثناء الحصار . اما الآن — بعد ذلك كله — فيتعين على زوجها قبل السفر الى الجبهة ان يتحدث مع زوجة بارانوف . وادركت من تعابير وجه سربيلين انه لا مفر من هذا الحديث . فحالما تتلفن بارانوفا سيطلب منها حتما ان تأتى . والامل الوحيد هو ان بارانوفا قد لا تتلفن . وكلاهما يأملان فى ذلك الآن ، قبيل الفراق .

كان سربيلين ميالا الى الكلام اثناء الغداء ، اما فالينتينا يغوروفنا فقد لاذت بالصمت . فهى تعرف من زمان انه راغب فى استلام فرقة ، وهى تعرف انه كتب الى ستالين بخصوص ذلك ، وكانت واثقة من ان طلبه سيلبى .

كانا يفهمان بعضهما البعض من زمان وبالشكل الكامل . بديهى ان فهم البعض للبعض الآخر ليس هو الحب كله ، ولكنه جزء هام منه تزداد اهميته باطراد على مدى الاعوام ، بحيث تغدو المشاعر الخالية من ذلك التفاهم شيئا لا تصح تسميته عموما بالحب ، والافضل ان تطلق عليه تسمية اخرى . فالتفهم العميق الكامل لافراح سربيلين واتراحه صار من زمان الجزء الرئيسى فى حب فالينتينا يغوروفنا لزوجها ، لذا فرحت لكونه متوجها لاستلام الفرقة ، مع ان كل شيء فى دخيلتها يرفض ذلك ، فهو يعنى الفراق من جديد والجبهة من جديد والتوتر من جديد . وهو يعنى حياة السهاد بصحته التى لم تعد بعد الى نصف ما كانت عليه .

ولكنها لم تسمح لنفسها بالكلام عن ذلك ، فهى لا تريد ان تعكر مزاجه قبيل الرحيل . وما كانت بقادرة على ان تتكلم عن شيء آخر غير ذلك . جلست صامتة طوال فترة الغداء . وكان صمتها العسير هذا ليس نتيجة لخلاف عائلى ، كما قد يخيل لشخص غريب يأتى الى هنا ، بل هو نتيجة للحب والتقشف .

وكان هنالك ، فضلا عن ذلك ، شعور بالقلق الشديد . فان فالينتينا يغوروفنا الجالسة قبالة زوجها اثناء هذا الغداء التوديعى تعرف انه متوجه للحلول محل قائد قتل . والتعيين الجديد ينطوى على خطر الموت بالنسبة له ايضا . الا ان الكلام عن ذلك شيء غير معتاد اطلاقا فى عائلتهم .

— اسمعى يا فالينتينا — هم سربيلين باحتساء الشاى ولكنه ابعد القدح قليلا — اريد ان اقول لك ...

كان يريد ان يقول لها بان تعود ، حالما يسافر ، الى عملها السابق كممرضة ، بعد ان تركته موقتا عندما خرج هو من المستشفى . وهو يعرف بانها ستعود الى هذا العمل غدا ، ولكنه اراد لها ان تشعر بان ذلك هام ليس لها فقط ، بل وله ايضا .

ولكنه لم يتسن له ان يقول ذلك الا فيما بعد ، فى اللحظة الاخيرة للوداع : فقد رن جرس التلفون ، وقال صوت نسائى تعيس لجوج بان بارانوفا تتكلم وانها تعرف ان فيودور سربيلين مسافر الى الجبهة ، ولكنها تتلفن للمرة الثالثة ، من ركن الشارع هذه المرة ، ولا يحق له ان يرفض التكلم معها لعشر دقائق !

لا يحب سربيلين ان يذكره احد بما يحق له وما لا يحق له فعله. ولكن طالما تلفنت بارانوفا فلم يسمح لنفسه برفض طلبها:

– تفضلي، انا في انتظارك.

وضع السماعة وسأل زوجته عما اذا كانت تتذكر اسم بارانوفا الاول. فاجابت فالينتينا يغوروفنا دون ان تخفي امتعاضها:

– انني لا اتذكرها عموما.

وفاة بارانوف لم تغير موقف فالينتينا يغوروفنا منه. كان كل شيء في داخلها يفور لان الثلاثين دقيقة الاخيرة قبيل الفراق مع زوجها تنتزعها منهما زوجة شخص كان له ضلع في انتزاع زوجها منها لاربعة اعوام كاملة، اطول واقطع اعوام في حياتها.

– انها وقحة مع ذلك! – قالت فالينتينا يغوروفنا بلا هوادة وبلا حق على الاكثر، ثم اخذت الحقيبة دون ان تخجل من تعسفها وذهبت الى المطبخ لترتب حاجيات زوجها غير راغبة في رؤية هذه المرأة.

احتسى سربيلين الشاي وحيدا، وهو يحاول ان يتذكر ليس فقط اسم بارانوفا واسم ابيها، بل وشكلها ايضا. فهي على ما يعتقد شابة اصغر سنا من بارانوف وقد رآها، كما يتذكر، في عام ١٩٣٦ في محطة القطار عندما ارتحلوا الى بيلوروسيا للمشاركة في مناورات الخريف. وآنذاك، على ما يتذكر، عرفه بارانوف على زوجته.

كانت المرأة التي فتح لها الباب بعد بضع دقائق لا تزال حقا في مقتبل العمر، وهي ترتدي بزة طبية عسكرية، ولو فكر سربيلين في تلك اللحظة بما يضيفه الى ذلك لقال في نفسه، على اغلب الظن، «انها جميلة».

ساعدها في خلع معطفها ودعاها الى الجلوس وعرض عليها احتساء الشاي، الا انها رفضت على عجل وتطلعت الى ساعتها اليدوية الرجالية الكبيرة وقالت بانها متأخرة من وقته عشر دقائق لا اكثر، مثلما اخبرته بالتلفون.

انها تعرف منذ شهر ان زوجها قتل، ومنذ شهر ايضا التحق ابنها البكر البالغ من العمر ١٨ عاما بالجبهة متطوعا حالما علم بمقتل ابيه. وقد استحسنت هي تصرفه هذا. واخبروها بيوم وفاة زوجها – في الرابع من سبتمبر، وقالوا لها ان بوسعها ان تقدم طلبا بشأن المعاش. ولكنها لم تقدم هذا الطلب بعد. واضافت على عجل:

– وعلى العموم، قضية المعاش ليست مهمة حتى الآن. فانا اخدم في الجيش، كما ترى، واعمل كبيرة للجراحين في المستشفى. ابني الاكبر

في الجبهة والاصغر عند جده، فعائلتنا كما هو واضح ليست في عوز– قالت ذلك وكأنها تريد منذ البداية ان تحمي نفسها من الشكوك التي لم تكن موجودة اصلا عند سربيلين.

– ولكنني ذهبت امس فقط، وبعد مخابرات تلفونية عديدة، الى... – وذكرت لقب ايفان الكسييفيتش – مؤملة بان شخصا مثله يمكن ان يعرف اكثر من الآخرين. وقد قال فورا ان زوجي خرج بالفعل من الحصار معك، ونصحني بان اتوجه اليك.

«فليذهب الى الشيطان! لقد علق صليبا ثقيلا على رقبتي ورقبتها» – فكر سربيلين بشيء من العطف على هذه المرأة التي تبدو معتمدة على نفسها.

لم يكن من السهل التأثير على سربيلين. فهو يثق بالمشاعر المتعقلة، وهو الآن يرى في صوت هذه المرأة المدوي يتوتر وفي عينيها ألما ولوعة اكبر مما لو انهمرت الدموع على خديها امامه.

– اجل – قال سربيلين – خرجنا من الحصار معا بالفعل.

تكلم ببطء، وهو يتمعن آنذاك في مسألتين دفعة واحدة: ماذا ينبغي له ان يقول لها وماذا قالوا لها؟ فالمعلومات عن مقتل بارانوف لا يمكن ان تأتي الا من شاكوف ومن القوائم العسكرية التي سلمها عند الخروج من الحصار. ولكن هل ادرج شاكوف في تلك القوائم توضيحا ما ام لا؟ وماذا قالوا لهذه المرأة؟ هل قالوا لها ما ذكرته الآن فقط ام اكثر؟ ربما عطفوا عليها، فهي لا تعرف الحقيقة. ام انها تعرف اكثر مما تقول، وتريد ان تتثبت مما تعرفه بمساعدة سربيلين. كل تلك الاحتمالات ممكنة بقدر واحد، ولا تتعارض مع صدق اللوعة التي تلمسها في صوت هذه المرأة.

– خرجنا معا بالفعل، وقتل هو بالفعل في الرابع من سبتمبر – قال سربيلين دون ان يقرر حتى النهاية بعد باي شكل يتكلم معها، ولكنها تلقفت ترددا في صوته لا يكاد يلحظ.

– اذكر لي، من فضلك، الحقيقة كاملة، كما كانت بالفعل! فذلك شيء مهم بالنسبة لي، والاهم ان ولدي، والاكبر خصوصا، يريدان معرفة ذلك. وقد وعدته بالكتابة عنه الى الجبهة.

ولكن سربيلين الآن بالذات، عندما قالت «اذكر لي الحقيقة كاملة» واشارت الى ابنها من جديد، قرر ان لا يقول لها الحقيقة، لا كلها ولا نصفها ولا ربعها.

قال انه التقى بزوجها في اواخر يوليو عندما وصل مع قواته عبر الغابات

من موفيليف الى تشاوسى وان زوجها فى ظروف الحصار، شأنه شأن بعض القادة الآخرين – وجد سريبلين صعوبة فى تلفظ هذه العبارة مع انها كانت كاذبة جزئيا – قد قاتل كجندى عادى وقتل فى الرابع من سبتمبر، فى بداية المعركة التى نشبت فى تلك الليلة اثناء عبور الطريق العام. سريبلين نفسه لم ير كيف حدث ذلك، ولكنهم قالوا له ان بارانوف سقط شهيدا ... قال ذلك بجهد كبير ليس من اجلها، بل من اجل ابنها الذى ستكتب له الى الجبهة.

– مع الاسف اننى لا استطيع، كما ترين، ان اضيف الكثير. فقد كان تحت قيادتى هناك حوالى خمسمائة شخص، ولا اتمكن من تذكر التفاصيل عن كل منهم. كنا نسير بمنتهى الصعوبة، عبر كثير من المعارك والخسائر. وفى المعركة الاخيرة، عندما التقينا، فقدنا نصف افرادنا. بديهى ان ذلك لا يخفف من احزانك ولكن الاقلية منا فقط ظلت على قيد الحياة ...

– ربما تخفى على شيئا لا تريد ان تقوله؟ – تطلعت الى سريبلين مستنطقة.

فى البداية خيل اليه ان لهجة كلامه عن بارانوف فضحته. ولكن كلا، فهو قد تمالك اعصابه. ثم فكر بانها ربما دهشت لان زوجها العقيد خدم عنده، هو سريبلين كجندى بسيط.

ولكنه ادرك، وهو يواصل التطلع الى عينيها، ان هذا الافتراض وذاك غير واردين. يبدو انها تعرف او تحزر بوجود شيء لدى زوجها يجعلها تخشى عليه. وواضح انها كانت تحبه، ولكنها مع ذلك ليست واثقة من تصرفه هناك، فى الحرب.

كانت تأمل بان تعرف عن زوجها شيئا جيدا، ولذا جاءت الى سريبلين، ولكنها، فى قرارة نفسها، تخشى من ان تسمع عنه مسوءة. والآن، عندما صمت سريبلين تصورت ان تلك المسوءة موجودة بالفعل، ولكنه لم يذكرها. فكررت سؤالها:

– ربما تخفى على شيئا مع ذلك، ولا تريد ان تقوله؟

«ربما، ربما ...» قال سريبلين مع نفسه. ولكنه قال للمرأة كلا. فقد حدثها عن كل شيء كما حدث بالفعل، ولتكتب هى الى ابنها عن ذلك.

«فالاهم الابن وليس هى!» – فكر سريبلين من جديد.

ويبدو انها صدقته هذه المرة.

– ساكتب لابنى وساستشهد بك.

– لا بأس، يمكنك ان تستشهدى بى.

وفكر فى نفسه: يا للشيطان، ربما كان بارانوف البغيض يتحلى بشيء جعل هذه المرأة الطيبة على ما يبدو تحبه حتى الآن.

رافقها حتى الدهليز وساعدها فى ارتداء المعطف فشكرته وانصرفت. وعندما عاد وتطلع الى الساعة رأى انها لم تأخذ زيادة على الوقت الا اربع دقائق. وكان ذلك مأثرة بالنسبة لامرأة جاءت بما جاءت هى من اجله.

«اجل، انها انسان شديد الشكيمة». فما الذى جعلها تحب بارانوف هذا؟ ربما احبته لا لشيء، كما يقال، لمجرد الحب ... فتلك حالة تصادف على ما يبدو ...» – فكر سريبلين دون ان يصدق بهذا الاحتمال.

– ذهبت؟ – سألت فاليتينا يغوروفنا وهى تدخل الغرفة.

حتى سرعة انصراف بارانوفا لم تخفف من انفعالها. فقد تصورت ان سريبلين قال لهذه المرأة الحقيقة كما هى، ولذا ذهبت بسرعة.

– ماذا؟ هل قلت لها كل شيء؟ – سألته وقد نفد صبرها.

– لم اقل لها شيئا! – اجاب سريبلين ممتعضا. فلم يكن راغبا فى العودة الى هذا الموضوع – قلت لها انه سقط شهيدا.

– لم اكن اعرف فى السابق انك يمكن ان تكذب. قالت فاليتينا يغوروفنا دون تساهل.

– لا تسرعى عند المنعطفات! – قال سريبلين بغيظ – ابنها توجه الى الجبهة متطوعا لكى يثأر لابيه. فلمن يثأر يا ترى؟ للجبان؟

– الا يوجد احد يثأر له غير ابيه العزيز؟ ولو ظل ابوه حيا فهل يجوز للابن ان لا يذهب الى الجبهة بل يسافر الى الاورال؟ اننى لست متفقة معك.

– لو كنت فى محلى لوافقت ... – اراد سريبلين ان يوضح لها الفرق بين التفكير فيما هو صائب او غير صائب، وبين التطلع فى عينى ارملة.

الا ان فاليتينا يغوروفنا قاطعته:

– لست بحاجة لاكون فى محلك، فقد رأيت فى محلى ما فيه الكفاية!

ولو استمر هذا الحوار قليلا لتحول الى خلاف. ولكنهما احسا كلاهما بان ذلك يمكن ان يحدث فضبطا اعصابهما وتحدثا عن امور اخرى. طلب منها سريبلين ان تذهب فى الحال للعمل فى مستشفاها، وطلبت منه ان يقلل من ارتداء الحزمة الجلدية بعد اصابته بالجرح.

— فاليوم، مثلا، يمكنك ان ترتدى الجزمة اللبادية فى الطريق...

وبهذه الفكرة المعقولة بدأ الحوار الذى يجرى عادة قبيل السفر...

وبعد نصف ساعة اجتاز سربيلين منطقة زاموسكفوريتشيه فبلغ حدود موسكو وعرض وثائقه فى نقطة التفتيش ثم استمرت السيارة به على الطريق المؤدى الى الجبهة.

...وصل سربيلين الى مقر اركان الجيش وبحث عن المنزل الذى يسكنه قائده حتى عثر عليه. استقبله المرافق وعرض عليه ان يجلس وينتظر. وقال:

— القائد نائم، وقد طلب منى ان اوقظه فى تمام العاشرة مساءا، وقال بانك اذا جئت قبل هذا الوقت فعلى ان اوقظه حين وصولك.

خرج المرافق فتطلع سربيلين الى ساعته — كانت العاشرة الا عشر دقائق — ثم القى نظرة على الغرفة.

يمكن للمرء ان يأخذ فكرة معينة عن العسكرى حتى من مسكنه المؤقت. مكتب القائد بارد نظيف وخال من نافل الاثاث. فلم يبق فيه غير الطاولة والكراسى وخوان مكشوف على احد رفوفه حزمة من الكتب، وعلى رف آخر مجموعة مجلدة من جريدة «النجم الاحمر»، وعلى الرف الثالث مجموعة من الخرائط. الطاولة مغطاة بورق مثبت عليها بالدبابيس. الورق نظيف تماما، ويبدو انهم يستبدلونه يوميا.

يبدو ان الشخص الذى عمل فى هذه الغرفة كان متحذلقا. فقد تذكر سربيلين عفو الخاطر العبارة التى قالها ايفان الكسييفيتش عرضا من ان طباع القائد قاسية.

— ارجو المعذرة! توقعت انك ستصل فى وقت متأخر — دوى خلف ظهر سربيلين صوت حاد قطع حبل افكاره.

نهض سربيلين ولكنه لم يجد فى الغرفة الشخص الذى تلفظ تلك الكلمات. فقد مر بسرعة من باب لآخر ولاحت فى العتمة الخفيفة المنشفة الملقاة على رقبته.

وبعد دقيقتين مر عائدا بنفس السرعة، ولكن بصمت هذه المرة، وبعد دقيقتين اخريين خرج لملاقاة سربيلين، وقد عدل قمصلته، ماشيا، بآخر حركة دقيقة من ابهاميه اللذين دسهما تحت حزام الخصر.

قدم سربيلين نفسه.

استمع اليه قائد الجيش واقفا وشد على يده بسرعة ودعاه الى الجلوس.

— هذا انت اذن! — القى نظرة متفحصة على سربيلين — عندما رشحك الفريق — ذكر القائد لقب ايفان الكسييفيتش — لتقود فرقة من فرقنا وصفك باحسن النعوت حتى تصورتك كما قال الشاعر ليرمونتوف: «مظهرك

مظهر بطل اسطورى وروحك حرة كالقوزاق...». وقد ترددت بعض الشىء. فانا اخشى تزكيات الاصدقاء. فهل خدمت معه؟ — سأل قاصدا ايفان الكسييفيتش.

— نعم — اجاب سربيلين دون ان يدخل فى التفاصيل.

فاعجب جوابه هذا قائد الجيش.

«وهذا انت اذن!» — فكر سربيلين وهو يتطلع اليه.

رأى امامه رجلا قصير القامة بمظهر عادى تماما. رأسه مستدير على رقبة قصيرة متينة، وشعره قصير عموما مع خصلات اطول مائلة الى البياض عند الجبهة. ووجهه املس فتى تماما دون اى اثر للتجاعيد سوى خط عميق واحد على اسفل الذقن. قمصلته ميدانية بدون اوسمة وعليها شارتا ياقة بلون كاكى. بدا قائد الجيش وكأنه قد اهتم خصيصا بان لا يحتوى مظهره على اى شىء نافل، مثل غرفة مكتبه. سربيلين يعرف ان القائد فى الاربعين، الا ان تقليمه رأسه الاكليلية الصبيانية جعله يبدو اصغر عمرا بخمسة اعوام، وصوته فتى ايضا، انه صوت رنان حاد.

كان سربيلين يتوقع من قائد الجيش ان يسأله عن خدمته، فهذا شىء طبيعى لدى التعرف على القائد الجديد للفرقة. الا ان قائد الجيش بدأ فورا من القول بانه اطلع على صحيفة اعمال سربيلين.

— اعتقد ان ذلك يكفى لتعارفنا. وسنتعارف اكثر فى القتال، اما الآن فاطلعك بايجاز على الموقف.

مد يده الى الخوان المكشوف دون ان يلتفت اليه، واخذ، دون ان يخطىء، الخارطة التى يريدها من المكان الذى كانت فيه.

— نحن الآن هنا — واشار بقلمه المبرى جيدا الى النقطة المطلوبة دون ان يبحث عنها خصيصا.

تحدث عن الموقف بايجاز فعلا، وكأنه يحسب الكلمات ذهنيا، وبفضل هذا الايجاز بالذات كانت اللوحة التى رسمها بلا رتوش واضحة للغاية.

فرق جيشه الخمس تشغل على الجبهة قطاعا طوله سبعون كيلومترا، وهى فى النسق الاول. وفى الايام الاخيرة لم تبق لدى الجيش احتياطيات فى الواقع. ولكن القائد يعتقد بان هذه الاحتياطيات نفدت عند الالمان ايضا. فمع انهم كانوا فى الايام الاخيرة يواصلون الهجوم ويحققون نجاحات منفردة، الا ان هجماتهم عموما صارت تتسم، على حد تعبيره، «بطابع لا مبرر له». ويبدو انهم لا يمتلكون هنا على الاقل، فى القطاع المقابل لجيشنا، احتياطيات كبيرة لتطوير النجاحات.

– اقول احتياطيات «كبيرة» على سبيل الحذر، وانا اظن انه ليس عندهم ضدنا في الواقع اية احتياطيات.

وبعد ذلك انتقل الى ابعاد الهجوم المرتقب بعد ايام معدودات وكيف يرتسم هذا الهجوم على قطاع جيشه، وهو الهجوم الذي ابلغ به قادة الفرق ومنهم القائد السابق لفرقة سربيلين. وقال قائد الجيش:

– في هذا الهجوم لن يكون مركز الثقل عندنا. فالى اليسار، بيننا وبين جارنا السابق، ظهر جيش جديد – ذكر رقمه – وسيأخذ هذا الجيش جزءا من قطاعنا وجزءا من قطاع جارنا. وسوف نخرج فرقتنا التي في الجناح الايسر ونحولها الى احتياطي، ولذا ستكون انت في نقطة الالتقاء مع الجار الجديد الذي سيكون مركز الثقل في قطاعه. ثم اننا نحن ايضا مكلفون بان نصل خلال الاسبوع الاول الى هنا! – المسافة التي اشار اليها على الخارطة كبيرة جدا، بثلث مساحة الطاولة – بديهي اننا سنزحف على الثلج تحت وابل من نيران العدو، وليس بقلم الرصاص على هذه الخارطة – اضاف ووضع القلم – ولذا سنضطر الى بذل جهد كبير. انني الآن لست غنيا، وما عندي اليوم هو... – ذكر عددا من المقاتلين الفعليين شحيحا الى درجة ادهشت حتى سربيلين الذي رأى ما رأى في حياته.

لاحظ القائد الظل الذي انداح على وجه سربيلين، ولكنه لم يقل شيئا، فهو يعتقد بان سربيلين يجب ان يتصور بنفسه ان منع الالمان من دخول موسكو لم يكن بالامر اليسير وان ثمنه كانَ غاليا.

– اننا حتى الآن نعيش بفقر – كرر القائد بصيغة الجمع هذه المرة – وعدونا بالامدادات في مساء الغد، ولكنها امدادات ليست سخية، لان مركز الثقل لن يقع علينا. فرقتك افضل قليلا من الفرق الاخرى. فقبل ان يرسلوها الينا سحبوها وزودوها بالامدادات.

– رأيت فوجا من افواجها في العرض العسكري في الساحة الحمراء – قال سربيلين منتهزا فرصة صمت القائد.

– اما انا فكنت انتظره في ذلك النهار مثل من السماء – قال القائد وانتقل الى الحديث عن احوال الفرقة.

فهو يعتبر التخطيط للقتال في قطاعها والذي اجراه قائدها السابق ورئيس اركانها على اساس التوجيه العام الذي يشمل الجيش كله تخطيطا مقبولا، ولكنه يحتاج الى تدقيق. وقال القائد:

– الجنرال اورلوف قتل اثناء التدقيق محليا. توجه للتدقيق في النهار

الى مركز مراقبة احدى الكتائب ولم يعد. يقال ان القذيفة اصابته بالصدفة، مع ان القذائف لا يكتب عليها ما اذا كانت تصيب بالصدفة ام خصيصا. مساء غد سادعو قادة الفرق للاجتماع. وقد بقي لديك اقل من يوم واحد لكل التدقيقات. الوقت ضيق، ووضعك، كقائد جديد للفرقة، حرج. ولكنني افضل تعيين قائد للفرقة عشية الهجوم، على استبداله في سياقه. في السابق كنت اعتقد ان رئيس الاركان العقيد رتيشيف اهل لقيادة الفرقة من حيث خبرته ومعارفه. ومما يؤسف له اننا مضطرون للتفكير مسبقا بمن ينبغي ان يحل محل الراحلين.

هز سربيلين رأسه موافقا. فكيف يجوز القتال على نحو آخر؟!

– ولكنني عندما وصلت الى الفرقة وجدت رئيس الاركان مصعوقا بالمصيبة. فقد خدم مع قائد الفرقة عشرين عاما. فكيف لا يتألم؟! ولكنني في الوقت ذاته لم اجد فيه ذرة من الاستقلالية والثقة بان الفرقة بقيت على كاهله وبان عليه ان يقودها بالشكل الذي تمليه عليه حكمته. والقيادة مستحيلة بدون هذا الشعور، وخصوصا بعد قائد مثل اورلوف. كنت اعرفه في زمن ما، في بداية الشباب، حيث خدمت في سرية عنده. اجل، اخفق تعيين رتيشيف... فاذا كان المرء يخشى من ان تغدو الامور اسوأ مما كانت فالنتيجة واضحة: من سيء الى اسوأ. وباختصار، فلم اجده لائقا لقيادة الفرقة – قال قائد الجيش بصرامة وادرك سربيلين ان انطباعه الاول عنه صائب، فهو انسان شديد الشكيمة. – ستذهب الى هناك وتقيم الامور بنفسك. فاذا ايد تقاليد اورلوف – ولدى اورلوف تقاليد جيدة فعلا – فستؤيده انت في ذلك على ما اعتقد، اما اذا ظل في حالة الحداد فاخبرني وسننقله الى فرقة اخرى، وتنقل رئيس اركان تلك الفرقة اليك... اما المفوض فهو انسان شريف وشجاع يحب الخط الامامي. وليس بوسعي ان اقول عنه اكثر من ذلك. فانا قليل المعرفة به. قبله كان هناك مفوض جيد، بل واستطيع القول رائع، الا ان الفرقة غير محظوظة. فقد اصيب بجراح قبل مقتل اورلوف باسبوع. وبوسعك ان تحصل على المزيد من التفاصيل بهذا الخصوص من رئيس الشعبة السياسية. فرج عليه. عضو المجلس العسكري توجه الى الوحدات، اما هو فموجود هنا وقد طلب ان تأتي اليه. هل نشرب قدحا من الشاي قبل السفر؟

شكره سربيلين. فقد شعر بالبرد في الطريق وكان راغبا في احتساء قدح صغير من الفودكا. الا ان الشاي كان جيدا حقا. فعلى مائدة

قرب السرير المغطى ببساط فى الغرفة المجاورة قدحان من الشاى المركز الذى يتصاعد منه البخار وصحن فيه بسكويت مغطى بمنشفة .

– بالمناسبة فأنا لا اتذكرك عندما درسنا فى الاكاديمية – قال القائد وكأنه يريد لهذه الكلمات ان تغدو حدا فاصلا بين الحديث الرسمى والحديث الرفاقى .

– وانا ايضا . – قال سربيلين .

فقد شعر سربيلين الآن، عندما دار الحديث عن الماضى، بانهما على قدم المساواة .

– وبعد ذلك، اذا اعتمدنا على ما فى صحيفة الاعمال، عدت الى الاكاديمية وعملت فى قسم التكتيك، اليس كذلك؟

– نعم، حتى عام ١٩٣٧ .

– يعنى اننا كدنا نتقابل من جديد . ففى عام ١٩٣٦ دعونى انا ايضا للتدريس فى الاكاديمية، ولكننى جمعت حاجياتى فجأة وسافرت بعد يوم واحد الى اسبانيا . ففى حياتنا، كما يقال، تصادف مفاجآت ...

– وبعد اسبانيا؟

– عملت فى الاركان العامة . وعشية الحرب قدر لى ان التحق بالفيلق الآلى .

عندما ذكر الفيلق الآلى وتذكر الحصار على ما يبدو سأل من سربيلين عن كيفية خروجه من الحصار قرب يلنيا . فقال سربيلين:

– تكبدت خسائر جسيمة . اكثر من النصف .

– وانا ايضا تكبدت بهذا القدر تقريبا ... – قال قائد الجيش وتطلع لاول مرة خلال هذا اللقاء ليس الى الامام، بل الى الجانب – فالحصار شىء مرير . اننى اتذكره بعسر ولا اريد ان اتذكره من جديد . فهناك تناقض كبير . من جهة التحق بك امس شخص متطوع وهو يسير معك عبر كل المخاطر، عبر الفاشيين الى مواقعنا . ومن جهة اخرى فانك تعدمه غدا ربما بالرصاص امام الجنود حالما يرفض اطاعة الاوامر . ولا يمكنك ان تفعل بشكل آخر، فليس لك الحق فى ذلك، اذ ان عدم تنفيذ الاوامر مرتين او ثلاثا فى ظروف الحصار يمكن ان يؤدى الى انهيار كل شىء . ومع ان الناس فى اغلبيتهم جاءوا اليك بانفسهم، جاءوا اليك وكان بوسعهم ان يتفرقوا . ولكن طالما جاءوا اليك فيسرى مفعول الاوامر . اليس كذلك ؟

– بالطبع ! – قال سربيلين .

– فيما بعد اتهمنى رفيق ... خرج معى من الحصار – صمت القائد لحظة قصيرة جدا قبل تلفظ كلمة «رفيق» – باننى تجاوزت السلطة الموكلة الى . ربما كنت قاسيا حقا عندما كنت مصرا على تنفيذ اوامرى دون قيد او شرط . ربما . انا لا اجادل فى ذلك . ولكن فلنتساءل: لماذا لا ينفذ المرء الاوامر؟ فى اغلب الاحيان لانه يخاف الموت بتنفيذ تلك الاوامر . ونتساءل من جديد: كيف نذلل هذا الخوف؟ بشىء اقوى من الخوف من الموت . فما هو هذا الشىء؟ انه متباين فى مختلف الملابسات: الايمان بالنصر، الشعور بالكرامة الشخصية، الخوف من الظهور بمظهر الجبان امام الرفاق، واحيانا مجرد الخوف من الاعدام ربما بالرصاص . مما يؤسف له ان ذلك هو الحقيقة . اما ذاك الذى كتب فيما بعد يتهمنى بالقساوة وتجاوز السلطة وغيرهما فقد خرج من الحصار نقيا لا يمكن كتابة شىء عنه، لا صالحا ولا طالحا . الا ان الذى اخرج الناس من الحصار ليس هو، بل انا . ألم تواجهك هذه المشكلة؟ – سأل قائد الجيش وهو يتطلع فى عينى سربيلين .

هز سربيلين رأسه بالايجاب صامتا .

– حسنا ... – احتسى القائد آخر جرعة من الشاى ونهض – اتمنى لك النجاح فى الهجوم! فلربما نشفى غليلنا فى آخر الامر، نحن المحاصرين القدامى، فنطاردهم الى الجحيم! ونسترجع ثمن كل شىء وكل الضحايا، حتى اولئك الذين اضطررنا الى اعدامهم بايدينا بسبب الوضع آنذاك . عرج على الشعبة السياسية ثم ارتحل الى فرقتك . وسيذهب معك مرافقى الى مقر اركان الفرقة .

مدير الشعبة السياسية يعيش فى المنزل الرابع من هنا . فتح سربيلين الباب وسأل: «هل تسمحون؟» . وفرح عندما رأى ان الشخص الذى نهض للقائه من وراء الطاولة هو مفوض الفوج مكسيموف .

– مرحبا يا مكسيموف، ايها الانسان المرح ! – قال سربيلين عفو الخاطر وهو واقف وسط الغرفة يهز يد مكسيموف الباسم .

– طالما جئت فاجلس معنا خمس دقائق على الاقل . قال مكسيموف وهو يسحب سربيلين من يده – سأعرفك الآن على الرفاق!

– حسنا، ولكن لخمس دقائق حقا . – قال سربيلين وقد نقر على ساعته – فذاك الذى هو اعلى منك امرنى بالتوجه الى الفرقة دون ابطاء .

– استعجلك ام انك مستعجل بنفسك؟ – سأل مكسيموف باسما .

– استعجلنى هو وانا مستعجل ايضا .

تعرف سربيلين على الرجال الاربعة الجالسين عند مكسيموف والذين نهضوا عندما ظهر فى الغرفة، ثم جلس الى الطاولة دون ان يخلع معطفه، وهو يشير بذلك الى انه سينصرف بعد خمس دقائق رغم سروره للقاء مكسيموف.

احد الاشخاص الاربعة الذين عرف مكسيموف سربيلين عليهم عسكرى، عقيد، اما الثلاثة الباقون فهم مدنيون، ولكنهم يرتدون بزات عسكرية: نفس الجزمات والقمصلات ذات السيور التى يستخدمها الضباط ولكن بدون شارات ورتب على الياقات. اثنان من المدنيين هما سكرتير اللجنة الحزبية المحلية للناحية التى يحتلها الالمان والواقعة فى الامام وسكرتير اللجنة الحزبية لمدينة صغيرة بضواحي موسكو تقع وراء الجيش مباشرة. وقبل ساعة مر سربيلين بهذه المدينة. والمدنى الثالث هو عجوز شوه خدش عميق خده، وهو مدير معمل الموبيليا. واوضح مكسيموف قائلا:

— بتكليف من المجلس العسكرى نقوم انا وآمر المؤخرة باستحصال اشياء اضافية من الرفاق الذين هم بحمايتنا.

— انظروا الى هذا المحامى! — قال سكرتير اللجنة الحزبية فى المدينة. فاجاب مكسيموف مازحا:

— الحامى وليس المحامى.

— الحماة رابطون فى الخنادق — لم يتنازل له السكرتير — اما انت فتلوذ باذيالهم. لا داعى للاستحصال منا، فنحن نقدم بانفسنا.

— يبدو انك رجل شحيح. قال آمر المؤخرة، فاضاف مكسيموف ضاحكا:

— نحن نجمع الاتاوة الآن من مؤسستيه الصناعيتين الضخمتين، من معمل الخياطة ومعمل الموبيليا السابق الذى تحول الى معمل للاسكى. فهناك يخيطون لنا ثياب التمويه ويصنعون الاسكى وزحافات الرشاشات. وقد طلبنا اليوم كمية اضافية ودعوناه الينا للمزيد من الاقناع.

— دعك من هذه الثرثرة — لوح سكرتير لجنة المدينة بيده — كيف لا تخجل من هذا الكلام! فى معمل الخياطة النساء لا يعرفن طعم النوم منذ ليال عديدة بدون تقنيعاتك. الافضل ان تقول بانكم اخطأتم الحساب وتطلبون الآن ثلثمائة زوج اضافية من الاسكى!

— لا اجادل فى ذلك — اومأ مكسيموف الى العجوز المشوه الخد — ولكن العرق يتصبب من كل المسامات قبل ان نتمكن من اقناعه. وحبذا لو كانت الاسكى جيدة!

— لا يمكن صنع اسكى جيدة من خشب لم يجف المدة المطلوبة، ناهيك عن الخشب الطرى. قال العجوز بهدوء. اما الكمية فسوف تسلمها. — والتفت الى سكرتير لجنة المدينة وهز رأسه بالايجاب — حسب تقديراتى سنسلمها.

سر سربيلين لانه وجد نفسه للحظة فى معمعان الشؤون الاقتصادية للجيش من احد جوانبها الهامة ايضا والتى تذكره بان الهجوم قريب. ولكن الوقت يمر بسرعة.

— اتمنى لكم كل خير، ايها الرفاق!

— سارافقك الى السيارة. قال مكسيموف ونهض.

شد سربيلين على ايدى الحاضرين بالتعاقب، وكان آخرهم هو مدير معمل الاسكى الذى امسك يد سربيلين قليلا وقال:

— كنت قد خدمت عندك، ايها الرفيق الجنرال.

— متى؟

— عندما ضربنا جنرالات الحرس الابيض. ابتسم المدير فتحول الخدش العميق على خده الى ما يشبه الفارزة بسبب هذه الابتسامة. — وصلت اليكم مع امدادات عمال موسكو لضرب قوات دينيكين! وكنت انت آنذاك مرابطا جنوبى ناقليا فى محافظة بريانسك.

— فعلا، كنت مرابطا هناك — قال سربيلين — هل يعنى ذلك الآن انه لا داعى ان اقلق بخصوص الاسكى لفرقتى؟

— بالطبع. اعتبرها قد وصلتك.

— ها قد التقينا. أنا مسرور، مسرور جدا... — قال مكسيموف وهو يخرج مع سربيلين الى شارع القرية المغمور بنور القمر. الشارع يكاد يكون وادعا مطمئنا لولا الحفرة الجديدة التى خلفتها قنبلة وغطتها ندف خفيفة من الثلج.

— وانا مسرور ايضا.

— اننى — كرر مكسيموف — مسرور الى درجة تجعلنى، والله، اطلب العودة للعمل مفوضا للفرقة عندك. لا سيما واننى قاتلت وجرحت فيها وكنت اعرف قائدها السابق واحبه، وقد هلت التراب عليه بيدى امس. اننى متألم لارزلوف اشد الألم! ولكن طالما حدث ذلك فانا مسرور لانك انت بالذات تسلم هذه الفرقة. لو كان الامر بيدى، واقول ذلك جادا، لعملت معك

مفوضا . ولكن المصيبة انهم طالما منحوني ترقية فلن يعيدوني الى اوطأ منها الا اذا قصرت في شيء .

— قصر .

— حسنا ! — قال مكسيموف بجدية جعلت سربيلين يبتسم .

— سانتظرك . ولكن حدثني الآن عن المفوض الحالي !

— لقبه ...

— انني اعرف لقبه : بيرميا كوف . كيف هو؟ حدثني عنه شيئا .

— وصل الى هنا قبل اقل من اسبوع . كان مفوضا لفيلق في القرم . الفيلق لم يسجل آيات البسالة في تشونغار، كما يقال ، ولذا خفضوا رتبة هذا العبد المسكين وخلعوا من ياقته الشارة المعينية وعلقوا عليها الشارة المستطيلة . ولا ادري بسبب اية خطايا؟ بسبب خطاياه هو او خطايا غيره . هل من اسئلة اخرى؟ — اضاف مكسيموف بلهجة اختلط فيها الجد بالهزل .

— الاسئلة كثيرة ولكن وقتك ووقتي قليل ...

وقفا قرب السيارة وما كانا يريدان الافتراق . فقال مكسيموف :

— اننا نعد كتائب الاسكي . وآمل بانك ستخلع القبعة الجنرالية والمعطف ايضا . فعندهم قناصة وانت طويل القامة بطول شخص ونصف . ثم ان القبعة الشتوية العادية ومعطف الفرو ادفأ .

— ساخلعهما — قال سربيلين . — كل الاحتياطيات موجودة في السيارة ، حتى جزمة اللباد . لا تشغل بالك ، فلن اكون هدفا للقناصة ، اذ ان ذلك لا يدخل ضمن رغباتي . وخصوصا الآن .

— وهل دخل ضمن رغباتك في زمن ما؟

— لا ادري ... في الايام الاخيرة طالعت دوستويفسكي من جديد في المستشفى . فان راسكولنيكوف بطل «الجريمة والعقاب» ، اذا تذكر ، يتحدث عن انسان مستعد للقيام بكل شيء من اجل ان يعيش ، انه مستعد للوقوف طوال الحياة على ذراع واحد من الارض ، في الظلمة ، صامتا وحيدا بدون بشر ، على ان يعيش فقط ، ولا يموت ! اما انا فلست موافقا على ذلك . انني لا ارضى بالحياة الا بشروط معينة .

— اية شروط؟

— شروطي تتلخص في انتصارنا على الالمان ! فاية حياة يمكن ان تكون بدون ذلك؟ اية حياة في الظلام والخوف والصمت على ذراع واحد من الارض؟ انني لا اوافق على حياة كهذه ! وانت ايضا ربما لا توافق عليها .

واستقل سيارته بعد ان شد على يد مكسيموف بقوة .

ولكي يصل الى مقر اركان الفرقة تعين عليه ان يعود من الطريق الريفي الى الطريق العام واجتياز سبعة كيلومترات تقريبا عليه والاستدارة من جديد الى طريق ريفي آخر . وصل سربيلين الى الطريق العام بسرعة نسبيا ، ولكن سيارته «الجيب» تلكأت هناك حالما بلغت هذا الطريق تقريبا . فعلى جانبي الطريق تسير قوات المشاة متوجهة الى الجبهة ، وفي وسط الطريق توقف فوج مدفعية الهوتزر المنقول على الآليات وامتد على مسافة لا يعلمها الا الله . وفي الامام يرتفع الطريق الى الهضاب ويبدو ان سيارات تلكأت هناك فنشأ هذا الازدحام .

التف السائق على عدة شاحنات وسار على الجانب غير المعبد من الطريق فغاصت «الجيب» في الثلج ونزل السائق بمعوله ثم صعد ودارت عجلات السيارة برهة على الفاضي ثم خرجت الى عرض الشارع ، وتجاوزت شاحنة اخرى وتوقفت دون ان يجازف السائق بالغوص في الثلج من جديد .

نزل مرافق قائد الجيش من سيارة «الجيب» وركض الى الامام ، الى مقدمة الرتل المتوقف . فقال السائق بثقة :

— هذا المرافق سيحل الطريق في الحال !

خاب ذلك التكهن . فقد مرت عشرون دقيقة اخرى ، وكانت المشاة تسير باستمرار ممتدة اثناء السير على شكل سلسلة تتجاوز السيارات على جانبي الطريق وعلى الحقل ، بينما ظلت السيارات واقفة .

نزل سربيلين من سيارته وراح يتمشى جيئة وذهابا دون ان يبدي الكثير من نفاد الصبر . راح يتمشى والثلج يصر تحت جزمته اللبادية التي ارتداها في الطريق من جديد بعد ان راجع القيادة مرتديا الجزمة الجلدية . فهو سيصل الى الفرقة في الليل على اية حال . وكان ينوي في الليل ايضا زيارة الافواج دون ان ينام ، ولذا لم يقلق للتأخر في الطريق امدا قصيرا . اما مشهد القوات والآليات المتوجهة الى الجبهة فقد ذكره مرة اخرى بالهجوم .

انتابه شعور بالفرح والقلق معا . فهو ، اذا اردنا الدقة ، لم يقد فرقة منذ زمن السلم . والخروج من الحصار مع بضع مئات من المقاتلين تجربة وحيدة الجانب رغم قساوتها . ولذا فقد قلق الآن وهو يفكر بالهجوم المرتقب .

«هذه القوات جديدة تماما على ما يبدو» — فكر سربيلين وهو ينظر الى المشاة على الجانب الآخر من الطريق عبر السيارات وعربات الهوتزر . «ويبدو انها لم تقاتل ابدا . وربما لم تقاتل في السابق اغلبية ضباطها ، في حين ان اليوم الاول من الحرب يوم عسير على اية حال ...» .

كان سربيلين الغارق في هذه الافكار يجوب الطريق جيئة وذهابا عندما ظهر امامه فجأة المرافق اللاهث من الركض.

— هذا، ايها الرفيق الجنرال — واشار بيده الى ميجر فارع القامة اصطحبه معه — هو المسؤول عن سير الارتال في هذا القطاع. اوضحت له انك تنتظر، اما هو فلا يتخذ الاجراءات اللازمة! واضطررت الى دعوته اليك!

عدل سربيلين قامته وتطلع الى الميجر الواقف امامه.

رفع الميجر يده بالتحية وافاد بصوت مرح ابح انه الميجر ارتيمييف قائد فوج في هذه الفرقة المتحركة الآن.

كان الميجر تجسيدا للصحة والعافية رغم صوته الابح ورقبته الملفوفة بضماد حتى الذقن. انه رجل ضخم بمنكبين مربعين ووجه لوحته الشمس بسمرة مرئية حتى في ضوء القمر الشاحب.

ويبدو ان المرافق كان يأمل بان الميجر سيحصل على توبيخ في الحال، الا ان سربيلين بدأ من بداية اخرى:

— التهاب اللوزتين؟

— بالضبط. التهاب اللوزتين! — اجاب الميجر بنفس الصوت المرح الابح.

— هل سيستمر هذا الازدحام طويلا؟

— في الحال، ايها الرفيق الجنرال. وصل المشاة وسوف نحمل على الايدي خمس او ست شاحنات الى الهضبة ونحدد فيما بعد مسافات بين السيارات الباقية وستصعد بنفسها بسرعة كبيرة. بعد عشر دقائق سنصفي الازدحام. وقد اوضحت ذلك للملازم الاول — واومأ الى المرافق بشكل كشف عن تذمره من الهائه عن الشؤون الضرورية.

— حسنا، اعطيك عشر دقائق. — تطلع سربيلين الى ساعته — لا اكثر. ألم تحاربوا بعد؟

— ماذا تقصد، ايها الرفيق الجنرال؟ انا شخصيا؟

— اقصد فوجك طالما انك تقود فوجا، واقصد فرقتك...

— اغلبية الجنود لم تحارب بعد، اما الضباط فشاركوا في معركة خالخين-غول. طبيعي ان القتال... — ربما اراد ان يوضح بان القتال في خالخين-غول لم يكن مثل ما في هذه الحرب. الا ان سربيلين قاطعه:

— لن آخذ من وقتك. اتمنى لكم مضاعفة الامجاد الكفاحية لفرقتكم.

— شكرا، ايها الرفيق الجنرال! انا ذاهب لابدد الازدحام. — مد الميجر يده من تحت ردن معطفه وتطلع الى الساعة وركض على امتداد الرتل.

وصل سربيلين الى مقر اركان الفرقة في حوالي الواحدة ليلا. لم يكن مفوض الفرقة موجودا. فقد ذهب ظهرا الى احد الافواج، الا ان رئيس الاركان لم يأو الى الفراش، فقد كان ينتظر وصول القائد الجديد.

وبناءا على طلب سربيلين شرعا بمراجعة خطة القتال الموضوعة والتي اعتبرها سربيلين معقولة منذ النظرة الاولى حتى بدون مطابقتها محليا بالاماكن والمواقع.

رئيس الاركان، وهو عقيد بدا قصير القامة متعبا وحزينا، قد تهيأ مسبقا، على ما يبدو، لفكرة انه لن يحظى ولا يمكن ان يحظى باعجاب القائد الجديد للفرقة. كان بعد كل عشر كلمات، بصوته الهادىء المتوازن، وبعناد انسان لا ينوي اعارة اهتمام لما اذا كان ما يقوله يعجب محدثه ام لا، يذكر قائد الفرقة الراحل: «باقتراح من الجنرال اورلوف»، «بمواصفات الجنرال اورلوف»، «بحسابات الجنرال اورلوف»... — حتى مل سربيلين من ذلك اخيرا. فقاطعه قائلا:

— اسمع، ايها العقيد رتيشيف! هل شاركت شخصيا في التخطيط للقتال؟ من الذي وضع الخطة؟ انت ام غيرك؟ انني اعرف بان ذلك من واجب رئيس الاركان. واعتقد باننا درسنا في نفس المدارس. واذا لم يكن الامر كذلك فلنوضح الامور منذ البداية!

رفع رتيشيف بصره الى سربيلين ببطء وكأنه غير راغب في ذلك وقال بانه، هو بالطبع، وضع كل الحسابات التفصيلية.

— لم اكن اشك ذرة في ذلك. ولكن لماذا تذكر «الجنرال اورلوف» طوال الوقت بمناسبة وبغير مناسبة؟ — قال سربيلين دون ان ينوي التوقف في منتصف الطريق — لقد سمعت انه كان لديكم قبل قائد ممتاز. سمعت ذلك في الجبهة وفي الجيش، وانا مسرور لانني جئت الى فرقة لها تقاليدها. ولكنني لن اسمح بتذكيري طوال الوقت بقائدها السابق. لانني انا قائدها الآن، وهذا شيء غير قابل للنقاش لا من قبلك ولا من قبل غيرك، لا مباشرة ولا بصورة غير مباشرة! وانصحك للمستقبل: لا تحاول ان تغرس في ذهني ان الجنرال اورلوف كان قائدا جيدا للفرقة. فانا ساجد بنفسي الشكل والملابسات المناسبة لاذكر ما انا مدين به، كقائد للفرقة، لقائدها السابق ولك كرئيس للاركان، مع اننا لم نتعود على امتداح الاحياء... اخبرني بصراحة ما هو رأيك بهذا الخصوص؟ — سأل سربيلين بصورة مفاجئة تماما لمحدثه بعد صمت قصير.

كان منذ البداية يريد التعاون مع هذا الانسان، فبادر الى ذكر ما شعر به خلال اللقاء، وهو يريد الآن ان يمنحه الفرصة لكي يعرب، بدوره،

عما في نفسه اذا شاء. فاذا شاء ذلك يعنى انهما سيتعاونان، واذا تقوقع منطويا فذلك اسوأ.

— ما الذى استطيع ان اقوله لك بهذا الخصوص، ايها الرفيق الجنرال؟— صمت رتيشيف ثم تطلع الى سربيلين من جديد بنظرة من عينيه العميقتين الكئيبتين.— بعد عشرين عاما من الخدمة لا استطيع بل ولا اريد ان انسى ميشا اورلوف، لا تلمنى لانى اسميه بصيغة التصغير والتحبب، فقد توفى ولم تعد هناك رسميات تربطنى به. واقول بصراحة...

— بصراحة فقط!

— ... اقول بصراحة، لا سيما وانت تدعو الى الصراحة، بالنسبة لى شخصيا فانك لن تعوض عن اورلوف.

«ستعاون اذن» — فكر سربيلين ثم قال:

— ارى انك تحب قائد الفرقة السابق، والفرقة؟

— اريد ان اتحدث عن الفرقة بالذات. اننى احب الفرقة. وما اريده منك — اذا كان يحق لى ان اريد شيئا — هو ان تحل محل قائدها السابق باكبر قدر ممكن من النجاح. اما شخصى انا فليس له اهمية.

— ذلك ما لا اوافقك عليه! فانت رئيس الاركان — لم يتحمل سربيلين فقاطعه.

— ليس له اهمية — كرر رتيشيف بعناد. ولكنى اريد ان اقول لك انه لدينا في الفرقة الآن، حتى بعد كل الخسائر، اكثر من ثلاثين ضابطا تخرجوا من مدرسة المشاة في اومسك التى خدم فيها اورلوف عشر سنوات قبل ان يأتى الى فرقتنا، وهم طلبته. وتلك نواة لا بد من ان تؤخذ بعين الاعتبار. فلا يجوز، والحال هذه، اللعب بالتقاليد. وربما لم اكن على ذكاء كبير فى البداية عندما صرت اكرر: «اورلوف، اورلوف»! واعترف بانى اردت لك ان تشعر بذلك ولكن لا تهتم، فانا اقصد صيانة مصالح الفرقة.

— انا متفق معك.

— ذلك هو جوهر القضية — قال رتيشيف والقى على سربيلين من جديد نظرة من عينيه الحزينتين اللتين فارقهما النفور الآن فصارتا اكثر حزنا — اما بخصوصى فيصعب على تحمل كارثة وفاته. تلك هى القضية. اننى منسحق لها.

— لنفترض ان الحق معك. ولكن كيف سنحارب؟

— سنحارب بالطبع. فالابجدية الحربية لا تنسى، وانا لا اخشى الموت اكثر مما يخشاه الآخرون.

— فلنذهب الى الافواج — اقترح عليه سربيلين.

فقال رتيشيف:

— هل هناك ضرورة الآن؟ أليس الافضل ان نذهب فى الصباح الباكر؟

— الوقت طويل حتى الفجر، لدينا خمس ساعات. وطالما الجو مظلم فلنذهب الى الخط الامامى فى الاماكن التى يصعب الوصول اليها فى النهار. اما فى الصباح الباكر فسنذهب الى مراكز المراقبة. يقال ان الجنرال اورلوف قتل قرب إحد هذه المراكز. أليس كذلك؟ فى اى فوج؟

— فى فوج باغلوك. — اجاب رتيشيف.

— والى اى فوج توجه المفوض؟

— الى هذا الفوج بالذات، الى باغلوك.

— حسنا، سنبدأ من فوج باغلوك — قال سربيلين.

الفصل الثامن عشر

جلس كليموفيتش في ردهة العمليات ينتظر حتى يعدوا الجبس. فقبل يوم اصيب بجرح طفيف، كما يعتقد، حيث اخترقت رصاصة يده في اعلى المعصم. ولكن الالم اشتد عليه في الليل فتوجه الى الكتيبة الصحية لفرقة المشاة المجاورة. واتضح ان الجرح اسوأ مما كان يتصور. فقد تصدع العظم. ومع انه ما كان ينوي الخروج من صف المحاربين بسبب هذا الجرح، الا انه اضطر الى الموافقة على التجصيص. جلس مرتديا قميصه وردنها ملفوف حتى الكتف، وراح يتطلع الى الخارج من النافذة المحطمة الزجاج وهو يحس بان البثور تظهر على جلد يده. ويرى من هنا الدار المقابلة وزجاجها محطم ايضا، وسطح باص الماني اسود تابع للاركان يقف عند مدخل الكتيبة الصحية.

هجومنا في ضواحي موسكو يجري منذ يومين على طول الجبهة. وشغلت الكتيبة الصحية مبنى احد المستشفيات في مدينة تحررت توا، عند الفجر.

وفكر كليموفيتش باستحسان عن الكتيبة الصحية: «لقد وصلت بسرعة!». اما سريته الصحية فقد غاصت في الثلج في مكان ما ليلة البارحة، واضطر للذهاب الى جيرانه من اجل التجصيص.

المدينة صغيرة. ولو سمع المرء اسمها في زمن السلم لربما سأل: اين تقع؟ في ضواحي موسكو ام على الفولغا... الا ان اسمها دوى كالموسيقى الآن، في بداية ديسمبر ١٩٤١. فهي مدينة انتزعت من المحتلين الالمان! والناس لم يتعودوا على ذلك بعد.

قام بتحريرها بعد معركة ليلية قصيرة فوجان تابعان لفرقة المشاة الحادية والثلاثين. والفضل في نجاح الفوجين يعود بالاساس الى جيرانهما: افراد

فرقة الشرق الاقصى الذين اقتحموا مواقع العدو على عمق خمسة عشر كيلومترا تقريبا الى اليسار، ورجال الدبابات بقيادة كليموفيتش. ومنذ المساء قطع رجال الدبابات على الالمان طريق التراجع فارغموهم اما على القتال في ظروف الحصار واما الانسحاب فورا وترك كل ما يصعب نقله وتحريكه في الحال. وظلت المدينة وضواحيها غاصة بالآليات الالمانية التي تركها العدو، وهي آليات مؤخرة فرقة ميكانيكية.

اغلق كليموفيتش عينيه في انتظار اعداد الجبس. في البداية خيل اليه انه سيغفو فورا وهو جالس على المصطبة ويده الجريحة مستقرة على حافة الطاولة. وليس في ذلك ما يثير الاستغراب ابدا. فخلال شهر كان اواره فيه ينقل من مكان لآخر بغية سد هذه الثغرة تارة وتلك تارة اخرى. لم ينم كليموفيتش الا نوما متقطعا لساعتين او ثلاثا، وفي الايام الاخيرة لم ينم ولا مرة واحدة نوما متواصلا لأكثر من ساعة. كانت اللحظة مناسبة للنوم، الا ان النعاس راوده فقط دون ان يستولي عليه. فقد كان متأثرا جدا لما حدث، ومهما كانت مناعته الظاهرية شديدة في تعوده على عمله العسكري فقد بدأ الهجوم واتضح ان الانسان ينفعل كثيرا ليس للمصيبة وحدها. فالفرحة، اذا كانت عظيمة، يصعب تحملها ايضا! وهي تستهلك كل قوى الانسان حتى يتعب منها.

بديهي ان هؤلاء الشبان الذين وصلوا من الشرق الاقصى ودخلوا لاول مرة يوم امس في معركة مع الالمان وازاحوهم من الحركة لمسافة خمسة عشر كيلومترا قد شعروا دفعة واحدة بسعادة يحسدهم عليها اي عسكري آخر. ومع ذلك لم يتمكنوا من ان يدركوا حتى النهاية ما شعر به كليموفيتش. فلا يمكن ان يفهم كليموفيتش حتى النهاية، ويفهم مدى تشفيه القاسي خلال الساعات الست والثلاثين منذ لحظة اختراقه خط دفاع الالمان وتوجهه لسحق مؤخراتهم في فجر يوم امس وحتى اللحظة التي جاء فيها الى هنا، الى الكتيبة الصحية، وسيارته تنهب الطريق الغاص بالآليات الالمانية المتروكة وسط اوراق ووثائق الاركان الالمانية المتطايرة في الهواء، لا يفهمه الا الانسان الذي ارهقته اهانة الانسحاب والحصار وصب آخر قطرات بنزينه على آخر دبابة له وخلف وراءه خطا وداعيا من الدخان الاسود الذي يعتصر الفؤاد وعلق رشاشه على صدره وراح يجوب الغابات اسابيع طويلة على مقربة من الطرق التي هدرت عليها الدبابات الالمانية متوجهة نحو الشرق.

في فجر الامس، بعد اختراق خط الدفاع حيث تقرر مصير المعركة

وبدأ الطرق على سندانها الحديدى يخفت، اصيب برج دبابة كليموفيتش بقذيفة. خرج كليموفيتش الاصم ورأى ان دبابته سوداء عن آخرها، وقد سقط كل ما نصب عليها قبيل المعركة: الادوات وقطع الغيار والسلاسل. ولم يكن هناك من جميع الجهات غير الحديد المسود بسبب الدخان. وعندما كان يتفحص دبابته اطلق عليه النار جندى المانى من احد السطوح. قتل رفاقنا الالمانى وضمدوا كليموفيتش فانتقل من دبابته من طراز ك. ف. الى دبابة اخرى من طراز «٣٤» وواصل مسيرته.

فى الضحى اصطدم مع عدة دبابات اخرى بطابور مدفعى منسحب، فتمكن ان يسد الطريق من الجانبين باولى الاطلاقات الموفقة فى مقدمته ومؤخرته. فى البداية تفرق الالمان، ولكنهم فيما بعد، والحق يقال، عادوا الى رشدهم ونصبوا عدة مدافع وحاولوا، بتغطية من نيرانها، ان يقتربوا حتى من الدبابات. ودعت الحاجة الى القيام بكل الاعمال دفعة واحدة: الاجهاز على الطابور واطلاق النار على المدافع العاملة والتزام الدفاع. الرؤية من الدبابة صعبة. ويمكن ان يقترب الالمان منها ويحرقوها. فامر كليموفيتش جنود الابراج ان ينزلوا مع رشاشاتهم ويتخذوا مواقع الدفاع الدائرية بين الدبابات. وفى آخر المطاف ابيد الالمان المهاجمون وتم تدمير مدافعهم واحراق سياراتهم، وعندما اجرى الحساب على عجل فيما بعد اتضح ان فوجا مدفعيا كاملا قد ابيد. ولا يتذكر كليموفيتش انه شهد مثل ذلك منذ بداية الحرب. وعند حلول الظلام اصطدم بطابور من السيارات الالمانية. كانت تزحف فى العاصفة الثلجية مفتوحة الانوار. فر السواق فى الغابة تاركين سياراتهم بمصابيحها المفتوحة ومحركاتها المدوية، اما جنود فرقة الاس اس فقد تناثروا من متون السيارات على الثلج ورفعوا ايديهم مستسلمين. آنذاك، فى يونيو ما كانوا حتى ليفكروا بان ذلك يمكن ان يحدث فى زمن ما، اما الآن، فى ديسمبر، فقد اضطروا الى تلقى الدرس. وفى الصباح استولى على شبكة من التحصينات فى اعمق اعماق الدفاع الالمانى ورأى بام العين كيف نهض المشاة الالمان من الخنادق وهربوا، هربوا بالفعل، امام دباباتنا. شارك فى هذا الهجوم شخصيا ورأى الفاشيين يهربون على بعد مائتى متر وعلى بعد عشرين مترا امام دبابته، فأخذ يحصد ظهورهم بالرشاش، ورأى وجوههم الملتفتة الى الوراء وهم يركضون...

كانت ذاكرته خلال الحرب مثقلة بعدد هائل من الذكريات القظيعة ربما يكفى كل منها طوال حياة كاملة لشخص آخر لم يعان مثل ما عاناه

هو. صحيح ان بعض تلك الذكريات جعل حتى بدنه هو يقشعر. فهل يمكن للانسان ان يتذكر بدون قشعريرة دفن رجال الدبابات، حيث يتعين بعد المعركة اخراج كل ما يتبقى هناك داخل الدبابات؟ وهل بوسع الكلمات ان تعبر عن شكل ما يتبقى هناك؟! واذا كانت الدبابة قد ظلت صالحة للاستعمال يجرى غسلها من الداخل وشطفها قبل ان يستقلها طاقم جديد ويتوجه الى المعركة...

يقال ان مثل هذه الامور تفولذ الارواح. ذلك شيء صحيح طبعا. ولكنها اذ تفولذ الارواح تجرحها فى الوقت ذاته. فيعيش الأنسان ويواصل القتال بروح متفولذة وجريحة فى وقت معا. وتلكما صفحتان من قطعة نقد واحدة، لا مفر من ذلك باية حال. وحتى ذكريات صباح اليوم، حيث يركض الالمان امام الدبابة ويتلفتون الى الوراء ليروا ما اذا كان الموت قريبا او بعيدا خلف ظهورهم، حتى هذه الذكريات تجرح الروح عندما تفولذها. ذلك لان هذا الوجه البشرى الذى يبرز للحظة امام الدبابة ويصيح بصراخ صامت: «لا تقتلنى!.. انا خائف!..» ثم يختفى بلمح البصر انما يظل مع ذلك منطبعا فى الذاكرة لا يفارقها. وقد ظل منطبعا فى الذاكرة وغدا جزءا من مشاعر النصر التى عاشها كليموفيتش بكل جوارحه. يخيل للانسان احيانا ان الحرب لا تترك فيه آثارا لا تمحى، ولكنه اذا كان انسانا حقا فان ذلك يخيل لا اكثر...

ولذلك السبب، فى اغلب الظن، تطلعت الطبيبة العسكرية الشابة ذات المحيا الطيب وغير الجميل فى وجه كليموفيتش، وهى تتلقى من يدى الممرضة الضماد الجبسى الجاهز، وادارت يده بحذر وسألته فجأة بمشاطرة وبغير مناسبة:

— اين عائلتك، ايها الرفيق المقدم؟ هل هى بعيدة؟

— بعيدة. — ارتعش كليموفيتش من المفاجأة واحتمى باول كلمة وردت على لسانه من هذا التدخل غير المرغوب فيه فى فؤاده الذى لم تلتئم جراحه.

ولكى لا يفكر بما لا يريد التفكير به الآن أخذ يفكر بشيء آخر: كيف حال سائق دبابته الجديد الذى أخذه معه الى الكتيبة الصحية ليضمدوا رأسه المتقيح بعد الحروق.

— لا يمكن التفريق بين صرير الثلج وصرير الزجاج — قال كليموفيتش وهو يغادر الكتيبة الصحية ويضيق جفونه من الضوء ويدوس بجزمته اللبادية على الزجاج المحطم الذى يغطى الشارع كله.

خرج يرتدى معطفه القصير بردن واحد وبازرار مشدودة فوق يده المضمدة. وكان ينتظره فى الشارع الكابتن ايفانوف الذى صار من جديد، بعد اعادة

تشكيل اللواء، مساعدا لشؤون المؤخرة . وكان كليموفيتش الذى يعرف قيمة الانسان الامين فى هذا المنصب قد اقنعه بالموافقة على تسلمه استنادا الى صداقتهما القديمة اثناء معركة خالخين - غول . واستنادا الى تلك الرفقة القديمة حمل ايفانوف كليموفيتش على اجراء التضميد وتفقد المدينة فى الوقت ذاته فرافقه من الخط الامامى الى هنا بسيارته «الجيب» .

– على هذه الصورة ربما لن تتمكن من دخول الدبابة، ايها الرفيق المقدم!

– لا بأس، سأدخلها . وانت كيف حالك؟ – سأل كليموفيتش زولوتاريف الذى انتقل الى دبابته صباح امس بعد اصابته .

– على ما يرام، ايها الرفيق المقدم، ولكنهم حلقوا نصف رأسى .

كان رأس زولوتاريف مضمدا بعصابة كبيرة حتى ان خوذته لا تكاد تستقر على قمة رأسه .

– فلنذهب الى اهلنا - قال كليموفيتش وهو يقصد لواءه .

– فلنعرج فى البداية على قائد الفرقة! – قال ايفانوف .

– ما الداعى لذلك؟

– اريد ان آخذ بعضا من هذا! – وقام ايفانوف بحركة احتوائية معبرة بيده، مشيرا الى السيارات المتكدسة فى الشارع – ولكنى اخشى ان يضع المشاة ايديهم عليها . فلنعرج على القائد للحظة!

– لم نكد نحصل على الغنائم الاولى حتى بدأت المتاجرة بها! – قال كليموفيتش ممتعضا، ولكنه يدرك ان ايفانوف مهتم بمصالح اللواء، ولذا لم يعترض عليه .

أوضح ايفانوف الجالس فى الخلف لسائق السيارة باى اتجاه يسير واين يستدير، ولفت انظار قائد اللواء فى الوقت ذاته الى الغنائم .

– انظر، هذا هو اللاسلكى الميدانى لفوج الدبابات الالمانى وهذه عربة التصليح الفورى – اشار الى سيارة رفع اثنان من جنود الدبابات غطاء مقدمتها وراحا ينبشان فى داخلها .

– هل هى غنائمك؟ – سأله كليموفيتش .

– بالطبع . فغنائم من اذا قلنا الحق؟ أليست غنائمنا؟

– يا للأسف! – تنهد كليموفيتش بأسى عندما اقتربوا من مقر اركان الفرقة – لم لم تبدأ الحرب بمثل هذه المشاهد . . .

اوقف السائق السيارة قرب منزل عند الطرف . وقد مد اليه سلك الاتصال، وامام الباب وقفت سيارة «جيب» مطلية بدهان ابيض .

بهذه السيارة البيضاء عاد سربيلين قبل خمس دقائق الى مقر الاركان . أخذ يجوب الغرفة الواطئة المزينة بنبتات الفيكوس جيئة وذهابا فتتراقص اذيال معطفه القصير وهو يسير ويتكلم بانفعال مع رتيشيف الجالس عند الطاولة عن حماس المقاتلين . كان الحماس شديدا يوم امس ايضا، ولكنه اشتد اليوم خصوصا بعد تحرير المدينة .

– حالما اجتازوا المدينة ورأوها اجتاحهم المرح! المعركة تنتظرهم، وهم يعلمون ان البعض منهم لن يبقى على قيد الحياة غدا، ومع ذلك يسيرون مسرورين! اقول صراحة باننى فى الصباح كنت اخشى من اننا سنضطر الى دفع الفوجين من المدينة لانهما قد يكتفيان راضيين بما حققاه . ولكنهما حرراها وواصلا زحفهما! هل تعلم الى اين وصل دوبروديدوف؟

– فى الساعة الثانية بعد الظهر كان فى زاروبينو – قال رتيشيف – الاتصال غير موجود بعد، ويجرى مد الاسلاك الى هناك!

– ولن تصلوا اليه قريبا . فهو الآن هناك! – واشار سربيلين الى نقطة على الخارطة تبعد زهاء اربعة كيلومترات عن زاروبينو - لقد عدت من هناك الآن!

زار كلا الفوجين اللذين حررا المدينة فى الليل، وعرج للحظة على مقر الاركان، وهو يريد الآن الذهاب الى فوج باغلوك الذى التف حول المدينة من اليمين .

سربيلين المطلع على الموقف عموما يدرك بان الفضل فى تحرير المدينة بهذه السرعة يعود الى رجال الدبابات والى الجيران من اليسار، فقد ارغموا الالمان على الانسحاب المتسارع . ومع ذلك دخل المدينة فوجاه هو سربيلين، واذا طالبناه الآن، فى معمعان الهجوم، بان يفكر بافضال الجيران اكثر مما يفكر بانتصارات فرقته فاننا نطالب بالكثير . لقد عمل بشكل محموم عشية الهجوم، وهو الآن، اذ يجنى الثمار الاولى، انما يشعر بالافتخار بان فرقته بالذات حررت واحدة من اولى المدن فى ضواحى موسكو . زد على ذلك ان الخسائر خلال اليوم الاول كانت اقل مما يتوقع . الامر الذى افرحه اشد الفرح .

– ايها الرفيق الجنرال اسمح لى بان اقدم نفسى: العقيد كليموفيتش قائد لواء الدبابات السابع عشر .

التفت سربيلين فلمعت اسنانه الفولاذية وشد على يد كليموفيتش .

– هل حصلت على رتبة العقيد من زمان؟

– قبل شهر . عندما سألتنى قرب مبنى التلغراف قبيل العرض العسكرى كان الامر بترقيتى قد صدر ولكننى لم اكن ادرى .

– سمعت ان رجال دبابات العقيد كليموفيتش يتعاونون مع القوات المجاورة . – قال سربيلين بنفس اللهجة المرحة – رجال الدبابات عندنا لا يزالون قليلين مع الاسف . ففكرت بان من المستبعد ان يوجد فى لوائين للدبابات بضواحى موسكو قائدان لقب كل منهما كليموفيتش!

– اما انا، وبصراحة، فلم اكن اتوقع ان اصادفك هنا، ايها الرفيق الجنرال . – قال كليموفيتش – ظننت باني سأرى اورلوف . ففى بداية نوفمبر تعاونت معه ...

– اجل – قال سربيلين وانطفأت الابتسامة على وجهه بلمح البصر حتى لكأنها لم تكن . – عاش الجنرال اورلوف يحلم بقيادة فرقته فى الهجوم اكثر مما يحلم بالآخرة . ولكن العمر لم يطل به . وبدلا من اورلوف يقود سربيلين الهجوم . فى الحرب تصادف مثل هذه الحالات المؤسفة . ولا احد معصوم منها .

تنهد وفكر بأنه ينبغى ان يجد وقتا فى الليل ليكتب ولو رسالة قصيرة الى ارملة اورلوف ويقول لها ان الفرقة تصون تقاليد زوجها وتثأر له فتهاجم الفاشيين وتطاردهم .

ولكنه سأل عن شيء آخر تماما، سأل عما اذا كان كليموفيتش قد حصل على أمر للتعاون فى العمليات مع فرقتهم الحادية والثلاثين ام لا .

فقال كليموفيتش انه لا يزال تحت امرة قيادة القوات المجاورة من اليسار وانه جاء الى هنا من اجل التضميد فى الكتيبة الصحية وقرر القاء نظرة على المدينة .

– اننى اقاتل من زمان، ولكننى لم ار مدينة محررة من الالمان ما عدا يلنيا!

– اجل، قال سربيلين – المدينة الاولى، المدينة المحررة الاولى، يا للدهشة! ... حالفك الحظ فى يلنيا على الاقل، اما انا فهذه هى المدينة الاولى التى احررها بعد ستة اشهر من الحرب! ولم اتمكن من تحريرها الا بمساعدتك وبعون الله .

ورغم نبل هذه الكلمات فلم يتمكن من اخفاء امارات الفرحة والاعتزاز بالنفس . ومهما يكن من شيء فان فرقته بالذات هى التى حررت المدينة .

– الا نشرب شايا بوصفنا جيرانا؟ ام ان رجال الدبابات لا يشربون الشاى؟

رفض كليموفيتش شاكرا . فهو مشغول البال بلوائه . صحيح ان المفوض ورئيس الاركان بقيا هناك وانه اصدر كل الاوامر اللازمة، ويجرى حاليا تزويد الدبابات بالوقود قبيل العملية الليلية، ومع ذلك فهو لا يشعر بالاطمئنان .

– شكرا، ايها الرفيق الجنرال . ساذهب . ولكن عندى رجاء اليك . فما دمت تعترف بمساهمتنا فى نجاحكم فسيبقى هنا مساعدى لشؤون المؤخرة وهو يريد ان يأخذ شيئا من الغنائم وخصوصا وسائط النقل ... فلا تقهر اليتيم . – قال هذه الكلمات واومأ الى ايفانوف الواقف فى حالة استعداد . فابتسم سربيلين لعدم تناسب كلمتى «اليتيم» مع مظهر المساعد الواثق من نفسه .

– وهل يمكن قهر يتيمكم هذا؟.. ماذا تعتقد؟ – سأل سربيلين مودعا – انت اعرف فقد وصلت امس الى مؤخرتهم . هل كانوا يتوقعون هجومنا ام لا؟ فبعض الاسرى عندى يقولون انهم لم يتوقعوا الهجوم، والبعض الاخر يقولون انهم سمعوا بانباء الانسحاب المرتقب .

فكر كليموفيتش متأملا وقال بانه يتصور ان بعض الوحدات الالمانية تسلمت امرا بالانسحاب والبعض الاخر لم يتسلم مثل هذا الامر . وعلى العموم فالامور مشوشة .

– ربما هى مشوشة فعلا . – وافقه سربيلين – ولكن اعتقد باننا لو اجلنا الهجوم اسبوعا دون ان نختار اللحظة المناسبة لاضطررنا الى مواجهة انسحاب منظم . فلدى شعور باننا اخترنا اللحظة المناسبة! – هتف سربيلين بارتياح وتنفس بعمق .

كانا، وهما مسروران لما حدث، يفكران بالشيء ذاته : فقد دمر جزء من المقاومة الالمانية، ولكن لا احد يعلم ماذا سيواجههم غدا . فودعا بعضهما البعض وقد قرأ كل منهما هذه الفكرة القلقة فى نظرات الاخر .

بعد انصراف كليموفيتش قال سربيلين مخاطبا رتيشيف الذى استمر على عمله صامتا اثناء الحديث بينهما :

– عندما خرجت من الحصار وصلت الى لوائه مباشرة .

هز رتيشيف رأسه . فهو على العموم يعمل كثيرا ويتكلم قليلا، وكأنه يريد ان يقول بصمته لسربيلين : «لا شأن لك بما يدور فى نفسى . اما عملى فيمكنك ان تحكم عليه : فانا اعمل امام انظارك» .

هذه العلاقات لا تسر سربيلين ولكنه راض عنها، ثم انه لم يكن لديه الوقت الكافى للتفكير فيها .

طرح عدة اسئلة على رتيشيف مما يطرحه قائد الفرقة عادة على رئيس اركانه بعد ان يقضى الصباح فى المقدمة، فى افواجه : ما هى اخبار القوات المجاورة من اليمين واليسار؟ كيف تصل الذخيرة؟ كيف تتقدم المؤخرة؟

وهل تلقيتم من القيادة الاعلى؟

احوال الجيش المجاور من اليسار جيدة . اما جيش اليمين فقد تخلف . شكل الالمان هناك نتوءا يكاد يتحول الى اختراق . ومن القيادة الاعلى تلفن رئيس اركان الجيش مستفسرا عن الموقف . وبما انه لم يقدم اى لوم، ولم يضرب امثلة على انجازات الاخرين، يفهم من ذلك انه لا يوجد من يصلح الان للمقارنة معهم . فان اكبر النجاحات التى تحققت امس واليوم هى من نصيبهم .

بعد ان سمع سربيلين هذه المعلومات جلس يحتسى الشاى على عجل دون ان يخلع معطفه .

– عجيب ! – دوى صوت حاد ساخر عند العتبة – لا يزال امامنا تحرير نصف روسيا من الالمان اما قائد الفرقة فقد جلس يشرب الشاى بعد ان رسم نقطة محررة واحدة لا غير على الخارطة !

ظهر على العتبة قائد الجيش . ورغم الصقيع الشديد كان يرتدى لباسه العسكرى المعتاد : جزمة جلدية ومعطفا طويلا وقبعة الجنرالات . وكان وجهه قرمزيا من شدة البرد، وغاضبا، كما خيل لسربيلين .

– اخبرونا بالموقف ! – قال القائد والقى بمعطفه وقبعته الى مرافقه على عجل وخطا نحو الطاولة .

انحنى سربيلين على الخارطة جنب القائد واخبره بالموقف ودقق بالقلم الرصاص زحف فوجيه فى الجناح الايسر . اما رتيشيف المتحذلق فقد اشار الى الزحف الاخير بخطين منقطين قبل ان يتسلم تقارير تحريرية من قائدى الفوجين .

– ماذا؟ هل تقدمتم حتى هذين المكانين اللذين تشير اليهما؟ – سأل القائد متشككا عندما رأى سربيلين يرسم على الخارطة خطين سميكين احمرين فوق الخطين المنقطين . فقد خيل اليه ان سربيلين يستعجل الامور، بحضوره ويصور امانيه على انها هى الواقع . – هل تقدمتم فعلا الى هناك ام تتصورون انكم تقدمتم؟

– تقدمنا فعلا – قال سربيلين .

– شىء يصعب تصديقه .

– اما انا فقد تعودت على تصديق ما تراه عيناى ! – قال سربيلين بلهجة صارمة مدركا اهمية هذه اللحظة بالنسبة لعلاقاتهما المرتقبة . واضاف : اتصور اننا تقدمنا الان الى هنا، والى هنا ... – ورسم خطين منقطين – اما هذان المكانان – واشار بالقلم الرصاص الى الخطين الاحمرين السميكين

– فقد زرتهما بنفسى – تطلع الى ساعته وحدد بالدقائق الوقت الذى زار فيه المكان الاول والمكان الثانى .

اعتاد القائد دائما على الكلام مع مرؤوسيه بنفس اللهجة الشديدة الباردة التى بدأ بها كلامه مع سربيلين . وكان يجيد لوم الاخرين عندما لا يرضى عنهم، وهو لا يعترف لهم بحق الزعل اذا كانت الملامة شكلية واذا كان تقصيرهم فعليا . الا ان طباعه تتميز بوجود حد متقد يفصل بين التسلط والتعسف . وهو يعترف بالرد اذا كان وجيها، وها هو الان يصطدم بمثل هذا الرد .

– هكذا اذن – قال دون ان يغير لهجته الخشنة – الموقف هنا واضح . ولكن كيف الوضع الى اليمين عند باغلوك؟

– سوف اتوجه الان الى باغلوك – قال سربيلين وخاطب رتيشيف : اخبر القائد عن كيفية تقدم باغلوك .

استمع القائد الى توضيحات رتيشيف ثم جلس مكلما سربيلين :

– هل ستسقينى؟ اريد ان اشرب الشاى معك كيلا تشعر بالخجل لانك تشرب لوحدك .

وانطبعت على شفتيه ابتسامة مبتسرة اراد لها ان تبين بانه يمزح .

وعندما احتسى القائد الجرعة الاولى من الشاى سأله سربيلين :

– اسمح لى ان اسأل، ايها الرفيق القائد، كيف الحال فى الفرق الاخرى؟

تطلع اليه القائد بنظرة شزراء . ولو كانت امور سربيلين سيئة لاجابه على نحو آخر . ولكن الامور عند سربيلين جيدة فاجابه القائد بود :

– لا بأس . نتمنى ان تكون افضل . مهارة الضباط اوطأ من مستوى معنويات القوات . فهم لم يتعودوا، لم يتعودوا على الهجوم ! – كرر القائد غاضبا – ونضطر الى دفع بعضهم بشدة حتى توجعنا ايدينا .

رفع كلتا يديه واوضح بالاشارات كيف يضطر الى ان يدفع فى الخلف اولئك الذين لا يتحركون بالسرعة المطلوبة . ففى الاماكن التى تسنى للقوات التقدم فيها بدون مقاومة كبيرة كانت تلك القوات تتوقف بسبب القلق على جناحيها . وفى الاماكن التى تواجه القوات فيها تحصينات دفاعية قوية تقوم بتكرار الهجمات المستميتة ولكنها تتردد فى القيام بالتفافات عميقة وذلك ايضا بسبب قلقها على جناحيها .

اما فرقة سربيلين فقد زحفت اليوم على نحو اسرع وشغلت بال القائد اقل من سائر الفرق الاخرى ، فعزم على الذهاب فى البداية الى الفرقة

المجاورة ولكنه لم يقاوم رغبته الشديدة فى القاء نظرة خاطفة على الاقل على اول مدينة يحررها جيشه . ولذا ذهب الى سربيلين .

– دفعتهم حتى تعبت – افصح القائد عما يفكر فيه بالصراحة التى لا يقوى عليها فى الغالب الا الاشخاص الواثقون من انفسهم – وبعد ذلك رغبت فى القاء نظرة على الغنائم لكى تهدأ روحى قليلا ! الغنائم كثيرة وتستحق ان نقدم تقريرا عنها .

احتسى قدحه ونهض فسأل من سربيلين :

– انت ذاهب الى باغلوك ، اليس كذلك ؟

– بلى !

– اذن اسمع ما ساقوله لك فى الاخير . سادفع جاركم دافيدوف الى الامام حتى ولو تركت يداى كدمات على ظهره . ولكنك انت لا تتحجج بتخلفه ! كلف باغلوك بان يصل حتى حلول الظلام الى هذا المكان ! – اشار القائد على الخارطة الى محطة سكة حديد فوسكريسينسكويه الواقعة على مسافة اثنى عشر كيلومترا عن المكان الذى هم فيه الان – يجب ان يكون هناك فى الليل . يحرر المنطقة خلال الليل ويواصل زحفه ! وفى الصباح انقل الى هناك مركز قيادتك ، والافضل ان تنقل هيئة الاركان كلها !

القى القائد نظرة خاطفة على رتيشيف اثناء هذا الكلام واومأ برأسه ايماءة خفيفة تجاه المرافق بالمعطف .

رن جرس التلفون فرفع رتيشيف السماعة وقال ان هيئة اركان الجيش تتكلم .

– اخبرهم بانى ذهبت الى دافيدوف . فليتلفنوا الى هناك بعد ساعة . – قال القائد وخرج على عجل بصحبة سربيلين .

وانكمش فى المدخل من شدة البرد ، فلم يتحمل سربيلين وقال له ان معطف الفرو القصير ادفأ من المعطف العادى الطويل .

– لم اتعود على غير ذلك – قال القائد واضاف وهو يتطلع الى جزمة سربيلين اللبادية ومعطفه القصير – لا تعتبر ذلك تلميحا لك . واذا وصلت بجزمتك اللبادية الى المحطة ساكون ممتنا لك ، واذا تراوح فى مكانك بجزمة جلدية فلن تنقذنا الجزمات الجلدية .

وابتسم عندما تذكر الشخص الذى لا يمكن ان تنقذه الجزمة الجلدية . تذكر العقيد الانيق دافيدوف قائد الفرقة المجاورة . وكرر باصرار من جديد ان من اللازم تحرير المحطة هذه الليلة ، واستقل سيارته قبل سربيلين بدقيقة .

– اخشى ان يضطر الجميع فى المساء ، بغض النظر عن الفوارق فى المراتب ، الى المشى سيرا على الاقدام – قال سربيلين بعد ان جلس قرب السائق واومأ عبر النافذة الى ندف الثلج المتطايرة فى الزوبعة .

فوج باغلوك الذى توجه اليه سربيلين يهاجم الى يمين المدينة التى تم تحريرها ليلة البارحة .

وقد اسف المسؤولون فى الفوج لموقعهم هذا وراحوا يحسدون جيرانهم . وعلى العموم لم يكن هناك وقت لا للاسف ولا للحسد . خلال اليوم الاول حرر الفوج ست قرى ، اما اليوم فقد حرر خمس قرى اخرى منذ الصباح . ولكن اذا كانت كلمة «حرر» قريبة من الحقيقة بالامس ، فان جميع القرى التى شغلها الفوج اليوم قد احرقها الالمان عن آخرها تقريبا . فقد بدأوا بحرق القرى منذ المساء . وطوال الليل كان الفوج يرى فى الافق امامه السنة الحريق فى عدة اماكن دفعة واحدة .

فى اليوم الاول كانت كتيبة ريابتشيكو هى حربة الاختراق ، ولكنها واجهت على مفترق الطرق منذ صباح اليوم قرية صغيرة اسمها ماتشيخا لم يكن الالمان يريدون تسليمها باى حال . وقبل ان تتمكن الكتيبة من استعادة ما تبقى من رماد القرية فقدت طوال خمس ساعات من المعركة اربعين شخصا بين قتيل وجريح .

وها هو ريابتشيكو يسرع بسرية واحدة للحاق بالكتائب التى تقدمت الى الامام . اما مالينين فراح يوصل السرايا المتبقية التى امتدت على الطريق الغائص فى الثلوج . وهناك قرية اخرى فى الامام تم تحريرها ، كما يقال ، وقد احرقها الالمان قبل ذلك . وكان دخان حريقها يذكر المحاربين بضرورة الاستعجال .

– الدخان فى كل مكان – قال سينتسوف وقد توازى مع كاراولوف الذى يسير امامه على الطريق .

الاقدام تغوص فى الثلج ، والريح تصفع الوجه ، فتعين على سينتسوف ان يبذل جهدا كبيرا للحاق بكاراولوف .

– ماذا تقول ؟ – سأل كاراولوف لانه لم يسمع شيئا .

– اقول الدخان فى كل مكان .

هز كاراولوف رأسه ومسح بردنه الثلج الذى التصق بحاجبيه وشاربيه . وقال دون ان يلتفت :

– اننى اسير واعد طوال الوقت . فى الصباح رأيت خمسة حرائق ، والان

بلغ عددها ثمانية انهم يحرقون اكثر فاكثر. ثمانية! بالاضافة الى القرية التي دخلناها الان، ما اسمها؟.

– ماتشيخا – قال سينتسوف.

– بالفعل. تسعة حرائق اذن. كانت هناك قرية اسمها ماتشيخا، وهي غير موجودة الان. كان يعيش فيها بشر... لا ادرى بماذا يفكر الفاشيون؟ هل يريدون ان لا يبقى لنا موضع نضع فيه رؤوسنا؟ سوف ننام على الثلج، ولكننا سنصل اليهم من كل بد! وما داموا وحوشا الى هذا الحد فاني اريد، لو كان ذلك بمقدوري، ان اصدر امرا الى الجيش: طالما انهم يحرقون كل شيء في كل مكان فلا يجوز اخذهم اسرى في اى مكان. كل من احرق منزلا يتلقى رصاصة في الجبين! ما هو رأيك؟

رأى سينتسوف مثل رأى كاراولوف تماما. ثم ان كاراولوف نفسه اصدر امرا في قرية ماتشيخا التي احرقت عن آخرها بتطبيق هذا القرار على محرقيها الذين تم القبض عليهم. ولكنه، كشخص متعود على النظام، كان يريد لما فعله في السابق وما ينوى فعله في المستقبل ان يتحقق ليس بسبب غضبه وحده، بل تنفيذا للاوامر.

– من الذي قتل الضابط هناك، قرب الاصطبل؟ – سأل كاراولوف.

– كوماروف.

– في البداية ذهبت انت ومفرزتك ولم نسمع من جانبكم شيئا، ما عدا بنادقهم الرشاشة. وظننت انهم قتلوكم. وفيما بعد انفجرت قنبلة يدوية فلم يعودوا يطلقون النار!

– كوماروف هو الذي القى القنبلة اليدوية – كرر سينتسوف.

– هكذا اذن – قال كاراولوف – ظننت انهم ابادوا مفرزتكم كلها.

تضم مفرزة سينتسوف الان شخصين فقط: سينتسوف وكوماروف الا انها ظلت بالنسبة لكاراولوف مفرزة مهما كان عدد افرادها حاليا...

– وها هي جثة اخرى – قال كاراولوف وقد توقف عند جثة الماني ملقاة على الطريق وملفعة بالثلج لحد النصف.

الالماني القتيل منبطح على ظهره وقد غطا رأسه بيده والتوت احدى رجليه تحته وامتدت الاخرى على الطريق.

ركل كاراولوف هذه الرجل بمقدمة جزمته اللبادية فتحركت قليلا ثم عادت الى وضعيتها الاولى. فقال كاراولوف:

– الاموات في الشتاء غير ما في الصيف. فهم في بعض الاحيان

يشبهون الدمى ولا يشبهون البشر!

سار كاراولوف الان في الامام وورواءه سينتسوف الذي يرى ظهر كاراولوف العريض ويسمع انفاس كوماروف الثقيلة خلفه. قبيل الهجوم شعر كوماروف بوعكة. آلمه صدره وانتابه السعال، فربما اصيب بالبرد عندما اشترك في سحب ليونيدوف. وها هو الان يسير متوعكا بدون راحة ولا نوم منذ يومين. انه يسير ولا يشتكي، غير ان السعال الشديد يستولى عليه بين حين وآخر.

ليونيدوف نائم الان في المستشفى، ربما في موسكو او ابعد منها. انه نائم هناك على الشراشف تحت البطانية – فكر سينتسوف بحسد شديد عابر لليونيدوف النائم على الشراشف تحت البطانية بقدم مبتورة المشط.

تمنى لو يصاب بجرح غير ثخين مثل ليونيدوف، بل مثل بايوكوف الذي عثر عليه مالينين مع ذلك ووفى بالوعد الذي قطعه على نفسه. بعث بايوكوف رسالة يشكره فيها على اشعاره بالوسام وقال انه بدأ يتماثل للشفاء. حبذا لو رقد هو، سينتسوف، ايضا على الشراشف في المستشفى واخذ يتماثل للشفاء مثل بايوكوف...

طرد من ذهنه بصعوبة كبيرة هذه الفكرة التي تراود الناس في الحرب اكثر بكثير مما يعترفون به. وساعده في طرد هذه الفكرة ليس شعوره بانها جبانة شائنة، بل تذكره المشهد الذي صفع ذاكرته فجأة، مشهد الجثث الاربع التي انزلوها من المشانق قبل ساعة في قرية ماتشيخا نفسها.

احدى الجثث انثى. قص سينتسوف الحبل الملون المفتول من اربعة اسلاك تلفونية المانية والذي شنقت به هذه الفتاة.

قص سينتسوف السلك المفتول بالسكين وتلقف الجثة بيديه ووضعها على الثلج. الفتاة في معطف صوفي اسود خشن مفتوح عند الصدر، ومن تحته لاح بلوز من التريكو. واحدى ساقيها في جزمة لبادية عتيقة مقصوصة من الاعلى بغير عناية وذات نعل مخاط اليها من الاسفل والساق الاخرى في جورب بدون جزمة، وعلى الجورب عند الركبة فتق عريض بدا منه بدنها الابيض الجامد. انغرز السلك المفتول عميقا في رقبتها الطويلة البيضاء وتدلى رأسها الى الجانب، وقد انطبع على وجهها تعبير يقول: «ماذا تريدون مني؟ اتركوني لحالي!»

كان المشنوقون متدلين من زمان. وعندما انزلوهم كانوا متجمدين متكلسين كالفرفوري الابيض، حتى يخيل للمرء بان اجزاء من الوجوه او الايدي ستتحطم وتنفصل عن الابدان اذا نقلت بدون حذر او اذا ارتطمت بشيء ما. وتذكر

سيتسوف مرارا وتكرارا بكل التفاصيل: كيف انزل هذه الفتاة من المشنقة، فراح يفكر بماشا بشعور يكاد يشبه الرعب والفزع. وربما لان تلك الفتاة كانت ترتدي الجزمة اللبادية بقدم واحدة وقدمها الاخرى في جورب ممزق فقد تذكر مرة كيف حمل الطبيبة الصغيرة من زمان، وعندما تذكر الطبيبة فكر بماشا مرتبيا ايضا. فاين هي الان؟ هل هي على قيد الحياة؟ وخيل اليه الان، بعد كل ما عاناه منذ ذلك الحين، ان كل تلك الكلمات التي قالها لها متلعثما بسبب الخوف عليها في الدقائق الاخيرة للقائهما الاخير، انما هي كلمات سخيفة لا معنى لها. وهل ذلك هو اللقاء الاخير حقا ام ليس الاخير؟ انه لا يعرف ذلك، شأنه شان ملايين الناس الذين افترقوا عن ملايين الناس الاخرين.

— كيف الحال؟ — قطع حبل افكاره الحزينة مالينين الذي سار على الطريق مع صف من الكتيبة واوصل طرف الصف الى مسافة قريبة من المقدمة — كيف تسير الحرب؟

— الحرب تسير بشكل لا بأس به ايها الرفيق المرشد الاقدم — قال سينتسوف والتفت الى مالينين سائرا. — والشيء المؤسف ان الوقت لا يكفينا — واومأ الى الامام، الى الدخان.

حجبت غشاوة من العواصف الثلجية اعمدة الدخان الاخرى التي كانت قبل قليل مرتفعة الى عنان السماء كايدي المصيبة السوداء على طول الافق. اما عمود الدخان الاسود القريب فلا يزال مرئيا في الامام.

— هل ستبقى الامور على هذا الحال؟ — سأل سينتسوف عندما مر به مالينين.

— انها تتوقف علينا — اجابه مالينين.

لم يكن من هواة الصيغ الجاهزة. ولكن بماذا يمكنه ان يجيب على هذا السؤال؟ حقا، انها تتوقف علينا. فعلى من يمكن ان تتوقف؟ وكان الامر كذلك بالذات، في آخر المطاف، مع انه خيل اليه انه لا يتوقف لا على كاراولوف وسينتسوف ولا على مالينين وريابتشينكو ولا على المقاتلين الاخرين الذين بذلوا قصارى جهدهم امس واليوم ولا يزالون يواصلون السير الى الامام باقصى سرعة ممكنة.

— عثرت على اثنين من السكان مع ذلك — قال مالينين. وادرك سينتسوف بنبرة صوته المعروفة ان مالينين يقول ذلك ليس بدون سبب وليس للمرة الاولى، بل هو يسير بسرعة على طول الرتل ويكرر هذا القول للجميع — ويقولان

ان الالمان تبادلوا اطلاق النار فيما بينهم في الليل عند الطريق العام قرب الدبابتين المهجورتين. هل رأيتهما؟

— نعم.

— كان طابورهم الميكانيكي ينسحب، ونفد البنزين فنشب عراك مع رجال الدبابات وصل الى حد تبادل اطلاق النار! ومع ذلك صبوا البنزين من الدبابات في سيارات النقل وارتحلوا. واقعة لها دلالة كبيرة، أليس كذلك؟

سأل عن ذلك من سينتسوف بوصفه مرشدا سياسيا سابقا وكأنه ينشد النصح لديه: أليست تلك واقعة ذات دلالة كبيرة لاجل الدعاية؟

تذكر سينتسوف الدبابتين الالمانيتين المتروكتين عند الطريق وتخيل بوضوح كيف تشاجر رجال الدبابات والمشاة الالمان على الثلج في الليل بسبب البنزين!..

— واقعة ذات دلالة، ولكن...

— ولكن ماذا؟ — سأله مالينين بسرعة.

— ولكن حبذا لو كان عندنا ايضا المزيد من الآليات!

— الارجل افضل في مثل هذا الطقس.

— صحيح الارجل افضل! — قال سينتسوف وهو ينقل رجليه بصعوبة في الثلج ويشعر بان كل واحدة منهما تكاد تزن عشرين كيلوغراما.

لزم سينتسوف الصمت. فقد تعب الى درجة لم يعد راغبا معها في الكلام. الا ان مالينين فهم صمته على طريقته الخاصة: «لعله متألم!».

ففي عشية الهجوم احضروا الى الكتيبة خمس هويات لعضوية الحزب وسلموها الى اصحابها، ما عدا سينتسوف. لم يجد مالينين حتى ذلك الحين فرصة للتحدث مع مفوض الفرقة بهذا الخصوص. فكر مالينين بنفسه وبان كل الناس معرضون للموت، فانتزع في الحال، في الليلة السابقة للهجوم، عشر دقائق بمنتهى الصعوبة وكتب رسالة قصيرة عن سينتسوف الى الشعبة السياسية للجيش مباشرة. كتب بكل ما يمتلك من طاقة على الخشونة عندما يكون واثقا من صواب رأيه، وقال ان اللجنة الحزبية للفرقة عبثا اجلت قرار مكتب الفوج ولم تبت، قبل الهجوم، في مسألة المصير الحزبي لانسان يمكن في اي يوم واية ساعة ان يضحي بحياته دون ان ينتظر ظهور الحق.

لم يكن راغبا الآن، في وقت سابق لاوانه، ان يخبر سينتسوف بهذه الرسالة التي ربما لم تصل الى هناك بعد، ولكنه احس برغبة في دعمه ولو بابسط الاشكال.

– لا تتصور باني نسيت . وعلى العموم لا تفكر بذلك كثيرا . فانا سافكر بدلا عنك ...

قال مالينين هذه الكلمات الخرقاء من صميم القلب، الا ان سينتسوف ابتسم ساخرا بصورة عفوية . كان يثق بمالينين، ولكنه لا يستطيع ان لا يفكر بذلك . وان مالينين، في هذا المجال، عاجز عن مساعدته . لقد فكر بذلك، فكر به مرارا بالامس واليوم، مع انه الآن بالذات، وهو يسير الى جانب مالينين، قد فكر بشيء آخر، ولم يتذكر ذلك الا في اللحظة الاخيرة .

– طالما نحن نسير طبعا ... – قال مالينين الذي تعود على عدم ذكر نهاية العبارة التي تحدد بدايتها نهايتها – وحالما نتوقف ...

– حسنا، يا مالينين! – رفع سينتسوف بصره والقى نظرة غاضبة على الدخان في الامام – انا موافق على كل شيء، بشرط ان لا نتوقف قبل ان نقطع اكبر مسافة ممكنة!

– حتى السيارة لا تسير بدون توقف، فما الداعي لهذا الكلام؟ – قال مالينين متجهما – فهل تريد ان تصل الى برلين بدون توقف؟

– الى فيازما على الاقل .

تنحنح مالينين على نحو غامض دون ان يقبل بذلك او يرفضه . ليست فيازما بعيدة جدا، ولكن ربما ليس بالامكان الوصول حتى الى فيازما بدون راحة ولا امدادات .

– افسحوا المجال! – صاح كوماروف من الخلف .

التفت مالينين وسينتسوف الى الوراء وابتعدا الى جانب فمرت قربهما زحافة باغلوك . وتطاير الثلج ثقيلا من تحت سنابك الحصان المتعب الراكض خببا . في مقدمة الزحافة جندي يحمل بندقية رشاشة ووراءه جلس قرب باغلوك جنرال يرتدي معطفا فرائيا قصيرا وجزمة لبادية .

مرت الزحافة . وخطا مالينين من جديد الى وسط الطريق وافاد، متصورا ان سينتسوف لا يزال يسير جنبه، بان قائد الفرقة الجديد هو الجالس في الزحافة . وانه قد رآه مرة في هيئة اركان الفوج قبيل الهجوم .

الا ان سينتسوف لم يعد يسير قرب مالينين، بل ظل واقفا عند الطريق، حيث تراجعا وغاصا في الثلج حتى الركبتين، وراح يتابع بنظراته الزحافة التي جلس فيها جنب باغلوك سربيلين بعينه . انه سربيلين، ولا يمكن لنظر سينتسوف ان يخطىء في ذلك!

وناداه مالينين:

– لماذا تخلفت؟

انتزع سينتسوف قدميه من الثلج وخطا نحو الطبقة الجليدية الصلبة ولحق بمالينين وسار جنبه وبعد صمت قصير سأل سينتسوف:

– هل تعرف ذلك الجالس في الزحافة؟

– نعم . قائد الفرقة الجديد .

– ما لقبه؟

انكمشت اسارير مالينين في محاولة لتذكر لقب قائد الفرقة . ولكن عبثا . كان هذا الاسم يطوف حول الذاكرة، وهو مسجل عنده في المفكرة في المحفظة، ولكنه ما كان راغبا في خلع قفازه في الصقيع .

– عندما سمعت بلقبه خيل الي انني اعرفه، ولكني نسيته فيما بعد .

– سربيلين – قال سينتسوف .

– نعم – اكد مالينين وتطلع الى سينتسوف باهتمام . فقد تذكر الآن لماذا خيل اليه انه يعرف هذا اللقب . وسأل:

– هو نفسه؟

– هو نفسه .

– يا للشيطان! كيف فوتنا الزحافة؟! انني مستعد حتى للركض وراءها – قال مالينين بعطف ومشاطرة .

فرح من اجل سينتسوف . فان وجود الشخص الذي خرج سينتسوف من الحصار تحت قيادته آنذاك في الفرقة الآن، وبمنصب قائد الفرقة، يمكن ان يسهل القضية كثيرا .

«واما انا فلن اركض!» – فكر سينتسوف على النقيض من الافكار التي كانت تخطر في باله سابقا كلما حلم بلقاء سربيلين على اعتباره امرا غير قابل للتحقيق . لقد تعود بالتدريج وبشكل غير ملحوظ على الفكرة الصعبة المستندة الى الاعتزاز بالنفس القائلة بان مصيره كله يجب ان يتقرر على نحو صائب بدون هذا اللقاء، ويجب ان يتقرر ليس بسبب ظهور شاهد على ماضيه، بل بسبب وجود اناس يعرفون كيف يقاتل هو الآن، اناس مثل مالينين وآمر الكتيبة وكاراولوف وكوماروف السائر خلفه والذي انتابه السعال الآن ...

فقد مر ذلك الزمان الذي طلب فيه الرأفة من المصير، وخيل اليه في وقت ما ان الاقدار وهبته ذلك اللقاء مع لوسين . صحيح ان ذلك اللقاء لم يكن هبة، بل ضربة من الاقدار، كما اتضح فيما بعد . ولكنه ظل يحلم

بان يتضح كل شيء دفعة واحدة، وكان يتذكر سربيلين في اغلب الاحيان بهذا الخصوص.

اما الآن فقد اراد ان يسير كل شيء على مجراه الحالي، وان يثق الذين يبتون في مسألته ليس بالجنرال سربيلين الذي كان على معرفة بالمرشد السياسي سينتسوف عندما كان هذا يمتلك هوية الحزب في جيب قميصه. انه يريد لهم ان يثقوا حتى النهاية، وحتى النقطة الاخيرة، به هو الجندي سينتسوف، ونائب العريف حاليا، مع الآلاف العديدة من امثاله الذين لم يسلموا موسكو الى الالمان، وها هم الآن يطردونهم من حيث جاءوا...

الفصل التاسع عشر

حتى المساء شغلت كتيبة ريابتشينكو الزاحفة الى الامام بدون توقف ثلاث قرى اخرى، اثنتان منها محروقتان عن آخرهما والثالثة احترقت ثلاثة ارباعها. عندما اقتربوا من هذه القرية كانت لا تزال سالمة. وبعد ذلك اندلعت النيران في اولى منازلها. وبعد ساعة احترق نصف القرية.

ارغمهم هذا المشهد الفظيع على اقتحام القرية رغم رصاص العدو والحيلولة دون احتراقها عن آخرها. فقد حدث ذلك على مرأى منهم، فبينما كان بعض الالمان يطلقون النار من الرشاشات المصوبة من فجوات محفورة في الجدران الخشبية مباشرة، كان البعض الآخر يتراكضون ويحرقون المنازل. وفي بعض الاوقات شوهدت على ضوء الحرائق اشباحهم المتراكضة من منزل لآخر. وآثار ذلك غضب المحاربين الى حد الجنون، فعندما اقتحموا القرية وجدوا في انفسهم بقية من القوى ليسحبوا الجذوع الملتهبة ويطفئوا النيران التي بدأت تندلع في بعض من المنازل. ولكنه داهمهم بعد ذلك تعب لا مثيل له. وحتى لو لم يصدر ريابتشينكو امره بالاستجمام لما تمكن اي من جنوده على القيام بخطوة واحدة.

عين ريابتشينكو افراد الحراسة وطلب من آمري السرايا ان يغلوا شايا حيثما امكن، وان يطعموا الجنود، والاهم من ذلك ان يمكنوهم من النوم باسرع صورة. وقد ارهق الكثيرون قبل ذلك فدسوا انفسهم في المنازل السليمة وهووا كالموتى عاجزين حتى عن تناول الطعام قبل النوم.

كان ريابتشينكو يخشى ان يصل بالملوك في الليل ويرسل الكتيبة لمواصلة الهجوم. كان يبتهل الى الله كيلا يحدث ذلك، ويرجو ان ينتزع المحاربون لحظات اضافية للنوم.

عبر العاصفة الثلجية لاح في الافق من اليسار لهيب حريق في محطة

فوسكريسينسكويه. وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل وصلت من جهة المحطة زحافة باغلوك ومعه قائد الفرقة. طلب باغلوك من مالينين وريابتشينكو ان يوقظا المحاربين... فان كتيبتي باغلوك الاخريين تقاتلان منذ اكثر من ثلاث ساعات لتحرير المحطة، ولكنهما لم تتمكنا من ذلك حتى الان. فالالمان يقاتلون باستماتة ويحرقون المحطة على مرأى من قواتنا.

كان المطلوب من ريابتشينكو ان ينهض بكتيبته ويبذل آخر جهد في قفزة الى الامام على مسافة سبعة كيلومترات ليقطع على الالمان طريق سحب مؤخراتهم من المحطة. فاذا قطع هذا الطريق او وصل اليه على الاقل فسوف يترك الالمان المحطة ويبدأون بالانسحاب.

على هذه الصورة طرح باغلوك المهمة. اما قائد الفرقة فقد سأل عن الوقت الذي يستغرقه ايقاظ المقاتلين واعدادهم.

قال ريابتشينكو بصراحة: «نصف ساعة». وكان يتوقع ان ينهروه على ذلك، ولكنه فضل تحمل المذلة بدلا من الكذب. فهو، على اية حال، لن يستطيع ايقاظ المقاتلين واعدادهم للاصطفاف قبل نصف ساعة والحمد لله حتى على ذلك.

اراد باغلوك ان ينهره على ما يبدو، الا ان قائد الفرقة تطلع الى ساعته وقال بهدوء:

– حسنا، بشرط ان يكون نصف الساعة نصف ساعة حقا!

وباشر ريابتشينكو ومالينين تنفية مهمتهما العسيرة. ففي مثل هذه الحالة لا يجعل المقاتلين ينهضون على اقدامهم الا حادث طارئ، كانهيار الثلوج من الجبال او الفيضان او الحريق، وكذلك، بالطبع، الحرب، التي تنطوي ببساطة، في اي يوم من ايام القتال، على هذه الكلمات التي تبدو رهيبة في زمن السلم.

بعد نصف ساعة وقفت كتيبة ريابتشينكو في صفين غير متساويين بلغ عدد افرادهما في اواخر اليوم الثاني للهجوم سبعين شخصا ونيفا.

وعلى مسافة ابعد لاح الحريق.

اصدر ريابتشينكو امره بالاستعداد فاقترب سربيلين من صفي الكتيبة. كرر على الكتيبة كلها ما قاله باغلوك لآمرها ومفوضها وقال بان امرين يتوقفان عليهم الآن، اولهما ان يبقى هناك، في المحطة، شيء ما غير الدخان والرماد ويبقى للناس – للنساء والاطفال – مأوى يلجأون اليه غدا، وثانيهما ان لا يقع رفاقهم ضحية لا تعوض قرب هذه المحطة. فمنذ اربع

ساعات وهم يهاجمونها ولا يستطيعون الاستيلاء عليها، ولكن الالمان سيهربون منها بانفسهم حالما تلتف الكتيبة على المحطة وتقطع عليهم الطريق.

وهو، قائد الفرقة، يعرف ان الكتيبة نفذت بالتمام والكمال الامر الصباحي وبذلت اليوم كل ما في وسعها، ولكنه مع ذلك يرجوهم ان يتوجهوا ليقطعوا على الفاشيين طريق الانسحاب.

– هذا هو رجائي اليكم. اكرر رجائي اليكم – بهذه الالفاظ اختتم كلمته المقتضبة. ومع ان لهجته لم تختلف كثيرا عن لهجة الاوامر، ومع انه كان بوسعه ان يقول: هذا هو امري اليكم، فقد استخدم كلمة «رجائي». اذا لم تحرك هذه الكلمة ساكنا في جميع تلك الافئدة المتعبة فقد هزت افئدة كثيرة، منها، رغم ان الكلمة تبقى كلمة ورغم لزوم ترك النوم الدافئ الذي اشتروه بثمن الدم، والسير الى الامام من جديد عبر العاصفة الثلجية والاشتباك هناك في قتال مع الالمان.

– ايها الرفيق الجنرال، الكتيبة ستنفذ المهمة التي طرحتموها! سننفذ المهمة ونخبركم قبل الفجر – قال ريابتشينكو وكأنه يريد ان يعوض بشطارته وصوته الرنان عن الصمت والوجوم اللذين خيما على الكتيبة.

اصدر امره فتحرك المقاتلون.

ظل سربيلين واقفا يتطلع الى المقاتلين وهم يسيرون امامه، وانطبع على وجهه المتعب، كوجوههم، تعبير عن الامتنان لهؤلاء الرجال وتفهم لمدى صعوبة ما يقومون به الآن. انه شخصيا مستعد للقيام بما يقومون به، ولكن ذلك لم يمنعه من تقدير تفانيهم وتضحياتهم. فهل يستبعد الحق في اصدار الاوامر امكانية الشعور بامتنان لرجال لا يبقى امامهم، بحكم الواجب، غير تنفيذ تلك الاوامر دون قيد او شرط؟ ثم انك انت، عندما تنفذ مثلهم، دون قيد او شرط، اوامر اخرى صعبة عليك، الا تنتظر احيانا امتنانا يلوح، على الاقل، في الاعين التي تتطلع اليك؟

عندما مر الرتل كله تقريبا امام سربيلين تذكر بانه رأى حالما اصطفت الكتيبة مقاتلا فارع القامة جدا في الطرف الايمن. المقاتل في الطرف الايمن يجب ان يكون طويل القامة حسب الاصول المرعية، ولذا جلب انتباه سربيلين ليس لكونه طويلا، بل لانه ذكره بشخص ما... وقد تذكر سربيلين ذلك الآن، ومؤخرة الرتل تمر قربه، ولكنه نسيه حالما توجه اليه باغلوك بالسؤال: هل تكفي فصيلة واحدة تترك هنا للحراسة؟

– لحراسة من؟ – رفع سربيلين اليه بصره – لحراستي ام لحراستك؟

– وصلتم اخيرا! – قال سربيلين متذمرا لآمر الاتصال – الوصول المتأخر افضل من عدم الوصول نهائيا! مدوا خط الاتصال الى هنا. فغدا، حسب الموقف سيكون مركز القيادة هنا اعتبارا من الظهر على ابعد تقدير! وحالما تمدون الاتصال اخبروا رتيشيف بانى سأظل قرب محطة فوسكريسينسكويه الى ان نستولى عليها. اين رتيشيف؟ هل هو فى الطريق؟

– كلا، ايها الرفيق الجنرال – اجاب آمر الاتصال متلعثما – الاركان فى الطريق، ولكن العقيد رتيشيف اصطدم بلغم.

– جرح؟ نقلوه؟ – سأل سربيلين على عجل.

– قتل فى الحال، ايها الرفيق الجنرال.

– يا للكارثة! – ضرب سربيلين متألما على معطفه المتجلد.

لازمت سربيلين منذ لقائه الاول مع رتيشيف فكرة لم يستطع ان يتخلص منها. فقد خيل اليه ان رتيشيف بعينيه الحزينتين ان يطول به العمر وانه سيقتل. قرأ ذلك فى عينيه، فتحقق هذا الفأل المنحوس، وقتل رتيشيف! ولم يطل به العمر بعد قائد فرقته الا اسبوعا واحدا...

تأسف لرتيشيف واضطرب لصواب حدسه هو، ولكنه سأل عن امر واحد فقط:

– من الذى حل محله؟ شيشكين؟

– نعم.

– انقل اليه كل ما قلت لك. اما انت يا ريباكوف – التفت سربيلين الى آمر سرية القوميندانية – فتوجه مع سريتك الى فوسكريسينسكويه! هل برد المقاتلون كثيرا؟

– بالطبع، ايها الرفيق الجنرال؟!

تحشد المقاتلون الذين اقتربوا منهم خلف ظهر آمر السرية. وهم احتياطى سربيلين الذى لم يشارك فى القتال لا امس ولا اليوم.

– تدفأوا ربع ساعة ثم توجهوا نحو فوسكريسينسكويه!

– الى اين تذهب؟ – سأل آمر سرية القوميندانية. فقد ظن انهم وصلوا الى المكان المطلوب، ولكنه يتعين عليهم ان يواصلوا السير من جديد الى الامام.

– الى اين؟ الى هناك حيث الحرائق مشتعلة والقتال يدور!

– بأى طريق؟ – سأل آمر السرية بنفس الحيرة السابقة دون ان يتمالك اعصابه بعد.

– بدون اى طريق. انظر الى الحريق هناك. فهو وجهتكم! اذهبوا اليه ولا تتأخروا. سانتظركم هناك – قال سربيلين وتوجه الى الزحافة فسمع

على مقربة منها، وراء المنزل، طلقة بندقية، ثم طلقة اخرى... لقد اعدموا الالمانيين من مفرزة الحريق.

وينبغى ان اكتب... ليس لزوجة اورلوف فقط، بل لزوجة رتيشيف ايضا، ما اسرع ما تقع المصائب... – فكر سربيلين بمرارة وعندما جلس فى الزحافة تطلع من جديد الى الامام، الى الحريق وتذكر باغلوك بقلق شديد – حبذا لو وصل الى مؤخرتهم بسرعة. فلن نحتل فوسكريسينسكويه ما لم يصل اليها.

حقا لم تتمكن قواتنا من احتلال محطة فوسكريسينسكويه. فكلما نهض مشاتنا للهجوم كان الالمان يسلطون عليهم نيران الهاونات والرشاشات ويرغمونهم على الانبطاح على الثلج، ويحرقون المنازل، خلال ذلك، الواحد تلو الآخر.

عاد سربيلين فى اللحظة التى اخفق فيها هجوم آخر فانبطح المقاتلون من جديد على الثلج امام المحطة مباشرة. ولو كانت لديهم ولو عدة مدافع لربما امكن بهذا العدد القليل من المقاتلين اقتحام المحطة واخماد نقاط الرشاشات بالنار. ولكن المدفعية لم تكن موجودة، فقد تلكأت فى الطريق، فى الزوبعة الثلجية، وليس هناك بعد ما يدل على قرب وصولها. لقد صبر مفوض الفرقة الذى ظل هنا فى غياب سربيلين مع باغلوك وقال بانه سيذهب بنفسه ويحضر بطارية واحدة الى هنا حتى ولو تطلب ذلك سحبها من خناقها! فلم يعد يتحمل رؤية الهجمات المتلاحقة تلتهم المقاتلين، بينما تلتهم النيران المحطة دون ان تعبأ بشىء.

لم يعترض سربيلين لان وجود البطارية ضرورى هنا ضرورة الحياة. حبذا لو تمكن المفوض حقا من احضار المدافع!

امتطى المفوض ظهر الجواد واختفى فى الزوبعة، فى حين امر سربيلين بوقف الهجمات. وليس معروفا ما الذى سيتحقق اولا، وصول المدفعية ام التفاف باغلوك حول المحطة؟ ولكن ليس بالامكان احتلالها بدون هذا او ذاك.

الصقيع يشتد باطراد، الا ان سربيلين لم يعبأ به. مركز قيادته المؤقت موجود الآن فى القمرة الحجرية على السكة الحديدية مباشرة على اقل من كيلومتر عن المحطة. ولكنه لم يدخله بل ظل طوال الوقت خارجه محتميا بجداره من القذائف التى يوجهها الالمان الى تلك الجهة دون ان تصل اليها. سربيلين يفكر طوال الوقت بباغلوك، وهو غاضب متوتر الاعصاب وعاجز عن عدم التطلع الى مشهد الحرائق التى تلتهم فوسكريسينسكويه. فبعد ساعة اخرى يتعين على باغلوك، حتى فى مثل هذا الطقس، ان يصل الى الطريق

العام خلف الالمان اذا لم يتوقف لسبب ما. فما الذى يمكن ان يوقفه؟ اثنان او ثلاثة من الرشاشات التى تحمى الطريق يمكن ان تفتح النار وتوقفه! بل ويمكن ان تؤخره لامد طويل! وسيضطر الى صرف ساعة او ساعتين للالتفاف عليها وتدميرها! وحتى لو وصل باغلوك فى الوقت المحدد سيتعين على سربيلين الانتظار ساعة اخرى والنظر الى هذا الحريق الهائل كما يفعل المتفرج العاجز!

تأخرت سرية القومندانية لسبب ما، فى حين اراد سربيلين ان يزج بها بالذات فى الهجوم حالما يظهر باغلوك فجأة فى مؤخرة الالمان! منح سربيلين ريباكوف ربع ساعة للاستجمام. ويشير الوقت الآن الى ان السرية يجب ان تصل. نفد صبر سربيلين فبعث بشخص للقاء السرية واستعجالها.

وصل من الجيش مكسيموف فوجد سربيلين هنا، وراء جدار قمرة السكة الحديدية، بهذه الحالة النفسية الغاضبة المنفعلة. كان مكسيموف قد ترك السيارة على بعد خمسة كيلومترات من هنا ووصل ماشيا، وقد التصق به الثلج حتى تعذر على سربيلين ان يعرفه فى الحال. ولاح شخص آخر من وراء مكسيموف.

– كيف تحارب يا سربيلين؟ – سأل مكسيموف مرحا وهو يمسح وجهه وينفض الثلج من على قبعته – متى ستدخل فوسكريسينسكويه؟ أمر قائد الجيش باستعجالك وقال ان المدة التقويمية المقررة تصرمت!

– التقاويم خاطئة! – قال سربيلين غاضبا.

كان مزاجاهما على طرفى نقيض. فان مكسيموف الذى غادر قيادة الجيش قبل ثلاث ساعات يعرف ان مقاومة الالمان اخذت تتحطم فى كل مكان تقريبا منذ الليل، وان القوات المجاورة تقدمت الى الامام بسرعة حتى تجاوزت سربيلين. ومع ان قائد الجيش قال له، وهو يودعه قبيل الرحيل، ان التقارير لا تصل من سربيلين من زمان («فلننتظر، اخشى انه تلكأ قرب فوسكريسينسكويه!») فقد ظل مكسيموف المتأثر بحالة الحماسة الشاملة واثقا من انه حالما يصل الى المحطة سيجدها محررة.

وحتى عندما اتضح الآن بانه متوهم وان فوسكريسينسكويه لا تزال غير محررة والحرائق تلتهمها، فقد خيل اليه ان النتيجة ستكون بسيطة جدا. فبعد هجمة أخرى ستحرر المحطة ولا يبقى غير الاشعار بان الفرقة الحادية والثلاثين التى بدأت هجومها بشكل جيد لا تزال متفوقة كالسابق.

اما سربيلين فعلى العكس. لم يكن يعرف ما يجرى عند القوات المجاورة. وحتى لو عرف فان ذلك ما كان بوسعه ان يخفف عليه. انه

يعرف شيئا آخر: فهو لم ينفذ الامر حتى الآن لانه تورط فى فوسكريسينسكويه اللعينة، وحاول تجاوزها من اليسار واليمين ولم يتمكن، وتورط من جديد فزج بالمقاتلين فى هجمات امامية وفقد عددا كبيرا منهم وتأخر فى ارسال الكتيبة للالتفاف العميق الذى يستدعيه الموقف. اما الآن فيتعين عليه ان يتحمل برباطة جأش وينتظر اما وصول باغلوك واما وصول المدافع، والافضل بالطبع وصوله ووصولها معا.

ومع ان سربيلين صرف النهار كله فى دفع باغلوك وقائدى الفوجين الآخرين الى الامام، فلم يعجبه وصول مكسيموف الآن لدفعه هو. ولم يخف ذلك فغضب على نفسه وعلى مكسيموف وسؤاله الاحمق: «ماذا؟ هل سيتم ذلك قريبا؟» وقال لمكسيموف:

– تحرير المناطق المأهولة ليس مثل سلق البيض، ايها الرفيق رئيس الشعبة السياسية للجيش – ثلاث دقائق والبيضة مسلوقة للنصف، خمس دقائق والبيضة مسلوقة عن آخرها! ولو كنا نطلق النار لوحدنا لحسبنا كل شيء بالدقائق... ولكن الالمان الملاعين يطلقون النار ايضا!

انفجرت قذيفة المانية فى الامام على بعد مائة متر عن القمرة وكأنها تؤكد كلمات سربيلين.

– لماذا لا تهاجمون؟ ماذا تنتظرون؟ – سأل مكسيموف بحدة. لم يشعر بالاهانة من جواب سربيلين، ولكنه يتحرق رغبة فى ان يتم تحرير فوسكريسينسكويه بمجيئه الى هنا، وهو مستعد للقيام بكل شيء حتى استنهاض المقاتلين الآن بالذات والتوجه معهم فى الهجوم!

– اقوم بالالتفاف بكتيبة واحدة – قال سربيلين الا ان افرادها تعبوا والزوبعة ثائرة، وهم يتقدمون قدر ما لديهم من قوى. انتظر الى ان تصل قواتنا الى الطريق فى مؤخرة الالمان.

– اين بيرمياكوف؟ – سأل مكسيموف عن مفوض الفرقة – هل هو فى الفوجين الآخرين؟

– كلا، هنا، وكلنا هنا... حبذا لو دخلنا فوسكريسينسويه هذه، ابنة الكلب... انها عقدة العقد. وحالما ندخلها ستسهل كل الامور على الفوجين الآخرين! المفوض ذهب لاحضار المدفعية، فقد حالت الزوبعة دون وصولها. سأخر امامه ساجدا اذا احضر لى المدافع!

– يعنى انكما تعملان بوئام، أليس كذلك؟ – سأل مكسيموف.

– كل منا يبذل قصارى جهده – اجاب سربيلين واشار بيده غاضبا الى

المحطة التي يتصاعد منها اللهيب: — السفلة فقط لا يعملون بوئام في مثل هذا الوضع، وانا واياه لسنا من السفلة والحمد لله! اذا لم يعمل الرؤساء بوئام يهلك الجنود!

— مدرسة السُكك تحترق! — صاح بصوت حزين فجأة الشخص الذى وصل مع مكسيموف وظل في البداية واقفا على مسافة ابعد، ولكنه تقدم الآن الى الامام وراح يتطلع الى الحريق من تحت يده الموضوعة على جبهته. فناداه سربيلين قائلا:

— خذ حذرك ولا تبتعد عن القمرة... فربما تصيبك قذيفة لا سمح الله!

في البداية ظن سربيلين ان مكسيموف اصطحب احد العاملين في الشعبة السياسية، ولكنه تذكر الآن ان هذا الرجل غير الحذر هو سكرتير اللجنة الحزبية للناحية. فقد تلاقيا في الصباح عرضا في المدينة التي حرروها توا. والمحطة واقعة في ناحيته ايضا، فسأله السكرتير متى يتوقع تحرير فوسكريسينسكويه؟ كان ذلك في صباح اليوم. «وهل حقا ان ذلك كان في صباح اليوم؟».

— لم اعرفك في البداية — قال سربيلين — ستغدو غنيا كما يقال!

— لا اعتقد... — اجاب السكرتير بحزن وهو يتطلع الى الحريق، ونفد صبره فخرج من جديد الى المكان المكشوف لكي ينظر بشكل افضل الى عمود جديد من اللهيب الذى اندلع توا. — احرقوا مستودعين في محطة الشحن... الثاني والرابع! — صاح بأسى من جديد.

— رجاني ان آخذه معي — قال مكسيموف — ظن انه تم... — لم يكمل عبارته وسأل من سربيلين بصوت خافت يقرب من الهمس: متى تتوقع تحرير المحطة؟

وتطلع سربيلين الى ساعته.

— انتظر باغلوك. بعد نصف ساعة يجب ان يصل الى الطريق العام... يجب ان يصل — كرر من جديد.

— انني اعرفه، فهو سيحقق كل ما يتمكن من تحقيقه! — قال مكسيموف.

— من يدري كم يستطيع المرء ان يحقق! — قال سربيلين — فلربما يحقق كل ما يتمكن من تحقيقه، وربما يستطيع شخص آخر بدله ان يحقق اكثر من ذلك وبصورة اسرع! انا، مثلا، حققت كل ما استطيع اليوم. هكذا كنت اعتقد. ولو كان شخص آخر في مكاني لربما انتهى الآن من تحرير فوسكريسينسكويه هذه!

— لا بأس، يا سربيلين، ستحررها — قال مكسيموف — امور داڤيدوف

كانت عصيبة في الصباح! ولكنه منذ ثلاث ساعات افاد بانه حرر يكاتيرينوفكا.

— صحيح؟ — قال سربيلين — عظيم!

— وتقدمت الفرقة الثالثة والعشرون بعد المائة والفرقة الثانية والتسعون ايضا... — وذكر مكسيموف النقاط التي وصلتها الفرقتان. فقال سربيلين:

— شيء رائع... رائع جدا — كرر القول ولكنه عاجز عن ان ينسى ولو لثانية واحدة محطته التي لم يحررها بعد.

— احرقوا المستودعات الاخرى — قال سكرتير اللجنة الحزبية دون ان يرفع يده عن جبهته — سيحرقون الصومعة الآن، فالنار قريبة منها.

— لماذا تنقنق — قال سربيلين دون ان يتمالك نفسه — لماذا تعذبني؟.. الم احلم بان اعيد اليكم محطتكم سالمة؟! — تفجرت في صوته اخيرا كل قوة الاسى الكامن في فؤاده.

— الحريق يتصاعد امام انظارنا — قال السكرتير متنهدا.

— امام انظارنا... — كرر سربيلين بمرارة — وانا لست اعمى!..

في تلك اللحظة ظهر وسط الزوبعة الثلجية آمر سرية القومندانية ريباكوف. ولاحت وراءه اشباح المقاتلين السائرين بشكل سلسلة.

— اسمح لي بالكلام، ايها الرفيق الجنرال...

— كان عليك ان تتكلم قبل نصف ساعة! — قال له سربيلين بخشونة — اريد ان ابدأ الهجوم، وانتم، اين انتم؟

— المقاتلون متعبون جدا ايها الرفيق الجنرال.

— اعرف ذلك.

وقف ريباكوف امامه وهو يعلم بانه مذنب وبانه اخل بالامر فسمح للمقاتلين بالاستجمام خمسا واربعين دقيقة بدلا من ربع ساعة، وكان يتصور بانهم اذا ارتاحوا سيعوضون عن هذا الوقت في الطريق. الا انهم كانوا متعبين الى درجة فلم تساعدهم فرصة الاستجمام ولم يعوضوا عنها في الطريق. وريباكوف يعلم انه مذنب، ولكنه يعلم ايضا بانه ما كان بوسعه ان يفعل غير ما فعل وكان يريد الافضل وليس الاسوأ. وهو يعلم، فضلا عن ذلك، انه مهما لامه الآن قائد الفرقة، فانه هو ريباكوف، سيتوجه بعد عشرين او ثلاثين دقيقة مع سريته للهجوم، لان الملامة مهما كانت شديدة لن تعفيه من الهجوم. ولذا ما كان بوسع ريباكوف ان يشعر بالذنب بنفس القدر الذى ربما كان سيشعر به في ملابسات اخرى. وقد ادرك سربيلين ذلك ايضا، لذا اطفأ جذوة الغضب في صدره وطلب من ريباكوف بهدوء ان يجمع

رجاله باسرع ما يمكن ويتحشد هناك استعدادا للهجوم . واشار بيده الى سطح مستودع ناتئ، من تحت الثلج فى الامام على مقربة من مركز قيادة الكتيبة .

فالقى ريباكوف على قائد الفرقة نظرة شجاعة ولاابالية بعض الشيء، نظرة انسان من المستبعد ان يقدم حسب الاوامر اكثر مما ينوى تقديمه طوع ارادته وكما يمليه عليه الضمير، وقال: «طوع امرك!» — وتوجه الى رجاله الذين ظهروا اكثر فاكثر من وراء الزوبعة .

— اسمع يا سربيلين! الا ينبغى ان تنزعها؟ — اومأ مكسيموف الى السرية الماشية قربهم فى الزوبعة — وتذهب معها ...

— انتظر، يا مكسيموف، لا تستعجل ... استعجلت انا طوال النهار، اما الآن ... فلا استعجل، رغم انكما تقفان هنا وتضايقاننى — واومأ الى سكرتير اللجنة الحزبية — ففى ايدينا اناس وليس حطبا ... ولا اريد ان القى بهم الى النار عبثا ... فلنصبر قليلا . الصبر صعب الآن، ومع ذلك فلنصبر . باغلوك يجب ان يصل الآن، انا اتوقع ذلك ... فهو ايضا يدرك قيمة الوقت بالنسبة لنا . انا مسرور لمجيئك، ولكن لا تستعجلنى، ارجوك .

فقال مكسيموف :

— اليس من الافضل ان نذهب قبل الهجوم الى الكتيبة فى الامام؟

— وهنا، ماذا ترى؟ مؤخرة الجيش؟ المسافة بيننا وبين الالمان خمسمائة متر ... هل تريد ان نقترب مائتى متر اخرى؟

— نعم .

— اذهب اذن ... اما انا فسابقى هنا . لدى هنا كتيبتان، كانهما يدان اثنتان، ويجب ان اتحكم فيهما كليهما ...

كان مكسيموف يظن ان سربيلين اما ان يذهب معه واما ان يمنعه من الذهاب لوحده . ولكن سربيلين لا يطيق ان يمنعه احد ولا يحب ان يمنع الآخرين . فاذا كان مكسيموف يريد الذهاب الى الكتيبة فليذهب اليها . ولو يستطيع سربيلين ان يشطر نفسه الى شطرين او اكثر لبقى هنا ولذهب الى كلتا كتيبتيه فى وقت واحد .

— اذهب — قال له سربيلين — ولكن لا تدفن نفسك هناك، فى الامام — اضاف سربيلين ليس لان هذه العبارة تنطوى على مغزى ما، بل لانه تذكر رتيشيف مع انه قتل اليوم ليس فى الامام، بل فى الخلف، فى المؤخرة .

— وهل ستبقى انت هنا؟ — سأل مكسيموف من سكرتير اللجنة الحزبية .

— سأذهب معك — اجاب السكرتير وعدل وضعية البندقية على كتفه . كان يحمل بندقية، ولكن سربيلين لم يلاحظها الا الآن .

— باى اتجاه تذهب؟ باتجاه ذاك المستودع؟ — سأل مكسيموف .

— سيرافقكما دليل — قال سربيلين وصاح طالبا ان يبعثوا جنديا .

ذهب مكسيموف . وبعد دقيقة وقف امام سربيلين مفوض الفرقة اللاهث والمبلل بالعرق . وراح يمسح من وجهه قطرات العرق وحبات الثلج فى وقت معا وسأل بصوت ابح حتى ان سربيلين لم يسمعه جيدا فى البداية :

— كيف الحال عندكم هنا؟

— كما كان فى السابق ... وصل ريباكوف توا . وكيف الحال عندك؟ — سأله سربيلين .

الا ان امارات السعادة المنطبعة على وجه المفوض كشفت عن الحال عنده . فقد سحب المدافع . واذا نظرنا الى مظهره ادركنا بانه سحبها بالمعنى الحرفى للكلمة . يبدو انه شارك مع الآخرين فى انتشالها من الثلوج .

— مع الاسف انها ثلاثة وليس اربعة — قال المفوض — يجرى الآن نصبها فى المواقع هناك، الى اليسار — واشار بيده الى تلك الجهة — وعد المدفعيون بان يفتحوا النار بعد عشر دقائق ... انحدر مدفع الى المنخفض ولم يستطيعوا رفعه ... تعبوا وتعذبوا ...

— لا بأس، سنرفعه فيما بعد . شكرا على المدافع الثلاثة — قال سربيلين وغرز وجهه فى وجه هذا الرجل الكهل المتعب وقبله بامتنان .

وفجأة تهادى ما كان ينتظره سربيلين من بعيد، من وراء المحطة، من وراء اضواء الحريق المخيمة فوقها، من المكان الذى ينبغى ان يصل اليه باغلوك وريابتشينكو . تهادت اصوات القتال بعيدة ضعيفة، ولكنها اصوات مسموعة مع ذلك .

— باغلوك! — تلفظ سربيلين هذا الاسم وتنهد بعمق وكأن ثقلا هائلا لا يطاق ازيح عن كاهله .

رقد مالينين على كومة من القش المتجمد الذى بدأ يذوب على الارضية الترابية فى كوخ خشبى . والى جانبه رقد وجلس عدد من الجرحى الآخرين . يتصاعد الدخان فى الفرن من حطبة كبيرة تحترق وتطقطق . لم

يصادف ان اخذ احد منهم فأسا معه فاضطروا الى ادخال طرف الحطبة الكبيرة في الفرن وراحوا يدفعونها الى الامام بين الفينة والفينة.

رقد مالينين واخذ يتسمع الى ما في داخله، الى الالم الحاد كالسكين في بطنه الذي اخترقته رصاصة، والى اصوات القتال وراء جدار الكوخ. كان القتال يتأجج تارة ويخفت تارة اخرى منتقلا بالتدريج نحو اليمين، الى مؤخرة الألمان. وتشير كل الدلائل الى اننا حررنا المحطة وان الألمان ينسحبون مبتعدين. الفضل في انسحاب الالمان يعود الى كتيبتهما، هو مالينين وريابتشينكو، لان الكتيبة وصلت الى الطريق العام قرب هذا الكوخ الخشبي المهجور الذي غطاه الثلج، وسددت الضربة الى المؤخرات الالمانية الممتدة من المحطة. بدأوا من ذلك، ثم قطعوا الطريق على الالمان.

الا ان مالينين لم يشارك في ذلك. فقد جرح في بداية المعركة عندما هجموا على طابور المانى. دافع الألمان عن انفسهم فاخترقت رصاصة بطن مالينين. وقد كان دوما يخشى هذا النوع من الجراح، فهو يتصور ان الجرح في البطن معناه الموت. وقد فكر بذلك منذ البداية فعندما هرع اليه كاراولوف وصاح: «فلاضمدك»، قال مالينين بصوت ابح مهتاج: «لا داعي لذلك، سأموت!». وفيما بعد، عندما ضمدته نفس الممرضة العجوز كوليكوفا التي وعدته في وقت ما بان تحمله من المعركة، ضمدته وسحبته على الثلج قال لها: «تمهلي، سانهض» ورفع بدنه قليلا ثم نهض بالفعل، وفكر: «طالما نهضت فانا حي!». صحيح انه خطا ثلاث خطوات فقط، ثم تلقفته الممرضة ومقاتل كان قربها بالصدفة، ولكنه منذ ان حقق المعجزة بخطواته الثلاث لم يعد متأكدا بانه سيموت.

مما ساعده على تحمل الالم وعدم الصراخ كونه لم يعد واثقا من موته بالاضافة الى كونه مفوضا لكتيبة يرقد جرحاها حواليه. ومما ساعده على عدم الصراخ ايضا انه لم يشعر، فور اصابته، باللامبالاة ازاء كل ما يجرى حواليه، كما يحدث عادة لذوى النفوس الاضعف. فقد ظل يعيش على متابعة ما يجرى وراء الحائط، ويتسمع الى اصوات القتال ويوضح للجرحى الآخرين، حسب تصوراته، ما يجرى في الخارج.

واتضح ان تقديرات سربيلين صائبة. فحالما وصلت كتيبة ريابتشينكو الى الطريق العام من مؤخرة القوات الالمانية، اخذ الالمان ينسحبون من المحطة على عجل. الا ان الكتيبة فعلت اكثر مما امرت بفعله. فقد امتطت الطريق العام واستمرت في صد هجمات الالمان المنسحبين حتى اضطرتهم الى ترك

آلياتهم والاستدارة نحو الحقل. وعند ذاك ترك باغلوك الذى تحسس الموقف جيدا ريابتشينكو على الطريق مع نصف عدد المقاتلين، وتوجه الى اليمين عبر الحقل الثلجي ايضا، واستولى هناك على حي لا اسم له مكون من ثلاثة منازل واستحكم فيها واطلق النار من عدة رشاشات من هناك فارغم الالمان على تجاوزه مبتعدين الى اعماق الحقل في الثلوج. ولم تكن قواه تكفى لاكثر من ذلك.

قام المضمد وكوليكوفا بتضميد الجرحى، فتجمعوا هنا، في الكوخ الخشبي، كلهم، بمن فيهم القادرون على المشي، لان ريابتشينكو كان يخشى ارسالهم الى المؤخرة الآن، في الليل. فالقادرون على المشي يمكن ان يتيهوا في الزوبعة الثلجية، اما الذين يجب نقلهم، مثل مالينين، فلا توجد واسطة لنقلهم. ولا يمكن توقع وصول تلك الزحافات الا في الصباح، والفجر قريب. ثم من يدرى الى اين اتجه الالمان في انسحابهم الآن؟ فالجرحى اذا توجهوا عبر الحقل الى المؤخرة في الليل يمكن ان يصادفوهم. الدم يتجمد في العروق من هذا الاحتمال.

خفتت المعركة على الطريق منذ نصف ساعة. ومن اليمين فقط، من المنازل التي شغلها باغلوك، تتهادى اصوات الرشاشات من وقت لآخر، وفي الامام تسمع اطلاقات نادرة ربما كانت توجه نحو الماتيين منفردين او باتجاه الزوبعة الثلجية التي قد يخيل للمرء انه يرى اشباحا فيها.

الكوخ الخشبي بارد رغم النار في فرنه. فقد اقتلع الباب من عروتيه، وحملت الريح اكواما من الثلج عبر فتحته وهي تتلاعب بالمشمع الذي سدت به. دست الممرضة كوليكوفا دلوا في الفرن لتذوب فيه الثلج، وراحت تحمل الماء بالقدر الى الجرحى. الماء دافئ عكر يعوم فيه القش.

مالينين عطشان، ولكنه لا يجوز له ان يشرب. فدعا كوليكوفا وقال لها:

– اسمعى، اذا كان عندك وقت اذهبي وانظرى هل نائب العريف سينتسوف قريب، واذا كان يمكنه ترك موقعه فليمر على طالما الوضع هادئ.

– حسنا – قالت كوليكوفا على مضض – حبذا لو نمت. ألم يكفك الوقت للكلام في السابق؟ ستتكلم كثيرا في المستشفى عندما تشفى... اما الآن فالافضل ان تصمت.

– كيلا تخرج الروح من الجسد مع الكلمات؟ أليس كذلك؟

الزوبعة تعوى في فتحة الباب. انصرفت المرأة فشيعها مالينين بنظراته ثم اغلق عينيه وفكر بانه اذا استمرت الخسائر على هذا المنوال، مثلما كانت

عليه اليوم، فيجب الحصول على امدادات باسرع ما يمكن، والا فلن نطرد الالمان. «فكيف ذلك؟ وكم هو كبير عدد الذين لن يطول بهم العمر ولن يروا ... وما اتعس هذه الحياة اذا كان الناس يموتون كل يوم بكثرة لا تعد ولا «تحصى!» سمى الحرب ذهنيا بالحياة التعيسة. وهي كذلك بالفعل، لان الحرب كانت حقا حياة تعيسة، مع انه حكم على نفسه بهذه الحياة التعيسة بمحض ارادته، وكان يعتقد بانه لا يستطيع ان يفعل غير ما فعل.

فكر بابنه الراقد في المستشفى مبتور اليد اليمنى، وسمع، دون ان يفتح عينيه شخصا يناديه بصوت خافت: «مالينين، مالينين ...» — وكأنه يريد ان يتأكد مما اذا كان نائما ام لا. سمع ذلك الصوت ففتح عينيه معتقدا بانه سينتسوف. الا ان الذي وقف امامه ليس سينتسوف بل آمر الكتيبة ريابتشينكو الذي تغيرت هيئته تماما. وجهه الفتي مغطى بشعر كث اشقر، فبدا عجوزا بسبب الارهاق الشديد. وقف منحنيا على مالينين بمعطف الخيالة الذي تمزق واتسخ الى حد السواد في الضحى عندما سحب الجذوع المشتعلة مع المقاتلين. وكانت يده اليسرى التي جرحت قبيل الهجوم ملفوفة بشاش اسود، اما يده اليمنى فقد استند بها متثاقلا على عصا من معول محطم. وكانت اصابع رجله اليمنى متجمدة فلا يستطيع السير الا على كعبه.

بهذه الهيئة وقف امام مالينين آمر كتيبته الملازم الاول ريابتشينكو، ذلك الشاب الذي رأى كل المصائب في اعوامه الاثنين والعشرين وانسحب مع القوات المنسحبة حتى وصل الى موسكو وها هو اخيرا يتقدم منذ يومين في الهجوم بضواحيها، وقد جرح ثلاث مرات ولم يغادر صفوف المحاربين في مرتين منها، وتجمدت اصابعه. وقف امام مالينين آمر كتيبته ريابتشينكو الذي بدا وكأنه ابنه.

— لماذا جئت يا آمر الكتيبة؟ — سأل مالينين دون ان يفهم بان صوته خافت جدا بسبب الخور والالم، ودون ان يفهم بان ريابتشينكو لهذا السبب بالذات، وليس غيره، انحنى عليه ليسمع ما يقول — لماذا جئت؟ — كرر مالينين السؤال.

— لأرى الجرحى.

— كيف يسير القتال؟

— بشكل طبيعي — تطلع ريابتشينكو الى مالينين والقى نظرة على سائر الجرحى، وانطبعت على ثغره ابتسامة فتية عبر التعب والارهاق — لن اصبر حتى الصباح، فأنا شديد الرغبة في رؤية ما حققناه! ذهب الشبان الى الامام ويقولون ان السيارات الالمانية غاصت في الثلج في كل ارجاء الحقل.

— ستحسبها عندما يطلع الفجر.

ولان مالينين قال «ستحسبها» وليس «ستحسبها»، كما ينبغي ان يقول عادة في وقت غير هذا الوقت، فكر ريابتشينكو بأسى ان الزحافة التي بعث شخصيا للحصول عليها مهما كلف الامر ستصل عند الفجر وسيرتحل مالينين عنه وعن الكتيبة ولن يرى احدهما الآخر بعد الآن، فحتى لو ظل مالينين على قيد الحياة فمن المستبعد ان يرسلوه في هذا العمر وبعد هذا الجرح الثخين، الى الجبهة مجددا، ناهيك عن الكتيبة في الخط الامامي. «كيف يرسلونه بمثل هذه الحال؟» — فكر ريابتشينكو، ولكنه قال بحزن:

— كيف حالك؟ — قال ذلك لانه لم يجد الكلمات التي يعبر بها عن قلقه على مالينين.

— لا بأس — اجاب مالينين — لن نهلك هنا. فنحن راقدون نتدفأ قرب الفرن. اذهب لاداء واجباتك ولا تتركها بسببنا — وتذكر من جديد ما طلبه من الممرضة فرجا ريابتشينكو ان يبعث اليه سينتسوف ان امكن. فلديه قضية ...

هز ريابتشينكو رأسه، فهو يعرف تلك القضية.

وقال له مالينين:

— اذهبْ، انك شاب، ولكنك تشبه شيخا يسير متوكئا على عصاه — ابتسم مالينين، ولكن ابتسامته تشوهت فجأة بسبب نوبة من الالم، حتى كادت الدموع تنهمر من عيني ريابتشينكو.

— اذهب، اذهب ... — كرر مالينين وهو ينظر مباشرة وبصرامة الى عينيه الدامعتين، وكأنه يضيف ليس بالكلمات، بل بقوة مشاعره: «اذهب وعش. حافظ على حياتك. ارجوك! انت لا تزال شابا، عمرك بنصف عمري، ويجب ان تبقى حيا! واذا كان يتعين على احد ان يبقى حيا فهو انت بالذات ... عش، ارجوك، هل انت سامع يا آمر الكتيبة، يا ريابتشينكو!».

واستدار ريابتشينكو متوكئا على عصاه وانصرف على عجل لان مظهر الجرحى بالنسبة له دوما اقسى من اي مشهد يصعب عليه ان يراه في الحرب. خرج ريابتشينكو، ولكن مالينين ظل يتطلع الى المشمع المتطاير على باب الكوخ الذي تحمل الريح من تحته مزيدا من الثلوج. والى جانبه ينبعث انين حزين رتيب من مقاتل جريح في بطنه، وهو يطلب ماءا طوال الوقت مع انه شأنه شأن مالينين لا يجوز له ان يشرب.

33-287

طلب مالينين حضور سينتسوف لانهم سينقلونه قريبا، ولن تبقى لديه فرصة اخرى ليخبره بالرسالة التي بعثها الى الشعبة السياسية. ولكنه الآن، وهو ينتظر وصول سينتسوف، لم يعد يفكر في ذلك. كان يفكر بنفسه وهو بدون كتيبته، وبكتيبته بدونه.

تصور نفسه كشخص القي من القطار والقطار في اقصى سرعته. فقبل لحظة كان يتحرك مع الجميع، وها هو راقد على الارض يتطلع الى الكتلة الهائلة المسرعة امامه والتي كان فيها قبل قليل ولن يكون فيها بعد الآن! الحرب تفرق بين الناس في كل ساعة: الى الابد او مؤقتا، بالموت او التعويق او الجراح. ومع ذلك، ومهما رأى المرء من مشاهد الفراق، فانه لا يفهمه على حقيقته الا عندما يداهمه شخصيا.

لم يتعود اطلاقا على ان يجري شيء في الكتيبة بدونه. اما الآن فكل شيء يجري فيها بدونه. وهو الآن لا يعمل من اجل الناس، بل يتعين عليهم هم ان يشحنوه باسرع ما يمكن في زحافة تنقله الى المؤخرة. اما الكتيبة فستواصل زحفها. ولن يتمكن من اللحاق بها، ولا من السير مع افرادها ولا من رؤيتهم او مناداتهم. ما الذي بوسعه ان يفعل من اجلهم؟ لا شيء. وهو اذ يفكر على هذا النحو انما يفكر بنفسه طبعا. ذلك شيء طبيعي تماما. ومع ذلك فهو على العموم او بالاساس، كما اعتاد على القول احيانا بلغته المكتبية، يفكر بالآخرين وليس بنفسه. انه يفكر بهم الآن ايضا، وهو جريح. وفي حالته هذه فجد عادة الكثير من الناس غير السيئين اطلاقا، بل والطيبين تماما، يفكرون كليا بانفسهم فقط، وكأنهم يعوضون عن تلك الايام والليالي التي لم يفكروا فيها بانفسهم الا قليلا ابان الحرب! ولعل مدى تفكيره بالآخرين، الآن ايضا، اكثر من تفكيره بنفسه، هو الجانب الاهم والاقوى فيه، هو مالينين، ذلك الكهل المصاب بجرح ثخين.

قبل ساعتين عرف سينتسوف ان مالينين جرح في بطنه وان جرحه ثخين، ولكنه لم يستطع ان يأتي اليه لانه كان مشغولا بالقتال في البداية، ثم عندما هدأت المعركة، لم يستطع ترك موقعه بدون امر.

وعندما امره ريابتشينكو بالذهاب جاء الى هنا ورأى مالينين بحالة سيئة جدا، فاكتسى وجهه، رغما عنه، بحزن عميق جعل مالينين يدرك ان سينتسوف بوجهه التعيس يحكم عليه بالموت. ادرك مالينين ذلك ورفضه.

— لماذا تنظر الي هكذا؟ انت لست قسا، وانا لم ادعك لتدفنني... عندي قضية معك، ولذا دعوتك.

وضع سينتسوف بندقيته الرشاشة على الارض وجلس قربه.

ومع ان مالينين يشعر بضعف شديد، فان همسه الابح غدا اقوى عندما اغتاظ، وتمكن سينتسوف من سماع كل ما قاله مالينين.

— انا متأسف لانى لا استطيع ان اجعلك تحل محلي — قال مالينين وهو يتطلع الى عيني سينتسوف.

لم يجبه سينتسوف. وما الذي يجيبه به؟ فهل هو بحاجة الى الشكر؟..

— عندما يعيدون اليك العضوية في الحزب لا تلتحق بجريدتك — قال مالينين وقد ظل يتطلع في عيني سينتسوف.

«لا اريد الذهاب الى اية جريدة! فهل انا اسعى من اجل ذلك؟» — اراد سينتسوف ان يصرخ، ولكن نظرته التقت من جديد بنظرة مالينين فادرك ان مالينين لا يفكر بذلك اطلاقا، سوى انه لا يريد لسينتسوف ان يترك كتيبته الى اى مكان لا الآن ولا فيما بعد! فهو سيكون مطمئنا اذا علم بان سينتسوف باق هنا، في الكتيبة.

— اسمع ... هل تعلم لماذا دعوتك؟.. — قال مالينين بعد ان صمت لحظة وانتظر مرور نوبة الالم. لم يتكلم في البداية، بل قبيل النهاية، لانه يعتبر ذلك اهم شيء يريد ان يقوله لسينتسوف، مع ان ذلك لم يكن هو الشيء الرئيسي بالنسبة لسينتسوف نفسه فالشيء الرئيسي هو ما قاله له مالينين قبل ذلك — كتبت امس الاول...

وفي تلك اللحظة اطلقت على مقربة كبيرة من الكوخ نيران كثيفة من بنادق المانية واطلق رشاشنا صلياته. فالتقط سينتسوف بندقيته دون ان يتسنى له الوقت كي يودع مالينين، بل ودون ان يفكر بتوديعه، وعبر الكوخ بثلاث قفزات وظهر في فتحة الباب التي ازداد وراءها اطلاق النار.

ظل مالينين يستمع متوترا خائر القوى الى اطلاق النار وراء الحائط. في البداية كانت لعلعة الرصاص عالية كثيفة، ثم اخذت تتقلص بالتدريج حتى خفتت وابتعدت اكثر فاكثر... كان يستمع الى هذه الاطلاقات ويفكر بارتياح ان الهجوم قد صد وان المعركة تشرف على الانتهاء، ولكنه لا يعرف بان الهجوم لم يصد وان المعركة لم تشرف على الانتهاء. فقد انتابته الغيبوبة ولم يعد يسمع شيئا...

عاد مالينين الى رشده، وكان كل شيء حواليه ابيض ناصعا. تتساقط من السماء البيضاء حبات ثلج صغيرة متباعدة. ورأى بطرف عينه من اليسار واليمين الثلوج البيضاء العالية تمتد حتى الافق. كان راقدا على ظهره في

الزحافة، والزحافة تنزلق متمايلة بهدوء على الثلج. ورقد جنبه، بضيق شديد، شخص آخر. وعند رأسه كان السائس يستحث الحصان بصوت رفيع بين الحين والآخر، وعند قدمى مالينين جلس فى عرض الزحافة كاراولوف بساقه المكسورة، كما يبدو، فوق الركبة والممدودة على خشبة والملفوفة مع الخشبة بالشاش. كان جالسا يدخن محتميا من الريح. وفى الخلف زحافتان اخريان لا يرى سائس الزحافة الابعد، اما سائس الزحافة الاقرب فهو مقاتل لا يعرفه جلس على مقدمة الزحافة وعينه مضمدة بشاش ملطخ بالدم.

عاد مالينين الى رشده ورأى ذلك كله، ولكنه ظل صامتا بضع دقائق وهو ينصت الى الالم المكبوت الذى يمكن تحمله فى بدنه. وقد خيل اليه، بعد ألم الامس، ان هذا يكاد لا يعتبر ألما.

«يبدو انى حى» - فكر بذلك، وقبل ان ينادى كاراولوف حرك يده بهدوء ليتلمس من يرقد قربه.

كان الى جانبه جثة مسجاة على جنبها وظهرها الى مالينين. فحالما بدأ مالينين يتلمسها ارتطمت يده بيدها الجامدة التى نتأت اصابعها الباردة كغصون صغيرة يابسة. وسأل مالينين:

- من هذا الذى توفاه الله؟

التفت كاراولوف فرحا عندما سمع صوت مالينين.

- كنت طوال الوقت اتمنى ان تفيق انت على الاقل من غيبوبتك! - قال كاراولوف وحرك رجله بكلتا يديه متألما.

- من هذا؟ - سأل مالينين من جديد دون حراك وهو يومىء بعينيه الى الميت الراقد قربه.

- غريشايف - قال كاراولوف - عندما وضعوه فى الزحافة كان حيا.

غريشايف هو الجندى الشاب الجريح فى البطن والذى كان يئن فى الكوخ الخشبى ويشكى لانهم لم يعطوه ماءا. وهو الآن راقد جثة هامدة باردة يثقل ظهرها على كتف مالينين. وتذكر مالينين كيف رقد فى نوفمبر، اثناء الانسحاب، لينام قليلا فى مستودع بارد لدرس الحبوب. عندما رقد هناك شعر فى البداية ببرد شديد فلم يعد يعرف فى المنام، بسبب ذلك، ما اذا كان نائما فعلا ام لا. وبعد ذلك شعر بالدفء، وغط فى النوم، وعندما استيقظ رأى جنديين - احدهما غريشايف هذا - ملتصقين به من كلا الجانبين وقد فتحا معطفيهما وغطياه بطرفيهما لكى يغفو قبيل المعركة:

- متى جرحت ياكاراولوف؟

- فى الصباح الباكر - قال كاراولوف مكتئبا - ذهبت لارى السيارات التى تركها الفاشيون فى الحقل ليلا، وكان هناك احد السفلة مختبئا فالقى بقنبلة يدوية من قمرة سيارة.

- هل استولينا على سيارات كثيرة؟

- كثيرة. منتشرة فى الحقل كله. لا ادرى كم عددها. بدأوا يعدونها عندما كنت هناك...

- ماذا؟ هل تركوكم فى النسق الثانى؟

- كلا. نقلونا بالزحافات، ووصل باغلوك ليصدر الامر بالهجوم.

- يعنى ان باغلوك حى، أليس كذلك؟

- بلى.

- وريابتشينكو؟

- حى ايضا. ولكن اصابعه تجمدت جدا.

- كم عدد الجرحى الذين نقلوهم؟ على هذه الزحافات الثلاث فقط؟ - سأل مالينين مهتما وراح يقدر عدد الجرحى الذين كانوا فى الكوخ، بالاضافة الى الذين جرحوا فى القتال الذى نشب فيما بعد...

- ليست ثلاثا فقط - قال كاراولوف - ففى الامام زحافتان اخريان. وفى جميع الزحافات عشرون شخصا. اما المصابون بجروح طفيفة فقد توجهوا بانفسهم الى نقطة التدفئة فى القرية التى وصلها قائد الفرقة.

عندما تذكر مالينين الجرحى الآخرين تذكر من جديد ألمه، فاغلق عينيه وراح ينصت اليه.

- ألا تريد ان تدخن؟ - سأله كاراولوف - استطيع ان الف لك سجارة.

- لا اريد - اجاب مالينين، وهو يشعر بطعم القىء البغيض الثقيل الذى يداهم فمه - كم ساعة نحن فى الطريق؟

- حوالى اربع ساعات - قال كاراولوف - صادفنا فى الطريق قائد الجيش. صادفناه من زمان، فى البداية. اقترب منا وسأل: من انتم؟ من اية وحدة؟ ولكنك كنت فى غيبوبة. كان مرحا، وقال: الامور جيدة! اتمنى لكم الشفاء. سنلتقى فى ضواحى سمولينسك!

«حسنا، لو ان الامر كذلك!» - فكر مالينين ثم سأل عن واسطة النقل التى يستخدمها القائد فى مثل هذا الثلج.

- سيارة شحن. كان جالسا فى القمرة. غاصت سيارته فى الثلج، وعندما كانوا يدفعونها جاء هو الينا.

لزم كاراولوف الصمت، اما مالينين فرغم ان حديث كاراولوف عن لقائهم بالقائد قد افرحه، الا انه فكر بحزن ان سمولينسك لا تزال بعيدة جدا. فالاقوال اقوال، والافعال اصعب. ثم ان المسافة بعد سمولينسك مئات الكيلومترات وكلها اراضينا، وكلها محتلة، وفيها ملايين المواطنين. فهل من السهل استعادتها؟

ربما يلعب دورا معينا في مشاعره الآن جرحه وعدم ثقته بما اذا كان سيستطيع العودة الى الجبهة ام لا. ولكن الشيء الرئيسي هو نظرته الواقعية الى الاشياء، تلك النظرة التي تكونت عنده خلال حياته الطويلة العسيرة: فكل ما يصادفه يتطلب جهدا كبيرا، فكيف بالحرب؟

– هل صحيح اننا سنحرر سمولينسك قريبا؟ – تهادى صوت من وراء ظهر مالينين.

خيل لمالينين منذ البداية ان الحصان يسوسه اما غلام واما امرأة. وقد فهم الآن انه لم يخطىء. فالصوت المتسائل كان صوتا طفوليا تماما، صوتا رقيقا لم يكتمل بعد.

– من انت؟ – سأله مالينين – كم عمرك؟

– خمسة عشر عاما تقريبا.

– انه من حي المنازل الثلاثة – قال كاراولوف موضحا – جاء مع حصانه.

– حسنا فعل – قال مالينين باسما – فنحن جنود ويمكن ان لا نعيد له حصانه.

– ليس لهذا السبب – زعل السائس الذي لا يراه مالينين – فانا استطيع ان ابقى عندكم في الوحدة العسكرية.

– اعتذر اذن.

– ايها الملازم، اعطني سجارة! – قال الصبي بصوت شجاع ولكنه يكاد يخلو من الثقة.

اكتسى وجه كاراولوف بمسحة صارمة، ولكنه مع ذلك اخرج سجارة اللف من فمه، فهي لم تنته بعد، وقطع طرفها وسلمها الى اليد الطفولية التي امتدت فوق رأس مالينين حمراء من الصقيع.

– انني اعرف هذا المكان – قال مالينين والقى نظرة جانبية على الطريق.

انتصبت على الطريق. دبابتان المانيتان بشكل لا بد وان تحتفظ به الذاكرة. فان مدفع احداهما موجه نحو برج الثانية وهما الدبابتان اللتان قال عنهما، عندما مروا بهما امس، ان الالمان صبوا البنزين منهما. وذلك

يعني ان الزحافات قطعت في طريق العودة زهاء عشرين كيلومترا، وان الكتيبة تقدمت الى الامام مسافة كبيرة منذ صباح امس...

فكر مالينين بذلك، فسأل من كاراولوف عن الشخص الذي عينه ريابتشيكو آمرا للفصيلة بدلا منه، وسمع الجواب الذي توقعه: «سينتسوف!». وتذكر بحزن انه لم يتمكن من اخبار سينتسوف بالرسالة التي بعثها الى الشعبة السياسية. وعندما فكر بهذه الرسالة من جديد لم يكن يعرف ان اتهامه للجنة الحزبية للفرقة بالمماطلة لا مبرر له. فهي ليست مذنبة.

فان احد المسؤولين في الشعبة السياسية للجيش طلب ملف سينتسوف الحزبي من اللجنة الحزبية للفرقة، لانه قرأ لقب سينتسوف فتذكر احدى الوثائق التي رآها بحكم عمله. وكانت تلك الوثيقة عبارة عن ورقة مستلة من دفتر ومكتوبة بخط كبير على طريقة الجنود. فان الجندي زولوتاريف الذي خرج من الحصار ووصل الى قطاع هذا الجيش كتب الى الشعبة السياسية عن ملابسات مقتل المرشد السياسي ا. ب. سينتسوف وطلب اشعار عائلته بالوفاة ان امكن. ولم يكن هناك مجال للقيام بشيء فيما يخص هذه الرسالة، الا ان المسؤول المذكور لم يرغب في تمزيقها، وهي موجودة الآن مع عريضة نائب العريف سينتسوف التي يطلب فيها اعادة العضوية له، في ملف كتب عليه «يحال»، ولكن لا احد يمكن ان يحال اليه. فقد بدأ الهجوم، ومدير الشعبة السياسية للجيش المفوض مكسيموف في الخط الامامي للجبهة منذ ثلاثة ايام.

– يعني ان سينتسوف حل محلك، أليس كذلك؟ حسنا! – قال مالينين لكاراولوف بعد صمت قصير. قال ذلك وكأنه لا يزال في الكتيبة ويتمنى الحصول على موافقته بهذا الخصوص – وآمر الكتيبة هل رفض مجددا مغادرة الجبهة للعلاج؟

– رفضا باتا – قال كاراولوف باستحسان.

– طائراتهم ام طائراتنا؟ – سأل مالينين عندما سمع دويا في الجو واحس بان الصبي وراءه قد ارتعش. فاجاب كاراولوف:

– طائراتنا.

اجتازت سماء الشتاء المائلة الى البياض فوق رؤوس الجرحى، من الشرق الى الغرب اربعة اسراب من طائراتنا الواحد تلو الآخر، وفي كل منها تسع قاذفات قنابل. توقفت الزحافة، والتحقت بها الزحافتان الآخريان حتى كادتا ترتطمان بها.

وراح الصبي السائس وكاراولوف ومالينين يتطلعون الى السماء بنفس القدر من الارتياح والامتنان.

— ماذا؟ هل ذهبت ؟ ألا تراها؟ — سأل مالينين ولم يعد يسمع الدوي وهو عاجز عن النهوض على مرفقيه ليشيع الطائرات بنظراته .

— لا ازال اراها ... لم اعد اراها . ذهبت — قال كاراولوف وقد لاحق النقط السوداء الصغيرة بنظراته حتى اختفت في الافق .

سارت كتيبة ريابتشينكو نحو الغرب على بعد عشرة كيلومترات من الكوخ الخشبي الذي اغمي على مالينين فيه، وثلاثين كيلومترا من المكان الذي تسير فيه الآن قافلة الزحافات المحملة بالجرحى متجهة الى المؤخرة . سارت الكتيبة في الثلج العميق فرحة لان الزوبعة الثلجية قد هدأت اخيرا .

والآن ، بعد تحرير محطة فوسكريسينسكويه، اندفع الى الامام فوجا سربيلين الآخران الاقل تضررا في معركة الامس . ولذا سارت الكتيبة منذ الصباح دون ان تطلق النار، وهي تصادف احيانا السيارات الالمانية المتروكة بين الثلوج وجثث الجنود القتلى، والمتجمدين . سارت الكتيبة بدون اطلاق النار لامد محدود طبعا، فمن اليمين واليسار يصل هدير المدافع مع هبات الريح، وفي الامام، عند الافق، اندلع الحريق من جديد في نصف الساعة الاخير .

سار سينتسوف وكوماروف وجنديان آخران، وهم البقية الباقية من فصيلتهم، الواحد تلو الآخر، خلف ريابتشينكو الممتطي ظهر الحصان . كان يتعين عليه من زمان ان يذهب الى الكتيبة الصحية، ولكنه لم يستسلم لهذه الضرورة، فسار وقد اطلق رجله المتجمدة من الركاب، وبرزت عصاه التي اعدت له يوم امس من السرج وراءه تحوطا لما إذا كان سيضطر الى النزول .

اسرع كوماروف فسار بمحاذاة سينتسوف، وسأله :

— ماذا تعتقد، يا نائب العريف، هل ستصل الامدادات قريبا؟

— من اين لي ان اعرف ؟ — هز سينتسوف كتفيه، ولكنه فكر بان الامدادات لن تصل ما لم يتوقفوا وما لم يصطدموا بالالمان في مكان ما . فالامدادات لن تصلهم بالسيارات في مثل هذا الثلج العميق، ولن تلحق بهم سيرا على الاقدام طالما ظلوا يسيرون مثلما يسيرون اليوم دون توقف .

كوماروف مكتئب لجسامة الخسائر في فصيلتهم وهو ينشد الدعم الروحي من سينتسوف آمر مفرزته الذي غدا آمرا للفصيلة، اما سينتسوف نفسه فيفكر بانه لولا كوماروف الذي انجده في الليل قرب الكوخ الخشبي واردى

الالماني الذي هجم في آخر لحظة لما ظل سينتسوف على قيد الحياة الآن ولما تمكن الآن من التفكير بشيء، حتى بما اذا كانت ستنشب اليوم معركة ام لا، وما اذا كان سيبقى سالما في تلك المعركة ام لا .

ولكنه لم يكن راغبا الآن في ذكر ذلك كله بالكلمات، فاكتفى بان اعرب عنه صامتا بالنظرات وتطلع في عيني كوماروف شاكرا وممتنا . وسأله كوماروف :

— ماذا تعتقد؟ هل سنلحق بالالمان اليوم؟

وادرك سينتسوف وهو يتطلع الى عينيه ان كوماروف يشعر الآن بنفس الشعور الذي يراود سينتسوف فهو راغب في اللحاق بالالمان من جديد، وهو يأسف لتضييع فرصة الاستراحة التي صارت من نصيبهم بعد معركة الامس .

— يبدو اننا سنلحق بهم . فنحن نرى الدخان من جديد! — اجاب سينتسوف في محاولة لاخماد ذاك الشعور، واسرع في مشيته .

الدخان يتصاعد في قرية التهمتها النيران وسط الثلوج في المكان الذي يسرعون اليه الآن . ويحجب آمر الكتيبة ريابتشينكو السائر على ظهر جواده امام سينتسوف هذا الدخان ببدنه تارة، ويكشف عنه تارة اخرى عندما يتعثر الحصان ويميل الى جانب ما .

— كوماروف، يا كوماروف!

— ماذا؟

— اعطني سجارة .

— ما الداعي للتدخين على الماشي؟

— لا ادري . شعرت برغبة مفاجئة ... — لم يوضح سينتسوف لماذا شعر بتلك الرغبة . فقد استولت عليه لانه حاول، وهو يتطلع الآن الى ذلك الدخان البعيد في الامام، ان يرغم نفسه على التعود على فكرة عسيرة : فمهما كان ما عانوه وتحملوه كبيرا، فان حربا كاملة لا تزال تنتظرهم ...

١٩٥٥-١٩٥٩

قسطنطين سيمونوف

ولد قسطنطين سيمونوف (١٩١٥ - ١٩٧٩) في بتروغراد (لينينغراد حاليا). واشتغل برادا في احد المصانع بعد انهاء الدراسة الثانوية. في عام ١٩٣٨ تخرج من معهد غوركي للآداب في موسكو. ومنذ ذلك الحين تفرغ للادب. وفي عام ١٩٣٩ صدر كتابه الاول. كان الكاتب آنذاك موجودا في منطقة المعارك على نهر خالخين - غول، حيث اشعل العسكريون اليابانيون لهيب نزاع مسلح بغية الاستيلاء على جزء من اراضي منغوليا التي تربطها علاقات صداقة بالشعب السوفييتي. وقد توجه سيمونوف الى تلك المنطقة بوصفه مراسلا حربيا لجريدة عسكرية، ولكنه ساهم مباشرة في المعارك الدموية الطاحنة.

في سنوات الحرب الوطنية العظمى التي خاضها الشعب السوفييتي ضد الفاشية الهتلرية (١٩٤١ - ١٩٤٥) كان سيمونوف مراسلا حربيا خاصا للجريدة العسكرية المركزية «النجم الاحمر». وفي ايام الحرب حاز سيمونوف على اعتراف شعبي شامل حقا. ومن اولى الخطوات على هذا الطريق نشر قصيدة «انتظريني» (كانون الثاني - يناير ١٩٤٢). اعيد طبع هذه القصيدة مئات المرات في جرائد الجبهات وفي المناشير. وكان الجنود يستنسخونها من بعضهم البعض. وعثر في جيوب المحاربين الجرحى والقتلى على وريقات مصبوغة بالدم وقد كتبت عليها ابيات هذه القصيدة...

لم تكن شهرة سيمونوف هبة من الاقدار، وانما ارتبطت بمجمل نشاطه في سنوات الحرب. فقد كان سيمونوف في الوحدات العسكرية التي تمكنت في تموز ١٩٤١ من فك الحصار الدموي المضروب حولها في بيلوروسيا. وهبط سيمونوف مع جنود الانزال على القرم، وساهم في معارك السلاح الابيض هناك. وتسلل مع الاستطلاعيين الى مؤخرة العدو وراء الدائرة القطبية. وتواجد

في خنادق ستالينغراد. وليس من قبيل الصدفة ان الاربع مجموعات من المقالات التي كتبها اثناء الحرب تحمل عنوان: «من البحر الاسود الى بحر بارينتس». كان سيمونوف حاضرا في جميع الجبهات.

قطع قسطنطين سيمونوف مع الجيش السوفييتي كل طريق الانسحاب الفاجع حتى نهر الفولغا وعانى من كل ما عاناه المواطنون السوفييت في الحرب، ثم قطع مع القوات السوفييتية طريق التحرير حتى حدود الاتحاد السوفييتي وساهم في تحرير رومانيا وبلغاريا ويوغسلافيا (حيث قاتل الى جانب الانصار) وبولونيا والمانيا، وشهد آخر معارك برلين.

غدت الحرب الوطنية العظمى الموضوع الرئيسي في نتاج سيمونوف من ملاحم وقصائد غنائية ومسرحيات وقصص وروايات ومقالات صحفية واجتماعية.

في عام ١٩٥٩ صدرت روايته «الاحياء والاموات». ومن خلال مصير بطلها الرئيسي الصحفي سينتسوف والاشخاص الذين التقى بهم بحكم الضرورة الصارمة النابعة من الحرب تبدو لوحة النضال الشعبي الشامل ضد الغزو الفاشي، لوحة المصيبة الكبرى والبطولة العظمى. وفي الرواية صورة رمزية يتقبلها المرء باعتبارها الصورة الاساسية فيها، وهي تعبر عن حصيلة معاناة المواطنين خلال شهور الانسحاب الذي لا يطاق: «ظهرت لدى الناس بالتدريج حالة نفسانية اخرى هي حالة النابض المشدود الى اقصى حد وباكبر قدر ممكن من القوة والجهد، ولكنه يحتفظ بقدرته على الامتداد والمقاومة مهما بلغ الضغط المسلط عليه. ان هذا الشعور بالذات، هذه الحالة البدنية والروحية، هذه القدرة الباطنية على المقاومة وتسديد الضربات، هي التي استولت في تلك الايام على الناس الذين ازاحهم الالمان ببطء ووحشية من خط الى آخر وهم يقتربون من موسكو اكثر فاكثر». تلك هي الحوافز النفسانية لما جرى في معركة موسكو شتاء ١٩٤١، وما نعته العالم كله فيما بعد بالمعجزة.

وعلى اثر رواية «الاحياء والاموات» صدرت رواية «رحى الحرب» المكرسة لحماة ستالينغراد البواسل ورواية «الصيف الاخير» المكرسة لاحداث الحرب في صيف ١٩٤٤، لعملية «باغراتيون» التي اسفرت عن وصول قواتنا الى حدود الاتحاد السوفييتي في كل المواقع. وفيما بعد جمع سيمونوف هذه الروايات في ثلاثية بعنوان «الاحياء والاموات». وحازت هذه الثلاثية على جائزة لينين. ومما لا جدال فيه ان ثلاثية «الاحياء والاموات» هي الآن اكبر مؤلف عن الاحداث الفاجعة والبطولية في تاريخ وطننا.

كان سيمونوف يتحلى بقدرة مدهشة على العمل . فلم يمر عام الا وتسلم فيه القراء مؤلفات جديدة من نتاجه . فقد اصدر سلسلة قصصية بعنوان «من مذكرات لوباتين»، وهي ذات صلة مباشرة بالثلاثية . واصدر مجلدين من اليوميات بعنوان «أيام شتى . من مفكرة الكاتب الحربية» . وعمل سيمونوف الكثير من اجل السينما والاذاعة والتلفزيون . كان قسطنطين سيمونوف شخصية اجتماعية بارزة، وقد ساهم في الندوات الدولية ومؤتمرات انصار السلام والكتاب ورجالات الثقافة والفكر . وغدا بذلك مثالا للكاتب الجديد الطراز الذي يعتبر قضايا بلاده وآدابها قضايا صميمة له .

الناشر .

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب، وشكل عرضه، وطباعته، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار، ١٧
موسكو — الاتحاد السوفييتي